المحجة البيضاء

في تهذيب الإحياء

تأليف

المحقق العظيم والمحدث الكبير الحكيم المتأله محمد بن المرتضى المدعو

بالمولى محسن الكاشاني ره

المتوفى ١٠٩١ هـ

الناشر

مكتبة الصدوق

طهران - بازار سراي اردیبهشت

B
753
.G33
I54
v. 7

10283900

JAN 23 1973

DATE DUE | DATE DUE

GL JUN 18 1981

10283900

INSERT

BOOK CARD
PLEASE DO NOT REMOVE.
A TWO DOLLAR FINE WILL
BE CHARGED FOR THE LOSS
OR MUTILATION OF THIS CARD.

CALL NUMBER / MAIN ENTRY

LOC

Columbia University
in the City of New York

IN LVMINE TVO VIDEBIMVS LVMEN

THE LIBRARIES

PRINTED IN U.S.A.
JTC 22693

SURPLUS
DUPLICATE

المحجة البيضاء

في تهذيب الأحياء

تأليف

المحقق العظيم والمحدث الكبير الحكيم المتأله محمد بن المرتضى المدعو

بالمولى محسن الكاشاني ره

المتوفى ١٠٩١ هـ

صححه وعلق عليه علي اكبر الغفاري

الجزء السابع

الناشر

مكتبة الصدوق

طهران - بازار - سراي اردبيهشت

جنب مسجد سلطاني تلفن ٥٦٥١٣

چاپخانه حيدري

١٣٤٢ هـ ش

B
753
.G33
I54
v.7

حمداً لك يا من جعل الحمد مفتاحاً لذكره و طريقاً من طرق الاعتراف بوحدانيّته ، و سبباً لمزيد فضله و إنعامه ، و محجّة بيضاء لطالبي فضله و إحسانه .

و صلاة على رسولك الأعظم ، والهادي إلى صراطك الأقوم ، و على آله أئمّة الهدى ، و مصابيح الدجى .

6
Copy____
4503 H
18 F64

كتاب التوبة

و هو الكتاب الأوّل من ربع المنجيات من المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء

بسم الله الرّحمن الرّحيم

وبه نستعين

نحمد الله الّذي بتحميده يستفتح كلّ كتاب ، و بذكره يصدّر كلّ خطاب ، و بحمده يتنعّم أهل النّعيم في دار الثّواب ، و باسمه يتسلّى الأشقياء و إن أرخى دونهم الحجاب ، و ضرب بينهم و بين السّعداء بسور له باب ، باطنه فيه الرّحمة و ظاهره من قبله العذاب ، ونتوب إليه توبة من يؤمن أنّه ربّ الأرباب ، ومسبّب الأسباب ، ونرجوه رجاء من يعلم أنّه الملك الرّحيم الغفور التوّاب ، ونمزج رجاءنا بالخوف مزج من لايرتاب ، إنّه مع كونه غافر الذّنب وقابل التّوب شديد العقاب ، ونصلّي على نبيّه محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم و على آله وصحبه الأكرمين ، صلاة تنقذنا من هول المطّلع يوم العرض والحساب ، وتمهّد لنا عند الله زلفى وحسن مآب .

امابعد فإنّ التوبة عن الذّنوب بالرّجوع إلى ستّار العيوب و علاّم الغيوب مبدء طريق السّالكين ورأس مال الفائزين ، أوّل إقدام المريدين ، و مفتاح استقامة المائلين ، ومطلع الاصطفاء والاجتباء للمقرّبين ، ولأبينا آدم عليه السلام وعلى سائر النّبيّين ، وماأجدر بالأولاد الاقتداء بالآباء والأجداد ، فلاغرو إن أذنب الآدميّ واجترم ، فهي شنشنة يعرفها من أخزم ، ومن أشبه أباه فماظلم ، ولكنّ الأب إذاجبر بعد أن كسر وعمّر بعد أن هدم فليكن النزوع إليه في كلا طرفي النّفي والإثبات والوجود والعدم ، ولقد قلع آدم سنّ النّدم ، وتندّم على ماسبق منه وتقدّم ، فمن اتّخذه قدوة في الذّنب دون التّوبة فقد زلّت به القدم ، بل التجرّد لمحض الخير دأب الملائكة المقرّبين ،

MR JAN 8 1973 Exch.

والتجرّد للشرّ دون التلافي سجيّة الشياطين ، والرّجوع إلى الخير بعد الوقوع في الشرّ ضرورة الآدميّين ، فالمتجرّد للخير ملك مقرّب عند الملك الدّيان ، والمتجرّد للشرّ شيطان ، والمتلافي للشرّ بالرّجوع إلى الخير بالحقيقة إنسان ، فقد ازدوج في طينة الإنسان شائبتان و اصطحبت فيه سجيّتان ، وكلّ عبد مصحّح نسبه إمّا إلى الملك أو إلى آدم أو إلى الشيطان ، فالتائب قد أقام البرهان على صحّة نسبه إلى آدم بملازمة حدّ الإنسان ، والمصرّ على الطّغيان مسجّل على نفسه بنسب الشّيطان فأمّا تصحيح النّسب بالتّجرّد لمحض الخير إلى الملائكة فخارجٌ عن حيّز الإمكان فإنّ الشرّ معجون مع الخير في طينة آدم عجناً محكماً لا يخلصه إلّا إحدى النارين : نار النّدم أو نار جهنم ، فاحراق النّار ضروريّ في تلخيص جوهر الإنسان عن خبائث الشيطان وإليك الآن اختيار أهون الشرّين و المبادرة إلى أخفّ النّارين قبل أن يطوى بساط الاختيار و يساق إلى دار الاضطرار ، إمّا إلى الجنّة أو إلى النّار ، و إذا كانت التوبة موقعها من الدّين هذا الموقع وجب تقديمها في صدر ربع المنجيات و لنشرح حقيقتها و شرطها وسببها وعلامتها و ثمرتها والآفات المانعة منها والأدوية الميسّرة لها ويتّضح ذلك بذكر أربعة أركان :

الرّكن الأول في نفس التوبة وبيان حدّها وحقيقتها و أنّها واجبة على الفور و على جميع الأشخاص و في جميع الأحوال ، و أنّها إذا صحّت كانت مقبولة .

الرّكن الثّاني فيما عنه التوبة و هو الذّنوب وبيان انقسامها إلى صغائر و كبائر ، وما يتعلّق بالعباد و ما يتعلّق بحقّ الله ، و بيان كيفيّة توزّع الدّرجات و الدركات على الحسنات والسيّئات ، وبيان الأسباب الّتي بها تعظم الصّغائر .

الرّكن الثّالث في بيان شروط التوبة في دوامها و كيفيّة تدارك ما مضى من المظالم ، و كيفيّة تكفير الذّنوب ، وبيان أقسام التائبين في دوام التوبة .

الرّكن الرابع في السبب الباعث على التوبة و كيفيّة العلاج في حلّ عقدة الإصرار من المذنبين ويتمّ المقصود بهذه الأركان الأربعة إن شاء الله تعالى .

الرّكن الأوّل في نفس التوبة :

﴿ بيان حقيقة التوبة و حدها ﴾

إعلم أنّ التوبة عبارة عن معنى ينتظم ويلتئم من ثلاثة أمور مرتّبة : علم وحال وفعل ، فالعلم أوّل والحال ثان والفعل ثالث ، والأوّل موجب للثاني والثاني موجب للثالث إيجاباً اقتضاه اطّراد سنّة الله في الملك والملكوت ، أمّا العلم فهو معرفة عظم ضرر الذّنوب و كونها حجاباً بين العبد وبين كلّ محبوب فإذا عرف ذلك معرفة محقّقة بيقين غالب على قلبه ثار من هذه المعرفة تألّم للقلب بسبب فوات المحبوب ، فإنّ القلب مهما شعر بفوات محبوبه تألّم ، فإن كان فواته بفعله تأسّف على الفعل المفوت فيسمّى تألّمه بسبب فعله المفوت لمحبوبه ندماً ، فإذا غلب هذا الألم على القلب واستولى انبعث من هذا الألم في القلب حالة اُخرى تسمّى إرادة و قصداً إلى فعل له تعلّق بالحال و بالماضي والاستقبال ، أمّا تعلّقه بالحال فبالترك ، للذّنب الّذي كان ملابساً له ، و أمّا بالاستقبال فبالعزم على ترك الذّنب المفوت للمحبوب إلى آخر العمر ، و أمّا بالماضي فبتلافي مافات بالجبر والقضاء و إن كان قابلاً للجبر ، فالعلم هو الأوّل و هو مطلع هذه الخيرات ، وأعني بهذا العلم الإيمان و اليقين ، فإنّ الايمان عبارة عن التصديق بأنّ الذّنوب سموم مهلكة ، واليقين عبارة عن تأكّد هذا التّصديق وانتفاء الشكّ عنه و استيلائه على القلب ، فيثمر نور هذا الايمان مهما أشرق على القلب نار النّدم فيتألّم به القلب حيث يبصر بإشراق نور الإيمان أنّه صار محجوباً عن محبوبه كمن يشرق عليه نور الشمس و قد كان في ظلمة فيسطع النور عليه بانقشاع سحاب أو انحسار حجاب فرأى محبوبه وقد أشرف على الهلاك فتشتعل نيران الحبّ في قلبه فتنبعث تلك النيران بإرادته للانتهاض للتدارك ، فالعلم والندم والقصد المتعلّق بالترك في الحال والاستقبال و التّلافي للماضي ثلاثة معان مرتّبة في الحصول يطلق اسم التوبة على مجموعها ، و كثيراً مّا يطلق اسم التوبة على معنى النّدم وحده ويجعل العلم كالسابق والمقدّمة و الترك كالثمرة والتابع المتأخّر ، وبهذا الاعتبار قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « النّدم توبة » [1] إذلا يخلو الندم عن علم أوجبه و أثمره و عن عزم يتبعه و يتلوه

(١) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤٢٥٢ . والحاكم ج ٤ ص ٢٤٣ و صحح اسناده .

فيكون الندم محفوفاً بطرفيه أعني ثمرته ومثمره .

☼ (بيان وجوب التوبة وفضلها) ☼

اعلم أنّ وجوب التوبة ظاهر بالأخبار و الآيات [1] وهو واضح بنور البصيرة عند من انفتحت بصيرته و شرح الله بنور الإيمان صدره حتّى اقتدر على أن يسعى بنوره الّذي بين يديه في ظلمات الجهل مستغنياً عن قائد يقوده في كلّ خطوة ، فالسالك إمّا أعمى لايستغني عن القائد في كلّ خطوة ، و إمّا بصير يهدى إلى أوّل الطريق ثمّ يهتدي بنفسه ، و كذلك الناس في طريق الدّين ينقسمون هذا الانقسام ، فمن قاصر لايقدر على مجاوزة التقليد في خطوه فيفتقر إلى أن يسمع في كلّ قدم نصّاً من كتاب الله أوسنّة رسوله ، وربّما يعوزه ذلك فيتحيّر ، فسير هذا و إن طال عمره و عظم جدّه مختصر و خطاه قاصرة ، ومن سعيد شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربّه يتنبّه بأدنى إشارة لسلوك طرق معوصة وقطع عقبات متعبة ، فيشرق في قلبه نور القرآن و نور الإيمان وهو لشدّة نور باطنه يجتزىء بأدنى بيان ، و كأنّه يكاد زيته يضيء ولولم تمسسه نارفاذا مسّته نار فهو نورعلى نور يهدي الله لنوره من يشاء ، فهذا لايحتاج إلى نصّ منقول في كلّ واقعة فمن هذا حاله إذا أراد أن يعرف وجوب التوبة فينظر أوّلاً بنور البصيرة إلى التوبة ماهي ثمّ إلى الوجوب مامعناه ، ثمّ يجمع بين معنى الوجوب و التوبة ، فلا يشكّ في ثبوته لها و ذلك بأن يعلم بأنّ معنى الواجب ما هو واجب في الوصول إلى سعادة الأبد و النجاة من هلاك الأبد ، فإنّه لولا تعلّق السعادة و الشقاوة بفعل الشيء وتركه لم يكن لوصفه بكونه واجباً معنى ، و قول القائل صاروا جباً بالإيجاب حديث محض ، فإنّ ما لاغرض لنا عاجلاً و آجلاً في فعله و تركه فلامعنى لاشتغالنا به أوجبه علينا غيرنا أولم يوجبه ، فإذا عرف معنى الوجوب وأنّه الوسيلة إلى سعادة الأبد وعلم أنّه لاسعادة في دار البقاء إلّا

(١) راجع الدر المنثور ج ٥ ص ٤٤ ذيل قوله تعالى « توبوا الى الله جميعاً أيها المؤمنون » . وتفسير البرهان ج ٤ ص ٣٥٥ ذيل قوله تعالى « ياايها الذين آمنوا توبوا الى الله توبة نصوحاً » و الكافى باب التوبة ج ٢ ص ٤٣١ .

في لقاء الله، و أنّ كلّ محجوب عنه يشقى لامحالة محول بينه وبين ما يشتهيه، محترق بنار الفراق و نارجهنم، و علم أنّه لامبعد عن لقاء الله إلّا اتّباع الشهوات و الأُنس بهذا العالم الفاني و الإكباب على حبّ مالابدّ من فراقه قطعاً وعلم أنّه لامقرّب من لقاء الله إلّا قطع علاقة القلب عن زخرف هذا العالم و الإقبال بالكلّية على الله تعالى طلباً للأُنس به بدوام ذكره و للمحبّة له بمعرفة جلاله و جماله على قدر طاقته و علم أنّ الذّنوب الّتي هي إعراض عن الله تعالى و اتّباع لمحابّ الشياطين أعداء الله المبعدين عن حضرته سبب كونه محجوباً مبعداً عن الله فلا يشكّ في أنّ الانصراف عن طريق البعد واجب للوصول إلى القرب و إنّما يتمّ الانصراف بالعلم و الندم و العزم، فإنّه مالم يعلم أنّ الذّنوب أسباب للبعد عن المحبوب لم يتندّم ولم يتوجّع بسبب سلوكه في طريق البعد ومالم يتوجّع فلا يرجع و معنى الرّجوع الترك و العزم فلا يشكّ في أنّ المعاني الثلاثة ضروريّة في الوصول إلى المحبوب وهكذا يكون الإيمان الحاصل عن نور البصيرة و أمّا من لم يترشّح لمثل هذا المقام المرتفع ذروته عن حدود أكثر الخلق ففي التقليد والاتّباع له مجالٌ رحب يتوصّل به إلى النجاة من الهلاك فليلاحظ فيه قول الله وقول رسوله وقول السلف الصالحين، فقد قال الله تعالى: «و توبوا إلى الله جميعاً أيّها المؤمنون لعلّكم تفلحون»(١) و هذا أمر على العموم، و قال تعالى «يا أيها الّذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً عسى ربّكم أن يكفّر عنكم سيئاتكم - الآية -»(٢) ومعنى النصوح الخالص لله، خالياً عن الشوائب، مأخوذاً من النصح، و يدلّ على فضل التوبة قوله تعالى: «إنّ الله يحبّ التوّابين ويحبّ المتطهّرين»(٣). وقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «التائب حبيب الله. و التائب من الذنب كمن لا ذنب له»(٤).

(١) النور: ٣١. (٢) التحريم: ٨. (٣) البقرة: ٢٢٢.

(٤) أخرج شطره الاول ابن أبي‌الدنيا فى التوبة و ابوالشيخ فى كتاب‌الثواب من حديث أنس بسند ضعيف هكذا «ان الله يحب الشاب التائب» كما فى المغنى و شطره الثانى بلفظه أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤٢٥٠، والطبرانى فى‌الكبير بسند صحيح كما فى مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٢٠٠.

و قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « لله أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل في أرض دَوِّيَّة (١) مهلكة معه راحلته عليها طعامه و شرابه فوضع رأسه فنام نومة فاستيقظ وقد ذهبت راحلته فطلبها حتّى إذا اشتدّ عليه الحرّ و العطش أو ماشاء الله قال : أرجع إلى مكاني الّذي كنت فيه فأنام حتّى أموت فوضع رأسه على ساعده ليموت فاستيقظ فإذا راحلته عنده عليها زاده و شرابه ، فالله أشدّ فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته » (٢) . و في بعض الألفاظ قال من شدّة فرحه إذا أراد شكر الله « أنا ربّك و أنت عبدي » (٣).

و يروى أنّه لما تاب الله على آدم عليه السلام هنّئته الملائكة فهبط عليه جبرئيل وميكائيل فقالا : يا آدم قرّت عينك بتوبة الله عزّ وجلّ عليك ، فقال آدم : يا جبرئيل فإن كان بعد هذه التّوبة سؤال فأين مقامي فأوحى الله إليه يا آدم ورّثت ذرّيتك التعب والنصب و ورّثتهم التوبة فمن دعاني منهم لبّيته كتلبيتك ومن سألني المغفرة لم أبخل عليه لأنّي قريب مجيب ، يا آدم و أحشر التائبين من القبور مستبشرين ضاحكين و دعاؤهم مستجاب . والأخبار والآثار في ذلك لاتحصى .

أقول : و من طريق الخاصّة مارواه في الكافي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أنّه قال : « إنّ الله أشدّ فرحاً بتوبة عبده من رجل أضلّ راحلته وزاده في ليلة ظلماء فوجدها فالله تعالى أشدّ فرحاً بتوبة عبده من ذلك الرّجل براحلته حين وجدها » (٤) .

وعن الصادق عليه السلام « إنّ الله يفرح بتوبة عبده المؤمن إذا تاب كما يفرح أحدكم بضالّته إذا وجدها » (٥) .

وعنه عليه السلام في قوله تعالى « توبوا إلى الله توبة نصوحاً » قال : « هو الذّنب الّذي

---

(١) ـ بفتح الدال المهملة وتشديد الواو والياء جميعاً ـ منسوب الى الدو بتشديد الواو وهى البرية التى لانبات فيها . والداوية هنا على ابدال أحد الواوين ألفا كما قيل فى النسب الى طى طائى . (قاله السنوسى)

(٢) أخرجه مسلم ج ٨ ص ٩٢ من حديث عبدالله بن مسعود .

(٣) أخرجه أيضاً مسلم ج ٨ ص ٩٣ من حديث أنس .

(٤) و(٥) المصدر ج ٢ ص ٤٣٥ و٤٣٦ تحت رقم ٨ و١٣ .

لا يعود فيه أبداً . قيل : وأيّنا لم يعد ؟ قال : يا فلان إنّ الله يحبّ من عباده المفتّن التّواب » [١] . و في رواية اُخرى « و من لايكون ذلك منه كأن أفضل » [٢] .

وعنه عليه السلام قال : « إذا تاب العبد توبة نصوحاً أحبّه الله فستر عليه ، قيل : و كيف يستر عليه ؟ قال : ينسى ملكيه ماكانا يكتبان عليه و يوحى الله إلى جوارحه و إلى بقاع الأرض أن اكتمي عليه ذنوبه فيلقى الله تعالى حين يلقاه و ليس شيء يشهد عليه بشيء من الذّنوب » [٣] .

وعن الباقر عليه السلام « التائب من الذّنب كمن لا ذنب له ، والمقيم على الذّنب وهو يستغفر منه كالمستهزىء » [٤] .

و عن بعض أصحابنا رفعه قال : « إنّ الله أعطى التوّابين ثلاث خصال لوأعطى خصلة منها جميع أهل السّماوات و الأرض لنجوابها قوله تعالى « إنّ الله يحبّ التوّابين و يحبّ المتطهّرين » [٥] فمن أحبّه الله لم يعذّبه و قوله : « الّذين يحملون العرش و من حوله يسبّحون بحمد ربّهم و يستغفرون للّذين آمنوا - إلى قوله - ذلك هو الفوز العظيم » [٦] و قوله تعالى : « و الّذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولايقتلون النفس الّتي حرّم الله إلّا بالحقّ - إلى قوله - وكان الله غفوراً رحيماً » [٧] .

قال أبوحامد : و الاجماع منعقد من الاُمّة على وجوبها إذ معناه العلم بأنّ الذّنوب و المعاصي مهلكات و مبعدات من الله و هذا داخل في وجوب الايمان ولكن قد تدهش الغفلة عنه فمعنى هذا العلم إزالة هذه الغفلة ولاخلاف في وجوبها و من معانيها ترك المعاصي في الحال و العزم على تركها في الاستقبال و تدارك ماسبق من التقصير في سابق الأحوال وذلك لاشكّ في وجوبه . وأمّا التندّم على ماسبق والتحزّن عليه فواجب وهو روح التّوبة و به تمام التلافي فكيف لايكون واجباً بل هو نوع

(١) الكافي ج ٢ ص ٤٣٢ تحت رقم ٤ . والمعنى التوبة من الذنب الذي لايعود .
(٢) المصدر ج ٢ ص ٤٣٥ تحت رقم ٩ .
(٣) و (٤) المصدر ج ٢ ص ٤٣٦ تحت رقم ١٢ و ١٣ .
(٥) البقرة : ٢٢٢ . (٦) المؤمن ٧ الى ١٠ .
(٧) الفرقان : ٦٨ الى ٧٠ .

ألم يحصل لامحالة عقيب حقيقة المعرفة بمافات من العمروضاع في سخط الله ، فإن قلت : تألّم القلب أمرٌ ضروريٌ لايدخل تحت الاختيار فكيف يوصف بالوجوب ؟ فاعلم أنّ سببه تحقيق العلم بفوات المحبوب وله سبيل إلى تحصيل سببه ، ولمثل هذا المعنى دخل العلم تحت الوجوب ، لابمعنى أنّ العلم يخلقه العبد ويحدثه في نفسه فإنّ ذلك محالٌ بل العلم و الندم والفعل والإرادة و القدرة و القادر ، والكلّ من خلق الله و فعله « فالله خلقكم و ما تعملون » هذا هو الحقّ عند ذوي البصائر و ما سوى هذا ضلال ، فإن قلت : أفليس للعبد اختيار في الفعل و الترك ؟ قلنا : نعم و ذلك لايناقض قولنا إنّ الكلّ من خلق الله بل الاختيار أيضاً من خلق الله و العبد مضطرٌ في الاختيار الّذي له فإنّ الله إذا خلق اليد الصحيحة و خلق الطعام اللّذيذ و خلق الشهوة للطعام في المعدة وخلق العلم في القلب بأنّ هذا الطعام مسكّن للشهوة وخلق الخواطر المتعارضة في أنّ هذا الطعام هل فيه مضرّة مع أنه يسكّن الشهوة و هل دون تناوله مانع يتعذّر معه تناوله أم لا ، ثمّ خلق العلم بأنّه لامانع ، فعنداجتماع هذه الأسباب تنجزم الإرادة الباعثة على التناول فانجزام الإرادة بعد تردّد الخواطر المتعارضة وبعدقوّة الشهوة للطعام يسمّى اختياراً و لابدّ من حصوله عند تمام أسبابه فإذا حصل انجزام الإرادة بخلق الله إيّاها تحرّكت اليدالصحيحة إلى جهة الطعام لا محالة إذبعد تمام الإرادة و القدرة يكون حصول الفعل ضروريّاً فتحصل الحركة فيكون الحركة بخلق الله بعد حصول القدرة وانجزام الإرادة وهما أيضاًمن خلق الله و انجزام الإرادة يحصل بعدصدق الشهوة و العلم بعدم الموانع ، وهما أيضاً من خلق الله ولكن بعض هذه المخلوقات يترتّب على البعض ترتيباًجرت به سنّة الله في خلقه ولن تجد لسنّة الله تبديلاً ، فلايخلق الله حركةاليد بكتابة منظومة مالم يخلق فيها صفة تسمّى قدرة ومالم يخلق فيهاحياة ومالم يخلق إرادة مجزومة ولايخلق الإرادة المجزومة مالم يخلق شهوة و ميلاً في النفس ، ولاينبعث هذا الميل انبعاثاً تامّاً مالم يخلق علماً بأنّه موافق للنفس إمّا في الحال و إمّا في المآل ولايخلق العلم أيضاً إلّا بأسباب اُخر ترجع إلى حركة و إرادة و علم فالعلم و الميل الطبيعي أبداً يستتبع

الإرادة الجازمة والإرادة و القدرة أبداً تسترد ف الحركة و هكذا الترتيب في كلّ فعل والكلّ من اختراعات الله ولكن بعض مخترعاته شرط لبعض فلذلك يجب تقدّم البعض و تأخّر البعض كما لاتخلق الإرادة إلّا بعد العلم ولا يخلق العلم إلّا بعد الحياة ولا تخلق الحياة إلّا بعد الجسم ، و يكون خلق الجسم شرطاً لحدوث الحياة لا أنّ الحياة تتولّد من الجسم ، و يكون خلق الحياة شرطاً لخلق العلم لا أنّ العلم يتولّد من الحياة ولكن لايستعدّ المحلّ لقبول العلم إلّا إذا كان حيّاً و يكون خلق العلم شرطاً لجزم الارادة لا أنّ العلم يولد الإرادة ، ولكن لايقبل الإرادة إلّا جسم حيّ عالم ، ولايدخل في الوجود إلّا ممكن ، وللإمكان ترتيب لايقبل التّغيير لأنّ تغييره محال فمهما وجد شرط الوصف استعدّ المحلّ به لقبول الوصف فحصل ذلك الوصف من الجود الإلهي والقدرة الأزليّة عند حصول الاستعداد و لمّا كان للاستعداد بسبب الشروط ترتيب كان لحصول الحوادث بفعل الله ترتيب والعبد مجرى هذه الحوادث المرتبة وهي مرتّبة في قضاء الله الّذي هو واحد كلمح بالبصر ترتيباً كليّاً لا يتغيّر وظهورها بالتفصيل مقدّر بقدر لايتعدّاها وعنه العبارة بقوله تعالى : « إنّا كلّ شيء خلقناه بقدر »[1] وعن القضاء الكلّي الازلي العبارة بقوله تعالى : « وما أمرنا إلّا واحدة كلمح بالبصر »[2] وأمّا العباد فهم مسخّرون تحت مجاري القضاء والقدر ومن جملة القدر خلق حركة في يد الكاتب بعد خلق صفة مخصوصة في يده تسمّى القدرة وبعد خلق ميل قوي جازم في نفسه يسمّى القصد ، و بعد خلق علم بما إليه ميله يسمّى الإدراك و المعرفة فاذا ظهرت من عالم الملكوت هذه الأمور الأربعة على جسم عبد مسخّر تحت قهر التقدير سبق أهل عالم الملك والشهادة المحجوبون عن عالم الغيب والملكوت وقالوا : ياأيّها الرّجل قد تحرّكت و كتبت ورميت ونودي من وراء حجب الغيب وسرادقات الملكوت « وما رميت إذ رميت ولكنّ الله رمى » وماقتلت إذ قتلت ولكن « قاتلوهم يعذّبهم الله بأيديكم » وعند هذا تتحيّر عقول القاعدين في بحبوحة عالم الشهادة فمن قائل أنّه جبر محض و من قائل أنّه اختراع صرف و من متوسّط

---

(١) القمر : ٥٠ . (٢) القمر : ٥١ .

قائل إلى أنّه كسب ولو فتح لهم أبواب السماء فنظروا إلى عالم الغيب و الملكوت لظهر لهم أنّ كلّ واحد صادق من وجه و أنّ القصور شامل لجميعهم فلم يدرك واحد منهم كنه هذا الأمر ولم يحط علمه بجوانبه وتمام علمه ينال بإشراق النّور من كوّة نافذة إلى عالم الغيب وأنّه تعالى عالم الغيب والشهادة فلا يظهر على غيبه أحداً إلّا من ارتضى من رسول وقد يطّلع على الشهادة من لم يدخل في حيّز الارتضاء ، ومن حرّك سلسلة الأسباب والمسبّبات وعلم كيفيّة تسلسلها و وجه ارتباط مناط سلسلتها بمسبّب الأسباب انكشف له سرّ القدر وعلم علماً يقينيّاً أن لاخالق إلّا الله ولامبدع سواه .

فإن قلت : قدقضيت على كلّ واحد من القائلين بالجبر والاختراع والكسب بأنّه صادق من وجه وهو مع صدقه قاصرٌ وهذا تناقض فكيف يمكن فهم ذلك وهل يمكن إيصال ذلك إلى الأفهام بمثال ؟ .

فاعلم أنّ جماعة من العميان سمعوا أنّه قدحمل إلى البلد حيوان عجيب يسمّى الفيل وما كانوا قد شاهدوا صورته ولا سمعوا اسمه فقالوا : لابدّ لنا من مشاهدته ومعرفته باللّمس الّذي نقدر عليه فطلبوه فلمّا وصلوا إليه لمسوه فوقع يد بعض العميان على رجله و وقع يد بعضهم على نابه ووقع يد بعضهم على اُذنه فقالوا قد عرفناه فلمّا انصرفوا سألهم بقية العميان فاختلف أجوبتهم فقال الّذي لمس الرّجل : إنّ الفيل ماهو إلّا مثل اُسطوانة خشنة الظاهر إلّا أنّه ألين منها ، وقال الّذي لمس الناب : ليس كما يقول بل هو صلب لالين فيه و أملس لاخشونة فيه ، و ليس في غلظ الاُسطوانة أصلاً بل هو مثل عمود . وقال الّذي لمس الاُذن : لعمري هو لين وفيه خشونة فصدق أحدهما فيه ولكن قال : ماهو مثل عمود ولا هو مثل اُسطوانة ، وإنّما هو مثل جلد غليظ عريض . فكلّ واحد من هؤلاء صدق من وجه إذ أخبر كلّ واحد عمّا أصابه من معرفة الفيل ولم يخرج واحد في خبره عن وصف الفيل ولكنّهم بجملتهم قصروا عن الإحاطة بكلّ صورة الفيل .

فاستبصر بهذا المثال و اعتبر به فإنّه مثال أكثر ما اختلف الناس فيه ، وإن كان

هذا كلاماً يناطح [١] علوم المكاشفة ويحرّك أمواجها وليس ذلك من غرضنا فلنرجع إلى ما كنّا بصدده وهو بيان أنّ التوبة واجبة بجميع أجزائها الثلاثة : العلم و الندم و الترك و أنّ الندم داخل في الوجوب لكونه واقعاً في جملة أفعال الله المحصورة بين علم العبد و إرادته و قدرته المتخلّلة بينها وما هذا وصفه فاسم الوجوب يشمله .

☼(بيان ان وجوب التوبة على الفور)☼

أمّا وجوبها على الفور فلا يستراب فيه إذ معرفة كون المعاصي مهلكات من نفس الإيمان و هو واجب على الفور و المتفصّي عن وجوبه هو الّذي عرفه معرفة زجره ذلك عن الفعل فإنّ هذه المعرفةليست من علوم المكاشفات الّتي لاتتعلّق بعمل بل من علوم المعاملة ، و كلّ علم يراد ليكون باعثاً على عمل فلا يقع التفصّي عن عهدته مالم يصر باعثاً ، فالعلم بضرر الذّنوب إنّما اُريد ليكون باعثاً على تركها فمن لم يتركها فهو فاقد لهذا الجزء من الإيمان ، وهو المراد بقوله عليه السلام « لايزني الزّاني حين يزني و هو مؤمن » [٢] وما أراد به نفي الإيمان الّذي يرجع إلى علوم المكاشفة كالعلم بالله ووحدانيّته وصفاته و كتبه و رسله فإنّ ذلك لا ينافي الزّنى والمعاصي و إنّما أراد به نفي الايمان لكون الزنى مبعداً عن الله و موجباً للمقت كما إذا قال الطبيب : هذا سمّ فلاتتناوله فإذا تناوله يقال تناول وهوغير مؤمن ، لابمعنى أنّه غير مؤمن بوجود الطبيب و كونه طبيباً وغير مصدّق به بل المراد أنّه غير مصدّق بقوله إنّه سمّ مهلك ، فإنّ العالم بالسمّ لايتناوله أصلاً ، فالعاصي بالضرورة ناقص الإيمان و ليس الإيمان باباً واحداً بل هو نيّف وسبعون باباً أعلاها شهادة أن لا إله إلّا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، ومثاله قول القائل : ليس الإنسان موجوداً واحداً بل هو نيّف وسبعون موجوداً أعلاها القلب والرّوح وأدناها إماطة الأذى عن البشرة بأن يكون مقصوص الشّارب مقلوم الأظفار نقيّ البشرة عن الخبث حتّى يتميّز عن البهائم المرسلة المتلوّثة بأرواثها المستكرهة الصور بطول مخالبها وأظلافها هذا مثال

---

(١) ناطحة أي دفعه .

(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة و رواه الترمذي ج ١٠ ص ٩١.

مطابق ، فالإيمان كالإنسان و فقد شهادة التوحيد يوجب البطلان بالكلّيّة كفقد الرّوح والّذي ليس له إلّا شهادة التوحيد والرّسالة هو كإنسان مقطوع الأطراف مفقوء العينين فاقد لجميع أعضائه الظاهرة و الباطنة لا أصل الرّوح و كما أنّ من هذا حاله قريب من أن يموت فتزايله الرّوح الضعيفة المنفردة الّتي تخلف عنها الأعضاء الّتي تمدّها و تقوّيها ، فكذلك من ليس له إلّا أصل الإيمان وهو مقصّر في الأعمال قريب من أن تنقلع شجرة إيمانه إذا صدمتها الرّياح العاصفة المحركة للإيمان في مقدّمة قدوم ملك الموت و وروده ، فكلّ إيمان لم يثبت في النّفس أصله و لم تنتشر في الأعمال فروعه لم يثبت على عواصف الأهوال عند ظهور ناصية ملك الموت وخيف عليه سوء الخاتمة إلّا ماسقى بماء الطاعات على توالي الأيّام والساعات حتّى رسخ وثبت . وقول العاصي للمطيع : إنّي مؤمن كما أنّك مؤمن كقول شجرة القرع لشجرة الصنوبر : أنا شجرة و أنت شجرة وماأحسن جواب شجرة الصّنوبر إذ قالت ستعرفين اغترارك بشمول الاسم إذا عصفت رياح الخريف فعندذلك تنقلع اُصولك و تتناثر أوراقك و ينكشف غرورك بالمشاركة في اسم الشجرة مع الغفلة عن أسباب ثبوت الأشجار ، وسوف ترى «إذا انجلى الغبار ٭ أفرس تحتك أم حمار» فهذا أمر يظهر عند الخاتمة و إنّما تقطّعت نياط العارفين خوفاً من دواعي الموت و مقدّماته الهائلة الّتي لايثبت عليها إلّا الأقلّون فالعاصي إذا كان يخاف الخلود في النّار بسبب معصية كالصحيح المنهمك في الشهوات المضرّة إذا كان لايخاف الموت بسبب صحّته و أنّ الموت غالباً لايقع فجأة فيقال له : الصحيح يخاف المرض ثمّ إذا مرض خاف الموت ، فكذلك العاصي يخاف سوء الخاتمة ثمّ إذا ختم له بالسوء وجب الخلود في النار فالمعاصي للإيمان كالمأكولات المضرّة للأبدان فلاتزال تجتمع في الباطن فتغيّر مزاج الأخلاط وهولا يشعربها إلى أن يفسد المزاج فيمرض دفعة ثمّ يموت دفعة ، فكذلك المعاصي فإن كان الخائف من الهلاك في هذه الدّنيا المنقضية يجب عليه ترك السموم و ما يضرّه من المأكولات في كلّ حال وعلى الفور فالخائف من هلاك الأبد أولى بأن يجب عليه ذلك و إن كان متناول السمّ إذا ندم يجب عليه أن يتقيّأ و يرجع

عن تناوله بإبطاله و إخراجه عن المعدة على سبيل الفور و المبادرة تلافياً لبدنه المشرف على هلاك لايفوت عليه إلاّ هذه الدّنيا الفانية ، فمتناول سموم الدّين و هي الذّنوب أولى بأن يجب عليه الرّجوع عنها بالتدارك الممكن مادام يبقى للتدارك مهلة و هو العمر فإنّ المخوف من هذا السمّ فوات الآخرة الباقية الّتي فيها النعيم المقيم والملك العظيم وفي فواتها نار الجحيم والعذاب المقيم الّذي تتصرّم أضعاف أعمار الدنيا دون عشر عشير مدّتهما إذ ليس لمدّتها آخر البتّة ، فالبدار البدار إلى التوبة قبل أن تعمل سموم الذّنوب بروح الإيمان عملاً يجاوز الأمر فيه أختيار الأطبّاء ، ولاينفع بعده الاحتماء ، فلا ينجع بعد ذلك نصح الناصحين و وعظ الواعظين وتحق الكلمة عليه بأنّه من الهالكين ويدخل تحت عموم قوله تعالى : « إنّا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون ۞ وجعلنا من بين أيديهم سدّاً ومن خلفهم سدّاً فأغشيناهم فهم لايبصرون ۞ وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون » (١) ولا يغرّنك لفظ الإيمان فتقول : المراد به الكافرون إذ بيّن لك أنّ الإيمان بضع وسبعون باباً وأنّ الزّاني لايزني حين يزني وهو مؤمن ، فالمحجوب عن الإيمان الّذي هو شعب و فروع سيحجب في الخاتمة عن الإيمان الّذي هو أصل ، كما أنّ الشخص الفاقد لجميع الأطراف الّتي هي فروع سيساق إلى الموت المعدم للروح الّتي هي أصل فلا بقاء للأصل دون الفرع ولاوجود للفرع دون الأصل ولافرق بين الأصل والفرع إلّا في شيء واحد و هو أنّ وجود الفرع وبقاءه جميعاً يستدعي وجود الأصل ، و أمّا وجود الأصل فلا يستدعي وجود الفرع ولكن بقاؤه يستدعي وجود الفرع فبقاء الأصل بالفرع و وجود الفرع بالأصل ، فعلوم المكاشفة و علوم المعاملة متلازمة كتلازم الأصل والفرع فلايستغني أحدهما عن الآخر ، و إن كان أحدهما في رتبة الأصل و الآخر في رتبة التابع ، وعلوم المعاملة إذا لم تكن باعثة على العمل فعدمها خيرٌ من وجودها فإنّها لم تعمل عملها الّذي يراد له ثمّ قامت مؤيّدة للحجّة على صاحبها ، و لذلك يزاد في عذاب العالم الفاجر على عذاب الجاهل الفاجر كما أوردنا من

---

(١) سورة يس ٨ الى ١٠ .

الأخبار في كتاب العلم .

☼ (ان وجوب التوبة عام) ☼
☼ (في الاشخاص و الاحوال فلاينفك عنه أحد البتة) ☼

إعلم أنّ ظاهر الكتاب قد دلّ على هذا إذ قال تعالى : « و توبوا إلى الله جميعاً » (١) فعمّم الخطاب ، ونورالبصيرة أيضاً يرشد إليه إذ معنى التّوبة الرّجوع عن الطريق المبعد عن الله تعالى المقرّب إلى الشيطان ولا يتصوّر ذلك إلّا من عاقل ولايكمل غريزة العقل إلّابعد كمال غريزة الشهوة والغضب وسائر الصفات المذمومة الّتي هي و سائل الشيطان إلى إغواء الإنسان إذ كمال العقل إنّما يكون عندمقاربة الأربعين وأصله إنّما يتمّ عند مراهقةالبلوغ ومباديه تظهر بعد سبع سنين ، والشهوات جنود الشيطان و العقول جنود الملائكة ، وإذا اجتمعا قام القتال بينهما بالضرورة ، إذ لايثبت أحدهما للآخر فإنّهما ضدّان فالتطارد بينهما كالتطارد بين اللّيل والنهار و النور والظلمة ، ومهما غلب أحدهما أزعج الآخر بالضرورة ، وإذا كانت الشهوات تكمل في الصبا و الشباب قبل كمال العقل فقد سبق جند الشيطان و استولى على المكان و وقع للقلب به اُنس و إلف لا محالة مقتضيات الشهوات بالعادة و غلب ذلك عليه و تعسّر عليه النزوع عنه ، ثمّ يلوح العقل الّذي هو حزب الله و جنده و منقذ أوليائه من أيدي أعدائه شيئاً فشيئاً على التدريج ، فإن لم يقوولم يكمل سلمت مملكة القلب للشيطان و أنجز اللّعين موعوده حيث قال : « لأحتنكنّ ذرّيّته إلّا قليلاً » (٢) وإن قوي العقل و كمل كان أوّل شغله قمع جنود الشيطان بكسر الشهوات ومفارقة العادات و ردّ الطبع على سبيل القهر و الغلبة إلى العبادات ولا معنى للتوبة إلّا هذا وهو الرّجوع عن طريق دليله الشهوة وخفيره الشيطان (٣) إلى طريق الله تعالى وليس في الوجود آدميّ إلّا وشهوته سابقة على عقله وغريزته الّتي هي عُدّة للشيطان متقدّمة على غريزته الّتي هي عُدّة الملائكة فكان الرّجوع عمّا سبق إليه على مساعدة الشهوات

(١) النور : ٣١ . (٢) الاسراء : ٦٥ .
(٣) الخفير : المجار والحافظ والمحامى .

ضرورياً في حقّ كلّ إنسان فإن كلّ من بلغ كافراً جاهلاً فعليه التوبة من كفره وجهله، فإن بلغ مسلماً تبعاً لأبويه غافلاً عن حقيقة إسلامه فعليه التوبة عن غفلته بتفهّم معنى الإسلام فإنّه لا يغني عنه إسلام أبويه شيئاً مالم يسلم بنفسه، فإن فهم ذلك فعليه الرّجوع عن عادته وإلفه للاسترسال وراء الشهوات من غير صارف بالرّجوع إلى قالب حدود الله في المنع والاطلاق والانكفاف والاسترسال وهو من أشقّ أبواب التوبة وفيه هلك الأكثرون إذ عجزوا عنه، وكلّ هذا رجوع وتوبة فدلّ أن التوبة فرض عين في حقّ كلّ شخص لا يتصوّر أن يستغني عنها أحدٌ من البشر كما لم يستغن عنها آدم، فخلقة الولد لايتّسع لما لم يتّسع له خلقة الوالد أصلاً.

وأمّا بيان وجوبها على الدّوام وفي كلّ حال فهو أنّ كلّ بشر فلايخلوعن معصية بجوارحه فإن خلا في بعض الأحوال عن معصية الجوارح فلايخلو عن الهمّ بالذّنوب بالقلب، فإن خلا عن الهمّ فلا يخلو عن وسواس الشيطان بايراد الخواطر المتفرقّة المذهلة عن ذكر الله، فإن خلا عنه فلا يخلو عن غفلة وقصور في العلم بالله وبصفاته وآثاره، وكلّ ذلك نقص وله أسباب وترك أسبابه بتشاغل أضدادها رجوع عن طريق إلى ضدّه، والمراد بالتوبة الرّجوع ولايتصوّر الخلوّ في حقّ الآدميّ عن هذا النقص وإنّما يتفاوتون في المقادير، فأمّا الأصل فلابدّ منه ولهذا قال صلّى الله عليه وآله وسلّم «إنّه ليغان على قلبي [1] حتّى أستغفر الله تعالى في اليوم واللّيلة سبعين مرّة» [2] ولذلك أكرمه الله بأن قال: «ليغفر لك الله ماتقدّم من ذنبك وما تأخّر» [3] وإذا

---

(١) قال الجزرى: الغين: الغيم وغينت السماء تغان اذا اطبق عليها الغيم، وقيل: الغين شجر ملتف. أراد مايغشاه من السهو الذى لايخلو منه البشر لان قلبه ابداً كان مشغولا بالله تعالى، فان عرض له وقتاًما عارض بشرى يشغله من امور الامة والملة ومصالحهما عد ذلك ذنباً وتقصيراً فيفزع الى الاستغفار.

(٢) أخرجه مسلم ج٨ ص٧٢ من حديث الاغر المزنى الا أن فيه «فى اليوم مائة مرة» كذا عند ابى داود، ولكن فى النهاية الاثيرية كما فى المتن.

(٣) الفتح: ٢.

كان هذا حاله فكيف حال غيره .

أقول: قد بيّنّا في كتاب قواعد العقائد من ربع العبادات أنّ ذنب الأنبياء و الأوصياء عليهم السلام ليس كذنوبنا بل إنّما هو ترك دوام الذكر و الاشتغال بالمباحات و حرمانهم زيادة الأجر بسبب ذلك ، روى في الكافي بسند حسن عن عليّ بن رئاب قال : سألت أباعبدالله عليه السلام عن قول الله تعالى : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفوعن كثير» أرأيت ماأصاب عليّاً عليه السلام وأهل بيته من بعده أهو بما كسبت أيديهم وهم أهل بيت طهارة معصومون ؟ فقال : إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يتوب إلى الله ويستغفره في كلّ يوم وليلة مائة مرّة من غير ذنب إنّ الله يخصّ أولياءه بالمصائب ليأجرهم عليها من غير ذنب » (١) يعني كذنوبنا .

وبإسناده عن أبي بصيرعن أبي عبدالله عليه السلام قال : قلت له « فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرّجيم ۞ إنّه ليس له سلطان على الّذين آمنوا و على ربّهم يتوكّلون » فقال : يا أبا محمّد تسلّطه و الله من المؤمن على بدنه ولا يسلّط على دينه وقد سلّط على أيّوب فشوّه خلقه ولم يسلّط على دينه وقد يسلّط من المؤمنين على أبدانهم ولا يسلّط على دينهم » (٢) .

قال أبوحامد : فإن قلت : لايخفى أنّ مايطرأ على القلب من الهمم والخواطر نقص وأنّ الكمال في الخلوّ عنه وأنّ القصور عن معرفة كنه جلال الله نقص ، وأنّه كلّما زادت المعرفة زادالكمال وأنّ الانتقال إلى الكمال من أسباب النقصان رجوع و الرجوع توبة ولكن هذه فضائل لافرائض ، وقد أطلقت القول بوجوب التوبة في كلّ حال والتوبة عن هذه الاُمور ليست واجبة إذ إدراك الكمال غير واجب في الشرع فما المراد بقولك التوبة واجبة في كلّ حال ؟ فاعلم أنّه قدسبق أنّ الإنسان لايخلو في مبدء فطرته عن اتّباع الشهوات أصلاً و ليس معنى التوبة تركها فقط بل تمام التوبة بتدارك مامضى و كلّ شهوة أتبعها الإنسان ارتفع منها ظلمة إلى قلبه كما

(١) المصدر ج ٢ ص ٤٥٠ تحت رقم ٢ . و الاية في سورة الشورى : ٢٩ .

(٢) المصدر ج ٨ (كتاب الروضة) ص ٢٨٨ و الايات في سورة النحل ٩٨ و ٩٩ .

يرتفع عن نفس الإنسان ظلمة إلى وجه المرآة الصقيلة فإن تراكمت ظلمة الشهوات صارت ريناً كما يصير بخار النفس في وجه المرآة عندتراكمه خبثاً كما قال تعالى : «كلاّ بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون»(١) فإذا تراكم الرّين صار طبعاً فيطبع على قلبه كالخبث على وجه المرآة إذا تراكم و طال زمانه غاص في جرم الحديد وأفسده وصار لايقبل التصقيل بعده وصار كالمطبوع من الخبث ولايكفي في تدارك اتّباع الشهوات تركها في المستقبل بل لابدّ من محو تلك الأريان الّتي انطبعت في القلب كما لا يكفي في ظهور الصور في المرآة قطع الأنفاس و البخارات المسوّدة لوجهها في المستقبل مالم يشتغل بمحو ما انطبع فيها من الأريان ، و كما ترتفع إلى القلب ظلمة من المعاصي و الشهوات فيرتفع إليه نور من الطاعات و ترك الشهوات ، فتنمحى ظلمة المعصية بنور الطاعة وإليه الإشارة بقوله صلّى الله عليه وآله وسلّم «أتبع السيّئة الحسنة تمحها »(٢) فإذن لايستغني العبد في حال من أحواله عن محو آثار السيّئات عن قلبه بمباشرة حسنات تضادّ آثارها آثار تلك السيّئات هذا في قلب حصل أوّلاً صفاؤه و جلاؤه ثمّ أظلم بأسباب عارضة فأمّا التصقيل الأوّل ففيه يطول الصقل إذ ليس شغل الصقل في إزالة الصداء عن المرآة كشغله في عمل أصل المرآة ، فهذه أشغال طويلة لاتنقطع أصلاً و كلّ ذلك يرجع إلى التوبة ، فأمّا قولك إنّ هذا لايسمّى واجباً بل هو فضل وطلب كمال ، فاعلم أنّ الواجب له معنيان أحدهما ما يدخل في فتوى الشرع و يشترك فيه كافّة الخلق وهو القدر الّذي لواشتغل كافّة الخلق به لم يخرب العالم ولو كلّف الناس كلّهم أن يتّقوا الله حقّ تقاته لتركوا المعائش و رفضوا الدّنيا بالكلّيّة ثمّ يؤدّي ذلك إلى بطلان التقوى بالكلّيّة فإنّه مهما فسدت المعائش لم يتفرّغ أحد للتقوى بل شغل الحياكة و الحراثة و الخبز يستغرق جميع العمر من كلّ واحد فيما يحتاج إليه فجميع هذه الدّرجات ليست واجبة بهذا الاعتبار . والواجب الثاني

---

(١) المطففين : ١٤ .

(٢) رواه الترمذي بزياده في اوله و زيادة في آخره وقال حسن صحيح . وقد تقدم في كتاب رياضة النفس .

هو الّذي لابدّ منه للوصول به إلى القرب المطلوب من ربّ العالمين و المقام المحمود بين الصدّيقين والتوبة عن جميع ما ذكرناه واجبة في الوصول إليه كما يقال : الطهارة واجبة في صلاة التطوّع أي لمن يريدها فانّه لا يتوصّل إليها إلّا بها فأمّا من رضي بالنقصان و الحرمان عن فضل صلاة التطوّع فالطهارة ليست واجبة عليه لأجلها كما يقال : العين والاُذن واليد والرّجل شرط في وجود الانسان يعني أنّه شرط لمن يريد أن يكون إنساناً كاملاً ينتفع بإنسانيّته ويتوصّل بها إلى الدّرجات العلى في الدّنيا فأمّا من قنع بأصل الحياة و رضي بأن يكون كلحم على وضم(١) و كخرقة مطروحة فليس يشترط لمثل هذه الحياة عين و يد ورجل ، فأصل الواجبات الدّاخلة في فتوى العامّة لايوصل إلّا إلى أصل النجاة وأصل النجاة كأصل الحياة و ماوراء أصل النجاة من السعادات الّتي بها يتهيّأ النجاة يجري مجرى الأعضاء و الآلات الّتي بها يتهيّأ الحياة وفيه سعي الأنبياء و الأولياء والعلماء والأمثل فالأمثل ، و عليه كان حرصهم وحواليه كان تطوافهم ، ولأجله كان رفضهم لملاذّ الدّنيا بالكلّيّة حتّى انتهى عيسى صلوات الله عليه إلى أن توسّد حجراً في منامه فجاء إليه الشيطان و قال : أما كنت تركت الدّنيا للآخرة ؟ فقال : نعم وما الّذي حدث ؟ فقال : توسّدك لهذا الحجر تنعّم بالدّنيا فلم لاتضع رأسك على الأرض فرمى عيسى بالحجر و وضع رأسه على الأرض وكان رميه الحجر توبة عن ذلك التنعّم ، أفترى أنّ عيسى عليه السلام لم يعلم أن وضع الرأس على الأرض لايسمّى واجباً في فتاوى العامّة ، فتأمّل أحوال هؤلاء الّذين هم أعرف خلق الله بالله وبطريق الله وبمكر الله وبمكامن الغرور بالله و إيّاك مرّة واحدة أن تغرّك الحياة الدّنيا و إيّاك ثمّ إيّاك ألف مرّة أن يغرّك بالله الغرور ، فهذه أسرارٌ من استنشق مبادي روائحها علم أنّ لزوم التوبة النصوح لازم للعبد السالك في كلّ نفس من أنفاسه ولو عمّر عمر نوح و أنّ ذلك واجب على الفور من غير مهلة ولقد صدق من قال : لو لم يبك العاقل فيما بقي من عمره إلّا على فوت مامضى منه في غير طاعة الله لكان خليقاً أن يحزنه ذلك إلى الممات فكيف من يستقبل مابقي من

(١) الوضم : خشبة الجزار التى يقطع عليها اللحم .

عمره بمثل مامضى من جهله . و إنّما قال هذا لأنّ العاقل إذا ملك جوهرة نفيسة إذاضاعت منه بغير فائدة بكى عليها لامحالة وإن ضاعت منه وصار ضياعها سبب هلاكه كان بكاؤه منه أشدّ ، و كلّ ساعة من العمر بل كلّ نفَس جوهرة نفيسة لاخلف لها ولابدل منها فانّها صالحة لان توصلك إلى سعادة الأبد وينقذك من شقاوة الأبد وأيّ جوهر أنفس من هذا فإذا ضيّعتها في الغفلة فقد خسرت خسراناً مبيناً و إن صرفتها إلى معصية فقد هلكت هلاكاً فاحشاً فإن كنت لاتبكي على هذه المصيبة فذلك لجهلك و مصيبتك بجهلك أعظم من كلّ مصيبة لكنّ الجهل مصيبة لايعرف المصاب بها أنّه صاحب مصيبة فإنّ نوم الغفلة يحول بينه و بين معرفته « و الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا » فعند ذلك ينكشف لكلّ مفلس إفلاسه ، ولكلّ مصاب مصيبته ، و قد وقع اليأس عن التدارك . قال بعض العارفين : إنّ ملك الموت إذا ظهر للعبد أعلمه أنّه قد بقي من عمرك ساعة وأنّك لاتستأخر عنها طرفة عين فيبدو للعبد من الحزن والأسف و الحسرة مالو كانت له الدّنيا بحذافيرها لخرج منها على أن يضمّ إلى تلك الساعة ساعة اُخرى ليستعتب فيها و يتدارك تفريطه فلا يجد إليها سبيلاً وهو أوّل مايظهر من معاني قوله تعالى : « و حيل بينهم و بين ما يشتهون » (١) و إليه الإشارة بقوله تعالى : « من قبل أن يأتي أحد كم الموت فيقول ربّ لولا أخّرتني إلى أجل قريب فأصّدّق و أكن من الصالحين ۞ ولن يؤخّر الله نفساً إذاجاء أجلها »(٢) فقيل الأجل القريب الّذي يطلبه معناه أنّه يقول عند كشف الغطاء للعبد : ياملك الموت أخّرني يوماً أعتذر فيه إلى ربّي و أتوب و أتزوّد صالحاً لنفسي ، فيقول : فنيت الأيّام فلا يوم ، فيقول : أخّرني ساعة فيقول : فنيت الساعات فلاساعة ، فيغلق عليه باب التوبة فيغرغر بروحه ويتردّد أنفاسه في شراسيفه ويتجرّع غصّة اليأس عن التدارك وحسرة الندامة على تضييع العمر فيضطرب أصل إيمانه في صدمات تلك الأهوال فإذا زهقت نفسه فإن كانت سبقت له من الله الحسنى خرجت روحه على التوحيد و ذلك حسن الخاتمة ، و إن سبق له القضاء بالشقوة ـ و العياذ بالله ـ خرجت روحه على الشكّ

(١) سبأ : ٥٤ . (٢) المنافقين : ١١ و ١٢ .

والاضطراب و ذلك سوء الخاتمة و لمثل هذا قال سبحانه و تعالى : « و ليست التوبة للّذين يعملون السيّئات حتّى إذا حضر أحدهم الموت قال إنّي تبت الآن » بل التوبة كما قال تعالى : « إنّما التوبة على الله للّذين يعملون السوء بجهالة ثمّ يتوبون من قريب » (١) و معناه عن قريب عهد بالخطيئة بأن يتندّم عليها و يمحو أثرها بحسنة يردفها بها قبل أن يتراكم الرّين على القلب فلا يقبل المحو و لذلك قال صلّى الله عليه وآله وسلّم « أتبع السيّئة الحسنة تمحها » ولذلك قال لقمان لابنه : يابنيّ لاتؤخّر التوبة فإنّ الموت يأتي بغتة ، و من ترك المبادرة إلى التوبة بالتسويف كان بين خطرين عظيمين أحدهما أن يتراكم الظلمة على قلبه من المعاصي حتّى يصير ريناً و طبعاً فلايقبل المحو ، والثاني أن يعاجله المرض أوالموت فلايجد مهلة للاشتغال بالمحو ولذلك ورد في الخبر « أنّ أكثر صياح أهل النّار من التسويف » (٢) فماهلك من هلك إلّا بالتسويف فيكون تسويده للقلب نقداً وجلاؤه بالطاعة نسيئة إلى أن يختطفه الأجل فيأتي الله بقلب غير سليم ولاينجو إلّا من أتي الله بقلب سليم ، فالقلب أمانة الله تعالى عند عبده و العمر أمانة الله عنده و كذا سائر أسباب الطاعة ، فمن خان في الأمانة ولم يتدارك خيانته فأمره مخطر .

قال بعض العارفين : إنّ لله تعالى إلى عبده سرّين يسرّهما إليه على سبيل الإلهام أحدهما إذا خرج من بطن اُمّه يقول له : عبدي قد أخرجتك إلى الدّنيا ظاهراً نظيفاً واستودعتك عمرك وائتمنتك عليه فانظر كيف تحفظ الأمانة ، وانظر كيف تلقاني . والثاني عند خروج روحه يقول : عبدي ماذا صنعت في أمانتي عندك هل حفظتها حتّى تلقاني على العهد فألقاك على الوفاء أوأضعتها فألقاك بالمطالبة والعقاب . و إليه الإشارة بقوله تعالى : « أوفوا بعهدي أوف بعهدكم » (٣) و بقوله تعالى : « والّذينهم لأماناتهم وعهدهم راعون » (٤) .

---

(١) النساء : ١٩ و ١٨ .

(٢) قال العراقي : لم أجد له أصلا .

(٣) البقرة : ٤٠ . (٤) المؤمنون : ٨ .

(بيان أن التوبة اذا استجمعت شرائطها فهي مقبولة لامحالة)

إعلم أنّك إذا فهمت معنى القبول لم تشكّ في أنّ كلّ توبة صحيحة فهي مقبولة فالناظرون بنور البصائر المستمدّون من أنوار القرآن علموا أنّ كلّ قلب سليم مقبول عندالله ومتنعّم في الآخرة في جوار الله و مستعدّ لأن ينظر بعينه الباقية إلى وجه الله ، وعلموا أنّ القلب خلق سليماً في الأصل فكلّ مولود يولد على الفطرة و إنّما تفوته السلامة بكدورة ترهق وجهه من غبرة الذّنوب و ظلمتها و علموا أنّ نار الندم تحرق تلك الغبرة وأنّ نور الحسنة يمحو عن وجه القلب ظلمة السيّئة و أنّه لاطاقة لظلام المعاصي مع نور الحسنات كما لاطاقة لظلام اللّيل مع نور النهار بل كما لا طاقة لكدورة الوسخ مع بياض الصّابون ، فكما أنّ الثوب الوسخ لايقبله الملك لأن يكون لباسه فالقلب المظلم لايقبله الله تعالى لأن يكون في جواره و كما أنّ استعمال الثوب في الأعمال الخسيسة يوسّخ الثوب وغسله بالصابون والماء الحارّ ينظّفه لا محالة فاستعمال القلب في الشهوات يوسّخ القلب وغسله بماء الدّموع وحرقة الندم ينظّفه و يطهّره و يزكّيه ، و كلّ قلب زكيّ طاهر فهو مقبول كما أنّ كلّ ثوب نظيف فهو مقبول فإنّما عليك التزكية والتطهير فأمّا القبول فمبذول قد سبق به القضاء الأزلي الّذي لا مردّ له وهو المسمّى فلاحاً في قوله تعالى : « قد أفلح المؤمنون »(١) و قوله « قد أفلح من زكّاها » (٢) و من لم يعرف على سبيل التحقيق معرفة أقوى و أجلى من المشاهدة بالبصر أنّ القلب يتأثّر بالمعاصي و الطاعات تأثّراً متضاداً يستعار لأحدهما لفظ الظلمة كما يستعار للجهل و يستعار للآخر لفظ النّور كما يستعار للعلم ، وأنّ بين النّور والظلمة تضاداً ضرورياً لايتصوّر الجمع بينهما ، فكأنّه لم يعرف من الدّين إلّا قشوره ولم يعلق بقلبه إلّا أسماؤه و قلبه في غطاء كثيف عن حقيقة الدّين بل عن حقيقة نفسه وصفات نفسه و من جهل نفسه فهو بغيره أجهل وأعنى به قلبه إذ بقلبه يعرف غير قلبه فكيف يعرف غيره و هو لايعرف نفسه فمن يتوهّم أنّ التوبة تصحّ و لا تقبل كمن يتوهّم أنّ الشمس تطلع و الظلام لايزول

(١) المؤمنون : ٢ . (٢) الشمس : ١٠ .

والثوب يغسّل بالصّابون والوسخ لايزول إلّا أن يغوص الوسخ لطول تراكمه في تجاويف الثوب وخلله ، فلايقوى الصّابون على قلعه ، فمثال ذلك أن تتراكم الذّنوب حتّى تصير طبعاً ورينا على القلب ، فمثل هذا القلب لايرجع ولايتوب نعم قديقول باللّسان تبت فيكون ذلك كقول القصّار بلسانه قد غسلت الثوب وذلك لاينظّف الثّوب أصلاً مالم يغيّر صفة الثوب باستعمال مايضادّ الوصف المتمكّن منه فهذا حال امتناع أصل التوبة و هو غير بعيد بل هو الغالب على كافّة الخلق المقبلين على الدّنيا المعرضين عن الله بالكلّيّة ، فهذا البيان كاف عند ذوي البصائر في قبول التوبة ولكنّا نعضد جناحه بنقل الآيات والأخبار و الآثار فكلّ استبصار لا يشهد له الكتاب و السنّة لا يوثق به فقد قال الله تعالى : « و هو الّذي يقبل التوبة عن عباده »(١).

و قال : « عافر الذّنب وقابل التوب »(٢) إلى غير ذلك من الآيات .

و قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « لله أفرح بتوبة عبده .... الحديث » (٣) والفرح وراء القبول فهو دليل على القبول و زيادة .

و قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « إنّ الله عزّ وجلّ يبسط يده بالتوبة لمسيء اللّيل إلى النهار ولمسيء النهار إلى اللّيل حتّى تطلع الشمس من مغربها »(٤) و بسط اليد كناية عن طلب التوبة ، و الطالب وراء القابل فربّ قابل ليس بطالب ولاطالب إلّا وهو قابل .

و قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « لو عملتهم الخطايا حتّى تبلغ السّماء ثمّ ندمتم لتاب الله عليكم » (٥) .

و قال عليه السلام أيضاً : « إنّ العبد ليذنب الذّنب فيدخل به الجنّة ، قيل : كيف ذلك يا رسول الله ؟ قال : يكون نصب عينه تائباً منه فارّاً فما زال حتّى يدخل

---

(١) الشورى : ٢٤ . (٢) غافر : ٣ . (٣) تقدم أول هذا الكتاب .

(٤) أخرجه مسلم ج ٨ ص ١٠٠ من حديث أبي موسى بلفظ « يبسط يده بالليل ليتوب مسيىء النهار » وقال العراقي : وفي رواية للطبراني « لمسيىء الليل أن يتوب بالنهار » .

(٥) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤٢٤٨ بلفظ « لو أخطأتم حتى تبلغ خطا ياكم السماء ثم تبتم لتاب عليكم » وسنده حسن .

الجنّة »[١] .

و قال عليه السلام : « كفّارة الذّنب الندامة » [٢] .

و قال عليه السلام : « التائب من الذّنب كمن لاذنب له [٣] .

و يروى « أنّ حبشياً قال : يا رسول الله إنّي كنت أعمل الفواحش فهل لي من توبة ؟ قال : نعم فقال : تبت فولّى ، ثمّ رجع فقال : يا رسول الله أكان يراني وأنا أعملها ، قال : نعم فصاح الحبشي صيحة خرجت فيها نفسه » [٤] .

و يروى « أنّ الله عزّ وجلّ لمّا لعن إبليس سأله النظرة فأنظره إلى يوم القيامة فقال : و عزّتك لاخرجت من قلب ابن آدم مادام فيه الرّوح فقال الله تعالى : وعزّتي وجلالي لأحجبت عنه التوبة مادام فيه الرّوح » [٥] .

و قال صلّى الله عليه وآله : « إنّ الحسنات يذهبن السيّئات كما يذهب الماء الوسخ »[٦] والأخبار في هذا ممّا لاتحصى .

أقول و من طريق الخاصّة مارواه في الكافي عن محمّد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال : يا محمّد بن مسلم ذنوب المؤمن إذا تاب منها مغفورة له فليعمل المؤمن لما يستأنف بعد التوبة والمغفرة ، أما والله إنّها ليست إلّا لأهل الإيمان قلت : فإن عاد بعد التوبة والاستغفار في الذنوب و عاد في التّوبة فقال : يا محمّد بن مسلم أترى العبد المؤمن يندم على ذنبه و يستغفر منه و يتوب ثمّ لايقبل الله توبته ؟ قلت : فإنّه فعل ذلك مراراً يذنب ثمّ يتوب و يستغفر ؟ فقال : كلّما عاد المؤمن بالاستغفار و التوبة عاد الله تعالى عليه بالمغفرة ، و إنّ الله غفور رحيم يقبل التوبة و يعفو عن

---

(١) أخرجه ابن المبارك فى الزهد عن الحسن مرسلا كما فى الجامع الصغير .

(٢) أخرجه احمد و الطبرانى و البيهقى فى الشعب من حديث ابن عباس .

(٣) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤٢٥٠ و قد تقدم .

(٤) قال العراقى : لم أجد له أصلا .

(٥) أخرجه أبو يعلى والحاكم ج٤ ص ٢١٦ بلفظ آخر وصححه من حديث أبى سعيد .

(٦) قال العراقى : لم أجده بهذا اللفظ و هو صحيح المعنى وهو بمعنى « اتبع السيئة الحسنة تمحها » كما تقدم .

السيّئات ، فإيّاك أن تقنّط المؤمنين من رحمة الله » [١].

و عن الصادق عليه السلام قال : « العبد المؤمن إذا أذنب ذنباً أجّله الله سبع ساعات فإن استغفر الله لم يكتب عليه شيء ، و إن مضت السّاعات و لم يستغفر كتبت عليه سيّئة ، وإنّ المؤمن ليذكر ذنبه بعد عشرين سنة حتّى يستغفر ربّه فيغفر له ، وإنّ الكافر لينساه من ساعته » [٢] و في رواية اُخرى « وإنّما يذكّره ليغفر له » [٣].

و عنه عليه السلام « ما من مؤمن يقارف في يومه وليلته أربعين كبيرة فيقول و هو نادم : « أستغفر الله الّذي لا إله إلّا هو الحيّ القيّوم بديع السّماوات و الأرض ذو الجلال والإكرام وأسأله أن يصلّي على محمّد و آل محمّد وأن يتوب عليّ » إلّا غفرها الله له ولاخير فيمن يقارف في كلّ يوم أكثر من أربعين كبيرة » [٤].

و عنه عليه السلام قال : « إنّ الرّجل ليذنب الذّنب فيدخله الله به الجنّة . قيل يدخله الله بالذّنب الجنّة؟ قال : نعم إنّه ليذنب فلا يزال منه خائفاً ماقتاً لنفسه فيرحمه الله فيدخله الجنّة » [٥].

و عنه عليه السلام قال : « إنّه والله ما خرج عبد من ذنب إلّا بالإقرار » [٦].

و عنه عليه السلام « من أذنب ذنباً فعلم أنّ الله مطّلع عليه إن شاء عذّبه وإن شاء غفر له ، غفر له وإن لم يستغفر » [٧].

و عنه عليه السلام قال : « قال رسول الله صلّى الله عليه وآله من تاب قبل موته بسنة قبل الله توبته، ثمّ قال : إنّ السّنة لكثير ، من تاب قبل موته بشهر قبل الله توبته ، ثمّ قال : إنّ الشهر لكثير ، من تاب قبل موته بجمعة قبل الله توبته ، ثمّ قال : إنّ الجمعة لكثير، من تاب قبل موته بيوم قبل الله توبته ، ثمّ قال : إنّ يوماً لكثير من تاب قبل أن يعاين قبل الله توبته » [٨].

---

(١) الكافي ج ٢ ص ٤٣٤ تحت رقم ٦ .
(٢) المصدر ج ٢ ص ٤٣٧ تحت رقم ٣ .
(٣) و (٤) المصدر ج ٢ ص ٤٣٨ تحت رقم ٦ و ٧ .
(٥) و (٦) و (٧) المصدر ج ٢ ص ٦٢٦ و ٤٢٧ تحت رقم ٣ و ٤ و ٥ .
(٨) المصدر ج ٢ ص ٤٤٠ تحت رقم ٢ .

و عنه أو عن أبيه عليهما السلام قال : « إنّ آدم قال : يا ربّ سلّطت عليّ الشيطان و أجريته منّي مجرى الدّم فاجعل لي شيئاً ، فقال : يا آدم جعلت لك أنّ من همّ من ذريّتك بسيّئة لم تكتب عليه ، فإن عملها كتبت عليه سيّئة ، و من همّ منهم بحسنة فإن لم يعملها كتبت له حسنة فإن هو عملها كتبت له عشراً ، قال : يا ربّ زدني قال جعلت لك أنّ من عمل منهم سيّئة ثمّ استغفر غفرت له ، قال : يا ربّ زدني قال : جعلت لهم التوبة أو بسطت لهم التوبة حتّى تبلغ النفس هذه قال : يا ربّ حسبي »(١).

و عن أبي جعفر عليه السلام قال : « إذا بلغت النفس هذه - وأهوى بيده إلى حلقه - لم يكن للعالم توبة و كانت للجاهل توبة »(٢).

و عن معاوية بن وهب قال : « خرجنا إلى مكّة ومعنا شيخ متعبّد متألّه لا يعرف هذا الأمر يتمّ الصلاة في الطريق و معه ابن أخ له مسلم ، فمرض الشيخ فقلت لابن أخيه : لو عرضت هذا الأمر على عمّك لعلّ الله أن يخلّصه ، فقال كلّهم : دعوا الشيخ يموت على حاله فإنّه حسن الهيئة ، فلم يصبر ابن أخيه حتّى قال له : يا عمّ إنّ الناس ارتدّوا بعد رسول الله إلّا نفراً يسيراً ، وكان لعليّ بن أبي طالب عليه السلام من الطاعة ما كانت لرسول الله صلّى الله عليه وآله ، وكان بعد رسول الله صلّى الله عليه وآله الحقّ والطاعة له ، قال : فتنفّس الشيخ وشهق وقال : أنا على هذا و خرجت نفسه ، فدخلنا على أبي عبدالله عليه السلام فعرض عليّ بن السريّ هذا الكلام عليه فقال : هو رجل من أهل الجنّة ، فقال له ابن السريّ : إنّه لم يعرف شيئاً من ذلك غير ساعته تلك ؟ قال : فتريدون منه ماذا ؟ قد دخل والله الجنّة »(٣).

قال أبو حامد : خلق الله الطاعة مكفّرة للمعصية ، و الحسنة ماحية للسيّئة كما خلق الماء مزيلاً للعطش وغسل الثوب بالصابون مزيلاً للوسخ .

قال : فإن قلت : فما من تائب إلّا و هو شاكّ في قبول توبته و الشارب للماء لا يشكّ في زوال عطشه فلم يشكّ فيه ؟.

---

(١) و (٢) و (٣) الكافي ج ٢ ص ٤٤٠ تحت رقم ١ و ٣ و ٤ .

فأقول شكه في القبول كشكه في وجود شرائط الصحة فإن للتوبة أركاناً و شروطاً دقيقة كما سيأتي وليس يتحقق وجود جميع شروطها كالذي يشك في دواء شربه للاسهال في أنه هل يسهل ، وذلك لشكه في حصول شروط الإسهال في الدواء باعتبار الحال و الوقت و كيفية خلط الدواء وطبخه وجودة عقاقيره وأدويته فهذا و أمثاله موجب للخوف بعد التوبة ، و موجب للشك في قبولها لا محالة على ما سيأتي في شروطها إن شاء الله .

☼(الركن الثاني)☼
☼(فيما عنه التوبة وهي الذنوب صغائرها و كبائرها)☼

فاعلم أن التوبة ترك الذنب ولا يمكن ترك الشيء إلا بعد معرفته وإذا كانت التوبة واجبة كان ما لا يتوصل إليها إلا به واجباً ، فمعرفة الذنوب إذاً واجب والذنب عبارة عن كل ما هو مخالف لأمر الله في ترك أو فعل و تفصيل ذلك يستدعي شرح التكليفات من أولها إلى آخرها ، وليس ذلك من غرضنا ولكنا نشير إلى مجامعها و روابط أقسامها .

☼(بيان أقسام الذنوب بالاضافة الى صفات العبد)☼

إعلم أن للانسان أخلاقاً وأوصافاً كثيرة على ما عرف شرحه في كتاب عجائب القلب وغوائله ولكن تنحصر مثارات الذنوب في أربع صفات ، صفات ربوبية وصفات شيطانية وصفات بهيمية وصفات سبعية ، و ذلك لأن طينة الإنسان عجنت من أخلاط مختلفة فاقتضى كل واحد من الأخلاط في المعجون منه أثراً من الآثار كما يقتضي السكر والخل في السكنجبين والزعفران آثاراً مختلفة ، فأما ما يقتضيه النزوع إلى الصفات الربوبية فمثل الكبر والفجر والجبرية وحب المدح والثناء و العز والغنى وحب دوام البقاء وطلب الاستعلاء على الكافة حتى كأنه يريد أن يقول : أنا ربكم الأعلى ، و هذا يتشعب منه جملة من كبائر الذنوب غفل عنها الخلق ولم يعدوها ذنوباً وهي المهلكات العظيمة التي هي كالأمهات لأكثر المعاصي كما استقصيناه في ربع المهلكات ، الثانية هي الصفات الشيطانية التي منها يتشعب الحسد و البغي و الحيلة والخداع والأمر

بالفساد و المنكر وفيه يدخل الغشّ والنفاق والدعوة إلى البدع و الضلالة ، الثالثة الصفة البهيميّة و منها يتشعّب الشره و الكلب و الحرص على قضاء شهوة البطن و الفرج ، و منه يتشعّب الزنى و اللّواط والسرقة و أكل مال الأيتام وجمع الحطام لأجل الشهوات ، الرّابعة الصفة السبعيّة و منها يتشعّب الغضب و الحقد و التهجّم على الناس بالضرب والشتم والقتل واستهلاك الأموال ، ويتفرّع عنها جمل من الذّنوب و هذه الصفات لها تدريج في الفطرة فالصفة البهيميّة هي الّتي تغلب أوّلاً ثمّ تتلوها الصفة السبعيّة ثانياً ، ثمّ إذا اجتمعا استعملا العقل في الخداع و المكر و الحيلة و هي الصفة الشيطانيّة ، ثمّ بالآخرة تغلب الصفات الرّبوبيّة و هي الفخر و العزّ و العلوّ و طلب الكبرياء و قصد الاستيلاء على جميع الخلق فهذه امّهات الذّنوب و منابعها ، ثمّ تنفجر الذّنوب من هذه المنابع على الجوارح فبعضها في القلب خاصّة كالكفر و البدعة والنفاق و إضمار السوء للناس وبعضها على العين و السمع و بعضها على اللّسان و بعضها على البطن و الفرج و بعضها على اليدين و الرّجلين و بعضها على جميع البدن و لاحاجة إلى بيان تفصيل ذلك فإنّه واضح .

قسمة ثانية إعلم أنّ الذّنوب تنقسم إلى ما بين العبد و بين الله و إلى مايتعلّق بالعبد خاصّة كترك الصلاة و الصوم و الواجبات الخاصّة به ، و مايتعلّق بحقوق العباد كتركه الزكاة و قتله النفس و غصبه الأموال وشتمه الأعراض ، و كلّ متناول من حقّ الغير، فإمّا نفس أو طرف أو مال أو عرض أو دين أو جاه و تناول الدّين بالاغواء و الدّعاء إلى البدعة و الترغيب في المعاصي و تهييج أسباب الجرأة على الله كما يفعله بعض الوعّاظ بتغليب جانب الرّجاء على جانب الخوف وما يتعلّق بالعباد فالأمر فيه أغلظ وما بين العبد وبين الله إذا لم يكن شركاً فالعفو فيه أرجى وأقرب وقد جاء في الخبر «الدواوين ثلاثة ديوان يغفر وديوان لايغفر ، وديوان لايترك . فالديوان الّذي يغفر ذنوب العباد بينهم وبين الله ، وأمّا الدّيوان الّذي لا يغفر فالشرك ، وأمّا الدّيوان الّذي لايترك فمظالم العباد » [1] أي لابدّ وأن يطالب بها حتّى يتفصّى عنها.

(١) اخرجه احمد و الحاكم من حديث عائشة بسند حسن كما فى الجامع الصغير .

أقول: و من طريق الخاصّة ما رواه في الكافي ، عن بعض أصحابنا رفعه إلى أميرالمؤمنين عليه السلام قال : « الذّنوب ثلاثة : فذنب مغفورٌ ، وذنبٌ غيرمغفور ، و ذنب نرجو لصاحبه ونخاف عليه قيل : يا أمير المؤمنين فبيّنها لنا ، قال : نعم أمّا الذّنب المغفورفعبد عاقبهالله على ذنبه في الدّنيا ، فالله تعالى أحلم وأكرم من أن يعاقب عبده مرّتين . و أمّا الذّنب الّذي لا يغفره الله فظلم العباد بعضهم لبعض إنّ الله إذا برز لخلقه أقسم قسماً على نفسه فقال : و عزّتي و جلالي لا يجوزني ظلم ظالم ، و لو كفٌّ بكفٍّ ولومسحة بكفٍّ ، ولو نطحة مابين القرناء إلى الجمّاء[1] ، فيقتصّ للعباد بعضهم من بعض حتّى لاتبقى لأحد على أحد مظلمة ، ثمّ يبعثهم الله للحساب ، وأمّا الذّنب الثالث فذنب ستره الله على خلقه و رزقه التوبة منه فأصبح خائفاً من ذنبه راجياً لربّه فنحن له كما هو لنفسه ، نرجو له الرّحمة ونخاف عليه العقاب »[2].

و سأل أبو جعفر عليه السلام « عن رجل اُقيم عليه الحدّ في الرّجم أيعاقب عليه في الآخرة ؟ فقال : إنّ الله أكرم من ذلك »[3].

قسمة ثالثة إعلم أنّ الذّنوب تنقسم إلى صغائر و كبائر ، و قد كثر اختلاف الناس فيها فقال قائلون : لاصغيرة بل كلّ مخالفة لله فهي كبيرة و هذا ضعيف إذقال الله تعالى : « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفّر عنكم سيّئاتكم »[4] وقال تعالى : « الّذين يجتنبون كبائر الإثم و الفواحش إلّا اللّمم »[5].

و قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « الصلوات الخمس و الجمعة إلى الجمعة تكفّر مابينهنّ إن اجتنب الكبائر » و في لفظ آخر « كفّارات لما بينهنّ إلّا الكبائر »[6].

وقد قال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم فيما رواه عبدالله بن عمرو بن العاص : « الكبائر الإشراك

---

(١) الجماء الشاة التي لاقرن لها .

(٢) و (٣) المصدر ، ج ٢ ص ٤٤٣ .

(٤) النساء : ٣١ .

(٥) النجم : ٣٣ و اللمم : صغار الذنوب كما في القاموس .

(٦) اخرجه الترمذي ج ٢ ص ١٤ من حديث ابي هريرة وحسنه .

بالله و عقوق الوالدين و قتل النفس واليمين الغموس »[١].

و اختلف الصحابة و التابعون في عدد الكبائر من أربع إلى سبع إلى تسع إلى إحدى عشرة فما فوق ذلك ، وقال أبو طالب المكّي : الكبائر سبع عشرة جمعتها من جملة الأخبار[٢] و جملة ما اجتمع من أقوال الصحابة أربع في القلب : وهو الشرك بالله تعالى ، والإصرار على معصيته ، والقنوط من رحمته ، والأمن من مكره . وأربع في اللّسان : وهي شهادة الزّور ، وقذف المحصن ، واليمين الغموس - وهي الّتي يحقّ بها باطلاً أو يبطل بها حقّاً ، وقيل : هي الّتي يقتطع بها مال امرىء مسلم باطلاً ولو سواك من أراك ، وسمّيت غموساً لأنّها تغمس صاحبها في النار - والسحر وهو كلّ كلام يغيّر الإنسان و سائر الأجسام عن موضوعات الخلقة . وثلاث في البطن وهي شرب الخمر والمسكر من كلّ شراب ، وأكل مال اليتيم ظلماً ، وأكل الرّبا و هو يعلم . واثنتان في الفرج و هما الزنى واللّواط . واثنتان في اليدين وهو القتل و السرقة . و واحدة في الرّجلين و هو الفرار من الزّحف - الواحد من اثنين و العشرة من عشرين - ، و واحدة في جميع الجسد و هي عقوق الوالدين ، قال : وجملة عقوقهما أن يقسما عليه في حقّ فلا يبرّ قسمهما ، وأن يسألاه حاجة فلا يعطيهما ، و أن يسبّاه فيضربهما ، و يجوعان فلا يطعمهما . هذا ما قاله وهو قريب ولكن ليس يحصل به تمام الشفاء إذ يمكن الزيادة عليه و النقصان منه فانّه جعل أكل الرّبا و مال اليتيم من الكبائر وهي جناية على الأموال ، و لم يذكر في كبائر النفوس إلّا القتل فأمّا فقؤ العينين و قطع اليدين و غير ذلك من تعذيب المسلمين بالضرب و أنواع العذاب لم يتعرّض له ، وضرب اليتيم وتعذيبه و قطع أطرافه لا شكّ في أنّه أكبر من أكل ماله كيف ؟ وفي الخبر « من الكبائر السبّتان بالسبّة . و من الكبائر استطالة الرّجل في عرض أخيه المسلم »[٣] و هذا زائد على قذف المحصن . و قال أبو سعيد الخدريّ و غيره

(١) اخرجه البخاري ج ٧ ص ١٧١ .
(٢) راجع مجمع الزوائد ج ١ ص ١٠٣ .
(٣) قال العراقى : عزاه ابو منصور الديلمى فى مسند الفردوس لاحمد وابى داود من حديث سعيد بن زيد والذى عندهما من حديثه « من اربى الربا استطالة فى عرض المسلم بغير حق » .

من الصحابة : « إنّكم لتعملون أعمالاً هي أدقّ في أعينكم من الشعر ، كنّا نعدّها في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله من الكبائر » (١) .

و قالت طائفة : كلّ عمد كبيرة ، و كلّ ما نهى الله عنه فهو كبيرة .

أقول: من طريق الخاصّة ما رواه في الكافي عن الصادق عليه السلام في قوله عزّ و جلّ : «إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفّر عنكم سيّئاتكم ـ الاية ـ» قال : الكبائر الّتي أوجب الله عليها النار » (٢).

و عنه عليه السلام أنّه سئل عن الكبائر فقال : « هنّ في كتاب عليّ عليه السلام سبع : الكفر بالله ، و قتل النفس ، و عقوق الوالدين ، و أكل الرّبا بعد البيّنة ، و أكل مال اليتيم ظلماً ، والفرار من الزّحف ، والتعرّب بعدالهجرة ، قال الرّاوي قلت : و هذا أكبر المعاصي ؟ قال : نعم ، قلت : فأكل درهم من مال اليتيم ظلماً أكبر أم ترك الصلاة ؟ قال : تركالصلاة ، قلت : فما عددت ترك الصلاة في الكبائر ؟ فقال : أيّ شيء أوّل ماقلت لك ؟ قال : قلت : الكفر قال : فإنّ تارك الصلاة كافر» يعني من غير علّة (٣).

وعن أبي الحسن عليه السلام أنّه سئل عن الكبائر كم هي وماهي ؟ فكتب « الكبائر من اجتنب ماوعدالله عليه النار كفّر عنه سيّئاته إذا كان مؤمناً ، والسبع الموجبات: (٤) قتل النفس الحرام ، وعقوق الوالدين ، و أكل الرّبا ، و التعرّب بعد الهجرة ،

---

(١) رواه البزار فى مسنده وفيه عباد بن راشد ، و ثقه ابن معين و غيره وضعفه ابو داود وغيره . و رواه احمد و رجاله رجال الصحيح كما مجمع الزوائد ج ١ ص ١٠٦ وج ١٠ ص ١٩٠.

(٢) المصدر ج ٢ ص ٢٧٦ تحت رقم ١.

(٣) الخبر فى الكافى ج ٢ ص ٢٧٨ . وقوله «يعنى من غير علة» من كلام الكلينى او بعض الرواة و قال العلامة المجلسى : كونه من كلام الامام عليه السلام على سبيل الالتفات بعيد جداً .

(٤) عطف على « ما وعدالله » أى من اجتنب السبع الموجبات للنار كفرعنه سيئاته من باب عطف الخاص على العام لان الكبائر أكثر منها .

و قذف المحصنات ، و أكل مال اليتيم ، و الفرار من الزّحف » [١].

و في الصحيح عن أبي جعفر الثاني عليه السلام قال : « سمعت أبي يقول : سمعت أبي موسى بن جعفر يقول : دخل عمرو بن عبيد [٢] على أبي عبدالله عليه السلام : فلمّا سلّم و جلس تلاهذه الآية « الّذين يجتنبون كبائر الإثم و الفواحش » ثمّ أمسك فقال له أبوعبدالله عليه السلام : ما أسكتك ؟ قال : أُحبّ أن أعرف الكبائر من كتاب الله ، فقال : نعم ياعمرو أكبر الكبائر الإشراك بالله يقول الله : « ومن يشرك بالله فقد حرّم الله عليه الجنّة » [٣]. وبعده الإياس من روح الله لأنّ الله يقول : « إنّه لاييأس من رَوح الله إلّاالقوم الكافرون » [٤] ثمّ الأمن لمكر الله إنّ الله يقول : « فلايأمن مكر الله إلّاالقوم الخاسرون » [٥]. و منها عقوق الوالدين لأنّ الله جعل العاقّ جبّاراً شقيّاً [٦] ، و قتل النفس الّتي حرّم الله إلّا بالحق لأنّ الله يقول : « فجزاؤه جهنّم خالداً فيها - إلى آخر الآية - » [٧] و قذف المحصنة لأنّ الله يقول : « لعنوا في الدّنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم » [٨] و أكل مال اليتيم لأنّ الله يقول : « إنّما يأكلون في بطونهم ناراً و سيصلون سعيراً » [٩] و الفرار من الزّحف لأنّ الله يقول : « و من يولّهم يومئذ دبره إلّا متحرّفاً لقتال أو متحيّزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأويه جهنّم و بئس المصير » [١٠]. و أكل الرّبا لأنّ الله يقول : « الّذين يأكلون الرّبا لا يقومون إلّا كما يقوم الّذي يتخبّطه الشيطان من المسّ » [١١] و السحر لأنّ الله يقول : « و

(١) الزحف : المشي ويطلق على الجيش الكبير تسمية بالمصدر و الخبر في الكافي ج ٢ ص ٢٧٦ .

(٢) الظاهر انه عمرو بن عبيد المعتزلي المعروف والخبر في الكافي ج ٢ ص ٢٨٥ .

(٣) في المصاحف هكذا « انه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة » سورة المائدة : ٧٢ .

(٤) يوسف : ٨٧ . (٥) الاعراف : ٩٩ .

(٦) اشارة الى قوله تعالى « وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً » سورة مريم ٣٢ .

(٧) النساء : ٩٣ . (٨) النور : ٢٣ .

(٩) النساء : ١٠ . (١٠) الانفال : ١٦ .

(١١) البقرة : ٢٧٧ ، و« يتخبطه » اى يصرعه الشيطان من الجنون وقوله « من المس » متعلق بقوله « يتخبطه » و « من » للتبيين .

لقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق »[١] والزنى ، لأنَّ الله يقول : « ومن يفعل ذلك يلق أثاما ۝ يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً »[٢] و اليمين الغموس الفاجرة ، لأنَّ الله يقول : « الّذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أُولئك لا خلاق لهم في الآخرة »[٣] . و الغلول لأنَّ الله يقول : « ومن يغلل يأت بما غلَّ يوم القيامة »[٤] و منع الزكاة المفروضة لأنَّ الله يقول : « فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم »[٥] وشهادة الزور و كتمان الشهادة لأنَّ الله يقول : « ومن يكتمها فإنّه آثمٌ قلبه »[٦] وشرب الخمر لأنَّ الله نهى عنها كما نهى عن عبادة الأوثان . و ترك الصلاة متعمّداً أو شيئاً ممّا فرض الله لأنَّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قال : «من ترك الصلاة متعمّداً فقد برىء من ذمّة الله و ذمّة رسوله » . و نقض العهد و قطيعة الرَّحم لأنَّ الله يقول : « اُولئك لهم اللّعنة ولهم سوء الدار »[٧] قال : فخرج عمرو وله صراخٌ من بكائه وهو يقول : هلك من قال برأيه ونازعكم في الفضل والعلم » .

قال أبو حامد : و كشف الغطاء عن هذا أنَّ نظر الناظر في السرقة أهي كبيرة أم لا لا يصحُّ ما لم يفهم معنى الكبيرة والمراد بها ، فقول القائل : السرقة حرام ،أم لا ؟ لامطمع في معرفته إلّابعد تقرير معنى الحرام أوّلاً ثمَّ البحث عن وجوده في السرقة فالكبيرة من حيث اللّفظ مبهمٌ ليس له موضوعٌ خاصٌّ في اللّغة و لا في الشرع وذلك

(١) البقرة : ١٠٢ ، أى الذى اشترى السحر بدل دين الله والخلاق النصيب .

(٢) الفرقان : ٦٩و٧٠ ، وقوله : « يلق أثاما » اى عقوبة وجزاء لما فعل ، وقوله : « يخلد فيها مهاناً » اى يدوم في العذاب مستخفاً .

(٣) آل‌عمران : ٧٧ .

(٤) آل‌عمران : ١٦١ ، والغلول الخيانة فى المغنم والسرقة من الغنيمة قبل القسمة .

(٥) التوبة : ٣٥ ، وكوى فلاناً اى احرق جلده بحديدة .

(٦) البقرة : ٢٨٣ .

(٧) الرعد : ٢٦ . « سوء الدار » اى عذاب جهنم أو سوء عاقبة الدار فى مقابلة « عقبى الدار » .

لأنّ الكبير و الصغير من المضافات و ما من ذنب إلّا و هو كبير بالإضافة إلى ما دونه ، و صغير بالإضافة إلى ما فوقه ، فالمضاجعة مع الأجنبيّة كبيرة بالإضافة إلى النظرة ، صغيرة بالإضافة إلى الزنى . و قطع يد المسلم كبيرة بالإضافة إلى ضربه ، صغيرة بالإضافة إلى قتله ، نعم للإنسان أن يطلق على ما توعّد بالنار على فعله خاصّة اسم الكبيرة و نعني بوصفه بالكبيرة أنّ العقوبة بالنار عظيمة ، وله أن يطلق على ما أوجب الحدّ عليه مصيراً إلى أنّ ما عجّل عليه في الدّنيا عقوبة واجبة عظيم ، و له أن يطلق على ماورد في نصّ الكتاب النهي عنه فيقول : تخصيصه بالذكر في القرآن يدلّ على عظمه ، ثمّ يكون عظيماً و كبيرة لا محالة بالإضافة إذ منصوصات القرآن أيضاً تتفاوت درجاتها ، فهذه الإطلاقات لا حرج فيها و ما نقل من ألفاظ الصحابة يتردّد بين هذه الجهات و لا يبعد تنزيلها على شيء من هذه الاحتمالات ، نعم من المهمّات أن تعلم معنى قول الله تعالى : « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفّر عنكم سيّئاتكم » وقول رسوله صلّى الله عليه وآله وسلّم «الصلوات الخمس كفّارات لما بينهنّ إلّا الكبائر » فإنّ هذا إثبات حكم الكبائر ، و الحقّ في ذلك أنّ الذّنوب منقسمة في نظر الشرع إلى ما يعلم استعظامه إيّاها و إلى ما يعلم أنّها معدودة في الصغائر و إلى ما يشكّ فيه فلا يدرى حكمه فالطمع في معرفة حدّ حاصر أو عدد جامع مانع طلب لما لا يمكن ، فإنّ ذلك لا يمكن إلّا بالسماع من رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بأن يقول : إنّي أردت بالكبائر عشراً أو خمساً ويفصّلها فان لم يرد هذا بل ورد في بعض الألفاظ « ثلاث من الكبائر » و في بعضها « سبع من الكبائر » ثمّ ورد « إنّ السبّتين بالسبّة الواحدة من الكبائر » و هو خارج عن السبع و الثلاث علم أنّه لم يقصد به العدد و الحصر فكيف يطمع في عدد ما لم يعدّه الشرع ، و ربّما قصد الشرع إبهامه ليكون العباد منه على وجل كما أبهم ليلة القدر ليعظم جدّ الناس في طلبها ، نعم لنا سبيل كلّي يمكننا أن نعرف به أجناس الكبائر وأنواعها بالتحقيق و أمّا أعيانها فنعرفها بالظنّ و التقريب و نعرف أيضاً أكبر الكبائر فأمّا أصغر الصغائر فلا سبيل إلى معرفته ، و بيانه أنّا نعلم بشواهد الشرع وأنوار البصائر جميعاً

أنّ مقصود الشرائع كلّها سياقة الخلق إلى جوار الله وسعادة لقائه ، وأنّه لا وصول لهم إلى ذلك إلّا بمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته ورسله و كتبه وإليه الإشارة بقوله تعالى : « و ما خلقت الجنّ و الإنس إلّا ليعبدون » [١] أي ليكونوا عبداً لي ولا يكون العبد عبداً ما لم يعرف ربّه بالرّبوبيّة ، ونفسه بالعبودية ، فلابدّ و أن يعرف نفسه و ربّه فهذا هو المقصود الأصلي ببعثة الأنبياء ولكن لا يتمّ هذا إلّا في الحياة الدّنيا و هو المعنيّ بقوله عليه السلام : «الدّنيا مزرعة الآخرة » [٢] فصار حفظ الدّنيا أيضاً مقصوداً تابعاً للدّين لأنّه وسيلة إليه ، والمتعلّق من الدّنيا بالآخرة شيئان : النفوس والأموال فكلّ ما يسدّ باب معرفة الله فهو أكبر الكبائر ، ويليه ما يسدّ باب حياة النفوس ، و يلي ذلك ما يسدّ باب المعايش الّتي بها حياة النفوس ، فهذه ثلاث مراتب فحفظ المعرفة على القلوب و الحياة على الأبدان و الأموال على الأشخاص ضروريّ في مقصود الشرائع كلّها ، و هذه ثلاثة اُمور لا يتصوّر أن يختلف فيها الملل ، فلايجوز أن يبعث الله تعالى نبيّاً يريد ببعثه إصلاح الخلق في دينهم ودنياهم ثمّ يأمرهم بما يمنعهم عن معرفته ومعرفة رسله أو يأمرهم بإهلاك النفوس و إهلاك الأموال فحصل من هذا . أنّ الكبائر على ثلاث مراتب الاُولى مايمنع من معرفة الله ومعرفة رسله و هو الكفر فلا كبيرة فوق الكفر إذ الحجاب بين الله و بين العبد هو الجهل و الوسيلة المقرّبة له إليه هو العلم والمعرفة وقربه بقدر معرفته و بعده بقدر جهله ويتلو الجهل الّذي يسمّى كفراً الأمن من مكر الله والقنوط من رحمته فانّ هذا أيضاً عين الجهل ، فمن عرف الله لم يتصوّر أن يكون آمناً ولا أن يكون آيساً ويتلو هذه الرّتبة البدع كلّها المتعلّقة بذات الله سبحانه وبصفاته وبأفعاله وشرايعه وبأوامره ونواهيه ، ومراتب ذلك لاتنحصر وهي تنقسم إلي ما يعلم أنّها داخلة تحت ذكر الكبائر المذكورة في القرآن و إلى ما يعلم أنّه لايدخل و إلى ما يشكّ فيه ، وطلب دفع الشكّ في القسم المتوسّط

---

(١) الذاريات : ٥٦ .

(٢) قال العراقي : لم أجده بهذا اللفظ . و أقول : أخرجه الديلمي في مسند الفردوس بهذا اللفظ كما في كنوز الحقايق للشيخ عبد الرؤوف المناوي باب الدال .

طمع في غير مطمع .

المرتبة الثانية النفوس إذ ببقائها وحفظها تدوم الحياة وتحصل المعرفة بالله ، فقتل النفس لا محالة من الكبائر و إن كان دون الكفر لأنّ ذلك يصدم عن المقصود و هذا يصدم وسيلة المقصود إذ حياة الدّنيا لا تراد إلّا للآخرة و التوصّل إليها بمعرفة الله تعالى و يتلو هذه الكبيرة قطع الأطراف و كلّ ما يفضي إلى الهلاك حتّى الضرب ، وبعضها أكبر من بعض ويقع في هذه الرّتبة تحريم الزّنى و اللّواط لأنّه لو اجتمع الناس على الاكتفاء بالذكور في قضاء الشهوات انقطع النسل ، ودفع الموجود قريبٌ من قطع الوجود ، و أمّا الزنى فإنّه لا يفوت أصل الوجود ولكن يشوّش الأنساب و يبطل التوارث و التناصر و جملة من الأمور الّتي لا ينتظم العيش إلّا بها بل كيف يتمّ النظام مع إباحة الزنى ولا ينتظم أمور البهائم مالم يتميز الفحل منها باناث يختصّ بها عن سائر الفحول ولذلك لا يتصوّر أن يكون الزنى مباحاً في أصل شرع قصد به الإصلاح وينبغي أن يكون الزّنى في الرّتبة دون القتل لأنّه ليس يفوت دوام الوجود ولا يمنع أصله ولكنّه يفوت تمييز الأنساب ويحرّك من الأسباب ما يكاد يفضي إلى التقاتل و ينبغي أن يكون أشدّ من اللّواط لأنّ الشهوة داعية إليه من الجانبين فيكثر وقوعه و يعظم أثر الضرر بكثرته .

المرتبة الثالثة الأموال فإنّها معائش الخلق فلا يجوز تسليط الناس على تناولها كيف شاؤوا حتّى بالاستيلاء و السرقة و غيرهما ، بل ينبغي أن تحفظ لتبقى ببقائها النفوس إلّا أنّ الأموال إذا أُخذت أمكن استردادها و إن أكلت أمكن تغريمها ، فليس يعظم الأمر فيها ، نعم إذا جرى تناولها بطريق يعسر التدارك له فينبغي أن يكون ذلك من الكبائر و ذلك بأربعة طرق أحدها الخفية و هي السرقة فإنّه إذا لم يطّلع عليه غالباً فكيف يتدارك ، والثاني أكل مال اليتيم و هذا أيضاً من الخفية و أعني به في حقّ الوليّ و القيّم فانّه مؤتمنٌ فيه و ليس له خصم سوى اليتيم و هو صغيرٌ لا يعرفه فتعظيم الأمر فيه واجب بخلاف الغصب فإنّه ظاهر يعرف ، و بخلاف الخيانة في الوديعة فإنّ المودع خصم فيه ينتصف لنفسه ، و الثالث

تفويتها بشهادة الزور ، و الرابع أخذ الوديعة و غيرها باليمين الغموس فإنّ هذه طريق لايمكن فيها التدارك ولا يجوز أن يختلف الشرائع في تحريمها أصلاً وبعضها أشدّ من بعض و كلّها دون الرتبة الثانية المتعلّقة بالنفوس ، وهذه الأربعة جديرة بأن تكون مرادة بالكبائر و إن لم يوجب الشرع الحدّ في بعضها ولكن كثر الوعيد عليها وعظم في مصالح الدّنيا و الدّين تأثيرها ، و أمّا أكل الربا فليس فيه إلّا أكل مال الغير بالتراضي مع الاخلال بشرط وضعه الشرع[1]، ولايبعدأن يختلف الشرائع في مثله ، و إذا لم يجعل الغصب الّذي هو أكل مال الغير بغير رضاه و بغير رضى الشرع من الكبائر فأكل الرّبا أكل برضا المالك ولكن دون رضا الشرع وإن عظّم الشرع الرّبا بالزّجر عنه فقد عظّم أيضاً الظلم بالغصب وغيره وعظّم الخيانة والمصير إلى أنّ أكل دانق بالخيانة أو الغصب من الكبائر فيه نظر و ذلك واقع في مظنّة الشكّ ، و أكثر ميل الظنّ إلى أنّه غير داخل تحت الكبائر بل ينبغي أن يختصّ الكبيرة بما لا يجوز اختلاف الشرائع فيه ليكون ضروريّاً في الدّين ، فيبقى ممّا ذكره أبو طالب المكّيّ القذف و الشرب و السحر و الفرار من الزّحف و عقوق الوالدين ، أمّا الشرب لما يزيل العقل فهو جدير بأن يكون من الكبائر و قد دلّ عليه تشديدات الشرع وطريق النظر أيضاً لأنّ العقل محفوظ كما أنّ النفس محفوظة بل لا خير في النفس دون العقل فإزالة العقل من الكبائر ولكن هذا لا يجري في قطرة من الخمر و لا شكّ في أنّه لو شرب ماء فيه قطرة من الخمر لم يكن ذلك

(١) فيه نظر لان الزنى كذلك أيضاً ولاريب أن الربا القرضي يزيد يوماً فيوماً في عدد المحتاجين و يجتمع الثروة عند الاقلين وينجر الى تراكم الثروة عند افراد و يؤدي ذلك الى فناء طبقة المعسرين وفي ذلك فساد النظام الاجتماعي والهرج والمرج و فناء المدنية والانسانية . و لذلك قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا ان كنتم مؤمنين فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله و رسوله » وليست في الاسلام معصية حرمتها أعظم من الربا وعقوبتها أشد منه لان آكله في حكم من حارب الله ورسوله . فعلى هذا هو من أكبر الكبائر . راجع في تفصيل ذلك تفسير الميزان للعلامة الفذ السيد محمد حسين الطباطبائي ج ٢ ص ٢٥٤ الى ٢٥٧ .

كبيرة و إنّما هو شرب ماء نجس و القطرة وحدها في محلّ الشكّ وإيجاب الشرع الحدّ به يدلّ على تعظيم أمره فيعدّ ذلك من الكبائر بالشرع وليس في القوّة البشريّة الوقوف على جميع أسرار الشرع ، فإن ثبت إجماع في أنّه كبيرة وجب الاتّباع و إلاّ فللتوقّف فيه مجال ، وأمّا القذف فليس فيه إلاّ تناول الأعراض والأعراض دون الأموال في الرّتبة و لتناولها مراتب وأعظمها التناول بالقذف بالإضافة إلى فاحشة الزّنى وقد عظّم الشرع أمره ، و أظنّ ظنّاً غالباً أنّ الصحابة كانوا يعدّون كلّ ما يجب الحدّ به كبيرة فهو بهذا الاعتبار لا تكفّره الصلوات الخمس و هو الّذي نريده بالكبيرة الآن ولكن من حيث أنّه يجوز أن تختلف فيه الشرائع فالقياس بمجرّده لا يدلّ على كبره و عظمته بل كان يجوز أن يرد الشرع بأنّ العدل الواحد إذا رأى إنساناً يزني فله أن يشهد و يجلد المشهود عليه بمجرّد شهادته فإن لم تقبل شهادته فحدّه ليس ضروريّاً في مصالح الدّنيا و إن كان على الجملة من المصالح الظاهرة الواقعة في رتبة الحاجات فإذن هذا أيضاً يلتحق بالكبائر في حقّ من عرف حكم الشرع فأمّا من ظنّ أنّ له أن يشهد وحده أو ظنّ أنّه يساعده على الشهادة غيره فلا ينبغي أن يجعل في حقّه من الكبائر ، و أمّا السحر فإن كان فيه كفر فكبيرة وإلاّ فعظمته بحسب الضرر الّذي يتولّد منه من هلاك نفس أو مرض أو غيره ، و أمّا الفرار من الزّحف و عقوق الوالدين فهذا أيضاً ينبغي أن يكون من حيث القياس في محلّ التوقّف و إذا قطع بأن سبّ الناس بكلّ شيء سوى الزّنى وضربهم و الظلم عليهم بغصب أموالهم و إخراجهم من مساكنهم و بلادهم و إجلائهم من أوطانهم ليس من الكبائر إذ لم ينقل ذلك في السبع عشرة كبيرة و هو أكبر ما قيل فيه فالتوقّف في هذا أيضاً غير بعيد ولكنّ الحديث يدلّ على تسميته كبيرة فليلحق بالكبائر فإذن رجع حاصل الأمر إلى أنّا نعني بالكبيرة ما لا تكفّره الصلوات الخمس بحكم الشرع و ذلك ممّا انقسم إلى ما علم أنّه لا تكفّره قطعاً و إلى ما ينبغي أن تكفّره و إلى ما يتوقّف فيه و المتوقّف فيه بعضه مظنون للنفي و الإثبات و بعضه مشكوك فيه وهو شكّ لا يزيله إلاّ نصّ كتاب أو سنّة و إذ لا مطمع فيها فطلب رفع الشكّ فيه محال .

فإن قلت · فهذا إقامة برهان على استحالة معرفة حدّها فكيف يرد الشرع بما يستحيل معرفة حدّه ، فاعلم أنّ كلّ ما لايتعلّق به حكم الدّنيا فيجوز أن يتطرّق إليه الإبهام لأنّ دار التكليف هي دار الدّنيا و الكبيرة على الخصوص لاحكم لها في الدّنيا من حيث أنّها كبيرة بل كلّ موجبات الحدود معلومة بأساميها كالسرقة و الزّنى وغيرهما و إنّما حكم الكبيرة أنّ الصلوات الخمس لا تكفّرها و هذا أمر يتعلّق بالآخرة و الابهام أليق به حتّى يكون الناس على وجل و حذر فلا يتجرّؤن على الصغائر اعتماداً على الصلوات الخمس و كذلك اجتناب الكبائر يكفّر الصغائر بموجب قوله تعالى : « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفّر عنكم سيّئاتكم » ولكن اجتناب الكبيرة إنّما يكفّر الصغيرة إذا اجتنبها مع القدرة و الإرادة كمن يتمكّن من امرأة و من مواقعتها فيكفّ نفسه عن الوقاع و يقتصر على نظر ولمس فإنّ مجاهدته نفسه في الكفّ عن الوقاع أشدّ تأثيراً في تنوير قلبه من إقدامه على النظر في إظلامه فهذا معنى تكفيره ، فإن كان عنّيناً أولم يكن امتناعه إلّا بالضرورة للعجز أوكان قادراً ولكن امتنع لخوف أمر آخر فهذا لايصلح للتكفير أصلاً و كلّ من لايشتهي الخمر بطبعه و لو اُبيح له لما شربه فاجتنابه لا يكفّر عنه الصغائر الّتي هي من مقدّماته كسماع الملاهي و الأوتار نعم من يشتهي الخمر وسماع الأوتار فيمسك نفسه بالمجاهدة عن الخمر و يطلقها في السماع فمجاهدته النفس بالكفّ ربّما يمحو عن قلبه الظلمة الّتي ارتفعت إليه من معصية السماع و كلّ هذا أحكام اُخرويّة و يجوز أن يبقى بعضها في محلّ الشكّ و تكون من المتشابهات ولا يعرف تفصيلها إلّا بالنصّ و لم يرد النصّ بعد ولا حدّ جامع بل ورد بألفاظ مختلفة فقد روي أنّه عليه السلام قال : « الصلاة إلى الصلاة كفّارة و رمضان إلى رمضان كفّارة إلّا من ثلاث : الاشراك بالله وترك السنّة و نكث الصفقة قيل : و ما ترك السنّة ؟ قال : الخروج من الجماعة ، ونكث الصفقة أن يبايع رجلاً ثمّ يخرج عليه بالسيف يقاتله » (١) فهذا وأمثاله من الألفاظ لا تحيط بالعدد كلّه ولا تدلّ على

---

(١) أخرج الحاكم ج ٤ ص ٢٩٥ نحوه وقال صحيح الاسناد .

حدّ جامع فيبقى لامحالة مبهماً .

فإن قلت : الشهادة لا تقبل إلّا ممن يجتنب الكبائر والورع عن الصغائر ليس شرطاً في قبول الشهادة وهذا من أحكام الدُّنيا ، فاعلم أنّا نختص ُردّ الشهادة بالكبائر فلا خلاف في أن من يسمع الملاهي و يلبس الدِّيباج و يتختّم بخاتم الذَّهب و يشرب من أواني الذَّهب و الفضّة لا تقبل شهادته و لم يذهب أحدٌ إلى أنَّ هذه الأمور من الكبائر بل كلٌّ الذُّنوب يقدح في العدالة إلّا ما لا يخلو الإنسان عنه غالباً بضرورة مجاري العادات كالغيبة و التجسّس و سوء الظنّ و الكذب في بعض الأقوال و سماع الغيبة وترك الأمر بالمعروف وأكل الشبهات و سبّ الولد والغلام وضربهما بحكم الغضب زائداً على حدّ المصلحة و إكرام السلاطين الظلمة و مصادقة الفجّار و التكاسل عن تعليم الأهل و الولد جميع ما يحتاجون إليه في أمر الدِّين ، فهذه ذنوب لا يتصوَّر أن ينفكَّ الشاهد عن قليلها و كثيرها إلّا بأن يعتزل الناس ويتجرَّد لأمر الآخرة و يجاهد نفسه مدَّة بحيث يبقى على سجيّته مع المخالطة بعد ذلك و لو لم يقبل إلّا قول مثله لعزَّ وجوده و بطلت الأحكام و الشهادات ، و ليس لبس الحرير وسماع الملاهي واللّعب بالنرد ومجالسة أهل الشرب في وقت الشرب والخلوة بالأجنبيّات و أمثال هذه الصغائر من هذا القبيل فإلى مثل هذا المنهاج ، ينبغي أن ينظر في قبول الشهادة و ردِّها لا إلى الكبيرة والصغيرة ، ثمَّ آحاد هذه الصّغائر الّتي لا تردُّ الشهادة بها لو واظب عليها لأثر في ردّ الشهادة كمن اتّخذ الغيبة و ثلب الناس عادة و كذلك مجالسة الفجّار و مصادقتهم و الصغيرة تكبر بالمواظبة .

أقول: و من طريق الخاصّة عن علقمة أنّه قال للصّادق عليه السلام : يابن رسول الله أخبرني عمّن تقبل شهادته ومن لا تقبل ؟ فقال : يا علقمة كلٌّ من كان على فطرة الإسلام جازت شهادته ، قال : فقلت له : تقبل شهادة مقترف بالذُّنوب ؟ فقال : ياعلقمة لو لم تقبل شهادة المقترفين للذُّنوب لما قبلت إلّا شهادة الأنبياء و الأوصياء لأنّهم هم المعصومون دون سائر الخلق فمن لم تره بعينك يرتكب ذنباً أو لم يشهد عليه بذلك شاهدان فهو من أهل العدالة والستر و شهادته مقبولة و إن كان في نفسه مذنباً

و من أغتابه بما فيه فهو خارج عن ولاية الله داخل في ولاية الشيطان »[١].

(بيان كيفية توزع الدرجات والدركات)
(في الآخرة على الحسنات والسيئات في الدنيا)

إعلم أنّ الدُّنيا من عالم الملك والشهادة و الآخرة من عالم الغيب والملكوت و أعني بالدُّنيا حالتك قبل الموت و بالآخرة حالتك بعد الموت فدنياك و آخرتك صفاتك و أحوالك يسمّى القريب الدّاني منها دنيا و المتأخّرة آخرة و نحن الآن نتكلّم من الدُّنيا في الآخرة فإنّا الآن نتكلّم في الدُّنيا وهو عالم الملك وغرضنا شرح الآخرة و هي عالم الملكوت ولا يتصوَّر شرح عالم الملكوت في عالم الملك إلّا بضرب الأمثال ولذلك قال تعالى : « وتلك الأمثال نضربها للناس ومايعقلها إلّاالعالمون»[٢] و هذا لأنّ عالم الملك نوم بالإضافة إلى عالم الملكوت و لذلك قال عليه السلام : « الناس نيامٌ فإذا ماتوا انتبهوا »[٣] وما سيكون في اليقظة لا يتبيّن لك في النّوم إلّا بضرب الأمثال المحوجة إلى التعبير و كذلك ما سيكون في يقظة الآخرة لا يتبيّن في نوم الدُّنيا إلّا في كسوة الأمثال وأعني بكسوة الأمثال ما تعرفه من علم التعبير ويكفيك منه إن كنت فطناً ثلاثة أمثلة فقد جاء رجل إلى ابن سيرين و قال : رأيت كأن في يدي خاتماً أختم به أفواه الرّجال و فروج النساء فقال : إنّك مؤذّن تؤذّن في رمضان قبل طلوع الفجر فقال: صدقت . وجاءه آخر فقال: رأيت كأنّي أصبُّ الزّيت في الزّيتون فقال : إن كان تحتك جارية اشتريتها ففتّش عن حالها فإنّها اُمّك لأنّ الزّيتون أصل الزّيت فهو ردٌّ إلى الأصل فنظر فإذا جاريته كانت اُمّه وقد سبيت في صغره ، و قال له آخر : رأيت كأنّي أقلّد الدرّ في أعناق الخنازير فقال : إنّك تعلّم الحكمة غير أهلها فكان كما قال ، فالتعبير من أوّله إلى آخره مثال يعرفك طريق ضرب الأمثال وإنّما نعني بالمثل أداء المعنى في صورة إن نظر إلى معناه وجده

(١) رواه الصدوق ـ رحمه الله ـ في المجالس ص ٦٣ .
(٢) العنكبوت : ٤٣ .
(٣) قال العراقي : لم أجده مرفوعاً وانما يعزى الى علي بن أبي طالب عليه السلام .

صادقاً و إن نظر إلى صورته كان كاذباً فالمؤذّن إن نظر إلى صورة الخاتم والختم به على الفروج رآه كاذباً فإنّه لم يختم به قطّ وإن نظر إلى معناه وجده صادقاً إذ قد صدر منه روح الختم و معناه و هو المنع الّذي يراد الختم له ، و ليس للأنبياء أن يتكلّموا مع الخلق إلّا بضرب الأمثال لأنّهم كلّفوا أن يكلّموا الناس على قدر عقولهم ، و قدر عقولهم أنّهم في النوم والنائم لا يكشف له عن شيء إلّا بمثل فإذا ماتوا انتبهوا و عرفوا أنّ المثل صادقٌ و لذلك قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرّحمن » [1] و هو من المثال الّذي لا يعقله إلّا العالمون فأمّا الجاهل فلا يجاوز حدّه ظاهر المثال لجهله بالتفسير الّذي يسمّى تأويلاً كما يسمّى تفسير ما يرى من الأمثلة في النوم تعبيراً فيثبت لله يداً وأصبعاً تعالى الله عن قوله . و كذلك في قوله عليه السلام : « إنّ الله خلق آدم على صورته » [2] فإنّه لا يفهم من الصورة إلّا اللّون والشكل والهيئة فيثبت لله تعالى مثل ذلك تعالى الله عن قوله علواً كبيراً و من ههنا زلّ من زلّ في الصفات الإلهيّة حتّى في الكلام و جعلوه صوتاً و حرفاً إلى غير ذلك من الصفات والقول فيه يطول ، و كذلك قد يرد في أمر الآخرة ضرب أمثلة يكذّب بها الملحد لجمود نظره على ظاهر المثال و يناقضه عند قوله صلى الله عليه وآله : «يؤتى بالموت يوم القيامة في صورة كبش أملح فيذبح» [3] فيثور الملحد الأحمق ويكذّب به و يستدلّ على كذب الأنبياء و يقول : ياسبحان الله الموت عَرَض والكبش جسم فكيف ينقلب العرَض جسماً وهل هذا إلّا محال؟! ولكن الله تعالى عزل هؤلاء الحمقى

---

(١) أخرجه الحاكم ج ٤ ص ٣٢١ بنحوه و قد تقدم .

(٢) أخرجه مسلم ج ٨ ص ١٤٩ في حديث . وروى الصدوق - رحمه الله - في العيون والتوحيد باسناده عن الحسين بن خالد قال قلت للرضا عليه السلام : «يا ابن رسول الله ان الناس يروون أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال . « ان الله خلق آدم على صورته » فقال : قاتلهم الله لقد حذفوا أول الحديث ، ان رسول الله صلى الله عليه وآله مر برجلين يتسابان فسمع أحدهما يقول لصاحبه : قبح الله وجهك و وجه من يشبهك ، فقال : يا عبدالله لا تقل هذا لاخيك فان الله تعالى خلق آدم على صورته » .

(٣) أخرجه البخاري و مسلم ج ٨ ص ١٥٢ من حديث أبي سعيد .

عن معرفة أسرار الله تعالى فقال : « و ما يعقلها إلّا العالمون » و لا يدري المسكين أنّ من قال : رأيت في منامي أنّه قد جيىء بكبش و قيل : هذا هو الوباء الّذي في البلد وذبح ، فقال المعبّر : صدقت والأمر كما رأيت وهذا يدلّ على أنّ الوباء ينقطع ولا يعود قطّ لأنّ المذبوح وقع اليأس منه ، فاذن المعبّر صادق في تصديقه وهو صادق في رؤيته وترجع حقيقته إلى أنّ الملك الموكّل بالرّؤياء و هو الّذي يطلع الأرواح عند النوم على ما في اللّوح المحفوظ عرفه بما في اللّوح المحفوظ بمثال ضربه له لأنّ النائم إنّما يحتمل المثال فكان مثاله صادقاً وكان معناه صحيحاً فالرّسل أيضاً إنّما يكلّمون الناس في الدّنيا و هي بالاضافة إلى الآخرة نوم فيوصلون المعاني إلى أفهامهم بالأمثلة حكمة من الله ولطفاً بعباده و تيسيراً لادراك ما يعجزون عن إدراكه دون ضرب المثل فقوله : «يؤتى بالموت في صورة كبش أملح » مثال ضربه ليوصل إلى الأفهام حصول اليأس من الموت و قد جبلت القلوب عن التأثّر بالأمثلة و ثبوت المعاني فيها بواسطتها ولذلك عبّر القرآن بقوله : « كن فيكون » عن نهاية القدرة و عبّر صلى الله عليه وآله وسلم بقوله : « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرّحمن » عن سرعة التقليب و قد أشرنا إلى حكمة ذلك في كتاب قواعد العقائد من ربع العبادات ، فلنرجع الآن إلى الغرض فالمقصود أنّ تعريف توزّع الدّرجات والدّركات على الحسنات والسيّئات لايمكن إلّا بضرب الأمثال فليفهم من المثل الّذي نضربه معناه لا صورته فنقول :

الناس في الآخرة ينقسمون أصنافاً و تتفاوت درجاتهم و دركاتهم في السعادة و الشقاوة تفاوتاً لا يدخل تحت الحصر كماتفاوتت في سعادة الدّنيا وشقاوتها ولاتفارق الآخرة الدّنيا في هذا المعنى أصلاً البتّة ، فانّ مدبّر الملك والملكوت واحد لا شريك له فسنّته الصّادرة عن إرادته الأزليّة مطّردة لا تبديل لها إلّا أنّا إن عجزنا عن إحصاء آحاد الدّرجات فلانعجز عن الأجناس فنقول : الناس في الآخرة ينقسمون بالضرورة إلى أربعة أقسام هالكين و معذّبين و ناجين و فائزين ، و مثاله في الدّنيا أن يستولي ملك من الملوك على إقليم فيقتل بعضهم فهم الهالكون و يعذّب بعضهم

مدّة ولا يقتلهم فهم المعذّبون و يخلّي بعضهم فهم الناجون و يخلع على بعضهم فهم الفائزون فإن كان الملك عادلاً لم يقسّمهم كذلك إلّا باستحقاق فلا يقتل إلّا جاحداً لاستحقاق الملك ، معانداً له في أصل الدّولة ولا يعذّب إلّا من قصّر في خدمته مع الاعتراف بملكه و علوّ درجته ولا يخلّي إلّا معترفاً له برتبة الملك لكنّه لم يقصّر ليعذّب ولم يخدم ليخلع عليه ولا يخلع إلّا على من أبلى عمره في الخدمة و النصرة ثمّ ينبغي أن يكون خلع الفائزين متفاوتة الدّرجات بحسب درجات خدمتهم وإهلاك الهالكين إمّا تخفيفاً بجزّ الرّقبة أو تنكيلاً بالمثلة بحسب درجات معاندتهم وتعذيب المعذّبين في الخفّة والشدّة و طول المدّة وقصرها واتّحاد أنواعها و اختلافها بحسب درجات تقصيرهم فتنقسم كلّ رتبة من هذه الرّتب إلى درجات لا تنحصر ولا تحصى فكذلك فافهم أنّ الناس في الآخرة هكذا يتفاوتون فمن هالك و من معذّب مدّة ومن ناج يحلّ في دار السلام ومن فائز ، والفائزون ينقسمون إلى من يحلّون في جنّات عدن أو جنّات المأوى أو جنّات الفردوس ، والمعذّبون ينقسمون إلى من يعذّب قليلاً و إلى من يعذّب ألف سنة إلى سبعة آلاف سنة و ذلك آخر من يخرج من النّار[1] كما ورد في الخبر ، و كذلك الهالكون الآيسون عن رحمة الله تتفاوت دركاتهم و هذه الدّرجات بحسب اختلاف الطاعات والمعاصي فلنذكر كيفيّة توزّعها عليها .

أما الرتبة الاُولى و هي الهلاك و نعني بالهالكين الآيسين من رحمة الله إذ الّذي قتله الملك في المثال الّذي ضربناه آيس من رضا الملك وإكرامه فلا تغفل عن معاني المثال و هذه الدّرجة لا تكون إلّا للجاحدين والمعرضين المتجرّدين للدّنيا المكذّبين بالله و برسله و بكتبه فإنّ السعادة الاُخرويّة في القرب من الله و النظر إلى وجهه الكريم و ذلك لا ينال أصلاً إلّا بالمعرفة الّتي يعبّر عنها بالإيمان و التصديق ، و الجاحدون هم المنكرون ، والمكذّبون هم الآيسون من رحمة الله أبد الآباد ، و هم الّذين يكذّبون بربّ العالمين و بأنبيائه المرسلين وهم عن ربّهم يومئذ محجوبون لا محالة و كلّ محجوب عن محبوبه فمحول بينه و بين ما يشتهيه فهو لا محالة يكون محترقاً مع نار جهنّم بنار الفراق ولذلك قال العارفون : ليس خوفنا

(١) أخرجه الترمذى الحكيم فى النوادر .

من نار جهنّم ولا رجاؤنا للحور العين وإنّما مطلبنا اللّقاء و مهربنا من الحجاب فقط» و قالوا : من يعبد الله بعوض فهو لئيم ، إذ يعبده لطلب جنّته أو لخوف ناره بل العارف يعبده لذاته فلا يطلب إلّا ذاته فقط؛ فأمّا الحور و الفواكه فقد لا يشتهيها و أمّا النّار فقد لا يتّقيها إذ نار الفراق إذا استولت ربّما غلبت النّار المحرقة للأجسام فإنّ نار الفراق نار الله الموقدة الّتي تطّلع على الأفئدة و نار جهنّم لا شغل لها إلّا مع الأجسام و ألم الأجسام يستحقر مع ألم الفؤاد و لذلك قيل :

ففي فؤاد المحبّ نار جوى ✡ أحرّ نار الجحيم أبردها

ولا ينبغي أن تنكر هذا في عالم الآخرة إذ له نظير مشاهد في عالم الدّنيا فقد رئي من غلب عليه الوجد فعدا على النار و على اُصول القصب الجارحة للقدم و لا يحسّ به لفرط غلبة ما في جوفه ، ويرى الغضبان يستولى عليه الغضب في القتال فتصيبه جراحات وهو لا يشعر بها في الحال لأنّ الغضب نار في القلب ، قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « الغضب قطعة من النّار »(١) واحتراق الفؤاد أشدّ من احتراق الأجساد و الأشدّ يبطل الإحساس بالأضعف كما تراه . فليس الهلاك من النار والسيف إلّا من حيث أنّه يفرّق بين جزئين يرتبط أحدهما بالآخر برابطة التأليف المتمكّن في الأجسام ، فالّذي يفرّق بين القلب وبين محبوبه المرتبط به برابطة تأليف أشدّ إحكاماً من تأليف الأجسام فهو أشدّ إيلاماً إن كنت من أرباب البصائر و أرباب القلوب و لا يبعد أن لا يدرك مَن لا قلب له شدّة هذا الألم و يستحقره بالإضافة إلى ألم الجسم ، فالصبيّ لو خير بين ألم الحرمان عن الكرة والصولجان و بين ألم الحرمان عن رتبة السلطان لم يحسّ بألم الحرمان عن رتبة السّلطان أصلاً و لم يعد ذلك ألماً ، و قال : العدو في الميدان مع الصّولجان أحبّ إليّ من سرير ألف سلطان مع الجلوس عليه ، بل من تغلبه شهوة البطن لو خير بين الهريسة والحلواء و بين فعل جميل يقهر به الأعداء و يفرح به الأصدقاء لآثر الهريسة والحلواء و هذا كلّه لفقد المعنى الّذي بوجوده يصير الجاه محبوباً و وجود المعنى الّذي بوجوده يصير الطعام

(١) تقدم فى كتاب الغضب .

لذيذاً و ذلك لمن استرقته صفات البهائم والسباع ولم تظهر فيه الصفات الملكيّة الّتي لا يناسبها ولا يلذّها إلّا القرب من ربّ العالمين ، ولا يؤلمها إلّا البعد و الحجاب ، و كما لايكون الذّوق إلّا في اللّسان و السمع إلّا في الآذان فلا تكون هذه الصفة إلّا في القلب ، فمن لا قلب له ليس له هذا الحسّ كمن لا سمع له و لا بصر ليس له لذّة الألحان و حسن الصور و الألوان و ليس لكلّ إنسان قلبٌ و لو كان لما صحّ قوله تعالى : « إنّ في ذلك لذكرى لمن كان له قلب » (١) فجعل من لم يتذكّر بالقرآن مفلساً من القلب ، و لست أعني بالقلب هذا اللّحم الّذي تكتنفه عظام الصدر ، بل أعني به السرّ الّذي هو من عالم الأمر و هذا اللّحم الّذي هو من عالم الخلق عرشه و الصدر كرسيّه و ساير الأعضاء عالمه و مملكته و لله الخلق و الأمر جميعاً و لكن ذلك السرّ هو الّذي قال الله تعالى فيه : « قل الرّوح من أمر ربّي » و هو الملك والأمير لأنّ بين عالم الأمر و بين عالم الخلق ترتيباً ، و عالم الأمر أمير على عالم الخلق و هي اللّطيفة الّتي إذا صلحت صلح لها سائر الجسد ، من عرفها فقد عرف نفسه ومن عرف نفسه فقد عرف ربّه ، وعند ذلك يشمّ العبد مبادي روائح المعنى المطويّ تحت قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « إنّ الله خلق آدم على صورته » و ينظر بعين الرّحمة على الجامدين على ظاهر لفظه وإلى المتعسّفين في طرق تأويله وإن كانت رحمته للجامد على اللّفظ أكثر من رحمته للمتعسّف في التأويل لأنّ الرّحمة على قدر المصيبة و مصيبة اُولئك أكثر و إن اشتركوا في مصيبة الحرمان من حقيقة الأمر فالحقيقة فضل الله يؤتيه من يشاء و الله ذو الفضل العظيم ، وهي حكمته يخصّ بها من يريد « و من يؤت الحكمة فقد اُوتي خيراً كثيراً » ولنعد إلى الغرض فقد أرخينا الطول و طوّلنا النفس في أمر هو أعلى من علوم المعاملة الّتي نقصدها في هذا الكتاب فقد ظهر أنّ رتبة الهلاك ليست إلّا للجهّال المكذّبين و شهادة ذلك من كتاب الله تعالى و سنّة رسوله لا تدخل تحت الحصر فلذلك لم نورده .

الرتبة الثانية : رتبة المعذّبين و هذه رتبة من تحلّى بأصل الإيمان ولكن

(١) سورة ق : ٣٧ .

قصّر في الوفاء بمقتضاه فإنّ رأس الإيمان هو التوحيد و هو أن لا يعبد إلّا الله ، و من اتّبع هواه فقد اتّخذ إلهه هواه فهو موحّد بلسانه لا بالحقيقة ، بل معنى قولك : «لا إله إلّا الله » معنى قوله تعالى : « قل الله ثمّ ذرهم »[١] و هو أن تذر بالكلّية غير الله و معنى قوله « الّذين قالوا ربّنا الله ثمّ استقاموا »[٢] و لمّا كان الصراط المستقيم الّذي لا يكمل التوحيد إلّا بالاستقامة عليه أدقّ من الشعر و أحدّ من السيف مثل الصراط الموصوف في الآخرة فلا ينفكّ بشرٌ عن ميل عن الاستقامة و لو في أمر يسير ، إذا لا يخلو عن اتّباع الهوى و لو في فعل قليل وذلك قادح في كمال التوحيد بقدر ميله عن الصراط المستقيم فذلك يقتضي لا محالة نقصاناً في درجة القرب و مع كلّ نقصان ناران نار الفراق لذلك الكمال الفائت بالنقصان ، و نار جهنّم كما وصفها القرآن فيكون كلّ مائل عن الصراط المستقيم معذّباً مرّتين من وجهين ولكن شدّة ذلك العذاب وخفّته و تفاوته بحسب طول المدّة إنّما يكون بسبب أمرين أحدهما قوّة الإيمان و ضعفه ، و الثاني كثرة اتّباع الهوى و قلّته و إذ لا يخلو بشرٌ في غالب الأمر عن واحد من الأمرين قال الله تعالى : « و إن منكم إلّا واردها كان على ربّك حتماً مقضيّاً ۞ ثمّ ننجّي الّذين اتّقوا ونذر الظالمين فيها جثيّاً »[٣] ولذلك قال الخائفون من السلف : إنّما خوفنا لأنّا تيقّنّا أنّا على النار واردون و شككنا في النجاة ، و لما روى الحسن الخبر الوارد فيمن يخرج من النار بعد ألف عام و أنّه ينادي يا حنّان يا منّان .[٤] قال الحسن : يا ليتني كنت ذلك الرجل ؟ و اعلم أنّ في الأخبار ما يدلّ على أنّ آخر من يخرج من النار بعد سبعة آلاف سنة و أنّ الاختلاف في المدّة بين اللّحظة و بين سبعة آلاف سنة حتى يجوز بعضهم على النار كبرق خاطف ولا يكون له فيها لبث ، و بين اللّحظة وبين سبعة

(١) الانعام : ٩١ . (٢) فصلت : ٣٠ .

(٣) مريم : ٧١ و ٧٢ .

(٤) قال العراقى : أخرجه أحمد و أبو يعلى من رواية أبى ظلال القسملى عن أنس و أبو ظلال ضعيف واسمه هلال بن ميمون .

آلاف سنة درجات متفاوتة من اليوم و الاُسبوع والشهر و سائر المدد وأنّ الاختلاف بالشدّة لا نهاية لأعلاه و أدناه التعذيب بالمناقشة في الحساب كما أنّ الملك قد يعذّب بعض المقصّرين في الأعمال بالمناقشة في الحساب ثمّ يعفو ، و قد يضرب بالسياط ، و قد يعذّب بأنواع اُخر من العذاب ، و يتطرّق إلى العذاب اختلاف ثالث غير المدّة و الشدّة و هو اختلاف الأنواع إذ ليس من يعذّب بمصادرة المال فقط كمن يعذّب بأخذ المال و بقتل الولد و استباحة الحريم وتعذيب الأقارب والضرب و قطع اللّسان و اليد و الأنف و الاُذن و غيره ، فهذه الاختلافات ثابتة في عذاب الآخرة دلّ عليها قواطع الشرع وهي بحسب اختلاف قوّة الإيمان و ضعفه و كثرة الطاعات و قلّتها و كثرة السيّئات و قلّتها . أمّا شدّة العذاب فبشدّة قبح السيّئات ، و كبرها ، وأمّا كثرته فبكثرتها ، وأمّا اختلاف أنواعه فباختلاف أنواع السيّئات وقد انكشف هذا لأرباب القلوب مع شواهد القرآن بنور الإيمان ، و هو المعنيّ بقوله تعالى : « و ما ربّك بظلّام للعبيد » (١) و بقوله : « اليوم تجزى كلّ نفس بما كسبت » (٢) و بقوله : « و أن ليس للإنسان إلّا ما سعى » (٣) و بقوله : « فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره ✡ و من يعمل مثقال ذرّة شرّاً يره » (٤) إلى غير ذلك ممّا ورد في الكتاب و السنّة من كون الثواب و العقاب جزاء على الأعمال و كلّ ذلك بعدل لا ظلم فيه ، و جانب العفو و الرّحمة أرجح إذ قال تعالى فيما أخبر عنه نبيّنا صلّى الله عليه وآله وسلّم « سبقت رحمتي غضبي » (٥) و قال تعالى : « و إن تك حسنة يضاعفها و يؤت من لدنه أجراً عظيماً » (٦) فإذن هذه الاُمور الكلّية من ارتباط الدّرجات و الدّركات بالحسنات و السيّئات معلومة بقواطع الشرع و نور المعرفة ، فأمّا التفصيل فلا يعرف إلّا ظنّاً و مستنده ظواهر الأخبار و نوع حدس يستمدّ من أنوار الاستبصار بعين الاعتبار فنقول : كلّ من أحكم أصل الإيمان واجتنب جميع الكبائر وأحسن جميع

(١) فصلت : ٤٦ . (٢) غافر : ١٧ .
(٣) النجم : ٣٩ . (٤) الزلزلة : ٧ و ٨ .
(٥) أخرجه البخارى ج ٩ ص ١٦٦ و مسلم ج ٨ ص ٩٥ من حديث أبي هريرة .
(٦) النساء : ٤٠ .

الفرائض أعني الأركان الخمسة ولم يكن منه إلاّ صغائر متفرّقة لم يصرّ عليها فيشبه أن يكون عذابه المناقشة في الحساب فقط فإنّه إذا حوسب رجّحت حسناته على سيّئاته إذ ورد في الأخبار « أنّ الصلوات الخمس و الجمعة و صوم رمضان كفّارة لما بينهنّ » [١] و كذلك اجتناب الكبائر بحكم نصّ القرآن مكفّر للصغائر وأقلّ درجات التكفير أن يدفع العذاب إن لم يكن يدفع الحساب و كلّ من هذا حاله فقد ثقلت موازينه فينبغي أن يكون بعد ظهور الرجحان في الميزان و بعد الفراغ من الحساب في عيشة راضية ، نعم التحاقه بأصحاب اليمين أو بالمقرّبين ونزوله في جنّات عدن أو في الفردوس الأعلى ، فذلك يتبع أصناف الإيمان لأنّ الإيمان إيمانان إيمان تقليدي كإيمان العوام يصدقون بما يسمعون و يستمرّون عليه ، و إيمان كشفي يحصل بانشراح الصدر بنور الله حتّى ينكشف فيه الوجود كلّه على ما هو عليه فيتّضح أنّ الكلّ إلى الله مرجعه و مصيره إذ ليس في الوجود إلاّ الله و صفاته وأفعاله فهذا الصنف هم المقرّبون النازلون في الفردوس الأعلى ، و هم على غاية القرب من الملأ الأعلى ، وهم أيضاً على أصناف فمنهم السابقون و منهم من دونهم ، و تفاوتهم بحسب تفاوت معرفتهم بالله تعالى و درجات العارفين في المعرفة لا تنحصر إذ الاحاطة بكنه جلال الله غير ممكن ، و بحر المعرفة ليس له ساحل و عمق ، و إنّما يغوص فيه الغوّاصون بقدر قواهم و بقدر ما سبق لهم من الله في الأزل ، فالطريق إلى الله لا نهاية لمنازله ، فالسالكون سبيل الله لا نهاية للدرجاتهم ، و أمّا المؤمن إيماناً تقليديّاً فهو من أصحاب اليمين و درجته دون درجة المقرّبين و هم أيضاً على درجات فالأعلى من درجات أصحاب اليمين يقارب رتبته رتبة الأدنى من درجات المقرّبين ، هذا حال من اجتنب كلّ الكبائر و أدّى الفرائض كلّها أعنى الأركان الخمسة الّتي هي النطق بكلمة الشهادة باللّسان و الصلاة والزكاة والصوم والحجّ وأمّا من ارتكب كبيرة أو كبائر أو أهمل بعض أركان الإسلام فإن تاب توبة نصوحاً قبل قرب الأجل التحق بمن لم يرتكب لأنّ التائب من الذّنب كمن لا ذنب له ، والثوب المغسول كالّذي

(١) تقدم فى الباب آنفاً .

لم يتوسّخ أصلاً ، و إن مات قبل التوبة فهذا أمره مخطر عندالموت ، إذ ربّما يكون موته على الإصرار سبباً لتزلزل إيمانه فيختم له بسوء الخاتمة لاسيّما إذاكان إيمانه تقليدياً فإنّ التقليد وإن كان جزماً فهو قابل للانحلال بأدنى شكّ وخيال ، والعارف البصير أبعد من أن يخاف عليه سوء الخاتمة و كلاهما إن ماتا على الإيمان يعذّبان - إلّا أن يعفوالله - عذاباً يزيدعلى عذاب المناقشة في الحساب ، وتكون كثرة العذاب من حيث المدّة بحسب كثرة مدّة الإصرار ، ومن حيث الشدّة بحسب قبح الكبائر ، و من حيث اختلاف النوع بحسب اختلاف أصناف السيّئات ، وعند انقضاء مدّة العقاب ينزل البله المقلّدون في درجات أصحاب اليمين و العارفون المستبصرون في أعلى علّيّين ، ففي الخبر «آخر من يخرج من النار يعطى مثل الدّنيا كلّها عشرة أضعاف» (1) و لا تظننّ أنّ المراد به تقديره بالمساحة لأطراف الأجسام بأن تقابل فرسخ بفرسخين أوعشرة بعشرين فإنّ هذا جهل بطريق ضرب الأمثال بل هذا كقول القائل أخذ منه جملاً وأعطاه عشرة أمثاله ، و كان الجمل يساوي عشرة دنانير فأعطاه مائة دينار فإن لم يفهم من المثل إلّا المثل في الوزن و الثقل فلا تكون مائة دينار لو وضعت في كفّة الميزان و الجمل في الكفّة الاُخرى عشر عشيره بل هو موازنة معاني الأجسام و أرواحها دون أشخاصها و هياكلها فإنّ الجمل لا يقصد لثقله و طوله و عرضه و مساحته بل لماليّته فروحه الماليّة و جسمه اللّحم و الدّم و مائة دينار عشرة أمثاله بالموازنة الروحانيّة لا بالموازنة الجسمانيّة ، وهذا صادقٌ عندمن يعرف روح الماليّة من الذّهب والفضّة بل لوأعطاه جوهرة وزنها مثقال وقيمتها مائة دينار و قال : أعطيته عشرة أمثاله كان صادقاً ولكن لا يدرك صدقه إلّا الجوهريّ فإنّ روح الجوهريّة لا تدرك بمجرّد البصر بل بفطنة اخرى وراء البصر فلذلك يكذّب به الصبيّ بل القرويّ و البدويّ و يقول : ما هذه الجوهرة إلّا حجر وزنه مثقال و وزن الجمل ألف ألف مثقال فقد كذب في قوله إنّي أعطيت عشرة أمثاله و الكاذب بالتحقيق هو الصبيّ ولكن لاسبيل إلى تحقيق ذلك عنده إلّا بأن ينتظر

(1) أخرجه مسلم ج ١ ص ١١٩ .

به البلوغ و الكمال و أن يحصل في قلبه النور الّذي به يدرك أرواح الجواهر وسائر الأموال فعند ذلك ينكشف له الصدق و العارف عاجز عن تفهيم المقلّد القاصر صدق رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم في هذه الموازنة إذ يقول: «الجنّة في السماوات» [١] كما ورد في الأخبار و السماوات من الدّنيا فكيف يكون عشرة أمثال الدّنيا في الدّنيا، و هذا كما يعجز البالغ عن تفهيم الصبيّ تلك الموازنة و كذلك تفهيم البدويّ و كما أنّ الجوهريّ مرحوم إذا بلي بالبدويّ و القرويّ في تفهيم تلك الموازنة فالعارف مرحوم إذا بلي بالبليد الأبله في تفهيم هذه الموازنة و لذلك قال صلّى الله عليه و آله و سلّم: «أرحموا ثلاثة: عالماً بين الجهّال، وغنيّ قوم افتقر وعزيز قوم ذلّ» [٢]، والأنبياء مرحومون بين الاُمّة بهذا السبب و مقاساتهم لقصور عقول الاُمّة فتنة لهم و امتحان وابتلاء من الله وبلاء موكّل بهم سبق بتوكيله القضاء الأزلي وهو المعنيّ بقوله عليه السلام «البلاء موكّل بالأنبياء ثمّ الأولياء ثمّ الأمثل فالأمثل» [٣] فلا تظننّ أنّ البلاء بلاء أيّوب عليه السلام و هو الّذي ينزل بالبدن فإنّ بلاء نوح عليه السلام أيضاً من البلاء العظيم إذ بلي بجماعة كان لا يزيدهم دعاؤه إلى الله إلّا فراراً، و لذلك لما تأذّى رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم بكلام بعض الناس قال: «رحم الله أخي موسى لقد اُوذي بأكثر من هذا فصبر» [٤] فإذن كما لا يخلو الأنبياء عن الابتلاء بالجاحدين فلا يخلو الأولياء والعلماء عن الابتلاء بالجاهلين، ولذلك قلّ ما ينفكّ الأولياء عن ضروب من الإيذاء وأنواع البلايا بالإخراج من البلاد و السعاية بهم إلى السلاطين و الشهادة عليهم بالكفر و الخروج عن الدّين و واجب أن يكون أهل المعرفة عند أهل الجهل من الكافرين كما يجب أن يكون المعتاض عن الجمل الكبير جوهرة صغيرة عند الجاهلين من

(١) روى البخارى ج ٩ ص ١٥٣ فى حديث هكذا «اذا سألتم الله فسألوه الفردوس فانه أوسط الجنة و أعلى الجنة و فوقه عرش الرحمن و منه تفجر أنهار الجنة». و يفهم منه أن الجنة دون العرش و كون العرش فوق السماوات ظاهر الاخبار.

(٢) أخرجه ابن حبان فى الضعفاء من رواية عيسى بن طهمان عن أنس.

(٣) أخرجه الترمذى ج ٩ ص ٢٤٣ من حديث سعد بن أبى وقاص و صححه.

(٤) أخرجه البخارى ج ٧ ص ١١٩ وأحمد من حديث ابن مسعود بسند صحيح.

المبذّرين المضيّعين .

فإذا عرفت هذه الدقائق فآمن بقوله عليه السلام : « إنّه يعطى آخر من يخرج من النار مثل الدّنيا عشر مرّات » و اجتهد أن لا تعجز عن درك النكتة الدّقيقة الّتي ذكرنا وإيّاك أن تقصر بتصديقك على ما يدركه البصر و الحواسّ فقط فتكون حماراً برجلين لأنّ الحمار يشاركك في الحواس الخمس وإنّما أنت مفارق للحمار بسرّ إلهيّ عرض على السماوات و الأرض و الجبال فأبين أن يحملنه و أشفقن منه فإدراك ما يخرج عن عالم الحواسّ الخمس لا يصادف إلاّ في عالم ذلك السرّ الّذي فارقت به الحمار و سائر البهائم ، فمن ذهل عن ذلك و أبطله و أهمله و قنع بدرجة البهائم ، و لم يجاوز المحسوسات فهو الّذي أهلك نفسه بتعطيلها و نسيها بالاعراض عنها و الله يقول : « و لا تكونوا كالّذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم » (١) و كلّ من لم يعرف إلاّ المدرك بالحواسّ فقد نسي الله إذ ليس ذات الله مدركاً في هذا العالم بالحواسّ الخمس و كلّ من نسي الله أنساه الله لا محالة نفسه و نزل إلى رتبة البهائم و ترك الترقّي إلى اُفق الملإ الأعلى ، و خان في الأمانة الّتي أودعها الله و أنعم بها عليه كافراً لنعمته و متعرّضاً لنقمته ، إلاّ أنّه أسوء حالاً من البهيمة ، فإنّ البهيمة تتخلّص بالموت و أمّا هذا فعنده أمانة سترجع لا محالة إلى مودعها فإليه مرجع الأمانة و مصيرها ، و تلك الأمانة كالشمس الزّاهرة و إنّما هبطت إلى هذا القالب الفاني وغربت فيه ، و ستطلع هذه الشمس عند خراب القالب من مغربها و تعود إلى بارئها و خالقها إمّا مظلمة منكسفة و إمّا زاهرة مشرقة ، و الزاهرة المشرقة غير محجوبة عن الحضرة الرّبوبيّة و المظلمة أيضاً راجعة إلى الحضرة إذ المرجع و المصير للكلّ إليه إلاّ أنّها ناكسة رأسها عن جهة أعلى علّيّين إلى جهة أسفل سافلين ، و لذلك قال تعالى : « و لو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربّهم » (٢) فبيّن أنّهم عند ربّهم إلاّ أنّهم منكوسون منحوسون قد انقلبت وجوههم إلى أقفيتهم و انتكست رؤسهم عن جهة فوق إلى جهة أسفل و ذلك

(١) الحشر : ١٩ . (٢) السجدة : ١٢ .

حكم الله تعالى فيمن حرمه توفيقه و لم يهده طريقه ، فنعوذ بالله من الضلال و النزول في منازل الجهّال .

فهذا حكم انقسام من يخرج من النار و يعطى مثل عشرة أمثال الدّنيا أو أكثر و لا يخرج من النار إلّا موحّد ، و لست أعني بالتوحيد أن يقول بلسانه : « لا إله إلّا الله » فإنّ اللّسان من عالم الملك و الشهادة فلا ينفع إلّا في عالم الملك فيدفع السيف عن رقبته و أيدي الغانمين عن ماله و مدّة بقاء الرّقبة و المال مدّة الحياة فحيث لاتبقى رقبة ولا مال لاينفع القول باللّسان ، و إنّما ينفع الصدق في التوحيد و كمال التوحيد أن لا يرى الاُمور كلّها إلّا من الله وعلامته أن لا يغضب على أحد من الخلق بما يجري عليه إذ لا يرى الوسائط و إنّما يرى مسبّب الأسباب كما سيأتي تحقيقه في التوكّل ، و هذا التوحيد متفاوت ، فمن الناس من له من التوحيد مثل الجبال ، و منهم من له مثقال ، و منهم من له مقدار خردلة و ذرّة ، فمن في قلبه مثقال دينار فهو أوّل مخرج من النار ، و في الخبر يقال : « أخرجوا من النار من في قلبه مثقال دينار من إيمان »[1] « و آخر من يخرج من النار من في قلبه مثقال ذرّة من إيمان »[2] و ما بين المثقال و الذرّة على تفاوت درجاتهم يخرجون بين طبقة المثقال وبين طبقة الذرّة ، والموازنة بالمثقال والذرّة على سبيل ضرب المثل كما ذكرنا في الموازنة بين أعيان الأموال وبين النقود ، وأكثر ما يدخل الموحّدين النار مظالم العباد ، فديوان العباد هو الدّيوان الّذي لا يترك و أمّا بقيّة السيّئات فيتسارع العفو و التكفير إليها ففي الأثر أنّ العبد ليوقف بين يدي الله عزّ و جلّ وله من الحسنات أمثال الجبال لو سلمت له لكان من أهل الجنّة ، فيقوم أصحاب المظالم فيكون قد سبّ عرض هذا وأخذ مال هذا و ضرب هذا فينقص من حسناته حتّى لا يبقى له حسنة فتقول الملائكة : يا ربّنا قد فنيت حسناته و بقي طالبون كثير فيقال : ألقوا من سيّئاتهم على سيّئاته وصكّوا له صكّاً إلى النار ، و كما يهلك هو بسيّئة غيره بطريق القصاص فكذلك ينجو المظلوم بحسنة الظالم إذ ينقل إليه

(١) و (٢) أخرجهما ابن ماجه تحت رقم ٥٩ و ٦٠ باختلاف في اللفظ .

عوضاً عمّا ظلمه به ، و قد حكي عن ابن الجلاء أنّ بعض إخوانه اغتابه ثمّ أرسل إليه يستحلّه فقال : لا أفعل ليس في صحيفتي حسنةأفضل منها فكيف أمحوها . وقال هو و غيره : ذنوب إخواني من حسناتي اُريدأن اُزيّن بها صحيفتي فهذا ما أردنا أن نذكره من اختلاف العباد في المعاد في درجات السعادة و الشقاوة وكلّ ذلك حكم بظاهر الأسباب يضاهي حكم الطبيب على مريض بأنّه يموت لامحالة ولا يقبل العلاج و على مريض آخر بأنّ عارضته خفيف وعلاجه هيّن فإنّ ذلك ظنّ يصيب في أكثر الأحوال ولكن قد تتوق إلى المشرف على الهلاك نفسه من حيث لا يشعر الطبيب و قد يساق إلى ذي العارض الخفيف أجله من حيث لايطّلع عليه و ذلك من أسرار الله تعالى الخفيّة في أرواح الأحياء و غموض الأسباب الّتي رتّبها مسبّب الأسباب بقدر معلوم إذ ليس في قوّة البشر الوقوف على كنهها فكذلك النجاة و الفوز في الآخرة لهما أسباب خفيّة ليس في قوّة البشر الاطّلاع عليها يعبّر عن ذلك السبب الخفيّ المفضي إلى النجاة بالعفو و الرّضا و عمّا يفضي إلى الهلاك بالغضب والانتقام و وراء ذلك سرّ المشيّة الأزليّة الّتي لا يطّلع الخلق عليها ، فلذلك يجب علينا أن نجوّز العفو عن العاصي وإن كثرت سيّئاته الظاهرة و الغضب على المطيع و إن كثرت طاعاته الظاهرة فإنّ الاعتماد على التقوى و التقوى في القلب و هو أغمض من أن يطّلع عليه صاحبه فكيف غيره ، ولكن قد انكشف لأرباب القلوب أنّه لا عفو عن عبد إلّا بسبب خفيّ فيه يقتضي العفو و لا غضب إلّا بسبب باطن يقتضي البعد عن الله و لولا ذلك لم يكن العفو والغضب جزاء على الأعمال و الأوصاف ولو لم يكن جزاء لم يكن عدلاً و لو لم يكن عدلاً لم يصحّ قوله تعالى : « و ما ربّك بظلّام للعبيد » [1] ولا قوله : « إنّ الله لا يظلم مثقال ذرّة » [2] و كلّ ذلك صحيح فليس للإنسان إلّا ما سعى و سعيه هو الّذي يرى ، و كلّ نفس بما كسبت رهينة ، و لمّا زاغوا أزاغ الله قلوبهم ، ولمّا غيّروا مابأنفسهم غيّر الله ما بهم تحقيقاً لقوله تعالى : « إنّ الله لايغيّر مابقوم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم» [3] وهذا كلّه قدانكشف

(١) فصلت : ٤٦ . (٢) النساء : ٤٠ . (٣) الرعد : ١١ .

لأرباب القلوب انكشافاً أوضح من المشاهدة بالبصر إذ البصر يمكن الغلط فيه إذ قديرى البعيد قريباً و الكبير صغيراً ، و مشاهدة القلب لا يمكن الغلط فيها و إنّما الشأن في انفتاح بصيرة القلب و إلاّ فما يرى بها بعد الانفتاح فلا يتصوّر فيه الكذب وإليه الإشارة بقوله تعالى : « ما كذب الفؤاد مارأى » (١).

الرتبة الثالثة رتبة الناجين وأعني بالنجاة السلامة فقطّ دون السعادة والفوز ، و هم قوم لم يخدموا فيخلع عليهم ولم يقصروا فيعذّبوا ويشبه أن يكون هذا حال المجانين و الصبيان من الكفّار و المعتوهين و الّذين لم تبلغهم الدّعوة في أطراف البلاد و عاشوا على البله و عدم المعرفة فلم يكن لهم معرفة ولا جحود و لاطاعة ولا معصية ، فلا وسيلة تقرّبهم و لا جناية تبعدهم فما هم من أهل الجنّة ولاهم من أهل النار بل ينزلون في منزلة بين المنزلتين ومقام بين المقامين ، وحلول طائفة من الخلق فيه معلوم يقيناً من الآيات و الأخبار و من أنوار الاعتبار ، فأمّا الحكم على العين كالحكم مثلاً بأنّ الصبيان منهم فهذا مظنون وليس بمستيقن و الاطّلاع عليه تحقيقاً في عالم النبوّة و لا يبعد أن يرتقى إليه رتبة الأولياء و العلماء ، و الأخبار في حقّ الصبيان أيضاً متعارضة حتّى قالت عائشة(٢) لما مات بعض الصبيان : عصفور من عصافير الجنّة ، فأنكر رسول الله ﷺ ذلك وقال : « مايدريك » . فإذن الاشكال والاشتباه أغلب في هذا المقام .

أقول: روي في الكافي أنّ النبيّ ﷺ سئل عن الأطفال فقال : « الله أعلم بما كانوا عاملين » (٣).

و أنّ الصادق عليه السلام سئل عمّن مات في الفترة وعمّن لم يدرك الحنث والمعتوه فقال : « يحتجّ الله عليهم يرفع لهم ناراً فيقول لهم : ادخلوها فمن دخلها كانت عليه برداً وسلاماً ، ومن أبى قال : ها أنتم قد أمرتكم فعصيتموني »(٤).

و في رواية اُخرى « فمن سبق له في علم الله عزّ وجلّ أن يكون سعيداً ألقى

(١) النجم : ١١ .
(٢) رواه مسلم ج ٨ ص ٥٤ .
(٣) المصدر ج ٣ ص ٢٤٨ .
(٤) المصدر ج ٣ ص ٢٤٩ .

نفسه فيها فكانت عليه برداً و سلاماً ، و من سبق له في علم الله أن يكون شقياً امتنع فلم يلق نفسه في النار فيأمر الله به إلى النار »[١] لتركه ما أمر الله و امتناعه من الدّخول فيها .

الرتبة الرابعة رتبة الفائزين وهم العارفون دون المقلّدين و هم المقرّبون السابقون ، فإنّ المقلّد و إن كان له فوزٌ على الجملة بمقام في الجنّة فهو من أصحاب اليمين وهؤلاء هم المقرّبون وما يلقى هؤلاء يجاوز حدّ البيان والقدر الممكن ذكره ما فصّله القرآن فليس بعد بيان الله بيانٌ ، والّذي لا يمكن التعبير عنه في هذا العالم فهو الّذي أجمله قوله تعالى : «فلا تعلم نفسٌ ما أُخفي لهم من قرّة أعين»[٢] ، و قوله : «أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»[٣] و العارفون مطلبهم تلك الحالة الّتي لا يتصوّر أن تخطر على قلب بشر في هذا العالم ، فأمّا الحور و القصور والفواكه واللّبن والعسل و الخمر والحليّ والأساور فإنّهم لا يحرصون عليها و لو أُعطوها لم يقنعوا بها و لا يطلبون إلّا لذّة النظر إلى وجه الله الكريم فهو غاية السعادات و نهاية اللّذّات و لذلك قيل لرابعة العدويّة : كيف رغبتك في الجنّة ؟ فقالت : الجار ثمّ الدّار ، فهؤلاء قومٌ شغلهم حبُّ ربّ الدّار عن الدّار و زينتها ، بل عن كلّ شيء سواه حتّى عن أنفسهم ، و مثالهم مثال العاشق المستهتر بمعشوقه ، المستغرقة همّه بالنظر إلى وجهه و الفكر فيه فانّه في حال الاستغراق غافل عن نفسه لا يحسّ بما يصيبه في بدنه ، و يعبّر عن هذه الحالة بأنّه فنى عن نفسه ومعناه أنّه صار مستغرقاً بغيره ، و صارت همومه همّاً واحداً و هو محبوبه ولم يبق فيه متّسع لغير محبوبه حتّى يلتفت إليه لا نفسه ولا غير نفسه ، و هذه الحالة هي الّتي توصل في الآخرة إلى قرّة عين لا يتصوّر أن تخطر في هذا العالم على قلب بشر كما لا يتصوّر أن تخطر صورة الألوان و الألحان على قلب الأكمه و الأصم إلى أن يرفع الحجاب عن سمعه و بصره فعند ذلك يدرك حالة

(١) الكافي ج٣ ص ٢٤٨ نقلا بالمعنى .

(٢) السجدة : ١٧ . (٣) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤٣٢٨ .

يعلم قطعاً أنّه لم يتصوَّر أن تخطر بباله قبل ذلك صورته فالدُّنيا حجابٌ على التحقيق وبرفعه ينكشف الغطاء فعند ذلك يدرك ذوق الحياة الطيبة «وأنَّ الدّار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون» فهذا القدر كاف في بيان توزُّع الدّرجات على الحسنات والسيّئات.

☼(بيان ما تعظم به الصغائر من الذنوب)☼

إعلم أنَّ الصغيرة تكبر بأسباب منها الإصرار والمواظبة ولذلك قيل: لا صغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع استغفار، فكبيرة واحدة تنصرم ولا يتبعها مثلها لو تصوّر ذلك كان العفو عنها أرجى من صغيرة يواظب العبد عليها، ومثال ذلك قطرات من الماء تقع على الحجر على توالٍ فتؤثّر فيه وذلك القدر من الماء لو صبَّ عليه دفعة واحدة لم يؤثّر ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «خير الأعمال أدومها وإن قلّ»[١] والأشياء تستبان بأضدادها فإذا كان النافع من العمل هو الدّائم وإن قلَّ فالكثير المنصرم قليل النفع في تنوير القلب وتطهيره فكذلك القليل من السيّئات إذا دام عظم تأثيره في إظلام القلب إلّا أنَّ الكبيرة قلَّ ما يتصوَّر الهجوم عليها بغتة من غير سوابق ولواحق من جملة الصغائر فقلَّ ما يزني الزاني بغتة من غير مراودة ومقدّمات وقلَّ ما يقتل بغتة من غير مشاحنة سابقة ومعاداة، فكلُّ كبيرة تكتنفها صغائر سابقة ولاحقة ولو يتصوَّر كبيرة وحدها بغتة ولم يتّفق إليها عود ربّما كان العفو فيها أرجى من صغيرة واظب الإنسان عليها عمره.

أقول: روى في الكافي عن أبي عبدالله عليه السلام أنّه قال: «لا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار»[٢].

وعنه عليه السلام قال: «لا والله لا يقبل شيئاً من طاعته على الإصرار على شيء من معاصيه»[٣].

وعن الباقر عليه السلام في قوله تعالى: «ولم يصرُّوا على ما فعلوا وهم يعلمون»[٤]

---

(١) متفق عليه في الصحيحين من حديث عائشة كما تقدم بلفظ «أحب الاعمال».
(٢) و(٣) المصدر ج ٢ ص ٢٨٨ تحت رقم ١ و٣.
(٤) آل عمران: ١٣٥.

قال: الإصرار أن يذنب الذّنب فلا يستغفر ولا يحدّث نفسه بتوبة فذلك الإصرار»[١].

و منها[٢] أن يستصغر الذّنب فإنّ العبد كلّ ما استعظمه من نفسه صغر عند الله وكلّ ما استصغره كبر عند الله لأنّ استعظامه يصدر عن نفور القلب عنه و كراهيته له و ذلك النفور يمنع من شدّة تأثّره به و استصغاره يصدر عن الإلف به و ذلك يوجب شدّة الأثر في القلب والقلب هو المطلوب تنويره بالطاعات والمحذور تسويده بالسيّئات و لذلك لا يؤاخذ بما يجري عليه في الغفلة فإنّ القلب لا يتأثّر بما يجري في الغفلة و قد جاء في الخبر «المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه، يخاف أن يقع عليه و المنافق يرى ذنبه كذباب مرّ على أنفه فأطاره»[٣] و قال بعضهم: الذّنب الّذي لا يغفر قول العبد: ليت كلّ شيء عملته مثل هذا. و إنّما يعظم الذّنب في قلب المؤمن لعلمه بجلال الله، فإذا نظر إلى عظم من عصى به رأى الصغيرة كبيرة و قد أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه: لا تنظر إلى قلّة الهديّة و انظر إلى عظم مهديها، ولا تنظر إلى صغر الخطيئة و انظر إلى كبرياء من واجهته بها.

أقول: روى في الكافي عن زيد الشحّام عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال: «اتّقوا المحقّرات من الذّنوب فإنّها لا تغفر، قلت: و ما المحقّرات؟ قال: الرّجل يذنب الذّنب فيقول: طوبى لي لو لم يكن غير ذلك»[٤].

و عن الكاظم عليه السلام قال: «لا تستكثروا كثير الخير ولا تستقلّوا قليل الذّنوب فإنّ قليل الذّنوب يجتمع حتّى يكون كثيراً. و خافوا الله في السرّ حتّى تعطوا من أنفسكم النصف»[٥].

---

(١) الكافي ج ٢ ص ٢٨٨ تحت رقم ٢.

(٢) من كلام الغزالي.

(٣) أخرجه البخاري ج ٨ ص ٨٣ من رواية الحارث بن سويد قال حدثنا عبدالله بن مسعود حديثين أحدهما عن النبي صلى الله عليه و آله والآخر عن نفسه فذكر هذا اولا، و «لله أفرح بتوبة العبد» ثانياً، ولم يبين المرفوع من الموقوف، وقد رواه البيهقي في الشعب من هذا الوجه مرفوعاً و موقوفاً كما في المغني.

(٤) و (٥) المصدر ج ٢ ص ٢٨٧ تحت رقم ١ و ٢.

و عن الصادق عليه السلام «أنّ الله يحبّ العبد أن يطلب إليه في الجرم العظيم و يبغض العبد أنّ يستخفّ بالجرم اليسير»(١).

و منها(٢) السّرور بالصغيرة و الفرح والتبجّح بها واعتداد التمكّن من ذلك نعمة و الغفلة عن كونه سبب الشقاوة فكلّما غلبت حلاوة الصغيرة عند العبد كبرت الصغيرة و عظم أثرها في تسويدقلبه حتّى أنّ من المذنبين من يتمدّح بذنبه ويتبجّح به لشدّة فرحه بمقارفته إيّاه كما تقول : أما رأيتني كيف مزّقت عرضه و يقول : المناظر في مناظرته : أما رأيتني كيف فضحته و كيف ذكرت مساويه حتّى أخجلته و كيف استخففت به و كيف لبّست عليه ويقول : المعامل في التجارة أما رأيت كيف روّجت عليه الزّايف و كيف خدعته و كيف غبنته في ماله و كيف استحمقته فهذا وأمثاله تكبر به الصغائر فانّ الذّنوب مهلكات و إذا دفع العبد إليها وظفر الشيطان به في الحمل عليها فينبغي أن يكون في مصيبة وتأسّف بسبب غلبة العدوّ عليه و بسبب بعده من الله تعالى فالمريض الّذي يفرح بأن ينكسر إناؤه الّذي فيه دواؤه حتّى يتخلّص من ألم شربه لا يرجى شفاؤه .

و منها أن يتهاون بستر الله عليه و حلمه عنه و إمهاله إيّاه ولا يدري أنّه إنّما يمهل مقتاً ليزداد بالإمهال إثماً فيظنّ أنّ تمكّنه من المعاصي عناية من الله تعالى به فيكون ذلك لأمنه من مكر الله و جهله بمكامن الغرور بالله كما قال تعالى : « و يقولون في أنفسهم لولا يعذّبنا الله بمانقول حسبهم جهنّم يصلونها وفبئس المصير»(٣).

و منها أن يأتي الذّنب و يظهره بأن يذكره بعد إتيانه أو يأتيه في مشهد غيره فانّ ذلك منه جناية على ستر الله الّذي سدله عليه و تحريك لرغبة الشرّ فيمن أسمعه ذنبه أو أشهده فعله فهما جنايتان انضمّتا إلى جنايته فتغلّظت به فان انضاف إلى ذلك التّرغيب للغير فيه و الحمل عليه و تهيئة الأسباب له صارت جناية رابعة و تفاحش الأمر و في الخبر « كلّ النّاس معافى إلّا المجاهرين يبيت أحدهم على

---

(١) الكافي ج ٢ ص ٤٢٧ تحت رقم ٦ .
(٢) من كلام الغزالي .
(٣) المجادلة : ٨ .

ذنب قد ستره الله عليه فيصبح فيكشف ستر الله عليه ويتحدّث بذنبه »[1] وهذا لأنّ من صفات الله و نعمه أنّه يظهر الجميل و يستر القبيح ولا يهتك الستر ، فالإظهار كفران لهذه النّعمة و قال بعضهم : لا تذنب فإن كان و لابدّ فلا ترغب غيرك فيه فتذنب ذنبين و لذلك قال تعالى : « المنافقون و المنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر و ينهون عن المعروف »[2]. و قال بعض السّلف : ما انتهك المرء من أخيه حرمة أعظم من أن يساعده على معصية ثمّ يهوّنها عليه .

أقول: روى في الكافي بإسناده عن مولانا الرّضا عليه السلام قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وآله : المستتر بالحسنة تعدل سبعين حسنة و المذيع بالسيّئة مخذول و المستتر بها مغفور له »[3].

و منها[4] أن يكون المذنب عالماً يقتدي به فإذا فعله بحيث يرى ذلك منه كبر ذنبه كلبس العالم الأبريسم والذّهب و أخذه مال الشبهة من أموال السّلاطين و دخوله على السّلاطين و تودّده إليهم و مساعدته إيّاهم بترك الإنكار عليهم وإطلاقه اللّسان في الاعراض و تعدّيه باللّسان في المناظرة وقصده الاستخفاف و اشتغاله من العلوم بمالايقصد منه إلّا الجاه كعلم الجدل و المناظرة فهذه ذنوب يتّبع العالم عليها فيموت العالم و يبقى شرّه مستطيراً في العالم آماداً متطاولة و طوبى لمن إذا مات ماتت معه ذنوبه . و في الخبر « من سنّ سنّة سيّئة فعليه وزرها و وزر من عمل بها لا ينقص من أوزارهم شيئاً »[5] و قال تعالى : « و نكتب ما قدّموا و آثارهم »[6] والآثار ما يلحق الأعمال بعد انقضاء العمل و العامل ، و قال ابن عبّاس : ويلٌ للعالم من الاتباع يزلّ زلّة فيرجع عنها و يحتملها الناس فيذهبون بها في الآفاق ، و قال

---

(١) أخرجه البخاري والطبراني في الصغير والاوسط .

(٢) التوبة : ٦٧ .

(٣) المصدر ج ٢ ص ٤٢٩ تحت رقم ٢ .

(٤) من كلام الغزالي .

(٥) أخرجه مسلم من حديث جرير بن عبدالله و قد تقدم كراراً .

(٦) سورة يس : ١٢.

بعضهم : مثل زلّة العالم مثل انكسار السّفينة تغرق ويغرق أهلها . وفي الإسرائيليات أنّ عالماً كان يضلّ النّاس بالبدعة ثمّ أدركته توبة فعمل في الاصلاح دهراً فأوحى الله تعالى إلى نبيّهم قل له : إنّ ذنبك لو كان فيما بينك و بيني غفرته لك و لكن كيف بمن أضللت من عبادي فأدخلتهم النّار .

فهذا يتّضح أنّ أمر العلماء مخطر فعليهم وظيفتان : إحداهما ترك الذّنب و الاُخرى إخفاؤه و كما يتضاعف أوزارهم على الذّنوب فكذلك يتضاعف ثوابهم على الحسنات إذا اتّبعوا فإذا ترك التجمّل والميل إلى الدّنيا و قنع منها باليسير ومن الطعام بالقوت ومن الكسوة بالخلِق فيتّبع عليه ويقتدي به العلماء والعوام ويكون له مثل ثوابهم وإن مال إلى التجمّل مالت طباع مَن دونه إلى التشبّه به ولايقدرون على التجمّل إلّا بخدمة السّلاطين و جمع الحطام من الحرام و يكون هو السبب في جميع ذلك فحركات العلماء في طرفي الزّيادة والنقصان بتضاعف آثارها إمّا بالرّبح و إمّا بالخسران ، و هذا القدر كاف في تفاصيل الذّنوب الّتي التوبة توبة عنها .

❁(الركن الثالث في تمام التوبة وشروطها و دوامه الى آخر العمر)❁

قد ذكرنا أنّ التوبة عبارة عن ندم يورث عزماً و قصداً و ذلك الندم أورثه العلم بكون المعاصي حائلة بينه و بين محبوبه ولكلّ واحد من العلم و الندم والعزم دوام و تمام و لتمامها علامة ولدوامها شروط فلابدّ من بيانها ، أمّا العلم فالنظر فيه نظر في سبب التوبة وسيأتي ، وأمّا الندم فهو توجّع القلب عند شعوره بفوات المحبوب و علامته طول الحسرة والحزن و انسكاب الدّموع وطول البكاء فمن استشعر عقوبة نازلة بولده أو ببعض أعزّته طال عليه مصيبته و بكاؤه ، و أيّ عزيز أعزّ عليه من نفسه ؟ و أيّ عقوبة أشدّ من النار ؟ وأيّ سبب أدلّ على نزول العقوبة من المعاصي و أيّ مخبر أصدق من الله و رسوله ، ولو حدّثه إنسان واحد يسمّى طبيباً أنّ ولده المريض لا يبرأ و أنّه سيموت لطال في الحال حزنه ، فليس ولده بأعزّ من نفسه ولا الطبيب بأعلم ولا أصدق من الله و رسوله ولا الموت بأشدّ من النار و لا المرض أدلّ على الموت من المعاصي على سخط الله ، والتعرّض بها للنّار فألم الندم كلّما

كان أشدّ كان تكفير الذّنوب به أرجى ، فعلامة صحّة الندم رقّة القلب و غزارة الدّمع ، و في الخبر « جالس التوّابين فإنّهم أرقّ افئدة » (١) ومن علامته تتمكّن مرارة تلك الذّنوب في قلبه بدلاً عن حلاوتها فيستبدل بالميل كراهية و بالرّغبة نفرة ، و في الاسرائيليات : أنّ الله سبحانه قال لبعض أنبيائه و قد سأله النبيّ قبول توبة عبد بعد أن اجتهد سنين في العبادة و لم ير أثر قبول توبته فقال : و عزّتي و جلالي لو شفع فيه أهل السماوات و الأرض ما قبلت توبته و حلاوة ذلك الذّنب الّذي تاب منه في قلبه .

أقول: و من طريق الخاصّة ما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال لقائل بحضرته : « أستغفر الله » : « ثكلتك اُمّك أتدري ما الاستغفار ، إنّ الاستغفار درجة العلّيّين و هو اسم واقعٌ على ستّة معان أوّلها الندم على ما مضى ، و الثاني العزم على ترك العود عليه أبداً ، والثالث أن تؤدّي إلى المخلوقين حقوقهم حتّى تلقى الله أملس ليس عليك تبعة ، والرابع أن تعمد إلى كلّ فريضة عليك ضيّعتها تؤدّي حقّها ، و الخامس أن تعمد إلى اللّحم الّذي نبت على السحت فتذيبه بالأحزان حتّى تلصق الجلد بالعظم و ينشأ بينهما لحم جديد . و السادس أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية فعند ذلك تقول : أستغفر الله» (٢).

قال أبو حامد : فإن قلت : الذّنوب هي أعمال مشتهاة بالطبع فكيف يجد مرارتها ؟ فأقول : من تناول عسلاً كان فيه سمّ ولم يدركه بالذّوق واستلذّه ، ثمّ مرض و طال مرضه و ألمه و تناثر شعره وفلجت أعضاؤه فإذا قدّم إليه عسل فيه مثل ذلك السمّ و هو في غاية الجوع و الشهوة للحلاوة فهل تنفر نفسه عن ذلك العسل أم لا فإن قلت : لا ، فهو جحد للمشاهدة ، بل ربّما تنفر عن العسل الّذي ليس فيه سمّ أيضاً

---

(١) قال العراقى : لم أجده مرفوعاً و هو قول عون بن عبدالله رواه ابن أبى الدنيا فى التوبة قال : «جالسوا التوابين فان رحمة الله الى النادم أقرب» . وقال أيضاً «فالموعظة الى قلوبهم أسرع و هم الى الرقة أقرب» و فيه أيضاً «التائب أسرع دمعة وارق قلباً» .

(٢) أورده الشريف الرضى فى النهج باب المختار من الحكم تحت رقم ٤١٧ .

لشبهه به فوجدان التائب مرارة الذّنب كذلك يكون و ذلك لعلمه بأنّ كلّ ذنب فذوقه ذوق العسل و عمله عمل السمّ ولا تصحّ التوبة ولا تصدق إلّا بمثل هذا الايمان و لمّا عزّ مثل هذا الايمان عزّت التوبة والتائبون فلا يرى إلّا معرضاً عن الله متهاوناً بالذّنوب مصرّاً عليها ، فهذا شرط تمام الندم و ينبغي أن يدوم إلى الموت ، و ينبغي أن يجد هذه المرارة في جميع الذّنوب وإن لم يكن قد ارتكبها من قبل كما يجد متناول السمّ في العسل النفرة من الماء البارد مهما علم أن فيه مثل ذلك السمّ إذ لم يكن ضرره من العسل بل ممّا فيه ، و لم يكن ضرر التائب من سرقته و زناه من حيث أنّه سرقة و زنى بل من مخالفته أمر الله و ذلك جار في كلّ ذنب .

وأما القصد الّذي ينبعث منه وهو إرادة التدارك فله تعلّق بالحال وهو يوجب ترك كلّ محظور هو ملابس له و أداء كلّ فرض هو متوجّه عليه في الحال وله تعلّق بالماضي و هو تدارك ما فرّط و بالمستقبل وهو دوام الطاعة و دوام ترك المعصية إلى الموت و شرط صحّتها فيما يتعلّق بالماضي أن يردّ فكره إلى أوّل يوم بلغ فيه بالسنّ أو الاحتلام و يفتّش عمّا مضى من عمره سنة سنة و شهراً شهراً و يوماً يوماً و نفساً نفساً و ينظر إلى الطاعات ما الّذي قصّر فيه منها و إلى المعاصي ما الّذي قارفه منها فإن كان قد ترك صلاة أو صلّاها مع ثوب نجس أو صلّاها بنيّة غير صحيحة لجهله بشرط النيّة فيقضيها عن آخرها فإن شكّ في عدد ما فاته منها حسب من مدّة بلوغه و ترك القدر الّذي يستيقن أنّه أدّاه و يقضي الباقي وله أن يأخذ فيه بغالب الظنّ و يصل إليه على سبيل التحرّي و الاجتهاد ، و أمّا الصوم فإن كان قد تركه في لسفر أو المرض ولم يقضه أو أفطر عمداً أو نسي النيّة باللّيل و لم يقض فيتعرّف مجموع ذلك بالتحرّي و الاجتهاد و يشتغل بقضائه ، و أمّا الزّكاة فيحسب جميع ماله و عدد السنين من أوّل وقت اجتمع فيه شرائط وجوبها عليه فيقضي ما أخلّ به من ذلك أو أخلّ ببعض شروط أدائها المعتبرة بغالب الظنّ . و أمّا الحجّ فإن كان قد استطاع في بعض السنين و لم يتّفق له خروج و الآن قد أفلس فعليه الخروج فإن لم يقدر مع الإفلاس فعليه أن يكتسب من الحلال قدر الزّاد فإن لم يكن له

كسب و مال فعليه أن يسأل الناس ليصرف إليه من الزكوات أو الصدقات مايحجّ به فإنّه إن مات قبل الحجّ مات عاصياً قال عليه السلام : « من مات و لم يحجّ فليمت إن شاء يهوديّاً و إن شاء نصرانياً » (١) و العجز الطاري بعد القدرة لا يسقط عنه الحجّ فهذا طريق تفتيشه عن الطاعات وتداركها ، وأمّا المعاصي فينبغي أن يفتّش أوّل بلوغه عن سمعه و بصره ولسانه و بطنه و يده و رجله و فرجه و سائر جوارحه ثمّ ينظر في جميع أيّامه و ساعاته ويفصّل عند نفسه ديوان معاصيه حتّى يطّلع على جميعها صغائرها و كبائرها ، ثمّ ينظر فيها فما كان من ذلك بينه و بين الله من حيث لا يتعلّق بمظلمة العباد كنظر إلى غير محرم و قعود في مسجد من الجنابة و مسّ مصحف بغير وضوء و اعتقاد بدعة و شرب خمر و سماع ملاه و غير ذلك ممّا لا يتعلّق بمظالم العباد فالتوبة عنه بالندم و التحسّر عليها و بأن يحسب مقدارها من حيث الكبر و من حيث المدّة و يطلب لكلّ معصية منها حسنة تناسبها فيأتي من الحسنات مقدار تلك السيّئات أخذاً من قوله عليه السلام : « اتّق الله حيث كنت و أتبع السيّئة الحسنة تمحها » (٢) بل من قوله تعالى : « إنّ الحسنات يذهبن السيّئات » فيكفّر سماع الملاهي بسماع القرآن و بمجالس الذكر ، و يكفّر القعود في المسجد جنباً بالاعتكاف فيه مع الاشتغال بالعبادة ، ويكفّر مسّ المصحف محدثاً بإكرام المصحف و كثرة قراءة القرآن منه و كثرة تقبيله و بأن يكتب مصحفاً و يجعله وقفاً و يكفّر شرب الخمر بالتصدّق بكلّ شراب حلال هو أطيب وأحبّ إليه ، و عدّ جميع المعاصي غير ممكن ، و إنّما المقصود سلوك طريق المضادّة فإنّ المرض يعالج بضدّه فكلّ ظلمة ارتفعت إلى القلب بمعصية فلا يمحوها إلّا نور يرتفع إليه بحسنة تضادّها و المتضادّات هي المتناسبات فلذلك ينبغي أن يمحو كلّ سيّئة بحسنة من جنسها لكي تضادّها فإنّ البياض يزال بالسواد لا بالحرارة و البرودة و هذا التدريج والتحقيق من التلطّف في طريق المحو فالرّجاء فيه أصدق والثقة به أكثر من أن يواظب على نوع واحد من العبادات وإن كان ذلك أيضاً مؤثّراً في المحو فهذا حكم ما بينه وبين

(١) تقدم فى كتاب الحج . (٢) تقدم آنفا .

الله تعالى ، و يدلّ على أنّ الشيء يكفّر بضدّه أنّ حبّ الدّنيا رأس كلّ خطيئة و أثر اتّباع الدّنيا في القلب السرور بها ، الإلف لها والحنين إليها فلاجرم كان كلّ أذى يصيب المسلم ينبو بسببه قلبه عن الدّنيا يكون كفّارة له إذ القلب يتجافى بالهموم والغموم عن دار الهموم ، قال صلى الله عليه وآله وسلم : «من الذّنوب ذنوب لا يكفّرها إلّا الهموم»(١) و في لفظ آخر « إلّا الهمّ بطلب المعيشة » . و في الحديث « إذا كثرت ذنوب العبد ولم تكن له أعمال تكفّرها أدخل الله عليه الغموم فيكون كفّارة لذنوبه »(٢) .

و يقال : إنّ الهمّ الّذي يدخل على القلب و العبد لا يعرفه هو ظلمة الذّنوب و الهمّ بها وشعور القلب بوقفة الحساب وهول المطّلع ، فإن قلت : همّ الإنسان غالباً بماله و ولده و جاهه وهو خطيئة فكيف يكون كفّارة ؟ فاعلم أنّ الحبّ له خطيئة والحرمان عنه كفّارة ولو تمتّع به لتمّت الخطيئة ، فقد روي أنّ جبرئيل دخل على يوسف في السجن فقال له : كيف تركت الشيخ الكئيب فقال(٣) : قد حزن عليك حزن مائة ثكلى ؟ قال : فماله عند الله ؟ فقال : أجر مائة شهيد . فإذن الهموم أيضاً مكفّرات حقوق الله فهذا حكم ما بينه وبين الله .

و أمّا مظالم العباد ففيها معصية و جناية على حقّ الله فإنّ الله نهى عن ظلم العباد أيضاً ، فما يتعلّق منه بحقّ الله تداركه بالندم و التحسّر و ترك مثله في المستقبل و الإتيان بالحسنات الّتي هي أضدادها فيقابل إيذاؤه الناس بالإحسان إليهم ويكفّر غصب أموالهم بالتصدّق بملكه الحلال ، و يكفّر تناول أعراضهم بالغيبة والقدح فيهم بالثناء على أهل الدّين و إظهار ما يعرف من خصال الخير من أقرانه و أمثاله ، ويكفّر قتل النفوس باعتاق الرّقاب لأنّ ذلك إحياء إذ العبد مفقود لنفسه موجود لسيّده فالإعتاق إيجاد لا يقدر الإنسان على أكثر منه فيقابل الاعدام

---

(١) أخرجه الطبراني فى الاوسط و أبونعيم فى الحلية والخطيب فى التلخيص من حديث أبى هريرة بسند ضعيف و قد تقدم فى النكاح .

(٢) أخرجه أحمد فى المسند من حديث عائشة بسند حسن كما فى الجامع الصغير و رواه البزار كما فى مجمع الزوائد ج ١٠ ص ١٩٢.

(٣) كذا .

بالإيجاد ، و بهذا تعرف أنّ ماذكرناه من سلوك طريق المضادّة في التكفير والمحو مشهود له في الشرع حيث كفّر القتل بإعتاق رقبة ، ثمّ إذا فعل ذلك كلّه لم يكفه ولم ينجه مالم يخرج من مظالم العباد ، و مظالم العباد إمّا في النفوس أو الأموال أو الأعراض أو القلوب أعني به الإيذاء المحض ، أمّا النفوس فإن جرى عليه قتل خطأ فتوبته بتسليم الدّية وإيصالها إلى المستحقّ إمّا منه أو من عاقلته و هو في عهدة ذلك قبل الوصول و إن كان عمداً موجباً للقصاص فبالقصاص ، فإن لم يعرف فيجب عليه أن يتعرّف عند وليّ الدّم و يحكمه في روحه فإن شاء عفا عنه و إن شاء قتله ولا تسقط عهدته إلّا بهذا ولا يجوز له الإخفاء وليس هذا كما لوزنى أو شرب أوسرق أو قطع الطريق أو باشر ما يجب فيه حدّ الله فإنّه لايلزمه في التوبة أن يفضح نفسه و يهتك ستره ويلتمس من الوالي استيفاء حقّ الله بل عليه أن يتستّر بستر الله ويقيم حدّ الله على نفسه بأنواع المجاهدة و التعذيب فالعفو في محض حدود الله قريب من التائبين النادمين فإن رفع أمره إلى الوالي حتّى أقام عليه الحدّ فالحدّ وقع موقعه و تكون توبته صحيحة مقبولة عند الله بدليل ماروي « أنّ ماعز بن مالك أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إنّي قد ظلمت نفسي وزنيت و إنّي اُريد أن تطهّرني فردّه ، فلمّا كان من الغد أتاه فقال : يا رسول الله إنّي قد زنيت فردّه الثانية و الثالثة فلمّا كان في الرّابعة أمر به فحفر له حفيرة ثمّ أمر به فرجم فكان الناس فيه فرقتين ، فقائل يقول : لقد هلك و أحاطت به خطيئته . و قائل يقول : ما توبة أفضل من توبة ماعز ، فقال رسول الله ﷺ : « لقد تاب توبة لو قسمت بين اُمّة لوسعتهم »[1]. وجاءت الغامديّة فقالت : يا رسول الله : إنّي زنيت فطهّرني فردّها فلمّا كان الغد قالت : يا رسول الله لم تردّني لعلّك تريد أن تردّني كما رددت ماعزاً فو الله إنّي لحبلى فقال : أمّا الآن فلافاذهبي حتّى تضعي فلمّا ولدت أتت بالصبي في خرقة فقالت : هذا قد ولدته قال : إذهبي فارضعيه حتّى تفطميه فلمّا فطمته أتت بالصبيّ و في يده كسره خبز فقالت : يا نبيّ الله قد فطمته و قد أكل

(١) أخرجه مسلم ج ٥ ص ١١٩ و قد تقدم .

الطعام فدفع الصبيّ إلى رجل من المسلمين ، ثمّ أمر بها فحفر لها إلى صدرها و أمر الناس فرجموها ، فأقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فتنضح الدّم على وجه خالد فسبّها فسمع رسول الله ﷺ سبّه إيّاها فقال : « مهلاً يا خالد فو الّذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له ثمّ أمر بها فصلّى عليها ودفنت»[١].

و أمّا القصاص وحدّ القذف فلا بدّ من تحليل صاحبه المستحقّ فيه و إن كان المتناول مالاً تناوله بغصب أو خيانة أو غبن في معاملة بنوع تلبيس كترويج زائف أو ستر عيب من المبيع أو نقص أجرة أجير أو منع اُجرته فكلّ ذلك يجب أن يفتش عنه لا من حدّ بلوغه بل من أوّل مدّة وجوده فإنّ ما يجب في مال الصبيّ يجب على الصبيّ إخراجه بعد البلوغ إن كان الوليّ قد قصّر فيه فإن لم يفعل كان ظالماً مطالباً به في القيامة إذ يستوي في الحقوق الماليّة الصبيّ و البالغ وليحاسب نفسه على الحبّات و الذرّات من أول يوم حياته إلى يوم توبته قبل أن يحاسب في القيامة و ليناقش قبل أن يناقش ، فمن لم يحاسب نفسه في الدّنيا طال في الآخرة حسابه فإن حصل مجمع ما عليه بظنّ غالب و نوع من الاجتهاد ممكن فليكتبه و ليكتب أسامي أصحاب المظالم واحداً واحداً وليطف في نواحي العالم وليطلبهم و ليستحلّهم أو ليؤدّ حقوقهم و هذه التوبة تشقّ على الظّلمة وعلى التجّار فإنّهم لا يقدرون على طلب المعاملين كلّهم ولا على طلب ورثتهم ولكن على كلّ واحد منهم أن يفعل منه ما يقدر عليه فإن عجز فلا يبقى له طريق إلّا أن يكثر من الحسنات حتّى تفيض منه يوم القيامة فتؤخذ حسناته و توضع في موازين أرباب المظالم ولتكن كثرة حسناته بقدر كثرة مظالمه فإنّه إن لم تف بها حسناته حمل من سيّئات أرباب المظالم فيهلك بسيّئات غيره ، وهذا طريق كلّ تائب في ردّ المظالم وهذا يوجب استغراق العمر في الحسنات لو طال العمر بحسب طول مدّة الظلم فكيف و ذلك ممّا لا يعرف و ربّما يكون الأجل قريباً فينبغي أن يكون تشمّره للحسنات و الوقت ضيق أشدّ من تشمّره الّذي كان في المعاصي في متّسع الأوقات هذا حكم المظالم الثابتة في ذمّته أمّا

(١) حديث الغامدية ، رواه مسلم ج ٥ ص ١٢٠ .

أمواله الحاضرة فليردّ إلى المالك ما يعرف له مالكاً معيّناً و مالايعرف له مالكاً فعليه أن يتصدّق به فإن اختلط الحرام بالحلال فعليهأن يعرف قدر الحرام بالاجتهاد و يتصدّق بذلك المقدار كما سبق تفصيله في كتاب الحرام والحلال .

أقول: و من طريق الخاصّة عن أمير المؤمنين عليه السلام « أنّه إذا تصدّق بخمسه حلّ لهالباقي »(١) .

قال : و أمّا الجناية على القلوب بمشافهة الناس بما يسوؤهم أو يعيبهم بالغيبة فيطلب كلّ من تعرّض له بلسانه أو أذى قلبه بفعل من أفعاله وليستحلّ واحداً واحداً منهم و من مات أو غاب فقد فات أمره و لاتدارك إلّا بتكثير الحسنات ليؤخذ منه عوضاً في القيامة وأمّا من وجده و أحلّه بطيب قلب منه فذلك كفّارته و عليه أن يعرّفه قدرجنايته وتعرّضه له فالاستحلال المبهم لا يكفي وربّما لو عرف ذلك و كثرة تعدّيه عليه لم تطب نفسه بالإحلال و ادّخر ذلك في القيامة ذخيرة بأن يأخذها من حسناته أو يحمله من سيّئاته فإن كان في جملة جنايته على الغير مالوذكره وعرّفه لتأذّى بمعرفته كزناه بجاريته أوأهله أو نسبتهباللّسان إلى عيب منخفايا عيوبه يعظم أذاه مهما شافهه بهفقد انسدّ عليه طريق الاستحلالفليس له إلّا أن يستحلّ مبهماً ثمّ تبقى له مظلمة فليجبرها بالحسنات كما يجبر مظلمة الميّت و الغائب ، فأمّا الذّكر و التعريف فهو سيّئة جديدة يجب الاستحلال منها و مهما ذكر جنايته وعرفه المجنيّعليه فلمتسمح نفسه بالإحلال بقيت المظلمة عليه فإنّ هذا حقّه فعليه أن يتلطّف به و يسعى في مهمّاته وأغراضه ويظهر من حبّه و الشفقة عليه ما يستميل به قلبهفإنّ الإنسان عبيد الإحسان و كلّ من نفر بسيّئة مال بحسنة فإذا تاب قلبه بكثرة تودّده و تلطّفه سمحت نفسه بالإحلال فإن أبى إلّا الإصرار فيكون تلطّفه به و اعتذاره إليه من جملة حسناته الّتي يمكن أن تجبر بها في القيامة جنايته وليكن قدر سعيه في فرحه وسرور قلبه بتودّده وتلطّفه كقدر سعيه في إيذائه حتّى إذا قاوم أحدهما الآخر أو زاد عليه أخذ ذلك منه عوضاً في

(١) رواه الكليني في حديث في الكافي ج ٥ ص ١٢٥ باب مكاسب الحرام .

القيامة بحكم الله به عليه كمن أتلف في الدّنيا مالاً فجاء بمثله فامتنع من له المال عن القبول وعن الابراء فإنّ الحاكم يحكم عليه بالقبض عنه شاء أم أبى فكذلك يحكم في صعيد القيامة أحكم الحاكمين وأعدل المقسطين وفي المتّفق عليه من الصحيحين(١) عن أبي سعيد الخدري أنّ نبيّ الله صلى الله عليه وآله قال: «كان فيمن كان قبلكم رجلٌ قتل تسعاً وتسعين نفساً فسأل عن أعلم أهل الأرض وأزهدهم فدلّ على راهب، فأتاه فقال: إنّه قتل تسعة وتسعين نفساً فهل له من توبة فقال: لا فقتله فكمل به مائة ثمّ سأل عن أعلم أهل الأرض فدلّ على رجل عالم فقال له: إنّه قتل مائة نفس فهل له من توبة فقال: نعم و من يحول بينه وبين التوبة انطلق إلى أرض كذا و كذا فإنّ بها ناساً يعبدون الله فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنّها أرض سوء فانطلق حتّى إذا بلغ نصف الطريق أتاه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرّحمة وملائكة العذاب فقالت ملائكة الرّحمة: جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله وقالت ملائكة العذاب: إنّه لم يعمل خيراً قطّ فأتاهم ملك في صورة آدميّ فجعلوه حكماً بينهم فقال: قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيّتهما كان أدنى فهو له فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض الّتي أراد فقبضته ملائكة الرّحمة» و في رواية «فكان إلى القرية الصالحة أقرب منها بشبر فجعل من أهلها» و في رواية «فأوحى الله إلى هذه أن تباعدي و إلى هذه أن تقربي، و قال: قيسوا ما بينهما فوجدوه إلى هذه أقرب بشبر فغفر له» فبهذا يعرف أنّه لا خلاص إلّا برجحان ميزان الحسنات ولو بمثقال فلابدّ للتائب من تكثير الحسنات. هذا حكم القصد المتعلّق بالماضي.

فاما العزم المرتبط بالاستقبال فهو أن يعقد مع الله عقداً مؤكّداً أو يعاهده بعهد وثيق أن لا يعود إلى تلك الذنوب ولا إلى أمثالها كالّذي يعلم في مرضه أنّ الفاكهة تضرّه مثلاً فيعزم عزماً جزماً أنّه لا يتناول الفاكهة ما لم يزل مرضه فإنّ هذا العزم يتأكّد في الحال و إن كان يتصوّر أن تغلبه الشهوة في ثاني الحال، ولكن لا يكون تائباً مالم يتأكّد عزمه في الحال و لا يتصوّر أن يتمّ ذلك للتائب في أوّل

---

(١) راجع صحيح البخاري و صحيح مسلم ج ٨ ص ١٠٤.

أمره إلّا بالعزلة و الصمت و قلّة الأكل و النوم و إحراز قوت حلال فإن كان له مالٌ موروثٌ حلالٌ أو كانت له حرفة يكتسب بها قدر الكفاية فليقتصر عليه فإنّ رأس المعاصي أكل الحرام فكيف يكون تائباً مع الإصرار عليه و لا يكتفي بالحلال و ترك الشبهات من لا يقدر على ترك الشهوات في المأكولات و الملبوسات و قد قال بعضهم : من صدق في ترك شهوة و جاهد نفسه لله تعالى سبع مرّات لم يبتل بها . و قال آخر : من تاب من ذنب و استقام سبع سنين لم يعد إليه أبداً . و من مهمّات التائب إذا لم يكن عالماً أن يتعلّم ما يجب عليه في المستقبل و ما يحرم عليه حتّى يمكنه الاستقامة و إن لم يؤثر العزلة لم تتمّ له الاستقامة المطلقة إلّا أن يتوب عن بعض الذّنوب كالّذي يتوب عن الشرب و الزنى و الغصب مثلاً و ليست هذه توبة مطلقة و قد قال بعض الناس : إنّ هذه التوبة لا تصحّ و قال قائلون : تصحّ ، و لفظ الصحّة في هذا المقام مجملٌ بل نقول لمن قال : لا تصحّ إن عنيت به أنّ تركه بعض الذّنوب لا يفيد أصلاً بل وجوده كعدمه فما أعظم خطاك فإنّا نعلم أن كثرة الذّنوب سبب لكثرة العقاب وقلّتها سبب لقلّته و نقول لمن قال : تصحّ إن أردت به أنّ التوبة عن بعض الذّنوب توجب قبولاً يوصل إلى النجاة أو الفوز فهذا أيضاً خطأ ، بل النجاة والفوز بترك الجميع ، هذا حكم الظاهر و لسنا نتكلّم في خفايا أسرار عفو الله . فإن قال من ذهب إلى أنّه لا تصحّ : إنّي أردت به أنّ التوبة عبارة عن الندم و إنّما يندم على السرقة مثلاً لكونها معصية لا لكونها سرقة ويستحيل أن يندم عليها دون الزّنى إن كان توجّعه لأجل المعصية فإنّ العلّة شاملة لهما إذ من يتوجّع على قتل ولده بالسيف يتوجّع على قتله بالسكّين ، لأنّ توجّعه بفوات محبوبه سواء كان بالسيف أو بالسكّين ، فكذلك توجّع العبد بفوات محبوبه وذلك بالمعصية سواء عصى بالسرقة أو بالزّنى فكيف يتوجّع على البعض دون البعض فالندم حالة يوجبها العلم بكون المعصية مفوّتة للمحبوب من حيث أنّها معصية فلا يتصوّر أن يكون على بعض المعاصي دون بعض و لو جاز هذا لجاز أن يتوب من شرب الخمر من أحد الدّنّين دون الآخر فإن استحال ذلك من حيث

إنّ المعصية في الخمرين واحدة و إنّما الدنّان ظروف ، فكذلك أعيان المعاصي آلات للمعصية والمعصية من حيث إنّها مخالفة الأمر واحدة فإذن معنى عدم الصحّة أنّ الله وعد التائبين رتبة وتلك الرّتبة لاتنال إلّا بالندم و لا يتصوّر الندم على بعض المتماثلات دون بعض فهو كالملك المرتّب على الإيجاب و القبول فإنّه إذا لم يتمّ الإيجاب و القبول يقال : إنّ العقد لايصحّ أي لم يترتّب عليه الثمرة و هو الملك و تحقيق هذا أنّ ثمرة مجرّد الترك أن ينقطع عنه عقاب ما تركه و ثمرة الندم تكفير ما سبق ، فترك السرقة لا يكفّر السرقة بل الندم عليها ولايتصوّر الندم إلاّ لكونها معصية ، وذلك يعمّ جميع المعاصي ، وهذا كلام مفهوم واقع يستنطق المنصف بتفصيل به ينكشف الغطاء ، فنقول التوبة عن بعض الذّنوب لا تخلو إمّا أن تكون عن الكبائر دون الصغائر أو عن الصغائر دون الكبائر ، أو عن كبيرة دون كبيرة ، أمّا التوبة عن الكبائر دون الصغائر فأمر ممكن لأنّه يعلم أنّ الكبائر أعظم عند الله وأجلب لسخط الله و مقته و الصغائر أقرب إلى تطرّق العفو إليها فلا يستحيل أن يتوب عن الأعظم ويتندّم عليه ، كالّذي يجني على أهل الملك و حرمه و يجني على دابّته ، فيكون خائفاً من الجناية على الأهل ، مستحقراً للجناية على الدابّة . و الندم بحسب استعظام الذّنب و اعتقاد كونه مبعداً عن الله . وهذا ممكن وجوده في الشرع فقد كثر التائبون في الأعصار الخالية و لم يكن أحدٌ منهم معصوماً فلا تستدعي التوبة العصمة ، و الطبيب قد يحذّر المريض العسل تحذيراً شديداً و يحذّره السكّر تحذيراً أخفّ منه على وجه يشعر معه أنّه ربّما لايظهر ضرر السكّر أصلاً فيتوب المريض بقوله عن العسل دون السكّر فهذا غير محال وجوده وإن أكلهما جميعاً بحكم شهوته ندم على أكل العسل دون السكّر .

الثاني أن يتوب عن بعض الكبائر وهذا أيضاً ممكن لاعتقاده أنّ بعض الكبائر أشدّ وأغلظ عند الله كالّذي يتوب عن القتل والنهب و الظلم ومظالم العباد لعلمه بأنّ ديوان العباد لا يترك و ما بينه و بين الله يتسارع العفو إليه فهذا أيضاً ممكنٌ كما في تفاوت الصغائر و الكبائر لأنّ الكبائر أيضاً متفاوتة في أنفسها و في اعتقاد مرتكبها

و كذلك قد يتوب عن الكبائر الّتي لاتتعلّق بالعباد كما يتوب عن شرب الخمر دون الزّنى مثلاً إذ يتّضح له أنّ الخمر مفتاح الشرور ، وأنّه إذا زال عقله ارتكب جميع المعاصي و هو لا يدري فبحسب ترجّح شرب الخمر عنده ينبعث منه خوف يوجب ذلك تركاً في المستقبل و ندماً على الماضي .

الثالث أن يتوب عن صغيرة وهو مصرّ على كبيرة يعلم أنّها كبيرة كالّذي يتوب عن الغيبة أو عن النظر إلى غير المحرّم أو ما يجري مجراه و هو مصرّ على شرب الخمر و هو أيضاً ممكن و وجه إمكانه أنّه ما من مؤمن إلّا و هو خائف من معاصيه ونادم على فعله ندماً إمّا ضعيفاً و إمّا قوياً ولكن تكون لذّة نفسه في تلك المعصية أقوى من ألم قلبه في الخوف منها لأسباب توجب ضعف الخوف من الجهل والغفلة و أسباب توجب قوّة الشهوة فيكون الندم موجوداً ولكن لا يكون مليّاً بتحريك العزم ولاقويّاً عليه فإن سلم عن شهوة أقوى منه بأن لم يعارضه إلّا ما هو أضعف قهر الخوف الشهوة وغلبها و أوجب ذلك ترك المعصية و قد تشتدّ ضراوة الفاسق بالخمر فلايقدر على الصبر عنها و تكون له ضراوة ما بالغيبة وثلب الناس و النظر إلى غير المحرّم و خوفه من الله قد بلغ مبلغاً يقمع هذه الشهوة الضعيفة دون القويّة فيوجب عليه جند الخوف انبعاث العزم للترك بل يقول هذا الفاسق في نفسه : إن قهرني الشيطان بواسطة غلبة الشهوة في بعض المعاصي فلا ينبغي أن أخلع العذار و أرخي العنان بالكلّيّة بل اُجاهده في بعض المعاصي فعساني أغلبه فيكون قهري له في البعض كفّارة لبعض ذنوبي ولولم يتصوّر هذا لما تصوّر من الفاسق أن يصوم ويصلّي ولقيل له : إن كانت صلاتك لغير الله فلا تصحّ وإن كانت لله فاترك الفسق لله فإنّ أمر الله فيه واحد فلا يتصوّر أن تقصد بصلاتك التقرّب إلى الله مالم تتقرّب بترك الفسق وهذا محالٌ بل يقول : لله عليّ أمران ولي على المخالفة فيهما عقوبتان وأناملي‌ءٌ في أحدهما بقهر الشيطان عاجز عنه في الآخر ، فأقهره فيما أقدر عليه و أرجو بمجاهدتي فيه أن يكفّر عنّي بعض ما عجزت عنه بفرط شهوتي ، فكيف لايتصوّر هذا وهو حال كلّ مسلم إذ لا مسلم إلّا وهو جامعٌ بين طاعة الله و معصيته و لا سبب له إلّا هذا وإذافهم

هذا فهم أن غلبة الخوف للشهوة في بعض الذّنوب ممكن وجودها والخوف إذا كان من فعل ماض أورث الندم والندم يورث العزم ، و قد قال النبيُّ ﷺ : « الندم توبة »(١) ولم يشترط الندم على كلّ ذنب . وقال ﷺ : «التائب من الذّنب كمن لاذنب له»(٢) ولم يقل التائب من الذّنوب كلّها ، وبهذه المعاني يتبيّن أنّ التوبة عن بعض الذّنوب غير ممكنة لأنّها متماثلة في حقّ الشهوة وفي حقّ التعرّض لسخط الله نعم يجوز أن يتوب عن الخمر دون النبيذ لتفاوتهما في اقتضاء السخط و يتوب عن الكثير دون القليل . لأنّ لكثرة المعصية تأثيراً في كثرة العقوبة ، فيساعد الشهوة بالقدر الّذي يعجز عنه و يترك بعض شهوته لله كالمريض الّذي حذّره الطبيب الفاكهة فإنّه قد يتناول قليلها ولكن لايستكثر منها فقد حصل من هذا أنّه لا يمكن أن يتوب عن شيء ولايتوب عن مثله بل لابدّ أن يكون ما تاب عنه مخالفاً لما بقي عليه ، إمّا في شدّة المعصية و إمّا في غلبة الشهوة ، و إذا حصل هذا التفاوت في اعتقاد التائب تصوّر اختلاف حاله في الخوف و الندم فيتصوّر اختلاف حاله في الترك فندمه على ذلك الذّنب و وفاؤه بعزمه على الترك يلحقه بمن لم يذنب و إن لم يكن قد أطاع الله في جميع الأوامر و النواهي .

فإن قلت : فهل تصحّ توبة العنّين من الزّنى الّذي قارفه قبل طريان العنّة ؟

فأقول : لا ، لأنّ التوبة عبارة عن ندم يبعث العزم على الترك فيما يقدر على فعله و ما لا يقدر على فعله فقد انعدم بنفسه لابتركه إيّاه ، ولكنّي أقول : لوطرأ عليه بعد العنّة كشف و معرفة تحقّق به ضرر الزّنى الّذي قارفه و ثار منه احتراق و تحسّر و تندّم بحيث لو كانت شهوة الوقاع به باقية لكان حرقة الندم تقمع تلك الشهوة وتغلبها فإنّي أرجو أن يكون ذلك مكفّراً لذنبه و ماحياً عنه سيّئته إذلا خلاف في أنّه لوتاب قبل طريان العنّة و مات عقيبها كان من التائبين و إن لم يطرء عليه حالة تهيج فيها الشهوة و تتيسّر أسباب قضاء الشهوة و لكنّه تائب باعتبار

(١) تقدم أول الباب .

(٢) تقدم غير مرة في الباب . وفي استدلاله بالخبر تأمل لان المراد الجنس لا النوع .

أنّ ندمه بلغ مبلغاً أوجب صرف قصده عن الزّنى لوظهر قصده فإذن لايستحيل أن تبلغ قوّة الندم في حقّ العنّين هذا المبلغ إلّا أنّه لا يعرفه من نفسه فإنّ كلّ من لايشتهي شيئاً يقدّر نفسه قادراً على تركه بأدنى خوف والله مطلّع على ضميره وعلى مقدار تندّمه فعساه يقبله منه بل الظاهر أنّه يقبله والحقيقة في هذا ترجع إلى أنّ ظلمة المعصيةتنمحي عن القلب بشيئين أحدهما حرقة الندم و الآخر شدّة المجاهدة بالترك في المستقبل ، و قد امتنعت المجاهدة بزوال الشهوة ولكن ليس محالاً أن يقوى الندم بحيث يقوى على محوها دون المجاهدة ، ولولا هذا لقلنا : إنّ التوبة لاتقبل ما لم يعش التائب بعد التوبة مدّة يجاهد نفسه في عين تلك الشهوة مرّات كثيرة و ذلك ممّا لا يدلّ ظاهر الشرع على اشتراطه أصلاً.

فإن قلت : إذا فرضنا تائبين أحدهما سكنت نفسه عن النزوع إلى الذّنب و الآخر بقي في نفسه نزوع إليه و هو يجاهدها و يمنعها فايّهما أفضل ؟ فاعلم أنّ هذا ممّا اختلف العلماء فيه ، فقال قوم : إنّ المجاهد أفضل لأنّ له مع فضل التوبة فضل الجهاد ، و قال آخرون : ذلك الآخر أفضل لأنّه لو فتر في توبته كان أقرب إلى السلامة من المجاهد الّذي هو في عرضة الفتور عن المجاهدة . و ما قاله كلّ واحد من الفريقين لا يخلو عن حقّ و عن قصور عن كمال الحقيقة . و الحقّ فيه أنّ الّذي انقطع نزوع نفسهله حالتان احداهما أن يكون انقطاع نزوعهإليها بفتور في نفس الشهوة فقطّ ، فالمجاهد أفضلمن هذا إذا تركه بالمجاهدة قد دلّ على قوّة يقينه واستيلاء دينه على شهوته ، فهودليلٌ قاطعٌ على قوّة اليقين وعلى قوّة الدّين و أعني بقوّة الدّين قوّة الإرادة الّتي تنبعث بإشارة اليقين و تقمع الشهوة المنبعثة بإشارة الشياطين فهاتان قوّتان تدلّ المجاهدة عليهما قطعاً و قول القائل : إنّ هذا أسلم إذ لو فتر لا يعود إلى الذّنب .

فهذا صحيح ولكن استعمال لفظ الأفضل فيه خطأ وهو كقول القائل : العنّين أفضل من الفحل لأنّه في أمن من خطر الشهوة ، و الصبيّ أفضل من البالغ لأنّه أسلم والمفلس أفضل من الملك القاهر القامع لأعدائه لأنّ المفلس لاعدوّ له والملك ربّما

يُغلب مرّة وإن غلب مرّات وهذا كلام رجل سليم القلب قاصر النّظر على الظّواهر غير عالم بأنّ العزّ في الأخطار و أنّ العلوّ شرطه اقتحام الأغوار ، بل هو كقول القائل : الصيّاد الّذي ليس له فرس ولا كلب أفضل في صناعة الاصطياد و أعلى رتبة من صاحب الكلب و الفرس لأنّه آمن من أن يجمح به فرسه فتنكسر أعضاؤه عند السّقوط على الأرض وآمن من أن يعضّه الكلب ويعتدي عليه ، فهذا خطأ بل صاحب الفرس و الكلب إذا كان قويّاً عالماً بطريق تأديبهما أعلى رتبة و أحرى بدرك سعادة الصّيد . والحالة الثانية أن يكون بطلان النزوع بسبب قوّة اليقين و صدق المجاهدة السابقة إذ بلغ مبلغاً قمع هيجان الشهوة حتّى تأدّبت بأدب الشّرع فلا تهيج إلّا بالإشارة من الدّين و قد سكنت بسبب استيلاء الدّين عليه ، فهذا أعلى رتبة من المجاهد المقاسي لهيجان الشهوة وقمعها وقول القائل : ليس لذلك فضل الجهاد قصور عن الإحاطة بمقصود الجهاد ، فإنّ الجهاد ليس مقصوداً لعينه بل المقصود منه قطع ضراوة العدوّ حتّى لا يستجرّك إلى شهواته ، و إن عجز عن استجرارك فلا يصدّك عن سلوك طريق الدّين فإذا قهرته و حصّلت المقصود فقد ظفرت و ما دمت في المجاهدة فأنت بعد في طلب الظّفر . و مثاله كمثال من قهر العدوّ واسترقّه بالإضافة إلى من هو مشغول بالجهاد في صفّ القتال و لا يدري كيف يسلم و مثاله أيضاً مثال من علّم كلب الصيد وراض الفرس فهما نائمان عنده بعد ترك الكلب الضراوة والفرس الجماح بالإضافة إلى من هو مشغول بمقاساة التأديب بعد ، و لقد زلّ في هذا فريقٌ فظنّوا أنّ الجهاد هو المقصود الأقصى ، ولم يعلموا أنّ ذلك طلب للخلاص من عوائق الطريق ، و ظنّ آخرون أنّ قمع الشّهوات و إماطتها بالكلّيّة مقصود حتّى جرّب بعضهم نفسه فعجز عنه فقال : هذا محالٌ فكذّب بالشرع و سلك سبيل الإباحة و استرسل في اتّباع الشهوات ، و كلّ ذلك جهلٌ و ضلالٌ ، و قد قرّرنا ذلك في كتاب رياضة النفس من ربع المهلكات .

فإن قلت : فما قولك في تائبين أحدهما نسي الذّنب ولم يشتغل بالتفكّر فيه و الآخر جعله نصب عينه و لا يزال يتفكّر فيه و يحترق ندماً عليه فأيّهما أفضل ؟

فاعلم أنّ هذا أيضاً قد اختلفوا فيه فقال بعضهم : حقيقة التّوبة أن تنصب ذنبك بين عينيك . وقال آخر : حقيقة التوبة أن تنسي ذنبك و كلٌّ واحد من المذهبين عندنا حقٌّ ولكن بالإضافة إلى حالين و كلام المتصوّفة أبداً يكون قاصراً فإنّ عادة كلّ واحد منهم أن يخبر عن حال نفسه فقط ولا يهمّه حال غيره ، فتختلف الأجوبة لاختلاف الأحوال ، و هذا نقصان بالإضافة إلى درجة العلم فإنّ معرفة الأشياء على ما هو عليه أفضل و أعلى ولكنّه كمال بالإضافة إلى الهمّة و الإرادة والجدّ حيث يكون صاحبه مقصور النظر على حال نفسه لا يهمّه أمر غيره إذ طريقه إلى الله نفسه ومنازله أحواله ، وقد يكون طريق العبد إلى الله العلم و التعليم فالطرق إلى الله كثيرة وإن كانت مختلفة في القرب والبعد ، والله أعلم بمن هو أهدى سبيلاً مع الاشتراك في أصل الهداية .

فأقول : تصوّر الذّنب وذكره والتفجّع عليه كمال في حقّ المبتدي المريد ، لأنّه إذا نسيه لم يكثر احتراقه فلا تقوى إرادته و انبعاثه لسلوك الطريق و لأنّ ذلك يستخرج منه الحزن و الخوف الوازع عن الرّجوع إلى مثله فهو بالإضافة إلى الغافل كمالٌ و لكنّه بالإضافة إلى سالك الطريق نقصان فإنّه شغل مانع عن سلوك الطريق بل سالك الطريق ينبغي أن لا يعرّج على غير السّلوك فإن ظهر له مبادي الوصول و انكشف له أنوار المعرفة و لوامع الغيب استغرقه ذلك ، ولم يبق فيه متّسع للالتفات إلى ما سبق من أحواله وهو الكمال ، بل لو عاق المسافر عن الطريق إلى بلدة من البلاد نهرٌ حاجز طال تعب المسافر في عبوره من حيث أنّه كان قد خرب جسره من قبل فلو جلس على شاطئ النّهر بعد عبوره يبكي متأسّفاً على تخريبه الجسر كان هذا مانعاً آخر اشتغل به بعد الفراغ من ذلك المانع نعم إن لم يكن الوقت وقت الرّحيل بأن كان ليلاً فتعذّر السلوك وكان على طريقه أنهارٌ وهو يخاف على نفسه أن يمرّ بها فليطل بالّليل بكاؤه و حزنه على تخريب الجسر ليتأكّد بطول الحزن عزمه على أن لا يعود إلى مثله ، فإن حصل له من التنبّه ما وثق بنفسه أنّه لا يعود إلى مثله فسلوك الطريق أولى به من الاشتغال بذكر تخريب الجسر والبكاء

عليه ، و هذا لا يعرفه إلّا من عرف الطريق و المقصد و العائق و طريق السلوك وقد أشرنا إلى تلويحات منه في كتاب العلم و في ربع المهلكات ، بل نقول : شرط دوام التوبة أن يكون كثير الفكر في النعيم في الآخرة لتزيد رغبته ، و لكن إن كان شابّاً فلا ينبغي أن يطيل فكره في كلّ ماله نظير في الدّنيا كالحور و القصور فإنّ ذلك الفكر ربّما يحرّك رغبته فيطلب العاجلة ولا يرضى بالآجلة ، بل ينبغي إن يتفكّر في لذّة جوار الله فقط فإنّ ذلك لا نظير له في الدّنيا فكذلك تذكّر الذّنب قد يكون محرّكاً للشهوة ، فالمبتدي أيضاً قد يستضرّ به فيكون النسيان أفضل له عند ذلك ولا يصدنّك عن التصديق بهذا التحقيق ما يحكى لك من بكاء داود ونياحته عليه السلام فإنّ قياسك نفسك على الأنبياء قياس في غاية الاعوجاج لأنّهم قد ينزلون في أقوالهم و أفعالهم إلى الدّرجات اللّائقة بأمّتهم فإنّهم ما بعثوا إلّا لإرشادهم فعليهم التلبّس بما تنتفع اُمّتهم بمشاهدته وإن كان ذلك نازلاً عن ذروة مقامهم فلقد كان في الشيوخ من لا يشير على مريده بنوع رياضة إلّا ويخوض معه فيها ، وقد كان مستغنياً عنها لفراغه عن المجاهدة وتأديب النفس ولكن تسهيلاً للأمر على المريد ، ولذلك قال صلى الله عليه وآله وسلم: « أما إنّي لا أنسى و لكنّي اُنسي لاُشرّع »[١] و لا تعجب من هذا فإنّ الأمم في كنف شفقة الأنبياء كالصبيان في كنف شفقة الآباء و كالمواشي في كنف الرّعاة أما ترى الأب إذا أراد أن يستنطق ولده الصبيّ كيف ينزل إلى درجة نطق الصبيّ كما قال صلى الله عليه وآله وسلم للحسن عليه السلام : « كخ كخ » لما أخذ تمرة من الصّدقة و وضعها في فيه[٢] و ما كانت فصاحته تقصر عن أن يقول : ارم هذه التمرة فإنّها حرامٌ و لكنّه إذ علم أنّه لا يفهم منطقه ترك فصاحته و نزل إلى لكنته بل الّذي يعلّم شاة أو طائراً يصوت به رغاء أو صفيراً تشبّهاً بالبهيمة والطائر تلطّفاً في تعليمه ، فإيّاك أن تغفل عن أمثال هذه الدّقايق فإنّها مزلّة أقدام العارفين فضلاً عن الغافلين .

---

(١) ما عثرت على أصل له الا على ما في الموطأ هكذا « عن مالك بلغه أن رسول الله صلى الله عليه و آله قال : « انى لأنسى أو اُنسّى لأسنّ » راجع الموطأ ج ١ ص ٩١ .

(٢) أخرجه البخاري ج ٢ ص ١٥٠ من حديث أبي هريرة .

(بيان أقسام العباد فى دوام التوبة)

إعلم أنّ طبقات التائبين أربع طبقات : الطبقة الأولى أن يتوب العاصي ويستقيم على التوبة إلى آخر عمره فيتدارك ما فرط من أمره و لايحدّث نفسه بالعود إلى ذنوبه إلّا الزلّات الّتي لا ينفك البشر عنها في العادات مهما لم يكن في رتبة النبوّة فهذا هو الاستقامة على التوبة وصاحبه هو السابق بالخيرات المستبدل بالسيّئات حسنات و اسم هذه التوبة التوبة النصوح و اسم هذه النفس الساكنة النفس المطمئنّة الّتي ترجع إلى ربّها راضية مرضيّة و هؤلاء هم الّذين إليهم الإشارة بقوله صلى الله عليه وآله : «سبق المفردون المستهترون بذكر الله وضع الذّكر أوزارهم فوردوا القيامة خفافاً »(١) فإنّ فيه إشارة إلى أنّهم كانوا تحت أوزار وضعها الذكر عنهم وأهل هذه الطبقة على رتب من حيث النزوع إلى الشهوات ، فمن تائب سكنت شهواته تحت قهر المعرفة ففتر نزاعها ولم يشغله عن السلوك صراعها ، و إلى من لا ينفكّ عن منازعة النفس ولكنّه مليءٌ بمجاهدتها و ردّها ، ثمّ تتفاوت درجات النزاع أيضاً بالكثرة و القلّة وباختلاف المدّة و باختلاف الأنواع و كذلك يختلفون من حيث طول العمر فمن مختطف قريباً من توبته يغبط على ذلك لسلامته و موته قبل الفترة ، ومن ممهل طال جهاده و صبره و تمادت استقامته و كثرت حسناته و حال هذا أعلى و أفضل إذ كلّ سيّئة فإنّما تمحوها حسنة حتّى قال بعض العلماء : إنّما يكفّر الذّنب الّذي ارتكبه العاصي عشر مرّات أن يتمكّن منه عشر مرّات مع صدق الشهوة ثمّ يصبر عنه ويكسر شهوته خوفاً من الله تعالى و اشتراط هذا بعيد و إن كان لا ينكر عظيم أثره لو فرض ، ولكن لاينبغي للمريد الضعيف أن يسلك هذا الطريق فيهيّج الشهوة و تحضر الأسباب حتّى يتمكّن ثمّ يطمع في الانكفاف فإنّه لا يؤمن خروج عنان الشهوة عن اختياره فيقدم على المعصية وينقض توبته بل طريقها الفرار من ابتداء أسبابه الميسّرة له حتّى يسدّ طريقها على نفسه ويسعى مع ذلك في كسر شهوته بما يقدر عليه فبه تسلم توبته في الابتداء .

(١) أخرجه الترمذى ج١٣ص ٨٨ واستهتر فيه أولع به ولا يتحدث بغيره ولا يفعل غيره .

الطبقة الثانية : تائب سلك طريق الاستقامة في اُمّهات الطاعات و كبائر الفواحش كلّها إلّا أنّه ليس ينفكّ عن ذنوب تعتريه لا عن عمد و تجريد قصد ولكن يبتلي بها في مجاري أحواله من غير أن يقدم عزماً على الإقدام عليها ولكنّه كلّما أقدم عليها لام نفسه وندم وتأسّف وجدّد عزمه على أن يتشمّر للاحتراز من أسبابها الّتي تعرّضه لها ، و هذه النفس جديرة بأن تكون هي النفس اللّوّامة ، إذ تلوم صاحبها على ما يستهدف له من الأحوال الذّميمة لا عن تصميم عزم وتخمين رأي و قصد ، وهذه أيضاً رتبة عالية و إن كانت نازلة عن الطبقة الاُولى وهي أغلب أحوال التائبين لأنّ الشرّ معجونٌ بطينة الآدميّ قلّما ينفكّ عنه و إنّما غاية سعيه أن يغلب خيره شرّه حتّى يثقل ميزانه فترجّح كفّة الخيرات فأمّا إن تخلو بالكلّية كفّة السيّئات فذلك في غاية البعد ، وهؤلاء لهم حسن الوعد من الله تعالى إذ قال تعالى : «الّذين يجتنبون كبائر الإثم و الفواحش إلّا اللّمم إنّ ربّك واسع المغفرة » (١) فكلّ إلمام يقع بصغيرة لا عن توطين نفس عليه فهو جديرٌ بأن يكون من اللّمم المعفوّ عنه ، وقد قال تعالى : « و الّذين إذا فعلوا فاحشة أوظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم و من يغفر الذّنوب إلّا الله » (٢) فأثنى عليهم من ظلمهم أنفسهم لتندّمهم و لومهم أنفسهم عليه و إلى مثل هذه الرّتبة الإشارة بقوله صلّى الله عليه وآله وسلّم فيما رواه عليّ عليه السلام « خياركم كلّ مفتّن توّاب » (٣) و في خبر آخر « المؤمن كالسنبلة تفيء أحياناً وتميل أحياناً » (٤) و في الخبر « لابدّ للمؤمن من ذنب يأتيه الفينة بعد الفينة » (٥)

---

(١) النجم : ٣٢ . (٢) آل عمران : ١٣٥ .

(٣) أخرجه البيهقي في الشعب عن علي عليه السلام بسند صحيح كما في الجامع الصغير . و أخرج أحمد باسناده عن أبي جعفر محمد بن علي عن محمد بن الحنفية عن أبيه علي بن أبي طالب عليهم السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم : « ان الله يحب العبد المؤمن المفتن التواب » . والمفتن - بفتح التاء - الذي يفتن و يمتحن بالذنوب .

(٤) أخرجه أبو يعلى من حديث أنس بسند ضعيف كما في الجامع الصغير . و قال العراقي : وفي الامثال للرامهرمزي اسناده جيد .

(٥) أخرجه الطبراني في الكبير والاوسط بسند جيد كما في مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٢٠١ .

أي الحين بعد الحين ، و كلّ ذلك أدلّة قاطعة على أنّ هذا القدر لا ينقض التوبة ولا يلحق صاحبها بدرجة المصرّين ، و من يؤيس مثل هذا عن درجة التائبين كالطبيب الّذي يؤيس الصحيح عن دوام الصحّة بما يتناوله من الفواكه والأطعمة الحارّة مرّة بعد اُخرى من غير مداومة و استمرار ، و كالفقيه الّذي يويس المتفقّه عن نيل درجة الفقهاء بفتوره عن التكرار و التعليق في أوقات نادرة غير متطاولة ولا كثيرة ، وذلك يدلّ على نقصان الطبيب و الفقيه ، بل الفقيه في الدّين هو الّذي لا يؤيس الخلق عن درجات السعادات بما يتّفق لهم من الفترات ومقارفة السيّئات المختطفات قال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : « كلّ بني آدم خطّاء وخير الخطّائين التوّابون المستغفرون »[1].

و قال أيضاً : « المؤمن واه راقع فخيرهم من مات على رقعه »[2] أي واه بالذّنوب راقع بالتوبة والندم .

و قال تعالى : « اُولئك يؤتون أجرهم مرّتين بما صبروا و يدرؤن بالحسنة السيّئة »[3] فما وصفهم بعدم السيّئة أصلاً .

الطبقة الثالثة أن يتوب ويستمرّ على الاستقامة مدّة ثمّ تغلبه شهوته في بعض الذّنوب فيقدم عليها عن صدق و قصد شهوة لعجزه عن قهر الشهوة إلّا أنّه مع ذلك مواظب على الطاعات وتارك جملة من الذّنوب مع القدرة و الشهوة و إنّما قهرته هذه الشهوة الواحدة أو الشهوتان وهو يودّ لو أقدره الله على قمعها و كفاه شرّها هذا اُمنيّته في حال قضاء الشهوة و عند الفراغ يتندّم و يقول : ليتني لم أفعله وسأتوب عنه و اُجاهد نفسي في قهرها ، لكنّه تسوّل نفسه ويسوّف توبته مرّة بعد اُخرى و يوماً بعد يوم ، فهذه النفس هي الّتي تسمّى النفس المسوّلة صاحبها من

(١) أخرجه الترمذى واستغربه وابن ماجه تحت رقم ٤٢٥١ والحاكم ج ٤ ص ٢٤٤ و صحح اسناده وأخرجه أحمد من حديث أنس كما فى الفتح الربانى ج ١٩ ص ٣٣٧ .

(٢) رواه الطبرانى فى الصغير و الاوسط و البزار أيضاً من حديث جابر و قال الطبرانى : معنى واه يعنى مذنب و راقع يعنى تائب مستغفر و فى سنده ضعف كما فى مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٢٠١ لمقام الخالد الخزاعى .

(٣) القصص : ٥٤ .

الّذين قال الله تعالى فيهم : « و آخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيّئاً »(١) فأمره من حيث مواظبته على الطاعات و كراهيته لما يتعاطاه مرجوٌّ فعسى الله أن يتوب عليه وعاقبته مخطرة من حيث تسويفه و تأخيره ؛ فربّما يختطف قبل التوبة و يقع أمره في المشيّة ، فإن تداركه الله بفضله و جبر كسره و امتنّ عليه بالتوبة التحق بالسابقين و إن غلبته شقوته و قهرته شهوته فيخشى أن يحقّ عليه في الخاتمة ماسبق عليه من القول في الأزل لأنّه مهما تعذّر على المتفقّه مثلاً الاحتراز عن شواغل التعلّم دلّ تعذّره على أنّه سبق له في الأزل أن يكون من الجاهلين فيضعف الرّجاء في حقّه ، وإذا يسّرت له أسباب المواظبة على التحصيل دلّ على أنّه سبق له في الأزل أن يكون من جملة العالمين فكذلك ارتباط سعادات الآخرة و دركاتها بالحسنات و السيّئات بحكم تقدير مسبّب الأسباب كارتباط المرض و الصحّة بتناول الأغذية و الأدوية و ارتباط حصول فقه النفس الّذي به تستحقّ المناصب العليّة في الدّنيا بترك الكسل و المواظبة على تفقيه النفس ، فكما لا يصلح لمنصب الرّئاسة و القضاء و التقدّم بالعلم إلّا نفس صارت فقيهة بطول التفقيه ، فلا يصلح لملك الآخرة ونعيمها و لا القرب من ربّ العالمين إلّا قلب سليم صار طاهراً بطول التزكية و التطهير هكذا سبق في الأزل تدبير ربّ الأرباب ولذلك قال تعالى : « و نفس وماسوّاها ✿ فألهمها فجورها وتقويها ✿ قد أفلح من زكّيها ✿ وقد خاب من دسّيها »(٢) فمهما وقع العبد في ذنب فصار الذّنب نقداً و التوبة نسيئة كان هذا من علامات الخذلان قال ﷺ : « إنّ العبد ليعمل بعمل أهل الجنّة سبعين سنة حتّى يقول الناس : إنّه من أهلها ولا يبقى بينه وبينها إلّا شبر فيسبق عليه الكتاب فليعمل بعمل أهل النار فيدخلها» (٣) فإذن الخوف من الخاتمة قبل التوبة و كلّ نفس فهو خاتمة ماقبله إذ يمكن أن يكون الموت متّصلاً به فليراقب الأنفاس وإلّا وقع المحذور ودامت الحسرات حين لا ينفع التحسّر .

---

(١) التوبة : ١٠٢. (٢) الشمس : ٧ الى ١٠ .

(٣) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٧٦ باب القدر . وفيه «ذراع» مكان «شبر» .

الطبقة الرابعة : أن يتوب ويجري مدّة على الاستقامة ثمّ يعود إلى مقارفة الذّنب أو الذّنوب من غير أن يحدّث نفسه بالتوبة ومن غير أن يتأسّف على فعله بل ينهمك انهماك الغافل في اتّباع الشهوات فهذا من جملة المصرّين و هذه النفس هي النفس الأمّارة بالسوء الفرّارة من الخير و يخاف على هذا سوء الخاتمة و أمره في مشيّة الله ، فإن ختم له بالسوء شقي شقاوة لا آخر لها و إن ختم له بالحسنى حتّى مات على التوحيد فينتظر له الخلاص من النار و لو بعد حين ولا يستحيل أن يشمله عموم العفو بسبب خفيّ لا نطّلع عليه كما لا يستحيل أن يدخل الانسان خراباً ليجد كنزاً فيتّفق أن يجده ولا أن يجلس في البيت ليجعله الله عالماً بالعلوم من غير تعلّم كما كان للأنبياء عليهم السلام فطلب المغفرة بالطاعات كطلب العلم بالجهد و التكرار وطلب المال بالتجارة و ركوب البحار و طلبها بمجرّد الرّجاء مع خراب الأعمال كطلب الكنوز في المواضع الخربة وطلب العلوم من تعليم الملائكة ، وليت من اجتهد تعلّم ، وليت من اتّجر استغنى ، وليت من صام وصلّى غفر له ، فالناس كلّهم محرومون إلّا العالمون و العالمون كلّهم محرومون إلّا العاملون و العاملون كلّهم محرومون إلّا المخلصون و المخلصون على خطر عظيم ، وكما أنّ من خرّب بيته و ضيّع ماله و ترك نفسه و عياله جياعاً يزعم أنّه ينتظر فضل الله بأن يرزقه كنزاً يجده تحت الأرض في بيته الخرب يعدّ عند ذوي البصائر من الحمقى والمغرورين وإن كان ما ينتظره غير مستحيل في قدرة الله تعالى وفضله فكذلك من ينتظر المغفرة من فضل الله وهو مقصّر عن الطاعة مصرّ على الذّنوب غير سالك سبيل المغفرة معدود عند أرباب القلوب من المعتوهين، والعجب من عقل هذا المعتوه وترويجه حماقته في صيغة حسنة إذ يقول : إنّ الله كريمٌ و جنّته ليست تضيق عن مثلي و معصيتي ليست تضرّه ثمّ تراه يركب البحار ويقتحم الأوعار في طلب دينار و إذا قيل له : إنّ الله كريم و دنانير خزائنه ليست تقصر عن فقرك و كسلك بترك التجارة ليس يضرّك فاجلس في بيتك فعساه يرزقك من حيث لا تحتسب يستحمق قائل هذا الكلام و يستهزىء ويقول : ما هذا الهوس ؟ السماء لا تمطر ذهباً و لا فضّة و إنّما ينال ذلك بالكسب هكذا قدّره ربّ

الأرباب وأجرى به سنّته ولا تبديل لسنّة الله ، ولا يعلم المغرور : أنّ ربّ الآخرة وربّ الدّنيا واحد و أنّ سنّته لاتبديل لها فيهما جميعاً و أنّه قد أخبر بذلك إذ قال : « و أن ليس للإنسان إلّا ما سعى » (١) فكيف يعتقد أنّه كريمٌ في الآخرة وليس بكريم في الدّنيا ، و كيف يقول : ليس مقتضى الكرم الفتور عن كسب المال ومقتضاه الفتور عن العمل للملك المقيم والنعيم الدائم ، وأنّ ذلك بحكم الكرم يعطيه من غير جهد ، وهذا يمنعه من شدّة الاجتهاد في غالب الأمر ، فنعوذ بالله من العمى و الضلال ، فما هذا إلّا انتكاس على أمّ الرأس و انغماس في ظلمات الجهل و صاحبه جديرٌ بأن يكون داخلاً تحت قوله تعالى : « ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربّهم ربّنا أبصرنا و سمعنا فارجعنا نعمل صالحاً » (٢) أي أبصرنا أنّك صدقت إذ قلت : « و أن ليس للإنسان إلّا ما سعى » فارجعنا لنسعى و عند ذلك لا يتمكّن من الانقلاب ويحقّ عليه العذاب ، فنعوذ بالله من دواعي الجهل والشكّ و الارتياب السائق بالضرورة إلى سوء المنقلب و المآب .

(بيان ما ينبغي أن يبادر اليه التائب)
(ان جرى عليه ذنب اما عن قصد وشهوة غالبة أو عن المام بحكم الاتفاق)

إعلم أنّ الواجب عليه التوبة و الندم و الاشتغال بالتكفير بحسنة تضادّه كما ذكرنا طريقه ، فإن لم يساعده النفس على العزم على الترك لغلبة الشهوة فقد عجز عن أحد الواجبين فلا ينبغي أن يترك الواجب الثاني و هو أن يدرأ بالحسنة السيّئة لتمحوها فيكون ممّن خلط عملاً صالحاً وآخر سيّئاً والحسنات المكفّرة للسيّئات إمّا بالقلب و إمّا باللّسان و إمّا بالجوارح ، ولتكن الحسنة في محلّ السيّئة و فيما يتعلّق بأسبابها . فأمّا بالقلب فليكفّره بالتضرّع إلى الله تعالى في سؤال المغفرة والعفو و يتذلّل تذلّل العبد الآبق و يكون ذلّه بحيث يظهر لسائر العباد ، و ذلك بنقصان كبره فيما بينهم ، فما للعبد الآبق المذنب وجه للتكبّر على سائر العباد و كذلك يضمر بقلبه الخيرات للمسلمين و العزم على الطاعات . و أمّا باللّسان

(١) النجم : ٣٩ . (٢) السجدة : ١٢ .

فبالاعتراف بالظلم والاستغفار فيقول : ربِّ ظلمت نفسي وعملت سوء فاغفر لي ذنوبي وكذلك يكثر من ضروب الاستغفار كما أوردناه في كتاب الدَّعوات والأذكار . وأمّا بالجوارح فبالطاعات والصدقات . وفي الآثار ما يدلُّ على أنَّ الذَّنب إذا تبع بثمانية أعمال كان العفو عنه مرجوًّا ، أربعة من أعمال القلوب وهي التوبة أو العزم على التوبة وحبُّ الاقلاع عن الذَّنب وخوف العقاب عليه ورجاء المغفرة له ، وأربعة من أعمال الجوارح وهي أن يصلّي عقيب الذَّنب ركعتين ثمَّ يستغفر الله بعدهما سبعين مرَّة ، ويقول : « سبحان الله العظيم وبحمده » مائة مرَّة ، ثمَّ يتصدَّق بصدقة ثمَّ يصوم يوماً ، وفي بعض الآثار « يسبغ الوضوء ويدخل المسجد ويصلّي ركعتين » وفي بعض الأخبار « يصلّي أربع ركعات » [1] وفي الخبر « إذا عملت سيّئة فأتبعها حسنة يكفّرها السرَّ بالسرِّ والعلانية بالعلانية » [2] ولذلك قيل : صدقة السرِّ تكفّر ذنوب اللّيل ، وصدقة الجهر تكفّر ذنوب النهار . وفي الخبر « إنَّ رجلاً قال لرسول الله صلى الله عليه وآله : إنّي عالجت امرأة فأصبت منها كلَّ شيء إلّا المسيس فاقض عليَّ بحكم الله ، فقال صلى الله عليه وآله : أو ما صلّيت معنا صلاة الغداة ؟ قال : بلى ، فقال : إنَّ الحسنات يذهبن السيّئات » [3] وهذا يدلُّ على أنَّ مادون الزِّنى من معالجة النساء صغيرة إذ جعل الصلاة كفّارة له بمقتضى قوله « الصلوات الخمس كفّارة لما بينهنَّ إلّا الكبائر » [4] فعلى الأحوال كلّها ينبغي أن يحاسب نفسه كلَّ يوم ويجمع سيّئاته ويجتهد في دفعها بالحسنات ، فإن قلت : فكيف يكون الاستغفار نافعاً من غير حلِّ عقدة الإصرار ؟ وفي الخبر « المستغفر من الذَّنب وهو مصرٌّ عليه كالمستهزىء بآيات

(١) أخرج أحمد من حديث أبي الدرداء سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « من توضأ فأحسن الوضوء ثم قام فصلى ركعتين - أو أربعاً - (الشك من الراوى) يحسن فيها الركوع والخشوع ثم استغفر الله غفر له » راجع مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٢٠١ .

(٢) أخرجه أحمد في الزهد عن عطاء مرسلا بسند ضعيف كما في الجامع الصغير .

(٣) أخرجه البخاري ج ٦ ص ٩٤ من حديث ابن مسعود .

(٤) تقدم غير مرة .

الله » [١] و كان بعضهم يقول : أستغفر الله من قولي أستغفر الله . و قيل : الاستغفار باللّسان توبة الكذّابين ، وقالت رابعة العدوية : استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير ؟

فاعلم أنّه قد ورد في فضل الاستغفار أخبار خارجة عن الحصر ذكرناها في كتاب الأذكار و الدّعوات حتّى قرن الله الاستغفار ببقاء الرّسول فقال : « وما كان الله ليعذّبهم و أنت فيهم و ما كان الله معذّبهم و هم يستغفرون » [٢] فكان بعض الصحابة [٣] يقول : كان لنا أمانان ذهب أحدهما و هو كون الرّسول فينا و بقي الاستغفار فإن ذهب هلكنا . فنقول : الاستغفار الّذي هو توبة الكذّابين هو الاستغفار بمجرّد اللّسان من غير أن يكون للقلب فيه شركة كما يقول الإنسان : بحكم العادة وعن رأس الغفلة : أستغفر الله و كما يقول إذا سمع صفة النار : نعوذ بالله منها ، من غير أن يتأثّر به قلبه وهذا يرجع إلى مجرّد حركة اللّسان ولا جدوى له فأمّا إذا انضاف إليه تضرّع القلب إلى الله تعالى و ابتهاله في سؤال المغفرة عن صدق إرادة وخلوص نيّة ورغبة فهذه حسنة في نفسها فتصلح لأن تدفع بها السيّئة وعلى هذا تحمل الأخبار الواردة في فضل الاستغفار حتّى قال ﷺ : « ما أصرّ من استغفر ولو عاد في اليوم سبعين مرّة» [٤] وهو عبارة عن الاستغفار بالقلب .

وللتوبة و الاستغفار درجات و أوائلها لا تخلو عن الفائدة و إن لم ينته إلى أواخرها ولذلك قال سهل : لا بدّ للعبد في كلّ حال من مولاه فأحسن أحواله أن يرجع إليه في كلّ شيء ، فإن عصى قال : يا ربّ استر عليّ ، فإذا فرغ من المعصية قال : يا ربّ تب عليّ ، فإذا تاب قال : يا ربّ ارزقني العصمة ، و إذا عمل طاعة قال :

(١) أخرجه البيهقى فى الشعب و ابن عساكر عن ابن عباس بسند ضعيف كما فى الجامع الصغير .

(٢) الانفال : ٣٣ .

(٣) أخرجه الترمذى عن أبى موسى الاشعرى أنه قال هذا القول . وأخرج أبو الشيخ والحاكم و صححه والبيهقى فى الشعب أن قائله أبو هريرة . و البيهقى فى طريق آخر أنه ابن عباس رضى الله عنه . راجع الدر المنثور ج ٣ ص ١٨٢ .

(٤) أخرجه الترمذى ج ١٣ ص ٦٩ و قد تقدم فى الدعوات .

يا ربّ تقبّل منّي . و سئل أيضاً عن الاستغفار الّذي يكفّر الذّنوب فقال : أوّل الاستغفار الاستجابة ، ثمّ الإنابة ، ثمّ التوبة ، فالاستجابة أعمال الجوارح ، والإنابة أعمال القلوب ، و التوبة إقباله على مولاه بأن يترك الخلق ثمّ يستغفر من تقصيره الّذي هوفيه ومن الجهل بالنعمة وترك الشكر ، فعند ذلك يغفر له ويكون عنده مأواه ، ثمّ التنقّل إلى الانفراد ، ثمّ الثبات ، ثمّ البيان، ثمّ القرب ، ثمّ المعرفة ، ثمّ المناجاة ، ثمّ المصافاة ، ثمّ الموالاة ، ثمّ محادثة السرّ وهو الخلّة ، ولا يستقرّ هذا في قلب عبد حتّى يكون العلم غذاءه ، و الذّكر قوامه ، و الرضا زاده ، و التوكّل صاحبه ، ثمّ ينظر الله إليه فيرفعه إلى العرش فيكون مقامه مقام حملة العرش .

وسئل أيضاً عن قوله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « التائب حبيب الله » فقال : إنّما يكون التائب حبيباً إذا كان فيه جميع ما ذكر في قوله تعالى : « التائبون العابدون الحامدون ـ الآية ـ » (١) و قال : الحبيب هو الّذي لا يدخل فيما يكرهه حبيبه و المقصود أنّ للتوبة ثمرتين إحداهما تكفير السيّئات حتّى يصير كمن لاذنب له ، و الثاني نيل الدّرجات حتّى يكون حبيباً ، و للتكفير أيضاً درجات فبعضها محو لأصل الذّنب بالكلّيّة ، وبعضها تخفيف له و تفاوت ذلك بحسب درجات التوبة ، فالاستغفار بالقلب و التدارك بالحسنات و إن خلاعن حلّ عقدة الإصرار من أوائل الدّرجات وليس يخلو عن الفائدة أصلاً فلا ينبغي أن يظنّ أنّ وجودها كعدمها ، بل عرف أهل المشاهدة وأرباب القلوب معرفة لا ريب فيها أنّ قول الله تعالى : « فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره » (٢) صدق و أنّه لا تخلو ذرّة من الخير عن أثر كما لاتخلو شعيرة تطرح في الميزان عن أثر ، ولو خلت الشعيرة الأولى عن أثر لكانت الثانية مثلها ولكان لا يرجّح الميزان بأحمال الذّرّات ، وذلك بالضرورة محال بل ميزان الحسنات يترجّح بذرّات الخير إلى أن يثقل ومثله كفّة السيّئات فإيّاك وأن تستصغر ذرّات الطاعات فلا تأتيها و ذرّات المعاصي فلاتتّقيها ، كالمرأة الخرقاء تكسل عن الغزل تعلّلا بأنّها لا تقدر في كلّ ساعة إلّا على خيط واحد و أي غنى يحصل بخيط و ما وقع ذلك في

(١) التوبة : ١١٢ . (٢) الزلزال : ٧ .

الثياب ، ولاتدري المعتوهة أنّ ثياب الدّنيا اجتمعت خيطاً خيطاً وأنّ أجسام العالم مع اتّساع أقطاره اجتمعت ذرّة ذرّة ، فإذن التضرّع والاستغفار بالقلب حسنة لاتضيع عند الله أصلاً ، بل أقول : الاستغفار باللّسان أيضاً حسنة إذ حركة اللّسان بها عن غفلة خير من حركة اللّسان في تلك الساعة بغيبة مسلم أو فضول كلام بل خير من السكوت عنه ، فيظهر فضله بالإضافة إلى السكوت عنه وإنّما يكون نقصاناً بالاضافة إلى عمل القلب ، ولذلك قال بعضهم لشيخه أبي عثمان المغربي : إنّ لساني في بعض الأحوال يجري بالذّكر و القرآن و قلبي غافل ؟ فقال : اشكر الله إذ استعمل جارحة من جوارحك في خير و عوّده الذّكر و لم يستعمله في الشرّ و لم يعوّده الفضول . وما ذكره حقّ فإنّ تعوّد الجوارح للخيرات حتّى يصير لها ذلك كالطبع يدفع جملة من المعاصي ، فمن تعوّد لسانه الاستغفار إذا سمع من غيره كذباً سبق لسانه إلى ما تعوّد فقال : أستغفر الله ، ومن تعوّد الفضول سبق لسانه إلى أن يقول : ما أحمقك و ما أقبح كذبك ، و من تعوّد الاستعاذة إذا حدّث بظهور مبادي الشرّ من شرير قال بحكم سبق اللّسان : نعوذ بالله ، فإذا تعوّد الفضول قال : لعنة الله فيعصي في إحدى الكلمتين ويسلم في الأخرى وسلامته أثر اعتياد لسانه الخير ، وهو من جملة معاني قوله تعالى : « إنّ الله لا يضيع أجر المحسنين » (١) و معاني قوله تعالى : « وإن تك حسنة يضاعفها» (٢) فانظر كيف ضاعفها إذجعل الاستغفار في الغفلة عادة اللّسان حتّى دفع بتلك العادة شرّ العصيان بالغيبة و اللّعن و الفضول ، هذا تضعيف في الدّنيا لأدنى الطاعات وتضعيف الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ، فإيّاك أن تلمح في الطاعات بمجرّد الآفات فيفتر رغبتك في العبادات فإنّ هذه مكيدة روّجها الشيطان بلعبه على المغرورين وخيّل إليهم أنّهم أرباب البصائر وأهل التفطّن للخفايا و السرائر فأيّ خير في ذكر اللّسان مع غفلة القلب فانقسم الخلق في هذه المكيدة على ثلاثة أقسام : ظالم لنفسه ومقتصد وسابق بالخيرات ، أمّا السابق فقال : صدقت يا ملعون ، ولكن هي كلمة حقّ أردت بها باطلاً فلا جرم أعذّبك مرّتين وأرغم أنفك

---

(١) التوبة : ١٢٠ . (٢) النساء : ٤٠ .

من وجهين فأضيف إلى حركة اللّسان حركة القلب و كان الّذي داوى جرح الشيطان بنثر الملح عليه ، وأمّا الظالم المغرور فاستشعر في نفسه خيلاء الفطنة لهذه الدّقيقة ثمّ عجز عن الإخلاص بالقلب فترك مع ذلك تعويد اللّسان بالذّكر فأسعف الشيطان و تدلّى بحبل غروره فتمّت بينهما المشاكلة و الموافقة كما قيل :

وافق شنّ طبقة　　✡　　وافقه فاعتنقه[1].

و أمّا المقتصد فلم يقدر على إرغامه بإشراك القلب في العمل و تفطّن لنقصان حركة اللّسان بالإضافة إلى القلب ولكن اهتدى إلى كماله بالإضافة إلى السّكوت و الفضول و استمرّ عليه و سأل الله أن يشرك القلب مع اللّسان في اعتياد الخير ، فكان السابق كالحائك الّذي ذمّت حياكته فتركها فأصبح كاتباً و الظالم المتخلّف كالّذي ترك الحياكة وأصبح كنّاساً . والمقتصد كالّذي عجز عن الكتابة فقال : لا أُنكر مذمّة الحياكة ولكنّ الحائك مذموم بالإضافة إلى الكاتب لا بالإضافة إلى الكنّاس ، فإن عجزتُ عن الكتابة فلا أترك الحياكة ، ولذلك قالت رابعة العدويّة : استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير، فلا تظنّ أنّها تذمّ حركة اللّسان من حيث إنّه ذكر الله ، بل تظنّ غفلة القلب فهو محتاج إلى الاستغفار من غفلة قلبه لا من حركة لسانه فإن سكت عن الاستغفار باللّسان أيضاً احتاج إلى الاستغفارين لا إلى استغفار واحد ، فهكذا ينبغي أن يفهم ذمّ مايذمّ و حمد ما يحمد ، و إلّا جهلت معنى ما قال القائل الصّادق : « حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين » فإنّ هذه أُمور تثبت بالإضافة فلا ينبغي أن تؤخذ من غير إضافة بل ينبغي أن لا تستحقر ذرّات الطاعات و المعاصي و لذلك قال الإمام جعفر الصّادق عليه السلام : « إنّ الله تعالى خبأ ثلاثاً في ثلاث رضاه في طاعته فلا تحقّروا منها شيئاً فلعلّ رضاه فيه ، و غضبه في معاصيه فلا تحقّروا منها شيئاً فلعلّ غضبه فيه ، وخبأ ولايته في عباده فلا تحقّروا منهم أحداً فلعلّه وليّ الله » .

---

(١) مثل سائر، راجع مجمع الامثال للميدانى الباب السادس والعشرين .

☼(الركن الرابع فى دواء التوبة)☼
☼(و طريق العلاج لحل عقدة الاصرار)☼

إعلم أنّ النّاس قسمان شابٌ لاصبوة له نشأ على الخير و اجتناب الشرّ وهو الّذي قال فيه رسول الله ﷺ : « يعجب ربّك من شابّ ليست له صبوة »[١] و هذا عزيزٌ نادرٌ ، والقسم الثاني هو الّذي لا يخلو عن مقارفة الذّنوب ، ثمّ هم ينقسمون إلى مصرّين وإلى تائبين و غرضنا أن نبيّن العلاج في حلّ عقدة الإصرار و نذكر الدّواء فيه ، فاعلم أنّ شفاء التّوبة لا يحصل إلّا بالدّواء ولا يقف على الدّواء من لا يقف على الدّاء ، إذ لا معنى للدّواء إلّا مناقضة أسباب الدّاء فكلّ داء حصل من سبب فدواؤه حلّ ذلك السّبب و رفعه و إبطاله ولا يبطل الشّيء إلّا بضدّه ولاسبب للأصرار إلّا الغفلة والشهوة ولا يضادّ الغفلة إلّا العلم ولا يضادّ الشهوة إلّا الصبر على قطع الأسباب المحرّكة للشهوة ، والغفلة رأس الخطايا قال الله تعالى : «اُولئك هم الغافلون ☼ لا جرم أنّهم في الآخرة هم الخاسرون »[٢] فلا دواء إذن للتّوبة إلّا معجون يعجن من حلاوة العلم و مرارة الصبر ، و كما يجمع في السّكنجبين بين حلاوة السكّر و حموضة الخلّ و يقصد بكلّ واحد منهما غرض آخر في العلاج بمجموعهما فينقمع الأسباب المهيّجة للصفراء ، فهكذا ينبغي أن يفهم علاج القلب عمّا به من مرض الإصرار ، فإذن لهذا الدّواء أصلان أحدهما العلم و الآخر الصبر فلابدّ من بيانهما ، فإن قلت : أينفع كلّ علم لحلّ الإصرار أم لابدّ من علم مخصوص ؟ فاعلم أنّ العلوم بجملتها أدوية لأمراض القلوب لكن لكلّ مرض علم يخصّه كما أنّ علم الطبّ نافع في علاج الأمراض بالجملة و لكن يخصّ كلّ علّة علم مخصوص فكذلك دواء الإصرار ، فلنذكر خصوص ذلك العلم على موازنة مرض الأبدان ليكون أقرب إلى الفهم ، فنقول : يحتاج المريض إلى التصديق بأُمور أربعة : الأوّل أن يصدّق على الجملة بأنّ للمرض والصحّة أسباباً يتوصّل إليها بالاختيار على ما رتّبة مسبّب

---

(١) أخرجه أحمد والطبراني من حديث عقبة بن عامر كما في المغني .
(٢) النحل : ١٠٩ و ١١٠ .

الأسباب و هذا هو الإيمان بأصل الطبّ فإنّ من لا يؤمن به لا يشتغل بالعلاج و يحقّ عليه الهلاك و هذا وزانه ممّا نحن فيه الإيمان بأصل الشرع وهو أنّ للسعادة في الآخرة سبباً هو الطاعة و للشقاوة سبباً وهو المعصية وهو الإيمان بأصل الشرائع و هذا لا بدّ من حصوله إمّا عن تحقيق أو تقليد و كلاهما من جملة الإيمان ، الثاني أنّه لا بدّ و أن يعتقد المريض في طبيب معيّن أنّه عالم بالطبّ حاذق فيه صادق فيما يعبّر عنه ، لا يلبس ولا يكذب ، فإنّ إيمانه بأصل الطبّ لا ينفعه بمجرّده دون هذا الإيمان و وزانه ممّا نحن فيه العلم بصدق الرّسول صلى الله عليه وآله والإيمان بأنّ كلّ ما يقوله حقّ و صدق لا كذب فيه ولا خلف ، الثالث أنّه لا بدّ وأن يصغى إلى الطبيب فيما يحذّره من تناول الفواكه والأسباب المضرّة على الجملة حتّى يغلب عليه الخوف في ترك الاحتماء فتكون شدّة الخوف باعثة له على الاحتماء ، و وزانه من الدّين الاصغاء إلى الآيات والأخبار المشتملة على الترغيب في التقوى والتحذير من إرتكاب الذّنوب و اتّباع الهوى و التّصديق بجميع ما يلقى إلى سمعه من ذلك من غير شكّ و استرابة حتّى ينبعث به الخوف المقوي على الصبر الّذي هو الرّكن الآخر في العلاج ، الرابع أن يصغي إلى الطبيب فيما يخصّ مرضه وفيما يلزمه بنفسه الإحتماء عنه ليعرّفه أوّلاً تفصيل ما يضرّه من أفعاله و أحواله و مأكوله و مشروبه فليس على كلّ مريض الإحتماء عن كلّ شيء ولا ينفعه كلّ دواء ، بل لكلّ علّة خاصّة علم خاصّ وعلاج خاصّ و وزانه من الدّين أنّ كلّ عبد ليس يبتلى بكلّ شهوة و ارتكاب كلّ ذنب ، بل لكلّ مؤمن ذنب مخصوص أو ذنوب مخصوصة و إنّما حاجته في الحال مرهقة إلى العلم بأنّها ذنوب ثمّ إلى العلم بآفاتها و قدر ضررها في الدّين ثمّ إلى العلم بكيفيّة التوصّل إلى الصبر عنها ثمّ إلى العام بكيفيّة تكفير ما سبق منها فهذه علوم يختصّ بها أطبّاء الدّين وهم العلماء الّذينهم ورثة الأنبياء ، فالعاصي إن علم عصيانه فعليه طلب العلاج من الطبيب و هو العالم و إن كان لا يدري أنّ ما يرتكبه ذنب فعلى العالم أن يعرّفه ذلك بأن يتكفّل كلّ عالم با قليم أو بلدة أو محلّة أو مسجد أو مشهد فيعلّم أهله دينهم و يميّز ما يضرّهم عمّا ينفعهم و ما يشقيهم عمّا يسعدهم و

لا ينبغي أن يصبر إلى أن يسأل عنه بل ينبغي أن يتصدّى لدعوة الناس إلى نفسه فإنّهم ورثة الأنبياء، والأنبياء ما تركوا الناس على جهلهم بل كانوا ينادونهم في مجامعهم و يدورون على أبواب دورهم في الابتداء و يطلبون واحداً واحداً فيرشدونهم، فإنّ مرضى القلوب لا يعرفون مرضهم كما أنّ الّذي ظهر على وجهه برص ولا مرآة معه لا يعرف مرضه مالم يعرفه غيره، وهذا فرض عين على العلماء كافّة، وعلى السلاطين كافّة أن يرتّبوا في كلّ قرية و كلّ محلّة فقيهاً متديّناً يعلّم الناس دينهم، فإنّ الخلق لا يولدون إلا جهّالاً فلابدّ من تبليغ الدّعوة إليهم في الأصل والفرع فالدّنيا دار مرضى إذ ليس في بطن الأرض إلّا ميّت ولا على ظهرها إلّا سقيم و مرض القلوب أكبر من مرض الأبدان، والعلماء أطبّاء و السّلاطين قوّام دار المرضى، فكلّ مريض لم يقبل العلاج بمداواة العالم يسلّم إلى السلطان ليكفّ شرّه. كما يسلّم الطبيب المريض الّذي لا يحتمي أوالّذي غلب عليه الجنون إلى القيّم ليقيّده بالسلاسل و الأغلال ويكفّ شرّه عن نفسه وعن سائر الناس، وإنّما صار مرض القلوب أكثر من مرض الأبدان لثلاث علل: إحداها أنّ المريض به لايدري أنّه مريض، والثانية أنّ عاقبته غير مشاهدة في هذا العالم بخلاف مرض البدن، فإنّ عاقبته موت مشاهد تنفر الطباع منه و ما بعد الموت غير مشاهد و عاقبة الذّنوب موت القلب و هوغير مشاهد في هذا العالم فقلّت النّفرة عن الذّنوب و إن علمها مرتكبها فلذلك تراه يتّكل على فضل الله في مرض القلب و يجتهد في علاج مرض البدن من غير اتّكال، والثالثة - و هو الدّاء العضال - فقد الطبيب فإنّ الأطبّاء هم العلماء و قد مرضوا في هذه الأعصار مرضاً شديداً عجزوا عن علاجه و صارت لهم سلوة في عموم المرض حتّى لا يظهر نقصانهم فاضطرّوا إلى إغواء الخلق والإشارة عليهم بما يزيدهم مرضاً، لأنّ الدّاء المهلك هو حبّ الدّنيا و قد غلب هذا الدّاء على الأطبّاء فلم يقدروا على تحذير الخلق منه استنكافاً من أن يقال لهم: فما بالكم تأمرون بالعلاج و تنسون أنفسكم، فبهذا السّبب عمّ الدّاء و عظم الوباء و انقطع الدّواء و هلك الخلق لفقد الأطبّاء، بل اشتغل الأطبّاء بفنون الإغواء، فليتهم إذ لم يصلحوا لم

يفسدوا ، و ليتهم سكتوا فما نطقوا ، فإنّهم إذا تكلّموا لم يهمّهم في مواعظهم إلّا ما يرغّب العوام ويستميل قلوبهم ولا يتوصّلون إلى ذلك إلّا بالإرجاء و تغليب أسباب الرّجاء ، و ذكر دلائل الرّحمة لأنّ ذلك ألذّ في الأسماع و أخفّ على الطّباع فينصرف الخلق عن مجالس الوعظ و قد استفادوا مزيد جرأة على المعاصي و مزيد ثقة بفضل الله ، و مهما كان الطبيب جاهلاً أوخائناً أهلك بالدّواء حيث يضعه في غير موضعه فالرّجاء والخوف دواآن و لكن لشخصين متضادّي العلّة ، أمّا الّذي غلب عليه الخوف حتّى هجر الدّنيا بالكلّيّة و كلّف نفسه مالا يطيق و ضيّق العيش على نفسه بالكلّيّة فتكسر سورة إسرافه في الخوف بذكر أسباب الرّجاء ليعود إلى الاعتدال ، و كذا المصرّ على الذّنوب المشتهي للتّوبة الممتنع عنها بحكم القنوط و اليأس استعظاماً لذنوبه الّتي سبقت يعالج أيضاً بأسباب الرّجاء حتّى يطمع في قبول التّوبة فيتوب . فأمّا معالجة المغرور المسترسل في المعاصي بذكر أسباب الرّجاء فيضاهي معالجة المحرور بالعسل طلباً للشفاء ، و ذلك من دأب الجهّال و الأغبياء ، فإذن فساد الأطبّاء هو الدّاء المعضل الّذي لا يقبل الدّواء أصلاً .

فإن قلت : فاذكر الطّريق الّذي ينبغي أن يسلكه الواعظ في وعظه مع الخلق؟ فاعلم أنّ ذلك يطول ولا يمكن استقصاؤه نعم نشير إلى الأنواع النافعة في حلّ عقدة الإصرار ، وحمل الناس على ترك الذّنوب وهي أربعة أنواع :

النوع الأوّل - أن يذكر ما في القرآن من الآيات المخوّفة للمذنبين والعاصين ، و كذلك ماورد من الأخبار والآثار مثل قوله صلّى الله عليه وآله[1] : « ما من يوم طلع فجره ولا ليلة عاب شفقها إلّا وملكان يتجاوبان بأربعة أصوات يقول أحدهما : ياليت هذا الخلق لم يخلقوا ، و يقول الآخر : ياليتهم إذ خلقوا علموا لماذا خلقوا ، فيقول الآخر : و يا ليتهم إذ لم يعلموا لماذا خلقوا عملوا بما علموا » . - و في بعض الرّوايات

---

(١) قال العراقى : لم أجده هكذا ، و روى أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابن عمر بسند ضعيف « ان لله ملكاً ينادى فى كل ليلة أبناء الاربعين زرع قد دنى حصاده » - و فيه - « ليت الخلائق لم يخلقوا وليتهم اذا خلقوا علموا لماذا خلقوا فتجالسوا بينهم فتذاكروا - الحديث - » .

« تجالسوا فتذاكروا ما علموا - فيقول الآخر : و ياليتهم إذلم يعملوا بما علموا تابوا ممّا عملوا » . و قال بعض السّلف : إذ أذنب العبد أمر صاحب اليمين صاحب الشّمال - و هو أمير عليه - أن يرفع القلم عنه ستّ ساعات فإن تاب و استغفر لم يكتبها عليه و إن لم يستغفر كتبها .

وقال بعض السلف : ما من عبد يعصي إلّا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به ، واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفاً ، فيقول الله تعالى للأرض والسماء كفّا عن عبدي و امهلاه فإنّكما لم تخلقاه و لو خلقتماه لرحمتماه ، لعلّه يتوب إليّ فأغفر له ، لعلّه يستبدل صالحاً فأبدل له حسنات ، فذلك معنى قوله تعالى : «إنّ الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده »[١] .

والأخبار والآثار في ذمّ المعاصي ومدح التائبين لا تحصى ، فينبغي أن يستكثر الواعظ منها إن كان هو وارث رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فإنّه ما خلّف ديناراً و لا درهماً إنّما خلّف العلم و الحكمة و ورثه كلّ عالم بقدر ما أصابه .

و النوع الثاني حكايات الأنبياء والسلف وما جرى عليهم من المصائب بسبب ذنوبهم فذلك شديد الوقع ظاهر النفع في قلوب الخلق مثل أحوال آدم عليه السلام في عصيانه و ما لقيه من الإخراج من الجنّة حتّى روي أنّه لمّا أكل من الشجرة تطايرت الحلل عن جسده ، و بدت عورته فاستحيا التّاج و الإكليل من وجهه أن يرتفعا عنه فجاءه جبرئيل فأخذ التاج من رأسه وحلّ الإكليل عن جبينه و نودي من فوق العرش اهبطا من جواري فإنّه لا يجاورني من عصاني ، قال : فالتفت آدم إلى حوّاء باكياً و قال : هذا أوّل شؤم المعصية أخرجنا من جوار الحبيب .

و روي في الاسرائيليّات أنّ رجلاً تزوّج امرأة من بلدة اُخرى و أرسل عبده يحملها إليه فراودته نفسه وطالبته بها فجاهدها واستعصم قال : فنبّأه الله ببركة تقواه فكان نبيّاً في بني إسرائيل ، وفي قصص موسى عليه السلام أنّه قال : للخضر عليه السلام بم أطلعك الله على علم الغيب ؟ فقال : بتركي المعاصي لأجل الله تعالى ، وروي أنّ الله تعالى

(١) فاطر : ٤١ .

أوحى إلى يعقوب عليه السلام : أتدري لم فرّقت بينك وبين ولدك يوسف ؟ قال : لا ، قال : لقولك لإخوته أخاف أن يأكله الذّئب لم خفت عليه الذّئب ولم ترجني ولم نظرت إلى غفلة إخوته ولم تنظر إلى حفظي له ؟ و كذلك لمّا قال يوسف لصاحب الملك : « اذكرني عند ربّك » قال تعالى : «فأنساه الشيطان ذكر ربّه فلبث في السّجن بضع سنين »(١).

و أمثال هذه الحكايات لاتنحصر ولم يرد بها القرآن والأخبار وورود الأسمار ، بل الغرض بها الاعتبار و الاستبصار ليعلم أنّ الأنبياء عليهم السلام لم يتجاوز عنهم في الذّنوب الصغار فكيف يتجاوز عن غيرهم في الذّنوب الكبار ، نعم كانت سعادتهم في أن عوجلوا بالعقوبة و لم يؤخّروا إلى الآخرة ، والأشقياء يمهلون ليزدادوا إثماً ولأنّ عذاب الآخرة أشدّ و أكبر ، فهذا أيضاً ممّا ينبغي أن يكثر جنسه على أسماع المصرّين فإنّه نافع في تحريك دواعي التوبة .

النوع الثالث : أن يقرّر عندهم أنّ تعجيل العقوبة في الدّنيا متوقّع على الذّنب و أنّ كلّ ما يصيب العبد من المصائب فهو بسبب جناياته فربّ عبد يتساهل في أمر الآخرة و يخاف من عقوبة الله في الدّنيا أكثر لفرط جهله فينبغي أن يخوّف به فإنّ الذّنوب كلّها يتعجّل في الدّنيا شؤمها في غالب الأمر حتّى قد يضيق على العبد رزقه بسبب ذنوبه و قد تسقط منزلته عن القلوب و يستولي عليه أعداؤه قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « إنّ العبد ليحرم الرّزق بالذنب يصيبه » (٢) و قال ابن مسعود : إنّي لأحسب أنّ العبد لينسى العلم بذنب يصيبه و هو معنى قوله عليه السلام : «من قارف ذنباً فارقه عقل لا يعود إليه أبداً » (٣).

و قال بعض السلف : ليست اللّعنة سواداً في الوجه ونقصاناً في المال إنّما اللّعنة أن لا تخرج من ذنب إلّا وقعت في مثله أو أشدّ منه ، وهو كما قاله لأنّ اللّعنة هي الطرد والإبعاد فإذا لم يوفّق للخير ويسّر له الشرّ فقد أبعد ، و الحرمان عن رزق

(١) يوسف : ٤٣ .

(٢) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤٠٢٢ باسناد حسن وفي الكافي ج ٢ ص ٢٧١ مثله .

(٣) قد تقدم .

التوفيق أعظم حرمان ، و كلّ ذنب فإنّه يدعو إلى ذنب آخر و يتضاعف فيحرم العبد به عن رزقه النافع في مجالسة العلماء المنكرين للذّنوب وعن مجالسة الصالحين بل يمقته الصالحون ، وفي الخبر «ما أنكرتم من زمانكم فيما غيّرتم من أعمالكم»(١) وفيه يقول الله تعالى « إنّ أدنى ما أصنع بالعبد إذا آثر شهوته على طاعتي أن اُحرّمه لذيذ مناجاتي» .أقول : وهذا مرويّ من طريق الخاصّة أيضاً ، وفي الكافي عن الصادق عليه السلام قال : «قال أمير المؤمنين عليه السلام في قوله تعالى : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم و يعفو عن كثير » : ليس من التواء عرق و لا نكبة حجر ولا عثرة قدم ولا خدشة عود إلّا بذنب ولما يعفو الله أكثر» (٢).

و عنه عليه السلام قال : « قال أمير المؤمنين : ترك الخطيئة أيسر من طلب التوبة ، و كم من شهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً و الموت فضح الدّنيا و لم يترك لذي لبّ فرحاً » (٣) .

النوع الرابع : ذكر ما ورد من العقوبات على آحاد الذّنوب كالخمر والزّنا ، و السرقة و القتل و الغيبة و الكبر و الحسد وذلك ممّا لا يمكن حصره و ذكره مع غير أهله وضع للدّواء في غير موضعه ، بل ينبغي أن يكون العالم كالطبيب الحاذق يستدلّ أوّلاً بالنبض و السحنة(٤) و وجوه الحركات على العلل الباطنة و يشتغل بعلاجها فليستدلّ بقرائن الأحوال على خفايا الصفات و ليتعرّض لما وقف عليه

(١) أخرجه البيهقي في الزهد من حديث أبي الدرداء وقال : غريب تفرد به هكذا العقيلي و هو عبدالله بن هاني ، قال العراقي : هو متهم بالكذب وقال ابن أبي حاتم : روى عن أبيه بواطيل . أقول : معناه صحيح والدليل على ذلك كتاب الله عزوجل : « ما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم و يعفو عن كثير » وقوله تعالى : «ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس » .

(٢) المصدر ج ٢ ص ٤٤٥ تحت رقم ٦ ، و الاية في سورة الشورى : ٣٠ . الالتواء : الانفتال و الانعطاف . في القاموس لواه يلويه لياً ولوياً بالضم : فتله و ثناه ، فالتوى و تلوى . و برأسه : أمال . و قال : نكب الحجارة رجله لثمتها أو أصابتها .

(٣) المصدر ج ٢ ص ٤٥١ تحت رقم ١ . (٤) اى الهيئة واللون .

اقتداء برسول الله ﷺ حيث قال له واحد : أوصني ولاتكثر علي فقال : لاتغضب . و قال له آخر : أوصني فقال : عليك باليأس مما في أيدي الناس فإن ذلك هو الغنى ، و إياك والطمع فإنه الفقر الحاضر ، وصل صلاة مودع وإياك وما يتعذر منه»[1]. فكأنه عليه السلام توسم بالسائل الأول مخائل الغضب فنهاه عنه ، وفي السائل الآخر مخائل الطمع في الناس و طول الأمل ، والكلام على قدر حال السائل أولى من أن يكون بحسب حال القائل ، فإذن على كل ناصح أن تكون غايته مصروفة إلى تفرس الصفات الخفية و توسم الأحوال اللائقة ليكون اشتغاله بالمهم فإن حكاية جميع مواعظ الشرع مع كل واحد غير ممكنة والاشتغال بوعظه بما هو مستغن عن التوعظ فيه تضنيع زمان .

فإن قلت : فإن كان الواعظ يتكلم في جمع أو سأله من لا يدري باطن حاله أن يعظه فكيف يفعل ؟ فاعلم أن طريقه في ذلك أن يعظه بما يشترك كافة الخلق في الحاجة إليه إما على العموم وإما على الأكثر فإن في علوم الشرع أغذية و أدوية فالأغذية للكافة والأدوية لأرباب العلل ، ومثاله ما قال لقمان لابنه : «يابني زاحم العلماء بركبتيك ولاتجادلهم فيمقتوك ، وخذ من الدنيا بلاغك وأنفق فضول كسبك لآخرتك ، ولاترفض الدنيا كل الرفض فتكون عيالاً وعلى أعناق الرجال كلاً ، وصم صوماً يكسر شهوتك ولا تصم صوماً يضر بصلاتك فإن الصلاة أفضل من الصوم و لاتجالس السفيه و لاتخالط ذا الوجهين . و قال لابنه أيضاً : يا بني لا تضحك من غير عجب ولا تمش في غير أرب[2] ولا تسأل عما لايعنيك و لا تضيع مالك و تصلح مال غيرك فإن مالك ما قدمت و مال غيرك ما تركت ، يا بني إن من يرحم يرحم و من يصمت يسلم ، و من يقل الخير يغنم ، و من يقل الشر يأثم ، و من لا يملك لسانه يندم » . و قال رجل لأبي حازم : أوصني ، فقال : كل ما لوجاءك الموت عليه فرأيته غنيمة فألزمه و كل ما جاءك الموت عليه فرأيته مصيبة فاجتنبه .

---

(١) أخرجه الحاكم و ابن ماجه وقد تقدم .

(٢) الارب - محركة - : الحاجة .

و قال موسى عليه السلام للخضر : أوصني فقال : كن بسّاماً ولا تكن غضّاباً و كن نفّاعاً ولاتكن ضرّاراً ، وانزع عن اللّجاجة ، ولاتمش في غير حاجة ، ولا تضحك من غير عجب ، و لا تعيّر الخطّائين بخطاياهم ، و ابك على خطيئتك يا ابن عمران .

و قال : رجل لمحمّد بن كرام : أوصني فقال : اجتهد في رضا خالقك بقدر ما تجتهد في رضا نفسك .

فهذه المواعظ مثل الأغذية الّتي يشترك الكافّة في الانتفاع بها و لأجل فقد مثل هؤلاء الوعّاظ انحسم باب الاتّعاظ و غلبت المعاصي و استسرى الفساد و بلي الخلق بوعّاظ يزخرفون أسجاعاً وينشدون أبياتاً و يتكلّفون ذكر ما ليس في سعة علمهم و يتشبّهون بحال غيرهم فسقط عن قلوب العامّة وقارهم و لم يكن كلامهم صادراً من القلب ليصل إلى القلب بل القائل متصلّف [١] و المستمع متكلّف و كلّ واحد منهما مدبرٌ متخلّف ، فإذن كان طلب الطبيب أوّل علاج المرضى فطلب العلماء أوّل علاج العاصين ، فهذا أحد أركان العلاج واُصوله .

و الأصل الثاني : الصبر و وجه الحاجة إليه أنّ المريض إنّما يطول مرضه لتناوله ما يضرّه و إنّما يتناول ذلك إمّا لغفلته عن مضرّته و إمّا لشدّة غلبة شهوته فله سببان فما ذكرناه هو علاج الغفلة فيبقى علاج الشهوة وطريق علاجها قد ذكرناه في كتاب رياضة النفس ، و حاصله أنّ المريض إذا اشتدّت ضراوته لمأكول مضرّ فطريقه أن يستشعر عظم ضرره ثمّ يغيب ذلك عن عينه فلا يحضره ثمّ يتسلّى عنه بما يقرب منه في صورته ولا يكثر ضرره ثمّ يصبر بقوّة الخوف على الألم الّذي يناله في تركه فلابدّ على كلّ حال من مرارة الصبر ، فكذلك يعالج الشهوة في المعاصي كالشابّ مثلاً إذا غلبته الشهوة فصار لا يقدر على حفظ عينه ولاحفظ قلبه أو حفظ جوارحه في السعي وراء شهوته فينبغي أن يستشعر ضرر ذنبه بأن يستقري المخوفات الّتي جاءت فيه من كتاب الله وسنّة رسوله صلّى الله عليه وآله وسلّم فإذا اشتدّ خوفه تباعد عن الأسباب المهيّجة لشهوته ومهيّج الشهوة من خارج هو حضور المشتهي والنظر إليه و علاجه

(١) المتصلف : من تكلف الصلف و هو التمدح بماليس فيه والتملق .

الهرب و العزلة و من داخل تناول لذائذ الأطعمة و علاجه الجوع و الصوم الدائم و كلّ ذلك لا يتمّ إلّا بصبر و لا يصبر إلّا عن خوف و لا يخاف إلّا عن علم و لا يعلم إلّا عن بصيرة و افتكار أو عن سماع و تقليد فأوّل الأمر حضور مجالس الذكر ثمّ الاستماع عن قلب مجرّد عن سائر الشواغل مصروف إلى السماع ثمّ التفكّر فيه لتمام الفهم و ينبعث من تمامه لا محالة خوفه و إذا قوي الخوف تيسّر بمعونته الصبر و انبعث الدّواعي لطلب العلاج و توفيق الله و تيسيره من وراء ذلك ، فمن أعطى من قلبه حسن الإصغاء و استشعر الخوف فاتّقى و انتظر الثّواب و صدّق بالحسنى فسييسّره الله لليسرى وأمّا من بخل واستغنى و كذّب بالحسنى فسييسّره الله للعسرى ، ثمّ لا يغني عنه ما اشتغل به من ملاذّ الدّنيا مهما هلك فتردّى و ما على الأنبياء إلّا شرح طرق الهدى و إنّما لله الآخرة و الأولى .

فإن قلت : فقد رجع الأمر كلّه إلى الإيمان لأنّ ترك الذّنب لا يمكن إلّا بالصبر والصبر لا يمكن إلّا بالخوف و الخوف لا يحصل إلّا بالعلم بعظم ضرر الذّنوب والتصديق بعظم ضرر الذّنوب هو تصديق الله و رسوله فهو الإيمان فكلّ من أصرّ على الذّنب لم يصرّ عليه إلّا لأنّه غير مؤمن ؟ فاعلم أنّ هذا لا يكون لفقد الإيمان بل يكون لضعف الإيمان إذ كلّ مؤمن مصدّق بأنّ المعصية سبب البعد من الله وسبب العقاب في الآخرة ولكن سبب وقوعه في الذّنب اُمور : أحدها أنّ العقاب الموعود غيب ليس بحاضر والنّفس جبلت متأثّرة بالحاضر فتأثّرها بالموعود ضعيف بالإضافة إلى تأثّرها بالحاضر ، والثاني أنّ الشهوات الباعثة على الذّنوب لذّاتها ناجزة وهي في الحال آخذة بالمخنق و قد قوي ذلك واستولى عليها بسبب الاعتياد والإلف والعادة طبيعة خامسة ، والنزوع عن العاجل لخوف الآجل شديد على النّفس و لذلك قال تعالى : « كلّا بل تحبّون العاجلة و تذرون الآخرة » (١) و قال : « بل تؤثرون الحياة الدّنيا » (٢) و قد عبّر عن شدّة الأمر قول رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « حفّت الجنّة

(١) القيامة : ٢٠ و ٢١ . (٢) الاعلى : ١٧ .

بالمكاره و حفّت النّار بالشهوات »[1] و قوله ﷺ : « إنّ الله خلق النّار فقال لجبرئيل : إذهب فانظر إليها فذهب فنظر إليها فقال : و عزّتك لا يسمع بها أحدٌ فيدخلها ، فحفّها بالشهوات ثمّ قال : إذهب فانظر إليها فنظر فقال : و عزّتك لقد خشيت أن لا يبقى أحدٌ إلّا دخلها ، وخلق الجنّة فقال لجبرئيل : إذهب فانظر إليها فنظر فقال : و عزّتك لايسمع بها أحدٌ إلّا دخلها ، فحفّها بالمكاره ثمّ قال : إذهب فانظر إليها فنظر فقال : و عزّتك لقد خشيت ألّا يدخلها أحدٌ »[2] فإذن كون الشهوة مرهقة في الحال و كون العقاب متأخّراً إلى المآل سببان ظاهران في الاسترسال مع حصول أصل الإيمان ، فليس كلّ من يشرب في مرضه ماء الثلج لشدّة عطشه مكذّباً بأصل الطبّ ولا مكذّباً بأنّ ذلك مضرٌّ في حقّه ، ولكنّ الشهوة تغلبه و ألم الصبر عنه ناجز فيهون عليه الألم المنتظر ، والثالث أنّه ما من مذنب مؤمن إلّا و هو في الغالب عازم على التوبة و تكفير السيّئات بالحسنات و قد وعد بأنّ ذلك يجبره إلّا أنّ طول الأمل غالب على الطباع فلا يزال يسوّف التوبة والتكفير فمن حيث رجائه التوفيق للتّوبة ربّما يقدم عليه مع الإيمان ، والرّابع أنّه ما من مؤمن موقن إلّا و هو معتقد أنّ الذّنب لا يوجب العقوبة إيجاباً لا يمكن العفو عنها فهو يذنب و ينتظر العفو اتّكالاً على فضل الله ، فهذه أسباب أربعة موجبة للإصرار على الذّنب مع بقاء أصل الإيمان نعم قد يقدم المذنب بسبب خامس يقدح في أصل الإيمان وهو كونه شاكّاً في صدق الرّسل وهذا هو الكفر كالّذي يحذره الطبيب عن تناول ما يضرّه في المرض وكان المحذّر ممّا لا يعتقد فيه أنّه عالم بالطبّ فيكذّب به أو يشكّ فيه فلا يبالي به فهذا هو الكفر ، فإن قلت : فما علاج الأسباب الخمسة ؟ فأقول : هو الفكر و ذلك بأن يقرّر على نفسه في السّبب الأوّل و هو تأخّر العقاب أنّ كلّما هو آت آت و أنّ غداً للناظرين قريب و أنّ الموت أقرب إلى كلّ أحد من شراك

(١) أخرجه الترمذى ج ١٠ ص٣٢ وأحمد ومسلم من حديث أنس و أيضاً أحمد فى الزهد عن ابن مسعود و مسلم أيضاً عن أبى هريرة كلهم بسند صحيح كما فى الجامع الصغير.

(٢) أخرجه الترمذى ج ١٠ ص ٣٣ .

نعله فما يدريه فلعلّ الساعة قريب و المتأخّر إذا وقع صار ناجزاً و يذكّر نفسه أنّه أبداً في دنياه يتعب في الحال لخوف أمر في الاستقبال إذ يركب البحار ويقاسي الأسفار لأجل الرّبح الّذي يظنّ أنّه قد يحتاج إليه في ثاني الحال بل لو مرض و أخبره نصراني طبيب بأن شرب الماء البارد يضرّه و يسوقه إلى الموت وكان الماء البارد ألذّ الأشياء عنده تركه مع أنّ الموت ألمه لحظة إذا لم يخف ما بعده و مفارقته للدّنيا لابدّ منها فكم نسبة وجوده في الدّنيا إلى عدمه أزلاً وأبداً ، فلينظر كيف يبادر إلى ترك ملاذّه بقول ذمّيّ لم تقم معجزةً على طبّه فيقول : كيف يليق بعقلي أن يكون قول الأنبياء المؤيّدين بالمعجزات عندي دون قول نصرانيّ يدّعي الطبّ لنفسه بلا معجزة على طبّه ولا يشهد له إلّا عوام الخلق و كيف يكون عذاب النّار أخفّ عندي من عذاب المرض ، و كلّ يوم في الآخرة بمقدار خمسين ألف سنة من أيّام الدّنيا و بهذا التّفكّر بعينه يعالج اللّذّة الغالبة عليه ويكلّف نفسه تركها ويقول : إذا كنت لا أقدر على ترك لذّاتي أيّام العمر وهي أيّام قلائل فكيف أقدر على ذلك أبد الآباد؟ و إذا كنت لا اُطيق ألم الصّبر فكيف اُطيق ألم النّار ؟ و إذا كنت لا أصبر عن زخارف الدّنيا مع كدورتها و تنغّصها و امتزاج صفوها بكدرها فكيف أصبر عن نعيم الآخرة ؟.

و أمّا تسويف التّوبة فيعالجه بالفكر في أنّ أكثر صياح أهل النّار من التسويف لأنّ المسوّف يبني الأمر على ما ليس إليه و هو البقاء فلعلّه لا يبقى ، و إن بقي فلا يقدر على الترك غداً كما لا يقدر عليه اليوم فليت شعري هل عجز في الحال إلّا لغلبة الشّهوة ، و الشهوة ليست تفارقه غداً بل تتضاعف إذ تتأكّد بالاعتياد فليست الشهوة الّتي أكّدها الانسان بالعادة كالّتي لم يؤكّدها و عن هذا هلك المسوّفون لأنّهم يظنّون الفرق بين المتماثلين ولا يظنّون أنّ الأيّام متشابهة في أنّ ترك الشّهوات فيها أبداً شاقّ ، و ما مثال المسوّف إلّا مثال من احتاج إلى قلع شجرة فرآها قويّة لا تنقلع إلّا بمشقّة شديدة فقال : اؤخّرها سنة ثمّ أعود إليها و هو يعلم أنّ الشجرة كلّما بقيت ازداد رسوخها و هو كلّما طال عمره ازداد ضعفه فلا حماقة في الدّنيا أعظم

من حماقته إذ عجز مع قوّته عن مقاومة ضعيف فأخذ ينتظر الغلبة عليه إذا ضعف هو في نفسه و قوي الضّعيف ، وأمّا المعنى الرّابع وهو انتظار عفوالله تعالى فعلاجه ما سبق كمن ينفق جميع أمواله ويترك نفسه وعياله فقراء منتظراً من فضل الله تعالى أن يرزقه العثور على كنز في أرض خربة فإنّ إمكان العفو عن الذّنب مثل هذا الإمكان وهو مثل من يتوقّع النهب من الظلمة في بلده وذخائر أمواله في صحن داره وقدر على دفنها و إخفائها فلم يفعل وقال : أنتظر من فضل الله أن يسلّط غفلة وعقوبة على الظالم الناهب حتّى لا يتفرّغ إلى داري أو إذا انتهى إلى داري مات على باب الدّار فإنّ الموت ممكنة ، وقد حكي في الأسمار أنّ مثل ذلك وقع فأنا أنتظر من فضل الله مثله فمنتظر هذا منتظر أمر ممكن و لكنّه في غاية الحماقة ، و أمّا الخامس و هو الشكّ فهذا كفرٌ ، و علاجه الأسباب الّتي تعرّفه صدق الرّسل وذلك يطول ولكن يمكن أن يعالج بعلم قريب يليق بحدّ عقله فيقال له : ماقاله الأنبياء المؤيّدون بالمعجزات هل صدقه ممكن أو يقول أعلم أنّه محال كما أعلم استحالة كون شخص واحد في مكانين في حالة واحدة فإن قال : أعلم استحالته كذلك فهو أخرق معتوه و كأنّه لا وجود لمثل هذا في العقلاء، وإن قال : أنا شاكٌّ فيه ، فيقال : لو أخبرك شخصٌ واحد مجهول عند تركك طعامك في البيت لحظة أنّه قد ولغت فيه حيّة وألقت سمّها فيه وجوّزت صدقه فهل تأكله أو تتركه ، وإن كان ألذّ الأطعمة ، فتقول : أتركه لامحالة لأنّي أقول : إن كذب فلا يفوتني إلّا هذا الطعام والصّبر عنه وإن كان شديداً فهو قريب و إن صدق فتفوتني الحياة ، والموت بالإضافة إلى ألم الصبر عن الطعام و إضاعته شديد فيقال : يا سبحان الله كيف تؤخّر صدق الأنبياء كلّهم مع ما ظهر لهم من المعجزات و صدق كافّة العلماء والأولياء و الحكماء بل جميع أصناف العقلاء و لست أعني بهم جهّال العوام بل ذوي الألباب عن صدق رجل واحد مجهول لعلّ له غرضاً فيما يقول ، فليس في العقلاء إلّا من صدّق باليوم الآخر وأثبت ثواباً و عقاباً وإن اختلفوا في كيفيّته ، فإن صدقوا فقد أشرفت على عذاب يبقى أبدالآباد وإن كذبوا فلايفوتك إلّا بعض شهوات هذه الدّنيا الفانية المكدّرة فلا يبقى له توقّف إن كان عاقلاً مع

هذا التفكّر إذ لا نسبة لمدّة العمر إلى أبد الآباد ، بل لو قدرنا الدّنيا مملوءة بالذّرة و قدّرنا طائراً يلتقط في كلّ ألف ألف سنة حبّة واحدة منها لفنيت الذّرة ولم ينقص أبد الآباد شيئاً فكيف يفتر رأي العاقل في الصبر عن الشهوات مائة سنة مثلاً لأجل سعادة تبقى أبد الآباد ، و ذلك لا منتهى له ، و لذلك قال أبو العلاء المعرّي :

قال المنجّم والطبيب كلاهما ✿ لا يحشر الأموات قلت إليكما

إن صحّ قولكما فلست بخاسر ✿ أو صحّ قولي فالخسار عليكما

و لذلك قال عليّ عليه السلام : لبعض من قصر عقله عن فهم تحقيق الأمور وكان شاكّاً : إن صحّ ما قلت فقد تخلّصنا جميعاً وإلّا فقد تخلّصنا وهلكت . أي العاقل يسلك طريق الأمن في جميع الأحوال .

فإن قلت فهذه أُمور جليّة ولكنّها ليست تنال إلّا بالفكر فما بال القلوب هجرت الفكر فيها و استثقلته و ما علاج القلوب لردّها إلى الفكر لا سيّما من آمن بأصل الشرع و تفصيله ؟ فاعلم أنّ المانع من الفكر أمران :

أحدهما أنّ الفكر النافع هو الفكر في عقاب الآخرة و أهوالها و شدائدها وحسرات العاصين في الحرمان عن النعيم المقيم ، وهذا فكر لدّاغ مؤلم للقلب فينفر القلب عنه ويتلذّذ بالفكر في اُمور الدّنيا على سبيل التفرّج والاستراحة ، والثاني أنّ الفكر شغلٌ في الحال مانع من لذائذ الدّنيا وقضاء الشهوات وما من إنسان إلّا وله في كلّ حالة من أحواله ونفس من أنفاسه شهوة قد تسلّطت عليه واسترقّته فصار عقله مسخّراً لها فهو مشغول بتدبير حيلته وصارت لذّته في طلب الحيلة فيه أو في مباشرة قضاء الشهوة والفكر يمنعه من ذلك ، وأمّا علاج هذين المانعين فهو أن يقول لقلبه : ما أشدّ غباوتك في الاحتراز من الفكر في الموت و ما بعده تألّماً بذكره مع استحقار ألم مواقعته فكيف تصبر على مقاساته إذا وقع و أنت عاجز عن الصبر على تقدير الموت و ما بعده ومتألّم به ؟ وأمّا الثاني وهو كون الفكر مفوتاً للذّات الدّنيا فهو أن يتحقّق أنّ فوات لذّات الآخرة أشدّ و أعظم ، فإنّها لا آخر لها ولا كدورة فيها ، ولذّات الدّنيا

سريعة الدّثور و هي مشوبة بالمكدّرات فما فيها لذّة صافية عن كدر و كيف و في التوبة عن المعاصي و الإقبال على الطاعة تلذّذ بمناجاة الله تعالى واستراحة بمعرفته و طاعته وطول الاُنس به ، ولو لم يكن للمطيع جزاء على عمله إلّا مايجده من حلاوة الطاعة وروح الاُنس بمناجاة الله لكان ذلك كافياً ، فكيف بما ينضاف إليه من نعيم الآخرة ، نعم هذه اللّذّة لاتكون في ابتداء التوبة ولكنّها تصبر عليها مدّة مديدة وقد صار الخير دَيدَناً كماكان الشر دَيدَناً ، فالنفس قابلة ماعوّدتها تتعوّد ، والخير عادة و الشرّ لجاجة ، فإذن هذه الأفكار المهيّجة للخوف المهيّج لقوّة الصبر عن اللّذات ومهيّج هذه الأفكار وعظ الوعّاظ ومنبّهات تقع للقلب بأسباب تتّفق لا تدخل تحت الحصر فيصير الفكر موافقاً للطبع فيميل القلب إليه ويعبّر عن السبب الّذي أوقع الموافقة بين الطبع و بين الفكر - الّذي هو سبب الخير - بالتوفيق إذ التوفيق هو التأليف بين الإرادة و بين المعنى الّذي هو طاعة نافعة في الآخرة . و قد روي في حديث طويل أنّه قام عمّار بن ياسر فقال لعليّ عليه السلام : يا أمير المؤمنين أخبرنا عن الكفر على ماذا بني ؟ فقال : على أربع دعائم على الجفاء والعمى والغفلة و الشكّ فمن جفا احتقر الحقّ و جهر بالباطل و مقت العلماء ، و من عمى نسي الذّكر ، و من غفل حاد عن الرّشد و من شكّ غرّته الأمانيّ فأخذته الحسرة و الندامة ، و بداله من الله ما لم يكن يحتسب » (١) .

فما ذكرناه بيان لبعض آفات الغفلة عن التفكّر ، وهذا القدر في التوبة كاف .

و إذ كان الصبر ركناً من أركان دوام التوبة فلابدّ من بيان الصبر فنذكره في كتاب مفرد إن شاء الله تعالى والحمد لله ربّ العالمين و صلاته وسلامه على سيّدنا محمّد النبيّ وآله الطيّبين الطاهرين وحسبنا الله و نعم الوكيل .

تمّ كتاب التوبة من ربع المنجيات من المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء ويتلوه كتاب الصبر والشكر والحمد لله .

---

(١) أصل هذا الخبر مروى فى الكافى باختلاف كما يأتى عنقريب .

كتاب الصبر والشكر

وهو الكتاب الثاني من ربع المنجيات من المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله أهل الحمد و الثناء ، المتفرّد برداء الكبرياء ، المتوحّد بصفات المجد و العلاء ، المؤيّد صفوة الأولياء بقوّة الصبر على السرّاء والضرّاء ، والشكر على البلاء و النعماء ، والصلاة على محمّد سيّد الأنبياء ، وعلى أصحابه سادة الأصفياء ، و على آله قادة البررة الأتقياء ، صلاة محروسة بالدّوام عن الفناء ، و مصونة بالتعاقب عن التصرّم و الانقضاء .

أما بعد فإنّ الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر(١) كما وردت به الأخبار وشهدت له الآثار وهما أيضاً وصفان من أوصاف الله تعالى واسمان من أسمائه الحسنى إذ سمّى نفسه صبوراً شكوراً ، فالجهل بحقيقة الصبر والشكر جهل بكلا شطري الإيمان ثمّ هو غفلة عن وصفين من أوصاف الرّحمن ، و لا سبيل إلى القرب من الله تعالى إلاّ بالإيمان ، و كيف يتصوّر سلوك سبيل الإيمان دون معرفة ما به الإيمان و من به الإيمان والتقاعد عن معرفة الصبر والشكر تقاعد عن معرفة من به الإيمان و عن إدراك ما به الإيمان فما أحوج كلا الشطرين إلى الإيضاح و البيان ، و نحن نوضح كلا الشطرين في كتاب واحد لارتباط أحدهما بالآخر إن شاء الله .

☼(الشطر الاول في الصبر)☼

وفيه بيان فضيلة الصبر ، وبيان حدّه وحقيقته ، و بيان كونه نصف الإيمان ، وبيان اختلاف أساميه باختلاف متعلّقاته ، و بيان أقسامه بحسب اختلاف القوّة و الضعف ، و بيان مظانّ الحاجة إلى الصبر ، وبيان دواء الصبر و ما يستعان به عليه ، فهي سبعة فصول تشتمل على جميع مقاصده إن شاء الله تعالى .

(١) أخرجه البيهقي في الشعب عن أنس بسند ضعيف كما في الجامع الصغير .

بيان فضيلة الصبر : قد وصف الله سبحانه الصابرين بأوصاف و ذكر الصبر في القرآن في نيّف وسبعين موضعاً وأضاف أكثر الخيرات والدّرجات إلى الصبر وجعلها ثمرة له فقال : عزّ من قائل : « و جعلنا منهم أئمّة يهدون بأمرنا لمّا صبروا » [١] و قال : « وتمّت كلمة ربّك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا » [٢] وقال : « ولنجزينّ الّذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » [٣] وقال : « اُولئك يؤتون أجرهم مرّتين بما صبروا » [٤] و قال : « إنّما يوفّى الصابرون أجرهم بغير حساب » [٥] .

فما من قربة إلّا وأجرها بتقدير و حساب إلّا الصبر و لأجل كون الصوم من الصبر فإنّه نصف الصبر قال تعالى : « الصوم لي و أنا أجزي به » فأضافه إلى نفسه من بين سائر العبادات و وعد الصابرين بأنّه معهم فقال : « و اصبروا إنّ الله مع الصابرين » [٦] وعلّق النصرة على الصبر فقال : « بلى إن تصبروا وتتّقوا و يأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربّكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين » [٧] و جمع للصابرين بين اُمور لم يجمعها لغيرهم فقال : « اُولئك عليهم صلوات من ربّهم ورحمة واُولئك هم المهتدون » [٨] فالهدى و الصلوات والرّحمة مجموعة للصابرين واستقصاء جميع الآيات في مقام الصبر يطول .

و أما الاخبار فقد قال صلّى الله عليه وآله : « الصبر نصف الإيمان » [٩] على ما سيأتي وجه كونه نصفاً .

و قال صلّى الله عليه وآله : « من أقلّ ما اُوتيتم اليقين و عزيمة الصبر و من اُعطي حظّه منهما لم يبال بما فاته من قيام اللّيل و صيام النهار و لئن تصبروا على مثل ما أنتم

(١) السجدة : ٢٤ . (٢) الاعراف : ١٣٤ .
(٣) النحل : ٩٦ . (٤) القصص : ٥٤ .
(٥) الزمر : ١٤ . (٦) الانفال : ٤٦ .
(٧) آل عمران : ١٢٥ . (٨) البقرة : ١٥٣ .

(٩) أخرجه أبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى الشعب عن ابن مسعود بسند ضعيف كما فى الجامع الصغير . و رواه الطبرانى فى الكبير و رواته رواة الصحيح و هو موقوف و قد رفعه بعضهم كما فى الترغيب والترهيب ج ٤ ص ٢٧٧ .

عليه أحبُّ إليّ من أن يوافيني كلُّ امرىء منكم بمثل عمل جميعكم ، ولكنّي أخاف أن يفتح عليكم الدُّنيا بعدي فينكر بعضكم بعضاً ، وينكركم أهل السماء عندذلك فمن صبرواحتسب ظفر بكمال ثوابه ، ثمّ قرأ قولهتعالى : «ما عندكم ينفد وماعند باق ولنجزينّ الّذين صبروا ـ الآية ـ» [1].

و روى جابر أنّه سئل صلى الله عليه وآله وسلم عن الايمان فقال : « الصبر والسماحة» [2].

و قال أيضاً : « الصبر كنز من كنوز الجنّة » [3] ، و سئل مرّة ما الايمان فقال : « الصبر » [4] و هذا يشبه قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « الحجُّ عرفة » [5] معناه معظم الحجّ عرفة . وقال أيضاً : « أفضل الأعمال ما اكرهت عليه النفوس » [6] .

وقيل : أوحى الله تعالىإلى داود عليه السلام تخلّق بأخلاقي وإنّ من أخلاقي أنّي أنا الصبور . وفي حديث عطاء عن ابن عبّاس لمّا دخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على الأنصار فقال : « أمؤمنون أنتم ؟ فسكتوا ، فقال عمر : نعم يا رسول الله ، فقال : و ما علامة إيمانكم ؟ فقالوا : نشكر على الرّخاء ، ونصبرعلى البلاء ، ونرضى بالقضاء ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم « مؤمنون و ربّ الكعبة » [7].

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « في الصبر على ماتكره خيرٌ كثير » [8] .

---

(١) قال العراقى : تقدم فى العلم مختصراً و لم أجده هكذا .

(٢) أخرجه الطبرانى فى مكارم الاخلاق وابن حبان فى الضعفاء بسند ضعيف ورواه الطبرانى فى الكبير أيضاً من رواية عبدالله بن عبيد بن عمير عن أبيه عن جده كمافى المغنى .

(٣) ما عثرت على لفظ له فى كتبهم و يأتى من طريق الخاصة نحوه .

(٤) ما عثرت عليه بهذا اللفظ وأخرج أبومنصور الديلمى فى مسند الفردوس بسند ضعيف «الصبرمن الايمان بمنزلة الرأس من الجسد» و يأتى عن على عليه السلام «لاايمان لمن لاصبر له»

(٥) تقدم فى الحج .

(٦) رواه ابن ابى الدنيا فى محاسبة النفس من قول عمر بن عبدالعزيز وقال العراقى : لا أصل له مرفوعاً .

(٧) أخرجه الطبرانى فى الاوسط من رواية يوسف بن ميمون وهو منكر الحديث عن عطاء (المغنى) . (٨) أخرجه الترمذى و قد تقدم .

وقال المسيح عليه السلام: «إنّكم لاتدركون ماتحبّون إلّا بصبركم على ماتكرهون».

و قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « لو كان الصبر رجلاً لكان كريماً ، و الله يحبّ الصابرين » (١).

و قال عليٌّ عليه السلام : « بني الإيمان على أربع دعائم اليقين و الصبر و الجهاد والعدل » (٢).

وقال أيضاً : « الصبر من الإيمان بمنزلة الرّأس من الجسد و لا جسد لمن لارأس له ، ولا إيمان لمن لاصبر له » (٣).

أقول: و هذا المعنى الأخير مرويٌّ من طريق الخاصّة عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم و أمير المؤمنين عليه السلام و عليّ بن الحسين و أبي عبد الله عليهما السلام بغير واحد من الإسناد رواه في الكافي . و فيه عن أبي عبدالله عليه السلام قال : « إذا دخل المؤمن قبره كانت الصلاة عن يمينه و الزكاة عن يساره والبرُّ مطل عليه ويتنحّى الصبر ناحية فإذا دخل عليه الملكان اللّذان يليان مساءلته قال الصبر للصلاة و الزكاة و البرّ : دونكم صاحبكم فإن عجزتم عنه فأنا دونه » (٤).

و عنه عليه السلام « من ابتلي من المؤمنين ببلاء فصبر عليه كان له مثل أجر ألف شهيد » (٥). و عنه عليه السلام قال : « إنّ الله تعالى أنعم على قوم فلم يشكروا فصارت عليهم وبالاً ، و ابتلي قوماً بالمصائب فصبروا فصارت عليهم نعمة » (٦).

وعنه أوعن أبي جعفر عليهما السلام قال : «من لايعدّ الصبر لنوائب الدهر يعجز» (٧).

و عن أبي جعفر عليه السلام قال : « الجنّة محفوفة بالمكاره و الصبر ، فمن صبر على المكاره في الدّنيا دخل الجنّة ، وجهنّم محفوفة باللّذات والشهوات فمن أعطى نفسه

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث عائشة بسند ضعيف كما في الجامع الصغير.

(٢) يأتي عن الكافي مثله .

(٣) أورده الشريف الرضي في النهج باب الحكم تحت رقم ٨٢ .

(٤) المصدر ج ٢ ص ٩٠ تحت رقم ٨ .

(٥) و (٦) المصدر ج ٢ ص ٩٢ تحت رقم ١٨

(٧) المصدر ج ٢ ص ٩٣ تحت رقم ٢٤ .

لذّتها وشهوتها دخل النار»[١].

وعن النبيّ صلى الله عليه وآله قال: «سيأتي على الناس زمان لاينال الملك فيه إلّا بالقتل و التجبّر ولا الغنى إلّا بالغضب و البخل ولا المحبّة إلّا باستخراج الدّين و اتّباع الهوى، فمن أدرك ذلك الزّمان فصبر على الفقر و هو يقدر على الغنى و صبر على البغضة و هو يقدر على المحبّة، وصبر على الذّل وهو يقدر على العزّ آتاه الله ثواب خمسين صدّيقاً ممّن صدّق بي»[٢]. والأخبار في فضيلة الصبر أكثر من أن تحصى.

قال أبو حامد: هذا بيان فضيلة الصبر من حيث النقل، فأما من حيث النظر بعين الاعتبار فلا تفهمه إلّا بعد فهم حقيقة الصبر ومعناه، إذ معرفة الفضيلة والرُّتبة معرفة صفة فلا يحصل قبل معرفة الموصوف فلنذكر حقيقته و معناه.

☼ (بيان حقيقة الصبر ومعناه) ☼

إعلم أنّ الصبر مقام من مقامات الدّين ومنزل من منازل السالكين و جميع مقامات الدّين إنّما ينتظم من ثلاثة اُمور: معارف و أحوال وأعمال. فالمعارف هي الأصول وهي تورث الأحوال والأحوال تثمر الأعمال فالمعارف كالأشجار والأحوال كالأغصان و الأعمال كالثمار، وهذا مطّرد في جميع منازل السالكين إلى الله، واسم الإيمان تارة يختصّ بالمعارف و تارة يطلق على الكلّ كما ذكرناه في اختلاف اسم الإيمان و الإسلام في كتاب قواعد العقائد و كذلك الصبر لا يتمّ إلّا بمعرفة سابقة و بحالة قائمة فالصبر على التحقيق عبارة عنها والعمل هو كالثمرة يصدر عنها ولايعرف هذا إلّا بمعرفة كيفيّة الترتيب بين الملائكة والإنس و البهائم فإنّ الصبر خاصيّة الإنس ولا يتصوّر ذلك في البهائم و الملائكة أمّا في البهائم فلنقصانها وأمّا في الملائكة فلكمالها، و بيانه أنّ البهائم سلّطت عليها الشهوات و صارت مسخّرة لها فلا باعث لها على الحركة و السكون إلّا الشهوة ليس فيها قوّة تصادم الشهوة و تردها عن مقتضاها حتّى يسمّى ثبات تلك القوّة في مقابلة مقتضى الشهوة صبراً، وأمّا الملائكة

(١) الكافي ج ٢ ص ٨٩ تحت رقم ٧.

(٢) المصدر ج ٢ ص ٩١ تحت رقم ١٢.

فإنهم جردوا للشوق إلى الحضرة الربوبية و الابتهاج بدرجة القرب منها ، ولم تسلط عليهم شهوة صارفة صادة عنها حتى يحتاج إلى مصادمة ما يصرفها عن حضرة الجلال بجند آخر يغلب الصوارف ، و أما الإنسان فإنه خلق في ابتداء الصبى ناقصاً مثل البهيمة لم يخلق فيه إلا شهوة الغذاء الذي هو محتاج إليه ، ثم تظهر فيه شهوة اللعب و الزينة ، ثم شهوة النكاح على الترتيب و ليس له قوة الصبر البتة إذ الصبر عبارة عن ثبات جند في مقابلة جند آخر قام القتال بينهما لتضاد مقتضاهما و مطالبهما و ليس في الصبي إلا جند الهوى كما في البهائم و لكن الله تعالى بفضله وسعة جوده أكرم بني آدم و رفع درجتهم عن درجة البهائم فوكل به عند كمال شخصه بمقاربة البلوغ ملكين أحدهما يهديه و الآخر يقويه فتميز بمعونة الملكين عن البهائم واختص بصفتين إحداهما معرفة الله تعالى ومعرفة رسوله و معرفة المصالح المتعلقة بالعواقب ، و كل ذلك حاصل من الملك الذي إليه الهداية و التعريف ، فالبهيمة لا معرفة لها و لا هداية إلى مصلحة العواقب بل إلى مقتضى شهواتها في الحال فقط ، فلذلك لا تطلب إلا اللذيذ فأما الدواء النافع مع كونه مضراً في الحال فلا تطلبه ولا تعرفه ، فصار الإنسان بنور الهداية يعرف أن اتباع الشهوات له مغبات مكروهة في العاقبة ولكن لم تكن هذه الهداية كافية ما لم تكن له قدرة على ترك ما هو مضر ، فكم من مضر يعرفه الإنسان كالمرض النازل به مثلاً ولكن لا قدرة له على دفعه فافتقر إلى قدرة وقوة يدفع بها في نحر الشهوات فيجاهدها بتلك القوة حتى يقطع عدوانها عن نفسه فوكل الله تعالى به ملكاً آخر يسدده ويؤيده و يقويه بجنود لم تروها و أمر هذا الجند بقتال جنود الشهوة فتارة يضعف هذا الجند بقتال جنود الشهوة ، وتارة يقوى وذلك بحسب إمداد الله عبده بالتأييد كما أن نور الهداية أيضاً يختلف في الخلق اختلافاً لا ينحصر فلنسم هذه الصفة التي بها فارق الإنسان البهائم - في قمع الشهوات وقهرها - باعثاً دينياً ، ولنسم مطالبة الشهوات بمقتضياتها باعث الهوى وليفهم أن القتال قائم بين باعث الدين وباعث الهوى و الحرب بينهما سجال ، ومعركة هذا القتال قلب العبد ، و مدد باعث الدين من الملائكة الناصرين

لحزب الله ، و مدد باعث الشهوة من الشياطين الناصرين لأعداء الله ، فالصبر عبارة عن ثبات باعث الدّين في مقابلة باعث الشهوة فإن ثبت حتّى قهره و استمرّ على مخالفة الشهوة فقد نصر حزب الله و التحق بالصابرين ، و إن تخاذل و ضعف حتّى غلبته الشهوة ولم يصبر في دفعها التحق بأتباع الشياطين فإذن ترك الأفعال المشتهاة عمل يثمره حال يسمّى الصبر وهوثبات باعث الدّين الّذي هو في مقابلة باعث الشهوة ، وثبات باعث الدّين حال تثمرها المعرفة بعداوة الشهوات ومضادّتها لأسباب السعادات في الدّنيا و الآخرة فإذا قوي يقينه أعني المعرفة الّتي تسمّى إيماناً و هو اليقين بكون الشهوة عدوّاً قاطعاً لطريق الله تعالى قوي ثبات باعث الدّين ، و إذا قوي ثباته تمّت الأفعال على خلاف ما تتقاضاه الشهوة ، فلا يتمّ ترك الشهوة إلّا بقوّة باعث الدّين المضادّ لباعث الشهوة ، وقوّة المعرفة و الإيمان تقبح مغبّة الشهوات و سوء عاقبتها . وهذان الملكان هما المتكفّلان بهذين الجندين بإذن الله تعالى و تسخيره إيّاهما وهمامن الكرام الكاتبين وهما الملكان الموكّلان بكلّ شخص من الآدميّين و إذ عرفت أنّ رتبة الملك الهادي أعلى من رتبة الملك المقوّي لم يخف عليك أن جانب اليمين الّذي هو أشرف الجانبين من جنبتي الدست ينبغي أن يكون مسلماً له فهو إذن صاحب اليمين و الآخر صاحب الشمال ، و للعبد طوران في الغفلة و في الفكر وفي الاسترسال والمجاهدة فهو بالغفلة معرض عن صاحب اليمين ومسيء إليه فيكتب إعراضه سيّئة و بالفكر مقبل عليه ليستفيد منه الهداية فهو به محسن فيكتب إقباله له حسنة و كذا بالاسترسال هو معرض عن صاحب اليسار تارك للإستمداد منه فهو مسيء إليه فيثبت عليه سيّئة و بالمجاهدة مستمدّ من جنوده فيثبت له به حسنة ، و إنّما تثبت هذه الحسنات والسيّئات بإثباتهما فلذلك سمّيا كراماً كاتبين أمّا الكرام فلانتفاع العبد بكرمهما و لأنّ الملائكة كلّهم كرام بررة ، و أمّا الكاتبون فلإثباتهما الحسنات و السيّئات وإنّما يكتبان في صحائف مطويّة في سرّ القلب ومطويّة عن سرّ القلب حتّى لايطّلع عليه في هذا العالم ، فإنّهما و كتبتهما وخطّهما و صحائفهما و جملة ما يتعلّق بهما من عالم الغيب والملكوت لامن عالم الشهادة و كلّ شيء من عالم الملكوت

لا تدركه الأبصار في هذا العالم ، ثمّ تنشر هذه الصّحائف المطويّة عنه مرّتين ، مرّة في القيامة الصّغرى و مرّة في القيامة الكبرى ، وأعني بالقيامة الصّغرى حالة الموت إذ قال صلّى الله عليه وآله : « من مات فقد قامت قيامته » (١) و في هذه القيامة يكون العبد وحده و عندها يقال : « لقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أوّل مرّة » و فيها يقال : « كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً » أمّا في القيامة الكبرى الجامعة لكافّة الخلائق لا يكون وحده بل ربّما يحاسب على ملاء من الخلق ، و فيها يساق المتّقون إلى الجنّة و المجرمون إلى النّار ، زُمراً لا آحاداً ، و الهول الأوّل هو هول القيامة الصّغرى ، و لجميع أهوال القيامة الكبرى نظيرٌ في القيامة الصغرى مثل زلزلة الأرض مثلاً فإنّ أرضك الخاصّة بك تتزلزل في الموت فإنّك تعلم أنّ الزلزلة إذا نزلت ببلدة صدق أن يقال : قد زلزلت أرضهم وإن لم تتزلزل البلاد المحيطة بها بل لو زلزل مسكن الإنسان و داره فقد حصلت الزّلزلة في حقّه ، لأنّه إنّما يتضرّر عند زلزلة جميع الأرض بزلزلة مسكنه لا بزلزلة مسكن غيره فحصّته من الزّلزلة قد توفّرت من غير نقصان ، واعلم أنّك أرضيٌّ مخلوق من التّراب وحظّك الخاصّ من التّراب بدنك فقطّ فأمّا بدن غيرك فليس بحظّك ، والأرض الّتي أنت جالس عليها بالإضافة إلى بدنك ظرف و مكان وإنّما تخاف من تزلزله أن يتزلزل بدنك بسببه و إلّا فالهواء أبداً متزلزل و أنت لا تخشاه إذ ليس يتزلزل به بدنك ، فحظّك من زلزلة الأرض كلّها زلزلة بدنك فقطّ ، فهي أرضك وترابك الخاصّ بك وعظامك جبال أرضك ، و رأسك سماء أرضك ، و قلبك شمس أرضك ، و سمعك و بصرك و سائر حواسك نجوم سمائك ، و مفيض العروق من بدنك بحر أرضك ، و شعورك نبات أرضك ، وأطرافك أشجار أرضك ، وهكذا إلى جميع أجزائك فإذا انهدم بالموت أركان بدنك فقد زلزلت الأرض زلزالها ، فإذا انفصل العظام من اللّحوم فقد حملت الأرض والجبال فدكّتا دكّة واحدة فإذا رمت العظام فقد نسفت الجبال نسفاً فإذا أظلم قلبك عند الموت فقد كوّرت الشّمس تكويراً ، فإذا بطل سمعك و بصرك وسائر

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت من حديث أنس بسند ضعيف كما في المغني.

حواسّك فقد انكدرت النجوم انكداراً ، فإذا انشق دماغك فقد انشقّت السّماء انشقاقاً ، فإذا انفجر من هول الموت عرق جبينك فقدفجرت البحار تفجيراً ، فإذا التفّت إحدى ساقيك بالاُخرى وهما مطيّتاك فقد عطّلت العشار تعطيلاً ، فإذا فارق الرُّوح الجسد فقد حملت الأرض فمدّت حتّى ألقت ما فيها و تخلّت ، ولست أطول بموازنة جميع الأحوال والأهوال ولكنّي أقول : بمجرُّد الموت تقوم عليك هذه القيامةالصغرى ولايفوتك من القيامةالكبرى شيء ممّايخصّك بل مايخصُّ غيرك ، فإنَّ بقاء الكواكب في حقّ غيرك ما ذا ينفعك ، وقد انتثرت حواسّك الّتي بهاتنتفع بالكواكب والأعمى يستوي عنده اللّيل والنّهار و كسوف الشمس وانجلاؤها لأنّه قد كسفت في حقّه دفعة واحدة و هي حصّته منها فالانجلاء بعد ذلك حصّة غيره ، و من انشقَّ رأسه فقد انشقت سماؤه ، إذالسماء عبارة عمّا يلي جهة الرَّأس ، فمن لا رأس له لا سماء له ، فمن أين ينفعه بقاء السماء لغيره فهذه هي القيامة الصغرى ، والخوف بعد أسفل والهول بعد مدّخر ، و ذلك إذا جاءت الطّامة الكبرى و ارتفع الخصوص و بطلت السماوات والأرض و نسفت الجبال و تمّت الأهوال .

و اعلم أنَّ هذه الصّغرى و إن طوّلنا في وصفها فإنّا لم نذكرعشر عشير أوصافهافهي بالنّسبة إلى القيامةالكبرى كالولادة الصّغرى بالنسبة إلى الولادةالكبرى فإنَّ للإنسان ولادتين إحداهماالخروج من الصّلب والترائب إلى مستودع الأرحام و هو في الرَّحم في قرار مكين إلى قدر معلوم وله في سلوكه إلى الكمال منازل و أطوار من نطفة و علقة و مضغة و غيرها إلى أن يخرج من مضيق الرّحم إلى فضاء العالم فنسبة عموم القيامة الكبرى إلى خصوص القيامة الصغرى كنسبة فضاء العالم إلى سعة فضاء الرّحم و نسبة سعة العالم الّذي يقدم عليه العبد بالموت إلى سعة فضاء الدُّنيا كنسبة فضاء الدُّنيا أيضاً إلى الرّحم بل أوسع وأعظم ، فقس الآخرة بالاُولى « فما خلقكم ولا بعثكم إلّا كنفس واحدة » وما النشأة الثانية إلّا على قياس النشأة الاُولى ، بل أعداد النشآت ليست محصورة في اثنتين وإليه الإشارة بقوله تعالى :

« و ننشئكم فيما لا تعلمون » (١) فالمقرّ بالقيامتين مؤمن بعالم الغيب والشّهادة و موقن بالملك والملكوت ، والمقرّ بالقيامة الصّغرى دون الكبرى ناظر بالعين العوراء إلى أحد العالمين ، و ذلك هو الجهل والضلال والاقتداء بالأعور الدّجّال فما أعظم غفلتك يا مسكين - و كلّنا ذلك المسكين - و بين يديك هذه الأهوال ، فإن كنت لاتؤمن بالقيامة الكبرى بالجهل والضلال أفلا تكفيك القيامة الصغرى ، أوما سمعت قول سيّد الأنبياء : « كفى بالموت واعظاً » (٢) أو ما تستحيي من استبطائك هجوم الموت اقتداء برعاع الغافلين الّذين لاينظرون إلّا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصّمون فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون ، فيأتيهم المرض نذيراً من الموت فلا ينزجرون ، ويأتيهم الشيب رسولاً منه فما يعتبرون « فياحسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلّا كانوا به يستهزؤن » أفيظنّون أنّهم في الدّنيا خالدون ، « أولم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنّهم إليهم لا يرجعون » أم يحسبون أنّ الموتى سافروا من عندهم فهم معدومون كلّا « إن كلّ لمّا جميع لدينا محضرون » ولكن « ما تأتيهم من آية من آيات ربّهم إلّا كانوا عنها معرضين » وذلك لأنّا « جعلنا من بين أيديهم سدّاً ومن خلفهم سدّاً فأغشيناهم فهم لايبصرون ۞ وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون » .

و لنرجع إلى الغرض فإنّ هذه تلويحات تشير إلى أُمور هي أعلى من علوم المعاملة فنقول : قد ظهر أنّ الصبر عبارة عن ثبات باعث الدّين في مقاومة باعث الهوى وهذه المقاومة من خاصّة الآدميّين لما وكّل بهم من الكرام الكاتبين فلا يكتبان شيئاً على الصبيان و المجانين إذ ذكرنا أنّ الحسنة في الإقبال على الاستفادة منهما و السيّئة في الإعراض عنهما و ما للصبيان و المجانين سبيل إلى الاستفادة فلا يتصوّر منهما إقبال وإعراض ، وهما لا يكتبان إلّا الإقبال و الإعراض من القادرين على الإقبال والإعراض ، ولعمري إنّه تظهر مبادي إشراق نور الهداية عند سنّ التمييز

---

(١) الواقعة : ٦١ .

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير من حديث عمار بسند ضعيف كما في الجامع الصغير.

وتنمو على التدريج إلى سن البلوغ كما يبدو نور الصبح إلى أن يطلع قرص الشمس ولكنها هداية قاصرة لاترشد إلى مضار الآخرة بل إلى مضار الدنيا ، فلذلك يضرب على ترك الصلوات ناجزاً و لا يعاقب في الآخرة و لا يكتب عليه من الصحائف ما ينشر في الآخرة ، بل على القيم العدل والولي البر الشفيق إن كان من الأبرار وكان على سمت الكرام البررة الأخيار أن يكتب على الصبي سيئته و حسنته على صحيفة قلبه فيكتبه عليه بالحفظ ، ثم ينشره عليه بالتعريف ، ثم يعذبه عليه بالضرب ، فكل ولي هذا سمته في حق الصبي فقد ورث أخلاق الملائكة واستعملها في حق الصبي فينال بها درجة القرب من رب العالمين كما نالته الملائكة فيكون مع النبيين والمقربين والصديقين ، وإليه الإشارة بقوله عليه السلام : « أنا و كافل اليتيم كهاتين »[1] .

(بيان كون الصبر نصف الايمان)

إعلم أن الإيمان تارة يخص في إطلاقه بالتصديقات بأصول الدين و تارة يخص بالأعمال الصادرة منها و تارة يطلق عليهما جميعاً وللمعارف أبواب و للأعمال أبواب، ولاشتمال لفظ الإيمان على جميعها كان الإيمان نيفاً وسبعين باباً[2] و اختلاف هذه الإطلاقات ذكرناه في كتاب قواعد العقائد من ربع العبادات ولكن الصبر نصف الإيمان باعتبارين وعلى مقتضى إطلاقين أحدهما أن يطلق على التصديقات والأعمال جميعاً فيكون للإيمان ركنان أحدهما اليقين و الآخر الصبر ، و المراد باليقين المعارف القطعية الحاصلة بهداية الله عبده إلى أصول الدين والمراد بالصبر العمل بمقتضى اليقين إذ اليقين يعرفه أن المعصية ضارة و الطاعة نافعة ، و لا يمكن ترك المعصية و المواظبة على الطاعة إلا بالصبر و هو استعمال باعث الدين في قهر باعث الهوى والكسل فيكون الصبر نصف الإيمان بهذا الاعتبار ولهذا جمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

(١) أخرجه الترمذي ج ٨ ص ١٠٧ وصححه . و فيه « وأشار بأصبعيه يعني السبابة والوسطى » .

(٢) أخرج ابن ماجه تحت رقم ٥٧ « الايمان بضع و ستون أو سبعون شعبة » .

بينهما فقال : « من أقلّ ما أوتيتم اليقين و عزيمة الصبر.... الحديث إلى آخره »[١].

الاعتبار الثاني أن يطلق على الأحوال المثمرة للأعمال لا على المعارف ، و عند ذلك ينقسم جميع ما يلاقيه العبد إلى ما ينفعه في الدُّنيا و الآخرة أو يضرّه فيهما وله بالإضافة إلى ما يضرّه حال الصبر وبالإضافة إلى ما ينفعه حال الشكر فيكون الشكر أحد شطري الإيمان بهذا الاعتبار ، كما كان اليقين أحد الشطرين بالاعتبار الأوَّل . وبهذا النظر قال ابن مسعود رضي الله عنه : الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر وقديُرفع أيضاً إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم[٢] و لمّا كان الصبر صبراً عن بواعث الهوى بثبات بواعث الدِّين و كان باعث الهوى قسمين باعث من جهة الشهوة و باعث من جهة الغضب و الشهوة لطلب اللّذيذ و الغضب الهرب من المؤلم و كان الصوم صبراً عن مقتضى الشهوة فقط وهي شهوة البطن و الفرج دون مقتضى الغضب قال صلّى الله عليه وآله وسلّم بهذا الاعتبار « الصوم نصف الصبر »[٣] لأنَّ كمال الصبر بالصبر عن داعي الشهوة وداعي الغضب جميعاً فيكون الصوم بهذا الاعتبار ربع الإيمان ، فهكذا ينبغي أن تفهم تقديرات الشرع لحدود الأعمال و الأحوال و نسبتها إلى الإيمان والأصل فيه أن يعرف كثرة أبواب الإيمان ، و أنَّ اسم الإيمان يطلق على وجوه مختلفة .

✲(بيان الاسامي التى تتجدد للصبر بالاضافة الى ما عنه الصبر)✲

إعلم أنَّ الصبر ضربان أحدهما ضرب بدنيّ كتحمّل المشاقّ بالبدن والثبات عليه و هو إمّا بالفعل كتعاطي الأعمال الشاقّة إمّا من العبادات أو من غيرها و إمّا بالاحتمال كالصبر على الضرب الشديد والمرض العظيم و الجراحات الحائلة ، وذلك قد يكون محموداً إذا وافق الشرع ولكنَّ المحمود التامّ هو الضرب الآخر وهو الصبر

(١) تقدم أول الكتاب و من طريق الخاصة فى الكافى ج٢ ص ٥٢ تحت رقم ٦ . فى حديث الرضا عليه السلام « لم يقسم بين العباد شىء أقل من اليقين » .

(٢) أخرجه البيهقى فى الشعب من حديث أنس بسند ضعيف كما فى الجامع الصغير .

(٣) أخرجه البيهقى فى الشعب و ابن ماجه على ما فى الجامع الصغير هكذا « الصيام نصف فى الصبر و نصف فى الشكر » .

النفسي عن مشتهيات الطبع و مقتضيات الهوى ، ثمّ هذا الضرب إن كان صبراً عن شهوة البطن و الفرج سمّي عفّة ، و إن كان على احتمال مكروه اختلفت أساميه عند الناس باختلاف المكروه الّذي غلب عليه الصبر فإن كان في مصيبة اقتصر على اسم الصبر ، و تضادّه حالة تسمّى الجزع والهلع و هو اطلاق داعي الهوى ليسترسل في رفع الصوت وضرب الخدود و شقّ الجيوب و غيرها ، و إن كان في احتمال الغنى سمّي ضبط النفس ، وتضادّه حالة تسمّى البطر ، وإن كان في حرب و مقاتلة سمّي شجاعة ، و يضادّه الجبن ، و إن كان في كظم الغيظ و الغضب سمّي حلماً ، و يضادّه التذمّر ، و إن كان في نائبة من نوائب الزّمان مضجرة سمّي سعة الصدر ، ويضادّه الضجر و التبرّم و ضيق الصدر ، و إن كان في إخفاء كلام سمّي كتماناً و سمّي صاحبه كتوماً ، و إن كان عن فضول العيش سمّي زهداً ، و يضادّه الحرص ، و إن كان صبراً على قدر يسير من الحظوظ سمّي قناعة ، ويضادّه الشره ، فأكثر أخلاق الايمان داخل في الصبر فلذلك لمّا سئل صلى الله عليه وآله مرّة عن الايمان قال : « هو الصبر »[١] لأنّه أكثر أعماله و أعزّها كما قال « الحجّ عرفة »[٢] و قد جمع الله تعالى أقسام ذلك وسمّى الكلّ صبراً فقال تعالى : « و الصابرين في البأساء (أي المصيبة) و الضرّاء (أي الفقر) و حين البأس (أي المحاربة) اُولئك الّذين صدقوا و اُولئك هم المتّقون »[٣] فإذن هذه أقسام الصبر باختلاف متعلّقاتها و من يأخذ المعاني من الأسامي يظنّ أنّ هذه أحوال مختلفة في ذواتها و حقايقها من حيث رأى الأسامي مختلفة ، والّذي يسلك الطريق المستقيم و ينظر بنور الله يلحظ المعاني أوّلاً فيطّلع على حقائقها ، ثمّ يلاحظ الأسامي فإنّها وضعت دالّة على المعاني ، فالمعاني هي الاُصول و الألفاظ هي التوابع و من يطلب الاُصول من التوابع لابدّ و أن يزلّ و إلى الفريقين الاشارة بقوله تعالى : « أفمن يمشي مكبّاً على وجهه أهدى أمّن يمشي سويّاً على صراط مستقيم »[٤] فإنّ الكفّار لم يغلطوا فيما غلطوا فيه إلّا بمثل هذه الانعكاسات .

---

(١) و (٢) تقدما آنفاً . (٣) البقرة : ١٧٧ . (٤) الملك : ٢٢ .

﴿بيان اقسام الصبر بحسب اختلاف القوة و الضعف﴾

إعلم أنّ باعث الدّين بالاضافة إلى باعث الهوى له ثلاثة أحوال : أحدها أن يقهر داعي الهوى فلا تبقى له قوّة المنازعة و يتوصّل إليه بدوام الصبر ، وعند هذا يقال : من صبر ظفر ، والواصلون إلى هذه الرّتبة هم الأقلّون فلاجرم هم الصدّيقون المقرّبون « الّذين قالوا ربّنا الله ثمّ استقاموا » فهؤلاء لازموا الطريق المستقيم و استووا على الصراط القويم واطمأنّت نفوسهم على مقتضى بواعث الدّين و إيّاهم ينادي المنادي « يا أيّتها النفس المطمئنّة إرجعي إلى ربّك راضية مرضية » .

الحالة الثانية أن تغلب دواعي الهوى وتسقط بالكلّيّة منازعة باعث الدّين فيسلّم نفسه إلى جند الشيطان ولا يجاهد ليأسه عن المجاهدة ، و هؤلاء هم الغافلون و هم الأكثرون وهم الّذين استرقّتهم شهواتهم وغلبت عليهم شقوتهم فحكموا أعداء الله في قلوبهم الّتي هي سرّ من أسرار الله وأمرٌ من اُمور الله ، وإليهم الاشارة بقوله تعالى : « و لو شئنا لآتينا كلّ نفس هديها ولكن حقّ القول منّي لأملأنّ جهنّم من الجنّة والناس أجمعين»[1] وهؤلاء هم الّذين اشتروا الحياة الدّنيا بالآخرة فخسرت صفقتهم ، وقيل لمن قصد إرشادهم : «فأعرض عمّن تولّى عن ذكرنا ولم يرد إلّا الحيوة الدّنيا ذلك مبلغهم من العلم » وهذه الحالة علامتها اليأس و القنوط ، أو الغرور بالأمانيّ ، وهو غاية الحمق كما قال صلى الله عليه وآله : «الكيّس من دان نفسه و عمل لما بعد الموت و الأحمق من اتّبع نفسه هواها و تمنّى على الله »[2] و صاحب هذه الحالة إذا وعظ قال : أنا مشتاق إلى التوبة ولكنّها قد تعذّرت عليّ فلست أطمع فيها ، أو لم يكن مشتاقاً إلى التوبة ولكن قال : إنّ الله غفورٌ رحيمٌ كريمٌ فلاحاجة به إلى توبتي ، و هذا المسكين قد صار عقله رفيقاً لشهوته ، فلا يستعمل عقله إلّا في استنباط دقائق الحيل الّتي بها يتوصّل إلى قضاء شهواته ، فقد صار عقله في يد شهواته كمسلم أسير في أيدي الكفّار ، فهم يستسخرونه في رعاية الخنازير و حفظ الخمور وحملها ،

(١) السجدة : ١٣ .

(٢) أخرجه الحاكم فى المستدرك ج ٤ ص ٢٥١ وقد تقدم فى ذم الغرور .

و محلّه عند الله محلّ من يقهر مسلماً و يسلّمه إلى الكفّار و يجعله أسيراً عندهم ، لأنّه بفاحش جنايته يشبه أنّه سخّر ما كان حقّه أن يستسخر ، وسلّط من حقّه أن يتسلّط عليه ، و إنّما استحقّ المسلم أن يكون متسلّطاً لما فيه من معرفة الدّين وباعث الدّين ، و إنّما استحقّ الكافر أن يكون متسلّطاً عليه لما فيه من الجهل بالدّين و باعث الشياطين و حقّ المسلم على نفسه أوجب من حقّ غيره عليه ، فمهما سخّر المعنى الشريف الّذي هومن حزب الله و جند الملائكة للمعنى الخسيس الّذي هو من حزب الشياطين المبعدين عن الله كان كمن أرقّ مسلماً لكافر ، بل هو كمن قصد الملك المنعم عليه فأخذ أعزّ أولاده و سلّمه إلى بعض أعدائه فانظر كيف يكون كفرانه لنعمته و استيجابه لنقمته لأنّ الهوى أبغض إله عُبد في الأرض عند الله و العقل أعزّ موجود خلق في الأرض .

الحالة الثالثة أن يكون الحرب سجالاً بين الجندين ، فتارةً له اليد عليها ، و تارة لها عليه وهذا من المجاهدين يعدّ مثله لامن الظافرين . وأهل هذه الحالة هم الّذين « خلطوا عملاً صالحاً و آخر سيّئاً عسى الله أن يتوب عليهم » هذا باعتبار القوّة والضعف ، ويتطرّق إليه أيضاً ثلاثة أحوال باعتبار عدد ما يصبر عنه فإنّه إمّا أن يغلب جميع الشهوات ، أو لايغلب شيئاً منها ، أويغلب بعضها دون بعض ، وتنزيل قوله تعالى : « خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيّئاً »(١) على من عجز عن بعض الشهوات دون بعض أولى ، والتاركون للمجاهدة مع الشهوات مطلقاً يشبهون بالأنعام بل هم أضلّ ، إذالبهيمة لم يخلق لها المعرفة والقدرة الّتي بهما يجاهد مقتضى الشهوات وهذا قد خلق له وعطّله فهو الناقص حقّاً المدبر يقيناً و لذلك قيل :

ولم أر في عيوب الناس عيباً ✡ كنقص القادرين على التمام

و ينقسم الصبر أيضاً باعتبار اليسر والعسر إلى ما يشقّ على النفس فلايمكن الدّوام عليه إلّا بجهد جهيد و تعب شديد ، ويسمّى ذلك تصبّراً ، و إلى ما يكون من غير شدّة تعب بل يحصل بأدنى تحامل على النفس ، ويخصّ ذلك باسم الصبر ،

(١) التوبة : ١٠٢ .

و إذا دام التقوى وقوي التصديق بما في العاقبة من الحسنى تيسّر الصبر ، و لذلك قال تعالى : « فأمّا من أعطى واتّقى ۞ وصدّق بالحسنى ۞ فسنيسّره لليسرى »[١] و مثال هذه القسمة قدرة المصارع على غيره ، فإنّ الرّجل القويّ يقدر على أن يصرع الضعيف بأدنى حملة و أيسر قوّة بحيث لا يلقاه في مصارعته إعياء و لا لغوب ، ولاتضطرب فيه نفسه ولا ينبهر[٢] ولايقوى على أن يصرع الشديد إلاّ بتعب ومزيد جهد و عرق جبين ، فهكذا تكون المصارعة بين باعث الدّين و باعث الهوى فإنّه على التحقيق صراع بين جنود الملائكة وجنود الشياطين ، ومهما أذعنت الشهوات وانقمعت و تسلّط باعث الدّين و استولى وتيسّر الصبر بطول المواظبة أورث ذلك مقام الرّضا كما سيأتي في كتاب الرّضا فالرّضا أعلى من الصبر ، ولذلك قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « اعبد الله على الرّضا فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير »[٣].

و قال بعض العارفين أهل الصبر على ثلاث مقامات أوّله ترك الشكوى وهذه درجة التائبين و الثانية الرّضا بالمقدور وهذه درجة الزّاهدين و الثالثة المحبّة لما يصنع به مولاه وهذه درجة الصدّيقين ، وسنبيّن في كتاب المحبّة أنّ مقام المحبّة أعلى من مقام الرّضا كما أنّ مقام الرّضا أعلى من مقام الصبر ، و كأنّ هذا الانقسام يجري في صبر خاصّ وهو الصبر على المصائب والبلايا .

و اعلم أنّ الصبر أيضاً ينقسم باعتبار حكمه إلى فرض ونفل ومكروه ومحرّم فالصبر عن المحظورات فرض ، وعلى المكاره نفل ، والصبر على الأذى المحظور محظور كمن تقطع يده أو يد ولده و هو يصبر عليه ساكتاً و كمن يقصد حريمه بشهوة محظورة فتهيج غيرته فيصبر عن إظهار الغيرة و يسكت على ما يجري على أهله فهذا الصبر محرّم ، و الصبر المكروه هو الصبر على أذى يناله بجهة مكروهة في الشرع فليكن الشرع محك الصبر ، فكون الصبر نصف الإيمان لا ينبغي أن يخيّل إليك أنّ جميعه محمودٌ بل المراد به أنواع من الصبر مخصوصة .

---

(١) الليل : ٥ و ٦ و ٧. (٢) البهر - بالضم - : تتابع النفس .

(٣) أخرجه الترمذي و أحمد في المسند نحوه من حديث ابن عباس .

✿(بيان مظان الحاجة الى الصبر)✿

﴿و انّ العبد لايستغني عنه في حال من الأحوال﴾

إعلم أنّ جميع ما يلقى العبد في هذه الحياة لا يخلو من نوعين أحدهما هو الّذي يوافق هواه والآخر هو الّذي لا يوافقه بل يكرهه و هو محتاج إلى الصبر في كلّ واحد منهما وهو في جميع الأحوال لايخلو عن أحد هذين النوعين أوعن كلاهما فهو إذن لايستغني قطّ عن الصبر.

النوع الأوّل ما يوافق الهوى والصحّة و السلامة و المال و الجاه و كثرة العشيرة و اتّساع الأسباب وكثرة الأتباع والأنصار وجميع ملاذّ الدّنيا. و ما أحوج العبد إلى الصبرعلى هذه الأمور، فإنّه إن لم يضبط نفسه عن الاسترسال والركون إليها و الانهماك في ملاذّها المباحة لها أخرجه ذلك إلى البطر والطغيان فانّ الإنسان ليطغى أن رآه استغنى، حتّى قال بعض العارفين: البلاء يصبر عليه المؤمن و العوافي لايصبر عليها إلّا صدّيق، ولمّا فتحت أموال الدّنيا على الصحابة قالوا: ابتلينا بفتنة الضرّاء فصبرنا و ابتلينا بفتنة السرّاء فلم نصبر. ولذلك حذّر الله تعالى عباده من فتنة المال والزّوج والولد فقال تعالى: «يا أيّها الّذين آمنوا لا تلهكم أموالكم و لا أولادكم عن ذكر الله»[1] و قال عزّ وجلّ: «إنّ من أزواجكم و أولادكم عدوّاً لكم فاحذروهم»[2]. و قال ﷺ: «الولد مبخلة مجبنة محزنة»[3] و لمّا نظر ﷺ إلى ابنه الحسين يتعثّر في قميصه نزل عن المنبر و احتضنه، ثمّ قال: «صدق الله إنّما أموالكم وأولادكم فتنة إنّي لمّا رأيت ابني يتعثّر لم أملك نفسي أن أخذته»[4] ففي ذلك عبرة لأولي الأبصار

(١) المنافقون: ٩. (٢) التغابن: ١٤.

(٣) أخرجه أبويعلى عن أبى سعيد الخدرى بسند ضعيف كما فى الجامع الصغير. و أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٣٦٦٦ «الولد مبخلة مجبنة».

(٤) أخرجه النسائى ج ٣ص ١٠٨ من السنن من حديث بريدة و رواه أبو داود و ابن ماجه والترمذى و قال: حسن غريب.

فالرّجل كلّ الرّجل من يصبر على العافية ، و معنى الصبر عليها أن لا يركن إليها و يعلم أنّ كلّ ذلك مستودعٌ عنده و عسى أن يسترجع على القرب و أن لا يرسل نفسه في الفرح بها ولاينهمك في التنعّم و اللذّة و اللّهو و اللّعب و أن يرعى حقوق الله في ماله بالإنفاق و في بدنه ببذل المعونة للخلق و في لسانه ببذل الصدق و كذلك في سائر ما أنعم الله به عليه وهذا الصبر متّصل بالشكر فلا يتمّ إلاّ بالقيام بحقّ الشكر كما سيأتي و إنّما كان الصبر على السرّاء أشدّ لأنّه مقرون بالقدرة و من العصمة أن لا تقدر ، والصبر على الحجامة والفصد إذا تولّاه غيرك أيسر من الصبر على فصدك نفسك وحجامتك نفسك و الجائع عند غيبة الطعام أقدر على الصبر منه إذا حضرته الأطعمة الطيّبة اللّذيذة و قدر عليها فلهذا عظمت فتنة السرّاء .

النوع الثاني ما لايوافق الهوى والطبع وذلك لا يخلو إمّا أن يرتبط باختيار العبد كالطاعات و المعاصي أولا يرتبط باختياره كالمصائب و النوائب ، أو لا يرتبط أوّله باختياره ولكن له اختيار في إزالته كالتشفّي من المؤذي بالانتقام منه فهذه ثلاثة أقسام :

القسم الأوّل ما يرتبط باختياره وهو سائر أفعاله الّتي توصف بكونها طاعة أومعصية وهما ضربان الضرب الأوّل الطاعة و العبد يحتاج إلى الصبر عليها فالصبر على الطاعة شديدٌ لأنّ النفس بطبعها تنفر عن العبوديّة و تشتهي الرّبوبيّة ولذلك قال بعض العارفين : ما من نفس إلّا و هي مضمرة ما أظهره فرعون من قوله : « أنا ربّكم الأعلى » ولكن فرعون وجد له مجالاً و قبولاً فأظهره إذ استخفّ قومه فأطاعوه ، و ما من أحد إلّا و هو يدّعي ذلك مع عبده وخادمه و أتباعه و كلّ من هو تحت قهره وطاعته و إن كان ممتنعاً من إظهاره فإنّ امتعاضه و غيظه عند تقصيرهم في خدمته واستبعاده ذلك ليس يصدر إلّا عن إضمار الكبر ومنازعة الرّبوبيّة في رداء الكبرياء ، فإذن العبوديّة شاقّة على النفس مطلقاً ، ثمّ من العبادات ما يكره بسبب الكسل كالصلاة ومنها ما يكره بسبب البخل كالزّكاة ، و منها ما يكره بسببهما جميعاً كالحجّ و الجهاد ، فالصبر على الطاعة صبر على الشدائد و يحتاج المطيع

إلى الصبر على طاعته في ثلاثة أحوال ، الاولى قبل الطاعة و ذلك في تصحيح النيّة و الإخلاص و الصبر عن شوائب الرّياء ودواعي الآفات و عقد العزم على الإخلاص و الوفاء ، و ذلك من الصبر الشديد عند من يعرف حقيقة النيّة و الاخلاص وآفات الرّياء و مكائد النفس ، و قدنبّه عليه صلوات الله عليه وآله إذ قال : « إنّما الأعمال بالنيّات ، ولكلّ امرىء مانوى » [١] وقال الله تعالى : « و ما اُمروا إلّا ليعبدوا الله مخلصين له الدّين » [٢] و لهذا المعنى قدّم الله الصبر على العمل فقال : « إلّا الّذين صبروا وعملوا الصالحات » [٣].

الحالة الثانية حالة العمل كي لا يغفل عن الله في أثناء عمله و لا يتكاسل عن تحقيق آدابه وسننه ، ويدوم على شروط الأدب إلى الآخر عمل الأخير فيلازم الصبر عن دواعي الفتور إلى الفراغ ، و هذا أيضاً من شدائد الصبر و لعلّه المراد بقوله تعالى : « نعم أجر العاملين ۞ الّذين صبروا » [٤] أي صبروا إلى تمام العمل .

الحالة الثالثة بعد الفراغ من العمل إذ يحتاج إلى الصبر عن إفشائه والتظاهر به للسمعة و الرّياء و الصبر عن النظر إليه بعين العجب و عن كلّ ما يبطل عمله و يحبط أثره كما قال تعالى : « و لا تبطلوا أعمالكم » [٥] و كما قال : « لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى » [٦] فمن لم يصبر بعد الصدقة عن المنّ و الأذى فقد أبطل عمله ، والطاعات تنقسم إلى فرض و نفل وهو محتاجٌ إلى الصبر عليهما جميعاً و قد جمعهما الله تعالى في قوله : « إنّ الله يأمر بالعدل و الإحسان وإيتاء ذي القربى » [٧] فالعدل هو الفرض و الإحسان هو النفل ، وإيتاء ذي القربى المروّة وصلة الرّحم ، و كلّ ذلك يحتاج إلى الصبر . الضرب الثاني المعاصي فما أحوج العبد إلى الصبر عنها وقد جمع الله أنواع المعاصي في قوله : « وينهى عن الفحشاء والمنكر » [٨] وقال عليه الصلاة والسلام :

(١) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤٢٢٧ و قد تقدم عن الصحيحين .

(٢) البينة : ٥ . (٣) هود : ١١ .

(٤) العنكبوت : ٥٩ و ٦٠ . (٥) محمد : ٣٦

(٦) البقرة : ٢٦٤ (٧) و (٨) النحل : ٩٠ .

« المهاجر من هجر السوء و المجاهد من جاهد هواه » (١) و المعاصي مقتضى باعث الهوى وأشدّ أنواع الصبر عن المعاصي الصبر عن المعاصي الّتي صارت مألوفة بالعادة ، فإنّ العادة طبيعة خامسة فإذا انضافت إلى الشهوة تظاهر جندان من جنود الشيطان على جند الله تعالى ، فلا يقوى باعث الدّين على قمعها ، ثمّ إن كان ذلك الفعل ممّا يتيسّر فعله كان الصبر عنه أثقل على النفس كالصبر عن معاصي اللّسان من الغيبة و الكذب و المراء و الثناء على النفس تعريضاً و تصريحاً ، و أنواع المزاح المؤذي للقلوب وضروب الكلمات الّتي يقصد بها الإزراء و الاستحقار وذكر الموتى بالقدح فيهم وفي علومهم وسيرهم و مناصبهم ، فإنّ ذلك في ظاهره غيبة و في باطنه ثناء على النفس فللنفس فيه شهوتان إحداهما نفي الغير و الاُخرى إثبات نفسه ، وبهما تتمّ له الرّبوبيّة الّتي في طبعه وهي ضدّ ما اُمر به من العبوديّة ، و لاجتماع الشهوتين وتيسّر تحريك اللّسان ومصير ذلك معتاداً في المحاورات يعسر الصبر عنها حتّى يزول استنكارها واستقباحها من القلوب لكثرة تكريرها وعموم الاُنس بها ، فترى الإنسان يلبس حريراً مثلاً فيستبعد غاية الاستبعاد ، و يطلق لسانه طول النهار في أعراض الناس ولا يستنكر ذلك مع ما ورد في الخبر من « أنّ الغيبة أشدّ من الزّنى » (٢) ومن لم يملك لسانه في المحاورات ولم يقدر على الصبر فيجب عليه العزلة والانفراد فلا ينجيه غيره ، فالصبر على الانفراد أهون من الصبر على السكوت مع المخالطة وتختلف شدّة الصبر في آحاد المعاصي باختلاف داعية تلك المعصية في قوّتها وضعفها ، وأيسر من حركة اللّسان حركة الخواطر باختلاج الوساوس فلا جرم يبقى حديث النفس في العزلة فلا يمكن الصبر عنه أصلاً إلّا بأن يغلب على القلب همّ آخر في الدّين يستغرقه كمن أصبح وهمومه همّ واحد و إلّا فإن لم يستعمل الفكر في شيء معيّن لم يتصوّر فتور الوسواس عنه .

---

(١) أخرج شطره الاول ابن ماجه و شطره الثاني النسائي في الكبرى و كلاهما من حديث فضالة بن عبيد باسناد جيد و قد تقدما .

(٢) تقدم في آفات اللسان .

القسم الثاني ما لايرتبط هجومه باختياره و له اختيار في دفعه كما لو اُوذي بفعل أو قول و جني عليه في نفسه أو ماله فالصبر على ذلك بترك المكافأة يكون واجباً و تارة يكون فضيلة ، قال بعض الصحابة : ما كنّا نعدُّ إيمان الرَّجل إيماناً إذا لم يصبر على الأذى وقال تعالى : « ولنصبرنَّ على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكّل المتوكّلون » (١) وقسّم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مرّة مالاً فقال : بعض الأعراب من المسلمين هذه قسمة ما اُريد بها وجه الله فاُخبر به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فاحمرَّت وجنتاه ثمَّ قال : رحم الله أخي موسى قد اُوذي بأكثر من هذا فصبر » (٢) وقال تعالى : « ودع أذاهم وتوكّل على الله » (٣) وقال : « واصبر على ما يقولون و اهجرهم هجراً جميلاً » (٤) وقال : « ولقد نعلم أنّك يضيق صدرك بما يقولون فسبّح بحمد ربّك » (٥) و قال : « ولتسمعنَّ من الّذين اُوتوا الكتاب من قبلكم ومن الّذين أشركوا أذى كثيراً وإن تصبروا وتتّقوا فإنَّ ذلك من عزم الامور » (٦) أي تصبروا عن المكافأة ولذلك مدح الله تعالى العافين عن حقوقهم في القصاص وغيره فقال : « و إن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » (٧).

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « صل من قطعك و أعط من حرمك واعف عمّن ظلمك » (٨) ورأيت في الإنجيل قال عيسى عليه السلام : « لقد قيل لكم من قبل : إنَّ السنَّ بالسنِّ والأنف بالأنف ، وأنا أقول لكم : لا تقاوموا الشرَّ بالشرِّ بل من ضرب خدَّك اليمنى فحوِّل إليه الخدَّ اليسرى ، ومن أخذ رداءك فأعطه إزارك ، ومن سخّرك لتسير معه ميلاً فسر معه ميلين ». و كلُّ ذلك أمر بالصبر على الأذى فالصبر على أذى الناس من أعلى مراتب الصبر لأنّه يتعاون فيه باعث الدِّين و باعث الشهوة والغضب جميعاً .

القسم الثالث ما لا يدخل تحت الاختيار أوَّله و آخره كالمصائب مثل موت

---

(١) ابراهيم : ١٢ .
(٢) تقدم غير مرة عن البخاري و مسلم .
(٣) الاحزاب : ٤٨ .
(٤) المزمل : ١٠ .
(٥) الحجر : ٩٧ .
(٦) آل عمران : ١٨٦ .
(٧) النحل : ١٢٦ .
(٨) تقدم غير مرة .

الأعزّة و هلاك الأموال و زوال الصحّة بالمرض و عمى العين و فساد الأعضاء ، وبالجملة فسائر أنواع البلاء فالصبر على ذلك من أعلى مقامات الصبر ، قال ابن عبّاس ـ رضي الله عنه ـ : الصبر في القرآن على ثلاثة أوجه : صبر على أداء فرائض الله فله ثلاثمائة درجة ، و صبر عن محارم الله وله ستّمائة درجة ، و صبر في المصيبة عند الصدمة الأُولى فله تسعمائة درجه ، وإنّما فضّلت هذه الرّتبة مع أنّها من الفضائل على ما قبلها وهي من الفرائض لأنّ كلّ مؤمن يقدر على الصبر عن المحارم ، فأمّا الصبر على بلاء الله فلا يقدر عليه إلّا الأنبياء لأنّه بضاعة الصدّيقين ، فإنّ ذلك شديد على النفس ، ولذلك قال صلى الله عليه وآله : « أسألك من اليقين ما تهون به عليّ مصائب الدّنيا » (١) فهذا صبر مستنده حسن اليقين .

قال أبو سليمان : و الله ما نصبر على ما نحبّ فكيف نصبر على ما نكره .

أقول: كلام أبي حامد ههنا ينافي ما ذكره في أوائل هذا الفصل من أنّ الصبر على العافية أشدّ و أفضل من الصبر على البلاء ، و ذلك هو الصحيح دون هذا و ما نقله ههنا عن ابن عبّاس يخالف ما رُويناه بطريق أهل البيت عليهم السلام فقد روي في الكافي بإسناده إلى عليّ عليه السلام أنّه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « الصبر ثلاثة صبر عند المصيبة و صبر على الطاعة و صبر عن المعصية فمن صبر على المصيبة حتّى يردّها بحسن عزائها كتب الله له ثلاثمائة درجة ما بين الدّرجة إلى الدرّجة كما بين السماء والأرض ، ومن صبر على الطاعة كتب الله له ستّمائة درجة ما بين الدرّجة إلى الدرّجة كما بين تخوم الأرض إلى العرش ، ومن صبر عن المعصية كتب الله له تسعمائة درجة ما بين الدّرجة إلى الدّرجة كما بين تخوم الأرض إلى منتهى العرش » (٢).

و عن أبي جعفر الباقر عليه السلام : « الصبر صبران صبر على البلاء حسن جميل و أفضل الصبرين الورع عن محارم الله » (٣) وروي هذا عن أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً .

قال أبو حامد : و قال صلى الله عليه وآله : « قال الله عزّ وجلّ : إذا وجّهت إلى عبد من

---

(١) أخرجه الترمذي والنسائي والحاكم و صححه من حديث ابن عمر .

(٢) و (٣) المصدر ج ٢ ص ٩١ تحت رقم ١٥ و ١٤ .

عبيدي مصيبة في بدنه أو ماله أو ولده ، ثمّ استقبل ذلك بصبر جميل استحييت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزاناً أو أنشر له ديواناً » (١).

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « انتظار الفرج بالصبر عبادة » (٢).

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « ما من عبد مؤمن اُصيب بمصيبة فقال كما أمره الله تعالى : «إنّا لله وإنّا إليه راجعون ، اللّهمّ أجُرني في مصيبتي و أعقبني خيراً منها » إلّا فعل الله ذلك به » (٣).

و عنه صلى الله عليه وآله وسلم «إنّ الله عزّ وجلّ قال : ياجبرئيل ماجزاء من سلبت كريمتيه ؟ قال : سبحانك لا علم لنا إلّا ما علّمتنا قال : جزاؤه الخلود في داري والنظر إلى وجهي » (٤).

و قال عليه السلام : يقول الله عزّ وجلّ : « إذا ابتليت عبدي ببلاء فصبر ولم يشكني إلى عوّاده أبدلته لحماً خيراً من لحمه و دماً خيراً من دمه فإذا أبرأته أبرأته و لا ذنب له و إن توفّيته فإلى رحمتي » (٥).

و قال داود عليه السلام : « يا ربّ ماجزاء الحزين الّذي يصبر على المصائب ابتغاء مرضاتك ؟ قال : جزاؤه أن ألبسه لباس الأمان فلا أنزعه عنه أبداً ».

وقال داود لسليمان عليهما السلام : يستدلّ على تقوى المؤمن بثلاث حسن التوكّل فيما لم ينل ، وحسن الرّضا فيما قد نال ، وحسن الصبر فيما قد فات .

و قال نبيّنا صلى الله عليه وآله وسلم : « من إجلال الله تعالى و معرفة حقّه ألّا تشكو وجعك ولا تذكر مصيبتك » (٦).

---

(١) أخرجه ابن عدى من حديث أنس بسند ضعيف (المغنى) .
(٢) أخرجه القضاعى فى مسند الشهاب من حديث ابن عمر كما فى الجامع الصغير
(٣) أخرجه مسلم ج ٣ ص ٣٧ من حديث أم سلمة .
(٤) أخرجه البخارى باختلاف ج ٧ ص ١٥١ من حديث ابن ظلال القسملى عن أنس و أخرجه الطبرانى فى الاوسط من رواية أنس أيضاً . كمافى المغنى
(٥) أخرجه مالك فى الموطأ ج ٢ ص ٢٢٩ من حديث عطاء بن يسار .
(٦) قال العراقى : لم أجده مرفوعاً وانما رواه ابن أبى الدنيا فى المرض والكفارات من رواية سفيان عن بعض الفقهاء نحوه .

أقول: و من طريق الخاصّة ما رواه في الكافي عن أبي جعفر عليه السلام قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وآله : قال الله تعالى : من مرض ثلاثاً فلم يشك إلى عوّاده أبدلته لحماً خيراً من لحمه و دماً خيراً من دمه فإن عافيته عافيته و لا ذنب له و إن قبضته قبضته إلى رحمتي »[١] و في معناه أخبار اُخر .

وفي بعضها فسّر التّبديل بخير بأن يبدله لحماً و دماً و بشرة لم يذنب فيها[٢] .

و فسّر الشكاية بأن يقول : « ابتليت بما لم يبتل به أحدٌ و أصابني مالم يصب أحداً ، قال : و ليس الشكوى أن يقول : سهرت البارحة و حممت اليوم و نحو هذا[٣] .

وفي رواية عن الصادق عليه السلام « من اشتكى ليلة فقبلها بقبولها وأدّى إلى الله شكرها كانت كعبادة ستّين سنة ، سئل ماقبولها قال : يصبر عليها ولا يخبر بماكان فيها فإذا أصبح حمد الله على ماكان »[٤] .

وسئل الباقر عن الصبر الجميل فقال : « ذاك صبر ليس فيه شكوى إلى الناس»[٥] .

قال أبوحامد : فإن قلت : فبما ذا تنال درجة الصّبر في المصائب وليس الأمر إلى اختياره فهو مضطرٌ شاء أم أبى فإن كان المراد به أن لا تكون في نفسه كراهية المصيبة فذلك غير داخل في الاختيار ؟ فاعلم أنّه إنّما يخرج عن مقام الصابرين بالجزع و شقّ الجيوب و ضرب الخدود و المبالغة في الشكوى و إظهار الكآبة و تغيير العادة في الملبس والمفرش و المطعم ، وهذه الاُمور داخله تحت اختياره فينبغي أن يجتنب جميعها و يظهر الرّضا بقضاء الله تعالى ويبقى مستمرّاً على عادته ويعتقد أن ذلك كان وديعة فاسترجعت كما روي عن الرّميصاء اُمّ سليم أنّها قالت توفّي ابن لي و زوجي أبوطلحة غائب فقمت فسجّيته في ناحية البيت فقدم أبوطلحة فقمت فهيّأت له إفطاره فجعل يأكل فقال : كيف الصبيّ فقلت : بأحسن حال بحمد الله ومنّه فانّه لم يكن منذ اشتكى خيراً منه اللّيلة ثمّ تصنّعت له أحسن ما كنت أتصنّع قبل

(١) المصدر ج ٣ ص ١١٥ تحت رقم ١ .

(٢) و (٣) و (٤) المصدر ج ٣ ص ١١٦ تحت رقم ٦ و ١ و٥ على الترتيب

(٥) المصدر ج ٢ ص ٩٣ تحت رقم ٢٣.

ذلك حتّى أصاب منّي حاجته ثمّ قلت : ألا تعجب من جيراننا ؟ قال : ومالهم ؟ قلت : اعيروا عارية فلمّا طلبت منهم جزعوا فقال : بئس ما صنعوا ، فقلت : هذا ابنك كانت عارية من الله تعالى و إنّ الله قد قبضه إليه ، فحمد الله واسترجع ثمّ غدا على رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فأخبره فقال : « اللّهمّ بارك لهما في ليلتهما » قال الرّاوي : فلقد رأيت لهم بعد ذلك في المسجد سبعة كلّهم قد قرؤوا القرآن (١) . و روى جابر أنّه عليه السلام قال : رأيتني دخلت الجنّة فإذا أنا بالرّميصاء امرأة أبي طلحة .

و قد قيل : الصبر الجميل هو أن لا يُعرف صاحب المصيبة ، إذ يشبه غيره . ولا يخرجه عن حدّ الصابرين توجّع القلب و لا فيضان العين بالدّمع إذ يكون من جميع الحاضرين لأجل الموت سواء و لأنّ البكاء توجّع القلب على الميّت فإنّ ذلك مقتضى البشريّة و لا يفارق الإنسان إلى الموت و لذلك لمّا مات إبراهيم ولد النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم فاضت عيناه فقيل له : « أما نهيتنا عن هذا ؟ فقال : إنّ هذه رحمة و إنّما يرحم الله من عباده الرّحماء »(٢) بل ذلك أيضاً لا يخرج عن مقام الرّضا فالمقدم على الفصد و الحجامة راض به و هو متألّم بسببه لا محالة و قد تفيض عينه إذا عظم ألمه ، و سيأتي ذلك في كتاب الرّضا إن شاء الله .

و كتب ابن أبي نجيح يعزّي بعض الخلفاء فكتب أنّ أحقّ من عرف حقّ الله تعالى فيما أخذ منه مَن عظم حقّ الله تعالى عنده فيما أبقاه له ، واعلم أنّ الماضي قبلك هو الباقي لك و الباقي بعدك هو المأجور فيك ، و اعلم أنّ أجر الصابرين فيما

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية ومسلم في الصحيح ج٧ ص١٤٥ والرميصاء بضم الراء صحابية .

(٢) رواه البزار و الطبراني من حديث عبد الرحمن بن عوف قال : بعثت ابنة لرسول الله صلى الله عليه وآله أن ابنتي مغلوبة فقال للرسول : قل لها ان لله ما أخذ وله ما أعطى ثم بعثت اليه ثانية فقال لها مثل ذلك ، ثم بعثت اليه الثالثة فجاءها في ناس من أصحابه فأخرجت اليه الصبية ونفسها تقعقع (أي تضطرب) في صدرها ، فرق عليها فذرفت عيناه ففطن به بعض أصحابه وهم ينظرون اليه حين ذرفت عيناه ، فقال : « مالكم تنظرون رحمة الله يضعها حيث يشاء انما يرحم الله من عباده الرحماء » . راجع مجمع الزوائد ج٩ ص١٨ . و ما عثرت على لفظ ما نقله المصنف .

يصابون به أعظم من النعمة عليهم فيما يعافون منه فإذن مهمادفع الكراهة بالتفكّر في نعمة الله تعالى عليه بالثواب نال درجة الصّابرين ، نعم من كمال الصبر كتمان المرض والفقر و سائر المصائب ، وقدقيل : من كنوزالبرّ كتمان المصائب والأوجاع والصّدقة ، فقد ظهر لك بهذه التقسيمات أنّ وجوب الصبر عامّ في جميع الأحوال والأفعال فإنّ الّذي كفى الشهوات كلّها و اعتزل وحده فلا يستغني عن الصبرعلى العزلة و الانفراد ظاهراً و عن الصبر عن وساوس الشيطان باطناً ، فإنّ اختلاج الخواطر لا يسكن ، فأكثر جولان الخاطر إنّما يكون في فائت لا تدارك له أو في مستقبل لابدّ وأن يحصل منه ما هومقدّر فهو كيف ماكان تضييع زمان ، وآلةالعبد قلبه و بضاعته عمره ، فإذا غفل القلب في نفس واحد عن ذكر يستفيد به اُنساً بالله أو عن فكر يستفيد معرفة بالله ليستفيد بالمعرفة محبّة الله فهو مغبون ، هذا إن كان فكره و وسواسه في المباحات مقصوراً عليه و لا يكون ذلك غالباً بل يتفكّر في وجوه الحيل لقضاء الشهوات إذ لايزال ينازع كلّ من تحرّك على خلاف غرضه في جميع عمره أو من يتوهّم به أنّه ينازعه ويخالف غرضه بظهور أمارةله منه بل يقدّر المخالفة من أخلص الناس في حبّه حتّى في أهله و ولده ، ويتوهّم مخالفتهم له ، ثمّ يتفكّر في كيفيّة زجرهم و كيفيّة قهرهم ، وجوابهم عمّا يتعلّلون به في مخالفته و لا يزال في شغل دائم ، فللشيطان جندان جنديطير وجند يسير والوسواس عبارة عن حركةجنده الطيّار ، و الشهوة عبارة عن حركة جنده السيّار ، وهذا لأنّ الشيطان خلق من النار ، و خلق الإنسان من صلصال كالفخّار ، والفخّار قد اجتمع فيه مع النار الطين ، و الطين طبعه السكون ، و النار طبعها الحركة ، فلا يتصوّر نار مشتعلة لا تتحرّك ، بل لا تزال تتحرّك بطبعها وقد كلّف الملعون المخلوق من النارأن يطمئنّ عن حركته ، ساجداً لما خلق من الطين فأبي و استكبر واستعصى ، وعبّر عن سبب استعصائه بأن قال : « خلقتني من نار وخلقته من طين » فإذن حيث لم يسجد الملعون لأبينا آدم صلوات الله عليه فلا ينبغي أن يطمع في سجوده لأولاده ، ومهما كفّ عن القلب وسواسه وعدوانه وطيرانه وجولانه فقدأظهر انقياده وإذعانه وانقياده بالإذعان

سجود منه فهو روح السجود و إنّما وضع الجبهة على الأرض قالبه ، وعلامته الدالّة عليه بالاصطلاح و لو جعل وضع الجبهة على الأرض علامة استخفاف بالاصطلاح لتصوّر ذلك كما أنّ الانبطاح بين يدي المعظّم المحترم يرى استخفافاً بالعادة ، فلا ينبغي أن يدهشك صدف الجوهر عن الجوهر و قالب الرّوح عن الرّوح و قشر اللّب عن اللّب ، فتكون ممّن قيّده عالم الشهادة بالكلّيّة عن عالم الغيب و تحقّق أنّ الشيطان من المنظرين فلا يتواضع لك بالكفّ عن الوسواس إلى يوم الدّين إلّا أن تصبح وهمومك همّاً واحداً ، فيشتغل قلبك بالله وحده فلا يجد الملعون مجالاً فيك فعندذلك تكون من عبادالله المخلصين الدّاخلين في الاستثناء من سلطنة هذا اللّعين ولا تظنّنّ أنّه يخلو عنه قلب فارغ ، بل هو سيّال يجري من ابن آدم مجرى الدّم و سيلانه مثل الهواء في القدح فإنّك إن أردت أن يخلو القدح عن الهواء من غير أن تشغله بالماء أو بغيره فقد طمعت في غير مطمع بل بقدر ما يخلو من الماء يدخل فيه الهواء لامحالة ، فكذلك القلب المشغول بفكر مهمّ في الدّين يخلو عن جولان الشياطين و إلّا فمن غفل عن الله و لو في لحظة فليس له في تلك اللّحظة قرين إلّا الشيطان ، و لذلك قال تعالى : « و من يعش عن ذكر الرّحمن نقيّض له شيطاناً فهو له قرين » (١).

وقال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « إنّ الله يبغض الشابّ الفارغ » (٢) و هذا لأنّ الشابّ إذا تعطّل عن عمل يشغل باطنه بمباح يستعين به على دينه كان ظاهره فارغاً و لم يبق قلبه فارغاً بل يعشش فيه الشيطان ويبيض و يفرخ ثمّ يزدوج أفراخه أيضاً و يبيض مرّة أُخرى و يفرخ و هكذا يتوالد نسل الشيطان توالداً أسرع من توالد سائر الحيوانات لأنّ طبعه من النار ، و إذا وجد الحلفاء اليابسة كثر تولّده فلا يزال تتوالد النار من النار ولا ينقطع ألبتة ، بل يسري شيئاً فشيئاً على الاتّصال ، فالشهوة

(١) الزخرف : ٣٦ .

(٢) قال العراقي : لم أجده . أقول : رواه الكليني في الكافي ج ٥ ص ٨٤ من حديث موسى بن جعفر عليهما السلام هكذا « ان الله يبغض العبد النوام الفارغ ».

في نفس الشابّ للشيطان كالحلفاء اليابسة للنار ، وكما لا يبقى النار إذا لم يبق لها قوت و هو الحطب فلا يبقى للشيطان مجال إذ لم تكن شهوة فإذن إذا تأمّلت علمت أن أعدى عدوّ لك شهواتك و هي صفة نفسك الّتي إن لم تشغلها شغلتك ، فإذن حقيقة الصبر وكماله الصبر عن كلّ حركة مذمومة ، و حركة الباطن أولى بالصبر عنها وهذا صبر دائم لا يقطعه إلّا الموت .

☼(بيان دواء الصبر وما يستعان به عليه)☼

إعلم أنّ الّذي أنزل الدّاء أنزل الدّواء و وعد الشفاء ، فالصبر و إن كان شاقّاً أو ممتنعاً فتحصيله ممكن بمعجون العلم و العمل ، فالعلم والعمل هما الاخلاط الّتي منها تركب الأدوية لأمراض القلوب كلّها ولكن يحتاج كلّ مرض إلى علم آخر وعمل آخر ، وكما أنّ أقسام الصبر مختلفة فأقسام العلل المانعة منها مختلفة ، و إذا اختلفت العلل اختلف العلاج ، إذ معنى العلاج مضادّة العلّة وقمعها واستيفاء ذلك ممّا يطول ولكنّا نعرّف الطريق في بعض الأمثلة فنقول : إذا افتقر إلى الصبر عن شهوة الوقاع مثلاً فقد غلبت عليه بحيث ليس يملك معها فرجه أو يملك فرجه ولكن ليس يملك عينه أو يملك عينه ولكن ليس يملك قلبه ونفسه إذ لا تزال تحدّثه بمقتضيات الشهوة ويصرفه ذلك عن المواظبة على الذّكر والفكر والأعمال الصالحة ، فنقول : قد قدّمنا أنّ الصبر عبارة عن مصارعة باعث الدّين مع باعث الهوى و كلّ متصارعين أردنا أن يغلب أحدهما الآخر فلا طريق لنا فيه إلّا تقوية من أردنا أن تكون له اليد العليا وتضعيف الآخر ، فلزمنا ههنا تقوية باعث الدّين وتضعيف باعث الشهوة فأمّا باعث الشهوة فسبيل تضعيفه ثلاثة اُمور أحدها أن تنظر إلى مادّة قوتها فهي الأغذية الطيّبة المحرّكة للشهوة من حيث نوعها و من حيث كثرتها فلابدّ من قطعها بالصوم الدائم مع الاقتصار عند الأفطار على طعام قليل في نفسه ضعيف في جنسه فيحترز عن اللّحم والأطعمة المهيّجة للشهوة ، والثاني قطع أسبابه المهيّجة له في الحال فإنّه إنّما يهيّج بالنظر إلى مظانّ الشهوة إذ النظر يحرّك القلب والقلب يحرّك الشهوة وهذا يحصل بالعزلة و الاحتراز عن مظانّ وقوع البصر علي

الصور المشتهاة و الفرار منها بالكلّية ، قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « النظرة سهم مسموم من سهام إبليس » [١] و هذا سهم يسدّده الملعون و لا ترس يمنع منه إلّا تغميض الأجفان أو الهرب من صوب رميه فإنّه إنّما يرمي هذا السهم عن قوس الصور فإذا انتقلت عن صوب الصور لم يصبك سهمه ، الثالث تسلية النفس بالمباح من الجنس الّذي يشتهيه و ذلك بالنكاح فإنّ كلّ ما يشتهيه الطبع ففي المباحات ما يغني عن المحظورات منه وهذا هو العلاج الأنفع في حقّ الأكثر ، فإنّ قطع الغذاء يضعف عن سائر الأعمال ثمّ قد لا يقمع الشهوة في حقّ أكثر الرّجال ولذلك قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « عليكم بالباه فمن لم يستطع فعليه بالصوم فإنّ الصوم له وجاء » [٢] فهذه ثلاثة أسباب فالعلاج الأوّل و هو قطع الطعام يضاهي قطع العلف عن البهيمة الجموح و عن الكلب الضاري ليضعف فيسقط قوّته ، والثاني يضاهي تغييب اللّحم عن الكلب وتغييب الشعير عن البهيمة حتّى لا يتحرّك بواطنها بسبب مشاهدتها ، و الثالث يضاهي تسليتها بشيء قليل ممّا يميل إليه طبعها حتّى يبقى معها من القوّة ما تصبر على التأديب .

و أمّا تقوية باعث الدّين فإنّما تكون بطريقين : أحدهما في إطماعه هي فوائد المجاهدة و ثمراتها في الدّين و الدّنيا و ذلك بأن يكثر فكره في الأخبار الّتي أوردناها في فضل الصبر وفي حسن عواقبه في الدّنيا و الآخرة ، وفي الأثر : أنّ ثواب الصبر على المصيبة أكثر ممّا فات . و إنّه بسبب ذلك مغبوطٌ بالمصيبة إذ فاته ما لا يبقى معه إلّا مدّة الحياة وحصل له ما يبقى بعد موته أبد الدّهر ، ومن أسلم خسيساً في نفيس فلا ينبغي أن يحزن لفوات الخسيس في الحال وهذا باب المعارف ، وهو من الإيمان فتارة يضعف وتارة يقوى ، فإن قوي قوي باعث الدّين و هيّجه تهييجاً شديداً و إن ضعف ضعف ، وإنّما قوّة الإيمان يعبّر عنها باليقين وهو المحرّك

---

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك ج ٤ ص ٣١٤ وتقدم كراراً فى كتاب النكاح وغيره .

(٢) أخرجه مسلم ج ٤ ص ١٢٨ والبخارى ج ٧ ص ٣ والنسائى ج ٦ ص ٥٧ كلهم من حديث ابن مسعود و قد تقدم .

لعزيمة الصبر « وأقلّ ما أُوتي الناس اليقين وعزيمة الصبر » . والثاني أن يعوّد هذا الباعث مصارعة باعث الهوى تدريجاً قليلاً قليلاً حتّى يدرك لذّة الظفر بها فيستجري عليها و تقوى مُنّته في مصارعتها ، فإنّ الاعتياد و الممارسة للأعمال الشاقّة يؤكّد القوى الّتي تصدر منها تلك الأعمال ولذلك تزيد قوّة الحمّالين والفلّاحين والمقاتلين و بالجملة الممارسين للأعمال الشاقّة على قوّة الخيّاطين و العطّارين و الفقهاء و الصالحين ، وذلك لأنّ قواهم لم تتأكّد بالممارسة ، فالعلاج الأوّل يضاهي أطماع المصارع في الخلعة عند الغلبة و وعده بأنواع الكرامة كما وعد فرعون سحرته عند إغرائه إيّاهم بموسى حيث قال : « وإنّكم إذاً لمن المقرّبين » و الثاني يضاهي تعويد الصبي الّذي يراد منه المصارعة و المقاتلة مباشرة أسباب ذلك منذ الصبى حتّى يأنس به ويستجري عليه و يقوى فيه منّته ، فمن ترك بالكلّية المجاهدة بالصبر ضعف فيه باعث الدّين ولا يقوى على الشهوة و إن ضعفت ومن عوّد نفسه مخالفة الهوى غلبها مهما أراد ، فهذا منهاج العلاج في جميع أنواع الصبر ولا يمكن استيفاؤه وإنّما أشدّها كفّ الباطن عن حديث النفس ، و إنّما يشتدّ ذلك على من تفرّغ له بأنّ قمع الشهوات الظاهرة و آثر العزلة و جلس للمراقبة والذّكر والفكر ، فإنّ الوسواس لا يزال يجاذبه من جانب وهذا لا علاج له البتّة إلّا قطع العلائق كلّها ظاهراً وباطناً بالفرار عن الأهل و الولد و المال و الجاه و الرّفقاء والأصدقاء ، ثمّ الاعتزال إلى زاوية بعد إحراز قدر يسير من القوت و بعد القناعة به ثمّ كلّ ذلك لا يكفي ما لم تصر الهموم همّاً واحداً وهو الله تعالى ثمّ إذا غلب ذلك على القلب فلا يكفي ذلك ما لم يكن فيه مجال في الفكر و سير بالباطن في ملكوت السماوات و الأرض و عجائب صنع الله و سائر أبواب معرفة الله حتّى إذا استولى ذلك على قلبه دفع اشتغاله بذلك محادثة الشيطان و وسواسه ، و إن لم يكن له سيرٌ بالباطن فلا ينجيه إلّا الأوراد المتواصلة المترتّبة في كلّ لحظة من القراءة و الأذكار و الصلوات و يحتاج مع ذلك إلى تكليف القلب الحضور فإنّ التفكّر بالباطن هو الّذي يستغرق القلب دون الأوراد الظاهرة ، ثمّ إذا فعل كلّ ذلك لم يسلم له من الأوقات إلّا بعضها إذ لا يخلو

في جميع أوقاته عن حوادث تتجدّد ، فتشغله عن الفكر والذّكر من مرض و خوف و إيذاء من إنسان وطغيان من مخالط إذ لا يستغني عن مخالطة من يعينه في بعض أسباب المعيشة فهذا أحد الأنواع الشاغلة ، و أمّا النوع الثاني فهو ضروري أشدّ ضرورة من الأوّل و هو اشتغاله بالمطعم و الملبس و أسباب المعاش فإنّ تهيئة ذلك أيضاً تحوج إلى شغل إن تولّاه بنفسه ، و إن تولّاه غيره فلا يخلو عن شغل قلب ممّن يتولّاه ، ولكن بعد قطع العلائق كلّها يسلم له أكثر الأوقات إن لم تهجم به ملمّة أو واقعة و في تلك الأوقات يصفو القلب و يتيسّر الفكر و ينكشف فيه من أسرار الله في ملكوت السماوات و الأرض ما لا يقدر على عشر عشيره في زمان طويل لو كان مشغول القلب بالعلائق ، و الانتهاء إلى هذا هو أقصى المقامات الّتي يمكن أن تنال بالاكتساب والجهد ، فأمّا مقادير ما ينكشف و مبالغ ما يرد من لطف الله في الأحوال و الأعمال فذلك يجري مجرى الصيد و هو بحسب الرّزق فقد يقلّ الجهد و يجلّ الصيد و قد يطول الجهد و يقلّ الحظّ و المعوّل و راء هذا الاجتهاد على جذبة من جذبات الرّحمن فإنّها توازي أعمال الثقلين و ليس ذلك باختيار العبد نعم اختيار العبد في أن يتعرّض لتلك الجذبة بأن يقطع عن قلبه جواذب الدّنيا فإنّ المجذوب إلى أسفل السافلين لا يجذب إلى أعلى علّيّين و كلّ منهوم بالدّنيا فهو منجذب إليها فقطع العلائق الجاذبة هو المراد بقوله عليه السلام : « إنّ لربّكم في أيّام دهركم نفحات ألا فتعرّضوا لها » (١) و ذلك لأنّ تلك النفحات و الجذبات لها أسباب السماويّة إذ قال تعالى : « و في السماء رزقكم وما توعدون » (٢) و هذا أعلى أنواع الرّزق ، والأمور السماويّة غائبة عنّا فلا ندري متى ييسّر الله تعالى أسباب الرزق فما علينا إلّا تفريغ المحلّ و الانتظار لنزول الرّحمة وبلوغ الكتاب أجله كالّذي يصلح الأرض و ينقّيها من الحشيش و يبثّ البذر فيها ، و كلّ ذلك لا ينفعه إلّا بمطر ، و لا

---

(١) أخرجه الطبراني فى الاوسط والكبير من حديث محمد بن مسلمة و أنس كما فى مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٢٣١ . و قد تقدم .

(٢) الذاريات : ٢٢ .

يدري متى يقدّر الله أسباب المطر إلّا أنّه يثق بفضل الله تعالى و رحمته أنّه لا يخلي سنة عن مطر ، فكذلك قلّما تخلو سنة و شهر و يوم عن جذبة من الجذبات و نفحة من النّفحات ، فينبغي أن يكون العبد قد طهّر أرض القلب من حشيش الشهوات و بذر فيه بذر الإرادة والإخلاص ، و عرضه لمهابّ رياح الرّحمة و كما يقوى انتظار الأمطار في أوقات الرّبيع و عند ظهور الغيم فيقوى انتظار تلك النفحات في الأوقات الشريفة وعنداجتماع الهمم و تساعد القلوب كما في يوم عرفة و يوم الجمعة و أيّام رمضان فإنّ الهمم و الأنفاس أسباب بحكم تقرير الله تعالى لاستدرار رحمته حتّى يستدرّ بها الأمطار في أوقات الاستسقاء و هي لاستدرار أمطار المكاشفات و لطائف المعارف من خزائن الملكوت أشدّ مناسبة منها لاستدرار قطرات الماء و استجرار الغيوم من أقطار الجبال و البحار ، بل الأحوال والمكاشفات حاضرة معك في قلبك و إنّما أنت مشغول عنها بعلائقك و شهواتك فصار ذلك حجاباً بينك و بينها فلا تحتاج إلّا أن تنكسر الشهوة و ترفع الحجاب فيشرق أنوار المعارف من باطن القلب ، و إظهار ماء الأرض بحفر القنى أسهل و أقرب من استرسال الماء إليها من مكان بعيد منخفض عنها و لكونه حاضراً في القلب و منسياً بالشغل عنه سمّى الله جميع معارف الإيمان تذكّراً فقال : « ليتذكّر اُولو الألباب » (١) و قال : « ولقد يسّرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر »(٢) فهذا هو علاج الصبر عن الوساوس و الشواغل و هو آخر درجات الصبر وإنّما الصبر عن العلائق كلّها مقدّم على الصبر عن الخواطر ، و أشدّ العلائق على النفس علاقة الخلق و حبّ الجاه ، فإنّ لذّة الرّئاسة و الغلبة و الاستعلاء و الاستتباع أغلب اللّذات في الدّنيا على نفوس العقلاء و كيف لا تكون أعلى اللّذات ومطلوبها صفة من صفات الله تعالى والرّبوبيّة مطلوبة و محبوبة بالطبع للقلب بما فيه من المناسبة لاُمور الرّبوبيّة و عنه العبارة بقوله تعالى : « قل الرّوح من أمر ربي » (٣) وليس القلب مذموماً على حبّه ذلك و إنّما

---

(١) ص : ٢٩ . (٢) القمر : ١٧ .
(٣) الاسراء : ٨٥ .

هو مذموم على غلط وقع له بسبب تعزير الشيطان اللّعين المبعد عن عالم الأمر إذ حسده على كونه من عالم الأمر فأضلّه و أغواه، و كيف يكون مذموماً عليه و هو يطلب سعادة الآخرة ليس يطلب إلّا بقاء لافناء فيه و عزّاً لا ذلّ فيه، و أمناً لاخوف فيه، و غنىً لا فقر فيه، و كمالاً لانقصان فيه، و هذه كلّها من أوصاف الرّبوبيّة و ليس مذموماً على طلب ذلك بل حقّ كلّ عبد أن يطلب ملكاً عظيماً لا آخر له، و طالب الملك طالب للعلوّ و العزّ والكمال لامحالة ولكنّ الملك ملكان ملك مشوب بأنواع الآلام وملحوق بسرعة الانصرام و لكنّه عاجل وهو في الدّنيا، وملك مخلّد دائم لا يشوبه كدر و لا ألم، و لا يقطعه قاطع و لكنّه آجل و قد خلق الإنسان عجولاً راغباً في العاجلة، فجاء الشيطان و توسّل إليه بواسطة العجلة الّتي في طبعه فاستغواه بالعاجلة و زيّن له الحاضرة و توسّل إليه بواسطة الحمق فوعده بالغرور في باب الآخرة ومنّاه مع ملك الدّنيا ملك الآخرة، و كماقال عليه السلام: « والأحمق من اتّبع نفسه هواها و تمنّى على الله الأماني »[1] فانخدع المخذول بغروره و اشتغل بطلب عزّ الدّنيا و ملكها على قدر إمكانه، ولم يتدلّ الموفّق بحبل غروره إذ علم مداخل مكره فأعرض عن العاجلة فعبّر عن المخذولين فقال سبحانه: « كلّا بل تحبّون العاجلة ٭ و تذرون الآخرة »[2] و قال تعالى: « إنّ هؤلاء يحبّون العاجلة و يذرون وراءهم يوماً ثقيلاً »[3] وقال تعالى: « فأعرض عمّن تولّى عن ذكرنا و لم يرد إلّا الحيوة الدّنيا ٭ ذلك مبلغهم من العلم »[4] ولمّا استطار مكر الشيطان في كافّة الخلق أرسل الله الملائكة إلى الرّسل فأوحوا إليهم ما مرّ على الخلق من إهلاك العدوّ و إغوائه، فاشتغلوا بدعوة الخلق إلى الملك الحقيقيّ عن الملك المجازي الّذي لا أصل له إن سلم ولا دوام له أصلاً، فنادوا فيهم « يا أيّها الّذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثّاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحيوة الدّنيا من الآخرة فما متاع الحيوة الدّنيا في الآخرة إلّا قليل »[5] فالتّورية و

---

(١) قد تقدم. (٢) القيامة: ٢٠ و ٢١. (٣) الانسان: ٢٧.
(٤) النجم: ٢٩ و ٣٠. (٥) التوبة: ٣٨.

الإنجيل و الزّبور و الفرقان وصحف موسى و كلّ كتاب منزل ما اُنزل إلّا لدعوة الخلق إلى الملك الدّائم المخلّد ، و المراد منهم أن يكونوا ملوكاً في الدّنيا ملوكاً في الآخرة ، أمّا ملك الدّنيا فبالزّهد فيها والقناعة باليسير منها ، و أمّا ملك الآخرة فبالقرب من الله تعالى بدرك بقاء لا فناء فيه و عزّ لا ذل فيه ، و قرّة عين اُخفيت في هذا العالم لا تعلمها نفس من النفوس ، و الشيطان يدعوهم إلى ملك الدّنيا لعلمه بأنّ ملك الآخرة يفوت به إذ الدّنيا و الآخرة ضرّتان ، و لعلمه بأنّ الدّنيا لا تسلم له أيضاً ولو كانت تسلم لكان يحسده أيضاً ، ولكن ملك الدّنيا لا يخلو عن المنازعات و المكدّرات و طول الهموم في التدبيرات و كذلك سائر أسباب الحياة ، ثمّ كما يسلم ويتمّ الأسباب ينقضي العمر « حتّى إذا أخذت الأرض زخرفها وازّيّنت وظنّ أهلها أنّهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كان لم تغن بالأمس » فضرب الله تعالى لها مثلاً و قال : « و اضرب لهم مثل الحيوة الدّنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرّياح » (١) و الزّهد في الدّنيا لمّا كان ملكاً حاضراً حسده الشيطان عليه فصدّه عنه ، و معنى الزّهد أن يملك العبد شهوته و غضبه فينقادان لباعث الدّين و إشارة الإيمان ، و هذا ملك بالاستحقاق إذ به يصير صاحبه حرّاً و باستيلاء الشهوة عليه يصير عبداً لبطنه و فرجه و سائر أعضائه فيكون مسخّراً مثل البهيمة مملوكاً يستجرّه زمام الشهوة آخذاً بمخنقه (٢) إلى حيث يريد ويهوى فما أعظم اغترار الإنسان إذ ظنّ أنّه ينال الملك بأن يصير مملوكاً وينال الرّبوبيّة بأن يصير عبداً ، ومثل هذا هل يكون إلّا معكوساً في الدّنيا منكوساً في الآخرة ولهذا قال بعض الملوك لبعض الزّهّاد : سل منّي حاجة ، قال : كيف أطلب منك حاجة وملكي أعظم من ملكك ، فقال : كيف ؟ قال : من أنت عبده فهو عبدٌ لي ، فقال : كيف ذلك ؟ قال : أنت عبد شهوتك وغضبك وفرجك وبطنك و قد ملكت أنا هؤلاء كلّهم فهم عبيدٌ لي ، فهذا إذن هو الملك في الدّنيا و هو الّذي يسوق إلى الملك في الآخرة فالمنخدعون بغرور الشيطان خسروا

---

(١) الكهف : ٤٥ . (٢) اى مضيقه .

الدنيا و الآخرة جميعاً ، فالّذين وفّقوا للاستداد [١] على الصراط المستقيم فازوا بالدنيا و الآخرة جميعاً ، فإذا عرفت الآن معنى الملك والربوبيّة ومعنى التسخير و العبوديّة و مدخل الغلط في ذلك و كيف تعيمة الشيطان و تلبيسه فيسهل عليك النزوع عن الملك و الجاه و الإعراض عنه و الصبر عند فواته إذ تصير بتركه ملكاً في الحال و ترجو به ملكاً في الآخرة و من كوشف بهذه الأمور بعد أن ألف الجاه وأنس به ورسخ فيه بالعادة مباشرة أسبابه فلايكفيه في العلاج مجرّد العلم والكشف بل لابدّ و أن يضيف إليه العمل و عمله في ثلاثة أمور : أحدها أن يهرب من موضع الجاه كي لا يشاهد أسبابه فيعسر عليه الصبر مع الأسباب ، كما يهرب من غلبته الشهوة عن مشاهدة الصور المحركة و من لم يفعل هذا فقد كفر نعمة الله تعالى في سعة الأرض إذ قال تعالى : « ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها » [٢] . الثاني أن يكلّف نفسه في أعماله أفعالاً تخالف ما اعتاده فيبدّل التكلّف بالتبدّل و زيّ الحشمة بزيّ التواضع ، و كذلك كلّ هيئة و حال وفعل في مسكن وملبس ومطعم و قيام وقعود كان يعتاده وفاء بمقتضى جاهه ، فينبغي أن يبدّلها بنقائضها حتّى يترسّخ باعتياد ذلك ضدّ ما رسخ فيه من قبل باعتياد ضدّه ، فلا معنى للمعالجة إلّا المضادّة .
الثالث أن يراعى في ذلك التلطّف و التدريج فلا ينتقل دفعة واحدة إلى الطرف الأقصى من التبدّل فإنّ الطبع نفور ولا يمكن نقله عن أخلاقه إلّا بالتدريج فيترك البعض ويسلّي نفسه بالبعض ثمّ إذا قنعت نفسه بذلك البعض ابتدأ بترك البعض إلى أن يقنع بالبقيّة و هكذا يفعل شيئاً فشيئاً إلى أن يقمع تلك الصفات الّتي رسخت فيه ، وإلى هذا التدريج الإشارة بقوله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « إنّ هذا الدّين متين فأوغل فيه برفق ولا تبغّض إلى نفسك عبادة الله تعالى فإنّ المنبتّ لا أرضاً قطع و لا ظهراً أبقى » [٣] و إليه الإشارة بقوله عليه السلام : « لا تشادّوا هذا الدّين فإنّ من يشادّه

---

(١) استد ـ بالسين المهملة ـ : استقام . (٢) النساء : ٩٧ .

(٣) أخرجه البزار من حديث جابر كما فى الجامع الصغير وقد تقدم . و فى الكافى ج ٢ ص ٨٧ مثله . والمنبت من انقطع به فى سفره .

يغلبه »[١] فإذن ما ذكرناه من علاج الصبر عن الوسواس وعن الشهوة و عن الجاه أضفه إلى ما ذكرناه من قوانين طرق المجاهدة في كتاب رياضة النفس من ربع المهلكات ، و اتّخذه دستورك لتعرف به علاج الصبر في جميع الأقسام الّتي فصّلناها من قبل ، فإنّ تفصيل الآحاد يطول و من راعى التدريج ترقّى به الصبر إلى حالة يشقّ عليه الصبر دونه كما كان يشقّ عليه الصبر معه ، فتنعكس اُموره فيصير ماكان محبوباً عنده ممقوتاً ، وما كان مكروهاً عنده مشرباً هنيئاً لا يصبر عنه ، وهذا لا يعرف إلّا بالتجربة و الذوق ، وله نظير في العادات فإنّ الصبيّ يحمل على التعلّم في الابتداء قهراً فيشقّ عليه الصبر عن اللّعب والصبر مع العلم حتّى إذا انفتحت بصيرته وأنس بالعلم انقلب الأمر فصار يشقّ عليه الصبر عن العلم و الصبر على اللّعب .

و إلى هذا يشير ما حكي عن بعض العارفين أنّه سأل الشبلي عن الصبر أيّه أشدّ ، فقال الصبر في الله ، فقال : لا ، فقال : الصبر لله ، فقال : لا ، قال : الصبر مع الله ، قال : لا ، قال : فأيش ؟ قال : الصبر عن الله ، فصرخ الشبلي صرخة كادت روحه تتلف .

و قد قيل في معنى قوله تعالى : « اصبرو وصابروا ورابطوا »[٢] : اصبروا في الله ، وصابروا بالله ، ورابطوا مع الله . وقيل : الصبر لله غناء والصبر بالله بقاء ، والصبر مع الله وفاء ، والصبر عن الله جفاء . و قد قيل في معناه :

و الصبر عنك فمذمومٌ عواقبه ✡ و الصبر في سائر الأشياء محمود

وقيل أيضاً :

الصبر يجمل في المواطن كلّها ✡ إلّا عليك فإنّه لا يجمل

هذا آخر ما أردنا شرحه من علوم الصبر وأسراره .

✡(الشطر الثاني من الكتاب في الشكر)✡

وله ثلاثة أركان الرّكن الأوّل في فضيلة الشكر وحقيقته وأقسامه وأحكامه .

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ج ٣ ص ١٩ باختلاف في اللفظ وفي صحيح البخاري مثله .

(٢) آل عمران : ٢٠٠ .

الرُّكن الثاني في حقيقة النعمة وأقسامها الخاصّة والعامّة . الرُّكن الثالث في بيان الأفضل من الصبر والشكر .

الرُّكن الأوّل في نفس الشكر :

☼(بيان فضيلة الشكر)☼

إعلم أنَّ الله تعالى قرن الشكر بالذِّكر في كتابه مع أنّه قال : « ولذكر الله أكبر » (١) فقال تعالى : « فاذكروني أذكركم واشكروا لي و لا تكفرون » (٢) . وقال تعالى : « ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم » (٣) . و قال : « و سنجزي الشاكرين » (٤) . و قال تعالى إخباراً عن إبليس اللّعين : « لأقعدنَّ لهم صراطك المستقيم » (٥) . وقيل : هو طريق الشكر ، ولعلوِّ رتبة الشكر طعن اللّعين في الخلق فقال : « و لا تجد أكثرهم شاكرين » (٦) . و قال تعالى : « و قليلٌ من عبادي الشكور » (٧) . و قد قطع الله تعالى بالمزيد مع الشكر و لم يستثن فقال : « لئن شكرتم لأزيدنّكم » (٨) . و استثنى في خمسةأشياء في الإغناء و الإجابة و الرِّزق و المغفرة و التوبة فقال تعالى : « فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء » (٩) . وقال : « فيكشف ما تدعون إليه إن شاء » (١٠) . و قال : « يرزق من يشاء » (١١) . و قال : « ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » (١٢) . وقال : « و يتوب الله على من يشاء » (١٣) . وهو خلق من أخلاق الرُّبوبيّة إذ قال تعالى : « والله شكورٌ حليم » (١٤) و قد جعل الله الشكر مفتاح كلام أهل الجنّة فقال : « وقالوا الحمد لله الّذي صدقنا وعده » (١٥) .

(١) العنكبوت : ٤٥ .
(٢) البقرة : ١٥٢ .
(٣) النساء : ١٤٧ .
(٤) آل عمران : ١٤٥ .
(٥) الاعراف : ١٦ .
(٦) الاعراف : ١٧ .
(٧) سبأ : ١٣ .
(٨) ابراهيم : ٧ .
(٩) التوبة : ٢٨ .
(١٠) الانعام : ٤١ .
(١١) الشورى : ١٩ .
(١٢) النساء : ٤٨ .
(١٣) التوبة : ١٥ .
(١٤) التغابن : ١٧ .
(١٥) الزمر : ٧٤ .

وقال: «و آخر دعواهم أن الحمد لله ربّ العالمين» (١).

وأما الاخبار: فقد قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر» (٢).

و روي عن عطاء أنّه قال: دخلت على عائشة فقلت: أخبرينا بأعجب ما رأيت من رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فبكت وقالت: وأيّ شأنه لم يكن عجباً إنّه أتى ليلة فدخل معي في فراشي - أو قالت: في لحافي - حتّى مسّ جلده جلدي ثمّ قال: يا ابنة أبي بكر ذريني أتعبّد لربّي قالت: قلت: إنّي أُحبّ قربك ولكنّي أوثر هواك، فأذنت له فقام إلى قربة ماء فتوضّأ فلم يكثر صبّ الماء ثمّ قام يصلّي فبكى حتّى سالت دموعه على صدره ثمّ ركع فبكى ثمّ سجد فبكى ثمّ رفع رأسه فبكى فلم يزل كذلك حتّى جاء بلال فآذنه بالصّلاة، فقلت: يا رسول الله ما يبكيك؟ و قد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك و ما تأخّر قال: أفلا أكون عبداً شكوراً و لِمَ لا أفعل ذلك؟ وقد أنزل الله عليّ «إنّ في خلق السموات والأرض (٣) - الآية -» (٤). و هذا يدلّ على أنّ البكاء ينبغي أن لا ينقطع أبداً، وإلى هذا السرّ يشير ما روي أنّه مرّ بعض الأنبياء بحجر صغير يخرج منه ماء كثير فتعجّب فأنطقه الله فقال: منذ سمعت قوله تعالى: «وقودها الناس والحجارة» فأنا أبكي من خوفه فسأله أن يجيره من النّار فأجاره ثمّ رآه بعد مدّة مثل ذلك فقال: لِمَ تبكي الآن؟ فقال: ذاك بكاء الخوف وهذا بكاء الشكر و السرور، و قلب العبد كالحجارة أو أشدّ قسوة ولا تزول قسوته إلّا بالبكاء في حال

(١) يونس: ١٠.
(٢) أخرجه الترمذي و ابن ماجة تحت رقم ١٧٦٤.
(٣) البقرة: ١٦٤.
(٤) حديث عطاء أخرجه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب أخلاق رسول الله صلى الله عليه و آله و من طريقه ابن الجوزي في الوفاء و فيه أبو جناب و اسمه يحيى بن أبي حية ضعفه الجمهور، و رواه ابن حبان في صحيحه من رواية عبدالملك بن أبي سليمان عن عطاء دون قوله: «وأي شأنه لم يكن عجباً» وهو عند مسلم من رواية عروة عن عائشة مقتصراً على آخر الحديث. (المغني)

الخوف والشكر جميعاً .

و روي عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال : « ينادي مناد يوم القيامة ليقم الحمّادون فيقوم زمرة فينصب لهم لواء فيدخلون الجنّة قيل : ومَن الحمّادون؟ فقال : الّذين يشكرون الله تعالى على كلّ حال » وفي لفظ آخر « الّذين يشكرون الله على السرّاء والضرّاء »(١).

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « الحمد رداء الرّحمن »(٢).

و أوحى الله تعالى إلى أيّوب أنّي رضيت بالشكر مكافأة من أوليائي - في كلام طويل - و أوحى الله تعالى إليه أيضاً في صفة الصابرين : دارهم دار السلام إذ دخلوها ألهمتهم الشكر و هو خير الكلام ، و عند الشكر استزيدهم وبالنظر إليّ أزيدهم .

ولمّا نزل في الكنوز ما نزل قال عمر : فأيّ المال نتّخذ ؟ فقال عليه السلام : « ليتّخذ أحدكم لساناً ذاكراً و قلباً شاكراً »(٣) فأمر باقتناء القلب الشاكر بدلاً عن المال .

و قال ابن مسعود - رضي الله عنه - : « الشكر نصف الإيمان ».

أقول: و من طريق الخاصّة ما رواه في الكافي عن الصادق عليه السلام قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : الطاعم الشاكر له من الأجر كأجر الصائم المحتسب ، والمعافى الشاكر له من الأجر كأجر المبتلى الصابر . والمعطى الشاكر له من الأجر كأجر المحروم القانع »(٤).

و عنه عليه السلام قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ما فتح الله على عبد باب شكر فخزن عنه باب الزّيادة »(٥).

و عنه عليه السلام قال : « من اُعطى الشكر اُعطى الزّيادة قال الله تعالى : « لئن

---

(١) ما عثرت على لفظيه نعم روى الطبرانى فى الكبير و الحاكم فى المستدرك ج ١ ص٥٠٢ والبيهقى فى الشعب « أول من يدعى الى الجنة الحمادون يحمدون على السراء والضراء » بسند حسن عن ابن عباس كما فى الجامع الصغير .

(٢) قال العراقى : لم أجد له أصلا .

(٣) أخرجه ابن ماجه تحت ١٨٥٦ . و قد تقدم فى النكاح .

(٤) و(٥) المصدر ج ٢ ص ٩٤ تحت رقم ١ و ٢ .

شكرتم لأزيدنّكم »(١).

وعنه عليه السلام قال: « ما أنعم الله على عبد من نعمة فعرفها بقلبه وحمدالله ظاهراً بلسانه فتمّ كلامه حتّى يؤمر له بالمزيد »(٢).

وعن الباقر عليه السلام قال: « كان رسول الله صلى الله عليه وآله عند عائشة ليلتها فقالت: يا رسول الله لم تتعب نفسك وقد غفر الله لك ماتقدّم من ذنبك وما تأخّر؟ فقال: يا عائشة ألا أكون عبداً شكوراً، قال: وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يقوم على أصابع رجليه فأنزل الله سبحانه: « طه ۞ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى »(٣).

۞(بيان حد الشكر و حقيقته)۞

إعلم أنَّ الشكر من جملة مقامات السّالكين و هو أيضاً ينتظم من علم وحال وعمل، فالعلم هو الأصل فيورث الحال، والحال يورث العمل، أمّا العلم فهومعرفة النعمة من المنعم والحال هو الفرح الحاصل بإنعامه والعمل هو القيام بماهومقصود المنعم و محبوبه و يتعلّق ذلك العمل بالقلب و بالجوارح و باللّسان و لابدَّ من بيان جميع ذلك ليحصل بمجموعه الإحاطة بحقيقة الشّكر فإنَّ كلَّ ما قيل في حدّ الشّكر قاصرٌ عن الاحاطة بكمال معانيه، فالأصل الأوَّل العلم و هو علم بثلاثة اُمور بعين النّعمة و وجه كونها نعمة في حقّه، و بذات المنعم و وجود صفاته الّتي بها يتمُّ الإنعام ويصدرالإنعام منه عليه فإنّه لابدَّ من نعمة و منعم ومنعم عليه تصل إليه النعمة من المنعم بقصد و إرادة فهذه الاُمور لابدَّ من معرفتها هذا في حقّ غير الله تعالى، فأمّا في حقّ الله فلا يتمُّ إلّا بأن يعرف أنَّ النعم كلّها من الله وأنّه هوالمنعم، والوسائط مسخّرون من جهته و هذه المعرفة وراء التقديس و التّوحيد إذ دخل التّوحيد و التقديس فيها، بل الرّتبة الاُولى في معارف الإيمان التقديس ثمَّ إذاعرف ذاتاً مقدَّسة فيعرف أنّه لامقدَّس إلّا واحدٌ و ما عداه غير مقدَّس، وهو التّوحيد،

---

(١) الكافي ج ٢ ص ٩٥ تحت رقم ٨، والاية في سورة ابراهيم: ٧.

(٢) الكافي ج ٢ ص ٩٥ تحت رقم ٩.

(٣) المصدر ج ٢ ص ٩٥ تحت رقم ٦ والاية في سورة طه: ١ و ٢.

ثمّ يعلم أنّ كلّ ما في العالم فهوموجود من ذلك الواحد فقط فالكلّ نعمة منه فتقع هذه المعرفة في الرّتبة الثالثة إذ ينطوي فيها مع التقديس و التّوحيد كمال القدرة و الانفراد بالفعل و عن هذا عبّر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حيث قال : « من قال : «سبحان الله » فله عشر حسنات ، و من قال : « لا إله إلّاالله » فله عشرون حسنة ، و من قال : « الحمد لله » فله ثلاثون حسنة » (١).

و قال صلى الله عليه وآله وسلم: « أفضل الذكر لا إله إلّا الله ، و أفضل الدّعاء الحمد لله »(٢).

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « ليس شيء من الأذكار يضاعف مايضاعف الحمد لله »(٣).

و لا تظنّنّ أنّ هذه الحسنات بإزاء تحريك اللّسان بهذه الكلمات من غير حصول معانيها في القلب فسبحان الله كلمة تدلّ على التّقديس ، ولا إله إلّا الله كلمة تدلّ على التّوحيد ، و الحمد لله كلمة تدلّ على معرفة النعمة من الواحد الحقّ فالحسنات بإزاء هذه المعارف الّتي هي من أبواب الإيمان واليقين ، واعلم أنّ تمام هذه المعرفة ينفي الشرك في الأفعال فمن أنعم عليه ملك من الملوك بشيء فإن رأى لوزيره أو لوكيله دخلاً في تيسير ذلك و إيصاله إليه فهوإشراك به في النّعمة فلا يرى النعمة من الملك من كلّ وجه بل منه بوجه و من غيره بوجه فيتوزّع فرحه عليهما فلايكون موحّداً في حقّ الملك ، نعم لا ينقص من توحيده في حقّ الملك و كمال شكره أن يرى النّعمةالواصلة إليه بتوقيعه الّذي كتبه بقلمه و بالكاغذالّذي كتبه عليه فإنّه لا يفرح بالقلم والكاغذ ولا يشكرهما لأنّه لا يثبت لهما دخلاً من حيث هماموجودان بأنفسهما بل من حيث هما مسخّران تحت قدرة الملك وقدنعلم أنّ الوكيل الموصل والخازن أيضاً مضطرّان من جهة الملك في الإيصال وأنّه لوردّ الأمر

---

(١) أخرجه الحاكم بأدنى اختلاف فى المستدرك ج١ ص ٥١٢ من حديث أبى هريرة و صححه .

(٢) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٣٨٠٠ والترمذى والنسائى وابن حبان والحاكم فى المستدرك عن جابر بسند صحيح كما فى الجامع الصغير .

(٣) قال العراقى : لم أجده مرفوعاً و انما رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب الشكر عن ابراهيم النخعى يقال : ان أكثر الكلام تضعيفاً .

إليه ولم يكن من جهة الملك إرهاق وأمر جزم يخاف عاقبته لمّا سلّم إليه شيئاً فإذا عرف ذلك كان نظره إلى الخازن الموصل كنظره إلى القلم والكاغذ فلا يورث ذلك شركاً في توحيده من إضافة النعمة إلى الملك ، فكذلك من عرف الله تعالى وعرف أفعاله علم أنّ الشمس و القمر و النّجوم مسخّرات بأمره كالقلم مثلاً في يد الكاتب و أنّ الحيوانات الّتي لها اختيار مسخّرات في نفس اختيارها فانّ الله تعالى هو المسلّط للدّواعي عليها لتفعل شاءت أم أبت ، كالخازن المضطرّ الّذي لا يجد سبيلاً إلى مخالفة الملك ولو خلّي و نفسه لما أعطاك ذرّة ممّا في يده فكلّ من وصل إليك نعمة من الله على يده فهو مضطرّ إذ سلّط الله عليه الإرادة وهيّج عليه الدّواعي و ألقى في قلبه أنّ خيره في الدّنيا و الآخرة في أن يعطيك ما أعطاك و أنّ غرضه المقصود عنده في الحال والمآل لا يحصل إلّا به و بعد أن خلق الله فيه هذا الاعتقاد فلا يجد سبيلاً إلى تركه فهو إذاً إنّما يعطيك لغرض نفسه لا لغرضك ولو لم يكن غرضه في العطاء لما أعطاك ، و لو لم يعلم أنّ منفعته في منفعتك لما نفعك فهو إذن إنّما يطلب نفع نفسه بنفعك فليس منعماً عليك بل اتّخذك وسيلة إلى نعمة اُخرى هو يرجوها وإنّما الّذي أنعم عليك هو الّذي سخّره لك و ألقى في قلبه من الاعتقادات و الإرادات ما صار به مضطرّاً إلى الإيصال إليك ، فإن عرفت الاُمور كذلك فقد عرفت الله تعالى وعرفت فعله و كنت موحّداً و قدرت على شكره بل كنت بهذه المعرفة بمجرّدها شاكراً ، و لذلك قال موسى عليه السلام في مناجاته : إلهي خلقت آدم بيدك وأسكنته جنّتك و زوّجته حوّاء أمتك فكيف شكرك ؟ فقال الله تعالى : إعلم أنّ ذلك منّي فكانت معرفته شكراً . فإذن لا تشكر إلّا بأن تعرف أنّ الكلّ منه فإن خالجك ريب في هذا لم تكن عارفاً لا بالنعمة و لا بالمنعم فلا تفرح بالمنعم وحده بل به و بغيره فبنقصان معرفتك ينقص حالك في الفرح و بنقصان فرحك ينقص عملك . فهذا بيان هذا الأصل .

الاصل الثاني الحال المستثمرة من أصل المعرفة و هو الفرح بالمنعم مع هيئة الخضوع و التواضع و هو أيضاً في نفسه شكر على تجرّده كما أنّ المعرفة شكر و لكن إنّما يكون شكراً إذا كان حاوياً شرطه و شرطه أن يكون فرحك بالمنعم لا

بالنّعمة ولا بالإنعام ، و لعلّ هذا ممّا يتعذّر عليك فهمه فنضرب لك مثالاً فنقول : الملك الّذي يريد الخروج إلى سفر فأنعم بفرس على إنسان يتصوّر أن يفرح المنعم عليه بالفرس من ثلاثة أوجه : أحدها أن يفرح بالفرس من حيث أنّه فرس وأنّه مال ينتفع به و مركوب يوافق غرضه و أنّه جواد نفيس و هذا فرح لا حظّ له في الملك بل غرضه الفرس فقط ولو وجده في صحراء فأخذه لكان فرحه مثل ذلك .

الوجه الثاني أن يفرح به لا من حيث أنّه فرس بل من حيث يستدلّ به على عناية الملك به و شفقته عليه و اهتمامه بجانبه حتّى لو وجد هذا الفرس في صحراء أو أعطاه غير الملك لكان لا يفرح به أصلاً لاستغنائه عن الفرس أصلاً أو لاستحقاره له بالإضافة إلى مطلوبه من نيل المحلّ في قلب الملك .

الوجه الثالث أن يفرح به ليركبه ليخرج في خدمة الملك و يتحمّل مشقّة السّفر لينال بخدمته رتبة القرب منه وربّما يرتقي إلى درجة الوزارة من حيث أنّه ليس يقنع بأن يكون محلّه في قلب الملك أن يعطيه فرساً ويعتني به هذا القدر من العناية بل هو طالب لأن لا ينعم الملك بشيء من ماله على أحد إلّا بواسطته ، ثمّ إنّه ليس يريد من الوزارة الوزارة أيضاً بل يريد مشاهدة الملك والقرب منه حتّى لو خيّر بين القرب منه دون الوزارة وبين الوزارة دون القرب لاختار القرب فهذه ثلاث درجات :

فالأولى لا يدخل فيها معنى الشكر أصلاً لأنّ نظر صاحبها مقصور على الفرس ففرحه بالفرس لا بالمعطي و هذا حال كلّ من فرح بنعمة من حيث أنّها لذيذة و موافقة لغرضه فهو بعيد عن معنى الشّكر .

والثانية داخلة في معنى الشّكر من حيث أنّه فرح بالمنعم و لكن لا من حيث ذاته بل من حيث معرفة عنايته الّتي تستحثّه على الإنعام في المستقبل و هذا حال الصّالحين الّذين يعبدون الله ويشكرونه خوفاً من عقابه ورجاء لثوابه وإنّما الشّكر التّام في الفرح الثالث :

و هو أنّ يكون فرح العبد بنعم الله من حيث أنّه يقدر بها على التوصّل إلى القرب منه والنزول في جواره و النظر إلى وجهه على الدّوام فهذا هو الرّتبة

العليا و أمارته أن لايفرح من الدّنيا إلاّ بماهو مزرعة الآخرة و يعينه عليها ويحزن بكلّ نعمة تلهيه عن ذكر الله و تصدّه عن سبيله لأنّه ليس يريد النّعمة لأنّها لذيذة كما لم يرد صاحب الفرس الفرس لأنّه جواد ومهملج بل من حيث أنّه يحمله في صحبة الملك حتّى تدوم مشاهدته له و قربه منه : ولذلك قال الشبلي : الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعمة ، و قال الخوّاص : شكر العامّة على المطعم والملبس والمشرب و شكر الخاصّة على واردات القلوب . وهذه رتبة لايدركها كلّ من انحصرت عنده اللّذات في البطن و الفرج ومدركات الحواسّ من الألوان والأصوات و خلا عن لذّة القلب فإنّ القلب لا يلتذّ في حال الصحّة إلّا بذكر الله و معرفته و لقائه و إنّما يلتذّ بغيره إذا مرض بسوء العادات كما يلتذّ بعض النّاس بأكل الطين و كما يستبشع بعض المرضى الأشياء الحلوة و يستحلي الأشياء المرّة حتّى قيل :

ومن يك ذا فم مرّ مريض ✿ يجد مرًّا به الماء الزّلالا

فإذن هذا شرط الفرح بنعمة الله فإن لم تكن إبل فمعزى ، و إن لم يكن هذا فالدرّجة الثانية أمّا الأولى فخارجة عن كلّ حساب ، فكم من فرق بين من يريد الملك للفرس و بين من يريد الفرس للملك ، و كم من فرق بين من يريد الله لينعم عليه و بين من يريد نعمة الله ليصل بها إليه .

الاصل الثالث العمل بموجب الفرح الحاصل من معرفة المنعم و هذا العمل يتعلّق بالقلب وباللّسان وبالجوارح ، أمّا بالقلب فقصد الخير وإضماره لكافّة الخلق ، و أمّا باللّسان فإظهار الشكر لله بالتحميدات الدّالّة عليه ، و أمّا بالجوارح فاستعمال نعم الله في طاعته و التوقّي من الاستعانة بها على معصيته حتّى أنّ شكر العينين أن تستر كلّ عيب يراه بمسلم و شكر الاُذنين أن تستر كلّ عيب تسمعه لمسلم فيدخل هذا في جملة شكر نعم الله تعالى بهذه الأعضاء و الشكر باللّسان لإظهار الرّضا عن الله تعالى و هو مأمور به .

فقد قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « لرجل كيف أصبحت ؟ فقال : بخير فأعاد السؤال ، فأعاد

حتّى قال في الثالثة : بخير أحمد الله و أشكره ، فقال : هذا الّذي أردت منك »[١]

وكان السلف يتساءلون بينهم و نيّتهم استخراج الشكر لله ليكون الشاكر مطيعاً و المستنطق له به مطيعاً وماكان قصدهم الرّياء بإظهار الشوق و كلّ عبد يسأل عن حال فهو بين أن يشكر أو يشكو أو يسكت ، فالشّكر طاعة والشكوى معصية قبيحة من أهل الدّين و كيف لا تقبح الشكوى من ملك الملوك و من بيده كلّ شيء إلى عبد مملوك لا يقدر على شيء ، فالأحرى بالعبد إن لم يحسن الصبر على البلاء و القضاء و أفضى به الضعف إلى الشكوى أن تكون شكواه إلى الله تعالى فهو المبلي و هو القادر على إزالة البلاء ، وذلّ العبد لمولاه عزّ والشكوى إلى غيره ذلّ ، وإظهار الذّل للعبيد مع كونهم أذلاء قبيح ، قال تعالى : « إنّ الّذين تعبدون من دون الله لايملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرّزق واعبدوه و اشكروا له »[٢].

و قال تعالى : « إنّ الّذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم »[٣] فالشكر باللّسان من جملة الشكر .

أقول: روى في الكافي عن الصّادق عليه السلام أنّه قال : « شكر كلّ نعمة و إن عظمت أن تحمد الله »[٤].

و عنه عليه السلام « أنّه خرج من المسجد و قد ضاعت دابّته فقال : لئن ردّها الله عليّ لأشكرنّ الله حقّ شكره قال الرّاوي : فما لبث أن اُتي بها فقال : الحمدلله ، فقال : قائل له : جعلت فداك أليس قلت : لأشكرنّ الله حقّ شكره ؟ فقال أبوعبدالله عليه السلام : ألم تسمعني قلت : الحمد لله »[٥].

و عنه عليه السلام قال : « شكر النعم اجتناب المحارم و تمام الشكر قول الرّجل الحمد لله ربّ العالمين »[٦].

(١) روى نحوه مالك في الموطأ ج ٢ ص ٢٣٩ والسائل عمر لا النبي صلى الله عليه وآله .

(٢) العنكبوت : ١٧. (٣) الاعراف : ١٩٤ .

(٤) المصدر ج ٢ ص ٩٥ تحت رقم ١١ .

(٥) المصدر ج ٢ ص ٩٧ تحت رقم ١٨ .

(٦) المصدر ج ٢ ص ٩٥ تحت رقم ١٠ .

وعنه عليه السلام أنّه سئل «هل للشكر حدٌّ إذا فعله العبد كان شاكراً؟ قال: نعم قلت: ما هو قال: يحمد الله على كلّ نعمة عليه في أهل و مال و إن كان فيما أنعم عليه في ماله حقٌّ أدّاه، و منه قوله سبحانه: «سبحان الّذي سخّر لنا هذا و ما كنّا له مقرنين» ومنه قوله: «ربّ أنزلني منزلاً مباركاً و أنت خير المنزلين» و قوله: «ربّ أدخلني مدخل صدق و أخرجني مخرج صدق و اجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً» [(١)].

و عنه عليه السلام: «إذ ذكر أحدكم نعمة الله فليضع خدّه على التراب شكراً لله فإن كان راكباً فلينزل و ليضع خدّه على التراب و إن لم يكن يقدر على النّزول للشهرة فليضع خدّه على قربوسه و إن لم يقدر فليضع خدّه على كفّه ثمّ ليحمد الله على ما أنعم الله عليه» [(٢)].

قال أبو حامد: فهذه هي أُصول معاني الشكر المحيطة بمجموع حقيقته، فأمّا قول من قال: «إنّ الشكر هو الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع» فهو نظر إلى فعل اللّسان مع بعض أحوال القلب، و قول من قال: «إنّ الشكر هو الثناء على المحسن بذكر إحسانه» نظر إلى مجرّد عمل اللّسان، و قول القائل: «إنّ الشكر هو الاعتكاف على بساط الشهود بإدامة حفظ الحرمة» جامع لأكثر معاني الشكر لا يشذّ منه إلّا عمل اللّسان، و قول الجنيد: «الشكر أن لا ترى نفسك أهلاً للنعمة» إشارة إلى حالة من أحوال القلب على الخصوص، وهؤلاء أقوالهم تعرب عن أحوالهم و لذلك تختلف أجوبتهم ولا تتّفق، ثمّ قد يختلف جواب كلّ واحد في حالتين لأنّهم لا يتكلّمون إلّا عن حالتهم الغالبة عليهم اشتغالاً بما يهمّهم عمّا لا يهمّهم، أو يتكلّمون بما يرونه لايقاً بحال السائل اقتصاراً على ذكر القدر الّذي يحتاج إليه و إعراضاً عمّا لا يحتاج إليه فلا ينبغي أن تظنّ أنّ ما ذكرناه طعن عليهم و أنّه لو عرض عليهم

---

(١) المصدر ج ٢ ص ٩٥ تحت رقم ١٢ والايات فى سورة الزخرف: ١٣. وفى سورة المؤمنون: ٢٩. وفى سورة الاسراء: ٨٠.

(٢) الكافى ج ٢ ص ٩٨ تحت رقم ٢٥.

مجامع المعاني الّتي شرحناها كانوا ينكرونها ، بل لا يظنّ ذلك بعاقل أصلاً إلّا أن يفرض منازعة من حيث اللّفظ في أنّ اسم الشكر في وضع اللّسان هل يشمل جميع المعاني أم يتناول بعضها مقصوداً و بقيّة المعاني تكون من توابعه و لوازمه و لسنا نقصد في هذا الكتاب شرح موضوعات اللّغات فليس ذلك من علم طريق الآخرة في شيء .

(بيان كشف الغطاء عن الشكر في حق الله سبحانه)

لعلّه يخطر ببالك أنّ الشكر إنّما يعقل في حقّ منعم هو صاحب حظّ في الشكر فإنّا نشكر الملوك إمّا بالثناء ليزيد محلّهم في القلوب و يظهر كرمهم عند الناس فيزيد به صيتهم وجاههم ، أو بالخدمة الّتي هي إعانة لهم على بعض أغراضهم أو بالمثول بين أيديهم في صورة الخدم و ذلك تكثير لسوادهم و سبب لزيادة جاههم فلا يكونون شاكرين لهم إلّا بشيء من ذلك وهذا محال في حقّ الله تعالى من وجهين: أحدهما أنّ الله منزّه عن الحظوظ و الأغراض ، مقدّس عن الحاجة إلى الخدمة و الإعانة وعن نشر الجاه والحشمة بالثّناء و الإطراء ، وعن تكثير سواد الخدم بالمثول بين يديه ركّعاً سجّداً فشكرنا إيّاه بما لا حظّ له فيه يضاهي شكرنا الملك المنعم علينا بأن ننام في بيوتنا أو نسجد أو نركع إذ لا حظّ للملك فيه وهو غائب لا علم له . ولا حظّ لله تعالى في أفعالنا كلّها . الوجه الثاني أنّ جميع ما نتعاطاه باختيارنا فهو نعمة اُخرى علينا من نعم الله إذ جوارحنا و قدرتنا و إرادتنا و داعيتنا و سائر الاُمور الّتي هي أسباب حركتنا و نفس حركتنا من خلق الله تعالى و نعمته فكيف نشكر نعمته بنعمته ، و لو أعطانا الملك مركوباً فأخذنا مركوباً آخر له و ركبناه أو أعطانا مركوباً آخر لم يكن الثاني شكراً للأوّل منّا ، بل كان الثّاني يحتاج إلى شكر كما يحتاج الأوّل ، ثمّ لا يمكن شكر الشكر إلّا بنعمة اُخرى فيؤدّي إلى أن يكون الشكر محالاً في حقّ الله تعالى من هذين الوجهين ولسنا نشكّ في الأمرين جميعاً والشرع قد ورد به فكيف السبيل إلى الجمع ، فاعلم أنّ هذا الخاطر قد خطر لداود عليه السلام و كذلك لموسى عليه السلام فقال : يا ربّ كيف أشكرك و أنا لا أستطيع أن أشكرك إلّا بنعمة ثانية من نعمك ؟ و في لفظ آخر : و شكري لك نعمة اُخرى منك توجب عليّ

الشكر لك ؟ فأوحى الله تعالى إليه إذا عرفت هذا فقد شكرتني . و في خبر آخر إذا عرفت أنّ النّعم منّي رضيت منك بذلك شكراً .

أقول : و هذا مرويٌّ في الكافي عن الصّادق عليه السلام أيضاً [١] . و فيه عنه عليه السلام قال : « من أنعم الله عليه بنعمة فعرفها بقلبه فقد أدّى شكرها » [٢].

و عن الكاظم عليه السلام « من حمدالله على النّعمة فقد شكره ، والحمد أفضل من تلك النّعمة » [٣] .

قال أبوحامد : فإن قلت : فقد فهمت السّؤال وفهمي قاصر عن إدراك معنى ما أوحى إليهم و إنّي أعلم استحالة الشكر لله فأمّا كون العلم باستحالة الشّكر شكراً فلاأفهمه فإنّ هذا العلم أيضاً نعمة منه فكيف صارشكراً وكأنّ الحاصل يرجع إلى أنّ من لم يشكر فقد شكر و إنّ قبول الخلعة الثانية من الملك شكر للخلعة الأُولى و الفهم قاصرٌ عن درك السرّ فيه فإن أمكن تعريف ذلك بمثال فهو مهمٌ في نفسه . فاعلم أنّ هذا قرع باب من أبواب المعارف و هي أعلى من علوم المعاملة ولكنّا نشير منها إلى ملامح و نقول : ههنا نظران نظر بعين التّوحيد المحض و هذا النّظر يعرفك قطعاً أنّه الشاكر و أنّه المشكور و أنّه المحبّ و أنّه المحبوب و هذا نظر من قد عرف أنّه ليس في الوجود غيره وأنّ كلّ شيء هالك إلّا وجهه وأنّ ذلك صدق في كلّ حال أزلاً و أبداً لأنّ الغير هو الّذي يتصوّر أن يكون له بنفسه قوام ومثل هذا الغير الّذي يتصوّر فلا وجود له بل هو محال أن يوجد إذ الموجود المحقّق هو القائم بنفسه و ما ليس له بنفسه قوام فليس له بنفسه وجود بل هو قائم بغيره فهو موجود بغيره ، فإن اعتبر ذاته و لم يلتفت إلى غيره لم يكن له وجود البتّة وإنّما الموجود هو القائم بنفسه والقائم بنفسه هو الّذي لوقدّرعدم غيره بقي موجوداً فإن كان مع قيامه بنفسه يقوم بوجوده وجود غيره فهوقيّوم ولا قيّوم إلّا واحد ولايتصوّر

(١) المصدر ج ٢ ص ٩٨ تحت رقم ٢٧ .

(٢) المصدر ج ٢ ص ٩٦ تحت رقم ١٥ .

(٣) المصدر ج ٢ ص ٩٦ تحت رقم ١٣ .

أن يكون غير ذلك فإذاً ليس في الوجود غير الحيّ القيّوم و هو الواحد الصمد فإذا نظرت من هذا المقام علمت أنّ الكلّ منه مصدره و إليه مرجعه فهو الشاكر و هو المشكور و هو المحبّ و هو المحبوب.

و من ههنا نظر حبيب بن أبي حبيب حيث قرأ قوله تعالى: «إنّا وجدناه صابراً نعم العبد إنّه أوّاب»[1] فقال: واعجباه أعطى وأثنى. أشار إلى أنّه إذا أثنى على إعطائه فعلى نفسه أثنى فهو المثني و هو المثنى عليه. و من ههنا نظر الشيخ أبو سعيد الميهني حيث قرء بين يديه «يحبّهم و يحبّونه» فقال: لعمري يحبّهم ودعه يحبّهم فبحقّ يحبّهم لأنّه إنّما يحبّ نفسه. أشار به إلى أنّه المحبّ و أنّه المحبوب، و هذه رتبة عالية لا تفهمها إلّا بمثال على حدّ عقلك ولا يخفى عليك أنّ المصنّف إذا أحبّ تصنيفه فقد أحبّ نفسه والصانع إذا أحبّ صنعته فقد أحبّ نفسه والوالد إذا أحبّ ولده من حيث أنّه ولده فقد أحبّ نفسه، و كلّ ما في الوجود سوى الله فهو تصنيف الله و صنعته فإن أحبّه فما أحبّ إلّا نفسه و إذا لم يحبّ إلّا نفسه فبحقّ أحبّ ما أحبّ، وهذا كلّه نظر بعين التّوحيد، و تعبّر الصوفيّة عن هذه الحالة بفناء النفس أي فنى عن نفسه و عن غير الله ولم ير إلّا الله فمن لم يفهم هذا ينكر عليهم ويقول: كيف فنى وطول ظلّه أربعة أذرع؟ ولعلّه يأكل في كلّ يوم أرطالاً من الخبز فيضحك عليهم الجهّال لجهلهم بمعاني كلامهم، وضرورة قول العارفين أن يكونوا ضحكة للجاهلين وإليه الإشارة بقوله تعالى: «إنّ الّذين أجرموا كانوا من الّذين آمنوا يضحكون ۞ و إذا مرّوا بهم يتغامزون ۞ و إذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين ۞ وإذا رأوهم قالوا إنّ هؤلاء لضالّون ۞ وما ارسلوا عليهم حافظين»[2] ثمّ بيّن إن ضحك العارفين عليهم غداً أعظم إذ قال: «فاليوم الّذين آمنوا من الكفّار يضحكون ۞ على الآرائك ينظرون»[3] و كذلك امّة نوح كانوا يضحكون عليه عند اشتغاله بعمل السّفينة فقال: «إن تسخروا منّا فإنّا نسخر منكم كما تسخرون»

(١) ص: ٤٤.

(٢) المطففين: ٣٠ الى ٣٤. (٣) المطففين: ٣٥ و ٣٦.

فهذا أحد النظرين .

النظر الثاني نظر من لم يبلغ إلى مقام الفناء عن نفسه و هؤلاء قسمان قسم لم يثبتوا إلّا وجود أنفسهم و أنكروا أن يكون لهم ربٌّ يعبد و هؤلاء هم العميان المنكوسون و عماهم في كلتي العينين لأنّهم نفوا ما هو الثابت تحقيقاً و هو القيّوم الّذي هو قائم بنفسه وقائم على كلّ نفس بما كسبت و كلّ قائم فقائم به ولم يقتصروا على هذا حتّى أثبتوا أنفسهم ولو عرفوا لعلموا أنّهم من حيث هم هم لاثبات لهم ولا وجود لهم و إنّما وجودهم من حيث اُوجدوا لا من حيث وجدوا ، و فرق بين الموجود وبين الموجد ، وليس في الوجود إلّا موجود واحد و موجد ، فالموجود حقٌّ والموجد باطلٌ من حيث هو هو ، و الموجود قائم و قيّوم ، والموجد هالك و فان ، فإذا كان كلٌّ من عليها فان فلا يبقى إلّا وجه ربّك ذو الجلال والإكرام .

الفريق الثاني ليس بهم عمى ولكنّ بهم عور لأنّهم يبصرون بإحدى العينين وجود الموجود الحقّ فلا ينكرونه و العين الاُخرى إن تمّ عماها لم يبصر بها فناء غير الموجود الحقّ فأثبت موجوداً آخر مع الله تعالى وهذا مشرك تحقيقاً كما كان الّذي قبله جاحداً تحقيقاً فإن جاوز حدّ العمى إلى العمش أدرك تفاوتاً بين الموجودين فأثبت عبداً و ربّاً فبهذا القدر من إثبات التفاوت والنقص من الموجود الآخر دخل في حدّ التوحيد ، ثمّ إن كحل بصره بما يزيد في أنواره فيقلّ عمشه وبقدر ما يزيد في بصره يظهر له من نقصان ما أثبته سوى الله فإن بقي في سلوكه كذلك ، فلايزال يفضي به النقصان إلى المحو فينمحي عن رؤية ما سوى الله فلا يرى إلّا الله فيكون قد بلغ كمال التوحيد و حيث أدرك نقصاً في وجود ما سوى الله دخل في أوائل التوحيد وبينهما درجات لاتحصى فبهذا تتفاوت درجات الموحّدين ، و كتب الله تعالى المنزلة على ألسنة رسله هي الكحل الّذي يحصل به أنوار الأبصار ، و الأنبياء هم الكحّالون وقد جاؤوا داعين إلى التوحيد المحض وترجمته قول لا إله إلّا الله ومعناه أن لايرى إلّا الواحد الحقّ ، والواصلون إلى كمال التوحيد هم الأقلّون والجاحدون والمشركون أيضاً هم قليلون و هم على الطرف الأقصى المقابل لطرف التوحيد إذ

عبدة الأوثان قالوا : «ما نعبدهم إلّا ليقرّبونا إلى الله زلفى» فكانوا داخلين في أوائل أبواب التوحيد دخولاً ضعيفاً والمتوسّطون هم الأكثرون و فيهم من تنفتح بصيرته في بعض الأحوال فتلوح له حقائق التوحيد ، ولكن كالبرق الخاطف لايثبت وفيهم من يلوح له ذلك ويثبت زماناً ولكن لايدوم والدّوام فيه عزيز .

لكلٍّ إلى شأو العلى حركات ✿ و لكن عزيز في الرّجال ثبات

و لمّا أمر الله تعالى نبيّه صلّى الله عليه وآله بطلب القرب فقيل له : «واسجدواقترب»[1] قال في سجوده «أعوذ بعفوك من عقابك ، و أعوذ برضاك من سخطك و أعوذ بك منك ، لا اُحصي ثناءً عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك »[2] فقوله : «أعوذ بعفوك من عقابك» كلام عن مشاهدة فعل الله فقطّ فكأنّه لم ير إلّا الله و أفعاله فاستعاذ بفعله من فعله ، ثمّ اقترب ففنى عن مشاهدة الأفعال و ترقّى إلى مصادر الأفعال و هي الصفات فقال : «أعوذ برضاك من سخطك »[3] و هما صفتان ثمّ رأى ذلك نقصاناً في التوحيد فاقترب و رقى من مقام مشاهدة الصفات إلى مشاهدة الذّات فقال : أعوذ بك منك وهذا فرار منه إليه من غير رؤية فعل و صفة ولكنّه رأى نفسه فارّاً منه إليه ومستعيذاً و مثنياً ففنى عن مشاهدة نفسه إذ رأى ذلك نقصاناً واقترب فقال : «أنت كما أثنيت على نفسك لا اُحصي ثناء عليك» فقوله: لا اُحصي» خبر عن فناء نفسه وخروجه عن مشاهدته و قوله : «أنت كما أثنيت على نفسك » بيان أنّه المثني والمثنى عليه وأنّ الكلّ منه بدا وإليه يعود ، وأنّ كلّ شيء هالك إلّا وجهه فكان أوّل مقامه نهاية مقامات الموحّدين و هو أن لا يرى إلّا الله وأفعاله ، فيستعيذ بفعل من فعل فانظر إلى ما ذا انتهت نهايته إذا انتهى إلى الواحد الحقّ حتّى ارتفع من نظره ومشاهدته سوى الذّات الحقّ ، ولقد كان عليه السلام لايرقى من رتبة إلى اُخرى

---

(١) العلق : ١٩ . (٢) رواه مالك في الموطأ ج ١ ص ١٦٧ من حديث عائشة . و فيه «أعوذ برضاك عن سخطك و بمعافاتك من عقوبتك » و كذا رواه مسلم و غيره و قد تقدم . (٣) عرفت أن هذه الجملة في الحديث مقدم على الجملة الاولى . فلا يستقيم ما قاله أبو حامد إلا على رواية النسائي في السنن ج ٨ ص ٢٨٤ لانه روى الاستعاذات فقط كما في المتن دون قوله : «لا احصى ثناء - الخ - » .

إلّا و يرى الأولى بعداً بالإضافة إلى الثانية، فكان يستغفر الله من الأولى و يرى ذلك نقصاً في سلوكه وتقصيراً في مقامه، وإليه الإشارة بقوله صلّى الله عليه وآله: «إنّه ليغان على قلبي حتّى استغفر الله في اليوم و اللّيلة سبعين مرّة» [١] فكان ذلك لترقّيه إلى سبعين مقاماً بعضها بعد البعض و أوائلها و إن كان مجاوزاً أقصى غايات الخلق ولكن كان نقصاناً بالإضافة إلى أواخرها فكان استغفاره لذلك، ولمّا قالت عائشة: أليس قد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك و ما تأخّر فما هذا البكاء في السجود؟ و ما هذا الجهد الشديد؟ قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً» [٢] معناه أفلا أكون طالباً للمزيد في المقامات فإنّ الشكر سبب الزّيادة حيث قال تعالى: «لئن شكرتم لأزيدنّكم» [٣] و إذ تغلغلنا في بحار المكاشفة فلنقبض العنان و لنرجع إلى ما يليق بعلوم المعاملة فنقول: الأنبياء بعثوا لدعوة الخلق إلى كمال التوحيد الّذي وصفناه ولكن بينهم وبين الوصول إليه مسافة بعيدة وعقبات شديدة، و إنّما الشرع كلّه تعريف طريق سلوك تلك المسافة وقطع تلك العقبات وعند ذلك يكون النظر عن مشاهدة اُخرى و مقام آخر فيظهر في ذلك المقام بالإضافة إلى تلك المشاهدة الشكر و الشاكر و المشكور ولايعرف ذلك إلّا بمثال، فأقول: يمكنك أن تفهم أنّ ملكاً من الملوك أرسل إلى عبد قد بعد منه مركوباً وملبوساً ونقداً لأجل زاده في الطريق حتّى يقطع به مسافة البعد و يقرب من حضرة الملك ثمّ يكون له حالتان إحداهما أن يكون قصده من وصول العبد إلى حضرته أن يقوم ببعض مهمّاته ويكون له عناية في خدمته، و الثانية أن لا يكون للملك حظّ في العبد ولا حاجة به إليه بل حضوره لا يزيد في ملكه لأنّه لا يقوي على القيام بخدمة تغني فيه غناء وغيبته لاتنقص من ملكه فيكون قصده من الإنعام عليه بالمركوب و الزّاد أن يحظي العبد بالقرب منه وينال سعادة حضرته لينتفع هو في نفسه لا لينتفع الملك به و بانتفاعه فمنزل العبد من الله تعالى في

(١) تقدم غير مرة.

(٢) تقدم من طريق الخاصة والعامة آنفا.

(٣) ابراهيم: ٧.

المنزلة الثّانية لا في المنزلة الأُولى فإنّ الأُولى محالٌ على الله تعالى و الثّانية غير محال .

ثمّ اعلم أنّ العبد لا يكون شاكراً في الحالة الأُولى بمجرّد الرّكوب و الوصول إلى حضرته ما لم يقم بخدمته الّتي أرادها الملك منه ، و أمّا في الحالة الثانية فلا يحتاج إلى الخدمة أصلاً و مع ذلك يتصوّر أن يكون شاكراً و كافراً و يكون شكره بأن يستعمل ما أنفذ إليه مولاه فيما أحبّه لأجله لا لأجل نفسه ، و كفره أن لا يستعمل ذلك فيه بأن يعطّله أو يستعمله فيما يزيد في بعده منه ، فمهما لبس العبد الثوب وركب المركوب ولم ينفق الزّاد إلّا في الطريق فقد شكر مولاه إذا استعمل نعمته في محبّته أي فيما أحبّه لعبده لا لنفسه ، وإن ركبه و استدبر حضرته وأخذ يبعد منه فقد كفر نعمته أي استعملها فيما كرهه مولاه لعبده لا لنفسه ، و إن جلس ولم يركب لا في طلب القرب ولا في طلب البعد فقد كفر أيضاً نعمته إذ أهملها وعطّلها ، وإن كان هذا دون ما لو بَعُد منه ، فكذلك خلق الله سبحانه الخلق وهم في ابتداء فطرتهم يحتاجون إلى استعمال الشهوات لتكمل بها أبدانهم فيبعدون بها عن حضرته وإنّما سعادتهم في القرب منها فأعدّ لهم من النعم ما يقدرون على استعماله في نيل درجة القرب ، و عن بعدهم و قربهم عبّر الله تعالى إذ قال : « لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ۞ ثمّ رددناه أسفل سافلين ۞ إلّا الّذين آمنوا - الآية - »[1] فإذن نعم الله آلات يترقّى العبد بها عن أسفل السافلين خلقها الله تعالى لأجل العبد حتّى ينال بها سعادة القرب والله غنيّ عنه قرب أو بعد و العبد فيها بين أن يستعملها في الطاعة فيكون قد شكر لموافقة محبّة مولاه وبين أن يستعملها في معصيته فيكون قد كفر لاقتحامه ما يكرهه مولاه ولا يرضاه له ، فإنّ الله لا يرضى لعباده الكفر و المعصية ، و إن عطّلها ولم يستعملها في طاعة و لا معصية فهو أيضاً كفران للنعمة بالتضييع ، و كلّ ما خلق في الدّنيا إنّما خلق آلة للعبد ليتوصّل به إلى سعادة الآخرة و نيل القرب من الله تعالى ، فكلّ مطيع فهو بقدر طاعته شاكر نعمة الله في الأسباب

(١) التين : ٥ و ٦ و ٧ .

الّتي استعملها في الطاعة ، و كلّ كسلان ترك الاستعمال أو عاص استعمل في طريق البعد فهو كافر جار في غير محبّة الله ، فالمعصية و الطاعة يشملهما المشيئة ولكن لا يشملهما المحبّة والكراهة ، بل ربّ مراد محبوب و ربّ مراد مكروه ، و وراء بيان هذه الدّقيقة سرّ القدر الّذي منع من إفشائه ، و قد انحلّ بهذا الإشكال الأوّل وهو أنّه إذا لم يكن للمشكور حظّ فكيف يكون الشكر ؟ وبهذا أيضاً ينحلّ الاشكال الثاني ، فإنّا لم نعن بالشكر إلّا انصراف نعمة الله في جهة محبّة الله ، فإذا انصرفت النعمة في جهة المحبّة بفعل الله تعالى فقد حصل المراد ، و فعلك عطاء من الله و من حيث أنت محلّه فقد أثنى عليك وثناؤه نعمة اُخرى منه إليك ، فهو الّذي أعطى وهو الّذي أثنى و صار أحد فعليه سبباً لانصراف فعله الثاني إلى جهة محبّته ، فله الشكر على كلّ حال و أنت موصوف بأنّك شاكر بمعنى أنّك محلّ المعنى الّذي الشكر عبارة عنه ، لا بمعنى أنّك موجد له ، كما أنّك موصوف بأنّك عارف وعالم لا بمعنى أنّك خالق العلم وموجده ولكن بمعنى أنّك محلّ له ، و قد وجد بالقدرة الأزليّة فيك فوصفك بأنّك شاكر إثبات شيئيّة لك و أنت شيء إذ جعلك خالق الأشياء شيئاً ، و إنّما أنت لا شيء إذ كنت أنت ظانّاً لنفسك شيئاً من ذاتك فأمّا باعتبار النظر إلى الّذي جعل الأشياء شيئاً فأنت شيء إذ جعلك شيئاً فإن قطع النظر عن جعله كنت لا شيء تحقيقاً ، وإلى هذا أشار عليه السلام حيث قال : «اعملوا فكلّ ميسّر لما خلق له» (١) لمّا قيل له : ففيم العمل إذا كانت الأشياء قد فرغ عنها من قبل فبيّن أنّ الخلق مجاري قدرة الله ومحلّ أفعاله و إن كانوا هم أيضاً من أفعاله ولكن بعض أفعاله محلّ للبعض وقوله : «اعملوا» و إن كان جارياً على لسان الرسول صلى الله عليه وآله فهو فعل من أفعاله و هو سبب لعلم الخلق بأنّ العمل نافع و عملهم فعل من أفعال الله والعلم سبب لانبعاث داعية جازمة إلى الحركة و الطاعة وانبعاث الدّاعية أيضاً من أفعال الله تعالى وهو سبب لحركة الأعضاء وهي أيضاً من أفعال الله تعالى ولكن بعض أفعاله

(١) متفق عليه من حديث علي عليه السلام وعمران بن حصين ورواه الطبراني من حديث عمران وابن عباس بسند صحيح كما في الجامع الصغير .

سبب للبعض أي الأوّل شرط للثاني كما كان خلق الجسم سبباً لخلق العرض إذ لايخلق العرض قبله ، وخلق الحياة شرط لخلق العلم وخلق العلم شرط لخلق الإرادة و الكلّ من أفعال الله تعالى و بعضها سبب للبعض أي هي شرط ، و معنى كونه شرطاً أنّه لايستعدّ لقبول فعل الحياة إلّا جوهر ولا يستعدّ لقبول العلم إلّا ذو حياة ولا لقبول الإرادة إلّا ذو علم ، فيكون بعض أفعاله سبباً للبعض بهذا المعنى لا بمعنى أنّ بعض أفعاله موجد لغيره بل ممهّد شرط الحصول لغيره و هذا إذا حقّق ارتقى إلى درجة التوحيد الّذي ذكرناه .

فإن قلت : فلم قال الله تعالى : «اعملوا» و إلّا فأنتم معاقبون و مذمومون على العصيان و ما إلينا شيء فكيف نذمّ و إنّما الكلّ إلى الله ؟ فاعلم أنّ هذا القول من الله تعالى سببٌ لحصول اعتقاد فينا و الاعتقاد سببٌ لهيجان الخوف وهيجان الخوف سببٌ لترك الشهوات و التجافي عن دار الغرور و ذلك سببٌ للوصول إلى جوار الله و الله تعالى مسبّب الأسباب و هو مرتّبها فمن سبق له في الأزل السعادة يسّر له هذه الأسباب حتّى يقوده بسلسلتها إلى الجنّة ويعبّر عن مثله بأنّ كلاًّ ميسّر لما خلق له ، و من لم تسبق له من الله الحسنى بعُد عن سماع كلام الله و كلام رسوله و كلام العلماء ، وإذا لم يسمع لم يعلم ، و إذا لم يعلم لم يخف ، و إذا لم يخف لم يترك الرّكون إلى الدّنيا ، فإذا لم يترك الرّكون إلى الدّنيا بقي في حزب الشيطان وإنّ جهنّم لموعدهم أجمعين ، فإذا عرفت هذا تعجّبت من قوم يقادون إلى الجنّة بالسلاسل فما من موفّق إلّا و هو مقود إلى الجنّة بسلاسل الأسباب و هو تسليط العلم والخوف عليه ، و ما من مخذول إلّا وهو مقود إلى النار بالسلاسل وهو تسليط الغفلة و الأمن و الغرور عليه فالمتّقون يساقون إلى الجنّة قهراً و المجرمون يقادون إلى النار قهراً ولا قاهر إلّا الله الواحد القهّار ولاقادر إلّا الملك الجبّار ، وإذا انكشف الغطاء عن أعين الغافلين فشاهدوا الأمر كذلك سمعوا عندذلك نداء المنادي «لمن الملك اليوم لله الواحد القهّار » و لقدكان الملك لله الواحد القهّار كلّ يوم لا ذلك اليوم على الخصوص ، ولكنّ الغافلين لايسمعون هذا النداء إلّا ذلك اليوم فهو بناء على عمى

يتجدّد للغافلين من كشف الأحوال حيث لاينفعهم الكشف فنعوذ بالله الحليم الكريم من الجهل و العمى فإنّه أصل أسباب الهلاك.

☼(بيان تمييز ما يحبه الله تعالى عما يكرهه)☼

إعلم أنّ فعل الشكر و ترك الكفران لا يتمّ إلّا بمعرفة ما يحبّه الله إذ معنى الشكر استعمال نعمة في محابّه و معنى الكفر نقيض ذلك إمّا بترك الاستعمال أو باستعماله في مكارهه ولتمييز ما يحبّه الله عمّا يكرهه مدركان أحدهما السمع ومستنده الآيات والأخبار والثاني بصيرة القلب وهو النظر بعين الاعتبار و هذا الأخير عسير و هو لأجل ذلك عزيز فلذلك أرسل الله الرّسل و سهّل بهم الطريق على الخلق و معرفة ذلك تبتني على معرفة جميع أحكام الشرع في أفعال العباد فمن لايطّلع على حكم الشرع في جميع أفعاله لم يمكنه القيام بحقّ الشكر أصلاً، و أمّا الثاني و هو النظر بعين الاعتبار فهو إدراك حكمة الله تعالى في كلّ موجود خلقه إذ ما خلق شيئاً في العالم إلّا وفيه حكمة و تحت الحكمة مقصود وذلك المقصود هو المحبوب و تلك الحِكم منقسمة إلى جليّة و خفيّة أمّا الجليّة فكالعلم بأنّ من الحِكم في خلق الشمس أن يحصل بها الفرق بين اللّيل والنهار فيكون النهار معاشاً و اللّيل لباساً، فتتيسّر الحركة عند الإبصار و السكون عند الاستتار، فهذا من جملة حِكم الشمس لا كلّ الحِكم فيها، بل فيها حِكم اُخرى كثيرة دقيقة. و كذلك معرفة الحكمة في الغيم ونزول الأمطار و ذلك لانشقاق الأرض بأنواع النبات مطعماً للخلق و مرعى للانعام و قد انطوى القرآن على جملة من الحِكم الجليّة الّتي تحملها أفهام الخلق دون الدّقيق الّذي يقصرون عن فهمه إذ قال تعالى: «إنّا صببنا الماء صبّاً ☼ ثمّ شققنا الأرض شقّاً ☼ فأنبتنا فيها حبّاً وعنباً- الآية-»[1] و إمّا الحكمة في سائر الكواكب السيّارة منها والثوابت فخفيّة لايطّلع عليها كافّة الخلق والقدر الّذي يحتمله فهم الخلق أنّها زينة السماء ليستلذّ العين بالنظر إليها و أشار إليه قوله تعالى: «إنّا زيّنّا السماء الدّنيا بزينة الكواكب»[2] فجميع أجزاء العالم سماؤه و كواكبه وبحاره

(١) عبس: ٢٥ الى ٢٩. (٢) الصافات: ٦.

و رياحه وجباله ومعادنه ونباته وحيواناته وأعضاء حيواناته لاتخلوذرّة من ذرّاته عن حِكم كثيرة من حكمة واحدة إلى عشرة إلى ألف إلى عشرة آلاف و كذلك أعضاء الحيوان تنقسم إلى ما نعرف حكمتها كالعلم بأنّ العين للإبصار لا للبطش، واليد للبطش لا للمشي، والرّجل للمشي لا للشمّ.

وأمّا الأعضاء الباطنة من الأمعاء و المرارة و الكلية والكبد و آحاد العروق و الأعصاب و العضلات و ما فيها من التجاويف و الالتفاف و الاشتباك والانحراف والدّقّة و الغلظ و سائر الصفات فلا يعرف وجه الحكمة فيها كافّة الناس و الّذين يعرفونها لايعرفون منها إلّا قدراً يسيراً بالإضافة إلى مافي علم الله «و ما اُوتيتم من العلم إلّا قليلاً» فإذن كلّ من استعمل شيئاً في جهة غير الجهة الّتي خلق لها و لا على الوجه الّذي اُريد به فقد كفر نعمة الله فيه، فمن ضرب غيره بيده فقد كفر نعمة الله في اليد إذ خلقت له اليد ليدفع بها عن نفسه ما يهلكه ويأخذ ما ينفعه لا ليهلك بها غيره، و من نظر إلى وجه غير المحرم فقد كفر نعمة العين ونعمة الشمس إذالإبصار يتمّ بهما و إنّما خلقتا ليبصر بهما ما ينفعه في دينه و دنياه و يتّقي بهما ما يضرّه فيهمافقد استعملهما في غيرما اُريدتا به، وهذا لأنّ المراد من خلق الأرض والسماء وخلق الخلق و خلق الدّنيا و أسبابها أن يستعين الخلق بها على الوصول إلى الله ولا وصول إليه إلّا بمحبّته و الاُنس به في الدّنيا و التجافي عن غرورالدّنيا، و لا اُنس إلّا بدوام الذكر، ولا محبّة إلّا بالمعرفةالحاصلة بدوامالفكر، ولايمكن الدّوام على الذّكر و الفكر إلّا ببقاء البدن، و لا يبقي البدن إلّا بالغذاء، ولا يتمّ الغذاء إلّا بالأرض و الماء و الهواء، ولا يتمّ ذلك إلّا بخلق السماء و الأرض و خلق سائر الأعضاء ظاهراً و باطناً، فكلّ ذلك لأجل البدن و البدن مطيّة النفس، والرّاجع إلى الله هي النفس المطمئنّة بطول العبادة و المعرفة، و لذلك قال تعالى: «و ما خلقت الجنّ و الإنس إلّا ليعبدون»(1) فكلّ من استعمل شيئاً في غير طاعة الله فقد كفر نعمة الله في جميع الأسباب الّتي لابدّ منها لإقدامه على تلك المعصية، و لنذكر

(١) الذاريات: ٥٦.

مثالاً و أحداً للحكم الخفيّة الّتي ليست في غاية الخفاء حتّى تعتبر بها و تعلم طريقة الشكر و الكفران على النعم.

فنقول: من نعم الله تعالى خلق الدّراهم و الدّنانير و بهما يتمّ قوام الدّنيا وهما حجران لا منفعة في أعيانهما ولكن يضطرّ الخلق إليهما من حيث أنّ كلّ إنسان محتاج إلى أعيان كثيرة في مطعمه وملبسه وسائر حاجاته و قد يعجز عمّا يحتاج إليه ويملك ما يستغني عنه كمن يملك الزعفران مثلاً و هو محتاج إلى جمل يركبه و من يملك الجمل ربّما يستغني عنه و يحتاج إلى الزعفران فلابدّ بينهما من معاوضة و لابدّ في مقدار العوض من تقدير إذ لا يبذل صاحب الجمل جمله بكلّ مقدار من الزّعفران و لا مناسبة بين الزّعفران و الجمل حتّى يقال يعطي منه مثله في الوزن أو الصورة ، و كذا من يشتري داراً بثياب أو عبداً بخفّ أو دقيقاً بحمار فهذه الأشياء لا تناسب فيها فلا يدري أنّ الجمل كم يسوي بالزّعفران فتتعذّر المعاملات جدّاً فافتقرت هذه الأعيان المتنافرة المتباعدة إلى متوسّط بينها يحكم فيها بحكم عدل فيعرف من كلّ واحد رتبته و منزلته حتّى إذا تقدّرت المنازل و ترتّبت الرّتب علم بعد ذلك المساوي من غير المساوي ، فخلق الله تعالى الدّراهم و الدّنانير حاكمين و متوسّطين بين سائر الأموال حتّى تقدّر الأموال بهما ، فيقال: هذا الجمل يساوي مائة دينار ، وهذا القدر من الزّعفران يساوي مائة ، فهما من حيث أنّهما مساويان لشيء واحد إذن يتساويان وإنّما أمكن التعديل بالنقدين إذ لا غرض في أعيانهما و لو كان في أعيانهما غرض ربّما اقتضى خصوص ذلك الغرض في حقّ صاحب الغرض ترجيحاً ولم يقتض ذلك في حقّ من لا غرض له فلا ينتظم الأمر فإذاً خلقهما الله تعالى ليتداولهما الأيدي و يكونا حاكمين بين الأموال بالعدل ولحكمة اُخرى وهي التوسّل بهما إلى سائر الأشياء لأنّهما عزيزان في أنفسها ولا غرض في أعيانهما ونسبتهما إلى سائر الأموال نسبة واحدة فمن ملكهما فكأنّه ملك كلّ شيء لا كمن ملك ثوباً فإنّه لم يملك إلّا الثوب ، فلو احتاج إلى طعام ربّما لم يرغب صاحب الطعام في الثوب لأنّ غرضه في دابّة فاحتيج إلى شيء

هو في صورته كأنّه ليس بشيء، و هو في معناه كأنّه كلّ الأشياء، و الشيء إنّما تستوي نسبته إلى المختلفات إذا لم يكن له صورة خاصّة تقيّدها بخصوصها كالمرآة لا لون لها وتحكي كلّ لون، فكذلك النقد لا غرض فيه وهو وسيلة إلى كلّ غرض، وكالحرف لا معنى له في نفسه و تظهر به المعاني في غيره، فهذه هي الحكمة الثانية، وفيهما أيضاً حِكم يطول ذكرها فكلّ من عمل فيهما عملاً لا يليق بالحكم بل يخالف الغرض المقصود بالحكم فقد كفر نعمة الله تعالى فيهما، فإذن من كنزهما فقد ظلمهما وأبطل الحكمة فيهما، وكان كمن حبس حاكم المسلمين في سجن يمتنع عليه الحكم بسببه لأنّه إذا كنز فقد ضيّع الحكم ولا يحصل الغرض المقصود به وما خلقت الدّراهم والدّنانير لزيد خاصّة ولا لعمرو خاصّة، إذ لا غرض للآحاد في أعيانهما فإنّهما حجران وإنّما خلقا لتتداولهما الأيدي فيكونا حاكمين بين الناس و علامة معرفة للمقادير مقوّمة للمراتب فأخبر الله تعالى الّذين يعجزون عن قراءة الأسطر الإلهيّة المكتوبة على صفحات الموجودات بخطّ إلّهي لا حرف فيه ولا صوت، الّذي لا يدرك بعين البصر بل بعين البصيرة أخبر هؤلاء العاجزين بكلام سمعوه من رسول الله صلّى الله عليه وآله حتّى وصل إليهم بواسطة الحرف والصوت المعنى الّذي عجزوا عن إدراكه فقال: «والّذين يكنزون الذهب والفضّة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشّرهم بعذاب أليم(١)» و كلّ من اتّخذ من الدّراهم و الدّنانير آنية من ذهب أو فضّة فقد كفر النعمة، و كان أسوء حالاً ممّن كنز لأنّ مثال هذا مثال من استسخر حاكم البلد في الحياكة و الكنس والأعمال الّتي يقوم بها أخسّاء الناس، والحبس أهون منه، و ذلك أنّ الخزف والحديد والرّصاص و النحّاس تنوب مناب الذّهب و الفضّة في حفظ المايعات عن أن تتبدّد، و إنّما تراد الأواني لحفظ المايعات ولا يكفي الخزف و الحديد في المقصود الّذي اُريد به النقود فمن لم ينكشف له هذا انكشف له بالترجمة الإلهيّة، و قيل له: «من شرب في آنية من ذهب أو فضّة فكأنّما يُجرجِر في بطنه نار

(١) التوبة: ٣٥.

جهنم [١] » و كلّ من عامل معاملة الرّبا على الدّراهم والدّنانير فقد كفر النعمة و ظلم لأنّهما خلقا لغيرهما لا لأنفسهما إذلا غرض في عينهما فإذا اتّجر في عينهما فقد اتّخذهما مقصوداً على خلاف وضع الحكمة إذ طلب النقد لغير ما وضع له ظلم و من معه ثوب ولا نقد معه فقد لا يقدر على أن يشتري به طعاماً و دابّة ، وإذ ربّما لايباع الطعام والدّابة بالثوب فهومعذورفي بيعه بنقدآخر ليحصل النقد فيتوصّل به إلى مقصوده فإنّهماوسيلتان إلى الغير لاغرض في أعيانهما ، وموقعهمامن الأموال كموقع الحرف من الكلام كما قال النحويّون : إنّ الحرف هو الّذي جاء لمعنى في غيره . و كموقع المرآة من الألوان ، فأمّا من معه نقد فلوجازله أن يبيع بالنقد فيتّخذ التعامل على النقد غاية عمله فيبقى النقد مقيّداً عنده و ينزل منزلة المكنوز ، و تقييد الحاكم و البريد الموصل إلى الغير ظلم كما أنّ حبسه ظلم فلا معنى لبيع النقد بالنقد إلّا اتّخاذ النقد مقصوداً للادّخار و هو ظلم .

فإن قلت : فلم جاز بيع أحد النقدين بالآخر ولم جاز بيع الدّرهم بمثله ؟ فاعلم أنّ أحد النقدين يخالف الآخر في مقصود التوصّل إذ قد يتيسّر التوصّل بأحدهما من حيث كثرته كالدّراهم تتفرّق في الحاجات قليلاً قليلاً ، ففي المنع منه ما يشوّش المقصود الخاصّ به و هو تيسّر التوصّل به إلى غيره ، و أمّا بيع الدّرهم بدرهم يماثله فجائز من حيث أنّ ذاك لا يرغب فيه عاقل مهما تساويا ولا يشتغل به تاجر ، فإنّه عبث يجري مجرى وضع الدّرهم على الأرض وأخذه بعينه ونحن لا نخاف

(١) أخرجه مسلم ج ٦ ص ١٣٤ من حديث ام سلمة . و فى النهاية « يجرجر فى بطنه » اى يحدر فيها نار جهنم فجعل الشرب و الجرع جرجرة و هى صوت وقوع الماء فى الجوف قال الزمخشرى : يروى برفع النار و الاكثر النصب . وهذا القول مجاز لان نار جهنم على الحقيقة لاتجرجر فى جوفه والجرجرة صوت البعير عند الضجر ولكنه جعل صوت جرع الانسان للماء فى هذه الاوانى المخصوصة لوقوع النهى عنها و استحقاق العقاب على استعمالها كجرجرة نار جهنم فى بطنه من طريق المجاز ، هذا وجه رفع النار ويكون قد ذكر يجرجر بالياء للفصل بينه وبين النار واما على النصب فالشارب هو الفاعل والنار مفعوله يقال : جرجر فلان الماء اذا جرعه جرعاً متواتراً له صوت ، فالمعنى كانما يجرع نارجهنم انتهى .

على العقلاء بأن يصرفوا أوقاتهم إلى وضع الدرهم على الأرض و أخذه بعينه ، فلا نمنع مما لا تتشوق النفوس إليه إلّا أن يكون أحدهما أجود وذلك أيضاً لا يتصور جريانه إذ صاحب الجيد لا يرضى بمثله من الردي فلا ينتظم العقد وإن طلب زيادة في الردي فذلك مما قد يقصده فلاجرم نمنعه منه ، ونحكم بأن جيدها ورديها سواء لأن الجودة والرداءة ينبغي أن ينظر إليهما فيما يقصد في عينه ، و ما لا غرض في عينه فلا ينبغي أن ينظر إلى مضافات دقيقة في صفاته ، و إنما الّذي ظلم هو الّذي ضرب النقود مختلفة في الجودة و الرداءة حتى صارت مقصودة في أعيانها و حقها أن لا تقصد ، وأمّا إذا باع درهماً بدرهم مثله نسيئة فانّه لم يجز ذلك لأنّه لا يقدم على هذا إلّا مسامح قاصد للإحسان ففي القرض و هو مكرمة مندوحة عنه لتبقى صورة المسامحة فيكون له حمد وأجر ، و المعاوضة لا حمد فيها و لا أجر ، فهو أيضاً ظلم لأنّه إضاعة خصوص المسامحة و إخراجها في معرض المعاوضة .

و كذلك الأطعمة خلقت ليغتذى بها أو يتداوى بها فلا ينبغي أن تصرف عن جهتها فإن فتح باب المعاملة فيها يوجب تقييدها في الأيدي ويؤخّر عنها الأكل الّذي اُريدت له فما خلق الله الطعام إلّا ليؤكل ، والحاجة إلى الأطعمة شديدة فينبغي أن تخرج عن يد المستغني عنها إلى المحتاج ولا يعامل على الأطعمة إلّا مستغن عنها ، إذ من معه طعام فلم لا يأكله إن كان محتاجاً و لم يجعله بضاعة تجارة و إن جعله بضاعة تجارة فليبيعه ممّن يطلبه بعوض غير الطعام يكون محتاجاً إليه ، فأمّا من يطلبه بعين ذلك الطعام فهو أيضاً مستغن عنه ، ولهذا ورد في الشرع لعن المحتكر و ورد فيه من التشديدات ما ذكرناه في كتاب آداب الكسب ، نعم بائع البرّ بالتمر معذور إذ أحدهما لا يسدّ مسدّ الآخر في الغرض وبائع صاع من البرّ بصاع مثله غير معذور ولكنّه عابث فلا يحتاج إلى منع لأنّ النفوس لا تسمح به إلّا عند التفاوت في الجودة و مقابلة الجيّد بمثله من الردي لا يرضى بها صاحب الجيّد ، و أمّا جيّد برديئين فقد يقصد ولكن لمّا كانت الأطعمة من الضروريّات و الجيّد يساوي الردي في أصل الفائدة و يخالفه في وجوه التنعّم أسقط الشرع غرض التنعّم فيما هو القوام فهذه

حكمة الشرع في تحريم الرّبا .

فهذا مثال واحد لحكمة خفيّة من حكم النقدين فينبغي أن يعتبر شكر النعمة و كفرانها بهذا المثال فكلّ ماخلق لحكمة فلا ينبغي أن يصرف عنها ، ولا يعرف هذا إلّا من قدعرف الحكمة و من يؤت الحكمة فقد اُوتي خيراً كثيراً ولكن لا تصادف جواهر الحكم في قلوب هي مزابل الشهوات و ملاعب الشياطين ، بل لا يتذكّر إلّا اُولى الألباب ، و لذلك قال صلّى الله عليه وآله : « لولا أنّ الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء »[١].

و إذا عرفت هذا المثال فقس عليه حركتك و سكونك و نطقك و سكوتك و كلّ فعل صادر منك فإنّه إمّا شكر وإمّا كفران لايتصوّر أن تنفكّ عنهما وبعض ذلك نصفه في لسان الفقه الّذي يناطق به عوام الخلق بالكراهة و بعضه بالحظر و كلّ ذلك عند أرباب القلوب موصوف بالحظر ، فأقول : مثلاً لو استنجيت باليمين فقد كفرت نعمة اليدين إذ خلق الله تعالى لك اليدين وجعل إحديهما أقوى من الاُخرى فاستحقّ الأقوى بمزيد رجحانه في الغالب التشريف و التفضيل إذ تفضيل الناقص عدول عن العدل و الله لايأمر إلّا بالعدل ، ثمّ أحوجك من أعطاك اليدين إلى إعمال بعضها شريف كأخذ المصحف وبعضها خسيس كإزالة النجاسة فإذا أخذت المصحف باليسار و أزلت النجاسة باليمين فقد خصّصت الشريف بما هو خسيس فغضضت من حقّه وظلمته وعدلت عن العدل ، و كذلك إذا بزقت مثلاً في جهة القبلة أواستقبلتها في قضاء الحاجة فقد كفرت نعمة الله في خلق الجهات وخلق سعة العالم لأنّه خلق الجهات ليكون متّسعك في حركاتك ، وقسّم الجهات إلى مالم يشرّفها وإلى ماشرّفها بأن وضع فيها بيتاً إضافة إلى نفسه استمالة لقلبك إليه ليتقيّد به قلبك فيتقيّد بسببه بدنك في تلك الجهة على هيئة الثبات و الوقار إذا عبدت ربّك ، و كذلك انقسمت أفعالك إلى ما هي شريفة كالطاعات وإلى ما هي خسيسة كقضاء الحاجة و رمي البزاق ، فإذا رميت بزاقك إلى جهة القبلة فقدظلمتها و كفرت نعمة الله تعالى

(١) تقدم غير مرة في الصوم وغيره.

عليك بوضع القبلة الّتي بوضعها كمال عبادتك ، و كذلك إذا لبست خفّك فابتدأت باليسرى فقد ظلمت لأنّ الخفّ وقاية الرّجل فللرّجل فيه حظّ و البداية في الحظوظ ينبغي أن يكون بالأشرف فهو العدل و الوفاء بالحكمة ، و نقيضه ظلم و كفران لنعمة الرّجل والخفّ وهذا عند العارفين كبيرة وإن سمّاه الفقيه مكروهاً حتّى أنّ بعضهم كان قد جمع أكراراً من الحنطة و كان يتصدّق بها فسأل عن سببه فقال : لبست المداس مرّة فابتدأت بالرّجل اليسرى سهواً فاُريد أن اُكفّره بالصدقة ، نعم الفقيه لا يقدر على تفخيم الأمر في هذه الاُمور لأنّه مسكين بلي باصلاح العوام الّذين تقرب درجتهم من درجة الأنعام فهم منغمسون في ظلمات أطمّ و أعظم من أن تظهر أمثال هذه الظلمات بالإضافة إليها فقبيح أن يقال : الّذي شرب الخمر و أخذ القدح بيساره فقد تعدّى من وجهين أحدهما الشرب و الآخر الأخذ باليسار و من باع حرّاً في وقت النداء يوم الجمعة فقبيح أن يقال : خالف من وجهين أحدهما بيع الحرّ و الآخر البيع في وقت النداء ، ومن قضى حاجته في محراب المسجد مستدبر القبلة فقبيح أن يذكر تركه الأدب في قضاء الحاجة من حيث أنّه لم يجعل القبلة عن يمينه ، فالمعاصي كلّها ظلمات و بعضها فوق بعض فينمحق بعضها في جنب البعض ، فالسيّد قد يعاقب عبده إذا استعمل سكّينه بغير إذنه ولكن لو قتل بتلك السكّين أعزّ أولاده لم يبق لاستعمال السكّين بغير إذنه حكم و نكاية في نفسه ، فكلّ ما راعاه الأنبياء عليهم السلام و الأوصياء من الآداب و تسامحنا به في الفقه مع العوام فسببه هذه الضرورة و إلّا فكلّ هذه المكاره عدول عن العدل و كفران للنعمة و نقصان عن الدّرجة المبلّغة للعبد إلى درجات القرب ، نعم بعضها يؤثّر في العبد بنقصان القرب و انحطاط المنزلة و بعضها يخرج بالكلّيّة عن حدود القرب إلى عالم البعد الّذي هو مستقرّ الشياطين . و كذلك من كسر غصناً من شجرة من غير حاجة ناجزة مهمّة و من غير غرض صحيح فقد كفر نعمة الله في خلق الأشجار و خلق اليد ، و أمّا اليد فإنّها لم تخلق للعبث بل للطاعة والأعمال المعينة على الطاعة ، وأمّا الشجر فإنّما خلقه الله تعالى و خلق له العروق وساق إليه الماء وخلق فيه قوّة الاغتذاء و النماء

ليبلغ منتهى نشوه فينفع به عباده . فكسره قبل منتهى نشوه لا على وجه ينتفع به عباده مخالفة لمقصود الحكمة و عدول عن العدل ، فإن كان له غرضٌ صحيحٌ فله ذلك إذ الشجر و الحيوان جعل فداءً لأغراض الإنسان فانّهما جميعاً فانيان هالكان ، فإفناء الأحسن في بقاء الأشرف مدّةً مّا أقرب إلى العدل من تضييعهما جميعاً ، و إليه الإشارة بقوله تعالى : « و سخّر لكم ما في السموات و ما في الأرض جميعاً منه » [(١)] نعم إذا كسر ذلك من ملك غيره فهو ظالم أيضاً ، و إن كان محتاجاً لأنّ كلّ شجرة بعينها لاتفي بحاجات عباد الله كلّهم ، بل تفي بحاجة واحد ولو خصّص واحدبها من غير رجحان واختصاص كان ظلماً و صاحب الاختصاص هو الّذي حصل البذر و وضعه في الأرض و ساق إليه الماء و قام بالتعهّد فهو أولى به من غيره فيرجّح جانبه بذلك فإن نبت ذلك في موات لابسعي آدمي اختصّ بمغرسه فلابدّ من طلب اختصاص آخر وهو السبق إلى أخذه فللسابق خاصيّة السبق فالعدل أن يكون هوأولى به ، وعبّر الفقهاء عن هذا الترجيح بالملك وهو مجاز محض إذلاملك إلّا لملك الملوك الّذي له مافي السماوات والأرض ، فكيف يكون العبد مالكاً و هو في نفسه ليس يملك نفسه بل هو ملك غيره ، نعم الخلق عباد الله و الأرض مائدة الله وقد أذن لهم في الأكل من مائدته بقدر حاجتهم كالملك ينصب مائدة لعبيده فمن أخذ لقمة بيمينه و احتوت عليها براجمه فجاء عبدآخر و أراد انتزاعها من يده لم يمكن منه ، لا لأنّ اللّقمة صارت ملكاً له بالأخذ باليد فإنّ اليد و صاحب اليد أيضاً مملوك ، و لكن إذا كانت كلّ لقمة بعينها لاتفي بحاجة كلّ العبيد فالعدل في التخصيص عند حصول ضرب من الترجيح والاختصاص والأخذ اختصاص يتفرّد به العبد فمنع من لايدلى بذلك الاختصاص عن مزاحمته ، فهكذا ينبغي أن نفهم أمر الله في عباده ، ولذلك نقول : من أخذ من أموال الدّنيا أكثر من حاجته و كنزه وأمسكه و في عباد الله من يحتاج إليه فهو ظالمٌ و هو من الّذين يكنزون الذّهب و الفضّة ولا ينفقونها في سبيل الله ، و إنّما سبيل الله طاعته و زاد الخلق في طاعته أموال

---

(١) الجاثية : ١٣ .

الدّنيا إذبها تندفع ضروراتهم و ترتفع حاجاتهم ، نعم لايدخل هذا في حدّ فتاوي الفقه لأنّ مقادير الحاجات خفيّة و النفوس في استشعار الفقر في الاستقبال مختلفة و أواخر الأعمار غير معلومة فتكليف العوام ذلك يجري مجرى تكليف الصّبيان الوقار والتؤدة والسكوت عن كلّ كلام غير مهمّ و هم بحكم نقصانهم لايطيقونه فتركنا الاعتراض عليهم في اللّعب واللّهو وإباحتنا إيّاهم ذلك لايدلّ على أنّ اللّهو واللّعب حقّ ، و كذلك إباحتنا للعوام حفظ الأموال و الاقتصار في الإنفاق على قدر الزكوات لضرورة ماجبلوا عليه من البخل لايدلّ على أنّه غاية الحقّ ، و قد أشار القرآن إليه إذ قال تعالى : « إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا » [1] بل الحقّ الّذي لا كدورة فيه والعدل الّذي لاظلم فيه أن لا يأخذ أحدٌ من عباد الله من مال الله إلّا بقدر زاد الرّاكب ، و كلّ عباد الله ركّاب لمطايا الأبدان إلى حضرة الملك الدّيّان فمن أخذ زيادة عليه ثمّ منعه عن راكب آخر محتاج إليه فهو ظالم تارك للعدول و خارج عن مقصود الحكمة وكافر نعمة الله عليه بالقرآن والرّسول و العقل وسائر الأسباب الّتي بها عرف أنّ ما سوى زاد الراكب وبال عليه في الدّنيا والآخرة ، فمن فهم حكمة الله تعالى في جميع أنواع الموجودات قدر على القيام بوظيفة الشكر و استقصاء ذلك يحتاج إلى مجلّدات ، ثمّ لاتفي إلّا بالقليل و إنّما أوردنا هذا القدر ليعلم علّة الصدق في قوله تعالى : «وقليل من عبادي الشكور » [2] و فرح إبليس لعنه الله بقوله : « ولاتجد أكثرهم شاكرين » [3] فلا يعرف معنى هذه الآية من لم يعرف هذا كلّه و اُموراً اُخر وراء هذا ينقضي الأعمار دون استقصاء مباديها ، فأمّا تفسير الآية و معنى لفظها فيعرف كلّ من يعرف اللّغة و بهذا يتبيّن لك الفرق بين المعنى والتّفسير .

فإن قلت : فقد رجع حاصل هذا الكلام إلى أنّ لله حكمة في كلّ شيء و أنّه جعل بعض أفعال العباد سبباً لتمام تلك الحكمة و بلوغها غاية المراد منها و جعل

---

(١) سورة محمد صلى الله عليه وآله : ٣٧ .

(٢) سبأ : ١٣ . (٣) الاعراف : ١٦ .

بعض أفعالهم مانعاً من تمام الحكمة فكلّ فعل وافق مقتضى الحكمة حتّى انساقت الحكمة إلى غايتها فهو شكر ، و كلّ ما خالف و منع الأسباب من أن تنساق إلى الغاية المرادة بها فهو كفران و هذا كلّه مفهوم ، ولكنّ الاشكال باق و هو أنّ فعل العبد المنقسم إلى ما يتمّم الحكمة و إلى ما يرفعها هو أيضاً من فعل الله تعالى فأين العبد في البين حتّى يكون شاكراً مرّة و كافراً أخرى ؟ .

فاعلم أنّ تمام التحقيق في هذا يستمدّ من تيّار بحر عظيم من علوم المكاشفات ، وقد رمزنا فيما سبق إلى تلويحات بمباديها ونحن الآن نعبّر بعبارة وجيزة عن آخرها و غايتها يفهمها من عرف منطق الطير و يجحدها من عجز عن الايضاع في السّير [١] فضلاً عن أن يجول في جوّ الملكوت جولان الطير ، فنقول : إنّ لله سبحانه في جلاله و كبريائه صفة عنها يصدر الخلق والاختراع و تلك الصّفة أعلى و أجلّ من أن تلمحها عين واضع اللّغة حتّى يعبّر عنها بعبارة تدلّ على كنه جلالها و خصوص حقيقتها فلم يكن في العالم لها عبارة لعلوّ شأنها و انحطاط رتبة واضعي اللّغات عن أن يمتدّ طرفهم إلى مبادي إشراقها فانخفضت عن ذروتها أبصارهم كما تنخفض أبصار الخفافيش عن نور الشمس لا لغموض في نور الشمس ولكن لضعف في أبصار الخفافيش ، فاضطرّ الّذين فتحت أبصارهم لملاحظة جلالها إلى أن يستعيروا من حضيض عالم المتناطقين باللّغات عبارة تفهم من مبادي حقائقها شيئاً ضعيفاً جدّاً ، فاستعاروا لها اسم القدرة فتجاسرنا بسبب استعارتهم على النطق فقلنا : لله صفة هي القدرة ، عنها يصدر الخلق و الاختراع ، ثمّ الخلق ينقسم في الوجود إلى أقسام و خصوص صفات ، و مصدر انقسام هذه الأقسام و اختصاصها بخصوص صفاتها صفة أُخرى استعير لها بمثل الضرورة الّتي سبقت عبارة المشيّة فهي توهم منها أمراً مجملاً عند المتناطقين باللّغات الّتي هي حروف وأصوات المتفاهمين بها و قصور لفظ المشيّة عن الدّلالة على كنه تلك الصفة وحقيقتها كقصور لفظ القدرة ، ثم انقسمت الأفعال الصادرة من القدرة إلى ما ينساق إلى المنتهى الّذي هو غاية حكمتها و إلى ما يقف

(١) أوضع في سيره : أسرع .

دون الغاية ، و كان لكلّ واحد نسبة إلى صفة المشيّة لرجوعها إلى الاختصاصات الّتي بها يتمّ القسمة و الاختلافات ، فاستعير لنسبة البالغ غايته عبارة المحبّة ، و استعير لنسبة الواقف دون غايته عبارة الكراهة ، و قيل : إنّهما جميعاً داخلان في وصف المشيّة ولكنّ لكلّ واحد منهما خاصية اُخرى في النسبة يوهم لفظ المحبّة والكراهة منهما أمراً مجملاً عندطالبي الفهم من الألفاظ واللّغات ، ثمّ انقسم عباده الّذين هم أيضاً من خلقه واختراعه إلى من سبقت له في المشيّة الأزليّة أن يستعمله لاستيقاف حكمته دون غايتها ويكون ذلك قهراً في حقّهم بتسليط الدّواعي والبواعث عليهم ، و إلى من سبقت لهم في الأزل أن يستعملهم لسياقة حكمته إلى غايتها في بعض الاُمور ، فكان لكلّ واحد من الفريقين نسبة إلى المشيّة خاصّة فاستعير لنسبة المستعملين في إتمام الحكمة بهم عبارة الرّضا ، واستعير للّذين استوقف بهم أسباب الحكمة دون غايتها عبارة الغضب ، وظهر على من غضب عليه في الأزل فعل وقفت الحكمة بهدون غايتها فاستعير له الكفران وأردف ذلك بنقمة اللّعن والمذمّة زيادة في النكال وظهر على من ارتضاه في الأزل فعل انساقت بسببه الحكمة إلى غايتها فاستعير له عبارة الشكر وأردف بخلعة الثناء و الإطراء زيادة في الرّضا و القبول و الإقبال ، فكان الحاصل أنّه تعالى أعطى الجمال ثمّ أثنى ، وأعطى النكال ثمّ قبح وأردى ، وكان مثاله أن ينظف الملك عبده الوسخ عن أوساخه ثمّ يكسيه من محاسن ثيابه ، فإذا تمّ زينته قال : يا جميل ما أجملك وأجمل ثيابك و أنظف وجهك ، فيكون بالحقيقة هو المجمل و هو المثني على الجمال فهو المثنى عليه بكلّ حال و كأنّه لم يثن من حيث المعنى إلّا على نفسه ، و إنّما العبد هدف الثناء من حيث الظاهر و الصورة فهكذا كانت الاُمور في أزل الآزال ، وهكذا تسلسل الأسباب و المسبّبات بتقدير ربّ الأرباب ومسبّب الأسباب ولم يكن ذلك عن اتّفاق وبخت بل عن إرادة و حكمة وحكم حقّ و أمر جزم استعير له لفظ القضاء ، و قيل : إنّه كلمح بالبصر ، ففاضت بحار المقادير بحكم ذلك القضاء الجزم بما سبق به التقدير ، فاستعير لترتّب آحاد المقدورات بعضها على بعض لفظ القدر ، فكان لفظ القضاء بإزاء الأمر الواحد الكلّي و لفظ القدر بإزاء

التفصيل المتمادي إلى غير نهاية ، و قيل : إنّ شيئاً من ذلك ليس خارجاً عن القضاء و القدر .فخطر لبعض العباد أنّ القسمة لما ذا اقتضت هذا التفصيل و كيف انتظم العدل مع هذا التفاوت و التفضيل ، و كان بعضهم لقصوره لا يطيق ملاحظة كنه هذا الأمر والاحتواء على مجامعه فاُلجموا عمّا لم يطيقوا خوض غمرته بلجام المنع وقيل لهم : اسكتوا فما لهذا خلقتم لايسأل عمّا يفعل وهم يسألون ، وامتلأت مشكاة بعضهم نوراً مقتبساً من نور الله تعالى في السماوات والأرض و كان زيتهم أوّلاً صافياً يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار فمسّته نار فاشتعل نور على نور فأشرقت أقطار الملكوت بين أيديهم بنور ربّها فأدركوا الاُمور كما هي عليه فقيل لهم : تأدّبوا بآداب الله و اسكتوا «وإذا ذكر القدر فأمسكوا» [١] فإنّ للحيطان آذاناً و حواليكم ضعفاء الأبصار فسيروا بسير أضعفكم و لا تكشفوا حجاب الشمس لأبصار الخفافيش فيكون ذلك سبب هلاكهم فتخلّقوا بأخلاق الله تعالى و أنزلوا إلى السماء الدّنيا من منتهى علوّكم ليأنس بكم الضعفاء ويقتبسوا من بقايا أنواركم المشرقة من وراء حجابكم كما يقتبس الخفافيش من بقايا نور الشّمس و الكواكب في جنح اللّيل فيحيى حياة يحتملها شخصه و حاله و إن كان لا يحيى به حياة المتردّدين في كمال نور الشمس و كونوا كمن قيل فيهم :

شربنا شراباً طيّباً عند طيّب ✿ كذاك شراب الطيّبين يطيب
شربنا وأهرقنا على الأرض فضله ✿ وللأرض من كأس الكرام نصيب

فهكذا كان أوّل هذا الأمر وآخره ولا تفهمه إلّا إذا كنت أهلاً له ، وإذا كنت أهلاً له فتحت العين وأبصرت . فلا تحتاج إلى قائد يقودك و الأعمى يمكن أن يقاد ولكن إلى حدّ ما . فإذا ضاق الطريق وصار أحدّ من السيف و أدقّ من الشعر قدر الطائر على أن يطير عليه ولم يقدر على أن يستجرّ وراءه أعمى وإذا دقّ المجال ولطف لطف الماء مثلاً ولم يكن العبور إلّا بالسباحة فقد يقدر الماهر بصنعة السباحة أن

(١) أخرجه الطبراني في الكبير من حديث ابن مسعود و ابن عدى عنه وعن ثوبان و عمر بسند حسن كما في الجامع الصغير

يعبر بنفسه وربّما لم يقدر على أن يستجرّ وراءه آخر، فهذه أمور نسبة السير عليها إلى السير على ما هو مجال جماهير الخلق كنسبة المشي على الماء إلى المشي على الأرض، والسباحة يمكن أن تتعلّم أمّا المشي على الماء فلا يكتسب بالتعلّم بل ينال بقوّة اليقين ولذلك قيل للنبي عليه السلام: إنّ عيسى يقال إنّه مشى على الماء، فقال: «لو ازداد يقيناً لمشى على الهواء»[1] فهذه رموز وإشارات إلى معنى الكراهة والمحبّة و الرّضا و الغضب و الشكر و الكفران لايليق بعلم المعاملة أكثر منها و قد ضرب الله تعالى مثلاً لذلك تقريباً إلى أفهام الخلق إذ عرف أنّه ما خلق الجنّ والإنس إلّا ليعبدوه و كانت عبادتهم غاية الحكمة في حقّهم، ثمّ أخبر أنّ له عبدين يحبّ أحدهما و اسمه جبرئيل و روح القدس و الأمين و هو عنده محبوب مطاع مكين، و يبغض الآخر و هو إبليس و هو اللّعين المنظر إلى يوم الدّين، ثمّ أحال الإرشاد إلى جبرئيل فقال: «قل نزّله روح القدس من ربّك بالحقّ»[2] وقال: «يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده»[3] و أحال الإغواء على إبليس فقال: «ليضلّهم عن سبيله»[4] والإغواء هو استيقاف العباد دون بلوغ غاية الحكمة، فانظر كيف نسبه إلى العبد الّذي غضب عليه، والإرشاد سياقة لهم إلى الغاية فانظر كيف نسبه إلى العبد الّذي أحبّه، وعندك في العادة له مثال فالملك إذا كان يحتاج إلى من يسقيه الشراب وإلى من يحجمه وينظف فناء منزله عن القاذورات وكان له عبدان فلا يعيّن للحجامة و التنظيف إلّا أقبحهما وأخسّهما، ولايفوّض حمل الشراب الطيّب إليه إلّا إلى أحسنهما وأكملهما وأحبّهما إليه، ولاينبغي أن تقول: هذا فعلي ولم يكون فعله على دون فعلي[5]، فإنّك أخطأت إذ أضفت ذلك إلى نفسك بل هو الّذي صرف

---

(١) قال العراقي: هذا حديث منكر لا يعرف هكذا و المعروف ما رواه ابن أبي الدنيا في كتاب اليقين من قول بكر بن عبدالله المزني قال: فقد الحواريون نبيهم فقيل لهم: توجه نحو البحر فانطلقوا يطلبونه، فلما انتهوا الى البحر اذا هو قد أقبل يمشي على الماء ـ فذكر حديثاً فيه ـ أن عيسى قال: «لو أن لابن آدم من اليقين شعرة مشى على الماء».

(٢) النحل: ١٠٤. (٣) المؤمن: ١٥.

(٤) الزمر: ٨ هكذا «ليضل عن سبيله». (٥) في بعض النسخ الاحياء [ذوق فعلي].

داعيتك لتخصيص الفعل المكروه بالشخص المكروه و الفعل المحبوب بالشخص المحبوب إتماماً للعدل ، فإنّ عدله تارة يتمّ بأمور لا مدخل لك فيها ، و تارة يتمّ بك فإنّك أيضاً من أفعاله فداعيتك وقدرتك وعلمك وعملك و سائر أسباب حركاتك في التعبير هو فعله الّذي رتّبه بالعدل ترتيباً تصدر منه الأفعال المعتدلة إلّا أنّك لا ترى إلّا نفسك فتظنّ أنّ ما يظهر عليك في عالم الشهادة ليس له سبب من عالم الغيب والملكوت فلذلك تضيفه إلى نفسك ، وإنّما أنت مثل الصبيّ الّذي ينظر ليلاً إلى لعب المشعبذ الّذي يخرج صوراً من وراء حجاب ترقص و تزعق و تقوم و تقعد وهي مؤلّفة من خرق لا تتحرّك بأنفسها وإنّما تحرّكها خيوط شعريّة دقيقة لا تظهر في ظلام اللّيل و رؤوسها في يد المشعبذ ، و هو محتجب عن أبصار الصبيان فيفرحون و يتعجّبون لظنّهم أنّ تلك الخرق ترقص وتلعب وتقوم و تقعد ، و أمّا العقلاء فإنّهم يعلمون أنّ ذلك تحريك وليس بتحرّك ولكنّهم ربّما لا يعرفون تفصيله ، والّذي يعلم بعض تفصيله لا يعلمه كما يعلمه المشعبذ الّذي الأمر إليه و الجاذبة بيده ، فكذلك صبيان أهل الدّنيا - والخلق كلّهم صبيان إلّا العلماء - ينظرون إلى هذه الأشخاص فيظنّون أنّها المتحرّكة فيحيلون الحركة عليها ، والعلماء يعلمون أنّهم محرّكون إلّا أنّهم لا يعرفون كيفيّة التحريك و هم الأكثرون إلّا العارفون و العلماء الرّاسخون فإنّهم أدركوا بحدّة أبصارهم خيوطاً دقيقة عنكبوتيّة بل أدقّ منها بكثير معلّقة من السماء متشبّثة الأطراف بأشخاص أهل الأرض لا تدرك تلك الخيوط لدقّتها بهذه الأبصار الظاهرة ثمّ شاهدوا رؤوس تلك الخيوط في مناطات لها هي معلّقة بها وشاهدوا لتلك المناطات مقابض هي في أيدي الملائكة المحرّكين للسماوات و شاهدوا أبصار ملائكة السماوات مصروفة إلى حملة العرش ينتظرون منهم ما ينزل إليهم من الأمر من حضرة الرّبوبيّة كي لا يعصوا الله ما أمرهم و يفعلون ما يؤمرون وعبّر عن هذه المكاشفات في القرآن فقيل : « وفي السماء رزقكم وما توعدون»[1] وعبّر عن انتظار ملائكة السماوات لما ينزل إليهم من الأمر والقدر فقيل : «خلق سبع سموات ومن

(١) الذاريات : ٢٢ .

الأرض مثلهنّ يتنزّل الأمر بينهنّ لتعلموا أنّ الله على كلّ شيء قدير ❁ وأنّ الله قد أحاط بكلّ شيء علماً »[1] وهذه اُمور لايعلم تأويلها إلّا الله والرّاسخون في العلم وعبّر ابن عبّاس - رضي الله عنه - عن اختصاص الرّاسخين في العلم بعلوم لايحتملها أفهام الخلق حيث قرأ قوله تعالى : « يتنزّل الأمر بينهنّ » فقال : لو ذكرت ما أعرفه من معنى هذه الآية لرجمتموني - وفي لفظ آخر - لقلتم : إنّه كافر . ولنقصر على هذا القدر فقد خرج عنان الكلام عن قبضة الاختيار و امتزج بعلم المعاملة ما ليس منه .

❁(الركن الثاني من أركان الشكر ما عليه الشكر وهو النعمة)❁

ولنذكر فيه حقيقة النعمة وأقسامها ودرجاتها وأصنافها ومجامعها فيما يخصّ ويعمّ فإنّ إحصاء نعم الله على عباده خارج عن مقدور البشر كما قال تعالى : «وإن تعدّوا نعمة الله لاتحصوها »[2] فنقدّم اُموراً كلّيّة تجري مجرى القوانين في معرفة النعم ثمّ نشتغل بذكر الآحاد .

❁(بيان حقيقة النعمة وأقسامها)❁

إعلم أنّ كلّ خير ولذّة و سعادة بل كلّ مطلوب ومؤثر فإنّه يسمّى نعمة ولكن النعمة الحقيقيّة هي السعادة الاُخرويّة وتسمية ما عداها نعمة و سعادة إمّا غلط وإمّا مجاز كتسمية السعادة الدّنياويّة الّتي لا تعين على الآخرة نعمة ، فإنّ ذلك غلط محض وقد يكون اسم النعمة للشيء صدقاً ولكن يكون إطلاقه على السعادة الاُخرويّة أصدق فكلّ سبب يوصل إلى سعادة الآخرة و يعين عليها إمّا بواسطة واحدة أو بوسائط فإنّ تسمية نعمة صحيحة و صدق لأجل أنّه يفضي إلى النعمة الحقيقيّة والأسباب المعينة واللّذات المسمّاة نعمة نشرحها بتقسيمات :

القسمة الاولى : إعلم أنّ الاُمور كلّها بالإضافة إلينا تنقسم إلى هو نافع في الدّنيا والآخرة جميعاً كالعلم و حسن الخلق ، و إلى ما هو ضارّ فيهما جميعاً كالجهل و سوء الخلق ، وإلى ماينفع في الحال ويضرّ في المآل كالتلذّذ باتّباع الشهوات ، وإلى

(١) الطلاق : ١٢ . (٢) ابراهيم : ٣٤ .

مايضرُّ في الحال ويؤلم ولكن ينفع في المآل كقمع الشهوات ومخالفة النفس فالنافع في الحال والمآل هو النعمة تحقيقاً كالعلم وحسن الخلق، والضارُّ فيهما هو البلاء تحقيقاً وهو ضدُّهما، والنافع في الحال المضرُّ في المآل بلاء محض عند ذوي الأبصار و تظنّه الجهّال نعمة، ومثاله الجائع إذا وجد عسلاً فيه سمٌّ فإنّه يعدُّه نعمة إن كان جاهلاً، و إذا علمه علم أنَّ ذلك بلاء سيق إليه و الضارُّ في الحال النافع في المآل نعمة عند ذوي الألباب بلاء عند الجهّال ومثاله الدَّواء البشع في الحال مذاقه إلّا أنّه شاف من الأمراض و الأسقام وجالب للصحّة والسلامة فالصبيُّ الجاهل إذا كلّف شربه ظنّه بلاء والعاقل يعدُّه نعمة و يتقلّد المنّة ممّن يهديه إليه ويهيّىء له أسبابه فلذلك تمنع الاُمّ ولدها من الحجامة والأب يدعوه إليها فإنَّ الأب لكمال عقله يلحظ العاقبة و الاُمّ لقصورها وفرط حبّها تلحظ الحال و الصبيُّ لجهله يتقلّد منّة من اُمّه دون أبيه ويأنس إليها وإلى شفقتها ويقدّر الأب عدوّاً له، و لو عقل لعلم أنَّ الاُمّ عدوٌّ باطناً في صورة صديق لأنَّ منعها إيّاه من الحجامة يسوقه إلى آلام و أمراض أشدّ عليه من الحجامة، ولكن الصديق الجاهل شرٌّ من العدوِّ العاقل و كلُّ إنسان فإنّه صديق نفسه و لكنّه صديق جاهل فلذلك يعمل به ما لا يعمل به العدوّ.

القسمة الثانية: إعلم أنَّ الأسباب الدُّنياويّة مختلطة و قد امتزج خيرها بشرّها فقلّما يصفو خيرها كالمال والأهل والولد والأقارب والجاه و سائر الأسباب ولكن تنقسم إلى ما نفعه أكثر من ضرّه كقدر الكفاية من المال والجاه وسائر الأسباب، وإلى ما ضرُّه أكثر من نفعه في حقّ أكثر الأشخاص كالمال الكثير والجاه الواسع وإلى مايكافىء ضرّه نفعه، وهذه اُمور تختلف الأشخاص، فربَّ إنسان صالح ينتفع بالمال الصالح وإن كثر فينفقه في سبيل الله و يصرفه إلى الخيرات فهو مع هذا التوفيق نعمة في حقّه، وربّ إنسان يستضرُّ بالقليل أيضاً إذ لا يزال مستصغراً له شاكياً من ربّه طالباً للزيادة عليه فيكون ذلك مع هذا الخذلان بلاء في حقّه.

القسمة الثالثة: إعلم أنّ الخيرات باعتبار آخر تنقسم إلى ما هو مؤثّر لذاته لا لغيره وإلى مؤثّر لغيره وإلى مؤثّر لذاته ولغيره، فالأوّل ما يؤثّر لذاته لا لغيره كلذّة النظر إلى

وجه الله تعالى و سعادة لقائه ، وبالجملة سعادة الآخرة الّتي لاانقضاء لها فإنّها لاتطلب ليتوصّل بها إلى غاية أُخرى مقصودة وراءها بل تطلب لذاتها . الثاني ما يقصد لغيره و لا غرض أصلاً في ذاته كالدّرهم و الدّنانير فإنّ الحاجات لو كانت لاتنقضي بها لكانت هي والحصى بمثابة واحدة ولكن لمّا كانت وسيلة إلى اللّذات سريعة الإيصال إليها صارت عند الجهّال محبوبة في نفسها حتّى يجمعوها و يكنزوها و يتصارفوا عليها بالرّبا ويظنّون أنّها مقصودة ، ومثال هؤلاء مثال من يحبّ شخصاً فيحبّ بسببه رسوله الّذي يجمع بينه و بينه ، ثمّ ينسى في محبّة الرّسول محبّة الأصل فيعرض عنه طول عمره ، و لا يزال مشغولاً بتعهّد الرّسول و مراعاته و تفقّده و هو غاية الجهل و الضلال ، و الثالث ما يقصد لذاته و لغيره كالصحّة و السلامة فإنّها تقصد ليقدر بسببها على الفكر و الذكر الموصلين إلى لقاء الله تعالى أو ليتوصّل بها إلى استيفاء لذّات الدّنيا وتقصد أيضاً لذاتها فإنّ الإنسان وإن استغنى عن الشيء الّذي تراد سلامة الرّجل لأجله فتريد أيضاً سلامة الرّجل من حيث أنّها سلامة فإذن المؤثّر لذاته فقطّ هو الخير و النعمة تحقيقاً وما يؤثّر لذاته ولغيره أيضاً فهو نعمة ولكن دون الأوّل . فأمّا ما لا يؤثّر إلّا لغيره كالنقدين فلا يوصفان في أنفسهما من حيث هما جوهران بأنّهما نعمة بل من حيث هما وسيلتان فيكونان نعمة في حقّ من يقصد أمراً ليس يمكنه أن يتوصّل إليه إلّا بهما فلو كان مقصده العلم والعبادة ومعه الكفاية الّتي هي ضرورة حياته استوى عنده الذّهب والمدر ، وكان وجودهما وعدمهما عنده بمثابة واحدة ، بل ربّما يشغله وجودهما عن الفكر والعبادة فيكونان بلاء في حقّه ولايكونان نعمة .

القسمة الرّابعة إعلم أنّ الخيرات باعتبار آخر تنقسم إلى نافع وجميل ولذيذ فاللّذيذ هو الّذي تدرك راحته في الحال ، والنافع هو الّذي يفيد في المآل ، والجميل هو الّذي يستحسن في سائر الأحوال ، والشرور أيضاً تنقسم إلى ضارّ وقبيح و مؤلم ، و كلّ واحد من القسمين ضربان مطلق ومقيّد فالمطلق هو الّذي اجتمع فيه الأوصاف الثلاثة إمّا في الخير فكالعلم و الحكمة فإنّها نافعة و جميلة و لذيذة عند أهل العلم

و الحكمة و إمّا في الشرّ فكالجهل فإنّه ضارّ و قبيح و مؤلم وإنّما يحسّ الجاهل بألم جهله إذا عرف أنّه جاهل وذلك بأن يرى غيره عالماً ويرى نفسه جاهلاً فيدرك ألم النقص فتنبعث منه شهوة العلم للّذته ثمّ قد يمنعه الحسد و الكبر والشهوات اللّذيذة عن التعلّم فيتجاذبه متضادّان فيعظم ألمه ، فإنّه إن ترك التعلّم تألّم بالجهل و درك النقصان ، و إن اشتغل بالتعلّم تألّم بترك الشهوات أو بترك الكبر و ذلّ التعلّم . و مثل هذا الشخص لايزال في عذاب دائم لا محالة ، والضرب الثاني مقيّد وهوالّذي جمع بعض هذه الأوصاف دون بعض فربّ نافع مؤلم كقطع الأصبع المتآكله والسلعة الخارجة من البدن و ربّ نافع قبيح كالحمق فإنّه بالإضافة إلى بعض الأحوال نافع وقد قيل : استراح من لا عقل له فإنّه لا يهتمّ بالعاقبة فيستريح في الحال إلى أن يحين وقت هلاكه و ربّ نافع من وجه ضارّ من وجه كإلقاء المال في البحر عند خوف الغرق فإنّه ضارّ للمال و نافع للنفس في نجاتها ، و النافع قسمان ضروريّ كالإيمان وحسن الخلق في الإيصال إلى سعادة الآخرة و أعني بهما العلم و العمل إذ لا يقوم مقامهما البتّة غيرهما وإلى ما لا يكون ضروريّاً كالسكنجبين مثلاً في تسكين الصفراء ، فإنّه قد يمكن تسكينها أيضاً بما يقوم مقامه .

القسمة الخامسة إعلم أنّ النعمة يعبّر بها عن كلّ لذيذ و اللّذات بالإضافة إلى الإنسان من حيث اختصاصه بها أومشاركته لغيره ثلاثة أنواع عقليّة و بدنيّة مشتركة مع بعض الحيوانات وبدنيّة مشتركة مع جميع الحيوانات ، إمّا العقليّة فكلذّة العلم و الحكمة إذ ليس يستلذّهما السمع و البصر و الشمّ و البطن و لا الفرج ، و إنّما يستلذّهما القلب لاختصاصه بصفة يعبّر عنها بالعقل و هذه أقلّ اللّذّات وجوداً و هي أشرفها ، أمّا قلّتها فلأنّ العلم لا يستلذّه إلّا عالم والحكمة لا يستلذّها إلّا حكيم و ما أقلّ أهل العلم و الحكمة و ما أكثر المتسمّين باسمهم و المترسّمين برسومهم ، و أمّا شرفها فلأنّها لازمة لا تزول أبداً لا في الدّنيا و لا في الآخرة ودائمة لاتملّ ، فالطعام يشبع منه فيملّ وشهوة الوقاع يفرغ عنها فتستثقل و العلم و الحكمة قطّ لا يتصوّر أن يملّ ويستثقل ، و من قدر على الشريف الباقي

أبد الآباد إذا رضي بالخسيس الفاني في أقرب الآماد فهو مصاب في عقله محروم لشقاوته و إدباره ، و أقلّ أمر فيه أنّ العلم و العقل لا يحتاج إلى أعوان و حفظة بخلاف المال إذ العلم يحرسك و أنت تحرس المال ، و العلم يزيد بالإنفاق و المال ينقص بالإنفاق ، والمال يسرق والولاية يعزل عنها والعلم لايمتدّ إليه أيدي السرّاق بالأخذ ولا أيدي السلاطين بالعزل فيكون صاحبه في روح الأمن أبداً وصاحب المال و الجاه في كرب الخوف أبداً ، ثمّ العلم نافع و لذيذ و جميل في كلّ حال أبداً ، و المال تارة يجذب إلى الهلاك و تارة يجذب إلى النجاة و لذلك ذمّ الله تعالى المال في القرآن في مواضع و إن سمّاه خيراً في مواضع ، و أمّا قصور أكثر الخلق عن إدراك لذّة العلم فإمّا لعدم الذّوق فمن لم يذق لم يعرف ولم يشتق إذ الشوق تبع الذّوق ، و إمّا لفساد أمزجتهم و مرض قلوبهم بسبب اتّباع الشهوات كالمريض الّذي لا يدرك حلاوة العسل ويراه مرّاً . و إمّا لقصور فطنتهم إذ لم تخلق لهم بعد الصفة الّتي بها يستلذّ العلم كالطفل الرّضيع الّذي لا يدرك لذّة العسل و الطيور السمان ولا يستلذّ إلّا باللّبن و ذلك لا يدلّ على أنّها ليست لذيذة و لا استطابته للّبن تدلّ على أنّه ألذّ الأشياء ، فالقاصرون عن درك لذّة العلم و الحكمة ثلاثة إمّا من لم يحي بعد باطنه كالطفل ، و إمّا من مات بعد الحياة باتّباع الشهوات ، و إمّا من مرض بسبب اتّباع الشهوات وقوله تعالى : «في قلوبهم مرض» [١] إشارة إلى مرض القلوب لفقدان العقول و قوله : « لينذر من كان حيّاً » [٢] إشارة إلى من لم يمت حياته الباطنة و كلّ حيّ بالبدن ميّت بالقلب فهو عندالله من الموتى وإن كان عندالجهّال من الأحياء ، و لذلك كان الشهداء أحياء عند ربّهم يرزقون و إن كانوا موتى بالأبدان ، الثانية لذّة يشارك الإنسان فيها بعض الحيوانات كلذّة الرّئاسة والغلبة و الاستيلاء و ذلك موجود في الأسد و النمر وبعض الحيوانات ، والثالثة ما يشارك فيها سائر الحيوانات كلذّة البطن و الفرج و هذه أكثرها وجوداً و هي أخسّها ، ولذلك اشترك فيها كلّ ما دبّ و درج حتّى الدّيدان و الحشرات ومن جاوز هذه

(١) البقرة : ١٠ . (٢) يس : ٧٠ .

الرّتبة تشبّثت به لذّة الغلبة وهي أشدّها التصاقاً بالمتغافلين فإن جاوز ذلك ارتقى إلى الثالثة فصار أغلب اللّذّات عليه لذّة العلم و الحكمة لا سيّما لذّة معرفة الله تعالى و معرفة صفاته وأفعاله ، و هذه رتبة الصدّيقين و لا ينال تمامها إلّا بخروج استيلاء حبّ الرّئاسة من القلب « و آخر ما يخرج من رؤوس الصدّيقين حبّ الرّئاسة » ، و أمّا شره البطن و الفرج فكسره ممّا يقوى عليه الصالحون و شهوة الرّئاسة لا يقوى على قهرها إلّا الصدّيقون ، فأمّا قمعها بالكلّية حتّى لا يقع بها الإحساس على الدّوام و في اختلاف الأحوال فيشبه أن يكون خارجاً عن مقدور البشر ، نعم تغلب لذّة معرفة الله في أحوال لا يقع معها الإحساس بلذّة الرّئاسة و الغلبة ولكن ذلك لا يدوم طول العمر بل تعتريه الفترات فتعود إليه الصفات البشريّة فتكون موجودة ، لكن تكون مقهورة لا تقوى على حمل النفس على العدول عن العدل ، وعندهذا تنقسم القلوب إلى أربعة أقسام : قلب لايحبّ إلّا الله ولايستريح إلّا إليه و إلى زيادة المعرفة به والفكر فيه ، و قلب لا يدري ما لذّة المعرفة و ما معنى الاُنس بالله ، وإنّما لذّته بالجاه والرّئاسة و المال وسائر الشهوات البدنيّة ، و قلب أغلب أحواله الاُنس بالله سبحانه و التلذّذ بمعرفته والفكر فيه ، ولكن قد يعتريه في بعض الأحوال الرّجوع إلى أوصاف البشريّة ، وقلب أغلب أحواله التلذّذ بالصفات البشريّة و يعتريه في بعض الأحوال تلذّذ بالعلم و المعرفة ، و أمّا الأوّل فإن كان ممكناً في الوجود فهو في غاية البعد ، وأمّا الثاني فالدّنيا طافحة به ، وأمّا الثالث والرّابع فموجودان ولكن على غاية الندور ولا يتصوّر أن يكون ذلك إلّا نادراً شاذّاً وهو مع الندور يتفاوت في القلّة والكثرة ، و إنّما تكون كثرته في الأعصار القريبة من أعصار الأنبياء عليهم السلام فلا يزال يزداد العهد طولاً ويزداد مثل هذه القلوب قلّة إلى أن تقرب الساعة و يقضي الله أمراً كان مفعولاً ، و إنّما وجب أن يكون هذا نادراً لأنّه مبادي ملك الآخرة و الملك عزيز و الملوك لا يكثرون فكما لايكون الفائق في الملك و الجمال إلّا نادراً و أكثر الناس من دونهم فكذا في ملك الآخرة فإنّ الدّنيا مرآة الآخرة فإنّها عبارة عن عالم الشهادة والآخرة عبارة عن عالم الغيب

و عالم الشهادة تابع لعالم الغيب كما أنّ الصورة في المرآة تابعة لصورة الناظر في المرآة و الصورة في المرآة و إن كانت هي الثانية في رتبة الوجود فإنّها أولى في حقّ رؤيتك ، فإنّك لا ترى نفسك وترى صورتك في المرآة أوّلاً فتعرف بها صورتك الّتي هي قائمة بك ثانياً على سبيل المحاكاة ، فانقلب التابع في الوجود متبوعاً في حقّ المعرفة والقلب المتأخّر متقدّماً ، و هذا النوع من الانعكاس ولكن الانعكاس و الانتكاس ضرورة هذا العالم ، و كذلك عالم الملك و الشهادة محاك لعالم الغيب و الملكوت ، فمن الناس من يسّر له نظر الاعتبار فلا ينظر في شيء من عالم الملك إلّا ويعبر به إلى عالم الملكوت فيسمّى عبوره عبرة و قد اُمر الخلق به فقال : « فاعتبروا يا اُولي الأبصار » ومنهم من عميت بصيرته فلم يعتبر فاحتبس في عالم الملك و الشهادة و ستنفتح إلى حبسه أبواب جهنّم و هذا الحبس ممتلىء ناراً من شأنها أن تطّلع على الأفئدة إلّا أنّ بينه وبين إدراك ألمها حجاباً ، فإذا رفع ذلك الحجاب بالموت أدرك و عن هذا أظهر الله تعالى الحقّ على لسان قوم استنطقهم بالحقّ فقالوا : الجنّة و النار مخلوقتان . ولكنّ الجحيم تدرك مرّة بإدراك يسمّى علم اليقين ومرّة بإدراك آخر يسمّى عين اليقين ، و عين اليقين لا يكون إلّا في الآخرة ، و علم اليقين قد يكون في الدّنيا ولكن للّذين وفّر حظّهم من نور اليقين ، فلذلك قال الله تعالى : « كلّا لو تعلمون علم اليقين لترونّ الجحيم » أي في الدّنيا « ثمّ لترونّها عين اليقين »(١) أي في الآخرة ، فإذن قد ظهر أنّ القلب الصالح لملك الآخرة لا يكون إلّا عزيزاً كالشخص الصالح لملك الدّنيا .

القسمة السادسة و هي الحاوية لمجامع النعم ، إعلم أنّ النعم تنقسم إلى ما هي غاية مطلوبة لذاتها و إلى ما هي مطلوبة لأجل الغاية ، أمّا الغاية فإنّها سعادة الآخرة ، ويرجع حاصلها إلى أربعة اُمور بقاء لا فناء له ، وسرور لا غمّ فيه ، وعلم لا جهل معه ، وغنى لا فقر بعده ، وهي النعمة الحقيقيّة ولذلك قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم :

(١) التكاثر : ٦ و ٧ .

« لا عيش إلّا عيش الآخرة »[١] قال ذلك مرّة في الشدّة تسلية للنفس وذلك في وقت حفر الخندق في شدّة الضرّ ، ومرّة في السرور منعاً للنفس من الرّكون إلى سرور الدّنيا و ذلك عند أحداق الناس به في حجّة الوداع وقال رجل : اللّهمّ إنّي أسألك تمام النعمة فقال النبيّ صلى الله عليه وآله : « وهل تعلم ما تمام النعمة ؟ قال : لا ، قال : تمام النعمة دخول الجنّة »[٢].

وأمّا الوسائل فتنقسم إلى الأقرب الأخصّ كفضائل النفس وإلى ما يليه في القرب كفضائل البدن وهو الثاني ، و إلى ما يليه في القرب ويجاوز إلى غير البدن كالأسباب المطيفة بالبدن من المال والأهل والعشيرة ، وإلى ما يجمع بين هذه الأسباب الخارجة عن النفس وبين الحاصلة للنفس كالتوفيق و الهداية فهي إذن أربعة أنواع : النوع الأوّل و هو الأخصّ الفضائل النفسيّة و يرجع حاصلها مع انشعاب أطرافها إلى الإيمان وحسن الخلق وينقسم الإيمان إلى علم المكاشفة وهو العلم بالله تعالى وصفاته و ملائكته و رسله ، وإلى علوم المعاملة وحسن الخلق وينقسم إلى قسمين ترك مقتضى الشهوة والغضب واسمه العفّة ومراعاة العدل في الكفّ عن مقتضى الشهوات والإقدام حتّى لا يمتنع أصلاً ولا يقدم كيف شاء بل يكون إقدامه وإحجامه بالميزان العدل الّذي أنزله الله تعالى على لسان رسوله صلى الله عليه وآله إذ قال تعالى : « ألّا تطغوا في الميزان ✿ و أقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان »[٣] فمن خصى نفسه ليزيل شهوة النكاح أو ترك النكاح مع القدرة و الأمن من الآفات أو ترك الأكل حتّى ضعف عن العبادة و الذّكر و الفكر فقد أخسر الميزان ، و من انهمك في شهوة البطن و الفرج فقد طغى في الميزان و إنّما العدل أن يخلو وزنه و تقديره عن الطغيان و الخسران فتعتدل به كفّتا الميزان ، فإذن الفضائل الخاصّة بالنفس المقرّبة إلى الله تعالى أربعة :

---

(١) أخرجه مسلم ج ٥ ص ١٨٨ من حديث سهل بن سعد فى قصة حفر الخندق قال صلى الله عليه و آله : « اللهم لا عيش الا عيش الاخرة فاغفر للمهاجرين والانصار » .

(٢) أخرجه الترمذى ج ١٣ ص ٥١ من حديث معاذ بن جبل .

(٣) الرحمن : ٨ و ٩ .

علم مكاشفة ، وعلم معاملة ، وعفة ، و عدالة ولا يتمّ هذا في غالب الأمر إلّا بالنوع الثاني و هو الفضائل البدنيّة و هي أربعة : الصحّة و القوّة و الجمال و طول العمر ، ولاتتهيأ هذه الأمور الأربعة إلّا بالنوع الثالث و هي النعم الخارجة المطيفة بالبدن و هي أربعة : المال والجاه والأهل و كرم العشيرة ، ولا ينتفع بشيء من هذه الأسباب الخارجة والبدنيّة إلّا بالنوع الرابع وهي الأسباب التي تجمع بينها وبين ما يناسب الفضائل النفسيّة الداخلة وهي أربعة : هداية الله و رشده و تسديده و تأييده فمجموع هذه النعم ستّة عشرة إذ قسمناها إلى أربعة وقسمنا كلّ واحدة إلى أربعة و هذه الجملة يحتاج البعض منها إلى البعض إمّا حاجة ضروريّة أو نافعة أمّا الحاجة الضروريّة كحاجة سعادة الآخرة إلى الإيمان و حسن الخلق إذ لاسبيل للوصول إلى سعادة الآخرة البتّة إلّا بهما فليس للإنسان إلّا ما سعى وليس لأحد في الآخرة إلّا ما تزوّد من الدّنيا فكذلك حاجة الفضائل النفسيّة تكسب هذه العلوم وتهذيب الأخلاق إلى صحّة البدن ضروريّ ، وأمّا الحاجة النافعة على الجملة كحاجة هذه النّعم النفسيّة و البدنيّة إلى النعم الخارجة مثل المال و العزّ و الأهل فإنّ ذلك لو عدم ربّما تطرّق الخلل إلى بعض النعم الداخلة .

فإن قلت : فما وجه الحاجة لطريق الآخرة إلى النعم الخارجة من المال و الأهل و الجاه و العشيرة ، فاعلم أنّ هذه الأسباب جارية مجرى الجناح المبلّغ والآلة المسهّلة للمقصود ، أمّا المال فالفقير في طلب العلم والكمال و ليس معه كفايته كساع إلى الهيجاء بغير سلاح و كبازي يروم الصيد بلا جناح ولذلك قال عليه السلام « نعم المال الصالح للرّجل الصالح» [1] وقال : «نعم العون على تقوى الله المال » [2] و كيف

(١) أخرجه أحمد و ابويعلى و الطبرانى من حديث عمرو بن العاص بسند جيد كما فى المغنى .

(٢) أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من رواية محمد بن المنكدر عن جابر . ورواه ابوالقاسم البغوى من رواية ابن المنكدر مرسلا ، و من طريقه القضاعى فى مسند الشهاب هكذا مرسلا كما فى مفتاح الكنوز للمناوى و المغنى للعراقى .

لا و من عدم المال صار مستغرق الأوقات في طلب القوت وفي تهيئة اللّباس و المسكن و ضرورات المعيشة ثمّ يتعرّض لأنواع من التأذّي تشغله عن الذكر و الفكر ولا تندفع إلّا بسلاح المال ، ثمّ مع ذلك يحرم عن فضيلة الحجّ و الزّكاة و الصدقات و إفاضة الخيرات ، و قال بعض العلماء : وقد قيل له : ما النعيم فقال : الغنى فإنّي رأيت الفقير لاعيش له ، قيل : زدنا قال : الأمن فإنّي رأيت الخائف لاعيش له ، قيل : زدنا . قال : العافية فإنّي رأيت المريض لاعيش له ، قيل : زدنا ، قال : الشباب فإنّي رأيت الهرم لاعيش له . وكأنّ ما ذكره إشارة إلى نعيم الدّنيا ولكنّه من حيث أنّه معين على الآخرة فهو نعمة ولذلك قال صلّى الله عليه وآله « من أصبح منكم معافى في بدنه آمناً في سربه عنده قوت يومه فكأنّما حيزت له الدّنيا بحذافيرها »(١) و أمّا الأهل والولد الصالح فلا يخفى وجه الحاجة إليهما إذ قال صلّى الله عليه وآله : « نعم العون على الدّين المرأة الصالحة »(٢) وقال في الولد : « إذا مات العبد المؤمن انقطع عمله إلّا من ثلاث ولد صالح يدعو له ـ الحديث »(٣) وقد ذكرنا فوائد الأهل والولد في كتاب النكاح ، وأمّا الأقارب فمهما كثر أولاد الرّجل وأقاربه كانوا له مثل الأعين و الأيدي فيتيسّر له بسببهم من الأمور الدّنياويّة المهمّة في دينه مالو انفرد به لطال شغله بها و كلّ ما يفرغ قلبك عن ضرورات الدّنيا فهو معين على الدّين فهو إذن نعمة ، و أمّا العزّ و الجاه فبه يدفع الإنسان عن نفسه الذلّ والضيم و لا يستغني عنه مسلم ، فإنّه لا ينفكّ عن عدوّ يؤذيه و ظالم يشوّش عليه عمله و فراغه ، و يشغل قلبه رأس ماله وإنّما تندفع هذه الشواغل بالعزّ والجاه و لذلك قيل : الدّين والسلطان توأمان . وقال الله تعالى : «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض »(٤) و لا معنى

(١) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤١٤١ والترمذي في السنن و البخاري في الادب .

(٢) قال العراقي : لم أجد له أصلا أقول : روى الكليني في الكافي ج ٥ ص ٣٢٧ « من سعادة المرء الزوجة الصالحة » .

(٣) أخرجه مسلم و قد تقدم في كتاب العلم و كتاب النكاح .

(٤) البقرة : ٢٥١ .

للجاه إلّا ملك القلوب كما لا معنى للغنى إلّا ملك الدّراهم و من ملك الدّراهم تسخّرت له أرباب القلوب لدفع الأذى عنه فكما يحتاج الإنسان إلى سقف يدفع عنه المطر، وجبّة تدفع عنه البرد، وكلب يدفع الذّئب عن ماشيته فيحتاج أيضاً إلى من يدفع الشرّ به عن نفسه، و على هذا القصد كان الأنبياء الّذين لا ملك لهم و لا سلطنة يراعون السلاطين ويطلبون عندهم الجاه و كذلك علماء الدّين لا على قصد التناول من خزائنهم و الاستئثار و الاستكثار في الدّنيا بمتابعتهم، و لا تظننّ أنّ نعمة الله تعالى على رسوله صلّى الله عليه وآله وسلّم حيث نصره وأكمل دينه وأظهره على جميع أعدائه و مكّن له في القلوب حبّه حتّى اتّسع به عزّه وجاهه كانت أقلّ من نعمته عليه حين كان يؤذى و يضرب حتّى افتقر إلى الهرب والهجرة.

فإن قلت: كرم العشيرة و شرف الأهل هو من النعم أم لا؟ فأقول: نعم قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «الأئمّة من قريش»[(١)] ولذلك كان عليه السلام من أكرمهم أرومة في نسب آدم، ولذلك قال صلّى الله عليه وآله وسلّم: «تخيّروا لنطفكم الأكفاء»[(٢)] و قال صلّى الله عليه وآله وسلّم: «إيّاكم و خضراء الدّمن، فقيل: وما خضراء الدّمن؟ فقال: المرأة الحسناء في المنبت السوء»[(٣)] فهذا أيضاً من النعم و لست أعني به الانتساب إلى الظلمة وأرباب الدّنيا، بل الانتساب إلى شجرة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم و إلى أئمّة العلماء، و إلى الصالحين والأبرار المتزيّنين بالعلم و العمل.

فإن قلت: فما معنى الفضائل البدنيّة؟ فأقول: لا خفاء لشدّة الحاجة إلى الصحّة و القوّة وإلى طول العمر إذ لا يتمّ علم وعمل إلّا بهما، ولذلك قال عليه السلام:

---

(١) أخرجه الحاكم والبيهقى فى السنن من حديث على عليه السلام بسند حسن كما فى الجامع الصغير.

(٢) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ١٩٦٨ و قد تقدم فى النكاح.

(٣) رواه الكلينى فى الكافى ج ٥ ص ٣٣٢ و فى النهاية الاثيرية بعد نقل الحديث قال: الدمن جمع دمنة وهى ما تدمنه الابل والغنم بابوالها وابعارها أى تلبده فى مرابضها فربما نبت فيها النبات الحسن النضير.

« أفضل السعادات طول العمر في طاعة الله »[١] وإنّما يستحقر من جملته أمر الجمال فيقال: يكفي أن يكون البدن سليماً من الأمراض الشاغلة عن تحرّي الخيرات و لعمري الجمال قليل الغناء، ولكنّه من الخيرات أيضاً أمّا في الدّنيا، فلا يخفى نفعه فيها، وأمّا في الآخرة فمن وجهين أحدهما أنّ القبيح مذمومٌ و الطباع عنه نافرة و حاجات الجميل إلى الإجابة أقرب و جاهه في الصدور أوسع، فكأنّه من هذا الوجه جناح مبلّغ كالمال والجاه إذ هو نوع قدرة إذ يقدر الجميل الوجه على تنجيز حاجات لا يقدر عليها القبيح و كلّ معين على قضاء حاجات الدّنيا فمعين على الآخرة بواسطتها، و الثاني أنّ الجمال في الأكثر يدلّ على فضيلة النفس لأنّ نور النفس إذا تمّ إشراقه تأدّى إلى البدن فالمنظر و المخبر كثيراً مّا يتلازمان، ولذلك عوّل أصحاب الفراسة في معرفة مكارم النفس على هيآت البدن، وقالوا: الوجه والعين مرآة الباطن ولذلك يظهر فيه أثر الغضب والسرور والغمّ و قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «اطلبوا الخير عند حسان الوجوه »[٢] وقال بعض الصحابة: إذا بعثتم رسولاً فاطلبوا حسن الوجه حسن الاسم، وقال الفقهاء: إذا تساوت درجات المصلّين فأحسنهم وجهاً أولاهم بالإمامة، و قال تعالى: ممتنّاً بذلك « و زاده بسطة في العلم و الجسم »[٣] ولسنا نعني بالجمال ما يحرّك الشهوة فإنّ ذلك أنوثة، وإنّما نعني به إرتفاع القامة على الاستقامة مع الاعتدال في اللّحم و تناسب الأعضاء و تناصف خلقة الوجه بحيث لا تنبو الطباع عن النظر إليه.

فإن قلت: فقد أدخلت المال و الجاه و النسب والأهل و الولد في حيّز النعم

---

(١) قال العراقي: غريب بهذا اللفظ و للترمذي من حديث أبي بكرة أن رجلاقال: « يا رسول الله أي الناس خير قال: من طال عمره و حسن عمله ».

(٢) أخرجه أبو يعلى من رواية اسماعيل بن عياش عن خيرة بنت محمد بن ثابت بن سباع عن امها عائشة ولا يعرف حالهما، ورواه ابن حبان من وجه آخر في الضعفاء والبيهقي في الشعب من حديث ابن عمر وله طرق كلها ضعيف كما في المغني.

(٣) البقرة: ٢٤٧.

و قد ذمّ الله تعالى المال والجاه و كذا رسوله صلى الله عليه وآله و كذا العلماء قال تعالى : «إنّ من أزواجكم و أولادكم عدوّاً لكم »[١] و قال تعالى : « إنّما أموالكم و أولادكم فتنة » [٢] وقال عليّ عليه السلام في ذمّ النسب « الناس أبناء ما يحسنون . و قيمة كلّ امرء ما يحسنه »[٣] ، وقيل : المرء بنفسه لا بأبيه . فما معنى كونها نعمة مع كونها مذمومة شرعاً ؟ فاعلم أنّ من يأخذ العلوم من الألفاظ المنقولة المأوّلة و العمومات المخصّصة كان الضلال عليه أغلب ما لم يهتد بنور الله إلى إدراك الاُمور على ما هي عليه ثمّ ينزل النقل على وفق ما ظهر له منها بالتأويل مرّة و بالتخصيص اُخرى فهذه نعم معينة على أمر الآخرة لاسبيل إلى جحدها إلّا أنّ فيها فتناً ومخاوف ، فمثل المال مثال الحيّة الّتي فيها ترياق نافع وسمّ ناقع فإن أصابها المعزّم الّذي يعرف وجه الاحتراز عن سمّها و طريق استخراج ترياقها النافع كانت نعمة ، و إن أصابها السوادي الغرّ فهي عليه بلاء وهلاك ، وهو مثل البحر الّذي تحته أصناف الجواهر واللآلي ، فمن ظفر بالبحر فإن كان عالماً بالسباحة وطريق الغوص و طريق الاحتراز عن مهلكات البحر فقد ظفر بنعمه ، و إن خاضه جاهلاً بذلك فقد هلك ، فلذلك مدح الله تعالى المال و سمّاه خيراً ، و مدحه رسول الله صلى الله عليه وآله وقال : « نعم العون على تقوى الله المال » و كذلك مدح الجاه و العزّ إذ منّ الله على رسوله صلى الله عليه وآله بأن أظهره على الدّين كلّه و حبّبه في قلوب الخلق و هو المعنيّ بالجاه ولكنّ المنقول في مدحهما قليل و المنقول في ذمّ المال والجاه كثير ، وحيث ذمّ الرّياء فهو ذمّ الجاه إذ الرّياء مقصوده اجتلاب القلوب ، و معنى الجاه ملك القلوب ، و إنّما كثر هذا و قلّ ذاك لأنّ الناس أكثرهم جهّال بطريق الرّقية لحيّة المال ، و طريق الغوص في بحر الجاه ، فوجب تحذيرهم فإنّهم يهلكون بسمّ المال قبل الوصول إلى ترياقه ويهلكهم تمساح بحر الجاه قبل العثور على جواهره ولو كانا في أعيانهما مذمومين بالإضافة

(١) التغابن : ١٤ . (٢) التغابن : ١٥ .

(٣) الاختصاص ٢ في النهج أبواب الحكم تحت رقم ٨١ « قيمة كل امرء ما يحسن » فقط و كذا في تحف العقول ص ٢٠١ .

إلى كلّ أحد لما تصوّر أن ينضاف إلى النبوّة الملك كما كان لرسولنا ﷺ ولا أن ينضاف إليهما الغنى كماكان لسليمان عليه السلام ، فالناس كلّهم صبيان والأموال حيّات والأنبياء عليهم السلام والعارفون معزّمون ، وقديضرّ الصبيّ مالا يضرّ المعزّم ، نعم المعزّم لو كان له ولد يريد بقاءه و صلاحه و قد وجد حيّة و علم أنّه لو أخذها لأجل ترياقها الاقتدى به ولده وأخذ الحيّة إذا رآها ليلعب بها فيهلك فله غرض في الترياق وله غرض في حفظ الولد ، فواجب عليه أن يزن غرضه في الترياق بغرضه في حفظ الولد ، فإذا كان يقدر على الصبر عن الترياق ولا يستضرّ به ضرراً كثيراً ولو أخذها لأخذها الصبيّ ويعظم ضرره بهلاكه ، فواجب عليه أن يهرب عن الحيّة إذا رآها ، ويشير على الصبيّ بالهرب و يقبّح صورتها في عينه و يعرّفه أنّ فيها سمّاً قاتلاً لا ينجو منه أحد ولا يحدّثه أصلاً بما فيها من نفع الترياق ، فإنّ ذلك ربما يغرّه فيقدم عليه من غير تمام المعرفة ، و كذلك الغوّاص إذا علم أنّه لو غاص في البحر بمرأى من ولده لاتّبعه وهلك فواجب عليه أن يحذّر الصبيّ ساحل البحر و النهر ، فإن كان لاينزجر الصبيّ بمجرّد الزجر مهما رأى أباه يحوم حول الساحل فواجب عليه أن يبعد من الساحل مع الصبيّ فلا يقرب منه بين يديه ، فكذلك الأمّة في حجر الأنبياء عليهم السلام كالصبيان الأغبياء ، ولذلك قال ﷺ : «إنّما أنا لكم مثل الوالد لولده»(١) و قال عليه السلام : « إنّكم تتهافتون في النار تهافت الفراش و أنا آخذ بحجزكم » (٢) و حظّهم الأوفى في حفظ الأولادهم عن المهالك فإنّهم لم يبعثوا إلّا لذلك وليس لهم في المال حظّ إلّا بقدر القوت فلا جرم اقتصروا على قدر القوت و ما فضل فلم يمسكوه بل أنفقوه فإنّ الانفاق فيه الترياق و في الإمساك السمّ ، ولو فتح للناس باب كسب المال و رغبوا فيه لمالوا إلى سمّ الإمساك و رغبوا عن ترياق

---

(١) أخرجه مسلم و قد تقدم .

(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ مثلي و مثل الناس و قال مسلم « و مثل امتي كمثل رجل استوقد ناراً فجعلت الدواب والفراش يقعن فيه فأنا آخذ بحجزتكم و أنتم تقتحمون فيه » .

الإنفاق ، فلذلك قبّحت الأموال و المعنيّ به تقبيح إمساكها و الحرص عليها للاستكثار منها ، والتوسّع في نعيمها بما يوجب الرّكون إلى الدّنيا ولذّاتها ، فأمّا أخذها بقدر الكفاية وصرف الفاضل إلى الخيرات فليس بمذموم وحقّ كلّ مسافر أن لايحمل إلّا بقدر زاده في السفر إذا صمّم العزم على أن يختصّ بما يحمله فأمّا إذا سمحت نفسه بإطعام الطعام وتوسيع الزّاد على الرّفقاء فلا بأس بالاستكثار ، وقوله عليه السلام : « ليكن بلاغ أحدكم من الدّنيا كزاد الراكب »[1] معناه لأنفسكم خاصّة وإلّا فقد كان فيمن يروي هذا الحديث ويعمل به من يأخذ مائة ألف درهم في موضع واحد ويفرّقها في موضعه و لا يمسك منها حبّة ، فإنّ النعم الدّنياويّة مشوبة قد امتزج دواؤها بدائها ، ومرجوّها بمخوفها ، ونفعها بضرّها ، فمن وثق ببصيرته و كمال معرفته فله أن يقرب منها متّقياً داءها و مستخرجاً دواءها ، و من لا يقدر على ذلك فالبعد البعد ، و الفرار الفرار عن مظانّ الأخطار فلا تعدل بالسلامة شيئاً في حقّ هؤلاء وهم الخلق كلّهم إلّا من عصمه الله تعالى وهداه لطريقه .

فإن قلت : فما معنى النعم التوفيقيّة الرّاجعة إلى الهداية و الرّشد والتأييد و التسديد ؟ فاعلم أنّ التوفيق لا يستغنى عنه أحد و هو عبارة عن التأليف والتلفيق بين إرادة العبد وبين قضاء الله و قدره ، وهذا يشمل الخير والشرّ و ما هو سعادة وما هو شقاوة ، ولكن جرت العادة بتخصيص اسم التوفيق بما يوافق السعادة من جملة قضاء الله و قدره كما أنّ الإلحاد عبارة عن الميل فخصّص بمن يميل إلى الباطل عن الحقّ وكذا الارتداد ولا خفاء بالحاجة إلى التوفيق ولذلك قيل :

إذا لم يكن عون من الله للفتى ✿ فأكثر ما يجنى عليه اجتهاده

فأمّا الهداية فلا سبيل لأحد إلى طلب السعادة إلّا بها لأنّ داعية الإنسان قد تكون مائلة إلى ما فيه صلاح آخرته ولكن إذا لم يعلم ما فيه صلاح آخرته حتّى يظنّ الفساد صلاحاً فمن أين ينفعه مجرّد الإرادة فلا فائدة في الإرادة و القدرة و الأسباب إلّا بعد الهداية ، و لذلك قال تعالى : « ربّنا الّذي أعطى كلّ شيء خلقه

(١) أخرجه ابن ماجه والحاكم ج ٤ ص ٣١٧ من حديث سلمان .

ثمّ هدى »(١) وقال تعالى : « ولولا فضل الله عليكم و رحمته ما زكى منكم من أحد أبداً ولكنّ الله يزكّي من يشاء »(٢).

و قال عليه السلام : « ما من أحد يدخل الجنّة إلّا برحمة الله تعالى أي بهدايته فقيل : ولا أنت يا رسول الله . قال : ولا أنا »(٣).

و للهداية ثلاث منازل :

الاُولى : معرفة طريق الخير و الشرّ المشار إليه بقوله تعالى : « و هديناه النجدين »(٤) و قد أنعم الله تعالى به على كافّة عباده بعضه بالعقل و بعضه على لسان الرُّسل و لذلك قال تعالى : « و أمّا ثمود فهديناهم فاستحبّوا العمى على الهدى »(٥) و أسباب الهدى هي الكتب و الرُّسل و بصائر العقول و هي مبذولة و لا يمنع منها إلّا الحسد و الكبر وحبُّ الدُّنيا و الأسباب الّتي تعمى القلوب وإن كانت لا تعمى الأبصار ، و من جملة المعمّيات الإلف و العادة و حبُّ استصحابها و عنه العبارة بقوله تعالى : « إنّا وجدنا آباءنا على اُمّة »(٦) و عن الكبر والحسد العبارة بقوله تعالى : « و قالوا لو لا نزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم »(٧) و قوله تعالى : « أبشراً منّا واحداً نتّبعه »(٨) ، فهذه المعمّيات هي الّتي منعت الاهتداء ، و الهداية الثانية وراء هذه الهداية العامّة و هي الّتي يمدّ الله تعالى بها العبد حالاً بعد حال وهي ثمرة المجاهدة حيث قال : « والّذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا »(٩) وهو المراد بقوله تعالى : « والّذين اهتدوا زادهم هدى » (١٠) ، و الهداية الثالثة وراء الثانية وهي النور الّذي يشرق في عالم النبوّة والولاية بعد كمال المجاهدة فيهتدي بها إلى ما لا يهتدي إليه بالعقل الّذي يحصل به التكليف و إمكان تعلّم العلوم به وهو الهدى المطلق و ما عداه حجابٌ له و مقدّمات و هو الّذي شرّفه الله

(١) طه : ٥٠ .
(٢) النور : ٢١ .
(٣) أخرجه مسلم ج ٨ ص ١٣٨.
(٤) البلد : ١٠ .
(٥) فصلت : ١٧ .
(٦) الزخرف : ٢١ .
(٧) الزخرف : ٣١ .
(٨) القمر : ٢٤
(٩) العنكبوت : ٦٩ .
(١٠) محمد : ١٧.

تعالى بتخصيص الإضافة إليه وإن كان الكلّ من جهته فقال تعالى : « قل إنّ هدى الله هو الهدى » (١) و هو المسمّى حياة في قوله تعالى : « أو من كان ميتاً فأحييناه و جعلنا له نوراً يمشي به في الناس » (٢) و بقوله : « أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربّه » (٣).

و أمّا الرُّشد فنعني به العناية الإلهيّة الّتي تعين الإنسان عند توجّهه إلى مقاصده فتقويه على ما فيه صلاحه وتفتره عمّا فيه فساده ، و يكون ذلك من الباطن كما قال تعالى : « ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل و كنّا به عالمين » (٤) فالرُّشد عبارة عن هداية باعثة إلى جهة السعادة محرّكة إليها ، فالصبيّ إذا بلغ خبيراً بحفظ المال و طرق التجارة و الاستنماء ولكنّه مع ذلك مبذّر ولايريد الاستنماء لا يسمّى رشيداً ، لا لعدم هدايته بل لقصور هدايته عن تحريك داعيته ، فكم من شخص يقدم على ما يعلم أنّه يضرّه فقد أُعطي الهداية وميّز بها عن الجاهل الّذي لا يدري أنّه يضرّه ولكن ما أعطى الرُّشد ، فالرُّشد بهذا الاعتبار أكمل من مجرّد الهداية إلى وجوه الأعمال وهي نعمة عظيمة .

و أمّا التسديد فهو توجيه حركاته إلى صوب المطلوب و تيسّرها عليه ليشتدّ في صوب الصواب في أسرع وقت ، فإنّ الهداية بمجرّدها لا تكفي ، بل لابدّ من هداية محرّكة للدّاعية و هي الرُّشد و الرُّشد لايكفي بل لابدّ من تيسّر الحركات بمساعدة الأعضاء والآلات حتّى يتمّ المراد ممّا انبعثت الدّاعية إليه ، فالهداية محض التعريف و الرُّشد هو تنبيه الدّاعية لتستيقظ و تتحرّك و التسديد إعانة و نصرة بتحريك الأعضاء في صوب السداد ، وأمّا التأييد فكأنّه جامع للكلّ وهو عبارة عن تقوية أمره بالبصيرة من داخل وبقوّة البطش ومساعدة الأسباب من خارج وهو المراد بقوله تعالى : « إذ أيّدتك بروح القدس » (٥) و تقرب منه العصمة و هي عبارة عن

---

(١) البقرة : ١٢٠ . (٢) الانعام : ١٢٢ .
(٣) الزمر : ٢٢ . (٤) الانبياء : ٥١ .
(٥) المائدة : ١١٠ .

وجود إلهيّ يسنح في الباطن يقوى به الانسان على تحرّي الخير وتجنّب الشرّ حتّى يصير كمانع من باطنه غير محسوس و إيّاه عنى بقوله تعالى : « ولقد همّت به و همّ بها لولا أن رأى برهان ربّه » (١) فهذه هي مجامع النعم و لن تتثبّت إلاّ بما يخوّله الله من الفهم الصافي الثاقب والسمع الواعي والقلب البصير المتواضع المراعي والمعلّم الناصح ، والمال الزّائد على ما يقصر عن المهمّات بقلّته ، القاصر عمّا يشغل عن الدّين بكثرته ، و العزّ الّذي يصونه عن سفه السفهاء و ظلم الأعداء و يستدعي كلّ واحد من هذه الأسباب الستّة عشر أسباباً و تستدعي تلك الأسباب أسباباً إلى أن تنتهي بالآخرة إلى دليل المتحيّرين و ملجأ المضطرّين و ذلك ربّ الأرباب و مسبّب الأسباب ، و إذا كانت تلك الأسباب طويلة لا يحتمل مثل هذا الكتاب استقصاءها فلنذكر منها اُنموذجا ليعلم به معنى قوله تعالى : « و إنّ تعدّوا نعمة الله لا تحصوها » (٢) .

☆(بيان وجه الانموذج في كثرة نعم الله)☆
☆(وتسلسلها وخروجها عن الحصر والاحصاء)☆

إعلم أنّا جمعنا النعم في ستّة عشر ضرباً و جعلنا صحّة البدن نعمة من النعم الواقعة في الرّتبة المتأخّرة ، فهذه النعمة الواحدة لو أردنا أن نستقصي الأسباب الّتي بها تمّت هذه النعمة لم نقدر عليها ولكنّ الأكل أحد أسباب الصحّة فلنذكر نبذة من جملة الأسباب الّتي بها تتمّ نعمة الأكل ، ولا يخفى أنّ الأكل فعل و كلّ فعل من هذا النوع فهو حركة و كلّ حركة فلابدّ لها من جسم متحرّك هو آلتها و لابدّ لها من قدرة على الحركة ، و لابدّ له من إرادة للحركة و لابدّ من علم بالمراد و إدراك له ولابدّ للأكل من مأكول و لابدّ للمأكول من أصل منه يحصل ولابدّ له من صانع يصلحه ، فلنذكر أسباب الإدراك ، ثمّ أسباب الإرادة ، ثمّ أسباب القدرة ، ثمّ أسباب المأكول على سبيل التلويح لا على سبيل الاستقصاء .

الطرف الأوّل في نعم الله تعالى في خلق أسباب الإدراك إعلم أنّ الله تعالى :

---

(١) يوسف : ٢٤ . (٢) ابراهيم : ٣٤ .

خلق النبات و هو أكمل وجوداً من الحجر و المدر و الحديد و النحاس و سائر الجواهر الّتي لا تنمي ولا تغذّي فإنّ النبات خلق فيه قوّة بها يجتذب الغذاء إلى نفسه من جهة أصله و عروقه الّتي في الأرض و هي له آلات بها يجتذب الغذاء و هي العروق الدّقيقة الّتى تراها في كلّ ورقة ثمّ تغلظ اُصولها ، ثمّ تتشعّب و لا تزال تستدقّ وتتشعّب إلى عروق شعريّة تنبسط في أجزاء الورقة حتّى تغيب عن البصر إلّا أنّ النبات مع هذا الكمال ناقص فإنّه إذا أعوزه غذاء يساق إليه و يماسّ أصله جفّ ويبس ولم يمكنه طلب الغذاء من موضع آخر فإنّ الطلب إنّما يكون بمعرفة المطلوب و بالانتقال إليه ، والنبات عاجز عن ذلك ، فمن نعمة الله عليك أن خلق لك آلة الإحساس و آلة الحركة في طلب الغذاء فانظر إلى ترتيب حكمة الله في خلق الحواسّ الخمس الّتي هي آلة الإدراك فأوّلها حاسّة اللّمس و إنّما خلقت لك حتّى إذا مسّتك نار محرقة أو سيف جارح تحسّ به فتهرب منه ، و هذا أوّل حسّ يخلق للحيوان ولا يتصوّر حيوان إلّا وأن يكون له هذا الحسّ لأنّه إن لم يحسّ أصلاً فليس بحيوان ، و أنقص درجات الحسّ أن يحسّ بما يلاصقه و يماسّه فإنّ الإحساس بما يبعد منه إحساس أتمّ لامحالة ، و هذا الحسّ موجود لكلّ حيوان حتّى الدّودة الّتي في الطين فإنّها إذا غرز فيها إبرة انقبضت للهرب لا كالنبات فإنّ النبات يقطع فلا ينقبض إذ لا يحسّ بالقطع إلّا أنّك لو لم يخلق لك إلّا هذا الحسّ لكنت ناقصاً كالدّودة و لا تقدر على طلب الغذاء من حيث يبعد عنك بل ما يماسّ بدنك فتحسّ به فتجذبه إلى نفسك فقطّ فافتقرت إلى حسّ تدرك به ما بعد عنك فخلق لك الشمّ إلّا أنّك تدرك به الرّائحة و لا تدري أنّها جاءت من أيّ ناحية فتحتاج أن تطوف كثيراً من الجوانب ، فربّما تعثر على الغذاء الّذي شممت ريحه وربّما لم تعثر فتكون في غاية النقصان لو لم يخلق لك إلّا هذا ، فخلق لك البصر لتدرك به ما بعد عنك وتدرك جهته فتقصد تلك الجهة بعينها إلّا أنّه لو لم يخلق لك إلّا هذا لكنت ناقصاً إذ لا تدرك بهذا ما وراء الجدران والحجب فتبصر غذاء ليس بينك وبينه حجاب وتبصر عدوّاً لا حجاب بينك وبينه وأمّا ما بينك وبينه حجاب فلا تبصره

و قد لا ينكشف الحجاب إلّا بعد قرب العدوّ فتعجز عن الهرب فخلق لك السمع حتّى تدرك به الأصوات من وراء الجدران والحجب عند جريان الحركات ولأنّك لا تدرك بالبصر إلّا شيئاً حاضراً وأمّا الغائب فلا يمكنك معرفته إلّا بكلام ينتظم من حروف و أصوات تدرك بحسّ السمع فاشتدّت إليه حاجتك فأحدث فيك ذلك وميّزت بفهم الكلام عن سائر الحيوانات و كلّ ذلك ما كان يغنيك لو لم يكن لك حسّ الذّوق إذ يصل الغذاء إليك ، فلا تدرك أنّه موافق لك أو مخالف فتأكله فتهلك ، كالشجرة يصبّ في أصلها كلّ مايع ولا ذوق لها فتجذبه ، و ربّما يكون ذلك سبب جفافها ، ثمّ كلّ ذلك ما كان يكفيك لولم يخلق في مقدّم دماغك إدراك آخر يسمّى حسّاً مشتركاً يتأدّى إليه هذه المحسوسات الخمس ويجتمع فيه و لولاه لطال الأمر عليك فإنّك إذا أكلت شيئاً أصفر مثلا فوجدته مرّاً مخالفاً لك فتركته فإذا رأيته مرّة اُخرى فلا تعرف أنّه مرّ مضرّ مالم تذقه ثانياً لولا الحسّ المشترك ، إذ العين تبصر الصفرة ولا تدرك المرارة ، فكيف تمتنع عنه ، و الذّوق يدرك المرارة و لا يدرك الصفرة فلابدّ من حاكم تجتمع عنده الصفرة و المرارة جميعاً حتّى إذا أدركت الصفرة حكم بأنّه مرّ فيمتنع عن تناوله ثانياً وهذا كلّه يشاركك فيه الحيوانات إذ للشاة هذه الحواسّ كلّها ، فلولم يكن لك إلّا هذا لكنت ناقصاً فإنّ البهيمة يحتال عليها فتؤخذ فلا تدري كيف تدفع الحيلة عن نفسها و كيف يتخلّص إذا قيّدت وقد تلقي نفسها في البئر و لاتدري أنّ ذلك يهلكها ، ولذلك قد تأكل البهيمة ما تستلذّه في الحال ويضرّها في ثاني الحال فتمرض وتموت إذ ليس لها إلّا الإحساس بالحاضر ، فأمّا إدراك العواقب فلا ، فميّزك الله تعالى و أكرمك بصفة اُخرى هي أشرف من الكلّ و هو العقل فبه تدرك مضرّة الأطعمة و منفعتها و ما يضرّ في الحال و المآل ، و به تدرك كيفيّة طبخ الأطعمة وتأليفها وإعداد أسبابها ، فتنتفع بعقلك في الأكل الّذي هو سبب صحّتك و هو أخسّ فوائد العقل و أقلّ الحكم فيه ، بل الحكمة الكبرى فيه معرفة الله تعالى و معرفة أفعاله و معرفة الحكمة في عالمه و عند ذلك تنقلب فائدة الحواسّ الخمس في حقّك فتكون الحواسّ الخمس كالجواسيس وأصحاب

الأخبار الموكّلين بنواحي المملكة ، و قد وكّلت كلّ واحدة منها بأمر تخصّه فواحدة منها بأخبار الألوان والاُخرى بأخبار الأصوات والاُخرى بأخبار الرّوائح و الاُخرى بأخبار الطعوم و الاُخرى بأخبار الحرّ و البرد و الخشونة و الملاسة و اللّين و الصلابة و غيرها و هذه البرد و الجواسيس يقتنصون الأخبار من أقطار المملكة ويسلّمونها إلى الحسّ المشترك ، والحسّ المشترك قاعد في مقدّمة الدّماغ مثل صاحب القصص و الكتب على باب الملك يجمع القصص و الكتب الواردة من نواحي العالم فيأخذها وهي مختومة فيسلّمها إذ ليس له إلّا أخذها و جمعها و حفظها فأمّا معرفة حقائق ما فيها فليس إليه ولكن إذا صادق القلب العاقل الّذي هو الأمير و الملك سلّم الأنهاآت إليه مختومة فيفتّشها الملك و يطّلع منها على أسرار المملكة ويحكم فيها بأحكام عجيبة لايمكن استقصاؤها في هذا المقام وبحسب ما يلوح له من الأحكام و المصالح يحرّك الجنود و هي الأعضاء مرّة في الطلب و مرّة في الهرب ومرّة في إتمام التدبيرات الّتي تعنّ له فهذه سياقة نعمة الله تعالى عليك في الإدراكات و لاتظنّنّ إنّنا استوفيناها ، فإنّ الحواسّ الظاهرة هي بعض الإدراكات و البصر واحد من جملة الحواسّ ، والعين آلة واحدة له و قد ركبت العين من عشر طبقات مختلفة بعضها رطوبات و بعضها أغشية و بعض الأغشية كأنّها نسج العنكبوت ، وبعضها كالمشيمة و بعض تلك الرّطوبات كأنّها بياض البيض و بعضها كأنّه الجمد و لكلّ واحدة من هذه الطبقات العشر صفة وصورة وشكل وهيئة وعرض و تدوير و تركيب لو اختلّت طبقة واحدة من جملة العشر أو صفة واحدة من صفات تلك الطبقة لاختلّ البصر و عجز الأطباء و الكحّالون عنه فهذا في حسّ واحد فقس به حاسّة السمع وسائر الحواسّ بل لايمكن أن تستوفى حكم الله تعالى و أنواع نعمته في جسم البصر و طبقاته في مجلّدات كثيرة مع أنّ جملته لا تزيد على قدر جوزة صغيرة ، فماظنّك بجميع حواسّ البدن وسائر أعضائه وعجائبه فهذه مرامز إلى نعم الله تعالى بخلق الإدراكات .

الطرف الثاني في أصناف النعم في خلق الإدراكات : اعلم أنّه لوخلق لك البصر

حتّى تدرك به الغذاء من بعد و لم يخلق لك ميل في الطبع و شوق إليه و شهوة له تستحثّك على الحركة لكان البصر معطّلاً فكم من مريض يرى الطعام و هو أنفع الأشياء له و قد سقطت شهوته فلا يتناوله فيبقى البصر و الإدراك معطّلاً في حقّه فاضطررت إلى أن يكون لك ميل إلى ما يوافقك تسمّى شهوة و نفرة عمّا يخالفك تسمّى كراهة لتطلب بالشهوة وتهرب بالكراهة فخلق الله فيك شهوة الطعام وسلّطها عليك و وكّلها بك كالمتقاضي الّذي يضطرّك إلى التناول حتّى تتناول و تغتذي فتبقى بالغذاء و هذا ممّا يشاركك فيه الحيوان دون النبات ، ثمّ هذه الشهوة لو لم تسكن إذا أخذت مقدار الحاجة أسرفت و أهلكت نفسك فخلق الله تعالى لك الكراهة عند الشبع لتترك الأكل بها ، لاكالزّرع فإنّه لايزال يجتذب الماء إذا انصبّ في أسافله حتّى يفسد فتحتاج إلى آدميّ يقدّر غذاءه بقدر الحاجة فيسقيه مرّة ويقطع عنه الماء اُخرى ، وكما خلقت لك هذه الشهوة حتّى تأكل فيبقى به بدنك خلق لك شهوة الوقاع حتّى تجامع فيبقى به نسلك و لو قصصنا عليك عجائب صنع الله في خلق الرّحم وخلق دم الحيض وتأليف الجنين من النطفة ودم الحيض و كيفيّة خلق الانثيين و العروق السالكة إليها من الفقار الّذي هو مستقرّ النطفة و كيفيّة انصباب ماء المرأة من الترائب بواسطة العروق و كيفيّة انقسام مقعر الرّحم إلى قوالب تقع النطفة في بعضها فتتشكّل بشكل الذكور و تقع في بعضها فتتشكّل بشكل الإناث و كيفيّة إدارتها في أطوار خلقها مضغة وعلقة ثمّ عظماً و لحماً و دماً و كيفيّة قسمة أجزائها إلى رأس ورجل وبطن وظهر و يد وسائر الأعضاء لقضيت من أنواع نعم الله عليك في مبدأ خلقك كلّ العجب فضلاً ممّا تراه الآن ولكنّا لسنا نريد أن نتعرّض إلّا لنعم الله تعالى في الأكل وحده كيلا يطول الكلام فإذن شهوة الطعام أحد ضروب الإرادات وذلك لايكفيك فإنّه تأتيك المهلكات من الجوانب ، فلو لم يخلق فيك الغضب الّذي به تدفع كلّ ما يضادّك و لا يوافقك لبقيت عرضة للآفات و لاُخذ منك كلّ ما حصّلته من الغذاء ، فإنّ كلّ أحد يشتهي ما في يديك فتحتاج إلى داعية في دفعه و مقاتلته و هي داعية الغضب ، ثمّ لا يكفيك هذا إذ الشهوة والغضب لا يدعوان إلّا

إلى ما يضرّ و ينفع في الحال أمّا في المآل فلا تكفي فيه هذه الإرادة فخلق لك إرادة أُخرى مسخّرة تحت إشارة العقل المعرّف للعواقب كما خلق الشهوة و الغضب مسخّرة تحت إدراك الحسّ المدرك للحالة الحاضرة فتمّ بها انتفاعك بالعقل إذكان مجرّد المعرفة بأنّ هذه الشهوة مثلاً تضرّك لا تغنيك في الاحتراز عنها ما لم يكن لك ميل إلى العمل بموجب المعرفة و هذه الإرادة أفردت بها عن البهائم إكراماً لبني آدم كما أفردت بمعرفة العواقب وقد سمّينا هذه الإرادة باعثاً دينياً وفصّلناه في كتاب الصبر تفصيلاً أوفى من هذا .

الطرف الثالث : في نعم الله تعالى في خلق القدرة وآلات الحركة : إعلم أنّ الحسّ لا يفيد إلّا الإدراك و الإرادة لا معنى لها إلّا الميل إلى الطلب أو الهرب وهذا لا كفاية فيه مالم تكن فيك آلة الطلب والهرب فكم من مريض مشتاق إلى شيء بعيد منه مدرك له لكنّه لا يمكنه أن يمشي إليه لفقد رجله أو لا يمكنه أن يتناوله لفقد يده أو لفلج أو خدر فيهما ، فلابدّ من آلات للحركة و قدرة في تلك الآلات على الحركة لتكون حركتها بمقتضى الشهوة طلباً وبمقتضى الكراهة هرباً فلذلك خلق الله تعالى لك الأعضاء الّتي تنظر إلى ظاهرها ولا تعرف أسرارها فمنها ما هو للطلب والهرب كالرّجل للإنسان و الجناح للطير و القوائم للدّوابّ ، و منها ما هو للدّفع كاليد للإنسان و القرن للحيوان ، و في هذا تختلف الحيوانات اختلافاً كثيراً فمنها ما يكثر أعداؤه ويبعد غذاؤه ، فيحتاج إلى سرعة الحركة فخلق له الجناح ليطير بسرعة ، و منها ما خلق له أربع قوائم ، ومنها ماله رجلان ، ومنها مايدبّ و ذكر ذلك يطول فلنذكر الأعضاء الّتي بها يتمّ الأكل فقط ليقاس عليها غيرها ، فنقول رؤيتك الطعام من بُعد وحركتك إليه لا تكفي مالم تأخذه فافتقرت إلى آلة باطشة فأنعم الله عليك بخلق اليدين و هما طويلتان فتمدّان إلى الأشياء و مشتملتان على مفاصل كثيرة لتتحرّك في الجهات فتمتدّ و تنثني إليها فلا تكون كخشبة منصوبة ، ثمّ جعل رأس اليد عريضاً بخلق الكفّ ، ثمّ قسم رأس الكفّ بخمسة أقسام هي الأصابع وجعلها في صفّين بحيث يكون الإبهام في جانب ويدور على الأربعة الباقية ولو كانت مجتمعة

أو متراكمة لم يحصل بها تمام غرضك فوضعها وضعاً إن بسطتها كانت لك مجرفة و أن ضممتها و ثنّيتها كانت لك مغرفة و إن جمعتها كانت لك آلة للضرب ، و إذا نشرتها ثمّ قبضتها كانت لك آلة في القبض ، ثمّ خلق لها أظفاراً و أسند إليها رؤوس الأصابع حتّى لاتتفتّت وحتّى تلتقط بها الأشياء الدّقيقة الّتي لا تحويها الأصابع فتأخذها برؤوس أظفارك ، ثمّ هب أنّك أخذت الطعام باليدين فمن أين يكفيك هذا ما لم يصل إلى المعدة و هي في الباطن فلابدّ وأن يكون من الظاهر دهليز إليها حتّى يدخل الطعام منه فجعل الفم منفذاً إلى المعدة مع ما فيه من الحكمة الكثيرة سوى كونه منفذاً للطعام إلى المعدة ، ثمّ إن وضعت الطعام في الفم و هو قطعة واحدة فلا يتيسّر ابتلاعه فتحتاج إلى طاحونة تطحن بها الطعام فخلق لك اللّحيين من عظمين وركب فيها الأسنان و طبق الأضراس من العليا على السفلى لتطحن بهما الطعام طحناً ، ثمّ الطعام تارة يحتاج إلى الكسر وتارة إلى القطع ، ثمّ يحتاج إلى الطحن بعد ذلك ، فقسّم الأسنان إلى عريضة طواحين كالأضراس ، و إلى حادّة قواطع كالرّباعيّات وإلى ما يصلح للكسر كالأنياب ، ثمّ جعل مفصل اللّحيين متخلخلاً بحيث يتقدّم الفكّ الأسفل و يتأخّر حتّى يدور على الفكّ الأعلى دوران الرّحى ولولاه لما تيسّر إلّا ضرب أحدهما على الآخر مثل تصفيق اليدين مثلا و بذلك لا يتمّ الطحن فجعل اللّحى الأسفل متحرّكاً حركة دوريّة واللّحى الأعلى ثابتاً لايتحرّك ، فانظر إلى عجيب صنع الله فإنّ كلّ رحى تكون صنعة الخلق فيثبت منها الحجر الأسفل و يدور الأعلى إلّا هذه الرّحى الّتي صنعها الله إذ يدور منها الأسفل على الأعلى ، فسبحانه ما أعظم شأنه و أتمّ برهانه و أوسع امتنانه ، ثمّ هب أنّك وضعت الطعام في فضاء الفم فكيف يتحرّك الطعام إلى ما تحت الأسنان أو كيف تستجرّه الأسنان إلى نفسها ، و كيف يتصرّف اليد في داخل الفم فانظر كيف أنعم الله تعالى عليك بخلق اللّسان فإنّه يطوف في جوانب الفم و يرد الطعام من الوسط إلى الأسنان بحسب الحاجة كالمجرفة الّتي تردّ الطعام إلى الرّحى هذا مع ما فيه من فائدة الذوق و عجائب قوّة النطق الّتي لسنا نطنب بذكرها ، ثمّ هب أنّك قطعت الطعام و طحنته

وهو يابس فلا تقدر على الابتلاع إلاّ بأن ينزلق إلى الحلق بنوع رطوبة ، فانظر كيف خلق الله تعالى تحت اللّسان عيناً يفيض اللّعاب منها وينصبّ بقدر الحاجة حتّى ينعجن به الطعام ، و انظر كيف سخّرها لهذا الأمر فإنّك ترى الطعام من بعيد فيثور الحنكان للخدمة و ينصبّ اللّعاب حتّى تتحلّب أشداقك و الطعام بعد بعيد عنك ثمّ يحتاج هذا الطعام المطحون المنعجن إلى من يوصله إلى المعدة و هو في الفم ولا تقدر على أن تدفعه باليد و لا في المعدة يد حتّى تمتدّ فتجذب الطعام ، فانظر كيف هيّأ الله تعالى المريء والحنجرة وجعل على رأسها طبقات تنفتح لأخذ الطعام ، ثمّ تنطبق و تنضغط حتّى يتقلّب الطعام بضغطة فيهوى إلى المعدة في دهليز المريء ، فإذا ورد الطعام على المعدة فهو خبز و فاكهة مقطعة فلا يصلح لأن يصير عظماً و لحماً و دماً على هذه الهيئة بل لابدّ أن يطبخ طبخاً تامّاً يتشابه أجزاؤه ، فخلق الله تعالى المعدة على هيئة قِدر فيقع فيها الطعام فتحتوي عليه و تغلق عليه الأبواب فلا يزال لابثاً فيها حتّى يتمّ الهضم والنضج بالحرارة الّتي تحيط بالمعدة من الأعضاء الباطنة إذ من جانبها الأيمن الكبد و من الأيسر الطحال و من قدّام الثرب (١) ، ومن خلف لحم الصلب فتتعدّى الحرارة إليها من تسخين هذه الأعضاء من الجوانب حتّى ينطبخ الطعام ويصير مائعاً متشابهاً يصلح للنفوذ في تجاويف العروق ، و عند ذلك يشبه ماء الشعير في تشابه أجزائه ورقّته و هو بعد لايصلح للتغذية ، فخلق الله تعالى بينها وبين الكبد مجاري من العروق وجعل لها فوهات كثيرة (٢) حتّى ينصبّ الطعام فيها فينتهي إلى الكبد و الكبد معجون من طينة الدّم حتّى كأنّه دم و فيه عروق كثيرة شعريّة منتشرة في أجزاء الكبد فينصبّ الطعام الرقيق النافذ فيها و ينتشر في أجزائها حتّى تستولي عليه قوّة الكبد فتصبغه بلون الدّم فيستقرّ فيها ريثما يحصل له نضج آخر (٣) ويحصل له هيئة الدّم الصافي الصالح لغذاء الأعضاء إلّا أنّ حرارة

(١) الثرب ـ بالثاء المثلثة ـ : الشحم الرقيق الذى يغشى الكرش والامعاء . و فى بعض نسخ الاحياء مكان الثرب [الترائب] .

(٢) الفوهة من الوادى و الطريق و جبل النار : فمها ، جمعها فوهات .

(٣) الريث ـ بالفتح الراء ـ : المهلة من الزمان وريثما يحصل أى مقدار ما يحصل .

الكبد هي الّتي تنضج هذا الدّم فيتولّد من هذا الدّم فضلتان كما يتولّد من جميع ما يطبخ إحداهما شبيهة بالدّردي والعكر (١) ، و هي الخلط السوداوي والاُخرى شبيهة بالرّغوة و هي الصفراء ، و لو لم يفضل عليها هاتان الفضلتان فسد مزاج الأعضاء ، فخلق الله المرارة و الطحال وجعل لكلّ واحد منهما عنقاً ممدوداً في الكبد داخلاً في تجويفه فتجذب المرارة الفضلة الصفراويّة و يجذب الطحال العكر السوداوي ، فيبقى الدّم صافياً ليس فيه إلّا زيادة رقّة و رطوبة لما فيه من المائيّة و لو لاها لما انتشرت في تلك العروق الشعريّة ، و لا خرجت منها متصاعدةً إلى الأعضاء ، فخلق الله تعالى الكليتين وأخرج من كلٍّ واحدة منهما عنقاًممدوداً طويلاً إلى الكبد ، ومن عجائب حكمة الله تعالى أنّ عنقهما ليس داخلاً في تجويف الكبد بل متّصل بالعروق الطالعة من حدبة الكبدحتّى يجذب مائيّتها بعدالطلوع من العروق الدّقيقة الّتي في الكبد إذ لو اجتذب قبل ذلك لغلظ ولم يخرج من العروق ، فاذا انفصلت منه المائيّة فقد صارالدّم صافياً من الفضلات الثلاث نقيّاً من كلّ ما يفسد الغذاء ، ثمّ إنّ الله تعالى أطلع من الكبد عروقاً ، ثمّ قسّمها بعد الطلوع أقساماً و قسّم كلّ قسم بشعب وانتشر ذلك في البدن كلّه من القرن إلى القدم ظاهراً وباطناً فيجري الدّم الصافي فيها و يصل إلى سائر الأعضاء حتّى تصير العروق المنقسمة شعريّة كعروق الأوراق في الأشجار بحيث لاتدرك بالأبصار فيصل منها الغذاء بالرّشح إلى سائر الأجزاء ، ولو حلّت بالمرارة آفة فسدالدّم وحصل منه الأمراض الصفراويّة كاليرقان و البثور والحمرة (٢)، إن حلّ بالطحال آفة فلم يجذب الخلط السوداوي حدثت الأمراض السوداويّة كالبهق و الجذام والماليخوليا و غيرها ، وإن لم تندفع المائيّة نحو الكلى حدث منه الاستسقاء وغيره ، ثمّ انظر إلى حكمة الفاطر الحكيم حيث رتّب منافع على هذه الفضلات الثلاث الخسيسة أمّا المرارة فانّها تجذب بأحد

---

(١) العكر دردى التريت .

(٢) البثور بتقديم الموحدة على المثلثة : خراج صغار ، والحمرة داء يحمر موضعه و هى الورم الصفراوى المحض فارسيتها « سرخ باد » .

عنقيها و تقذف بالعنق الأخرى إلى الأمعاء ليحصل له في ثفل الطعام رطوبة مزلقة و يحدث في الأمعاء لذع يحركها للدفع فتنضغط حتى يندفع الثفل و ينزلق وتكون صفرته لذلك ، وأمّا الطحال فإنّه يحيل تلك الفضلة إحالة يحصل بها فيه حموضة وقبض ثمّ يرسل منها في كلّ يوم شيئاً إلى فم المعدة فيحرّك الشهوة بحموضته وينبّهها ويثيرها ويخرج الباقي مع الثفل ، و أمّا الكلية فإنّها تغتذي ممّا في تلك المائيّة من دم وترسل الباقي إلى المثانة ، ولنقتصر على هذا القدر من بيان نعمة الله تعالى في الأسباب الّتي اُعدّت للأكل ، ولو ذكرنا كيفيّة احتياج الكبد إلى القلب و الدّماغ واحتياج كلّ واحد من الأعضاء الرّئيسة إلى صاحبه و كيفيّة انشعاب العروق الضوارب في القلب إلى سائر البدن و الّتي بواسطتها يصل الرّوح و كيفيّة انشعاب الأعصاب من الدّماغ إلى سائر البدن و بواسطتها يصل الحسّ و كيفيّة انشعاب العروق السواكن من الكبد إلى سائر البدن و بواسطتها يصل الغذاء ، ثمّ كيفيّة تركيب الأعضاء و عدد عظامها و عضلاتها و عروقها و أوتارها و رباطاتها و غضاريفها و رطوباتها لطال الكلام ، و كلّ ذلك يحتاج إليه للأكل ولاُمور آخر سواه بل في الآدميّ آلاف من العضلات و العروق مختلفة بالصغر و الكبر والدّقّة والغلظ ، و كثرة الانقسام وقلّته ، ولا شيء منها إلّا وفيه حكمة أواثنتان أو ثلاث أو أربع إلى عشرة و زيادة ، و كلّ ذلك نعمة من الله عليك ، لو سكن من جملتها عرق متحرّك أو تحرّك عرق ساكن لهلكت يامسكين ، فانظر إلى نعمة الله أوّلاً لتقوى بها على الشكر ، فإنّك لا تعرف من نعمة الله إلّا الأكل وهي أخسّها ، ثمّ لاتعرف منها إلّا أنّك تجوع فتأكل و الحمار أيضاً يعلم أنّه يجوع فيأكل و يتعب فينام ويشتهي فيجامع ويستريح فيقمص و يرمح[1] ، فإذا لم تعرف أنت من نفسك إلّا ما يعرفه الحمار فكيف تقوم بشكر نعم الله عليك و هذا القدر الّذي رمزنا إليه على الإيجاز قطرة من بحر واحد من بحار نعم الله تعالى فقطّ ، فقس على الإجمال ما

---

(١) قمص الفرس و غيره : رفع يديه معاً وطرحهما معا ، و عجن برجليه ، والعير : وثب و نفر . رمحه الفرسّ والحمار و البغل اذا ضربه برجليه .

أهملناه من جملة ما عرفناه حذراً من التطويل وجملة ما عرفناه و عرفه الخلق كلّهم بالإضافة إلى ما لم يعرفوه من نعم الله أقلّ من قطرة من بحار إلّا أنّ من علم شيئاً من هذا أدرك شمّة عن معاني قوله تعالى : « و إن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها » (١) ثمّ انظر كيف ربط الله تعالى قوام هذه الأعضاء و قوام منافعها و إدراكاتها و قواها ببخار لطيف يتصاعد من الأخلاط الأربعة و مستقرّه القلب ويسري في جميع البدن بواسطة العروق الضوارب فلاينتهي إلى جزء من أجزاء البدن إلّا و يحدث عند وصوله في تلك الأجزاء مايحتاج إليه من قوّة حسّ وإدراك و قوّة حركة وغيرها كالسراج الّذي يدار في أطراف البيت فلا يصل إلى جزء إلّا و يحصل بسبب وصوله ضوء على أجزاء البيت وهو من خلق الله تعالى و اختراعه ولكنّه جعل السراج سبباً له بحكمته و هذا البخار اللّطيف هو الّذي تسمّيه الأطباء الرّوح و محلّه القلب ، و مثاله جرم نار السراج ، والقلب له كالمسرجة ، والدّم الأسود الّذي في باطن القلب له كالفتيلة ، و الغذاء له كالزّيت و الحياة الظاهرة في سائر أعضاء البدن بسببه كالضوء للسراج في جملة البيت ، و كما أنّ السراج إذا انقطع زيته انطفأ فسراج الرّوح أيضاً ينطفىء مهما انقطع غذاؤه و كما أنّ الفتيلة قد تحترق و تصير رماداً بحيث لا يقبل الزّيت فينطفي السراج مع كثرة الزيت و كذلك الدّم الّذي تشبّث به هذا البخار في القلب قد يحترق بفرط حرارة القلب فينطفي مع وجود الغذاء فإنّه لايقبل الغذاء الّذي يبقى الرّوح به كما لايقبل الرّماد الزّيت قبولاً تتشبّث الناريّة ، و كما أنّ السراج تارة تنطفي بسبب من داخل كما ذكرنا و تارة بسبب من خارج كهبوب ريح أو إطفاء إنسان فكذلك انطفاء الرّوح تارة يكون بسبب من داخل و تارة بسبب من خارج وهو القتل و كما أنّ انطفاء السراج بفناء الزّيت أو بفساد الفتيلة أو بريح عاصف أو بإطفاء إنسان لايكون إلّا بأسباب مقدّرة في علم الله مرتّبة ، و يكون كلّ ذلك بقدر فكذلك انطفاء الرّوح و كما أنّ انطفاء السراج هو منتهى وقت وجوده فيكون ذلك أجله الّذي أجّل له في أمّ الكتاب فكذلك انطفاء الرّوح و كما أنّ السراج

(١) ابراهيم : ٣٤ .

إذا انطفأ أظلم البيت كلّه فالرُّوح إذا انطفأ أظلم البدن كلّه و فارقته أنواره الّتي كان يستفيدها من الرُّوح و هي أنوار الإحساسات و القدر والإرادات و سائر ما يجمعها معنى لفظ الحياة ، فهذا أيضاً رمزٌ وجيز إلى عالم آخر من عوالم نعمة الله تعالى وعجائب صنعه وحكمته ليعلم أنّه لو كان البحر مداداً لكلمات ربّي لنفد البحر قبل أن تنفد كلماته فتعساً لمن كفر بالله تعساً وسحقاً لمن كفر نعمته سحقاً[1] فإن قلت : فقد وصفت الرُّوح و مثّلته و رسول الله صلّى الله عليه وآله سئل عن الرُّوح فلم يزد على أن قال : « الرُّوح من أمر ربّي » فلم لم يصفه على هذا الوجه ؟ فاعلم أنَّ هذه غفلة عن الاشتراك الواقع في لفظ الرُّوح فإنَّ الرُّوح يطلق لمعان كثيرة لانطول بذكرها و نحن إنّما وصفنا من جملتها جسماً لطيفاً تسمّيه الأطبّاء روحاً و قد عرفوا صفته و وجوده و كيفيّة سريانه في الأعضاء و كيفيّة حصول الإحساس و القوى في الأعضاء به حتّى إذا خدر بعض الأعضاء علموا أنَّ ذلك لوقوع سدّة في مجرى هذا الرُّوح فلا يعالجون موضع الخدر بل منابت الأعصاب و مواقع السدّة فيها ويعالجونها بما يفتح السدّة فإنَّ هذا الجسم بلطفه ينفذُ في شباك العصب و بواسطته يتأدّى من القلب إلى سائر الأعضاء و ما يرتقي إليه معرفة الأطبّاء فأمره نازل سهل ، وأمّا الرُّوح الّتي هي الأصل و هي الّتي إذا فسدت فسد بها سائر الجسد ، فذلك سرٌّ من أسرار الله تعالى لم نصفه و لا رخصة في وصفه إلّا أن يقال : هو أمر ربّانيٌّ كما قال تعالى : « قل الروح من أمر ربّي »[2] والأُمور الربّانيّة لم يحتمل العقول وصفها بل تتحيّر فيها عقول أكثر الخلق ، وأمّا الأوهام والخيالات فقاصرة عنها بالضرورة قصور البصر عن إدراك الأصوات وتتزلزل في ذكر مبادي وصفها معاقد العقول المقيّدة بالجوهر و العرض المحبوسة في مضيقها فلا يدرك بالعقل شيء من وصفه بل بنور آخر أعلى و أشرف من العقل يشرق ذلك النور في عالم النبوّة و الولاية ونسبته إلى العقل نسبة العقل إلى الوهم و الخيال وقد خلق الله تعالى الخلق أطواراً ، فكما يدرك الصبيُّ المحسوسات

(١) التعس : الهلاك . والسحق ـ بالضم و بضمتين ـ : البعد .

(٢) الاسراء : ٨٥ .

ولا يدرك المعقولات لأنّ ذلك طور لم يبلغه بعد فكذلك يدرك البالغ المعقولات ولا يدرك ما وراءها لأنّ ذلك طور لم يبلغه بعد، و إنّه لمقام شريف ومشرب عذب و رتبة عالية فيها يلحظ جناب الحقّ بنور الإيمان و اليقين وذلك المشرب أعزّ من أن يكون شريعة لكلّ وارد بل لا يطّلع عليه إلّا واحد بعد واحد و لجناب الحقّ صدر وفي مقدّمة الصدر مجال وميدان رحب وعلى أوّل الميدان عتبة هي مستقرّ ذلك الأمر الربّاني فمن لم يكن له على العتبة جواز و لا لحافظ العتبة مشاهدة استحال أن يصل إلى الميدان فكيف بالانتهاء إلى ما وراءه من المشاهدات العالية ولذلك قيل: من لم يعرف نفسه لم يعرف ربّه، و أنّى يصادف هذا في خزائن الأطبّاء و من أين للطبيب أن يلاحظه؟ بل المعنى المسمّى روحاً عند الطبيب بالإضافة إلى هذا الأمر الربّاني كالكرة الّتي يحرّكها صولجان الملك بالإضافة إلى الملك فمن أدرك الرّوح الطبّي وظنّ أنّه أدرك الأمر الربّاني كان كمن رأى الكرة فظنّ أنّه رأى الملك ولا شكّ في أنّ خطاءه فاحش وهذا الخطاء أفحش منه جدّاً، ولمّا كانت العقول الّتي بها يحصل التكليف و بها يدرك مصالح الدّنيا عقولاً قاصرة عن ملاحظة كنه هذا الأمر لم يأذن الله تعالى لرسوله ﷺ أن يتحدّث عنه بل أمره أن يكلّم الناس على قدر عقولهم ولم يذكر الله في كتابه من حقيقة هذا الأمر شيئاً لكن ذكر نسبته وفعله ولم يذكر ذاته أمّا نسبته ففي قوله «من أمر ربّي» و أمّا فعله فقد ذكره في قوله: «يا أيّتها النّفس المطمئنّة ۞ ارجعي إلى ربّك راضية مرضيّة ۞ فادخلي في عبادي ۞ وادخلي جنّتي»[1] ولنرجع الآن إلى الغرض فإنّ المقصود ذكر نعم الله في الأكل وقد ذكر بعض نعم الله في آلات الأكل.

الطرف الرّابع: في نعم الله في الاُصول الّتي منها تحصل الأطعمة و تصير صالحة لأن يصلحها الآدمي بعد ذلك بصنعته: إعلم أنّ الأطعمة كثيرة و لله تعالى في خلقها عجائب كثيرة لا تحصى وأسباب متوالية لا تتناهى وذكر ذلك في كلّ طعام ممّا يطول فإنّ الأطعمة إمّا أدوية و إمّا فواكه و إمّا أغذية فلنأخذ الأغذية فإنّها الأصل

(١) الفجر: ٢٨ و ٢٩ و ٣٠ و ٣١.

و لنأخذ من جملتها حبّة من البرّ و لندع سائر الأغذية فنقول : إذا وجدت حبّة أو حبّات فلو أكلتها فنيت وبقيت جائعاً فما أحوجك إلى أن تنمو الحبّة في نفسها وتزيد و تتضاعف حتّى تفي بجميع حاجتك ، فخلق الله تعالى في حبّة الحنطة من القوى ما تغتذي به كما خلق فيك ، فإنّ النبات إنّما يفارقك في الحسّ و الحركة و لا يفارقك في الاغتذاء لأنّه يغتذي بالماء ويجتذب إلى باطنه بواسطة العروق كما تغتذي أنت وتجتذب ، ولسنا نطنب في ذكر آلات النبات في اجتذاب الغذاء إلى نفسه ولكن نشير إلى غذائه فنقول : كما أنّ الخشب و التراب لا يغذيك بل تحتاج إلى طعام مخصوص فكذلك الحبّة لا تغتذي بكلّ شيء بل تحتاج إلى شيء مخصوص بدليل أنّك لو تركتها في البيت لم تزد لأنّه لم يحط بها إلّا الهواء ، و مجرّد الهواء لا يصلح لغذائها ولو تركتها في الماء لم تزد ولو تركتها في أرض لا ماء فيها لم تزد بل لابدّ من أرض فيها ماء يمتزج ماؤها بالأرض فيصير طيناً ، و إليه الإشارة بقوله تعالى : « فلينظر الإنسان إلى طعامه ✩ أنّا صببنا الماء صبّاً ✩ ثمّ شققنا الأرض شقّاً » (١) ثمّ لا يكفي الماء و التراب إذ لو تركت في أرض نديّة صلبة متراكمة لم تنبت لفقد الهواء فيحتاج إلى تركها في أرض رخوة متخلخلة يتغلغل الهواء إليها ، ثمّ الهواء لا يتحرّك إليها بنفسه فيحتاج إلى ريح تحرّك الهواء و تضربه بقهر و عنف على الأرض حتّى ينفذ فيها و إليه الإشارة بقوله تعالى : « وأرسلنا الرّياح لواقح » (٢) و إنّما إلقاحها في إيقاع الازدواج بين الهواء و الماء والأرض ، ثمّ كلّ ذلك لا يغنيك لو كان في برد مفرط أو شتاء شاتي فتحتاج إلى حرارة الرّبيع والصيف ، فقد بان احتياج غذائه إلى هذه الأربعة ، فانظر إلى ما ذا يحتاج كلّ واحد إذ يحتاج الماء لينساق إلى أرض الزّراعة من البحار والعيون والأنهار و السواقي فانظر كيف خلق البحار وفجر العيون و أجرى منها الأنهار ، ثمّ الأرض ربّما تكون مرتفعة و المياه لا ترتفع إليها فانظر كيف خلق الغيوم و كيف سلّط الرّياح عليها لتسوقها بإذنه إلى أقطار العالم وهي سحب ثقال حوامل بالماء ، ثمّ انظر كيف يرسله مدراراً

(١) عبس : ٢٥ و ٢٦ و ٢٧ . (٢) الحجر : ٢٢ .

على الأراضي في وقت الرّبيع و الخريف على حسب الحاجة و انظر كيف خلق الجبال حافظة للمياه تنفجر منها العيون تدريجاً فلو خرجت دفعة لغرقت البلاد وهلك الزّرع والمواشي ، و نعم الله تعالى في الجبال و السحاب و البحار و الأمطار لا يمكن احصاؤها و أمّا الحرارة فإنّها لاتحصل بين الماء والأرض و كلاهما باردان فانظر كيف سخّر الشمس و كيف خلقها مع بعدها عن الأرض مسخنة للأرض في وقت دون وقت ليحصل البرد عندالحاجة إلى البرد ، والحرّ عند الحاجة إلى الحرّ فهذه إحدى حِكم الشمس والحكم فيها أكثر من أن تحصى ، ثمّ النبات إذا ارتفع عن الأرض كان في الفواكه انعقاد و صلابة فتفتقر إلى رطوبة تنضجها ، فانظر كيف خلق القمر وجعل من خاصيّته الترطيب كما جعل من خاصيّة الشمس التسخين فهو ينضج الفواكه و يصبغها بتقدير الفاطر الحكيم ، و كذلك لو كانت الأشجار في ظلّ يمنع شروق الشمس و القمر و الكواكب عليها لكانت فاسدة ناقصة ، حتّى أنّ الشجرة الصغيرة إذا أظلّتها شجرة كبيرة تفسد و تعرف ترطيب القمر بأن تكشف رأسك له في اللّيل فتغلب على رأسك الرطوبة الّتي يعبّر عنها بالزكام فكما يرطّب رأسك يرطّب الفواكه أيضاً ، و لا نطول فيما لا مطمع في استقصائه بل نقول : كلّ كوكب في السّماء فقد سخّر لنوع فائدة كما سخّرت الشمس للتسخين و القمر للترطيب ، فلا يخلو واحد منها عن حكم كثيرة لاتفي قوّة البشر بإحصائها و لو لم تكن كذلك لكان خلقها عبثاً و باطلاً و لم يصحّ قوله تعالى : « و ما خلقنا السماء والأرض و ما بينهما لاعبين» (١) وقوله تعالى : ربّنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك» (٢) و كما أنّه ليس في أعضاء بدنك عضو إلّا لفائدة فليس في أعضاء بدن العالم عضو إلّا لفائدة ، والعالم كلّه كشخص واحد وآحادأجسامه كالأعضاء له ، وهي متعاونة تعاون أعضاء بدنك في جملة بدنك ، وشرح ذلك يطول . ولا ينبغي أن تظنّ أنّ الإيمان بأنّ النجوم والشمس والقمر مسخّرات بأمر الله تعالى في اُمور جعلت أسباباً لها بحكم الحكمة مخالف للشرع لما ورد فيه من النهي عن تصديق المنجّمين وعن علم النجوم

(١) الانبياء : ١٦ . (٢) آل عمران ١٩١ .

بل المنهيّ عنه في النجوم أمران أحدهما أن يصدّق بأنّها فاعلة لآثارها مستقلّة بها وأنّها ليست مسخّرة تحت تدبير مدبّر خلقها وقهرها و هذا كفر ، و الثاني تصديق المنجّمين في تفصيل ما يخبرون عنه من الآثار الّتي لايشترك في دركها كافّة الخلق لأنّهم يقولون ذلك عن جهل ، فإنّ علم أحكام النجوم كان معجزة لبعض الأنبياء ثمّ اندرس ذلك العلم فلم يبق منه إلّا ما هو مختلط لا يتميّز فيه الصواب عن الخطأ ، فاعتقاد كون الكواكب أسباباً لآثار تحصل بخلق الله تعالى في الأرض و في النّبات و الحيوان ليس بقادح في الدّين بل هو الحقّ ولكن دعوى العلم بتلك الآثار على التفصيل مع الجهل قادح في الدّين ، و لذلك إذا كان معك ثوب غسّلته و تريد تجفيفه فقال لك غيرك : أخرج الثوب أبسطه فإنّ الشمس قد طلعت وحمى الهواء ، لايلزمك تكذيبه ولا يلزمك الإنكار عليه بحوالته حمى الهواء على طلوع الشمس ، و إذا سألت عن تغيّر وجه الإنسان فقال : قرعتني الشمس في الطريق فاسودّ وجهي لم يلزمك تكذيبه ، وقس بهذا سائر الآثار إلّا أنّ آثار بعضها معلومة وآثار بعضها مجهول فالمجهول لا يجوز دعوى العلم فيه و المعلوم بعضه معلوم للناس كافّة كحصول الضياء و الحرارة بطلوع الشمس و بعضه لبعض الناس كحصول الزّكام بشروق القمر فإذن الكواكب ما خلقت عبثاً بل فيها حكم كثيرة لا تحصى و لقد نظر رسول الله صلّى الله عليه وآله إلى السماء و قرأ قوله تعالى : « ربّنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار » ثمّ قال : ويل لمن قرأ هذه الآية ثمّ مسح بها سبلته »(١) و معناه أن يقرأ و يترك التأمّل و يقتصر من فهم ملكوت السماوات على أن يعرف لون السماء وضوء الكواكب وذلك ممّا يعرفه البهائم أيضاً فمن قنع منه بمعرفة ذلك فهو الّذي مسح بها سبلته فللّه في ملكوت السماوات و الأرض و الآفاق و الأنفس و الحيوانات والنباتات عجائب يطلب معرفتها المحبّون لله فإنّ من أحبّ عالماً لم

---

(١) قال العراقى : أخرجه الثعلبى من حديث ابن عباس بلفظ «ولم يتفكر فيها» وفيه أبو جناب يحيى بن أبى حية ضعيف .

يزل مشعوفاً بطلب تصانيفه(١) فيزداد بمزيد الوقوف على عجائب علمه حبّاً له فكذلك الأمر في عجائب صنع الله فإنّ العالم كلّه من تصنيفه بل تصنيف المصنّفين من تصنيفه الّذي صنّفه بواسطة قلوب العباد ، فإن تعجّبت من تصنيف فلا تتعجّب من المصنّف بل من الّذي سخّر المصنّف لتأليفه بما أنعم عليه من هدايته و تسديده وتعريفه ، كما إذا رأيت لعب المشعوذ ترقص وتتحرّك حركات موزونة متناسبة فلا تتعجّب من اللّعب فإنّها خرق محرّكة لا متحرّكة ولكن تتعجّب من حذق المشعوذ المحرّك لها بروابط دقيقة خفيّة عن الأبصار فإذن المقصود أنّ غذاء النبات لا يتمّ إلّا بالماء والهواء و الشمس و القمر و الكواكب ، و لا يتمّ ذلك إلّا بالأفلاك الّتي هي مركوزة فيها ، و لا يتمّ الأفلاك إلّا بحركاتها ، و لا يتمّ حركاتها إلّا بملائكة سماويّة يحرّكونها و كذلك يتمادى ذلك إلى أسباب بعيدة تركنا ذكرها تنبيهاً بما ذكرناه على ما أهملناه ولنقتصر على هذا من ذكر أسباب غذاء النبات .

الطرف الخامس : في نعمة الله تعالى في الأسباب الموصلة للأطعمة إليك : إعلم أنّ هذه الأطعمة كلّها لا توجد في كلّ مكان بل لها شروط مخصوصة لأجلها توجد في بعض الأماكن دون بعض ، و الناس منتشرون على وجه الأرض و قد تبعد عنهم الأطعمة و تحول بينهم وبينها البحار و البراري ، فانظر كيف سخّر الله تعالى التجّار وسلّط عليهم حرص حبّ المال وشره الرّبح مع أنّهم لا يغنيهم شيء في غالب الأمر، بل يجمعون فإمّا أن تغرق بهم السفن أو تنهبها قطّاع الطريق أو يموتون في بعض البلاد فيأخذها السلاطين وأحسن أحوالهم أن يأخذها ورثتهم وهم أشدّ أعدائهم لو عرفوا ، فانظر كيف سلّط الله الجهل و الغفلة عليهم حتّى يقاسوا الشدائد في طلب الرّبح و يركبوا الأخطار و يغرّروا بالأرواح في ركوب البحار فيحملون الأطعمة وأنواع الحوائج من أقصى الشرق و الغرب إليك ، و انظر كيف علّمهم الله صناعة السفن و كيفيّة الرّكوب فيها ، وانظر كيف خلق الحيوانات وسخّرها للحمل والرّكوب في البراري

(١) شغفه حبه - بالغين المعجمة - : وشعفه حبه - بالعين المهملة - كلاهما بمعنى، أى غشى الحب شغاف قلبه .

و انظر إلى الإبل كيف خلقت ، و إلى الخيل كيف أُيّدت بسرعة الحركة ، و إلى الحمار كيف جعل صبوراً على التعب ، و إلى الجمّال كيف تقطع البراري و تطوي المراحل تحت الأعباء الثقيلة على الجوع والعطش ، وانظر كيف سيّرهم الله بواسطة السفن والحيوانات في البرّ والبحر ليحملوا إليك الأطعمة و سائر الحوائج وتأمّل ما يحتاج إليه الحيوانات من أسبابها و أدواتها و علفها و ما يحتاج إليه السفن وقد خلق الله تعالى جميع ذلك إلى حدّ الحاجة و فوق الحاجة وإحصاء ذلك غير ممكن ويتمادى ذلك إلى اُمور خارجة عن الحصر نرى تركها طلباً للإيجاز .

الطرف السادس في إصلاح الأطعمة : إعلم أنّ الّذي ينبت في الأرض من النبات و ما يخلق من الحيوانات لا يمكن أن يقضم[1] و يؤكل وهو كذلك بل لابدّ في كلّ واحد من إصلاح بطبخ وتركيب و تنظيف بالقاء البعض و إبقاء البعض إلى اُموراُخر لاتحصى واستقصاء ذلك في كلّ طعام طويل فلنعيّن رغيفاً واحداً و لننظر إلى ما يحتاج إليه الرّغيف الواحد حتّى يستدير و يصلح للأكل من بعد إلقاء البذر في الأرض فأوّل ما يحتاج إليه الحرّاث ليزرع ويصلح الأرض ، ثمّ الثور الّذي تثير به الأرض و الفدّان[2] و جميع أسبابه ، ثمّ بعد ذلك التعهّد بسقي الماء مدّة ثمّ تنقية الأرض من الحشيش ، ثمّ الحصاد ، ثمّ الفرك و التنقية ، ثمّ الطحن ، ثمّ العجن ، ثمّ الخبز ، فتأمّل عدد هذه الأفعال الّتي ذكرناها و ما لم نذكره و عدد الأشخاص القائمين بها و عدد الآلات الّتي يحتاج إليها من الحديد والخشب والحجر وغيره وانظر إلى أعمال الصنّاع في إصلاح آلات الحراثة و الطحن و الخبز من نجّار وحدّاد وغيرهما ، وانظر إلى حاجة الحدّاد إلى الحديد والرّصاص والنحّاس ، وانظر كيف خلق الله الجبال و الأحجار و المعادن و كيف جعل الأرض قطعاً متجاورات مختلفة ، فإن فتّشت علمت أنّ رغيفاً واحداً لا يستدير بحيث يصلح لأكلك - يا مسكين - مالم يعمل عليه أكثر من ألف صانع فابتدىء من الملك الّذي يزجي السحاب

(١) قضم - كسمع - : أكل بأطراف أسنانه ، أو أكل يابساً .

(٢) الفدان - بتخفيف الدال و تشديدها - : الثوران يقرن بينهما للحرث .

لينزل الماء إلى آخر الأعمال من جهة الملائكة حتّى ينتهي النوبة إلى عمل الإنسان فاذا استدار فقد عمل عليه قريب من سبعة آلاف صانع كلّ صانع صناعته أصل من أُصول الصنائع الّتي بها يتمّ مصلحة الخلق ، ثمّ تأمّل كثرة أعمال الإنسان في تلك الآلات حتّى أنّ الإبرة الّتي هي آلة صغيرة و فائدتها خياطة اللّباس الّذي يمنع البرد عنك لاتكمل صورتها من حديد تصلح للإبرة حتّى تمرّ على يدي الإبريّ خمساً وعشرين مرّة يتعاطى في كلّ مرّة منها عملاً ، فلولم يجمع الله البلاد ولم يسخّر العباد و افتقرت إلى عمل المنجل الّذي تحصد به البرّ مثلاً بعد نباته لنفد عمرك وعجزت عنه ، أفلاترى كيف هدى الله عبد الّذي خلقه من نطفة قذرة لأن يعمل هذه الأعمال العجيبة والصنائع الغريبة ، فانظر إلى المقراض مثلاً وهما جلمان متطابقان ينطبق أحدهما على الآخر فيتناولان الشيء معاً ويقطعانه بسرعة ولو لم يكشف الله طريق اتّخاذه بفضله و كرمه لمن قبلنا و افتقرنا إلى استنباط الطريق فيه بفكرنا ثمّ إلى استخراج الحديد من الحجر و إلى تحصيل الآلات الّتي يعمل بها المقراض و عمر الواحد منّا عمر نوح و أُوتي أكمل العقول لقصر عمره عن استنباط الطريق في إصلاح هذه الآلة و حدّها فضلاً عن غيرها ، فسبحان من ألحق ذوي الأبصار بالعميان و سبحان من منع التبيين مع هذا البيان فانظر الآن لو خلا بلدك عن الطحّان مثلاً أو عن الحدّاد أو عن الحجّام الّذي عمله أخسّ الأعمال أو عن الحائك أو عن واحد من جملة الصنّاع ما ذا يصيبك من الأذى و كيف يضطرب عليك أُمورك كلّها فسبحان من سخّر بعض العباد لبعض حتّى نفذت به مشيّته وتمّت به كلمته و ثبتت به حكمته و لنوجز القول في هذه الطبقة أيضاً فإنّ الغرض التنبيه على النعم دون الاستقصاء .

الطرف السابع في إصلاح المصلحين : إعلم أنّ هؤلاء الصنّاع المصلحين للأطعمة وغيرها لو تفرّقت آراؤهم وتنافرت طباعهم تنافر طباع الوحوش لتبدّدوا وتباعدوا ولم ينتفع بعضهم ببعض بل كانوا كالوحوش لايحويهم مكان واحد ولايجمعهم غرض واحد ، فانظر كيف ألّف الله بين قلوبهم وسلّط الاُنس و المحبّة عليهم لوأنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألّفت بين قلوبهم ولكنّ الله ألّف بين قلوبهم ، فلأجل الاُلفة وتعارف الأرواح

اجتمعوا و ائتلفوا و بنوا المدن والبلاد و رتّبوا المساكن والدّور متقاربة متجاورة ، و رتّبوا الأسواق والخانات وسائر أصناف البقاع ممّا يطول احصاؤه ، ثمّ هذه المحبّة تزول بأغراض يتزاحمون عليها و يتنافسون فيها ففي جبلّة الإنسان الغيظ والحسد والمنافسة و ذلك ممّا يؤدّي إلى التقاتل والتنافر ، فانظر كيف سلّط الله عزّ و جلّ السلاطين و أمدّهم بالقوّة والعدّة و الأسباب ، و ألقى رعبهم في قلوب الرّعايا حتّى أذعنوا لهم طوعاً و كرهاً ، و كيف هدى السلاطين إلى طريق إصلاح العباد حتّى رتّبوا أجزاء البلد كأنّها أجزاء شخص واحد يتعاون على غرض واحد ينتفع البعض منها بالبعض ، فرتّبوا الرّؤساء والقضاة والشحن و زعماء الأسواق واضطرّوا الخلق إلى قانون العدل و ألزموهم التساعد والتعاون حتّى صار الحدّاد ينتفع بالقصّاب و الخبّاز وسائر أهل البلد و كلّهم ينتفعون بالحدّاد ، وصار الحجّام ينتفع بالحرّاث و الحرّاث بالحجّام و ينتفع كلّ واحد بكلّ واحد بسبب ترتّبهم و اجتماعهم و انضباطهم تحت ترتيب السلطان و جمعه كما يتعاون أعضاء البدن و ينتفع بعضها ببعض ، وانظر كيف بعث الأنبياء حتّى أصلحوا السلاطين المصلحين للرّعايا وعرفوهم قوانين الشرع في حفظ العدل بين الخلق و قوانين السياسة في ضبطهم و كشفوا من أحكام الإمامة و السلطنة و أحكام الفقه ما اهتدوا به إلى إصلاح الدّنيا فضلاً عمّا أرشدوهم إليه من إصلاح الدّين وانظر كيف أصلح الله الأنبياء بالملائكة ، و كيف أصلح الملائكة بعضهم ببعض إلى أن تنتهي إلى الملك المقرّب الّذي لا واسطة بينه و بين الله ، فالخبّاز يخبز العجين ، و الطحّان يطحن الحبّ ، و الحرّاث يصلحه بالحصاد ، والحدّاد يصلح آلات الحراثة ، و النجّار يصلح آلات الحدّاد ، و كذا جميع أرباب الصناعات المصلحين لآلات الأطعمة والسلاطين يصلحون الصنّاع ، والعلماء يصلحون السلاطين ، والأنبياء يصلحون العلماء الّذين هم ورثتهم ، والملائكة يصلحون الأنبياء إلى أن ينتهى إلى حضرة الرّبوبيّة الّتي هي ينبوع كلّ نظام و مطلع كلّ حسن و جمال و منشأ كلّ ترتيب وتأليف و كلّ ذلك نعم من ربّ الأرباب و مسبّب الأسباب ولولا فضله و كرمه إذ قال تعالى : « والّذين جاهدوا فينا لنهدينّهم

سبلنا »(١) لما اهتدينا إلى معرفة هذه النبذة اليسيرة من نعم الله تعالى ، ولولا عزله إيّانا عن أن نطمح بعين الطمع إلى الإحاطة بكنه نعمه لتشوّفنا إلى طلب الإحاطة و الاستقصاء و لكنّه عزلنا بحكم القهر و القدرة فقال : « و إن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها »(٢) فإن تكلّمنا فبإذنه انبسطنا و إن سكتنا فبقهرة انقبضنا إذ لا معطي لمّا منع ، و لا مانع لما أعطى ، لأنّا في كلّ لحظة من لحظات العمر قبل الموت نسمع بسمع القلوب نداء الملك الجبّار « لمن الملك اليوم لله الواحد القهّار » فالحمد لله الّذي ميّزنا عن الكفّار و أسمعنا هذا النداء قبل انقضاء الأعمار .

الطرف الثامن في بيان نعمة الله تعالى في خلق الملائكة : ليس بخفيّ عليك ما سبق من نعمة الله في الملائكة بإصلاح الأنبياء و هدايتهم وتبليغ الوحي إليهم و لا تظننّ أنّهم مقتصرون في أفعالهم على ذلك القدر ، بل طبقات الملائكة مع كثرتها وترتيب مراتبها تنحصر بالجملة في ثلاث طبقات، الملائكة الأرضيّة ، والسماويّة ، وحملة العرش ، فانظر كيف وكّلهم الله تعالى بك فيما يرجع إلى الأكل والغذاء الّذي ذكرناه دون ما يجاوز ذلك من الهداية و الإرشاد و غيرهما ، واعلم أنّ كلّ جزء من أجزاء بدنك بل من أجزاء النبات لا يغتذي إلّا بأن يوكّل به سبعة من الملائكة هم أقلّ الأعداد إلى عشرة إلى مائة إلى ما وراء ذلك ، و بيانه أنّ معنى الغذاء أن يقوم جزء من الغذاء مقام جزء قد تلف و ذلك الغذاء يصير دماً في آخر الأمر ثمّ يصير لحماً وعظماً و إذا صار عظماً تمّ اغتذاؤك ، و الدّم واللّحم أجسام ليس لها قدرة و معرفة و اختيار ، فهي لا تتحرّك بأنفسها ولا تتغيّر بأنفسها ومجرّد الطبع لا يكفي في تردّدها في أطوارها كما أنّ البرّ بنفسه لا يصير طحيناً ثمّ عجيناً ثمّ خبزاً مستديراً مطبوخاً إلّا بصنّاع ، فكذلك الدّم بنفسه لا يصير لحماً وعظماً و عرقاً وعصباً إلّا بصنّاع والصنّاع في الباطن هم الملائكة كما أنّ الصنّاع في الظاهر هم أهل البلد وقد أسبغ الله عليكم نعمه ظاهرة و باطنة ، فلا ينبغي أن يغفل عن نعمه الباطنة .

فأقول : لابدّ من ملك يجذب الغذاء إلى جوار اللّحم و العظم فإنّ الغذاء

---

(١) العنكبوت : ٦٩ . (٢) ابراهيم : ٣٤ .

لا يتحرك بنفسه ، ولابدّ من ملك آخر يمسك الغذاء في جواره ، و لا بدّ من ثالث يخلع عنه صورة الدم ، و لابدّ من رابع يكسوه صورة اللّحم والعظم والعرق ، ولابدّ من خامس يدفع الفضل الفاضل من حاجة الغذاء ، ولابدّ من سادس يلصق ما اكتسب صفة العظم بالعظم وما اكتسب صفة اللّحم باللّحم حتّى لايكون منفصلاً ، ولابدّ من سابع يرعى المقادير في الإلصاق فيلحق بالمستدير ما لا يبطل استدارته وبالعريض ما لايزيل عرضه و بالمجوّف ما لا يبطل تجويفه و يحفظ على كلّ واحد قدر حاجته ، فإنّه لو جمع مثلاً من الغذاء على أنف الصبيّ ما يجمع على فخذه لكبر أنفه وبطل تجويفه وتشوّهت صورته ، بل ينبغي أن يسوق إلى الأجفان مع رقّتها ، وإلى الحدقة مع صفائها ، وإلى الأفخاذ مع غلظها ، وإلى العظم مع صلابته ما يليق بكلّ واحد منها من حيث القدر و الشكل و إلّا بطلت الصورة ، وربا بعض المواضع وضعف البعض ، بل لولم يراع هذا الملك العدل في القسمة والتقسيط فساق إلى رأس الصبيّ و سائر بدنه من الغذاء ما ينمو به إلّا أنّه لم يسق إلى إحدى الرّجلين مثلاً لبقيت تلك الرّجل كما كانت في حدّ الصغر و كبر جميع البدن فكنت ترى شخصاً في ضخامة رجل و له رجل واحدة كأنّها رجل صبيّ فلا ينتفع بنفسه البتة ، فمراعاة هذه الهندسة في هذه القسمة مفوّضة إلى ملك من الملائكة ، ولا تظنّنّ أنّ الدّم بطبعه يهندس شكل نفسه فإنّ محيل هذه الأُمور على الطبع جاهل لا يدري ما يقول فهذه هي الملائكة الأرضيّة وقد شغلوا بك وأنت في النوم تستريح وفي الغفلة تتردّد وهم يصلحون الغذاء في باطنك ولاخبر لك منهم ، و كذلك في كلّ جزء من أجزائك الّتي لا تتجزّى حتّى يفتقر بعض الأجزاء كالعين و القلب إلى أكثر من مائة ملك ، تركنا تفصيل ذلك للإيجاز و الملائكة الأرضيّة مددهم من الملائكة السماويّة على ترتيب معلوم لا يحيط بكنهه إلّا الله تعالى و مدد الملائكة السماويّة من حملة العرش والمنعم على جميعهم بالتأييد و الهداية و التسديد المهيمن القدّوس المتفرّد بالملك والملكوت والعزّة والجبروت ، الحيّ الّذي لا يموت جبّار السماوات والأرض مالك الملك ذو الجلال والإكرام ، والأخبار الواردة في الملائكة

الموكّلين بالسماوات والأرضين وأجزاء النبات والحيوانات حتّى على كلّ قطرة من المطر وكلّ سحاب ينجرّ من جانب إلى جانب أكثر من أن تحصى فلذلك تركنا الاستشهاد بها.

فإن قلت: فهلاّ فوّضت هذه الأفعال إلى ملك واحد ولم افتقر إلى سبعة أملاك والحنطة أيضاً تحتاج إلى من يطحن أوّلاً ثمّ إلى من يميّز عنه النخالة ويدفع الفضلة ثانياً، ثمّ إلى من يصبّ الماء عليه ثالثاً، ثمّ إلى من يعجن رابعاً، ثمّ إلى من يقطعها كرات مدوّرة خامساً، ثمّ إلى من يرقّها رغفاناً عريضة سادساً، ثمّ إلى من يلصقها بالتنّور سابعاً، ولكن قد يتولّى جميع ذلك رجل واحد يستقلّ به مرّة بعد أُخرى فهلاّ كانت أعمال الملائكة باطناً كأعمال الإنس ظاهراً فاعلم أنّ خلقة الملائكة تخالف خلقة الإنس وما من واحد منهم إلاّ وهو وحدانيّ الصفة ليس فيه خلط وتركيب البتة فلا يكون لكلّ واحد منهم إلاّ فعل واحد وإليه الإشارة بقوله تعالى: «وما منّا إلّا له مقام معلوم»(١) فلذلك ليس بينهم تنافس وتقاتل، بل مثالهم في تعيّن مرتبة كلّ واحد وفعله عليه مثال الحواسّ الخمس فإنّ البصر لا يزاحم السمع في إدراك الأصوات، ولا الشمّ يزاحمها ولاهما يزاحمان الشمّ وليس كاليد والرّجل، فإنّك قد تبطش بأصابع الرّجل بطشاً ضعيفاً فتزاحم به اليد وقد تضرب غيرك برأسك فتزاحم اليد الّتي هي آلة الضرب ولا كالإنسان الواحد الّذي يتولّى بنفسه الطحن والعجن والخبز فإنّ هذا نوع من الإعوجاج والعدول عن العدل سببه اختلاف صفات الإنسان واختلاف دواعيه، فإنّه ليس وحدانيّ الصفة فلم يكن وحدانيّ الفعل ولذلك ترى الإنسان يطيع الله مرّة ويعصيه أُخرى لاختلاف دواعيه وصفاته، وذلك غير ممكن في طباع الملائكة بل هم مجبولون على الطاعة لا مجال للمعصية في حقّهم فلاجرم «لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون. ويسبّحون اللّيل والنهار لا يفترون» والرّاكع منهم راكعٌ أبداً والساجد منهم ساجدٌ أبداً والقائم قائم أبداً لا اختلاف في أفعالهم ولا فتور ولكلّ واحد مقام معلوم لايتعدّاه

(١) الصافات: ١٦٤.

و طاعتهم لله تعالى من حيث لا مجال للمخالفة فيهم يمكن أن تشبه بطاعة أطرافك لك فإنّك مهما جزمت الإرادة بفتح الأجفان لم يكن للجفن الصحيح تردّد و اختلاف في طاعتك مرّة و معصيتك اُخرى بل كأنّه منتظر لأمرك و نهيك ينفتح وينطبق متّصلاً بإشارتك فهذا يشبه به من وجه ولكن يخالفه من وجه إذ الجفن لاعلم له بما يصدر منه من الحركات فتحاً و انطباقاً ، و الملائكة أحياء عالمون بما يفعلون ، فإذن هذه هي نعمة الله عليك في الملائكة الأرضيّة والسماويّة وحاجتك إليهما في غرض الأكل فقط دون ما عداها من الحركات و الحاجات كلّها فإنّا لم نطول بذكرها ، فهذه طبقة اُخرى من طبقات النعم و مجامع الطبقات لا يمكن إحصاؤها ، فكيف آحادها يدخل تحت مجامع الطبقات ؟ فإذن قد أسبغ الله عليك نعمه ظاهرة و باطنة ثمّ قال : « و ذروا ظاهر الإثم و باطنه »(١) فترك باطن الإثم ممّا لا يعرفه الخلق من الحسد و سوء الظنّ و البدعة و إضمار الشرّ للناس إلي غير ذلك من آثام القلوب هو الشكر للنعم الباطنة وترك الإثم الظاهر بالجوارح شكر للنعم الظاهرة ، بل أقول : كلّ من عصى الله ولو في طرفة واحدة بأن فتح جفنه مثلاً حيث يجب غضّ البصر فقد كفر نعمة الله تعالى عليه في السماوات و الأرض وما بينهما ، فإنّ كلّ ما خلقه الله حتّى الملائكة و السماوات و الأرض و الحيوان والنبات بجملته نعمة على كلّ واحد من العباد قد تمّ به انتفاعه وإن انتفع به غيره أيضاً فإنّ لله تعالى في كلّ تطريفة بالجفن نعمتين في نفس الجفن إذ خلق تحت كلّ جفن عضلات ولها أوتار و رباطات متّصلة بأعصاب الدّماغ بها يتمّ انخفاض الجفن الأعلى و ارتفاع الجفن الأسفل وعلى كلّ جفن شعرات سود ونعمة الله في سوادها أنّها تجمع ضوء العين إذ البياض يفرّق الضوء والسواد يجمعه ونعمة الله في ترتيبها صفّاً واحداً أن يكون مانعاً للهوامّ من الدّبيب إلى باطن العين و متشبّثاً للأقذاء الّتي تتناثر في الهواء وله في كلّ شعرة منها نعمتان من حيث لين أصلها و مع اللّين تقويم نصبها وله في اشتباك الأهداب نعمة أعظم من الكلّ ، و هو أنّ غبار الهواء قد يمنع من

(١) الانعام : ١٢٠ .

فتح العين فلو أطبق لم يبصر بها فيجمع الأجفان مقدار ما تتشابك الأهداب فينظر من وراء شباك فيكون شباك الشعر مانعاً من وصول القذى من خارج وغير مانع من امتدادالبصر من داخل ، ثمّ إنّ أصاب الحدقة غبار فقد خلق أطراف الأجفان حادّة منطبقة على الحدقة كالمصقلة للمرآة فيطبقها مرّة أو مرّتين و قد انصقلت الحدقة من الغبار وخرجت الأقذاء إلى زوايا العين والأجفان ، والذّبات لمّا لم يكن لحدقته جفن خلق له يدان فتراه على الدّوام يمسح بهما حدقتية ليصقلهما من الغبار ، و إذ تركنا الاستقصاء لتفاصيل النعم لافتقاره إلى تطويل يزيد على أصل هذا الكتاب فلعلّنا نستأنف له كتاباً مقصوداً فيه إن أمهل الزّمان وساعد التوفيق نسمّيه عجائب صنع الله تعالى .

فلنرجع إلى غرضنا فنقول : من نظر بغير ذات محرم قد كفر بفتح العين بمعصيته نعمةالله تعالى في الأجفان و لايقوم الأجفان إلّا بعين ، ولا العين إلّا برأس ولا الرّأس إلّا بجميع البدن ولا البدن إلّا بالغذاء ، و لا الغذاء إلّا بالماء و الأرض والهواء و المطر و الغيم و الشمس و القمر ، و لا يقوم شيء من ذلك إلّا بالسماوات ولاالسماوات إلّا بالملائكة ، فإنّ الكلّ كالشيء الواحد يرتبط البعض منه بالبعض ارتباط أعضاء البدن بعضها ببعض ، فإذن قد كفر كلّ نعمة الله في الوجود من منتهى الثريّا إلى منتهى الثرى ، فلم يبق فلك ولا ملك ولا حيوان و لانبات ولا جماد إلّا و يلعنه ولذلك ورد في الأخبار « أنّ البقعة الّتي يجتمع فيها الناس ، إمّا أن تلعنهم إذا تفرّقوا أو تستغفر لهم » [(١)] و كذلك ورد أنّ العالم يستغفر له كلّ شيء حتّى الحوت في البحر » [(٢)] و« أنّ الملائكة يلعنون العصاة » [(٣)] في ألفاظ كثيرة لايمكن إحصاؤها و كلّ ذلك إشارة إلى أنّ العاصي بتطريفة واحدة جنى على جميع ما في

---

(١) قال العراقي : لم أجد له أصلا .

(٢) تقدم فى المجلد الاول كتاب العلم .

(٣) روى مسلم من حديث أبى هريرة « الملائكة تلعن أحدكم اذا أشار الى أخيه بحديدة وان كان أخاه لابيه و امه » .

الملك و الملكوت و قد أهلك نفسه إلّا أن يتبع السيّئة بحسنة تمحوها فيتبدّل اللّعن بالاستغفار فعسى الله أن يتوب عليه و يتجاوز عنه . وأوحى الله إلى أيّوب عليه السلام : ما عبد لي من الآدميّين إلّا ومعه ملكان فإذا شكرني على نعمائي قال الملكان : اللّهمّ زده نعماً على نعم فإنّك أهل الحمد و الشكر فكن من الشاكرين قريباً ، فكفى بالشاكرين علوّ رتبة عندي إنّي أشكر شكرهم و ملائكتي يدعون لهم و البقاع تحبّهم و الآثار تبكي عليهم . و كما عرفت أنّ في كلّ طرفة عين نعماً كثيرة فاعلم أنّ في كلّ نفس ينبسط و ينقبض نعمتين إذ بانبساطه يخرج الدّخان المحترق من القلب ولولم يخرج لهلك ، وبانقباضه يجمع روح الهواء إلى القلب ولو سدّ متنفّسه لانقطع قلبه بانقطاع روح الهواء و برودته عنه و هلك ، بل اليوم و اللّيلة أربع وعشرون ساعة وفي كلّ ساعة قريب من ألف نفَس و كلّ نَفَس قريب من عشر لحظات فعليك في كلّ لحظة آلاف آلاف نعمة في كلّ جزء من أجزاء بدنك بل في كلّ جزء من أجزاء العالم فانظر هل يتصوّر إحصاء ذلك أم لا ؟ و لمّا انكشف لموسى عليه السلام حقيقة قوله تعالى : « وإن تعدّوا نعمة الله لاتحصوها » قال : إلهي كيف أشكرك ولك في كلّ شعرة من جسدي نعمتان أن ليّنت أصلها وأن طميت رأسها[1] ، ولذلك ورد في الأثر : من لم يعرف نعمة الله عزّ وجلّ إلّا في مطعمه و مشربه فقد قلّ علمه وحضر عذابه . و جميع ما ذكرناه يرجع إلى المطعم و المشرب فاعتبر ماسواه من النعم به فإنّ البصير لا يقع عينه في العالم على شيء و لا يلمّ خاطره بموجود إلّا و يتحقّق أنّ لله تعالى فيه نعمة عليه فلنترك الاستقصاء والتفصيل فإنّه طمع في غير مطمع .

✡(بيان السبب الصارف للخلق عن الشكر)✡

إعلم أنّه لم يقصر بالخلق عن شكر النعمة إلّا الجهل و الغفلة فإنّهم صرفوا بالجهل والغفلة عن معرفة النعم ولا يتصوّر شكر النعمة إلّا بعد معرفتها ثمّ إنّهم إن عرفوا نعمة ظنّوا أنّ الشكر عليها أن يقولوا بلسانهم الحمد لله الشكر لله ولم يعرفوا

---

(١) طمى النبت : طال و ارتفع .

أنّ معنى الشكر أن يستعمل النعمة في إتمام الحكمة الّتي أُريدت بها وهي طاعةالله تعالى فلا يمنع من الشكر بعد حصول هاتين المعرفتين إلّا غلبة الشهوة و استيلاء الشيطان ، أمّا الغفلة عن النعم فلها أسباب ، وأحدأسبابهاأنّ الناس بجهلهم لايعدّون ما يعمّ الخلق و يسلم لهم في جميع أحوالهم نعمة فلذلك لا يشكرون على جملة ما ذكرناه من النعملأنّها عامّة للخلقمبذولة لهم في جميع أحوالهم فلا يرى كلّواحد لنفسه اختصاصاً به فلا يعدّه نعمة فلا تراهم يشكرون الله على روح الهواء و لو أخذ بمختنقهم لحظةحتّىانقطع الهواء عنهمماتوا ولوحبسوا فيبيتحمّامفيه هواء حارّأو في بئرفيه هواء ثقل برطوبة الماء ماتوا غمّاً ، فإن ابتلي واحد منهم بشيء من ذلك ثمّ نجامنه ربما قدّر ذلكنعمة وشكر الله عليه وهذا غاية الجهل إذ صار شكرهمموقوفاً على أن تسلب عنهم النعمة ثمّ تردّ عليهم فيبعض الأحوال والنعمة فيجميع الأحوال أولى بأن تشكر من النعمة في بعضها ، فلا ترى البصير يشكر صحّة بصره إلى أن تعمى عينه فعند ذلك لو اُعيد عليه أحسّ به وشكره و عدّه نعمة ، ولمّا كانترحمةالله واسعة عمّم الخلق وبذل لهم في جميع الأحوال فلم يعدّه الجاهلون نعمة ، و هذا الجاهل مثل العبد السوء حقّه أن يضرب دائماً حتّىإذا ترك ضربه ساعة تقلّد ذلك منّة ، فإن ترك ضربهعلى الدّوام غلب عليه البطر و ترك الشكر فصار الناس لا يشكرون إلّا المال الّذي يتطرّقالاختصاص إليه من حيث الكثرة و القلّة ، وينسون جميع نعم الله تعالىعليهم .

كما حكي أنّ بعضهمشكا فقره إلى بعض أرباب البصائر وأظهر شدّة اغتمامه به فقال له : أيسرّك أنّك أعمى ولك عشرة آلاف درهم ؟ فقال : لا ، فقال : أيسرّك أنّك أخرس ولك عشرة آلاف ؟ قال : لا ، فقال : أيسرّك أن تكون أقطع اليدين والرّجلين ولك عشرون ألفاً ؟ قال : لا ، قال : أيسرّكأن تكونمجنوناً ولكعشرة آلاف ؟ قال : لا ، فقال : أمّا تستحيي أنتشكو مولاك وله عندكعروض بخمسينألفاً .

وحكي أنّ بعض القرّاء اشتدّ به الفقر حتّى ضاق به ذرعاً فرأى في المنام كأنّ قائلاً يقول له : تودّ أنّا أنسيناك سورة الأنعام و أنّ لك ألف دينار ؟ قال :

لا ، قال : فسورة هود ؟ قال : لا ، قال : فسورة يوسف ؟ قال : لا ، فعدّ عليه سوراً ، ثمّ قال : فمعك قيمة مائة ألف دينار وأنت تشكو فأصبح وقد سُرّي عنه .

و دخل ابن السماك على بعض الخلفاء وفي يده كوز ماء يشربه فقال له : عظني ، فقال: لو لم تعط هذه الشربة إلّا ببذل جميع أموالك و إلّا بقيت عطشان فهل كنت تعطيه ؟ قال : نعم ، فقال : ولو لم تعط إلّا بملكك كلّه فهل كنت تتركه ؟ قال : نعم ، قال : فلا تفرح بملك لا يسوي شربة ماء ، فبهذا تبيّن أنّ نعمة الله على العبد في شربة ماء عند العطش أعظم من ملك الأرض كلّها ، و إذ كانت الطباع مائلة إلى اعتداد النعمة الخاصّة نعمة دون العامّة و قد ذكرنا النعم العامّة فلنذكر إشارة وجيزة إلى النعم الخاصّة .

فنقول : ما من عبد إلّا ولو أمعن النظر في أحواله لرأى من الله نعمة أو نعماً كثيرة تخصّه لا يشاركه فيها الناس كافّة بل يشاركه عدد يسير من الناس و ربّما لا يشاركه فيها أحدٌ و ذلك يعترف به كلّ عبد في ثلاثة اُمور : في العقل و الخلق و العلم ، أمّا العقل فما من عبد لله تعالى إلّا و هو راض عن الله في عقله يعتقد أنّه أعقل الناس ، وقلّ : مايسأل الله العقل و إنّ من شرف العقل أن يفرح به الخالي عنه كما يفرح به المتّصف به فإذا كان اعتقاده أنّه أعقل الناس فواجب عليه أن يشكره لأنّه إن كان كذلك فالشكر واجب و إن لم يكن ولكنّه يعتقد أنّه كذلك فهو نعمة في حقّه فمن وضع كنزاً تحت الأرض فهو يفرح به ويشكر عليه فإن اُخذ الكنز من حيث لا يدري فيبقى فرحه بحسب اعتقاده ويبقى شكره لأنّه في حقّه كالباقي ، و أمّا الخُلق فما من عبد إلّا ويرى من غيره عيوباً يكرهها و أخلاقاً يذمّها ، و إنّما يذمّها من حيث أنّه يرى نفسه بريئاً عنها و إلّا لم يشتغل بذمّ الغير فينبغي أن يشتغل بشكر الله إذا حسن خلقه و ابتلي غيره بالخلق السيىء ، و أمّا العلم فما من أحد إلّا ويعرف من بواطن اُمور نفسه وخفايا أفكاره ما هو منفردٌ به ولو كشف الغطاء حتّى اطّلع عليه أحدٌ من الخلق لا فتضح فكيف لو اطّلع الناس كافّة فإذاً لكلّ عبد علم بأمر خاصّ لا يشاركه فيه أحدٌ من عباد الله فلم لا يشكر ستر الله الجميل الّذي

أرسله على وجه مساويه ، فأظهر الجميل وستر القبيح وأخفى ذلك عن أعين الخلق و خصّص علمه به حتّى لا يطّلع عليها أحدٌ فهذه ثلاثة من النعم خاصّة يعترف بها كلّ عبد إمّا مطلقاً وإمّا في بعض الأمور ، فلننزل عن هذه الطبقة إلى طبقة أخرى أعمّ منها قليلاً ، فنقول : ما من عبد إلّا وقد رزقه الله في صورته أو شخصه أو أخلاقه أو صفاته أو أهله أو ولده أو مسكنه أو بلده أو رفيقه أو أقاربه أو عزّه أو جاهه أو في سائر محابّه أموراً لو سلب ذلك منه و أعطي ما خصّص به غيره لكان لا يرضى به و ذلك مثل أن جعل مؤمناً لا كافراً ، و حيّاً لا جماداً ، و إنساناً لا بهيمة ، و ذكراً لا أنثى ، و صحيحاً لا مريضاً ، وسليماً لا معيباً ، فإنّ هذه كلّها خصائص و إن كان فيها عموم أيضاً فإنّ هذه الأحوال لو بدّلت بأضدادها لم يرض به ، بل له أمور لا يبدلها بأحوال الآدميّين أيضاً و ذلك إمّا أن يكون بحيث لا يبدله بما خصّ به أحدٌ من الخلق أو لا يبدله بما خصّ به الأكثر فإذا كان لا يبدل حال نفسه بحال غيره فإذن حاله أحسن من حال غيره وإذا كان لا يعرف شخص يرتضي لنفسه حالة بدلاً عن حال نفسه إمّا على الجملة وإمّا في أمر خاصّ فإذن لله تعالى عليه نعم ليست له على أحد من عباده سواه وإن كان يبدل حال نفسه بحال بعضهم دون البعض فلينظر إلى عدد المغبوطين عنده فإنّه لا محالة يراهم أقلّ بالإضافة إلى غيرهم فيكون من دونه في الحال أكثر بكثير ممّن هو فوقه فما باله ينظر إلى من هو فوقه ليزدري نعم الله على نفسه ولا ينظر إلى من دونه ليستعظم نعم الله تعالى عليه وما باله لا يسوي دنياه بدينه أليس إذا لامته نفسه على سيّئة يقارفها يعتذر إليها بأنّ في الفسّاق كثرة فينظر أبداً في الدّين إلى من دونه لا إلى من فوقه فلم لا يكون نظره في الدّنيا كذلك فإذا كان حال أكثر الخلق في الدّين خيراً منه و حاله في الدّنيا خير من حال أكثر الخلق فكيف لا يلزمه الشكر .

ولهذا قال عليه السلام : « من نظر في الدّنيا إلى من هو دونه و نظر في الدّين إلى من هو فوقه كتبه الله صابراً شاكراً ، ومن نظر في الدّنيا إلى من هو فوقه وفي الدّين إلى من هو دونه لم يكتبه الله صابراً و لا شاكراً »[1] فإذن كلّ من اعتبر حال نفسه

(١) أخرجه الترمذي ج ٩ ص ٣١٧ بسند حسن غريب من حديث عبدالله بن عمرو .

و فتّش عمّا خصّ به وجد لله تعالى على نفسه نعماً كثيرة لا سيّما من خصّ بالسنّة و الايمان و العلم و القرآن ثمّ الفراغ و الصحّة و الأمن وغير ذلك ، ولذلك قال عليه السلام : « من لم يستغن بآيات الله فلا أغناه الله » (١) و هذا أشارة إلى نعمة العلم ، و قال عليه السلام : « إنّ القرآن هو الغنى الّذي لا غنى بعده و لا فقر معه » (٢) و قال عليه السلام : « من آتاه الله القرآن فظنّ أنّ أحداً أغنى منه فقد استهزأ بآيات الله » (٣).

و قال عليه السلام : « ليس منّا من لم يتغنّ بالقرآن » (٤) و قال : « كفى باليقين غنى » (٥).

وقال بعض السلف : يقول الله تعالى : إنّ عبداً أغنيته من ثلاثة لقد أتممت عليه نعمتي : عن سلطان يأتيه ، و طبيب يداويه ، و عمّا في يد أخيه ، وعبّر الشاعر عن هذا فقال :

إذا ماالقوت يأتيك كذا الصحّة والأمن ☆ و أصبحت أخاحزن فلا فارقك الحزن

بل أرشق العبارات و أصحّ الكلمات كلام أفصح من نطق بالضاد حيث عبّر صلى الله عليه وآله وسلم عن هذا المعنى فقال : « من أصبح آمناً في سربه معافى في بدنه ، عنده قوت يومه فكأنّما حيزت له الدّنيا بحذافيرها» (٦) ومهما تأمّلت الناس كلّهم وجدتهم يشكون و يتألّمون من أمور وراء هذه الثلاث مع أنّها و بال عليهم ولا يشكرون نعمة الله في هذه الثلاث ولا يشكرون نعمة الله عليهم في الإيمان الّذي به وصولهم إلى النعيم

(١) قال العراقى : لم أجده بهذا اللفظ ، أقول : وفى السنن البيهقى ج ٢ ص ٥٤ و ج ١٠ ص ١٢٩ و سنن الدارمى ج ٢ ص ٤٧١ هكذا « ليس منا من لم يتغن بالقرآن» قال ابن عيينة « يستغنى» .

(٢) أخرجه أبو يعلى فى مسنده ومحمد بن نصر عن أنس بسند ضعيف كما فى الجامع الصغير

(٣) أخرجه البخارى من حديث رجاء الغنوى بلفظ «من آتاه الله القرآن حفظ كتابه و ظن أن أحداً اوتى أفضل مما اوتى فقد صغر أعظم النعم» و قد تقدم فى فضل القرآن .

(٤) تقدم آنفاً عن البيهقى والدارمى .

(٥) أخرجه الطبرانى من حديث عقبة بن عامر و رواه ابن أبى الدنيا فى القناعة موقوفاً . (المغنى)

(٦) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤١٤١ و قد تقدم .

المقيم و الملك العظيم ، بل البصير ينبغي أن لايفرح إلّا بالمعرفة و اليقين و الايمان ، بل نحن نعلم من العلماء من لو سلّم إليه جميع ما دخل تحت قدرة ملوك الأرض من الشرق إلى الغرب من أموال وأتباع وأنصار وقيل له : خذ هذا عوضاً عن علمك بل عن عشر عشير علمك لم يأخذه وذلك لرجائه أنّ نعمة العلم تفضي به إلى قرب الله سبحانه و تعالى في الآخرة بل لو قيل له : لك في الآخرة ما ترجوه بكماله فخذ هذه اللّذّات في الدّنيا بدلاً عن التذاذك بالعلم في الدّنيا و فرحك به لكان لا يأخذه لعلمه بأنّ لذّة العلم دائمة لا تنقطع ، وثابتة لاتسرق ولاتغصب ولا تنافس فيها و أنّها صافية لا كدورة فيها ، ولذّات الدّنيا كلّها ناقصة مكدّرة مشوّشة لا يفي مرجوّها بمخوفها و لا لذّتها بألمها ولا فرحها بغمّها هكذا رئي إلى الآن ، وهكذا تكون في ما بقي من الزّمان إذ ما خلقت لذّات الدّنيا إلّا لتجلب بها العقول النّاقصة وتخدع حتّى إذا انخدعت وتقيّدت بها أبت عليها واستعصت كالمرأة الجميلة ظاهرها تتزيّن للشابّ الشبق الغني حتّى إذا تقيّد بها قلبه استعصت عليه واحتجبت عنه فلايزال معها في عناء دائم و تعب قائم ، و كلّ ذلك لاغتراره بلذّة النظر إليها في لحظة و لو عقل و غضّ البصر و استهان بتلك اللّذة سلم جميع عمره فهكذا وقوع أرباب الدّنيا في شباك الدنيا و حبائلها فلا ينبغي أن نقول : إنّ المعرض عن الدّنيا متألّم بالصبر عنها فإنّ المقبل أيضاً عليها متألّم بالصبر عليها وحفظها وتحصيلها و دفع اللّصوص عنها و تألّم المعرض يفضي إلى لذّة في الآخرة و تألّم المقبل يفضي إلى الألم في الآخرة فليقرء المعرض عن الدّنيا على نفسه قوله تعالى : « و لا تهنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنّهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون»[1] فإذن إنّما انسدّ طريق الشكر على الخلق لجهلهم بضروب النعم الظاهرة والباطنة و الخاصّة والعامّة .

فإن قلت : فما علاج هذه القلوب الغافلة حتّى تشعر بنعم الله فعساها تشكر ؟

فأقول : أمّا القلوب البصيرة فعلاجها التأمّل فيما رمزنا إليه من أصناف نعم الله تعالى العامّة وأمّا القلوب البليدة الّتي لاتعدّ النعمة نعمة إلّا إذا خصّته أو أشعر بالبلاء معها

(١) النساء : ١٠٥ .

فسبيله أن ينظر أبداً إلى من دونه و يفعل ما كان يفعله بعض الصوفيّة إذ كان يحضر كلّ يوم دار المرضى والمقابر والمواضع الّتي تقام فيها الحدود فكان يحضر دار المرضى ليشاهد أنواع بلاء الله تعالى عليهم ثمّ يتأمّل في صحّته و سلامته فيشعر قلبه بنعمة الصحّة عند شعوره ببلاء الأمراض و يشكر الله تعالى ، يشاهد الجناة الّذين يقتلون و تقطع أطرافهم ويعذّبون بأنواع العذاب ليشكر الله على عصمته من الجنايات ومن تلك العقوبات و يشكر الله على نعمة الأمن ، ويحضر المقابر فيعلم أنّ أحبّ الأشياء إلى الموتى أن يردّوا إلى الدّنيا ولو يوماً واحداً أمّا من عصى الله فليتدارك و أمّا من أطاع فليزد في طاعته فإنّ يوم القيامة يوم التغابن فالمطيع مغبون إذ يرى جزاء طاعته فيقول : كنت أقدر على أكثر من هذه الطاعات فما أعظم غبني إذ ضيّعت بعض الأوقات في المباحات ، وأمّا العاصي فغبنه ظاهر فإذا شاهد المقابر و علم أنّ أحبّ الأشياء إليهم أن يكون قد بقي لهم من العمر ما بقي له فيصرف بقيّة العمر إلى ما يشتهي أهل القبور العود لأجله ليكون ذلك معرفة لنعم الله في بقيّة العمر بل في الإمهال في كلّ نفس من الأنفاس ، وإذا عرف تلك النعمة شكر بأن يصرف العمر إلى ما خلق العمر لأجله و هو التزوّد من الدّنيا للآخرة فهذا علاج هذه القلوب الغافلة الغليظة لتشعر بنعم الله فعساها تشكر ، و لقد كان ربيع بن خثيم مع تمام استبصاره يستعين بهذه الطريق تأكيداً للمعرفة فكان قد حفر في داره قبراً فكان يضع غلاً على عنقه وينام في لحده ثمّ يقول : ربّ ارجعون لعلّي أعمل صالحاً ثمّ يقوم ويقول : يا ربيع قد اُعطيت ما سألت فاعمل قبل أن تسأل الرّجوع فلا تردّ ، و ممّا ينبغي أن تعالج به القلوب البعيدة عن الشكر أن تعرف أنّ النعمة إذا لم تشكر زالت ولم تعد ، ولذلك كان الفضيل يقول : عليكم بمداومة الشكر على النعم فقلّ نعمة زالت عن قوم فعادت إليهم . و قال بعض السلف : النعم وحشية فقيّدوها بالشكر . وفي الخبر « ما عظمت نعمة الله على عبد إلّا كثرت حوائج الناس إليه ، فمن تهاون بهم عرض تلك النعمة للزوال » (١) وقال الله سبحانه : « إنّ الله لا يغيّر ما بقوم حتّى يغيّروا ما

(١) أخرجه ابن عدى فى الكامل و ابن حبان فى الضعفاء من حديث معاذ بن جبل بلفظ ←

بأنفسهم »[1] فهذا تمام هذا الركن.

الركن الثالث: من كتاب الصبر و الشكر فيما يشترك فيه الصبر و الشكر ويرتبط أحدهما بالآخر.

✡(بيان وجه اجتماع الصبر والشكر على شيء واحد)✡

لعلّك تقول: ما ذكرته من النعم إشارة إلى أنّ الله تعالى في كلّ موجود نعمة و هذا يشير إلى أنّ البلاء لا وجود له أصلاً فما معنى الصبر إذن و إن كان البلاء موجوداً فما معنى الشكر على البلاء؟ وقد ادّعى مدّعون أنّا نشكر على البلاء فضلاً عن الشكر على النعمة فكيف يتصوّر الشكر على البلاء؟ و كيف يشكر على ما نصبر عليه و الصبر على البلاء يستدعي ألماً والشكر يستدعي فرحاً وهما متضادّان؟ وما معنى ما ذكرتموه من أنّ الله تعالى في كلّ ما أوجده نعمة على عباده؟ فاعلم أنّ البلاء موجود كما أنّ النعمة موجودة والقول بإثبات النعمة يوجب القول بإثبات البلاء لأنّهما متضادّان ففقد البلاء نعمة و فقد النعمة بلاء، و قد سبق أنّ النعمة تنقسم إلى نعمة مطلقة من كلّ وجه إمّا في الآخرة فكسعادة العبد بالنزول في جوار الله تعالى وإمّا في الدّنيا فكالإيمان و حسن الخلق وما يعين عليهما، و إلى نعمة مقيّدة من وجه دون وجه كالمال الّذي يصلح الدّين من وجه ويفسده من وجه فكذلك البلاء ينقسم إلى مطلق ومقيّد، أمّا المطلق في الآخرة فالبعد من الله تعالى إمّا مدّة و إمّا أبداً و أمّا في الدّنيا فالكفر و المعصية و سوء الخلق و هي الّتي تفضي إلى البلاء المطلق، و أمّا المقيّد فكالفقر و المرض و الخوف و سائر أنواع البلاء الّتي لا يكون بلاء في الدّين بل في الدّنيا فالشكر المطلق للنعمة المطلقة، وأمّا البلاء المطلق في الدنيا فقد لا يؤمر بالصبر عليه لأنّ الكفر بلاء ولا معنى للصبر عليه و كذا المعصية، بل حقّ الكافر أن يترك كفره و كذا حقّ العاصي، نعم الكافر قد لا يعرف أنّه كافر فيكون

← «الا عظمت مؤونة الناس عليه فمن لا يحتمل تلك المؤونة - الحديث -» وهكذا أخرجه البيهقي في الشعب عن عائشة عن معاذ كما في الجامع الصغير والمغني.

(١) الرعد: ١١.

كمن به علّة و هو لا يتألّم بها بسبب غشية أو غيرها فلا صبر عليه و العاصي يعرف أنّه عاص فعليه ترك المعصية بل كلّ بلاء يقدر الإنسان على دفعه فلا يؤمر بالصبر عليه فلو ترك الإنسان الماء مع طول العطش حتّى عظم تألّمه فلا يؤمر بالصبر عليه بل يؤمر بإزالة الألم و إنّما الصبر على ألم ليس إلى العبد إزالته، فإذن يرجع الصبر في الدّنيا إلى ماليس ببلاء مطلق، بل يجوز أن يكون نعمة من وجه فلذلك يتصوّر أن يجتمع عليه وظيفة الصبر و الشكر فإنّ الغنيّ مثلا يجوز أن يصير سبباً لهلاك الإنسان حتّى يقصد بسبب ماله فيقتل وتقتل أولاده، والصحّة أيضاً كذلك فما من نعمة من هذه النعم الدّنياويّة إلّا ويجوز أن تصير بلاء ولكن بالإضافة إليه، و كذلك مامن بلاء إلّا و يجوز أن يصير نعمة ولكن بالإضافة إلى حاله فربّ عبد يكون الخيرة له في الفقر والمرض، ولو صحّ بدنه و كثر ماله لبطر وطغى وبغى، قال الله تعالى: «و لو بسط الله الرّزق لعباده لبغوا في الأرض» (١) و قال تعالى: «إنّ الإنسان ليطغى أن رآه استغنى» (٢) وقال صلّى الله عليه وآله وسلّم: «إنّ الله ليحمي عبده المؤمن الدّنيا وهو يحبّه كما يحمي أحدكم مريضه» (٣) و كذلك الزّوجة والولد والقريب و كلّ ما ذكرناه في الأقسام الستّة عشر من النعم سوى الإيمان و حسن الخلق فإنّها يتصوّر أن يكون بلاء في حقّ بعض الناس فيكون أضدادها إذن نعماً في حقّهم إذ قد سبق أنّ المعرفة كمال ونعمة فإنّها صفة من صفات الله تعالى، ولكن قد تكون على العبد في بعض الأمور بلاء و يكون فقدها نعمة، مثاله جهل الإنسان بأجله فإنّه نعمة عليه إذ لو عرفه ربما تنغّص عليه العيش و طال بذلك غمّه، و كذلك جهله بما يضمره الناس عليه من معارفه وأقاربه نعمة عليه إذ لو رفع الستر و اطّلع عليه لطال ألمه و حقده و حسده واشتغاله بالانتقام، و كذلك جهله بالصفات المذمومة من غيره نعمة عليه إذ لو عرفها أبغضه وآذاه وكان ذلك وبالاً عليه في الدّنيا و الآخرة، بل جهله بالخصال المحمودة في غيره قد يكون نعمة عليه، فإنّه ربّما يكون وليّاً لله و هو

(١) الشورى: ٢٧. (٢) العلق: ٦ و٧.
(٣) أخرجه الترمذي وحسنه والحاكم ج ٤ ص ٣٠٩ نحوه وصححه وقد تقدم.

يضطرّ إلى إيذائه وإهانته ولو عرف ذلك وآذى كان إثمه أعظم لامحالة فليس من آذى نبيّاً أو وليّاً وهو يعرف كمن آذى وهو لايعرف، ومنها إبهام الله أمر القيامة وإبهامه ليلة القدر و ساعة يوم الجمعة و إبهامه بعض الكبائر فكلّ ذلك نعمة لأنّ هذا الجهل يوفّر دواعيك على الطلب والاجتهاد فهذه وجوه نعم الله في الجهل فكيف في العلم وحيث قلنا: إنّ لله في كلّ موجود نعمة فهو حقّ، وذلك مطّرد في حقّ كلّ أحد ولايستثنى عنه بالظنّ إلّا الآلام الّتي يخلقها في بعض الناس وهي أيضاً قد تكون نعمة في حقّ غير المتألّم بها و إن لم تكن نعمة في حقّه كالألم الحاصل من المعصية كقطعه يد نفسه و وشمه بشرته فإنّه يتألّم به و هو عاص به، و ألم الكفّار في النّار فهي أيضاً نعمة ولكن في حقّ غيرهم من العباد لا في حقّهم لأنّ مصائب قوم عند قوم فوائد ولولا أنّ الله خلق العذاب و عذّب به طائفة لما عرف المتنعّمون قدر نعمه و لأكثر فرحهم بها ففرح أهل الجنّة إنّما يتضاعف إذا تفكّروا في آلام أهل النار، أما ترى أهل الدّنيا ليس يشتدّ فرحهم بنور الشمس مع شدّة حاجتهم إليها من حيث أنّها عامّة مبذولة ولا يشتدّ فرحهم بالنظر إلى زينة السماء و هي أحسن من كلّ بستان لهم في الأرض يجتهدون في عمارته ولكن زينة السماء لما عمّت لم يشعروا بها ولم يفرحوا بسببها، فإذن قد صحّ ما ذكرناه من أنّ الله تعالى لم يخلق شيئاً إلّا وفيه حكمة ولاخلق شيئاً إلّا وفيه نعمة، إمّا على جميع عباده أو على بعضهم، فإذن في خلق الله البلاء أيضاً نعمة إمّا على المبتلى و إمّا على غير المبتلى، فإذن كلّ حالة لا يوصف بأنّها بلاء مطلق ولا نعمة مطلقة فيجتمع فيها على العبد وظيفتان الصبر و الشكر جميعاً، فإن قلت: فهما متضادّان فكيف يجتمعان إذ لا صبر إلّا على غمّ ولاشكر إلّا على فرح؟ فاعلم أنّ الشيء الواحد قد يغتمّ به من وجه ويفرح به من وجه آخر، فيكون الصبر من حيث الاغتمام و الشكر من حيث الفرح، وفي كلّ فقر و مرض و خوف وبلاء في الدّنيا خمسة أُمور ينبغي أن يفرح العاقل بها ويشكر عليها: أحدها أنّ كلّ مصيبة و مرض فيتصوّر أن يكون أكبر منها إذ مقدورات الله تعالى لا تتناهي فلو ضعّفها الله و زادها ما ذا كان يردّه و يحجزه فليشكر إذ لم

يكن أعظم منها في الدّنيا . الثاني أنّه كان يمكن أن يكون مصيبته في دينه ، قال رجلٌ لسهل : دخل اللّص بيتي وأخذ متاعي فقال : اُشكر الله لو دخل الشيطان قلبك وأفسد التوحيد ما ذا كنت تصنع ؟ . ولذلك استعاذ عيسى على نبيّنا وعليه السلام في دعائه إذ قال : « اللّهمّ لا تجعل مصيبتي في ديني » وقال بعض الصحابة : ما ابتليت ببلاء إلّا كان لله تعالى عليّ فيه أربع نعم إذ لم يكن في ديني و إذ لم يكن أعظم منه و إذ لم أحرم الرّضا به و إذ أرجو الثواب عليه . وكان لبعض أرباب القلوب صديق فحبسه السلطان فأرسل إليه فقال له : اشكر الله ، فضربه فقال : اشكر الله فجيء بمحبوس مجوسيّ مبطون و قيّد وجعل حلقة من قيده على رجله وحلقة على رجل المجوسيّ فأرسل إليه فقال : اشكر الله ، فكان يحتاج المجوسيّ أن يقوم مرّات وهو يحتاج إلى أن يقوم معه ويقف على رأسه حتّى يقضي حاجته فكتب إليه بذلك فقال : اشكر الله تعالى ، فقال : إلى متى هذا وأيّ بلاء أعظم من هذا ؟ فقال : لو جعل الزّنار الّذي في وسطه على وسطك ما ذا كنت تصنع ؟ فاذن ما من إنسان قد اصيب ببلاء إلّا و لو تأمّل حقّ التأمّل في سويدائه(١) ظاهراً وباطناً في حقّ مولاه لكان يرى أنّه يستحقّ أكثر ممّا اُصيب به عاجلاً وآجلاً ، ومن استحقّ عليك أن يضربك مائة سوط فاقتصر على عشرة فهو مستحقّ للشكر ومن استحقّ أن يقطع يديك فترك إحديهما فهو مستحقّ للشكر ، و لذلك مرّ بعض الشيوخ في شارع فصبّ على رأسه طست من رماد فسجد لله تعالى سجدة الشكر ، فقيل له : ما هذه السجدة ؟ فقال : كنت أنتظر أن يصبّ عليّ النار فالاقتصار على الرّماد نعمة . و قيل لبعضهم : ألا تخرج للاستسقاء فقد احتبست الأمطار فقال : أنتم تستبطئون المطر و أنا أستبطيء الحجر .

فإن قلت : كيف أفرح و أرى جماعة ممّن زادت معصيتهم على معصيتي و لم يصابوا بما أصبت به حتّى الكفّار ؟ فاعلم أنّ الكافر قد خبيء له ما هو أكثر و إنّما أمهل حتّى يستكثر من الإثم ويطول عليه العقاب كما قال تعالى : « إنّما نملي لهم ليزدادوا إثما »(٢) وأمّا العاصي فمن أين يعلم أنّ في العالم من هو أعصى منك ،

(١) في الاحياء « سوء ادبه » . (٢) آل عمران : ١٧٨ .

و ربّ خاطر بسوء أدب في حقّ الله تعالى و في صفاته أعظم و أطمّ من شرب الخمر والزّناء وسائر المعاصي بالجوارح ، ولذلك قال تعالى في مثله « تحسبونه هيّناً وهو عند الله عظيم » (١) فمن أين تعلم أنّ غيرك أعصى منك ثمّ لعلّه قدأخّرت عقوبته إلى الآخرة و عجّلت عقوبتك في الدّنيا فلم لا تشكر الله على ذلك ؟ و هذا هو الوجه الثالث في الشكر و هو أنّه ما من عقوبة إلّا و كان يتصوّر أن تؤخّر إلى الآخرة ومصائب الدّنيا يتسلّى عنها بأسباب اُخرتهون المصيبة فيخفّ وقعها ومصيبة الآخرة تدوم وإن لم تدم فلا سبيل إلى تخفيفها بالتسلّي إذ أسباب التسلّي مقطوعة بالكلّيّة في الآخرة عن المعذّبين و من عجّلت عقوبته في الدّنيا فلا يعاقب ثانياً إذ قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « إنّ العبد إذا أذنب ذنباً فأصابته شدّة أو بلاء في الدّنيا فالله أكرم من أن يعذّبه ثانياً » (٢).

أقول : وهذا المعنى مرويّ من طريق الخاصّة أيضاً بغير واحد من الاسناد(٣).

قال : الرابع أنّ هذه المصيبة والبليّة كانت مكتوبة عليه في اُمّ الكتاب وكان لابدّ من وصولها إليه و قد وصلت و وقع الفراغ و استراح من بعضها أو من جميعها فهذه نعمة . الخامس أنّ ثوابها أكثر منها فإنّ مصائب الدّنيا طرق إلى الآخرة من وجهين . أحدهما الوجه الّذي به يكون الدّواء الكريه نعمة في حقّ المريض و يكون المنع من أسباب اللّعب نعمة في حقّ الصبيّ فإنّه لو خلّي واللّعب كان يمنعه ذلك عن العلم و الأدب فكان يخزن جميع عمره ، فكذلك المال و الأهل و الأقارب و الأعضاء حتّى العين الّتي هي أعزّ الأشياء قد تكون سبباً لهلاك الإنسان في بعض الأحوال بل العقل الّذي هو أعزّ الاُمور قد يكون سبباً لهلاكه فالملاحدة غداً يتمنّون لو كانوا مجانين و صبياناً و لم يتصرّفوا بعقولهم في دين الله ، فمامن

(١) النور : ١٥ .

(٢) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٢٦٠٤ من حديث علي عليه السلام هكذا « من أصاب في الدنيا ذنباً فعوقب به فالله أعدل من أن يثني عقوبته على عبده ، و من أذنب ذنباً في الدنيا فستره الله عليه فالله أكرم من أن يعود في شيء قد عفا عنه » .

(٣) راجع الكافي ج ٢ ص ٤٤٤ باب تعجيل عقوبة الذنب .

شيء من هذه الأسباب يوجد من العبد إلّا ويتصوّر أن يكون له فيه خيرة دينيّة فعليه أن يحسن الظنّ بالله ويقدّر فيه الخيرة ويشكره عليه، فإنّ حكمة الله واسعة وهو بمصالح العباد أعلم من العباد و غداً يشكره العباد على البلايا إذا رأوا ثواب الله على البلايا كما يشكر الصبيّ بعد العقل والبلوغ اُستاده وأباه على ضربه و تأديبه إذ يدرك ثمرة ما استفاده من التأديب، والبلاء تأديب من الله تعالى و عنايته بعباده أتمّ وأوفر من عناية الآباء بالأولاد فقد روي أنّ رجلاً قال لرسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: أوصني فقال: « لاتتّهم الله في شيء قضاه عليك » (١) ونظر صلّى الله عليه وآله وسلّم إلى السماء فضحك فسئل فقال: « عجبت لقضاء الله تعالى للمؤمن إن قضى له بالسرّاء رضي وكان خيراً له و إن قضى له بالضرّاء رضي وكان خيراً له » (٢).

والوجه الثاني رأس الخطايا المهلكة حبّ الدّنيا ورأس أسباب النجاة التجافي بالقلب عن دار الغرور، و مؤاتاة النعم على وفق المراد من غير امتزاج ببلاء ومصيبة تورث طمأنينة القلب إلى الدّنيا وأسبابها حتّى تصير كالجنّة في حقّه فيعظم بلاؤه عند الموت بسبب مفارقته و إذا كثرت عليه المصائب انزعج قلبه عن الدّنيا و لم يسكن إليها ولم يأنس بها وصارت الدّنيا سجناً عليه وكان نجاته منها غاية اللّذّة كالخلاص من السجن و لذلك قال صلّى الله عليه وآله وسلّم: «الدّنيا سجن المؤمن وجنّة الكافر» (٣) والكافر كلّ من أعرض عن الله ولم يرد إلّا الحيوة الدّنيا و رضي بها و اطمأنّ إليها و المؤمن كلّ منقلع بقلبه عن الدّنيا شديد الحنين إلى الخروج منها، والكفر بعضه ظاهر و بعضه خفيّ، و بقدر حبّ الدّنيا في القلب سرى فيه الشرك الخفيّ بل الموحّد المطلق هو الّذي لايحبّ إلّا الواحد الحقّ. فإذن في البلاء نعم من هذا الوجه فيجب الفرح به، و أمّا التألّم فهو ضروريّ و ذلك يضاهي فرحك عند الحاجة إلى

(١) أخرجه أحمد ج ٥ ص ٣١٩ من حديث عبادة بن صامت بزيادة في أوله و في اسناده عبدالله ابن لهيعة و هو صدوق الا أنه خلط بعد احتراق كتبه.

(٢) أخرجه البغوي ج ٢ ص ١٧٩ من حديث صهيب بسند صحيح.

(٣) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤١١٣ وغيره في كتاب الزهد.

الحجامة بمن يتولّى حجامتك مجّاناً أويسقيك دواء نافعاً بشعاً و هومجّان فإنّك تتألّم وتفرح فتصبرعلى الألم وتشكره على سبب الفرح فكلّ بلاء في الأمورالدنيويّة مثاله مثال الدّواء الّذي يؤلم في الحال و ينفع في المآل ، بل من دخل دار ملك للنظارة وعلم أنّه يخرج منها لا محالة فرأى وجهاً حسناً لا يقدر على أن يخرج معه من الدّار كان ذلك بلاء عليه لأنّه يورثه الاُنس بمنزل لايمكنه المقام فيه ، ولو كان عليه في المقام خطرٌ من أن يطّلع عليه الملك فيعذّبه فأصابه ما يكره حتّى نفره عن المقام كان ذلك نعمة عليه و الدّنيا منزل وقد دخلها الناس من باب الرّحم وهم خارجون عنها إلى باب اللّحد ، فكلّ ما يحقّق اُنسهم بالمنزل فهو بلاء و كلّ ما يزعج قلوبهم عنها ويقطع اُنسهم بها فهو نعمة فمن عرف هذا تصوّر منه أن يشكر على البلاء ، ومن لم يعرف هذه النعمة في البلاء لم يتصوّر منه الشكر لأنّ الشكر يتبع معرفة النعمة بالضرورة ، ومن لايؤمن بأنّ ثواب المصيبة أكبر من المصيبة لم يتصوّر منه الشكر على المصيبة .

وحكي أنّ أعرابيّاً عزّى ابن عبّاس على أبيه فقال :

اصبر نكن بك صابرين فإنّما ✿ صبر الرّعيّة بعد صبر الرّاس
خيرٌ من العبّاس أجرك بعده ✿ و الله خيرٌ منك للعبّاس

فقال ابن عبّاس : ما عزّاني أحدٌ أحسن من تعزيته و الأخبار الواردة في الصبر على المصائب كثيرة قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « من يرد الله به خيراً يصب منه »[1] و قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : «قال الله تعالى : إذا وجّهت إلى عبد من عبيدي مصيبة في بدنه أو ماله أو ولده ثمّ استقبل ذلك بصبر جميل استحييت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزاناً أو أنشر له ديواناً »[2] و قال عليه السلام : « ما من عبداً صيب بمصيبة فقال كما أمره الله : « إنّا لله وإنّا إليه راجعون » اللّهمّ أجرني في مصيبتي وأعقبني خيراً منها

---

(١) أخرجه البخارى ج ٧ ص ١٤٩ كتاب الطب ح ٥ .

(٢) أخرجه الحكيم الترمذى من حديث أنس بسند ضعيف كما فى الجامع الصغير باب القاف ج ٢ ص ٨٣ .

إلّا فعل الله ذلك به » (١).

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « من سلبته كريمتيه فجزاؤه الخلود في داري و النظر إلى وجهي » (٢) وروي أنّ رجلاً قال : يا رسول الله ذهب مالي و سقم جسمي فقال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : « لا خير في عبد لا يذهب ماله و لا يسقم جسده إنّ الله إذا أحبّ عبداً ابتلاه و إذا ابتلاه صبّره » (٣) و قال عليه السلام : « إنّ الرّجل ليكون له الدّرجة عند الله تعالى لا يبلغها بعمل حتّى يبتلى ببلاء في جسمه فيبلغها بذلك » (٤) وعن خبّاب الأرتّ قال : أتينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : و هو متوسّد بردائه في ظلّ الكعبة فشكونا إليه فقلنا : يا رسول الله ألا تدعو الله تستنصره لنا فجلس محمارّاً لونه ، ثمّ قال : « إنّ في من كان قبلكم ليؤتى بالرّجل فيحفر له في الأرض حفيرة و يجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل فرقتين ما يصرفه ذلك عن دينه » (٥) وعن عليّ عليه السلام قال : « أيّما رجل حبسه السلطان ظلماً فمات فهو شهيد وإن ضربه فمات فهو شهيد » وقال عليه السلام : « من إجلال الله ومعرفة حقّه أن لا تشكو وجعك ولا تذكر مصيبتك » .

و قال أبو الدّرداء : تولدون للموت و تعمرون للخراب ، وتحرصون على ما يفنى ، وتذرون ما يبقى ، ألا حبّذا المكروهات الثلاث الفقر و المرض والموت .

و عن : رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (٦) « إذا أراد الله بعبد خيراً و أراد أن يصافيه صبّ عليه البلاء صبّاً وثجّه عليه ثجّاً ، فإذا دعاه قالت الملائكة : صوت معروف و إن

(١) أخرجه مسلم ج ٣ ص ٣٨ من حديث ام سلمة .

(٢) روى نحوه البخارى و أحمد من حديث أنس و قد تقدم و أيضا أبو نعيم فى الحلية والطبرانى فى الكبير عن عرباض كلهم بسند صحيح كما فى الجامع الصغير .

(٣) أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب المرض و الكفارات من حديث أبى سعيد الخدرى باسناد فيه لين كما فى المغنى .

(٤) أخرجه أبوداود ج ٢ ص ١٦٢ بأدنى اختلاف فى اللفظ .

(٥) أخرجه أحمد والبخارى و أبوداود والنسائى وقد تقدم .

(٦) قال العراقى : رواه الاصفهانى فى الترغيب و الترهيب عن بكر بن خنيس عن ضرار بن عمرو عن يزيد الرقاشى عن أنس و بكر و ضرار و يزيد كلهم ضعيف .

دعاه ثانياً فقال : يا ربّ قال الله تعالى : لبّيك عبدي و سعديك لا تسألني شيئاً إلاّ أعطيتك أو رفعت عنك ما هو خير وادّخرت لك عندي ما هو أفضل منه فإذا كان يوم القيامة جيء بأهل الأعمال فوفّوا أعمالهم بالميزان أهل الصلاة و الصيام و الصدقة و الحجّ ثمّ يؤتي بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان و لا ينشر لهم ديوان يصبّ عليهم الأجر صبّاً ، كما كان يصبّ عليهم البلاء صبّاً فيودّ أهل العافية في الدّنيا لو أنّهم كانت تقرض أجسادهم بالمقاريض لما يرون ما يذهب به أهل البلاء من الثواب فذلك قوله تعالى : « إنّما يوفّى الصابرون أجرهم بغير حساب »(١) وعن ابن عباس قال : شكا نبيّ من الأنبياء إلى ربّه فقال : يا ربّ العبد المؤمن يطيعك و يجتنب معاصيك تزوي عنه الدّنيا و تعرض له البلاء و يكون العبد الكافر لا يطيعك و يجترىء على معاصيك تزوي عنه البلاء وتبسط له الدّنيا فأوحى الله تعالى إليه أنّ العباد لي والبلاء لي و كلّ يسبّح بحمدي فيكون المؤمن عليه من الذّنوب كأمثال الجبال فأزوي عنه الدّنيا وأعرضه للبلاء فيكون كفّارة لذنوبه حتّى يلقاني فأجزيه بحسناته ويكون الكافر له الحسنات فأبسط له في الرّزق و أزوي عنه البلاء فأجزيه بحسناته في الدّنيا حتّى يلقاني فأجزيه بسيّئاته .

وروي أنّه لما نزل قوله تعالى : « من يعمل سوء يجز به »(٢) قيل : كيف الفرح بعد هذه الآية فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم للقائل : « ألست تمرض ؟ أليس يصيبك الأذى؟ أليس تحزن؟ فهذا ما تجزون به(٣) يعني أنّ جميع ما يصيبك يكون كفّارة لذنوبك .

و عن عقبة بن عامر عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّه قال : « إذا رأيتم الرّجل يعطيه الله ما يحبّ و هو مقيم على معصيته فاعلموا أنّ ذلك استدراج ، ثمّ قرأ قوله تعالى : «فلمّا نسوا ما ذكّروا به فتحنا عليهم أبواب كلّ شيء »(٤) يعني لمّا تركوا ما اُمروا

---

(١) الزمر : ١٠ . (٢) النساء : ١٢٣ .
(٣) راجع الدر المنثور ج ٢ ص ٢٢٦ رواه عن جماعة .
(٤) أخرجه أحمد ج ٤ ص ١٤٥ والطبرانى فى الكبير والبيهقى فى الشعب . والاية فى سورة الانعام : ٤٤ .

به فتحنا عليهم أبواب الخيرات حتّى إذا فرحوا بما اُوتوا أي بما اُعطوا من الخير أخذناهم بغتة . وقيل : إنّ رجلاً من الصحابة رأى امرأة كان يعرفها في الجاهليّة فكلّمها ثمّ تركها فجعل الرّجل يلتفت إليها وهو يمشي فصدمه حائط فأثّر في وجهه فأتى النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم فأخبره فقال عليه السلام : « إذا أراد الله بعبد خيراً أعجّل له عقوبة ذنبه في الدّنيا »[١]

وقال عليّ عليه السلام : « ألا اُخبركم بأرجى آية في كتاب الله قالوا : بلى فقرأ عليهم «وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير » فالمصائب في الدّنيا بكسب الأوزار فإذا عاقبه الله في الدّنيا فالله أكرم من أن يعذّبه ثانياً و إن عفى عنه في الدّنيا فالله أكرم من أن يعذّبه يوم القيامة » .

وعن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : أنّه قال : « ما تجرّع عبدٌ قطّ جرعتين أحبّ إلى الله من جرعة غيظ ردّها بحلم ، و جرعة مصيبة يصبر الرّجل لها ، و لا قطرت قطرة أحبّ إلى الله تعالى من قطرة دم اهريقت في سبيل الله أو قطرة دمع في سواد اللّيل و هو ساجد ولا يراه إلّا الله ، و ما خطا عبد خطوتين أحبّ إلى الله تعالى من خطوة إلى صلاة فريضة وخطوة إلى صلة الرّحم »[٢] .

و عن أبي الدّرداء أنّه قال : توفّي ابن لسليمان بن داود عليهما السلام فوجد عليه وجداً شديداً ، فأتاه ملكان فجثيا بين يديه في زيّ الخصوم فقال أحدهما : بذرت بذراً فلمّا استحصد مرّ به هذا فأفسده ، فقال للآخر : ما تقول ؟ فقال : أخذت الجادّة فأتيت على زرع فنظرت يميناً وشمالاً فإذا الطريق عليه فقال سليمان عليه السلام :

---

(١) أخرجه الترمذى والحاكم من حديث أنس والطبرانى والحاكم أيضاً والبيهقى فى الشعب من حديث عبدالله بن مغفل كما فى الجامع الصغير والمغنى .

(٢) قال العراقى : أخرجه أبوبكر بن لال فى مكارم الاخلاق من حديث على عليه السلام دون ذكر الجرعتين ، و فيه محمد بن صدقة و هو الفدكى منكر الحديث . و روى ابن ماجه من حديث ابن عمر باسناد جيد «ما من جرعة أعظم عندالله من جرعة غيظ كظمها عبد ابتغاء وجه الله» . و روى الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى أمامة « ما قطرت فى الارض قطرة أحب الى الله عزوجل من دم رجل مسلم فى سبيل الله أو قطرة دمع فى سواد الليل » الحديث و فيه أيضاً محمد بن صدقة و هو الفدكى منكر الحديث كمامر .

و لم بذرت على الطريق أمّا علمت أن لابدّ للناس من الطريق قال : فلم تحزن على ولدك أما علمت أنّ الموت سبيل الآخرة فتاب سليمان إلى ربّه ولم يجزع على ولده بعد ذلك ، ودخل عمر بن عبد العزيز على ابن له مريضٌ فقال : يا بنيّ لأن تكون في ميزاني أحبُّ إليّ من أن أكون في ميزانك ، فقال : يا أبت لأن يكون ما تحبُّ أحبُّ إليّ من أن يكون ما اُحبّ.

و عن ابن عبّاس رضي الله عنه أنّه نعيت إليه ابنة له فاسترجع و قال : عورة سترها الله ومؤونة كفاها الله و أجرٌ قد ساقه الله ، ثمّ نزل فصلّي ركعتين ، ثمّ قال : قد صنعنا ما أمرالله تعالى قال الله تعالى : « واستعينوا بالصبر والصلاة - الآية - »(١).

و عن ابن المبارك أنّه مات ابنٌ له فعزّاه مجوسيٌّ فقال له ، ينبغي للعاقل أن يفعل اليوم ما يفعله الجاهل بعد خمسة أيّام فقال ابن المبارك : اكتبوها عنه.

و قال بعض العلماء : إنّ الله تعالى ليبتلي العبد بالبلاء بعد البلاء حتّى يمشي على الأرض و ما له ذنب ، وقال الفضيل : إنّ الله عزّ وجلّ ليتعاهد عبده المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الرّجل أهله بالخير . وقال حاتم الأصمّ : إنّ الله عزّ وجلّ يحتجّ على الخلق يوم القيامة بأربعة أنفس على أربعة أجناس على الأغنياء بسليمان وعلى الفقراء بعيسى و على العبيد بيوسف و على المرضى بأيّوب صلوات الله عليهم ، و روي أنّ زكريّا عليه السلام لمّا هرب من الكفّار من بني إسرائيل و اختفى في الشجرة فعرفوا ذلك فجيء بالمنشار فنشرت الشجرة حتّى بلغ المنشار إلى رأس زكريّا فأنّ أنّة فأوحى الله تعالى إليه يا زكريّا لئن صعدت منك أنّة ثانية لأمحونّك من ديوان النبوّة ، فعضّ زكريّا عليه السلام على الصبر حتّى قطع بشطرين.

و قال لقمان لابنه : يا بنيّ إنّ الذّهب يجرّب بالنار والعبد الصالح يجرّب بالبلاء و إذا أحبّ الله قوماً ابتلاهم فمن رضي فله الرّضا و من سخط فله السخط.

و قال أحنف بن قيس : أصبحت يوماً أشتكي ضرسي فقلت لعمّي : ما نمت البارحة من وجع الضرس - حتّى قلتها ثلاثاً - فقال : لقد أكثرت من شكوى ضرسك

(١) البقرة : ٤٥ .

في ليلة واحدةٌ قد ذهبت عيني منذ ثلاثين سنة ما علم بها أحدٌ. و أوحى الله تعالى إلى عزير عليه السلام إذا نزلت بك بليّة فلاتشكني إلى خلقي واشك إليَّ كما لا أشكوك إلى ملائكتي إذا صعدت إليَّ مساويك و فضائحك (*).

(بيان فضل النعمة على البلاء)

لعلّك تقول : إنَّ هذه الأخبار تدلُّ على أنَّ البلاء خيرٌ في الدُّنيا من النعم فهل لنا أن نسأل الله تعالى البلاء ، فأقول : لا وجه لذلك لما روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه كان يستعيذ في دعائه من بلاء الدُّنيا و بلاء الآخرة [1] و كان يقول هو والأنبياء عليهم السلام ربّنا آتنا في الدُّنيا حسنة وفي الآخرة حسنة[2] ، وكانوا يستعيذون من شماتة الأعداء وغيره [3].

و قال عليٌّ عليه السلام : « اللّهمَّ إنّي أسألك الصبر فقال صلى الله عليه وآله : لقد سألت الله البلاء فأسأله العافية »[4].

و روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال : « سلوا الله العافية فما اُعطى عبد أفضل من العافية إلّا اليقين » [5] و أشار باليقين إلى عافية القلب عن مرض الجهل والشكّ

(*) دعوات الراوندى كما فى مستدرك النورى ج ١ ص ٨١ .

(١) أخرج ابن حبان والحاكم و أحمد من حديث بسر بن أرطاة « اللهم أحسن عاقبتنا فى الامور كلها و أجرنا من خزى الدنيا وعذاب الاخرة » كما فى الجامع الصغير .

(٢) أخرج مسلم و البخارى من حديث أنس كان أكثر دعوة يدعو بها النبى صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « اللهم آتنا فى الدنيا ـ الحديث» و لابى داود والنسائى من حديث عبدالله بن السائب قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول مابين الركنين : « ربنا آتنا » الحديث .

(٣) أخرجه النسائى ج ٨ ص ٢٦٨ بغير واحد من الاسناد .

(٤) قال العراقى : أخرجه الترمذى من حديث معاذ فى أثناء حديث و حسنه ولم يسم علياً و انما قال سمع رجلا . وله و للنسائى فى اليوم والليلة من حديث على عليه السلام « كنت ساكناً فمر بى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و أنا أقول . الحديث » وفيه « فان كان بلاء فصبرنى فضربه برجله ، و قال : اللهم عافه واشفه » و قال : حسن جيد .

(٥) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٣٨٤٩ بنحوه و أخرجه النسائى و الترمذى أيضاً راجع الترغيب للمنذرى ج ٤ ص ٢٧٢ .

فعافية القلب أعلى من عافية البدن .

و قال مطرّف بن عبدالله : لأن أُعافي فأشكر أحبّ إليّ من أن أبتلي فأصبر .

و قال صلى الله عليه وآله وسلم في دعائه : « وعافيتك أحبّ إليّ »[1] وهذا أظهر من أن يحتاج فيه إلى دليل واستشهاد وهذا لأنّ البلاء صار نعمة باعتبارين أحدهما بالإضافة إلى ما هو أكبر منه إمّا في الدُّنيا أو في الدّين والآخر بالإضافة إلى ما يرجى من الثواب فينبغي أن يسأل الله تمام النعمة في الدُّنيا ودفع ما فوقه من البلاء ويسأله الثواب في الآخرة على الشكر على نعمته ، فإنّه قادر على أن يعطي على الشكر ما [لا] يعطيه على الصبر ، فإن قلت : فقد قال بعضهم : أودّ أن أكون جسراً على النار يعبر عليّ الخلق كلّهم فينجون و أكون أنا في النار . و قال سمنون :

و ليس لي في سواك حظّ ✧ فكيف ما شئت فاختبرني

فهذا من هؤلاء سؤال للبلاء ؟ فاعلم أنّه حكي أنّ سمنون ابتلي بعد هذا البيت بعلّة الحصر فكان بعد ذلك يدور على أبواب المكاتب ويقول للصبيان : ادعوا لعمّكم الكذّاب .

و أمّا محبّة الإنسان ليكون هو في النّار دون سائر الخلق فغير ممكن ولكن قد تغلب المحبّة على القلب حتّى يظنّ المحبّ بنفسه حبّاً لمثل ذلك فمن شرب كأس المحبّة سكر و من سكر توسّع في الكلام و لو زايله سكره علم أنّ ما غلب عليه كانت حالة لا حقيقة لها فما تسمعه من هذا الفنّ فهو كلام العشّاق الّذين أفرط حبّهم و كلام العشّاق يستلذّ سماعه ولا يعوّل عليه كما روي أنّ فاختة كان يراودها زوجها فتمنعه فقال : ما الّذي يمنعك عنّي و لو أردت أن أقلب لك ملك سليمان ظهراً لبطن لفعلته لأجلك فسمعه سليمان فاستدعاه و عاتبه فقال : يا نبيّ الله كلام العشّاق لا يحكى وهو كما قال . و قول الشاعر :

أُريد وصاله و يريد هجري ✧ فأترك ما أُريد لما يريد

(١) ذكره ابن هشام فى السيرة فى دعائه عليه السلام حين خروجه صلى الله عليه و آله و سلم الى الطائف .

هو أيضاً محالٌ و معناه أنّي أُريد مالا اُريد لأنّ من أراد الوصال ما أراد الهجر فكيف أراد الهجر الّذي لم يرده بل لا يصدق هذا الكلام إلّا بتأويلين أحدهما أن يكون ذلك في بعض الأحوال حتّى يكتسب به رضاه الّذي يتوصّل به إلى مراد الوصال في الاستقبال فيكون الهجران وسيلة إلى الرّضا والرّضا وسيلة إلى وصال المحبوب، والوسيلة إلى المحبوب محبوبةٌ فيكون مثاله مثال محبّ المال إذا أسلم درهماً في درهمين فهو لحبّ الدّرهمين يترك الدّرهم في الحال. الثاني أن يصير رضاه عنده مطلوباً من حيث إنّه رضي فقطّ و يكون له لذّة في استشعاره رضا محبوبه منه تزيد تلك اللّذّة على لذّته في مشاهدته مع كراهته فعند ذلك يتصوّر أن يريد ما فيه الرّضا فلذلك قد انتهى حال بعض المحبّين إلى أن صارت لذّتهم في استشعارهم رضا الله عنهم أكثر من لذّتهم في العافية من غير شعور الرّضا، فهؤلاء إذا قدروا رضاه في البلاء صار البلاء أحبُّ إليهم من العافية، و هذه حالة لا يبعد وقوعها في غلبات الحبّ ولكنّها لا تثبت وإن ثبتت مثلاً فهل هي حالة صحيحة أم حالة اقتضتها حالة اُخرى وردت على القلب فمالت به عن الاعتدال هذا فيه نظرٌ، وذكر تحقيقه لا يليق بما نحن فيه. وقد ظهر بما سبق أنّ العافية خيرٌ من البلاء فنسأل الله العفو والعافية في الدّنيا و الآخرة.

☼(بيان الافضل من الصبر والشكر)☼

إعلم أنّ الناس اختلفوا في ذلك فقال قائلون: الصّبر أفضل من الشّكر و قال آخرون: الشكر أفضل، وقال آخرون هما سيّان، وقال آخرون: يختلف ذلك باختلاف الأحوال و استدلّ كلّ فريق بكلام شديد الاضطراب بعيد عن التحصيل فلا معنى للتّطويل بالنقل بل المبادرة إلى إظهار الحقّ أولى فنقول: في بيان ذلك مقامان:

الأوّل البيان على سبيل التساهل و هو أن ننظر إلى ظاهر الأمر و لا نطلب بالتفتيش تحقيقه و هو البيان الّذي ينبغي أن يخاطب به عوام الخلق لقصور أفهامهم عن درك الحقائق الغامضة وهذا الفنّ من الكلام هو الّذي ينبغي أن يعتمده الوعّاظ إذ مقصود كلامهم من مخاطبة العوام إصلاحهم، و الظئر المشفقة لا ينبغي أن تصلح

الصبيّ الطفل بالطيور السّمان و ضروب الحلاوات بل باللّبن اللّطيف ، و عليها أن تؤخّر عنه أطائب الأطعمة إلى أن يصير محتملاً لها بقوّته و يفارق الضعف الّذي هو عليه في بنيته ، فنقول : هذا المقام في البيان يأبى البحث والتّفصيل و مقتضاه النظر إلى الظاهر المفهوم من موارد الشرع و ذلك يقتضي تفضيل الصبر فإنّ الشكر و إن وردت أخبار في فضله فإذا اُضيف إلى ما ورد في فضيلة الصّبر كان فضائل الصبر أكثر بل فيها ألفاظ صريحة في التفضيل كقوله عليه السلام : « من أفضل ما اُوتيتم اليقين و عزيمة الصبر » (١).

و في الحديث « يؤتى يوم القيامة بأشكر أهل الأرض فيجزيه الله جزاء الشاكرين و يؤتى بأصبر أهل الأرض فيقال له : أما ترضى أن نجزيك كما جزينا هذا الشّاكر ؟ فيقول : نعم ربّ فيقول الله تعالى : كلاّ أنعمت عليه فشكر و ابتليتك فصبرت لأضعفنّ لك الأجر عليه فيعطى أضعاف جزاء الشاكرين ، و قد قال الله تعالى : « إنّما يوفّى الصابرون أجرهم بغير حساب » (٢).

و أمّا قوله : « الطاعم الشاكر بمنزلة الصّائم الصابر » (٣) فهو دليل على الفضيلة في الصّبر إذ ذكر ذلك في معرض المبالغة لرفع درجة الشكر فألحقه بالصّبر فكان هذا منتهى درجته ولولا أنّه فهم من الشرع علوّ درجة الصّبر لما كان إلحاق الشكر به مبالغة في الشكر و هو كقوله صلّى الله عليه وآله « الجمعة حجّ المساكين » (٤) « و جهاد المرأة حسن التبعّل » (٥) و « شارب الخمر كعابد الوثن » (٦) وأبداً المشبّه به ينبغي أن يكون

(١) تقدم غير مرة .

(٢) الزمر : ١٠ ، والخبر قال العراقي : لم أجد له أصلا .

(٣) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ١٧٦٤ والترمذي وحسنه عن أبي هريرة وقد تقدم .

(٤) أخرجه الحرث بن أبي اسامة بلفظ المتن كما في كنوز الحقائق للمناوي . و أخرجه القضاعي في مسند الشهاب و ابن عساكر بسند ضعيف عن ابن عباس هكذا « الجمعة حج الفقراء » كما في الجامع الصغير .

(٥) أخرجه الطبراني كما في كنوز الحقائق .

(٦) أخرجه الحرث بن أبي اسامة من حديث عبدالله بن عمر بسند ضعيف و رواه الطبراني في الاوسط وابن ماجه تحت رقم ٣٣٧٥ بلفظ « مد من الخمر » .

أعلى رتبة و كذلك قوله : « الصبر نصف الايمان » (١) لا يدلّ على أنّ الشكر مثله ، وهو كقوله عليه السلام : «الصوم نصف الصبر» (٢) فإنّ كلّ ماينقسم بقسمين يسمّى أحدهما نصفاً و إن كان بينهما تفاوت كما يقال : الإيمان هو العلم والعمل ، فالعمل نصف الايمان فلا يدلّ ذلك على أنّ العمل يساوي العلم ، و في الخبر « أبواب الجنّة كلّها مصراعان إلّا باب الصبر فإنّه مصراع واحد و أوّل من يدخله أهل البلاء أمامهم أيّوب صلوات الله عليه » (٣) و كلّ ما ورد في فضائل الفقر يدلّ على فضيله الصبر لأنّ الصبر حال الفقير و الشكر حال الغنيّ .

أقول : و في الكافي عن أبي جعفر عليه السلام قال : « مروءة الصبر في حال الحاجة و الفاقة والتعفّف و الغنى أكثر من مروءة الإعطاء » (٤).

قال أبو حامد : فهذا هو المقام الّذي يقنع العوام و يكفيهم في الوعظ اللّائق بهم والتعريف لما فيه صلاح دينهم .

المقام الثاني هو البيان الّذي يقصد به تعريف أهل العلم و الاستبصار بحقائق الاُمور بطريق الكشف والإيضاح فنقول فيه : كلّ أمرين مبهمين لا يمكن الموازنة بينهما مع الإبهام مالم يكشف عن حقيقة كلّ واحد منهما و كلّ مكشوف يشتمل على أقسام لاتمكن الموازنة بين الجملة و الجملة بل يجب أن تفرّد الآحاد بالموازنة حتّى يتبيّن الرُّجحان ، والصبر والشكر أقسامهما وشعبهما كثيرة فلايتبيّن حكمهما في الرُّجحان والنقصان مع الإجمال فنقول : قد ذكرنا أنّ هذه المقامات تنتظم من ثلاثة اُمور : علوم وأحوال وأعمال ، والشكر و الصبر و سائر المقامات هي كذلك ، و هذه الثلاثة إذا وزن البعض منها بالبعض لاح للناظرين إلى الظواهر أنّ العلوم

---

(١) تقدم فى الباب .

(٢) أخرجه البيهقى فى الشعب من حديث أبىهريرة بسند ضعيف كما فى الجامع الصغير بلفظ « الصيام » .

(٣) قال العراقى : لم أجد له أصلا .

(٤) المصدر ج ٢ ص ٩٣ تحت رقم ٢٢ .

تراد للأحوال والأحوال تراد للأعمال ، فالأعمال هي الأفضل ، وأمّا أرباب البصائر فالأمر عندهم بالعكس من ذلك فإنّ الأعمال تراد للأحوال و الأحوال تراد للعلوم ، فالأفضل العلوم ثمّ الأحوال ثمّ الأعمال لأنّ كلّ مراد لغيره فذلك الغير لامحالة أفضل منه ، و أمّا آحاد هذه الثلاثة فالأعمال قد تتساوى و قدتتفاوت إذا اُضيف بعضها إلى بعض و كذا آحاد الأحوال إذا اُضيف بعضها إلى بعض و كذا آحاد المعارف و أفضل المعارف علوم المكاشفة وهي أرفع من علوم المعاملة ، بل علوم المعاملة دون المعاملة فإنّها تراد للمعاملة ففائدتها إصلاح العمل ، و إنّما فضل العالم بالمعاملة على العابدإذا كان علمه ممّا يعمّ نفعه ، فيكون بالإضافة إلى عمل خاصّ أفضل و إلّا فالعلم القاصر بالعمل ليس بأفضل من العمل القاصر ، فنقول : فائدة إصلاح العمل إصلاح حال القلب و فائدة إصلاح حال القلب أن ينكشف له جلال الله في ذاته و صفاته و أفعاله ، فأرفع علوم المكاشفة معرفة الله سبحانه وهي الغاية الّتي تطلب لذاتها فإنّ السعادة تنال بها بل هي عين السعادة ولكن قد لا يشعر القلب في الدّنيا بأنّها عين السعادة و إنّما يشعر بها في الآخرة فهي المعرفة الحرّة الّتي لاقيد عليها فلا تتقيّد بغيرها و كلّ ما عداها من المعارف عبيد وخدم بالإضافة إليها فإنّها إنّما تراد لأجلها و لمّا كانت مرادة لأجلها كان تفاوتها بحسب نفعها في الإفضاء إلى معرفة الله فإنّ بعض المعارف يفضي إلى بعض إمّا بواسطة و إمّا بوسائط كثيرة فكلّ ما كانت الوسائط بينه و بين معرفة الله أقلّ فهي أفضل ، وأمّا الأحوال فنعني بها أحوال القلب في تصفيته و تطهيره عن شوائب الدّنيا و شواغل الخلق حتّى إذا طهر وصفا اتّضح له حقيقة الحقّ فإذن فضائل الأحوال بقدر تأثيرها في إصلاح القلب و تطهيره و إعداده لأن تحصل له علوم المكاشفة ، و كما أنّ تصقيل المرآة يحتاج إلى أن يتقدّم على تمامه أحوال للمرآة بعضها أقرب إلى الصقالة من بعض فكذلك أحوال القلب ، فالحالة القريبة أوالمقرّبة من صفاء القلب هي أفضل ممّا دونها لامحالة بسبب القرب من المقصود و هكذاترتيب الأعمال فإنّ تأثيرها في تأكيد صفاء القلب وجلب الأحوال إليه ، و كلّ عمل فإمّا

أن يجلب إليه حالة مانعة من المكاشفة موجبة لظلمة القلب جاذبة إلى زخارف الدُّنيا و إمّا أن يجلب إليه حالة مهيّئة للمكاشفة موجبة لصفاء القلب و قطع علائق الدُّنيا عنه ، واسم الأوّل المعصية و اسم الثاني الطاعة ، و المعاصي من حيث التأثير في ظلمة القلب و قساوته متفاوته ، و كذا الطاعات في تنوير القلب وتصفيته فدرجاتها بحسب درجات تأثيرها و ذلك يختلف باختلاف الأحوال ، و ذلك أنّا بالقول المطلق ربّما نقول : الصلاة النافلة أفضل من كلّ عبادة نافلة ، و أنّ الحجّ أفضل من الصدقة ، وأنّ قيام الّليل أفضل من غيره ، ولكنّ التحقيق فيه أنّ الغني الّذي معه مال وقد غلبه البخل وحبّ المال على إمساكه فإخراج درهم له أفضل من قيام ليالي و صيام أيّام لأنّ الصيام يليق بمن غلبته شهوة البطن فأراد كسرها أو منعه الشبع عن صفاء الفكر في علوم المكاشفة فأراد تصفية القلب بالجوع ، فأمّا هذا المريد إذ لم يكن حاله هذه الحال فليس يستضرّ بشهوة بطنه و لا هو مشتغل بنوع فكر يمنعه الشبع منه فاشتغاله بالصوم خروج منه عن حاله اللائق به إلى حال غيره و هو كالمريض الّذي يشكو وجع البطن إذا استعمل دواء الصداع فلا ينتفع به بل حقّه أن ينظر في المهلك الّذي استولى عليه ، و الشحّ المطاع من جملة المهلكات ولا يزيل صيام مائة سنة و قيام ألف ليلة منه ذرّة ، بل لا يزيله إلّا إخراج المال فعليه أن يتصدّق بما معه وتفصيل هذا ممّا ذكرناه في ربع المهلكات فليرجع إليه ، فإذن باعتبار هذه الأحوال يختلف تأثير الطاعات و المعاصي فكذلك درجاتها تختلف ، و عند ذلك يعرف البصير أنّ الجواب المطلق فيه خطأ إذ لو قال لنا قائل : الخبز أفضل أم الماء لم يكن فيه جواب حقّ إلّا أنّ الخبز للجائع أفضل والماء للعطشان ، فإن اجتمعا فلينظر إلى الأغلب فإن كان العطش هو الأغلب فالماء أفضل فإن تساوياً فهما متساويان ، و كذا إذا قيل السكنجبين أفضل أم شراب النيلوفر لم يصحّ الجواب عنه مطلقاً أصلاً ، نعم لو قيل السكنجبين أفضل أم عدم الصفراء ؟ فنقول : عدم الصفراء لأنّ السكنجبين مرادٌ له وما يراد لغيره فذلك الغير أفضل منه لا محالة ، فإذاً في بذل المال عمل وهو الإنفاق ويحصل به حال وهو زوال البخل وخروج حبّ الدُّنيا من القلب ، و يتهيّأ القلب

بسبب خروج حبّ الدّنيا من القلب لمعرفة الله وحبّه ، فالأفضل المعرفة و دونها الحال و دونها العمل .

فإن قلت : فقد حثّ الشرع على الأعمال وبالغ في ذكر فضلها حتّى طلب الصدقات وقال : «من ذا الّذي يقرض الله قرضاً حسناً »[1] وقال : «ويأخذ الصدقات»[2] فكيف لا يكون الفعل و هو الإنفاق أفضل ؟ فاعلم أنّ الطبيب إذا أثنى على الدّواء لم يدلّ ذلك على أنّ الدّواء مراد لعينه أو على أنّه أفضل من الصحّة و الشفاء الحاصل به ولكنّ الأعمال علاج لمرض القلوب ومرض القلب ممّا لا يشعر به غالباً فهو كبرص على وجه من لا مرآة معه فإنّه لا يشعر به و لو ذكر له لا يصدّق به فالسبيل معه المبالغة في الثناء على غسل الوجه بماء الورد مثلاً إن كان ماء الورد يزيل البرص حتّى يستحثّه فرط الثناء على المواظبة عليه فيزول مرضه ، فإنّه لو ذكر له أنّ المقصود زوال البرص عن وجهك ربما ترك العلاج و زعم أنّ وجهه لا عيب فيه ولنضرب مثالاً أقرب من هذا فنقول : من له ولد علّمه العلم أو القرآن و أراد أن يثبت ذلك في حفظه بحيث لا يزول عنه و علم أنّه لو أمره بالتكرار و الدّراسة ليبقى له محفوظاً لقال : إنّه محفوظٌ معي ولا حاجة بي إلى تكرار و دراسة لأنّه يظنّ أنّ ما يحفظه في الحال يبقى كذلك أبداً ، وكان له عبيدٌ فأمر الولد بتعليم العبيد و وعده على ذلك بالجميل لتتوفّر داعيته على كثرة التكرار بالتعليم ، فربّما يظنّ الصبيّ المسكين أنّ المقصود تعليم العبيد القرآن و أنّه قد استخدم لتعليمهم فيشكل عليه الأمر فيقول : ما بالي قد استخدمت لأجل العبيد و أنا أجلّ منهم وأعزّ عند الوالد ، و أعلم أنّ أبي لو أراد تعليم العبيد لقدر عليه دون تكليفي به و أعلم أنّه لا نقصان لأبي بفقد هؤلاء العبيد فضلاً عن عدم علمهم بالقرآن ، فربّما يتكاسل هذا المسكين فيترك تعليمهم اعتماداً على استغناء أبيه و على كرمه في العفو عنه فينسى العلم و القرآن و يبقى مدبراً محروماً من حيث لا يدري ، و قد انخدع بمثل هذا الخيال طائفة وسلكوا طريق الإباحة و قالوا : إنّ الله غنيّ عن عبادتنا و عن أن يستقرض

(١) البقرة : ٢٤٥ . (٢) التوبة : ١٠٤ .

منّا فأيّ معنى لقوله : « من ذا الّذي يقرض الله قرضاً حسناً » و لو شاء الله إطعام المساكين لأطعمهم فلا حاجة بنا إلى صرف أموالنا إليهم كما قال تعالى حكاية عن الكفّار : « و إذا قيل لهم أنفقوا ممّا رزقكم الله قال الّذين كفروا للّذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه » [١] و قالوا أيضاً : «لو شاء الله ما أشركنا و لا آباؤنا » [٢] فانظر كيف كانوا صادقين في كلامهم و كيف هلكوا بصدقهم فسبحان من إذا شاء أهلك بالصدق و إذا شاء أسعد بالجهل يضلّ به كثيراً و يهدي به كثيراً ، فهؤلاء لمّا ظنّوا أنّهم استخدموا لأجل المساكين والفقراء أولأجل الله تعالى ثمّ قالوا : لاحظّ لنا في المساكين ولا حظّ لله فينا وفي أموالنا سواء أنفقنا أو أمسكنا هلكوا كما هلك الصبيّ لمّا ظنّ أنّ مقصود الوالد استخدامه لأجل العبيد ولم يشعر بأنّه كان المقصود ثبات صفة العلم في نفسه و تأكّده في قلبه حتّى يكون ذلك سبب سعادته في الدّنيا و الآخرة ، و إنّما كان ذلك من الوالد تلطّفاً به في استجراره إلى مافيه سعادته ، فهذا المثال يبيّن لك ضلال من ضلّ من هذا الطريق فإذن المسكين الآخذ لما لك يستوفي بواسطة المال خبث البخل وحبّ الدّنيا من باطنك فإنّه مهلك لك ، فهو كالحجّام يستخرج الدّم منك ليخرج بخروج الدّم العلّة المهلكة من باطنك ، فالحجّام خادم لك لا أنت خادم للحجّام و لا يخرج الحجّام عن كونه خادماً بأن يكون له غرض في أن يصنع شيئاً بالدّم و لما كانت الصدقات مطهّرة للبواطن و مزكّية لها عن خبائث الصفات امتنع رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم عن أخذها و انتهى عنها كما نهى عن كسب الحجّام وسمّاها أوساخ أموال الناس وشرّف أهل بيته بالصيانة عنها و المقصود أنّ الأعمال مؤثّرات في القلب كما سبق في ربع المهلكات ، والقلب بحسب تأثّره يستعدّ لقبول الهداية ونور المعرفة فهذا هو القول الكلّي و القانون الأصلي الّذي ينبغي أن يرجع إليه في معرفة فضائل الأعمال و الأحوال و المعارف فلنرجع الآن إلى خصوص ما نحن فيه من الشكر و الصبر فنقول : في كلّ واحد منهما معرفة و حال و عمل فلا يجوز أن تقابل المعرفة في أحدهما بالحال أوالعمل في

---

(١) يس : ٤٨ . (٢) الانعام : ١٤٨ .

الآخر بل كلّ واحد بنظره حتى يظهر التناسب وبعد التناسب يظهر الفضل ، و مهما قوبلت معرفة الشاكر بمعرفة الصابر ربّما رجعا إلى معرفة واحدة ، إذ معرفة الشاكر أن يرى نعمة العينين مثلاً من الله و معرفة الصابر أن يرى العمى من الله وهما معرفتان متلازمتان ومتساويتان هذا إن اعتبرتا في البلاء والمصائب و قد بيّنّا أنّ الصبر قد يكون على الطاعة و عن المعصية و فيهما يتّحد الشكر و الصبر لأنّ الصبر على الطاعة هو عين شكر الطاعة لأنّ الشكر يرجع إلى صرف نعمة الله تعالى إلى ما هو المقصود منها بالحكمة ، و الصبر يرجع إلى ثبات باعث الدّين في مقابلة باعث الهوى فالصبر و الشكر فيه اسمان لمسمّى واحد باعتبارين مختلفين فإثبات باعث الدّين في مقاومة باعث الهوى يسمّى صبراً بالإضافة إلى باعث الهوى ويسمّى شكراً بالإضافة إلى باعث الدّين إذ باعث الدّين إنّما خلق لهذه الحكمة و هو أن يصرع به باعث الهوى فقد صرفه إلى مقصود الحكمة فهما عبارتان عن معنى واحد فكيف يفضل الشيء على نفسه فإذن مجاري الصبر ثلاثة : الطاعة و المعصية و البلايا وقد ظهر حكمهما في الطاعة والمعصية ، وأمّا البلاء فهو عبارة عن فقد نعمة والنعمة إمّا أن تكون ضروريّة كالعينين مثلاً وإمّا أن تقع في محلّ الحاجة كالزّيادة على قدر الكفاية من المال أمّا العينان فصبر الأعمى عنهما بأن لا يظهر الشكوى ويظهر الرّضا بقضاء الله و لا يترخّص بسبب العمى في بعض المعاصي وشكر البصير عليهما من حيث العمل بأمرين أحدهما أن لا يستعين بهما على معصية و الآخر أن يستعملهما ، في الطاعة و كلّ واحد من الأمرين لا يخلو عن الصبر فإنّ الأعمى كفي الصبر عن الصور الجميلة لأنّه لا يراها ، والبصير إذا وقع بصره على جميل فصبر كان شاكراً لنعمة العينين وإن أتبع النظر كفر نعمة العينين فقد دخل الصبر في شكره ، و كذلك إذا استعان بالعينين على الطاعة فلابدّ فيه أيضاً من صبر على الطاعة ، ثمّ قد يشكرهما بالنظر إلى عجائب صنع الله ليتوصّل به إلى معرفة الله فيكون هذا الشكر أفضل من الصبر ولولا هذا لكانت رتبة شعيب عليه السلام مثلاً وقد كان ضريراً من بين الأنبياء فوق رتبة موسى عليه السلام وغيره لأنّه صبر على فقد البصر وموسى عليه السلام لم يصبر ولكان الكمال في أن يسلب الإنسان الأطراف

كلّها ويترك كلحم على وضم ، و ذلك محال جداً لأنّ كلّ واحد من هذه الأعضاء آلة في الدّين فيفوت بفواتها ذلك الرّكن من الدّين و شكرها استعمالها فيما هي آلة فيه من الدّين و ذلك لا يكون إلّا بصبر ، وأمّا مايقع في محل الحاجة كالزّيادة على الكفاية من المال فإنّه إذا لم يؤت إلاّ قدر الضرورة وهو محتاج إلى ما وراءه ففي الصبر عنه مجاهدة و هو جهاد الفقراء و وجود الزّيادة نعمة و شكرها أن تصرف إلى الخيرات أوأن لا تستعمل في المعصية ، فإن اُضيف الصبر إلى الشكر الّذي هو صرف إلى الطاعة فالشكر أفضل لأنّه تضمن الصبر أيضاً وفيه فرح بنعمة الله و فيه احتمال ألم في صرفه إلى الفقراء و ترك صرفه إلى التنعّم المباح وكان الحاصل يرجع إلى أنّ شيئين أفضل من شيء واحد و أنّ الجملة أعلى رتبة من البعض و هذا فيه خلل إذ لا يصحّ الموازنة بين الجملة وبين أبعاضها ، و أمّا إذا كان شكره بأن لا يستعين به على معصية بل يصرفه إلى التنعّم المباح فالصبر ههنا أفضل من الشكر و الفقير الصابر أفضل من الغنيّ الممسك ماله الصارف إيّاه إلى المباحات لا من الغنيّ الصارف ما له إلى الخيرات لأنّ الفقير قد جاهد نفسه و كسر نهمتها و أحسن الرّضا على بلاء الله تعالى وهذه الحالة تستدعي قوّة لا محالة و الغنيّ أتبع نهمته و أطاع شهوته ولكنّه اقتصر على المباح و في المباح مندوحة عن الحرام ولكن لابدّ من قوّة في الصبر عن الحرام أيضاً إلّا أنّ القوّة الّتي عنها يصدر صبر الفقير أعلى و أتمّ من القوّة الّتي عنها يصدر الاقتصاد في التنعّم على المباح و الشرف لتلك القوّة الّتي يدلّ العمل عليها فإنّ الأعمال لا تراد إلّا لأحوال القلب و تلك القوّة حالة للقلب تختلف بحسب قوّة اليقين و الإيمان فما دلّ على زيادة قوّة في الإيمان فهو أفضل لا محالة و جميع ما ورد من تفضيل أجر الصبر على أجر الشكر في الآيات و الأخبار إنّما اُريد به هذه الرّتبة على الخصوص لأنّ السابق إلى أفهام الناس من النعم والأموال والغنى بها و السابق إلى الأفهام من الشكر أن يقول الإنسان : الحمد لله ولا يستعين بالنعمة على المعصية لأن يصرفها إلى الطاعة فإذاً الصبر أفضل من الشكر أي الصبر الّذي تفهمه العامّة أفضل من الشكر الّذي تفهمه العامّة ، ومهما لاحظت

المعاني الّتي ذكرناها علمت أنّ لكلّ واحد من القولين وجه في بعض الأحوال فربّ فقير صابر أفضل من غنيّ شاكر كما سبق ، و ربّ غنيّ شاكر أفضل من فقير صابر ، وذلك هو الغنيّ الّذي يرى نفسه مثل الفقير إذ لا يمسك لنفسه من المال إلّا قدر الضرورة والباقي يصرفه إلى الخيرات أو يمسكه على اعتقاد أنّه خازن المحتاجين والمساكين وإنّما ينتظر حاجة تسنح حتّى يصرف إليها ثمّ إذا صرف لم يصرفه لطلب جاه وصيت ولا لتقليد منّة بل أداء لحقّ الله تعالى في تفقّد عباده فهذا أفضل من الفقير الصابر .

فإن قلت : فهذا لا يثقل على النفس والفقير يثقل عليه الفقر لأنّ هذا يستشعر لذّة القدرة وذلك يستشعر ألم الصبر فإن كان متألّماً بفراق المال فينجبر ذلك بلذّته في القدرة على الإنفاق ، فاعلم أنّ الّذي تراه أنّ من ينفق ماله عن رغبة و طيب نفس أكمل حالاً ممّن ينفقه و هو بخيل به ، و إنّما يقتطعه عن نفسه قهراً و قد ذكرنا تفصيل هذا فيما سبق من كتاب التوبة ، فإيلام النفس ليس مطلوباً لعينه بل لتأديبها وذلك يضاهي ضرب كلب الصيد و الكلب المتأدّب أكمل من الكلب المحتاج إلى الضرب و إن كان صابراً على الضرب ولذلك يحتاج إلى الإيلام و المجاهدة في البداية ، ولا يحتاج إليه في النهاية بل النهاية أن يصير ما كان مؤلماً في حقّه لذيذاً فإطلاق القول بأنّ الصبر أفضل من الشكر صحيح بالمعنى السابق إلى الأفهام فأمّا إذا أردت التحقيق فالصواب التفصيل فإنّ للصبر درجات أقلّها ترك الشكوى مع الكراهة ، و وراءها الرّضا وهو مقام وراء الصبر ، و وراؤه الشكر على البلاء ، وهو وراء الرّضا إذ الصبر مع التألّم والرّضا يمكن بما لا ألم فيه ولا فرح ، والشكر لا يمكن إلّا على محبوب مفروح به ، و كذلك للشكر درجات كثيرة ذكرنا أقصاها و يدخل في جملتها اُمور دونها فإنّ حياء العبد من تتابع نعم الله عليه شكرٌ ، ومعرفته بتقصيره عن الشكر شكرٌ ، و الاعتذار من قلّة الشكر شكرٌ ، و المعرفة بعظيم حلم الله و كنف ستره شكرٌ ، والاعتراف بأنّ النعم ابتداء من الله تعالى من غير استحقاق شكرٌ ، و العلم بأنّ الشكر أيضاً نعمة من نعم الله و موهبة منه شكرٌ ، وحسن التواضع بالنعم و التذلّل فيها شكرٌ ، وشكر الوسائط شكرٌ إذ قال عليه السلام :

« من لم يشكر الناس لم يشكر الله »[1]. وقد ذكرنا حقيقة ذلك في كتاب أسرار الزكاة - و قلّة الاعتراض وحسن الأدب بين يدي المنعم شكرٌ، و تلقّي النعم بحسن القبول و استعظام صغيرها شكرٌ ، فما يندرج من الأعمال و الأحوال تحت اسم الشكر و الصبر لا ينحصر آحادها وهي درجات مختلفة فكيف يمكن إجمال القول بتفضيل أحدهما على الآخر إلّا على سبيل إرادة الخصوص باللّفظ العامّ كما ورد في الأخبار و الآثار .

و قد روي عن بعضهم أنّه قال : رأيت في بعض الأسفار شيخاً كبيراً قد طعن في السنّ فسألته عن حاله ، فقال : إنّي كنت في ابتداء عمري أهوى ابنة عمّ لي وهي كذلك تهواني فاتّفق أنّها زوّجت منّي فليلة زفافها قلت تعالي حتّى نحيي هذه اللّيلة شكراً لله على ما جمعنا ، فصلّينا تلك اللّيلة ولم يتفرّغ أحدنا إلى صاحبه فلمّا كانت اللّيلة الثانية قلنا مثل ذلك فصلّينا طول اللّيل فمنذ سبعين أو ثمانين سنة نحن على تلك الحالة كلّ ليلة ، أليس كذلك يا فلانة ؟ فقالت العجوز : هو كما يقول الشيخ . فانظر إليهما لو صبرا على بلاء الفرقة إن لم يجمع الله بينهما ما زاد صبر الفرقة على شكر الوصال على هذا الوجه ، فلا يخفى عليك أن هذا الشكر أفضل فإذن لا وقوف على حقائق المعضلات إلّا بتفصيل كما سبق والله أعلم .

هذا آخر كتاب الصبر و الشكر من ربع المنجيات من المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء ويتلوه كتاب الخوف و الرجاء إن شاء الله تعالى ، ولله الحمد والمنّة والصلاة على خير البريّة وآله .

---

(١) أخرجه أحمد والترمذي والضياء المقدسي من حديث أبي سعيد بسند صحيح كما في الجامع الصغير .

كتاب الخوف و الرجاء

و هو الكتاب الثالث من ربع المنجيات من المحجّة البيضاء في تهذيب الاحياء

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المرجوّ لطفه وثوابه ، والمخوف مكره و عقابه ، الّذي عمر قلوب أوليائه بروح رجائه ، حتّى ساقهم بلطائف آلائه ، إلى النزول بفنائه ، والعدول عن دار بلائه ، الّتي هي مستقرّ أعدائه ، وصرف بسياط التخويف وزجره العنيف وجوه المعرضين عن حضرته إلى دار ثوابه و كرامته ، و صدّهم عن التعرّض لأئمّته و التهدّف لسخطه و نقمته قوداً لأصناف الخلق بسلاسل القهر و العنف و أزمّة الرفق و اللّطف إلى جنّته .

و الصلاة على محمّد سيّد أنبيائه وخير خليقته و على آله وأصحابه وعترته .

أما بعد فإنّ الرجاء والخوف جناحان يطير بهما المقرّبون إلى كلّ مقام محمود ومطيّتان بهما يقطع من طرق الآخرة كلّ عقبة كؤود ، فلا يقود إلى قرب الرّحمن و روح الجنان ، مع كونه بعيد الأرجاء ، ثقيل الأعباء ، محفوفاً بمكاره القلوب و مشاقّ الجوارح و الأعضاء ، إلّا أزمّة الرّجاء ، و لا يصدّ عن نار الجحيم و العذاب المقيم ، مع كونه محفوظاً بلطائف الشهوات و عجائب اللّذات إلّا سياط التخويف ، والسطوات التعنيف . فلابدّ إذن من بيان حقيقتهما و فضيلتهما و سبيل التوصّل إلى الجمع بينهما مع تضادّهما و تعاندهما ونحن نجمع ذكرهما في كتاب واحد مشتمل على شطرين : الشطر الأوّل في الرّجاء و الشطر الثاني في الخوف ، أمّا الشطر الأوّل فيشتمل على بيان حقيقة الرّجاء و بيان فضيله الرّجاء ، و بيان دواء الرّجاء ، والطريق الّذي به يجتلب الرّجاء .

✿(بيان حقيقة الرجاء)✿

إعلم أنّ الرّجاء من جملة مقامات السالكين وأحوال الطالبين و إنّما يسمّى الوصف مقاماً إذا ثبت و أقام ، و إنّما يسمّى حالاً إذا كان عارضاً سريع الزّوال وكما أنّ الصفرة تنقسم إلى ثابتة كصفرة الذهب و إلى سريعة الزّوال كصفرة الوجل و إلى ما هو بينهما كصفرة المريض ، فكذلك صفات القلب تنقسم إلى هذه الأقسام فالّذي هو غير ثابت يسمّى حالاً لأنّه يحول على القرب وهذا جار في كلّ وصف من أوصاف القلب ، وغرضنا الآن حقيقة الرّجاء فالرّجاء أيضاً يتمّ من علم و حال وعمل فالعلم سبب يثمر الحال والحال يقتضي العمل وكان الرّجاء اسم للحال من جملة الثلاثة ، بيانه أنّ كلّ ما يلاقيك من مكروه و محبوب وينقسم إلى موجود في الحال و إلى موجود فيما مضى و إلى منتظر في الاستقبال فإذا خطر ببالك موجود فيما مضى سمّي ذكراً و تذكّراً ، و إن كان ما خطر ببالك موجوداً في الحال سمّي وجداً و ذوقاً و إدراكاً ، إنّما سمّي وجداً لأنّها حالة تجدها من نفسك ، وإن كان قد خطر ببالك وجود شيء في الاستقبال وغلب ذلك على قلبك سمّي انتظاراً وتوقّعاً ، فإن كان المنتظر مكروهاً حصل منه ألم في القلب يسمّى خوفاً وإشفاقاً ، و إن كان محبوباً حصل من انتظاره و تعلّق القلب به و اخطار وجوده بالبال لذّة في القلب و ارتياح يسمّى ذلك الارتياح رجاء .

فالرّجاء هو ارتياح القلب لانتظار ما هو محبوب عنده ولكن ذلك المحبوب المتوقّع لابدّ و أن يكون له سبب فإن كان انتظاره لأجل حصول أكثر أسبابه فاسم الرّجاء عليه صادق ، و إن كان ذلك انتظاراً مع انخرام أسبابه و اضطرابها فاسم الغرور و الحمق عليه أصدق من اسم الرّجاء ، و إن لم تكن الأسباب معلومة الوجود ولا معلومة الانتفاء فاسم التمنّي أصدق على انتظاره لأنّه انتظار من غير سبب ، وعلى كلّ حال فلا يطلق اسم الرّجاء و الخوف إلّا على ما يتردّد فيه أمّا ما يقطع به فلا ، إذ لا يقال أرجو طلوع الشمس وقت الطلوع و أخاف غروبها وقت الغروب لأنّ ذلك مقطوع به ، نعم يقال : أرجو نزول المطر و أخاف انقطاعه و قد علم أرباب

القلوب أنّ الدّنيا مزرعة الآخرة و القلب كالأرض ، و الإيمان كالبذر فيه ، والطاعات جارية مجرى تقليب الأرض ، وتطهيرها و مجرى حفر الأنهار ، و سياقة الماء إليها ، والقلب المستهتر بالدّنيا المستغرق بها كالأرض السبخة الّتي لاينموفيها البذر ، و يوم القيامة يوم الحصاد ولا يحصد أحدٌ إلّا ما زرع ، ولاينمو زرع إلّا من بذر الإيمان ، وقلّما ينفع إيمان مع خبث القلب و سوء أخلاقه كما لا ينمو بذر في أرض سبخة فينبغي أن يقاس رجاء العبد المغفرة برجاء صاحب الزرع فكلّ من طلب أرضاً طيّبة وألقى فيها بذراً جيّداً غيرعفن ولا مسوس ثمّ أمدّه بما يحتاج إليه وهو سوق الماء إليه في أوقاته ، ثمّ نقي الأرض عن الشوك و الحشيش و كلّ ما يمنع نبات البذر أو يفسده ، ثمّ جلس منتظراً من فضل الله دفع الصواعق والآفات المفسدة إلى أن يتمّ الزّرع ويبلغ غايته سمّي انتظاره رجاء ، و إن بثّ البذر في أرض صلبة سبخة مرتفعة لا ينصبّ إليها ماء ولم يشتغل بتعهّد البذر أصلاً ، ثمّ انتظر الحصاد منه سمّي انتظاره حمقاً وغروراً لا رجاء ، و إن بثّ البذر في أرض طيّبة ولكن لا ماء لها وأخذ ينتظر مياه الأمطار حيث لا تغلب الأمطار و لا يمتنع أيضاً سمّي انتظاره تمنّياً لا رجاء فإذن اسم الرّجاء إنّما يصدق على انتظار محبوب تمهّدت جميع أسبابه الدّاخلة تحت اختيار العبد ولم يبق إلّا ما ليس يدخل تحت اختياره وهو فضل الله تعالى بصرف القواطع و المفسدات فالعبد إذا بثّ بذر الإيمان و سقاه بماء الطاعات وطهّر القلب من شوك الأخلاق الرّديّة وانتظر من فضل الله تثبيته على ذلك إلى الموت وحسن الخاتمة المفضية إلى المغفرة كان انتظاره رجاء حقيقيّاً محموداً في نفسه باعثاً له على المواظبة والقيام بمقتضى الإيمان في إتمام أسباب المغفرة إلى الموت ، و إن قطع عن بذر الإيمان تعهّده بماء الطاعات أو ترك القلب مشحوناً برذائل الأخلاق ، وانهمك في طلب لذّات الدّنيا ، ثمّ انتظر المغفرة فانتظاره حمقٌ وغرورٌ ، قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « الأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنّى على الله الجنّة »[١] . وقال تعالى : « فخلف من بعدهم خلفٌ أضاعوا الصلاة و اتّبعوا الشهوات فسوف يلقون غيّاً »[٢]

(١) تقدم غير مرة . (٢) مريم : ٦٠ .

وقال: «فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا»[١] و ذمّ الله تعالى صاحب البستان إذ دخل جنّته و قال: «ما أظنّ أن تبيد هذه أبداً ✲ وما أظنّ الساعة قائمة و لئن رددت إلى ربّي لأجدنّ خيراً منها منقلباً»[٢].

أقول: روى في الكافي بإسناده عن الصادق عليه السلام قيل له: «إنّ قوماً من مواليك يلمّون بالمعاصي ويقولون نرجو فقال: كذبوا ليسوا لنا بموال اُولئك قوم ترجّحت بهم الأمانيّ من رجا شيئاً عمل له ومن خاف شيئاً هرب منه»[٣].

وعنه عليه السلام قال: «لا يكون مؤمن مؤمناً حتّى يكون خائفاً راجياً ولا يكون خائفاً راجياً حتّى يكون عاملاً لما يخاف ويرجو»[٤].

و عن بعض الحكماء: من خاف شيئاً هرب منه ومن خاف الله هرب إليه.

قال أبو حامد: فإنّ العبد المجتهد في الطاعات المجتنب للمعاصي حقيقٌ بأن ينتظر من فضل الله تمام النعمة وما تمام النعمة إلّا بدخول الجنّة، وأمّا العاصي فإذا تاب وتدارك جميع ما فرط منه من تقصير فحقيقٌ بأن يرجو قبول التوبة وأمّا قبول التوبة إذا كان كارهاً للمعصية تسوءه السيّئة وتسرّه الحسنة وهو يذمّ نفسه ويلومها ومن يشتهي التوبة ويشتاق إليها فحقيقٌ بأن يرجو من الله التوفيق للتوبة لأنّ كراهته للمعصية و حرصه على الطاعة يجري مجرى السبب الّذي قد يفضي إلى التوبة وإنّما الرجاء بعد تأكّد الأسباب، و لذلك قال الله تعالى: «إنّ الّذين آمنوا و الّذين هاجروا و جاهدوا في سبيل الله اُولئك يرجون رحمة الله»[٥] و معناه اُولئك يستحقّون أن يرجوا و ما اُريد به تخصيص وجود الرّجاء لأنّ غيرهم أيضاً قد يرجوا ولكن خصّص بهم استحقاق الرّجاء، فأمّا من ينهمك فيما يكرهه الله و لا يذمّ نفسه عليه

(١) الاعراف: ١٦٩. (٢) الكهف: ٣٥ و ٣٦.

(٣) المصدر: ج ٢ ص ٦٨ تحت رقم ٦.

(٤) المصدر ج ٢ ص ٧١ تحت رقم ١١.

(٥) البقرة: ٢١٨.

ولا يعزم على التوبة و الرّجوع فرجاؤه المغفرة حمق كرجاء من بثّ البذر في أرض سبخة عزم على أن لا يتعهّده بسقي ولا تنقية .

قال يحيى بن معاذ : من أعظم الاغترار عندي التمادي في الذّنوب مع رجاء العفو من غير ندامة ، وتوقّع القرب من الله عزّ وجلّ بغير طاعة ، وانتظار زرع الجنّة ببذر النار ، وطلب دار المطيعين بالمعاصي وانتظار الجزاء بغير عمل ، والتمنّي على الله عزّ وجلّ مع الإفراط ، فإذا عرفت حقيقة الرّجاء و مظنّته فقد علمت أنّها حالة أثمرها العلم بجريان أكثر الأسباب ، و هذه الحالة تثمر الجهد للقيام ببقيّة الأسباب على حسب الإمكان فإنّ من حسن بذره وطابت أرضه و غزر ماؤه صدق رجاؤه فلا يزال يحمله صدق الرّجاء على تفقّد الأرض و تعهّدها و تنحية كلّ حشيش ينبت فيها فلا يفتر عن تعهّدها أصلاً إلى وقت الحصاد و هذا لأنّ الرّجاء يضادّه اليأس و اليأس يمنع من التعهّد فمن عرف أنّ الأرض سبخة و أنّ الماء مغور و أنّ البذر لا ينبت فيترك لامحالة تفقّد الأرض و التعب في تعهّدها و الرّجاء محمودٌ لأنّه باعث و اليأس مذموم وهو ضدّه لأنّه صارف عن العمل و الخوف ليس بضدّ للرّجاء بل هو رفيق له كما سيأتي بيانه بل هو باعث آخر بطريق الرّهبة كما أنّ الرّجاء باعث بطريق الرّغبة فإذن حال الرّجاء يورث طول المجاهدة بالأعمال و المواظبة على الطاعات كيف ما تقلّبت الأحوال ، و من آثاره التلذّذ بدوام الإقبال على الله و التنعّم بمناجاته و التلطّف في التملّق له . فإنّ هذه الأحوال لابدّ و أن تظهر على كلّ من يرجو ملكاً من الملوك أو شخصاً من الأشخاص فكيف لا يظهر ذلك في حقّ الله تعالى ، فإن كان ذلك لايظهر فليستدلّ به على الحرمان عن مقام الرّجاء و النزول في حضيض الغرور و التمنّي فهذا هو البيان لحال الرجاء و لما أثمره من العلم و لما استثمر منه من العمل و يدلّ على أثماره لهذه الأعمال حديث زيد الخيل إذ قال لرسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : جئت لأسألك عن علامة الله فيمن يريد و علامته فيمن لايريد فقال : كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت اُحبّ الخير وأهله وإذا قدرت على شيء منه سارعت إليه وأيقنت بثوابه وإذا فاتني شيء منه حزنت عليه وحننت

إليه فقال : هذه علامة الله فيمن يريد فلو أرادك بالاُخرى هيّأك لها ثمّ لايبالي في أيّ أوديتها هلكت » (*) فقد ذكر عليه السلام علامة من اُريد به الخير فمن ارتجى أن يكون مراداً بالخير من غير هذه العلامات فهو مغرور .

(بيان فضيلة الرجاء و الترغيب فيه)

إعلم أنّ العمل على الرّجاء أعلى منه على الخوف لأنّ أقرب العباد إلى الله تعالى أحبّهم إليه و الحبّ يغلب الرّجاء واعتبر ذلك بملكين يخدم أحدهما خوفاً من عقابه والآخر رجاء لثوابه ، ولذلك وردفي الرّجاء وحسن الظنّ رغائب لا سيّما وقت الموت قال : « لا تقنطوا من رحمة الله »[١] فحرّم أصل اليأس .

و في أخبار يعقوب عليه السلام انّ الله تعالى أوحى إليه أتدري لم فرّقت بينك وبين يوسف ؟ لقولك : « إنّي أخاف أن يأكله الذّئب وأنتم عنه غافلون » لم خفت الذّئب و لم ترجني ، ولم نظرت إلى غفلة إخوته ولم تنظر إلى حفظي له ؟! .

وقال صلى الله عليه وآله : « لا يموتنّ أحدكم إلّا وهو يحسن الظنّ بالله »[٢] وقال صلى الله عليه وآله : يقول الله عزّ وجلّ : « أنا عند ظنّ عبدي بي فليظنّ بي ما شاء »[٣] . ودخل صلى الله عليه وآله على رجل و هو في النزع فقال : « كيف تجدك ؟ قال : أجدني أخاف ذنوبي و أرجو رحمة ربّي فقال صلى الله عليه وآله : مااجتمعا في قلب عبد في هذا الموطن إلّا أعطاه الله ما رجا وآمنه ممّا يخاف »[٤] .

و قال عليّ عليه السلام لرجل أخرجه الخوف إلى القنوط لكثرة ذنوبه : « يا هذا يأسك من رحمة الله أعظم من ذنوبك »[٥] وعيّر الله قوماً فقال : « وذلكم ظنّكم الّذي

(*) أخرجه الطبراني في الكبير من حديث ابن مسعود بسند ضعيف و فيه أنه قال : « أنت زبد الخير » . (١) الزمر : ٥٣ .

(٢) أخرجه مسلم و ابن ماجه و أبو داود و أحمد من حديث جابر بسند صحيح كما في الجامع الصغير .

(٣) أخرجه الحاكم ج ٤ ص ٢٤٠ من حديث واثلة بن الاسقع بسند حسن .

(٤) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤٢٦١ .

(٥) ما عثرت عليه من كلام أمير المؤمنين عليه السلام نعم في خبر حميد بن قحطبة المروى في عيون أخبار الرضا عليه السلام نحوه .

ظننتم بربّكم أرديكم »(١) و قال تعالى : « ظننتم ظنّ السوء و كنتم قوماً بوراً » (٢).

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : «إنّ الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة : مامنعك إذ رأيت المنكر أن تنكره فإن لقّنه الله حجّته قال : يا ربّ رجوتك وخفت الناس ، قال : فيقول الله تعالى : قد غفرته لك » (٣).

وفي الخبر الصحيح «أنّ رجلاً كان يداين الناس فيسامح الغني ويتجاوز عن المعسر ، فلقي الله ولم يعمل خيراً قطّ فقال الله عزّ و جلّ : من أحقّ بذلك منّا فعفى عنه بحسن ظنّه و رجائه أنّه يعفى عنه مع إفلاسه عن الطاعات » (٤) و قال الله تعالى : « إنّ الّذين يتلون كتاب الله و أقاموا الصلاة و أنفقوا ممّا رزقناهم سرّاً و علانية يرجون تجارة لن تبور » (٥) ولما قال صلى الله عليه وآله وسلم : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً و لخرجتم إلى الصعدات تلدمون صدوركم و تجأرون إلى ربّكم فهبط جبرئيل عليه السلام فقال : إنّ ربّك عزّ و جلّ يقول : لم تقنط عبادي ؟ فخرج فرحاً و بشّرهم » (٦).

وفي الخبر « أنّ الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام أحبّني و أحبّ من يحبّني و حبّبني إلى خلقي فقال : يا ربّ كيف اُحبّبك إلى خلقك ؟ قال : اذكرني بالحسن الجميل و اذكر آلائي وإحساني وذكّرهم ذلك فإنّهم لايعرفون منّي إلّا الجميل .

و في الخبر أنّ رجلاً من بني إسرائيل كان يقنط الناس ويشدّد عليهم قال : فيقول الله تعالى يوم القيامة : اليوم أو يسك من رحمتي كما كنت تقنط عبادي منها .

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « إنّ رجلاً يدخل النار فيمكث فيها ألف سنة ينادي : يا

---

(١) فصلت : ٢٣ . (٢) الفتح : ١٢ .

(٣) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤٠١٧ من حديث أبي سعيد الخدري .

(٤) أخرجه مسلم ج ٥ ص٣٢ من حديث حذيفة و قدتقدم . (٥) الفاطر : ٢٣ .

(٦) قال العراقي : أخرجه ابن حبان في صحيحه من حديث أبي هريرة فأوله متفق عليه من حديث أنس ورواه بزيادة « و لخرجتم الى الصعدات» أحمدوالحاكم وقدتقدم . أقول : رواه الحاكم ج٤ ص٥٧٩ من حديث أبي ذر والبغوي في المصابيح ج٢ ص ١٨١ .

حنّان يا منّان فيقول الله تعالى لجبرئيل : اذهب فأتني بعبدي قال : فيجيء به فيوقفه على ربّه فيقول الله : كيف وجدت مكانك ؟ فقال : شرّ مكان ، قال : فيقول : ردّوه إلى مكانه ، قال فيمشي ويلتفت إلى ورائه فيقول الله عزّ وجلّ : إلى أي شيء تلتفت ؟ فيقول : لقد رجوت أن لا تعيدني إليها بعد إذ أخرجتني منها فيقول الله تعالى : اذهبوا به إلى الجنّة » (١) فدلّ هذا على أنّ رجاءه كان سبب نجاته .

أقول: و من طريق الخاصّة ما رواه في الكافي عن أبي جعفر عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال الله تعالى : لا يتّكل العاملون على أعمالهم الّتي يعملونها لثوابي فإنّهم لو اجتهدوا و أتعبوا أنفسهم - أعمارهم - في عبادتي كانوا مقصّرين غير بالغين في عبادتهم كنه عبادتي فيما يطلبون عندي من كرامتي و النعيم في جنّاتي و رفيع الدّرجات العلى في جواري ، ولكن برحمتي فليثقوا و فضلي فليرجوا و إلى حسن الظنّ بي فليطمئنّوا ، فإنّ رحمتي عند ذلك تدركهم و منّي يبلغهم رضواني ومغفرتي تلبسهم عفوي فإنّي أنا الله الرّحمن الرّحيم وبذلك تسمّيت » (٢).

و عنه عليه السلام قال : « وجدنا في كتاب عليّ عليه السلام « أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : وهو على منبره والّذي لا إله إلّا هو ما اُعطي مؤمن قطّ خير الدّنيا والآخرة إلّا بحسن ظنّه بالله ورجائه له وحسن خلقه والكفّ عن اغتياب المؤمنين ، والّذي لا إله إلّا هو لا يعذّب الله مؤمناً بعد التوبة والاستغفار إلّا بسوء ظنّه بالله وتقصيره من رجائه و سوء خلقه واغتيابه للمؤمنين ، والّذي لا إله إلّا هو لا يحسن ظنّ عبد مؤمن بالله إلّا كان الله عند ظنّ عبده المؤمن لأنّ الله كريم بيده الخيرات يستحيي أن يكون عبده المؤمن قد أحسن به الظنّ ثمّ يخلف ظنّه و رجاءه ، فأحسنوا بالله الظنّ و ارغبوا إليه» (٣).

و عن أبي الحسن الرّضا عليه السلام قال : «أحسن الظنّ بالله فإنّ الله تعالى يقول : أنا عند ظنّ عبدي المؤمن بي إن خيراً فخير و إن شراً فشرّ » (٤).

و عن الصادق عليه السلام «حسن الظنّ بالله أن لا ترجو إلّا الله ولا تخاف إلّا ذنبك » (٥).

(١) أخرجه البيهقي في الشعب مقطوعاً عن زيد بن أسلم . (المغني)

(٢) و (٣) المصدر ج ٢ ص ٧١ تحت رقم ١ و ٢ .

(٤) و (٥) المصدر ج ٢ ص ٧٢ تحت رقم ٣ و ٤ .

✿(بيان دواء الرجاء و السبب الذى يحصل منه حال الرجاء و يغلب)✿

إعلم أنّ هذا الدواء يحتاج إليه أحد رجلين إمّا رجلٌ غلب عليه اليأس فترك العبادة وإمّا رجلٌ غلب عليه الخوف فأسرف في المواظبة على العبادة حتّى أضرّ بنفسه و أهله و هذان رجلان مايلان عن الاعتدال إلى طرفي الإفراط و التفريط فيحتاجان إلى علاج يردّهما إلى الاعتدال فأمّا العاصي المغرور المتمنّي على الله مع الإعراض عن العبادة واقتحام المعاصي فأدوية الرّجاء تنقلب سموماً في حقّه مهلكة و تنزل منزلة العسل الّذي هو شفاء لمن غلب عليه البرد و هو سمٌّ مهلك لمن غلب عليه الحرارة ، بل المغرور لا يستعمل في حقّه إلّا أدوية الخوف و الأسباب المهيّجة له ، فلهذا يجب أن يكون واعظ الخلق متلطّفاً ناظراً إلى مواقع العلل معالجاً لكلّ علّة بما يضادّها لا بما يزيد فيها ، فإنّ المطلوب هو العدل و القصد في الصفات والأخلاق كلّها و خير الأمور أوساطها فإذا جاوز الوسط إلى أحد الطرفين عولج بما يردّه إلى الوسط لا بما يزيد في ميله عن الوسط ، و هذا الزمان زمان لا ينبغي أن يستعمل فيه مع الخلق أسباب الرّجاء بل المبالغة في التخويف أيضاً تكاد أن لا تردّهم إلى جادّة الحقّ وسنن الصواب ، فأمّا ذكر أسباب الرّجاء فيهلكهم ويرديهم بالكلّيّة ولكنّها لمّا كانت أخفّ على القلوب و ألذّ عند النفوس و لم يكن غرض الوعّاظ إلّا استمالة القلوب واستنطاق الخلق بالثناء كيف ما كانوا مالوا إلى الرجاء حتّى ازداد الفساد فساداً وازداد المنهمكون في طغيانهم تمادياً .

قال عليّ عليه السلام : « إنّما العالم الّذي لا يقنط الناس من رحمة الله و لا يؤمنهم من مكر الله » (١) و نحن نذكر أسباب الرّجاء ليستعمل في حقّ الآيس أو فيمن غلب عليه الخوف اقتداء بكتاب الله تعالى وسنّة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فإنّهما مشتملان على الخوف والرّجاء جميعاً لأنّهما جامعان لأسباب الشفاء في حقّ أصناف المرضى ، ليستعمله العلماء الّذين هم ورثة الأنبياء بحسب الحاجة استعمال الطبيب الحاذق

(١) رواه الكلينى فى الكافى ج ١ ص ٣٦ تحت رقم ٣ و فيه « ولم يؤمنهم من عذاب الله » .

لا استعمال الأخرق الّذي يظنّ أنّ كلّ شيء من الأدوية صالح لكلّ مريض كيف ما كان، و حال الرّجاء يغلب بفنّين أحدهما الاعتبار و الآخر استقراء الآيات و الأخبار والآثار.

أمّا الاعتبار فهو أن يتأمّل جميع ما ذكرناه في أصناف النعم من كتاب الشكر حتّى إذا علم لطائف نعم الله لعباده في الدّنيا وعجائب حكمه الّتي راعاها في فطرة الإنسان حتّى أعدّ له في الدّنيا كلّ ما هو ضروريّ له في دوام الوجود كآلات الغذاء و ما هو محتاج إليه كالأصابع و الأظفار و ما هو زينة له كاستقواس الحاجبين و اختلاف ألوان العينين و حمرة الشفتين و غير ذلك ممّا كان لا ينثلم بفقده غرض مقصود، و إنّما كان يفوت به مزيّة جمال فالعناية الإلهيّة إذا لم تقصر عن عباده في أمثال هذه الدّقائق حتّى لم يرض لعباده أن يفوتهم المزائد والمزايا في الزّينة و الحاجة كيف يرضى بسياقهم إلى الهلاك المؤبّد، بل إذا نظر الإنسان نظراً شافياً علم أنّ أكثر الخلق قد هيّىء له أسباب السعادة في الدّنيا حتّى أنّه يكره الانتقال من الدّنيا بالموت وإن اُخبر بأنّه لا يعذّب بعد الموت أبداً مثلاً أو لا يحشر أصلاً، فليست كراهتهم للعدم إلّا لأنّ أسباب النعم أغلب لامحالة وإنّما الّذي يتمنّى الموت نادرٌ ثمّ لا يتمنّاه إلّا في حالة نادرة و واقعة هاجمة غريبة فإذا كان حال أكثر الخلق في الدّنيا الغالب عليه الخير والسلامة، فسنّة الله لا تجد لها تبديلاً فالغالب أنّ أمر الآخرة هكذا يكون لأنّ مدبّر الدّنيا و الآخرة واحد و هو غفورٌ رحيمٌ لطيف بعباده متعطّفٌ عليهم، فهذا إذا تأمّل حقّ التأمّل قوى به أسباب الرّجاء.

و من الاعتبار أيضاً النظر في حكمة الشريعة و سننها في مصالح الدّنيا و وجه الرّحمة للعباد بها حتّى كان بعض العارفين يرى آية المداينة في البقرة من أقوى أسباب الرّجاء، فقيل له: وما فيها من الرّجاء؟ فقال: الدّنيا كلّها قليلٌ و رزق الإنسان منها قليلٌ و الدّين قليل من رزقه، فانظر كيف أنزل الله تعالى فيه أطول آية ليهدي عبده إلى طريق الاحتياط في حفظ دَينه فكيف لا يحفظ دِينه الّذي لا عوض له منه.

الفن الثاني استقراء الآيات و الأخبار فما ورد في الرّجاء خارج عن الحصر أمّا الآيات فقد قال الله تعالى : « يا عبادي الّذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إنّ الله يغفر الذّنوب جميعاً » (١) و في قراءة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم « و لا يبالي إنّه هو الغفور الرّحيم » (٢).

وقال تعالى : «والملائكة يسبّحون بحمد ربّهم ويستغفرون لمن في الأرض» (٣).

و أخبر تعالى أنّ النار أعدّها لأعدائه و إنّما خوّف بها أولياءه فقال : « اتّقوا النار الّتي اُعدّت للكافرين » (٤).

و قال تعالى : « لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ذلك يخوّف الله به عباده » (٥) و قال تعالى : « فأنذرتكم ناراً تلظّى ۞ لا يصليها إلّا الأشقى ۞ الّذي كذّب وتولّى» (٦) وقال : « و إنّ ربّك لذو مغفرة للناس على ظلمهم » (٧).

و يقال : إنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم لم يزل يسأل في اُمّته حتّى قيل له : أما ترضى و قد اُنزلت عليك هذه الآية « وإنّ ربّك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ».

و في تفسير قوله تعالى : « ولسوف يعطيك ربّك فترضى » (٨) قال : لايرضى محمّد و واحد من اُمّته في النار . وكان أبو جعفر محمّد بن عليّ عليهما السلام يقول : أنتم أهل العراق تقولون : أرجى آية في كتاب الله عزّ وجلّ « يا عبادي الّذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله - الآية - » ونحن أهل البيت نقول : أرجى آية في كتاب الله قوله تعالى : « ولسوف يعطيك ربّك فترضى» (٩).

وأما الأخبار فقد روي عنه صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّه قال : « اُمّتي اُمّة مرحومة لا عذاب

---

(١) الزمر : ٥٣ .

(٢) أخرجه الترمذى ج ١٢ ص ١١٨ من حديث أسماء بنت يزيد وقال حسن غريب .

(٣) الشورى : ٥ .

(٤) آل عمران : ١٣١ .

(٥) الزمر : ١٦ .

(٦) الليل : ١٥ و ١٦ و ١٧ .

(٧) الرعد : ٦ .

(٨) الضحى : ٦ .

(٩) لم أجده من كلامه عليه السلام انما هو من كلام محمد بن على ابن الحنفية كما فى تفسير المجمع ذيل الاية .

عليها في الآخرة وعجّل الله عقابها في الدّنيا الزّلازل و الفتن فإذا كان يوم القيامة دفع إلى كلّ رجل من اُمّتي رجلٌ من أهل الكتاب فقيل: هذا فداؤك من النار»[1] ـ و في لفظ آخر ـ «يأتي كلّ رجل من هذه الأمّة بيهودي أو نصراني إلى جهنّم فيقول: هذا فداي من النار فيلقى فيها»[2].

أقول: في أخبار أهل البيت عليهم السلام: «أنّ النصّاب يجعلون فداء لشيعتهم بظلمهم إيّاهم و وقيعتهم فيهم»[3].

و في تفسير أبي محمّد العسكري عن الصادق عليه السلام قال: و سيؤتى بالواحد من مقصّري شيعتنا في أعماله بعد أن صان الولاية و التقيّة و حقوق إخوانه ويوقف بإزائه ما بين مائة و أكثر من ذلك إلى مائة ألف من النصّاب فيقال له: هؤلاء فداؤك من النار فيدخل هؤلاء المؤمنون إلى الجنّة واُولئك النصّاب إلى النار وذلك ما قال الله تعالى: «ربّما يودّ الّذين كفروا لو كانوا مسلمين»[4] في الدّنيا منقادين للإمامة ليجعل مخالفوهم من النار فداءهم».

قال أبو حامد: و قال عليه السلام: «الحمّى من فيح جهنّم وهي حظّ المؤمن من النّار»[5]. و روي في تفسير قوله تعالى: «يوم لا يخزي الله النبيّ والّذين آمنوا معه»[6] إنّ الله أوحى إلى نبيّه عليه السلام أنّي أجعل حساب اُمّتك إليك فقال: لا يا ربّ أنت

---

(١) أخرجه أبو داود و الحاكم و الطبراني في الكبير و البيهقي في الشعب من حديث أبي موسى بسند صحيح كما في الجامع الصغير بدون ذكر «فاذا كان يوم القيامة».

(٢) أخرجه الطيالسي في الجزء الثامن من مسنده تحت رقم ٤٩٩ بأدنى اختلاف وكذلك مسلم في صحيحه من حديث أبي موسى.

(٣) راجع بحار الانوار ج ٣ ص ٢٤٦ الى ٢٥٠ باب أحوال المتقين و المجرمين يوم القيامة.

(٤) الحجر: ٢. وفي تفسير البرهان ج ٢ ص ٣٢٥ زاد بعد قوله: «مسلمين» بفتح السين و تشديد اللام.

(٥) روى الكليني في الكافي ج ٣ ص ١١١ عن الصادق عليه السلام «الحمى رائد الموت و هو سجن الله في الارض و هو حظ المؤمن من النار». (٦) التحريم: ٨.

ارحم بهم منّي ، فقال : إذن لا اُخزيك فيهم »(١).

و روي أنّ رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم سأل ربّه في ذنوب اُمّته فقال : يا ربّ اجعل حسابهم إليّ لئلاّ يطّلع على مساويهم غيري ، فأوحى الله تعالى إليه هم اُمّتك و هم عبادي و أنا أرحم بهم منك لا أجعل حسابهم إلى غيري لئلاّ تنظر إلى مساويهم أنت ولا غيرك »(٢).

قال صلى الله عليه و آله و سلم : « حياتي خيرٌ لكم و موتي خيرٌ لكم أمّا حياتي فأسنّ لكم السنن وأشرع لكم الشرائع ، وأمّا موتي فإنّ أعمالكم تعرض عليّ فما رأيت منها حسناً حمدت الله تعالى عليه وما رأيت منها سيّئاً استغفرت الله لكم »(٣).

و قال صلى الله عليه و آله و سلم يوماً : يا كريم العفو ، فقال جبرئيل : تدري ما تفسير يا كريم العفو ؟ هو إن عفا عن السيّئات برحمته بدّلها حسنات بكرمه »(٤).

و في الخبر « إذا أذنب العبد فاستغفر يقول الله عزّ وجلّ لملائكته : انظروا إلى عبدي أذنب ذنباً فعلم أنّ له ربّاً يغفر الذّنوب و يأخذ بالذّنوب اُشهد كم أنّي قد غفرت له »(٥) وفي الخبر « لوأذنب العبد حتّى تبلغ ذنوبه عنان السماء غفرتها لمن استغفرني ورجاني »(٦) و في الخبر « لولقيني عبدي بقراب الأرض ذنوباً لقيته بقراب

---

(١) قال العراقى : أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب حسن الظن بالله .

(٢) قال العراقى : لم أجد له أصلا .

(٣) أخرجه البزار من حديث ابن مسعود و رجاله رجال الصحيح (المغنى) وأخرجه ابن سعد عن بكر بن عبدالله مرسلا بسند حسن كما فى الجامع الصغير .

(٤) قال العراقى : لم أجده عن النبى صلى الله عليه وآله انما الموجود عن ابراهيم الخليل عليه السلام رواه أبو الشيخ فى كتاب العظمة من قول عتبة بن الوليد ، و رواه البيهقى فى الشعب من رواية عتبة بن الوليد قال : حدثنى بعض الزهاد .

(٥) أخرجه مسلم ج ٨ ص ٩٧ باختلاف ، و رواه البخارى فى الصحيح من حديث أبى هريرة .

(٦) أخرجه الترمذى ج ١٣ ص ٥٩ بأدنى اختلاف من حديث أنس و قال : حسن .

الأرض مغفرة »[١] و في الحديث « إنّ الملك ليرفع القلم عن العبد إذا أذنب ستّ ساعات فإن تاب واستغفر لم يكتبه عليه وإلّا كتبها سيئة » وفي لفظ آخر « فإذا كتبها عليه وعمل حسنة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال وهو أمير عليه : ألق هذه السيّئة حتّى ألقى من حسناته واحدة من تضعيف العشرة و ارفع له تسع حسنات ، فتلقى عنه هذه السيّئة »[٢] .

و روي أنّه صلى الله عليه وآله وسلم قال : « إذا أذنب العبد ذنباً كتب عليه ، فقال أعرابيّ : و إن تاب عنه ؟ قال : محي عنه ، قال : فإن عاد ؟ قال عليه السلام : يكتب عليه ، فقال الأعرابي : فإن تاب ؟ قال : محي من صحيفته ، قال : إلى متى ؟ قال : إلى أن يستغفر ويتوب إلى الله عزّ وجلّ إنّ الله لا يملّ من المغفرة حتّى يملّ العبد من الاستغفار فإذا همّ العبد بحسنة كتبها صاحب اليمين حسنة قبل أن يعملها فإن عملها كتبت عشر حسنات ثمّ يضاعفها الله عزّ و جلّ إلى سبعمائة ضعف ، و إذا همّ بخطيئة لم تكتب عليه فإن عملها كتبت خطيئة واحدة و وراءها حسن عفو الله عزّ وجلّ »[٣] .

و جاء رجل إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يا رسول الله إنّي لا أصوم إلّا الشهر لا أزيد عليها . وليس لله في مالي صدقة ولا حجّ ولا تطوّع أين أنا إذا متّ فتبسّم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و قال : نعم معي إن حفظت قلبك من اثنتين الغلّ و الحسد ، و لسانك من اثنتين الغيبة و الكذب ، و عينك من اثنتين النظر إلى ما حرّم الله عزّ و جلّ

---

(١) أخرجه الطبراني و زاد فيه « لا يشرك بي شيئاً » بسند مجهول كما في مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٢١٦ . و رواه الترمذي من حديث الذي قبله ج ١٣ ص ٦٠ و رواه أحمد في مسنده من حديث أبي ذر .

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أبي امامة بسند فيه لين باللفظ الاول ، و رواه أيضاً أطول منه و فيه « ان صاحب اليمين أمير على صاحب الشمال » و ليس فيه انه يأمر صاحب الشمال بالقاء السيئة حتى يلقى من حسناته واحدة ، ولم أجد لذلك أصلا (قاله العراقي) أقول : ورواه الطبراني في الكبير باختلاف راجع مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٢٠٨ .

(٣) أخرج صدره الى قوله « حتى يمل العبد من الاستغفار » الطبراني في الكبير والاوسط من حديث عقبة بن عامر واسناده حسن كما في مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٢٠٠ .

و أن تزدري بهما مسلماً دخلت معي الجنّة على راحتي هاتين »[١] و في الحديث إنّ أعرابيّاً قال : يا رسول الله من يلي حساب الخلق ؟ فقال : الله تبارك و تعالى ، قال : هو بنفسه ؟ قال : نعم ، فتبسّم الأعرابيُّ ، فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : ممَّ ضحكت يا أعرابي ؟ فقال : إنّ الكريم إذا قدر عفا ، و إذا حاسب سامح ، فقال النبيُّ صلّى الله عليه وآله وسلّم صدق الأعرابيُّ ألا لا كريم أكرم من الله تعالى هو أكرم الأكرمين ، ثمَّ قال : فقه الأعرابيّ »[٢] و فيه أيضاً أنَّ الله تعالى شرَّف الكعبة وعظّمها ، ولوأنَّ عبداً هدمها حجراً حجراً ثمّ أحرقها ما بلغ جرم من استخفَّ بوليّ من أولياء الله تعالى ، قال الأعرابيُّ ومن أولياء الله ؟ قال : المؤمنون كلّهم أما سمعت قول الله عزَّ وجلَّ : « الله وليُّ الّذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور»[٣].

وفي بعض الأخبار «المؤمن أفضل من الكعبة»[٤] « والمؤمن طيّب طاهر»[٥] « والمؤمن أكرم على الله تعالى من الملائكة »[٦] . و في الخبر « خلق الله جهنّم من فضل رحمته سوطاً يسوق الله به عباده إلى الجنّة »[٧].

و في خبر آخر « يقول الله عزّ وجلّ : إنّما خلقت الخلق ليربحوا عليَّ ولم أخلقهم لأربح عليهم »[٨] و في حديث أبي سعيد الخدريّ عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « ما خلق الله تعالى شيئاً إلّا جعل له ما يغلبه و جعل رحمته تغلب غضبه »[٩] و في

(١) قد تقدم سابقاً .
(٢) قال العراقى : لم أجد له أصلا .
(٣) قال العراقى : لم أجد له أصلا . والاية فى سورة البقرة : ٢٥٧ .
(٤) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٣٩٣٢ بلفظ «ما أعظمك و أعظم حرمتك والذى نفس محمد بيده لحرمة المؤمن أعظم عند الله حرمة منك ماله و دمه و أن نظن به الاخيراً» .
(٥) قال العراقى : لم أجده أصلا بهذا اللفظ وفى الصحيحين « المؤمن لا ينجس» .
(٦) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٣٩٤٧ من رواية أبى مهزم عن أبى هريرة .
(٧) ما عثرت على أصل له ، وروى البخارى و أبو داود و أحمد بسند صحيح من حديث أبى هريرة « عجب ربنا من قوم يقادون الى الجنة فى السلاسل » .
(٨) قال العراقى : لم أجد له أصلا .
(٩) أخرجه أبوالشيخ ابن حبان فى الثواب . (المغنى)

الخبر المشهور « إنّ الله تعالى كتب على نفسه الرّحمة قبل أن يخلق الخلق إنّ رحمتي تغلب غضبي »(١).

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم قال : « من قال : لا إله إلّا الله دخل الجنّة »(٢).

« و من كان آخر كلامه قول لا إله إلّاالله لم تمسّه النار »(٣).

« و من لقي الله لا يشرك به شيئاً حرمت عليه النار »(٤).

« ولا يدخلها من في قلبه وزن مثقال ذرّة من إيمان »(٥) وفي خبر آخر « لو علم الكافر سعة رحمة الله ما آيس من جنّته أحد »(٦) و لما تلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قوله تعالى : « إنّ زلزلة الساعة شيء عظيم »(٧) قال : أتدرون أيّ يوم هذا ؟ هذا يوم يقال لآدم عليه السلام قم فابعث بعث النّار من ذرّيّتك فيقول : كم ؟ فيقال : من كلّ ألف تسعمائة وتسعة وتسعين إلى النّار و واحدة إلى الجنّة ، قال : فأبلس القوم وجعلوا يبكون وتعطّلوا يومهم عن الاشتغال والعمل فخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : مالكم لا تعملون ، فقالوا : و من يشتغل بعمل بعد ما حدّثتنا بهذا ؟ فقال : كم أنتم في الاُمم أين تأويل و ثاريس و منسك و يأجوج و مأجوج اُمم لا يحصيها إلّا الله تعالى إنّما أنتم في سائر الاُمم كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود وكالرقمة في ذراع الدّابة »(٨).

---

(١) أخرجه مسلم ج ٨ ص ٩٥ من حديث أبي هريرة هكذا « لما قضى الله الخلق كتب في كتابه على نفسه فهو موضوع عنده ان رحمتي تغلب غضبي » .

(٢) رواه الطبراني في الاوسط والكبير من حديث أبي سعيد الخدري كما في مجمع الزوائد ج ١ ص ١٨ .

(٣) أخرجه أبوداود والحاكم و صححه من حديث معاذ بلفظ « دخل الجنة » .

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير من حديث سلمة بن نعيم الاشجعي و رواه أحمد و رجاله ثقات كما في مجمع الزوائد ج ١ ص ١٨ . (٥) تقدم نحوه .

(٦) أخرجه مسلم ج ٨ ص ٩٧ من حديث أبي هريرة باختلاف . (٧) الحج : ٢ .

(٨) أخرجه البخاري ج ٦ ص ١٢٢ و سعيد بن منصور و أحمد و عبد بن حميد و الترمذي و صححه و النسائي و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و الحاكم وصححه و ابن مردويه من طرق عن الحسن و عمران بن حصين و غيره كما في الدر المنثور ج ٤ ص ٣٤٣ .

فانظر كيف كان يسوق الخلق بسياط الخوف ويقودهم بأزمّة الرّجاء إلى الله تعالى إذ ساقهم بسياط الخوف أوّلاً فلمّا خرج بهم عن حدّ الاعتدال إلى إفراط اليأس داواهم بدواء الرّجاء و ردّهم إلى الاعتدال و القصد والأخير لم يكن مناقضاً للأوّل ولكن ذكر في الأوّل ما رآه سبباً للشفاء و اقتصر عليه فلمّا احتاجوا إلى المعالجة بالرّجاء ذكر تمام الأمر ، فعلى الواعظ أن يقتدي بسيّد الوعّاظ فيتلطّف في استعمال أخبار الخوف و الرّجاء بحسب الحاجة بعد ملاحظة العلل الباطنة وإن لم يراع ذلك كان ما يفسد بوعظه أكثر ممّا يصلحه .

و في الخبر « لو لم تذنبوا لخلق الله تعالى خلقاً يذنبون فيغفر لهم » و في لفظ آخر « لذهب بكم و جاء بخلق آخر يذنبون فيغفر لهم إنّه هو الغفور الرحيم »(١).

و في الخبر « لولم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو شرّ من الذّنوب ، قيل : ما هو ؟ قال : العجب » (٢).

وقال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « و الّذي نفسي بيده لله أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها » (٣).

و في الخبر « ليغفرنّ الله تعالى يوم القيامة مغفرة ما خطرت قطّ على قلب أحد حتّى أنّ إبليس ليتطاول لها رجاء أن تصيبه » (٤).

و في الخبر « إنّ لله مائة رحمة ادّخر عنده منها تسعاً وتسعين رحمة وأظهر منها في الدّنيا رحمة واحدة فبها يتراحم الخلق فتحنّ الوالدة إلى ولدها وتعطف البهيمة على ولدها فإذا كان يوم القيامة ضمّ هذه الرّحمة إلى التسع والتسعين ثمّ بسطها على جميع خلقه و كلّ رحمة منها طباق السماوات والأرضين قال : فلا يهلك على الله تعالى

---

(١) أخرجه الطبراني فى الكبير والاوسط بلفظيه من حديث عبدالله بن عمر بسند جيد راجع مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٢١٥ .

(٢) اخرجه البيهقى فى الشعب من حديث أنس بسند ضعيف كما فى الجامع الصغير .

(٣) أخرجه الشيخان و الطبرانى فى الكبير كما فى مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٢١٣.

(٤) أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب حسن الظن بالله من حديث ابن مسعود باسناد ضعيف كما فى المغنى .

يومئذ إلّا هالك »[١].

و في الخبر « ما منكم من أحد يدخله عمله الجنّة و لا ينجيه من النار ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : و لا أنا إلّا أن يتغمّدني الله تعالى برحمته »[٢].

و قال عليه السلام : « اعملوا وابشروا و اعلموا أنّ أحداً لن ينجيه عمله »[٣].

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : «إنّي اختبأت شفاعتي لأهل الكبائر من اُمّتي أترونها للمطيعين المتّقين بل هي للمخلطين المتلوّثين »[٤].

و قال عليه السلام « بعثت بالحنيفيّة السمحة السهلة »[٥].

و قال عليه السلام : « اُحبّ أن يعلم أهل الكتابين أنّ في ديننا سماحة »[٦] ويدلّ على معناه استجابة الله تعالى للمؤمنين في قولهم « و لا تحمل علينا إصراً »[٧] و قال : « ويضع عنهم إصرهم و الأغلال الّتي كانت عليهم »[٨] و روى محمّد بن الحنفيّة عن عليّ عليه السلام أنّه قال : « لمانزل قوله تعالى «فاصفح الصفح الجميل » قال : ياجبرئيل و ما الصفح الجميل ؟ قال : إذا عفوت عمّن ظلمك فلا تعاتبه ، فقال : يا جبرئيل فالله أكرم أن يعاتب من عفا عنه ، فبكى جبرئيل و بكى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فبعث الله تعالى إليهما ميكائيل وقال : إنّ ربّكما يقرئكما السلام ويقول : كيف اُعاتب من عفوت عنه هذا ما لا يشبه كرمي »[٩].

---

(١) أخرج صدره مسلم ج ٨ ص ٩٦ من حديث أبي هريرة . و كذا البخاري في الصحيح ج ٨ ص ١٢٣ و ما عثرت على ذيله .

(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة و قد تقدم .

(٣) تقدم أيضاً .

(٤) أخرجه أحمد ج ٢ ص ٧٥ في مسنده بأدنى اختلاف في اللفظ من حديث عبدالله بن عمر . و فيه من لم يسم .

(٥) أخرجه أحمد من حديث أبي أمامة ج ٥ ص ٢٦٦ دون لفظ « السهلة » .

(٦) قال العراقي : أخرجه أبو عبيد في غريب الحديث و أحمد .

(٧) البقرة : ٢٨٦ . (٨) الاعراف : ١٥٧ .

(٩) أخرجه ابن مردويه وابن النجار عن علي عليه السلام هكذا « فاصفح الصفح الجميل ←

و قال عليّ عليه السلام: «من أذنب ذنباً فستره الله عليه في الدّنيا فالله أكرم أن يكشف ستره في الآخرة، و من أذنب ذنباً فعوقب عليه في الدّنيا فالله تعالى أعدل من أن يثنّي عقوبته على عبده في الآخرة»(١).

وفي الحديث «إنّ رجلين من بني إسرائيل تواخيا في الله عزّ وجلّ فكان أحدهما يسرف على نفسه وكان الآخر عابداً وكان يعظه ويزجره وكان يقول: دعني و ربّي أبعثت عليّ رقيباً، حتّى رآه ذات يوم على كبيرة فغضب فقال: لا يغفر الله لك قال: فيقول الله تعالى يوم القيامة: أيستطيع أحد أن يحظر رحمتي على عبادي إذهب أنت فقد غفرت لك ثمّ يقول للعابد: وأنت فقد أوجبت لك النار قال: فو الّذي نفسي بيده لقد تكلّم بكلمة أهلكت دنياه وآخرته»(٢).

و روي «أنّ لصّاً كان يقطع الطريق في بني إسرائيل أربعين سنة فمرّ عليه عيسى عليه السلام و خلفه عابد من عبّاد بني إسرائيل من الحواريّين فقال اللّصّ في نفسه: هذا نبيّ الله يمرّ و إلى جنبه حواريه لو نزلت فكنت معهما ثالثاً، قال: فنزل فجعل يريد أن يدنو من الحواريّ فيزدري نفسه تعظيماً للحواريّ ويقول في نفسه: مثلي لا يمشي إلى جنب هذا العابد قال: و أحسّ به الحواريّ فقال في نفسه: هذا يمشي إلى جانبي فضمّ منه نفسه و تقدّم إلى عيسى عليه السلام فمشى إلى جانبه فبقي اللّصّ خلفه قال: فأوحى الله تعالى إلى عيسى قل لهما ليستأنفا العمل فقد أحبطت ما سلف من أعمالهما أمّا الحواري فقد أحبطت حسناته لعجبه بنفسه وأمّا الآخر فقد احبطت سيّئاته بما ازدري على نفسه فأخبرهما بذلك و ضمّ اللّصّ إليه في سياحته وجعله من حواريه». وفي الأثر أنّ رجلين كانا من العابدين متساويين في العبادة قال: فإذا ادخلا الجنّة رفع أحدهما في الدّرجات العلى على صاحبه فيقول: يا ربّ ما

← الرضا بغير عتاب» و كذا رواه الصدوق فى العيون عن الرضا عليه السلام و ما عثرت على ما رواه المصنف.

(١) تقدم نحوه عن النبى صلى الله عليه و آله.

(٢) أخرجه أبو داود ج ٢ ص ٥٧٣ من حدىث أبى هريرة باسناد جيد.

كان هذا في الدّنيا بأكثر منّي عبادة فرفعته عليّ في علّيّين ؟ فيقول الله سبحانه : إنّه كان يسألني في الدّنيا الدّرجات العلى وأنت كنت تسألني النجاة من النار فأعطيت كلّ عبد سؤله . وهذا يدلّ على أنّ العبادة على الرّجاء أفضل لأنّ المحبّة أغلب على الرّاجي منها على الخائف فكم من فرق في الملوك بين من يخدم اتّقاء لعقابه و بين من يخدم ارتجاء لإنعامه و إكرامه . و لذلك أمر الله تعالى بحسن الظنّ و لذلك قال ﷺ : « سلوا الله الدّرجات العلى فإنّما تسألون كريماً »(١) .

و قال : «إذا سألتم الله فأعظموا الرّغبة واسألوا الفردوس الأعلى فإنّ الله لا يتعاظمه شيء » (٢).

و قال يحيى بن معاذ في مناجاته : يكاد رجائي لك من الذّنوب يغلب رجائي إيّاك مع الأعمال لأنّي أعتمد في الأعمال على الإخلاص و كيف أحرزها و أنا بالآفة معروف وأجدني في الذّنوب أعتمد على عفوك و كيف لا تغفرها وأنت بالجود موصوف.

وقيل : إنّ مجوسيّاً استضاف إبراهيم الخليل عليه السلام فقال : إن أسلمت أضفتك فمرّ المجوسيّ فأوحى الله تعالى إلى إبراهيم يا إبراهيم لم تطعمه إلّا بتغيير دينه ونحن منذ سبعين سنة نطعمه على كفره فلو أضفته ليلة ما ذا كان عليك ، فمرّ إبراهيم يسعى خلف المجوسيّ فردّه وأضافه فقال المجوسيّ : ما السبب فيما بدالك ؟ فذكر له ، فقال المجوسيّ : أ هكذا يعاملني ، ثمّ قال : أعرض عليّ الإسلام فأسلم . وقيل: كان رجل شرّيب جمع قوماً من ندمائه و دفع إلى غلام له أربعة دراهم و أمره أن يشتري شيئاً من الفواكه للمجلس فمرّ الغلام بباب منصور بن عمّار و هو يسأل لفقير شيئاً و يقول : من دفع إليه أربعة دراهم دعوت له أربع دعوات ، قال : فدفع الغلام الدّراهم إليه فقال منصور : ما الّذي تريد أن أدعو لك فقال : لي سيّد أُريد

---

(١) قال العراقى : لم أجده بهذا اللفظ وللترمذى من حديث ابن مسعود « سلوا الله من فضله ان الله يحب أن يسئل ».

(٢) روى نحوه مسلم ج ٨ ص ٦٣ من حديث أبى هريرة . و فى سنن الترمذى ج ١٠ ص ٧ فى ذيل حديث عن معاذ بن جبل « فاذا سألتم الله فسلوه الفردوس ».

أن أتخلّص منه ، فدعا منصور ، و قال : الآخر ؟ فقال : أن يخلف الله عليّ دراهمي فدعا ، ثمّ قال : الآخر ؟ فقال : يتوب الله على سيّدي فدعا ، ثمّ قال : الآخر فقال : أن يغفر الله لي ولسيّدي ولك وللقوم ، فدعا منصور ، فرجع الغلام فقال له سيّده : لم أبطأت فقصّ عليه القصّة فقال : وبم دعا فقال : سألت لنفسي العتق ، فقال : اذهب فأنت حرّ ، قال : وأيش الثاني فقال : أن يخلف الله عليّ الدّراهم ، فقال : لك أربعة آلاف درهم ، وأيش الثالث ؟ قال : أن يتوب الله عليك ، فقال : تبت إلى الله ، و أيش الرّابع ؟ فقال : أن يغفر الله لي ولك وللقوم و للمذكّر ، فقال : هذا الواحد ليس إليّ فلمّا بات تلك اللّيلة رأي في المنام كأنّ قائلاً يقول له : أنت فعلت ماكان إليك أفترى أنّي لا أفعل ما إليّ قد غفرت لك و للغلام و لمنصور بن عمّار و للقوم الحاضرين أجمعين .

وقال إبراهيم الأطروش : كنّا قعوداً ببغداد مع المعروف الكرخي على دجلة إذ مرّ قوم أحداث في زورق يضربون بالدّف و يشربون و يلعبون ، فقالوا لمعروف : أمّا تراهم يعصون الله مجاهرين ادع الله عليهم ، فرفع يده وقال : إلهي كما فرحتهم في الدّنيا ففرّحهم في الآخرة ، فقال القوم : إنّما سألناك أن تدعو عليهم فقال : إذا فرحهم في الآخرة تاب عليهم .

و كان بعض السلف يقول في دعائه : يا ربّ وأيّ أهل دهر لم يعصوك ثمّ كانت نعمتك عليهم سابغة و رزقك عليهم دارّاً ، سبحانك ما أحلمك و عزّتك أنّك لتعصى ثمّ تسبغ النعمة و تدرّ الرّزق حتّى لكأنّك يا ربّنا إنّما تطاع ، سبحانك ما أحلمك تعصى و تدرّ الرّزق و تسبغ النعمة حتّى لكأنّك يا ربّنا لا تغضب . فهذه هي الأسباب الّتي يجلب بها روح الرّجاء إلى قلوب الخائفين و الآيسين ، فأمّا الحمقى المغرورون فلا ينبغي أن يسمعوا شيئاً من ذلك بل يسمعون ما سنورده في أسباب الخوف فانّ أكثر الناس لايصلح إلّا على الخوف كالعبد السوء والصبي العرم الّذي لا يستقيم إلّا بالسوط و العصا وإظهار الخشونة في الكلام فأمّا ضدّ ذلك فيسدّ عليهم باب الصلاح في الدّين والدّنيا .

☼(الشطر الثاني من الكتاب في الخوف)☼

و فيه بيان حقيقة الخوف و بيان درجات الخوف ، و بيان أقسام المخاوف ، وبيان فضيلة الخوف ، وبيان الأفضل من الخوف والرّجاء ، و بيان دواء الخوف ، وبيان معنى سوء الخاتمة ، وبيان أحوال الخائفين من الأنبياء والصالحين .

☼(بيان حقيقة الخوف)☼

إعلم أنّ الخوف عبارة عن تألّم القلب و احتراقه بسبب توقّع مكروه في الاستقبال و قد ظهر هذا في بيان حقيقة الرّجاء و من أنس بالله وملك الحقّ قلبه وصار ابن وقته مشاهداً لجمال الحقّ على الدّوام لم يبق له التفات إلى المستقبل فلم يكن له خوف ولا رجاء بل صار حاله أعلى من الخوف و الرّجاء فإنّهما زمامان يمنعان النفس عن الخروج إلى رعوناتها و إلى هذا أشار الواسطيّ حيث قال : الخوف حجاب بين الله وبين العبد ، وقال أيضاً : إذا ظهر الحقّ على السرائر لايبقى فيها فضلة لرجاء ولا خوف ، وبالجملة فالمحبّ إذا شغل قلبه في مشاهدة المحبوب بخوف الفراق كان ذلك نقصاً في الشهود ، و إنّما دوام الشهود غاية المقامات ولكنّا الآن إنّما نتكلّم في أوائل المقامات ، فنقول : حال الخوف ينتظم أيضاً من علم وحال وعمل : أمّا العلم فهو العلم بالسبب المفضي إلى المكروه و ذلك كمن جنى على ملك ثمّ وقع في يده فيخاف القتل مثلاً ويجوّز العفو و الافلات ولكن يكون تألّم قلبه بالخوف بحسب قوّة علمه بالأسباب المفضية إلى قتله وهو تفاحش جنايته و كون الملك في نفسه حقوداً غضوباً منتقماً ، و كونه محفوفاً بمن يحثّه على الانتقام خالياً ممّن يتشفّع إليه في حقّه ، وكان هذا الخائف عاطلاً عن كلّ وسيلة و حسنة تمحو أثر جنايته عند الملك ، فالعلم بتظاهر هذه الأسباب سببٌ لقوّة الخوف وشدّة تألّم القلب ، وبحسب ضعف هذه الأسباب يضعف الخوف . فالعلم بأسباب المكروه هو السبب الباعث المثير لاحتراق القلب وتألّمه ، و ذلك الاحتراق هو الخوف و كذا الخوف من الله تعالى تارة يكون بمعرفة الله تعالى و معرفة صفاته ، و تارة يكون

لكثرة الجناية من العبد بمقارفة المعاصي وتارة يكون بهما جميعاً و بحسب معرفته بعيوب نفسه و معرفته بجلال الله تعالى و استغنائه تكون قوّة خوفه ، فأخوف الناس لربّه أعرفهم بنفسه وبربّه ، و لذلك قال صلّى الله عليه وآله وسلّم « أنا أخوفكم لله »[1] و كذلك قال تعالى : « إنّما يخشى الله من عباده العلماء »[2] ثمّ إذا كملت المعرفة أورثت جلال الخوف و احتراق القلب ثمّ يفيض أثر الحرقة من القلب على البدن وعلى الجوارح و على الصفات أمّا في البدن فبالنحول و الصفار والغشية والزّعقة والبكاء وقدتنشقّ به المرارة فيفضي إلى الموت أو يصعد إلى الدّماغ فيفسد العقل أو يقوي فيورث القنوط واليأس ، وأمّا في الجوارح فبكفّها عن المعاصي و تقييدها بالطاعات تلافياً لما فرط و استعداداً للمستقبل ، ولذلك قيل : ليس الخائف من يبكي ويمسح عينيه بل من يترك ما يخاف أن يعاقب عليه ، و أمّا في الصفات فهوأن يقمع الشهوات ويكدّر اللّذّات فتصير المعاصي المحبوبة عنده مكروهة كما يصير العسل مكروهاً عند من يشتهيه إذا عرف أنّ فيه سمّاً فتحترق الشهوات بالخوف وتتأدّب الجوارح ويحصل في القلب الذّبول و الخشوع و الذّلّة و الاستكانة ، ويفارقه الكبر والحقد والحسد بل يصير مستوعب الهمّ بخوفه و النظر في خطر عاقبته فلا يتفرّغ لغيره و لا يكون له شغل إلّا المراقبة و المحاسبة والمجاهدة و الضنّة بالأنفاس واللّحظات و مؤاخذة النفس في الخطرات و الخطوات والكلمات فيكون ظاهره و باطنه مشغولاً بما هو خائف منه لامتّسع فيه لغيره هذا حال من غلبه الخوف واستولى عليه . وقوّة المراقبة و المجاهدة بحسب قوّة الخوف الّذي هو تألّم القلب واحتراقه و قوّة الخوف بحسب قوّة المعرفة بجلال الله تعالى و صفاته و أفعاله و بعيوب النفس و ما بين يديها من الأخطار والأهوال و أقلّ درجات الخوف ممّا يظهر أثره في الأعمال أن يمنع من المحظورات ، و يسمّى الكفّ الحاصل من المحظورات ورعاً . فإن زادت قوّته كفّ

---

(١) أخرجه البخاري من حديث أنس « والله اني لاخشاكم لله و أتقاكم له » . و للشيخين من حديث عائشة « والله اني لاعلمهم بالله و أشدهم له خشية » . (المغني)

(٢) فاطر : ٢٨ .

عمّا يتطرّق إليه إمكان التحريف فيكفّ أيضاً عمّا لا يتيقّن أيضاً تحريمه ويسمّى ذلك تقوى إذ التقوى أن يترك ما يريبه إلى ما لا يريبه ، و قد يحمله على أن يترك ما لا بأس به مخافة ما به بأس ، و هو الصدق في التقوى ، فإذا انضمّ إليه التجرّد للخدمة فصار لا يبني ما لا يسكنه ، ولا يجمع ما لا يأكله ، و لا يلتفت إلى دنيا يعلم أنّها تفارقه ، ولا يصرف إلى غير الله تعالى نفساً من أنفاسه فهو الصدق و صاحبه جدير بأن يسمّى صدّيقاً ويدخل في الصدق التقوى ، و يدخل في التقوى الورع ، ويدخل في الورع العفّة فإنّها عبارة عن الامتناع عن مقتضى الشهوات خاصّة ، فإذن الخوف يؤثّر في الجوارح بالكفّ و الإقدام . فهذه إشارة إلى مجامع معاني الخوف و ما يكتنفه من جانب العلوّ كالمعرفة الموجبة له و من جانب السفل كالأعمال الصادرة منه كفّاً وإقداماً .

☼(بيان درجات الخوف واختلافه في القوة و الضعف)☼

إعلم أنّ الخوف محمودٌ و ربّما يظنّ أنّ كلّ ما هو محمودٌ كلّما كان أقوى و أكثر كان أحمد ، وهو غلطٌ بل الخوف سوط الله تعالى يسوق به عباده إلى المواظبة على العلم و العمل لينالوا بهما رتبة القرب من الله تعالى و الأصلح للبهيمة أن لا تخلو عن سوط و كذا الصبيّ ولكن ذلك لا يدلّ على أنّ المبالغة في الضرب محمودٌ فكذلك الخوف له قصور وله إفراط وله اعتدال ، و المحمود هو الاعتدال و الوسط فأمّا القاصر منه فهو الّذي يجري مجرى رقّة النساء يخطر بالبال عند سماع آية من القرآن فيورث البكاء وتفيض الدّموع و كذلك عند مشاهدة سبب هائل ، فإذا غاب ذلك السبب عن الحسّ رجع القلب إلى الغفلة فهذا خوف قاصر قليل الجدوى ضعيف النفع ، و هو كالقضيب الضعيف الّذي تضرب به دابّة قويّة لا يؤلمها ألماً مبرحاً فلا يسوقها إلى المقصد ولا يصلح لرياضتها ، و هكذا خوف الناس كلّهم إلّا العارفين والعلماء ولست أعني بالعلماء المترسّمين برسوم العلماء والمتّسمين بأسمائهم فإنّهم أبعد الناس عن الخوف بل أعني به العلماء بالله و بأيّامه وأفعاله و ذلك ممّا قد عزّ وجوده الآن ، و أمّا المفرط فهو الّذي يقوى ويجاوز حدّ الاعتدال حتّى يخرج

إلى اليأس و القنوط و هو مذموم أيضاً لأنّه يمنع من العمل ، و المراد من الخوف ما هو المراد من السوط و هو الحمل على العمل ولولاه لما كان الخوف كمالاً لأنّه بالحقيقة نقصان لأنّ منشأه الجهل والعجز ، أمّا الجهل فهو أنّه ليس يدري عاقبة أمره ولو عرف لم يكن خائفاً لأنّ المخوف هو الّذي يتردّد فيه . و أمّا العجز فهو أنّه متعرّض لمحذور لا يقدر على دفعه فإذن هو محمود بالإضافة إلى نقص الآدمي و إنّما المحمود في نفسه وذاته هو العلم و القدرة و كلّ ما يجوز أن يوصف الله تعالى به و ما لا يجوز وصف الله به فليس بكمال في ذاته و إنّما يصير محموداً بالإضافة إلى نقص هو أعظم منه كما يكون احتمال ألم الدّواء محموداً لأنّه أهون من ألم المرض و الموت فما يخرج إلى القنوط فهو مذموم و قد يخرج الخوف أيضاً إلى المرض و الضعف و إلى الوله و الدّهشة و زوال العقل و قد يخرج إلى الموت و كلّ ذلك مذموم وهو كالضرب الّذي يقتل الصبيّ والسوط الّذي يهلك الدّابة أو يمرضها أو يكسر عضواً من أعضائها و إنّما ذكر رسول الله صلّى الله عليه وآله أسباب الرّجاء و أكثر منها ليعالج بها صدمة الخوف المفرط المفضي إلى القنوط أو أحد هذه الامور فكلّ ما يراد لأمر فالمحمود منه ما يفضي إلى المراد المقصود منه و ما يقصر عنه أو يجاوزه فهو مذموم و فائدة الخوف الحذر والورع و التقوى و المجاهدة و العبادة والفكر و الذّكر و سائر الأسباب الموصلة إلى الله تعالى و كلّ ذلك يستدعي الحياة مع صحّة البدن وسلامة العقل فكلّ ما يقدح هذه الأسباب فهو مذموم ، فإن قلت : من خاف فمات من خوفه فهو شهيد فكيف يكون حاله مذموماً ، فاعلم أنّ معنى كونه شهيداً أنّ له رتبة بسبب موته من الخوف كان لاينا لها لو مات في ذلك الوقت لا بسبب الخوف فهو بالإضافة إليه فضيلة فأمّا بالإضافة إلى تقدير بقائه وطول عمره في طاعة الله وسلوك سبيله فليس بفضيلة بل للسالك سبيل الله بطريق الفكر والمشاهدة و الترقّي في درجات المعارف في كلّ لحظة رتبة شهيد أو شهداء ولولا هذا لكانت رتبة صبيّ يقتل أو مجنون يفترسه سبع أعلى من رتبة نبيّ أو وليّ يموت حتف أنفه وهو محال فلا ينبغي أن يظنّ هذا بل أفضل السعادات طول العمر في طاعة الله فكلّ ما أبطل

العمر أوالعقل أو الصحّة الّتي يتعطّل العمر بتعطيلها فهو خسران ونقصان بالإضافة إلى اُمور و إن كان بعض أقسامها فضيلة بالإضافة إلى اُمور اُخر كماكانت الشهادة فضيلة بالإضافة إلى ما دونها لا بالإضافة إلى درجة النبيّين و الصدّيقين[1] ، فإذن الخوف إن لم يؤثّر في العمل فوجوده كعدمه مثل السوط الّذي لا يزيد في حركة الدّابة و إن أثّر فله درجات بحسب ظهور أثره فإن لم يحمل إلاّ على العفّة و هي الكفّ عن مقتضى الشهوات فله درجة فإذا أثمر الورع فهوأعلى، وأقصى درجاته أن يثمر درجات الصدّيقين وهوأن يسلب الظاهر و الباطن عمّا سوى الله تعالى حتّى لايبقى لغير الله فيه متّسع فهذا أقصى ما يحمد منه و ذلك مع بقاء الصحّة و العقل فإن جاوز هذا إلى إزالة العقل و الصحّة فهو مرض يجب علاجه إن قدر عليه .

☼(بيان اقسام الخوف بالاضافة الى ما يخاف منه)☼

إعلم أنّ الخوف لا يتحقّق إلاّ بانتظار مكروه ، و المكروه إمّا أن يكون مكروهاً في ذاته كالنار و إمّا أن يكون مكروهاً لأنّه يفضي إلى المكروه كماتكره المعاصي لأدائها إلى مكروه في الآخرة ، و كما يكره المريض الفواكه المضرّة لأدائها إلى الموت ، فلابدّ لكلّ خائف من أن يتمثّل في نفسه مكروهاً من أحد القسمين ويقوى انتظاره في قلبه حتّى يحترق قلبه بسبب استشعاره ذلك المكروه ومقام الخائفين يختلف فيما يغلب على قلوبهم من المكروهات المحذورة فالّذي يغلب على قلوبهم ما ليس مكروهاً لذاته بل لغيره كالّذين يغلب عليهم خوف الموت قبل التوبة ، أوخوف نقض التوبة أونكث العهد ، أو خوف ضعف القوّة عن الوفاء بتمام حقوق الله ، أو خوف زوال رقّة القلب و تبدّلها بالقساوة ، أو خوف الميل عن الاستقامة ، أو خوف استيلاء العادة في اتّباع الشهوات المألوفة ، أو خوف أن يكله الله إلى حسناته الّتي اتّكل عليها و تعزّز بها في عباد الله ، أوخوف البطر بكثرة نعم الله عليه ، أوخوف الاشتغال عن الله بغير الله ، أو خوف الاستدراج بتواتر النعم ، أو خوف انكشاف غوائل طاعاته حيث يبدوله من الله مالم يكن يحتسب ، أوخوف تبعات

(١) فى الاحياء « بالاضافة الى درجة المتقين والصديقين » .

النّاس عنده في الغيبة و الخيانة و الغشّ و اضمار السوء ، أو خوف مالا يدري أنّه يحدث في بقيّة عمره ، أوخوف تعجيل العقوبة في الدّنيا و الافتضاح قبل الموت ، أو خوف الاغترار بزخارف الدّنيا ، أوخوف اطّلاع الله على سريرته في حال غفلته عنه ، أو خوف الختم له عند الموت بخاتمة السوء ، أوخوف السابقة الّتي سبقت له في الأزل ، فهذه كلّها مخاوف العارفين ولكلّ واحد خصوص فائدة و هو سلوك سبيل الحذر عمّا يفضي إلى المخوف ، فمن يخاف استيلاء العادة عليه فيواظب على الفطام عن العادة ، والّذي يخاف من اطّلاع الله على سريرته يشتغل بتطهير قلبه عن الوساوس و هكذا إلى بقيّة الأقسام و أغلب هذه المخاوف على المتّقين خوف الخاتمة فانّ الأمر فيه مخطر و أعلى الأقسام و أدلّها على كمال المعرفة خوف السابقة ، لأنّ الخاتمة تتبع السابقة وفرع يتفرّع عنها بعد تخلّل أسباب كثيرة ، فالخاتمة تظهر ما سبق به القضاء في أمّ الكتاب والخائف من الخاتمة بالاضافة إلى الخائف من السابقة كرجلين وقع الملك في حقّهما بتوقيع يحتمل أن يكون فيه جزّ الرّقبة ، و يحتمل أن يكون فيه تسليم الوزارة إليه ، ولم يصل التوقيع إليهما بعد فيرتبط قلب أحدهما بحالة وصول التوقيع ونشره و أنّه عمّا ذا يظهر ، ويرتبط قلب الآخر بحالة توقيع الملك و كيفيّته و أنّه ما الّذي خطر له في حال التوقيع من رحمة أو غضب ، و هذا التفات إلى السبب فهو أعلى من الالتفات إلى ما هو فرع ، فكذلك الالتفات إلى القضاء الأزلي الّذي جرى بتوقيعه القلم أعلى من الالتفات إلى ما يظهر في الأبد ، وإليه أشار النبيّ صلّى الله عليه وآله حيث كان على المنبر « فقبض كفّه اليمني ، ثمّ قال : هذا كتاب الله كتب فيه أهل الجنّة بأسمائهم وأسماء آبائهم لا يزاد فيهم ولا ينقص ، ثمّ قبض اليسرى وقال : هذا كتاب الله كتب فيه أهل النار بأسمائهم و أنسابهم لا يزاد فيهم و لا ينقص وليعملنّ أهل السعادة بعمل أهل الشقاء حتّى يقال : كأنّهم منهم بل هم هم ثمّ يستنقذهم الله تعالى قبل الموت ولو بفواق ناقة وليعملنّ أهل الشقاء بعمل أهل السعادة حتّى يقال : كأنّهم منهم بل هم هم ، ثمّ يستخرجهم الله تعالى قبل الموت ولو بفواق ناقة ، السعيد من سعد بقضاء الله و الشقي من شقي بقضاء الله و الأعمال

بالخواتيم » (١) وهذا كانقسام الخائفين إلى من يخاف معصيته و خيانته ، و إلى من يخاف الله تعالى نفسه لصفته وجلاله و أوصافه الّتي تقتضي الهيبة لامحالة فهذه أعلى رتبة و لذلك يبقى خوفه و إن كان في طاعة الصدّيقين ، و أمّا الآخر فهو في عرصة الغرور، والآمن إن واظب على الطاعات فالخوف من المعصية خوف الصالحين والخوف من الله تعالى خوف الموحّدين و الصدّيقين و هو ثمرة المعرفة بالله تعالى فكلّ من عرفه وعرف صفاته علم من صفاته ما هو جدير بأن يخاف من غير جناية . الطبقة الثانية من الخائفين أن يتمثّل في أنفسهم ما هو المكروه و ذلك مثل سكرات الموت وشدّته أو سؤال منكر و نكير أوعذاب القبر أو هول المطّلع أو هيبة الموقف بين يدي الله تعالى و الحياء من كشف الستر والسؤال عن النقير و القطمير ، أو الخوف من الصراط وحدّته و كيفيّة العبور عليه، أوالخوف من النار وأغلالها وأهوالها، أوالخوف من الحرمان عن الجنّة دار النعيم والملك المقيم وعن نقصان الدّرجات ، أوالخوف من الحجاب عن الله تعالى و كلّ هذه الأسباب مكروهة في نفسها فهي لا محالة مخوفة وتختلف أحوال الخائفين فيها وأعلاها رتبة هو خوف الفراق والحجاب عن الله و هو خوف العارفين و ما قبل ذلك خوف العابدين والصالحين والزّاهدين و كافّة العاملين ومن لم يكمل معرفته ولم ينفتح بصيرته لم يشعر بلذّة الوصال ولا بألم البعد والفراق و إذا ذكر له أنّ العارف لا يخاف النار و إنّما يخاف الحجاب وجد ذلك منكراً في باطنه وتعجّب منه في نفسه لأنّه لا يعرف إلّا لذّة الفرج و البطن والعين بالنظر إلى الألوان و الوجوه الحسان ، و بالجملة كلّ لذّة تشاركه البهائم فيها فأمّا لذّة العارفين فلا يدركها غيرهم وتفصيل ذلك وشرحه حرام مع من ليس أهلاً له ومن كان أهلاً له استبصر بنفسه واستغنى عن أن يشرحه له غيره فإلى هذه الأقسام يرجع خوف الخائفين .

✡ (بيان فضيلة الخوف والترغيب فيه) ✡

إعلم أنّ فضل الخوف تارة يعرف بالتأمّل و الاعتبار و تارة بالآيات والأخبار

(١) أخرجه الترمذي من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص ج ٨ ص ٣٠٨ وقال : حسن صحيح غريب .

أمّا الاعتبار فسبيله أنّ فضيلة الشيء بقدر إعانته في الإفضاء إلى سعادة لقاء الله إذ لا مقصود سوى السعادة و لا سعادة للعبد إلّا في لقاء الله مولاه و القرب منه فكلّ ما أعان عليه فله فضيلة وفضيلته بقدر إعانته و قد ظهر أنّه لا وصول إلى سعادة لقاء الله في الآخرة إلّا بتحصيل محبّته و الاُنس به في الدّنيا و لا تحصل المحبّة إلّا بالمعرفة ولا تحصل المعرفة إلّا بدوام الفكر و لا يحصل الاُنس إلّا بالمحبّة و دوام الذّكر و لا تتيسّر المواظبة على الذّكر و الفكر إلّا بانقلاع حبّ الدّنيا من القلب و لا ينقلع ذلك إلّا بترك لذّات الدّنيا و شهواتها و لا يمكن ترك المشتهيات إلّا بقمع الشهوات ولا تنقمع الشهوة بشيء كما تنقمع بنار الخوف والخوف هو النار المحرقة للشهوات فإذن فضيلته بقدر ما يحرق من الشهوة و بقدر ما يكفّ عن المعاصي ويحثّ على الطاعات ، و يختلف ذلك باختلاف درجات الخوف كما سبق ، و كيف لايكون الخوف ذافضيلة و به تحصل العفّة و الورع و التقوى و المجاهدة و هي الأعمال الفاضلة المحمودة الّتي يتقرّب بها إلى الله تعالى زلفى ، وأمّا بطريق الاقتباس من الآيات والأخبار ، فما ورد في فضيلة الخوف خارج عن الحصر و ناهيك دلالة على فضيلته جمع الله تعالى للخائفين الهدى والرحمة والعلم والرّضوان و هي مجامع مقامات أهل الجنان قال الله تعالى : « هدى و رحمة للّذين هم لربّهم يرهبون »(١) و قال تعالى : « إنّما يخشى الله من عباده العلماء »(٢) فوصفهم للعلم بخشيتهم و قال تعالى : « رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربّه »(٣) و كلّ ما دلّ على فضيلة العلم دلّ على فضيلة الخوف لأنّ الخوف ثمرة العلم و لذلك جاء في خبر موسى عليه السلام : و أمّا الخائفون فإنّ لهم الرّفيق الأعلى لا يشار كون فيه ، فانظر كيف أفردهم بمرافقة الرّفيق الأعلى و ذلك لأنّهم العلماء و العلماء لهم رتبة مرافقة الأنبياء لأنّهم ورثة الأنبياء ، و مرافقة الرّفيق الأعلى للأنبياء و من يلحق بهم و لذلك لمّا خيّر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في مرض موته بين البقاء في الدّنيا

(١) الاعراف : ١٥٤ . (٢) فاطر : ٢٨ .
(٣) البينة : ٨ .

و بين القدوم على الله تعالى كان يقول : « أسألك الرّفيق الأعلى » [١] فإذن إن نظر إلى مثمره فهو العلم و إن نظر إله ثمرته فهو الورع والتقوى ، ولا يخفى ما ورد في فضائلهما حتّى أنّ العاقبة صارت موسومة بالتّقوى مخصوصة بها كما صار الحمد مخصوصاً بالله تعالى و الصلاة برسول الله صلّى الله عليه وآله حتّى يقال : الحمد لله ربّ العالمين و العاقبة للمتّقين ، والصلاة على محمّد وآله . وقد خصّص الله التقوى بالإضافة إلى نفسه فقال تعالى : « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم» [٢] و إنّما التقوى عبارة عن كفّه بمقتضى الخوف كما سبق ، و لذلك قال الله تعالى : « إنّ أكرمكم عندالله أتقيكم» [٣] ولذلك وصّى الله تعالى الاولين والآخرين بالتقوى فقال تعالى : « ولقد وصّينا الّذين اُتوا الكتاب من قبلكم و أيّاكم أن اتّقوا الله » [٤] و قال تعالى : « وخافون إن كنتم مؤمنين » [٥] فأمر بالخوف وأوجبه و شرطه في الإيمان فلذلك لا يتصوّر أن ينفكّ مؤمن خوف و إن ضعف و يكون ضعف خوفه بحسب ضعف معرفته و إيمانه ، و قال رسول الله صلّى الله عليه وآله في فضيلة التقوى : « إذا جمع الله تعالى الأوّلين و الآخرين لميقات يوم معلوم ناداهم بصوت يسمع أقصاهم كما يسمع أدناهم فيقول : يا أيّها الناس إنّي قد أنصت لكم منذ خلقتكم إلى يومكم هذا فأنصتوا إليّ اليوم إنّما هي أعمالكم ترد عليكم أيّها الناس إنّي جعلت نسباً و جعلتم نسباً فوضعتم نسبي و رفعتم نسبكم ، قلت : إنّ أكرمكم عندالله أتقيكم و أبيتم إلّا أن تقولوا فلان ابن فلان وفلان أغنى من فلان ، فاليوم أضع نسبكم وأرفع نسبي أين المتّقون فينصب للقوم لواء فيتبع القوم لواءهم إلى منازلهم فيدخلون الجنّة بغير حساب [٦] » و قال عليه السلام : « رأس الحكمة مخافة الله [٧] » و كذلك ما ورد في

(١) متفق عليه من حديث عائشة و قد تقدم .
(٢) الحج : ٣٧ . (٣) الحجرات : ١٣ .
(٤) النساء : ١٣١ . (٥) آل عمران : ١٧٠ .
(٦) أخرجه الحاكم فى المستدرك والطبرانى فى الاوسط بسند ضعيف .
(٧) أخرجه الحكيم الترمذى فى النوادر و أبو بكر بن لال بسند صحيح كما فى الجامع الصغير .

فضائل الذّكر لا يخفى و قد جعله الله تعالى مخصوصاً بالخائفين فقال «سيذّكّر من يخشى»[١] وقال تعالى: «ولمن خاف مقام ربّه جنّتان[٢]».

و قال ﷺ: «قال الله تعالى: و عزّتي لا أجمع على عبدي خوفين ولا أجمع له أمنين فاذا أمنني في الدّنيا أخفته يوم القيامة و إذا خافني في الدّنيا أمنته يوم القيامة[٣]». و قال رسول الله ﷺ: «من خاف الله تعالى خافه كلّ شيء[٤]».

و قال رسول الله ﷺ: «أتمّكم عقلاً أشدّكم لله تعالى خوفاً، و أحسنكم فيما أمر الله تعالى به ونهى عنه نظراً[٥]».

و قالت عائشة: قلت: يا رسول الله «الّذين يؤتون ما آتوا و قلوبهم وجلة[٦]» هو الرّجل يسرق و يزني؟ قال: لا بل الرّجل يصوم و يصلّي و يتصدّق و يخاف أن لا يقبل منه[٧]» و التشديدات الواردة في الأمن من مكر الله و عذابه لاتنحصر و كلّ ذلك ثناء على الخوف لأنّ مذمّة الشي ثناء على ضدّه الّذي ينفيه، و ضدّ الخوف الأمن كما أنّ ضدّ الرّجاء اليأس، و كما دلّ مذمّة القنوط على فضيلة الرّجاء فكذلك يدلّ مذمّة الأمن على فضيلة الخوف المضادّ له، بل نقول: كلّ ما ورد في فضل الرّجاء فهو دليل على فضل الخوف لأنّهما متلازمان، فإنّ كلّ من رجا محبوباً فلابدّ وأن يخاف فوته، فإن كان لا يخاف فوته فهو إذن لا يحبّه

---

(١) الاعلى: ١٠. (٢) الرحمن: ٤٧.

(٣) قال العراقى: أخرجه ابن حبان فى صحيحه و البيهقى فى الشعب من حديث أبى هريرة و رواه ابن المبارك فى الزهد وابن أبى الدنيا فى كتاب الخائفين من رواية الحسن مرسلا.

(٤) يأتى عن الكافى بلفظ أبسط وأخرجه ابن حبان فى كتاب الثواب من حديث ابى امامة بسند ضعيف جداً و رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب الخائفين باسناد ضعيف معضل كما فى المغنى.

(٥) ماعثرت على أصل له. وقال العراقى: لم يصح فى فضل العقل شىء. أقول: و هكذا قال المقدسى فى الموضوعات. ولكن جاء من طريق الخاصة أخبار متظافرة صحاح حسان فى مدح العقل و فضله. (٦) المؤمنون: ٦٠.

(٧) أخرجه الحاكم فى المستدرك ج ٢ ص ٣٩٣ و صححه وابن جرير وابن المنذر و ابن أبى حاتم وابن مردوية والبيهقى من حديث عائشة كما فى الدر المنثور.

فلا يكون بانتظاره راجياً ، فالخوف و الرّجاء متلازمان يستحيل انفكاك أحدهما عن الآخر ، نعم يجوز أن يغلب أحد هما على الآخر و هما مجتمعان و يجوز أن يشتغل القلب بأحدهما ولا يلتفت إلى الآخر في الحال لغفلته عنه و هذا لأنّ من شرط الرّجاء والخوف تعلّقهما بما هو مشكوكٌ فيه إذ المعلوم لا يرجى ولايخاف، فإذن المحبوب الّذي يجوز وجوده يجوز عدمه لا محالةفتقدير وجوده يرّوح القلب و هو الرّجاء و تقدير عدمه يوجع القلب و هو الخوف ، و التقديران يتقابلان لا محالة إذا كان ذلك الأمرالمنتظر مشكوكاً فيه ، نعم أحد طرفي الشكّ قديترجّح بحضور بعض الأسباب و يسمّى ذلك ظنّاً فيكون ذلك سبب غلبة أحدهما على الآخر ، فإذا غلب على الظنّ وجود المحبوب قوي الرّجاء وخفي الخوف بالإضافة إليه ، و كذا بالعكس ، وعلى كلّ حال فهما متلازمان و لذلك قال تعالى : « و يدعوننا رغباً و رهباً [١] » و قال تعالى : « يدعون ربّهم خوفاً و طمعاً [٢] » و لذلك عبّر العرب عن الخوف بالرّجاء ، قال الله تعالى : « مالكم لاترجون لله وقاراً [٣]» أي لا تخافون ، و كثيراً ما ورد في القرآن الرّجاء بمعنى الخوف و ذلك لتلازمهما إذ عادة العرب التعبير عن الشيء بما يلازمه ، بل أقول : كلّ ما ورد في فضل البكاء من خشية الله فهو إظهار لفضيلة الخشية فإنّ البكاء ثمرة الخشية و قد قال الله تعالى : «فليضحكوا قليلاً و ليبكوا كثيراً [٤] » و قال تعالى : « ويخرّون للأذقان يبكون و يزيدهم خشوعاً [٥] » و قال : « أفمن هذا الحديث تعجبون ۞ و تضحكون ولاتبكون ۞ وأنتم سامدون[٦] »وقال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : « مامن عبد مؤمن تخرج من عينيه دمعة و إن كانت مثل رأس الذّباب من خشية الله تعالى ثمّ تصيب شيئاً من حرّ وجهه إلّاحرّمه الله تعالى على النّار[٧] » وقال عليه السلام : « إذا اقشعرّ قلب

(١) الانبياء : ٩٠ . (٢) السجدة : ١٦ .
(٣) نوح : ١٣. (٤) التوبة : ٨٢.
(٥) الاسراء : ١٠٩ . (٦) النجم : ٦٠ و ٦١ و ٦٢ .
(٧) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤١٩٧ من حديث ابن مسعود و سنده حسن كمافي الجامع الصغير .

المؤمن من خشية الله تحاتت عنه خطاياه كما يتحاتّ من الشجرة ورقها [١] »

و قال ﷺ : « لا يلج النّار أحدٌ بكى من خشية الله حتّى يعود اللّبن في الضرع [٢] » .

و قال عقبة بن عامر : ما النجاة يا رسول الله ؟ قال : « أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك و ابك على خطيئتك [٣] » .

و قالت عائشة : قلت : يا رسول الله يدخل أحدٌ من أمّتك الجنّة بغير حساب ؟ قال : « نعم من ذكر ذنوبه فبكى »[٤] .

و قال ﷺ : « ما من قطرة أحبُّ إلى الله تعالى من قطرة دمع من خشية الله أو قطرة دم اهريقت في سبيل الله [٥] » .

و قال ﷺ [٦] « اللّهمّ ارزقني عينين هطّالتين [٧] تشفيان بذروف الدّمع قبل أن تصير الدّموع دماً والأضراس جمراً » .

و قال ﷺ : « سبعة يظلهم الله يوم لا ظلّ إلّاظلّه - و ذكر منهم - رجلاً ذكر الله في خلوة ففاضت عيناه [٨] » .

---

(١) أخرجه الطبرانى والبيهقى من حديث العباس بسند ضعيف كما فى الجامع الصغير .

(٢) أخرجه الترمذى و قال حسن صحيح و أخرجه الحاكم ج ٤ ص ٢٦٠ و صححه والنسائى وابن ماجه من حديث أبى هريرة .

(٣) أخرجه أحمد ج ٤ ص ١٤٨ من حديثه وقد تقدم ج ٤ ص ٩ و وقع هناك تصحيف من النساخ و كتب مكان عقبة بن عامر عبدالله بن عامر الجهنى و ما و نبهت عليه الاههنا . نسأل الله أن يوقفنا على زلاتنا و يغفر لنا خطايانا .

(٤) قال العراقى : لم أجده .

(٥) أخرجه الترمذى فى سننه من حديث أبى امامة و قال : حسن غريب وقد تقدم .

(٦) أخرجه الطبرانى فى الكبير وفى الدعاء ، وأبو نعيم فى الحلية من حديث ابن عمر باسناد حسن ، و رواه الحسين المروزى فى زياداته على الزهد والرقائق لابن المبارك من رواية سالم بن عبدالله مرسلا . دون « ذكر الله » . (المغنى) أقول : ورواه ابن عساكر وفيه « تشفيان القلب بذروف الدمع من خشيتك الحديث » كما فى الجامع الصغير .

(٧) أى بكاءتين . (٨) متفق عليه من حديث أبى هريرة و قد تقدم .

و روي عن حنظلة قال : كنّا عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فوعظنا موعظة رقّت منها القلوب و ذرفت منها العيون و عرفنا أنفسنا ، فرجعت إلى أهلي فدنت منّي المرأة و جرى بيننا من حديث الدّنيا فنسيت ما كنّا عليه عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و أخذنا في الدّنيا ، ثمّ تذكّرت ما كنت فيه و قلت في نفسي : قد نافقت حتّى تحوّل عنّي ما كنت فيه من الخوف والرقّة فخرجت و جعلت أنادي نافق حنظلة فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و أنا أقول : نافق حنظلة ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم : كلاّ لم ينافق ، فقلت : يا رسول الله كنّا عندك فوعظتنا موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون و عرفنا أنفسنا فرجعت إلى أهلي فأخذنا في حديث الدّنيا و نسيت ما كنّا عندك عليه ، فقال : يا حنظلة لو أنّكم أبداً على تلك الحالة لصافحتكم الملائكة في الطرق و على فرشكم ولكن يا حنظلة ساعة و ساعة [(١)] » .

فإذن كلّ ما ورد في فضل الرّجاء و البكاء ، و فضل التّقوى و الورع ، و فضل العلم و مذمّة الأمن فهو دالّة على فضل الخوف لأنّ جملة ذلك متعلّقة به إمّا تعلق السّبب أو تعلّق المسبّب .

أقول : و من طريق الخاصّة ما رواه في الكافي بإسناده عن إسحاق بن عمّار قال : قال أبو عبدالله عليه السلام : «يا إسحاق خف الله كأنّك تراه و إن كنت لاتراه فإنّه يراك ، و إن كنت ترى أنّه لايراك فقد كفرت ، و إن كنت تعلم أنّه يراك ثمّ برزت له بالمعصية فقد جعلته من أهون النّاظرين إليك [(٢)] » .

و عنه عليه السلام قال : « من خاف الله أخاف الله منه كلّ شيء و من لم يخف الله أخافه الله من كلّ شيء [(٣)] » .

وعنه عليه السلام « من عرف الله خاف الله ومن خاف الله سخت نفسه عن الدّنيا » [(٤)] .

وعنه عليه السلام « إنّ من العبادة شدّة الخوف من الله ، يقول الله تعالى : « إنّما

---

(١) رواه مسلم مختصراً و كذا الطيالسى فى مسنده تحت رقم ١٣٤٥ . والقصة فى اسد الغابة ج ٢ ص ٥٨ تحت عنوان حنظلة بن الربيع التميمى نحوها .

(٢) و (٣) و (٤) المصدر ج ١ ص ٦٨ تحت رقم ٢ و ٣ و ٤ .

يخشى الله من عباده العلماء » [١] و قال تعالى : « فلا تخشوا الناس واخشون » [٢] و قال تعالى : « و من يتّق الله يجعل له مخرجاً » [٣] و قال عليه السلام : إنّ حبّ الشرف و الذّكر لا يكونان في قلب الخائف الرّاهب » [٤].

وعنه عليه السلام « المؤمن بين المخافتين: ذنب قد مضى لا يدري ما صنع الله فيه ، و عمر قد بقي لا يدري ما يكتسب فيه من المهالك ، فهو لا يصبح إلّا خائفاً ولا يصلحه إلاّ الخوف » [٥].

وعنه عليه السلام قال : « لا يكون المؤمن مؤمناً حتّى يكون خائفاً راجياً، و لا يكون خائفاً راجياً حتّى يكون عاملاً لما يخاف و يرجو » [٦].

☼(بيان أن الافضل هو غلبة الخوف أو غلبة الرجاء أو اعتدالهما)☼

إعلم أنّ الأخبار في فضل الخوف و الرّجاء قد كثرت و ربّما ينظر الناظر إليها فيعتريه شكّ في أنّ الأفضل أيّهما و قول القائل : الخوف أفضل أم الرّجاء ؟ سؤال فاسد يضاهي قول القائل : الخبز أفضل أم الماء ، و جوابه أن يقال : الخبز أفضل للجائع والماء أفضل للعطشان ، فإن اجتمعا نظر إلى الأغلب فإن كان الجوع أغلب فالخبز أفضل وإن كان العطش أغلب كان الماء أفضل وإن استويا فهما متساويان و هذا لأنّ كلّ ما يراد لمقصود ففضله يظهر بالإضافة إلى مقصوده لا إلى نفسه و الخوف و الرّجاء دواءان يداوى بهما القلوب ففضلهما بحسب الدّاء الموجود فإن كان الغالب على القلب داء الأمن من مكر الله و الاغترار به فالخوف أفضل ، و إن كان الأغلب هو اليأس و القنوط من رحمة الله فالرّجاء أفضل و كذلك إن كان الغالب على العبد المعصية فالخوف أفضل و يجوز أن يقال مطلقاً الخوف أفضل على التأويل الّذي يقال : الخبز أفضل من السّكنجبين إذ يعالج بالخبز مرض الجوع و

---

(١) فاطر : ٢٨ . (٢) المائدة : ٤٤ .

(٣) الطلاق : ٢ .

(٤) الكافي ج ٢ ص ٦٩ تحت رقم ٧ .

(٥) و (٦) المصدر ج ٢ ص ٧١ تحت رقم ١٢ و ١١ .

بالسّكنجبين مرض الصّفراء و مرض الجوع أغلب وأكثر فالحاجة إلى الخبز أكثر فهو أفضل فبهذا الاعتبار غلبة الخوف أفضل لأنّ المعاصي و الاغترار على الخلق أغلب، وإن نظر إلى مطلع الخوف والرّجاء فالرّجاء أفضل لأنّه مستقى من بحر الرّحمة و مستقى الخوف من بحر الغضب و من لاحظ من صفات الله تعالى ما يقتضي اللّطف و الرّحمة كانت المحبّة عليه أغلب و ليس وراء المحبّة مقام، و أمّا الخوف فمستنده الالتفات إلى الصفات الّتي تقتضي العنف فلا يمازجه المحبّة ممازجتها للرّجاء وعلى الجملة فما يراد لغيره ينبغي أن يستعمل فيه لفظ الأصلح لا لفظ الأفضل فيقول: أكثر الخلق الخوف لهم أصلح من الرّجاء و ذلك لأجل غلبة المعاصي وأمّا المتّقي الّذي ترك ظاهر الإثم و باطنه وخفيّه وجليّه فالأصلح أن يعتدل خوفه و رجاؤه، و لذلك قيل: لو وزن خوف المؤمن و رجاؤه لاعتدلا، روي أنّ علياً عليه السلام قال لبعض ولده: «يا بنيّ خف الله خوفاً ترى أنّك إن أتيته بحسنات أهل الأرض لم يتقبّلها منك، و ارج الله رجاء ترى كأنّك لو أتيته بسيّئات أهل الأرض غفرها لك».

أقول: و من طريق الخاصّة ما رواه في الكافي بإسناده عن الحارث بن المغيرة أو أبيه عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «قلت له: ما كان في وصيّة لقمان؟ قال: كان فيها الأعاجيب و كان أعجب ما كان فيها أن قال لابنه: خف الله خيفة لو جئته ببرّ الثقلين لعذّبك، و ارج الله رجاء لو جئته بذنوب الثقلين لرحمك، ثمّ قال أبوعبدالله عليه السلام: كأنّ أبي يقول: إنّه ليس من عبد مؤمن إلّا و في قلبه نوران نور خيفة و نور رجاء لو وزن هذا لم يزد على هذا ولو وزن هذا لم يزد على هذا» [1].

و في مصباح الشريعة [2] عنه عليه السلام قال: «الخوف رقيب القلب و الرّجاء شفيع النفس، و من كان بالله عارفاً كان من الله خائفاً، و إليه راجياً و هما جناحا الإيمان يطير بهما العبد المحقّق إلى رضوان الله و عينا عقله يبصر بهما إلى وعد الله و وعيده و الخوف طالع عدل الله باتّقاء وعيده و الرّجاء داعي فضل الله وهو يحيي

(١) المصدر ج ٢ ص ٦٧ تحت رقم ١.

(٢) المصدر باب الثامن و الثمانون.

القلب والخوف يميت النّفس ، قال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : « المؤمن بين خوفين خوف مامضى و خوف ما بقي » و بموت النفس يكون حيوة القلب ، و بحياة القلب يكون البلوغ إلى الاستقامة ، و من عبدالله على ميزان الخوف و الرّجاء لا يضلّ و يصل إلى مأموله ، و كيف لا يخاف العبد وهو غيرعالم بما يختم صحيفته ولاله عمل يتوسّل به استحقاقاً و لا قدرة له على شيء و لا مفرّ و كيف لا يرجو وهو يعرف نفسه بالعجز و هو غريق في بحر آلاء الله و نعمائه من حيث لا تحصى و لا تعدّ والمحبّ يعبدربّه على الرّجاء بمشاهدة أحواله بعين سهر ، و الزّاهد يعبد على الخوف .

قال اُويس لهرم بن حيان : قد عمل الناس على الرّجاء فقال : بل نعمل على الخوف ، و الخوف خوفان ثابت و معارض فالثابت من الخوف يورث الرّجاء و المعارض منه يورث خوفاً ثانياً ، والرّجاء رجاءان عاكف وباد ، فالعاكف منه يورث خوفاً ثابتاً يقوى نسبة المحبّة ، والبادي منه يصحّح أهل العجز والتقصير والحياء .

قال أبوحامد : فإذن أقصى غايات المؤمن أن يعتدل خوفه و رجاؤه أمّا غلبة الرّجاء في غالب النّاس يكون مستنده الاغترار و قلّة المعرفة ، و لذلك جمع الله بينهما في وصف من أثنى عليهم . فقال : « يدعون ربّهم خوفاً و طمعاً » (١) و قال : « يدعوننا رغباً و رهباً » (٢) فالخلق الموجودون في هذا الزّمان كلّهم الأصلح لهم غلبة الخوف بشرط أن لا يخرجهم إلى اليأس و ترك العمل وقطع الطمع من المغفرة فيكون ذلك سبباً للتكاسل عن العمل و داعياً إلى الانهماك في المعاصي فإنّ ذلك قنوط و ليس بخوف ، إنّما الخوف هو الّذي يحثّ على العمل و يكدّر جميع الشهوات و يزعج القلب عن الرّكون إلى الدّنيا ويدعوه إلى التجافي عن دار الغرور فهو الخوف المحمود دون حديث النّفس الّذي لا يؤثّر في الكفّ والحثّ و دون اليأس الموجب للقنوط .

و قد قال يحيى بن معاذ : من عبدالله تعالى بمحض الخوف غرق في بحار الأفكار ، و من عبده بمحض الرّجاء تاه في مفازة الاغترار ، و من عبده بالخوف و

---

(١) السجدة : ١٦ . (٢) الانبياء : ٩٠ .

الرّجاء استقام في محجّة الأذكار ، فإذن لابدّ من الجمع بين هذه الأمور . وغلبة الخوف هو الأصلح و لكن قبل الاشراف على الموت أمّا عند الموت فالأصلح غلبة الرّجاء و حسن الظنّ لأنّ الخوف جار مجرى السوط الباعث على العمل . و قد انقضى وقت العمل ، فالمشرف على الموت لا يقدر على العمل ، ثمّ لا يطيق أسباب الخوف فإنّ ذلك يقطع نياط قلبه و يعين على تعجيل موته ، و أمّا روح الرّجاء فإنّه يقوى قلبه ويحبّب إليه ربّه الّذي إليه رجاؤه ولا ينبغي أن يفارق أحدالدّنيا إلّا محبّاً لله تعالى ليكون محبّاً للقاء الله ، فإنّ من أحبّ لقاء الله أحبّ الله لقاءه ، و الرّجاء تقارنه المحبّة فمن ارتجى كرمه فهو محبوب و المقصود من العلوم والأعمال كلّها معرفة الله حتّى يثمر المعرفة المحبّة فإنّ المصير إليه و القدوم بالموت عليه ، و من قدم على محبوبه عظم سروره بقدر محبّته و من فارق محبوبه اشتدّت محنته و عذابه ، فمهماكان القلب الغالب عليه عندالموت حبّ الأهل والولد والمال والمسكن والعقار و الرّفقاء و الأصحاب فهذا رجل محابّه كلّها في الدّنيا فالدّنيا جنّته إذ الجنّة عبارة عن البقعة الجامعة لجميع المحابّ فموته خروج من الجنّة و حيلولة بينه و بين ما يشتهيه ، و لا يخفى حال من يحال بينه و بين مايشتهيه ، فأمّاإذالم يكن له محبوب سوى الله و سوى ذكره و معرفته و الفكر فيه فالدّنيا و علائقها شاغلةله عن المحبوب فالدّنيا إذن سجنه لأنّ السّجن عبارة عن البقعة المانعة للمحبوس عن الاستر واح إلى محابّه فموته قدوم على محبوبه و خلاص من السجن و لا يخفى حال من أفلت من السجن وخلّي بينه وبين محبوبه بلا مانع ولامكدّر ، فهذا أوّل مايلقاه كلّ من فارق الدّنياعقيب موته من الثواب والعقاب فضلاً عمّاأعدّالله لعباده الصّالحين ممّا لم تره عين ولم تسمعه أذن ولا خطر على قلب بشر وفضلاً عمّا أعدّ الله للّذين استحبّوا الحيوة الدّنيا على الآخرة و رضوا بها و اطمأنّوا إليها من الأنكال و السلاسل و الأغلال و ضروب الخزي و النّكال فنسأل الله تعالى أن يتوفّانا مسلمين و يلحقنا بالصّالحين و لا مطمع في إجابة هذا الدّعاء إلّا باكتساب حبّ الله ولا سبيل إليه إلّا بإخراج حبّ غيره من القلب و قطع العلائق عن كلّ ما سوى الله من جاه و مال و

وطن فالأولى أن ندعو بمادعابه نبيّنا عليه السلام إذقال : « اللّهمّ ارزقني حبّك وحبّ من أحبّك و حبّ ما يقرّبني إلى حبّك ، واجعل حبّك أحبّ إليّ من الماء البارد »(١) والغرض أنّ غلبة الرّجاء عند الموت أصلح لأنّه أجلب للمحبّة و غلبة الخوف قبل الموت أصلح لأنّه أحرق لنار الشهوات و أقمع لمحبّة الدّنيا عن القلب ، و لذلك قال صلى الله عليه وآله : « لا يموتنّ أحدكم إلّا و هو يحسن الظّنّ بربّه »(٢). و قال تعالى : « أنا عند ظنّ عبدي بي فليظنّ بي ما شاء »(٣) و المقصود من ذلك كلّه أن يحبّب الله إلى نفسه ، و لذلك أوحى الله إلى داود عليه السلام : أن حبّبني إلى عبادي ، فقال : بماذا ؟ فقال : بأن تذكّر لهم آلائي و نعمائي. فإذن غاية السعادة أن يموت العبد محبّاً لله ، و إنّما تحصل المحبّة بالمعرفة و بإخراج حبّ الدّنيا من القلب حتّى تصير الدّنيا كالسجن المانع من المحبوب .

﴿ بيان الدواء الذى به يستجاب حال الخوف ﴾

إعلم أنّ ما ذكرناه في دواء الصّبر و شرحناه في كتاب الصّبر و الشكر هو كاف في هذا الغرض لأنّ الصّبر لا يمكن إلّا بعد حصول الخوف و الرّجاء لأنّ أوّل مقامات الدّين اليقين الّذي هو عبارة عن قوّة الإيمان بالله و اليوم الآخر و الجنّة و النّار ، و هذا اليقين بالضّرورة يهيّج الخوف من النّار و الرّجاء للجنّة و الخوف و الرّجاء يقويان على الصبر ، فإنّ الجنّة قد حفّت بالمكاره فلا يصبر على تحمّلها إلّا بقوّة الرّجاء و النّار قد حفّت بالشهوات فلا يصبر على قمعها إلّا بقوّة الخوف ، و لذلك قال عليّ عليه السلام : « من اشتاق إلى الجنّة سلا عن الشّهوات ، و من أشفق من النّار رجع عن المحرّمات »(٤) ثمّ يؤدّي مقام الصبر المستفاد من

(١) ما عثرت عليه الا ما رواه الترمذى ج ١٣ ص ٢٧ من حديث أبى الدرداء عنه صلى الله عليه و آله قال : كان من دعاء داود عليه السلام و ذكر مثله بأدنى اختلاف .

(٢) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤١٦٧ من حديث جابر و قد تقدم .

(٣) أخرجه الحاكم ج ٤ ص ٢٤٠ من حديث واثلة بن الاسقع .

(٤) النهج أبواب الحكم تحت رقم ٣٠ . والكافى ج ٢ ص ٥٠ .

الخوف و الرّجاء إلى مقام المجاهدة و التجرّد لذكر الله و الفكر فيه على الدّوام و يؤدّي دوام الذّكر إلى الاُنس ، و دوام الفكر إلى كمال المعرفة و يؤدّي كمال المعرفة و الاُنس إلى المحبّة و يتبعها مقام الرّضا والتوكّل و سائر المقامات ، فهذا هو الترتيب في سلوك منازل الدّين ، فليس بعد أصل اليقين مقام سوى الخوف و الرّجاء ، و لا بعدهما مقام سوى الصّبر و به المجاهدة و التجرّد لله باطناً و ظاهراً و لا مقام بعد المجاهدة لمن فتحله الطريق إلّا الهداية والمعرفة ، ولا مقام بعدالمعرفة إلّا المحبّة و الاُنس و من ضرورة المحبّة الرّضا بفعل المحبوب و الثقّة بعنايته و هو التوكّل فإذن فيما ذكرنا في علاج الصبر كفاية ولكنّا نفرد الخوف بكلام جملي .

فنقول : الخوف يحصل بطريقين مختلفين أحدهما أعلى من الآخر ، و مثاله أنّ الصبيّ إذاكان في بيت فدخل عليه سبع أو حيّة ربّما كان لا يخاف و ربّما مدّ اليد إلى الحيّة ليأخذها و يلعب بها ، و لكن إذاكان معه أبوه و هو عاقل خاف من الحيّة و هرب منها فإذا نظر الصبيّ إلى أبيه و هو يرتعد فرائصه ويحتال في الهرب قام معه و غلب عليه الخوف و وافقه في الهرب فخوف الأب عن بصيرة و معرفة بصفة الحيّة و سمّها و خاصيّتها و سطوة السبع وبطشه و قلّة مبالاته ، و أمّا خوف الابن فانّما كان بمجرّد التقليدلأنّه يحسن الظنّ بأبيه ويعلم أنّه لا يخاف إلّا من سبب مخوف في نفسه فيعلم أنّ السبع مخوفٌ و لا يعرف وجهه ، فإذا عرفت هذا المثال فاعلم أنّ الخوف من الله تعالى على مقامين أحدهما الخوف من عذابه ، و الثاني الخوف منه في ذاته ، فأمّا الخوف منه فهو خوف العلماء و أرباب القلوب العارفين من صفاته ما يقتضي الهيبة و الخوف و الحذرالمطّلعين على سرّ قوله : « و يحذّركم الله نفسه » (١) ، و قوله : « اتّقوا الله حقّ تقاته » (٢) فأمّا الأوّل فهو خوف عموم الخلق و هو حاصل بأصل الإيمان بالجنّة و النّار و كونهما جزاءين على الطاعة و المعصية و ضعفه بسبب الغفلة و بسبب ضعف الإيمان و إنّما تزول الغفلة بالوعظ و التذكير و ملازمة الفكر في أهوال القيامة و أصناف العذاب في الآخرة و يزيدأيضاً

(١) آل عمران : ٢٩ . (٢) آل عمران : ١٠٢ .

بالنظر إلى الخائفين و مجالستهم و مشاهدة أحوالهم ، فإن فاتت المشاهدة فالسماع لا يخلو عن تأثير ، و أمّا الثاني و هو الأعلى أن يكون الله هو المخوف أعني أن يخاف البعد و الحجاب عنه و يرجو القرب منه كما قال ذوالنون : خوف النّار عند خوف الفراق كقطرة قطرت في بحر لجّي . وهذه خشية العلماء حيث قال تعالى : « إنّما يخشى الله من عباده العلماء »[١] و لعموم المؤمنين أيضاً حظّ من هذه الخشية ولكن هو بمجرّد التقليد يضاهي خوف الصبيّ من الحيّة تقليداً لأبيه و ذلك لا يستند إلى بصيرة فلا جرم يضعف و يزول عن قرب حتّى أنّ الصبيّ ربّما يرى المعزّم يقدم على أخذ الحيّة فينظر إليه و يغترّ به فيتجرء على أخذها تقليداً له كما احترز من أخذها تقليداً لأبيه ، و العقائد التقليديّة ضعيفة في الغالب إلّا إذا قويت بمشاهدة أسبابها المؤكّدة لها على الدّوام و بالمواظبة على مقتضاها في تكثير الطاعات و اجتناب المعاصي مدّة طويلة على الاستمرار ، فإذن من ارتقى إلى ذروة المعرفة وعرف الله خافه بالضرورة فلا يحتاج إلى علاج لجلب الخوف. و من قعد به القصور عن الارتقاع إلى يفاع الاستبصار فسبيله أن يعالج نفسه بسماع الأخبار و الآثار فيطالع أحوال الخائفين و أقوالهم و ينسب عقولهم و مناصبهم إلى مناصب الرّاجين المغرورين فلا يتمارى في أنّ الاقتداء بهم أولى لأنّهم الأولياء و العلماء و أمّا الآمنون فهم الفراعنة والجهّال و الأغبياء ، أمّا رسولنا صلّى الله عليه وآله وسلّم فهو سيّد الأوّلين و الآخرين أشدّ الناس خوفاً حتّى روي أنّ رجلاً من أهل الصفّة استشهد فقالت اُمّه : هنيئاً لك الجنّة هاجرت إلى رسول الله وقتلت في سبيل الله ، فقال صلّى الله عليه وآله وسلّم : وما يدريك لعلّه كان يتكلّم بما لا ينفعه ويمنع ما لا يضرّه »[٢] وفي حديث آخر أنّه دخل عليه السلام على بعض أصحابه و هو عليل فسمع امرأة تقول : هنيئاً لك الجنّة ، فقال صلّى الله عليه وآله وسلّم : من هذه المتألّية على الله تعالى فقال المريض : هي اُمّي يا رسول الله ، فقال : و ما يدريك لعلّ فلاناً كان يتكلّم بما لا يعنيه و يبخل بما لا يغنيه »[٣] وكيف لا

(١) فاطر : ٢٨ .
(٢) تقدم عن البيهقي في الشعب و غيره باختلاف في اللفظ في كتاب آفات اللسان .
(٣) تقدم أيضاً في آفات اللسان .

يخاف المؤمنون كلّهم وهو ﷺ يقول : « شيّبتني سورة هود وأخواتها سورة الواقعة و إذا الشمس كوّرت وعمّ يتسائلون » (١) فقال العلماء : لعلّ ذلك لما في سورة هود من الابعاد كقوله تعالى : «ألا بعداً لعاد قوم هود» «ألا بعداً لثمود » «ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود »(٢) مع علمه عليه السلام بأنّه لوشاء الله ماأشركوا إذ لوشاء الله لأتى كلّ نفس هديها وفي سورة الواقعة « ليس لوقعتها كاذبة خافضة رافعة » (٣) أي جفّ القلم بما هو كائن و تمّت السابقة حتّى نزلت الواقعة إمّا خافضة قوماً كانوا مرفوعين في الدّنيا ، و إمّا رافعة قوماً كانوا مخفوضين في الدّنيا ، وفي سورة التكوير أهوال القيامة وانكشاف الخاتمة وهو قوله : « إذا الجحيم سعّرت ✿ وإذا الجنّة اُزلفت ✿ علمت نفس ما أحضرت» (٤) و في عمّ يتسائلون « يوم ينظر المرء ماقدّمت يداه » (٥) وقوله « لا يتكلّمون إلّا من أذن له الرّحمن وقال صواباً » (٦) و القرآن من أوّله إلى آخره مخاوف لمن قرأه بتدبّر ولو لم يكن فيه إلّا قوله تعالى : « وإنّي لغفّار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثمّ اهتدى »(٧) لكان كافياً إذ علّق المغفرة على أربعة شروط يعجز العبد عن آحادها ، وأشدّ منه قوله تعالى : « فأمّا من تاب وآمن و عمل صالحاً فعسى أن يكون من المفلحين» (٨) و كقوله تعالى : «ليسأل الصادقين عن صدقهم »(٩) وقوله : « سنفرغ لكم أيّه الثقلان » (١٠) و قوله : « أفأمنوا مكر الله ـ الآية ـ »(١١) و قوله : « و كذلك أخذ ربّك إذا أخذ القرى و هي ظالمة إنّ أخذه أليم شديد» (١٢) وقوله : « يوم نحشر المتّقين إلى الرّحمن وفداً ـ الآيتين »(١٣) وقوله : « وإن منكم إلّا واردها ـ

(١) أخرجه الترمذى وحسنه والحاكم والبغوى فى المصابيح ج٢ ص١٨٢ وقد تقدم .
(٢) السورة : ٦٠ و ٦٨ و ٩٥ .
(٣) السورة : ٢ و ٣ . (٤) السورة : ١٠ الى ١٢ .
(٥) و (٦) السورة : ٤١ و ٣٨ . (٧) طه : ٨٢ .
(٨) القصص : ٦٧ . (٩) الاحزاب : ٨ .
(١٠) الرحمن : ٣١ . (١١) الاعراف : ٩٩ .
(١٢) هود : ١٠٢ . (١٣) مريم : ٨٥ و ٨٦ .

الآية » (١) وقوله تعالى : « اعملوا ما شئتم » (٢) وقوله : «من كان يريدحرث الآخرة نزدله في حرثه ـ الآية ـ »(٣) وقوله : «فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره ـ الآيتين ـ »(٤) و قوله تعالى : « و قدمنا إلى ما عملوا من عمل ـ الآية ـ » (٥) و كذلك قوله تعالى : «والعصر إنّ الإنسان لفي خسر إلّا الّذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحقّ و تواصوا بالصبر » (٦) فهذه أربعة شروط للخلاص من الخسران و إنّما كان خوف الأنبياء مع ما فاض عليهم من النعم لأنّهم لم يأمنوا مكر الله تعالى : « فلا يأمن مكر الله إلّا القوم الخاسرون » (٧) حتّى روي أنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله وجبرئيل عليه السلام بكيا من خوف الله عزّ وجلّ فأوحى الله تعالى إليهما لم تبكيان و قد أمنتكما ، فقالا : ومن يأمن مكرك»(٨) و كأنّهما إذ علما أنّ الله تعالى هو علّام الغيوب وأنّه لا وقوف لهما على غاية الأمور لم يأمنا أن يكون قوله : « قد أمنتكما » ابتلاء لهما وامتحاناً ومكراً بهما حتّى أن سكن خوفهما ظهر أنّهما قد أمنا المكر وما وفيا بقولهما كما أنّ إبراهيم عليه السلام لما وضع في المنجنيق قال : حسبي الله وكانت هذه من الدّعاوي العظام فامتحن وعورض بجبرئيل في الهواء حتّى قال: ألك حاجة ؟ قال : أمّا إليك فلا ، فكان ذلك وفاء بمقتضى قوله : حسبي الله ، فأخبر الله تعالى عنه وقال : « و إبراهيم الّذي وفّى»(٩) أي بموجب قوله : «حسبي الله» و بمثل هذا أخبر عن موسى صلوات الله عليه حيث قال : « إنّنا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى » فقال تعالى : « لا تخافا إنّني معكما أسمع وأرى »(١٠) ومع هذا لما اُلقي السحرة سحرهم أوجس موسى في نفسه خيفة إذ لم يأمن مكر الله و التباس الأمر عليه حتّى جدّد عليه الأمن وقيل له : « لا تخف إنّك أنت

---

(١) مريم : ٧١ .
(٢) فصلت : ٤٠ .
(٣) الشورى : ٢٠
(٤) الزلزلة : ٧ .
(٥) الفرقان : ٢٣ .
(٦) العصر : ٢ و ٣ و ٤ .
(٧) الاعراف : ٩٧ .
(٨) قال العراقي : أخرجه ابن شاهين في شرح السنة من حديث عمر و رويناه في مجلس من أمالي أبي سعيد النقاش بسند ضعيف .
(٩) النجم : ٣٧ .
(١٠) طه : ٤٩ .

الأعلى » و ما لأحد من البشر الوقوف على كنه صفات الله ومن عرف حقيقة المعرفة بقصور معرفته عن الإحاطة بكنه الأمور عظم خوفه لا محالة ولذلك قال عيسى عليه السلام لما قيل : « أأنت قلت للناس اتّخذوني واُمّي إلهين من دون الله » [1] قال : « إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك » وقال : « إن تعذّبهم فإنّهم عبادك وإن تغفر لهم - الآية - » [2] فوّض الأمر إلى المشيّة وأخرج نفسه بالكلّية من البين لعلمه بأنّه ليس إليه من الأمر شيء، وأنّ الأمور مرتبطة بالمشيّة ارتباطاً يخرج عن حدّ المعقولات و المألوفات فلا يمكن الحكم عليها بقياس و حدس وحسبان فضلاً عن التحقيق و الاستيقان وهذا هو الّذي قطع قلوب العارفين وليس إلّا التسليم و استقراء خفيّ السابقة من جليّ الأسباب الظاهرة على القلب و الجوارح فمن يسّر له أسباب الشرّ وحيل بينه و بين أسباب الخير وأحكمت علاقته مع الدّنيا فكأنّه كشف له على التحقيق سرّ السابقة الّتي سبقت له بالشقاوة إذ كلّ ميسّر لما خلق له و إن كانت الخيرات كلّها ميسّرة والقلب بالكلّية عن الدّنيا منقطعاً وبظاهره و باطنه على الله مقبلاً كان هذا يقتضي تخفيف الخوف لو كان الدّوام على ذلك موثوقاً به ، ولكن خطر الخاتمة وعسر الثبات يزيد نيران الخوف اشتعالاً و لا يمكنها من الانطفاء و كيف يؤمن تغيّر الحال و قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرّحمن وإنّه أشدّ تقلّباً من القدر في غليانها وقد قال مقلّب القلوب : « إنّ عذاب ربّهم غير مأمون » [3] و أجهل الناس من أمنه وهو يناديه بالتحذير من الأمن و لولا أنّ الله لطف بعباده العارفين إذ روّح قلوبهم بروح الرّجاء لاحترقت قلوبهم من نار الخوف ، فأسباب الرّجاء رحمة الله لخواصّ الله وأسباب الغفلة رحمته على عوام الخلق من وجه إذ لو انكشف الغطاء لزهقت النفوس وتقطّعت القلوب .

وروي في أخبار الأنبياء أنّ نبيّاً شكا إلى الله تعالى الجوع و القمل و العرى سنين و كان لباسه الصوف ، فأوحى الله عزّ وجلّ إليه : عبدي أما رضيت أن عصمت قلبك

(١) المائدة : ١١٦ . (٢) المائدة : ١١٨ .
(٣) المعارج : ٢٨ .

أن تكفر بي حتّى تسألني الدّنيا ؟ فأخذ التراب فوضعه على رأسه وقال : بلى قد رضيت يا ربّ فاعصمني من الكفر . فإذن إذا كان خوف العارفين مع رسوخ أقدامهم و قوّة إيمانهم من سوء الخاتمة فكيف لا يخافه الضعفاء ، ولسوء الخاتمة أسباب تتقدّم على الموت مثل البدعة و النفاق و الكبر وجملة من الصفات المذمومة ولذلك اشتدّ خوف الصحابة من النفاق و ماعنوا به النفاق الّذي هو ضدّ أصل الإيمان بل المراد به ما يجتمع مع أصل الإيمان فيكون مسلماً منافقاً و له علامات كثيرة . قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « أربع من كنّ فيه منافق خالص وإن صام و صلّى و زعم أنّه مسلم ، و إن كانت فيه خصلة منهنّ ففيه شعبة من النفاق حتّى يدعها : إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أئتمن خان ، وإذا خاصم فجر » وفي لفظ آخر « وإذا عاهد غدر » (١) وقد فسّر الصحابة و التابعون النفاق بتفاسير لا يخلو عن شيء منه إلّا صدّيق إذ قيل : إنّ من النفاق اختلاف السرّ و العلانية ، و اختلاف اللّسان و القلب ، و المدخل و المخرج ، و من الّذي يخلو عن هذه المعاني ، بل صارت هذه الأُمور مألوفة بين الناس معتادة و نسي كونها منكراً بالكلّيّة ، بل جرى ذلك على قرب عهد بزمان النبوّة فكيف الظنّ بزماننا حتّى قال حذيفة(٢): أن كان الرّجل ليتكلّم بالكلمة على عهد رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فيصير بها منافقاً إنّي لأسمعها من أحدكم في اليوم عشر مرّات و كان أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يقولون : إنّكم لتعملون أعمالاً هي أدقّ في أعينكم من الشعر كنّا نعدّها على عهد رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم من الكبائر . وقال بعضهم : علامة النفاق أن تكره من الناس ما تأتي مثله و أن تحبّ على شيء من الجور و أن تبغض على شيء من الحقّ(٣)، وقيل : من النفاق أنّه إذا مدح بشيء ليس فيه أعجبه ذلك ، وأشدّ من ذلك ما روي أنّ نفراً قعدوا على باب حذيفة ينتظرونه فكانوا يتكلّمون في شيء من شأنه

---

(١) أخرجه البخارى ج ١ ص ١٦ باب علامة المنافق من حديث عبدالله بن عمر . باللفظ الثانى .

(٢) أخرجه أحمد من حديث حذيفة ج ٥ ص ٣٨٤ .

(٣) فى بعض النسخ [وأن تحث على شيء من الخير ولا تفعله] .

فلمّا خرج عليهم سكتوا حياء منه فقال : تكلّموا فيما كنتم تقولون فسكتوا فقال : كنّا نعدّ هذا نفاقاً على عهد رسول الله ﷺ . وهذا حذيفة كان قد خصّ بعلم المنافقين وأسباب النفاق[1] وكان يقول : إنّه يأتي على القلب ساعة يمتلي بالإيمان حتّى لا يكون للنفاق فيه مغرز إبرة و يأتي عليه ساعة يمتلي بالنفاق حتّى لا يكون للإيمان فيه مغرز إبرة . فقد عرفت بهذا أنّ خوف العارفين من سوء الخاتمة و أنّ سببه اُمور مقدّمة منها البدع و منها المعاصي ومنها النفاق ومتى يخلو العبد عن شيء من جملة ذلك وإن ظنّ أنّه قد خلا عنه فهو النفاق إذ قيل: من آمن النفاق فهو منافق . وقال بعضهم لبعض العارفين: إنّي أخاف على نفسي النفاق فقال : لو كنت منافقاً لما خفت النفاق ، فلا يزال العارف بين الالتفات إلى السابقة والخاتمة خائفاً منهما ولذلك قال ﷺ : « العبد المؤمن بين مخافتين بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه و بين أجل قد بقي لا يدري ما الله قاض فيه فوالّذي نفسي بيده ما بعد الموت من مستعتب ولا بعد الدّنيا من دار إلّا الجنّة أو النّار »[2].

✿(بيان معنى سوء الخاتمة)✿

فإن قلت : إنّ أكثر هؤلاء يرجع خوفهم إلى سوء الخاتمة فما معنى سوء الخاتمة ؟ فاعلم أنّ سوء الخاتمة على رتبتين إحديهما أعظم من الاُخرى فأمّا الرّتبة العظيمة الهائلة أن يغلب على القلب عند سكرات الموت وظهور أهواله إمّا الشكّ وإمّا الجحود فتقبض الرّوح على حالة غلبة الجحود أو الشكّ فيكون ما غلب على القلب من عقدة الجحود حجاباً بينه وبين الله أبداً وذلك يقتضي البعد الدّائم والعذاب المخلّد ، و الثانية وهي دونها أن يغلب على قلبه عند الموت حبّ أمر من اُمور الدّنيا وشهوة من شهواتها فيتمثّل ذلك في قلبه ويستغرقه حتّى لا يبقى في تلك الحالة متّسع لغيره فيتّفق قبض روحه في تلك الحال فيكون استغراق قلبه به منكساً رأسه إلى الدّنيا وصارفاً وجهه إليها ، ومهما انصرف الوجه عن الله تعالى حصل الحجاب ، ومهما حصل

(١) راجع المجلد الاول ص ١٦٢ ، و مسند أحمد ج ٥ ص ٣٨٦ الى ٣٩٠ .
(٢) أخرجه البيهقى فى الشعب مرسلا وقد تقدم فى ذم الدنيا .

الحجاب نزل العذاب إذ نارالله الموقدة لا تأخذ إلّا المحجوبين عنه فأمّا المؤمن السليم قلبه عن حبّ الدّنيا المصروف همّه إلى الله تعالى تقول له النّار : جزيا مؤمن فإنّ نورك أطفأ لهبي فمهما اتّفق قبض الرّوح في حالة غلبة حبّ الدّنيا فالأمر مخطرٌ لأنّ المرء يموت على ما عاش عليه ولا يمكن اكتساب صفة اُخرى للقلب بعد الموت تضادّ الصفة الغالبة عليه إذ لا تصرّف في القلوب إلّا بأعمال الجوارح و قد بطلت الجوارح بالموت فبطلت الأعمال فلا مطمع في عمل و لا مطمع في الرّجوع إلى الدّنيا ليتدارك و عند ذلك تعظم الحسرة إلّا أنّ أصل الإيمان وحبّ الله تعالى إذا كان قد رسخ في القلب بمدّة طويلة وتأكّد ذلك بالأعمال الصالحة فإنّه يمحو عن القلب هذه الحالة الّتي عرضت له عند الموت ، فإن كان إيمانه في القوّة إلى حدّ مثقال أخرجه من النّار في زمان أقرب و إن كان أقلّ من ذلك طال مكثه في النّار و لو لم يكن إلّا مثقال حبّة فلابدّ وأن يخرج من النّار ولو بعد آلاف سنين .

فإن قلت : فما ذكرته يقتضي أن يسرع النّار إليه عقيب موته فما باله يؤخّر إلى يوم القيامة ويمهل طول هذه المدّة ؟ فاعلم أنّ من أنكر عذاب القبر فهو مبتدع محجوب عن نور الإيمان و نور القرآن بل الصحيح عند ذوي الأبصار ما صحّت به الأخبار وهو «أنّ القبر إمّا حفرة من حفر النيران أو روضة من رياض الجنّة » (١) و أنّه « قد يفتح إلى قبر المعذّب سبعون باباً من الجحيم » كما وردت به الأخبار (٢) فلا يفارقه روحه إلّا وقد نزل به البلاء إن كان قد شقي بسوء الخاتمة و إنّما تختلف أصناف العذاب باختلاف الأوقات فيكون سؤال منكر و نكير عند الوضع في القبر و التعذيب بعده ، ثمّ المناقشة في الحساب و الافتضاح على ملأ الأشهاد في القيامة ، ثمّ بعد ذلك خطر الصراط وهول الزّبانية إلى آخر ما وردت به الأخبار (٣) فلا

(١) أخرجه الترمذي والبغوي في المصابيح ج٢ص١٨٢ . وفي الكافي ج ٣ ص٢٤٢ من حديث أبي عبدالله عليه السلام قال : «ان للقبر كلاماً في كل يوم يقول : أنا بيت الغربة ، أنا بيت الوحشة ، أنا بيت الدود ، أنا القبر ، أنا روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار» .

(٢) راجع بحار الانوار ج ٣ باب أحوال المجرمين والمتقين في البرزخ .

(٣) تقدم جلها في كتاب العقائد و راجع بحار الانوار كتاب المعاد .

يزال الشقي متردّداً في جميع أحواله بين أصناف العذاب و هو في جملة الأحوال معذّبٌ إلّا أن يتغمّده الله برحمته ، و لا تظننّ أنّ محلّ الإيمان يأكله التراب بل التراب يأكل جميع الجوارح ويبدّدها إلى أن يبلغ الكتاب أجله فيجتمع الأجزاء المتفرّقة و يعاد إليها الرّوح الّتي هي محلّ الإيمان وقد كانت من وقت الموت إلى الإعادة إمّا في حواصل طير خضر معلّقة تحت العرش إن كانت سعيدة وإمّا على حالة تضادّ هذه الحالة إن كانت ـ والعياذ بالله ـ شقيّة .

فإن قلت : فما السبب الّذي يفضي إلى سوء الخاتمة ؟ فاعلم أنّ أسباب هذه الأمور لا يمكن إحصاؤها على التفصيل ولكن يمكن الإشارة إلى مجامعها أمّا الختم على الشكّ والجحود فينحصر سببه في فنّين أحدهما يتصوّر مع تمام الورع والزّهد و تمام الصلاح في الأعمال كالمبتدع الزّاهد فإنّ عاقبته مخطرة جدّاً و إن كانت أعماله صالحة و لست أعني مذهباً و أقول : إنّه بدعة فإنّ بيان ذلك يطول القول فيه ، بل أعني بالبدعة أن يعتقد الرّجل في ذات الله وصفاته وأفعاله خلاف الحقّ فيعتقد على خلاف ما هو عليه ، إمّا برأيه ومعقوله ونظره الّذي به يجادل الخصوم و عليه يعوّل وبه يغترّ ، وإمّا أخذاً بالتقليد ممّن هذا حاله فإذا قرب الموت و ظهرت له ناصية ملك الموت و اضطرب القلب بما فيه فربّما ينكشف له في حال سكرات الموت بطلان ما اعتقده جهلاً ، إذ حال الموت حال كشف الغطاء و مبادي سكراته منه فقد ينكشف به بعض الاُمور فمهما بطل عنده ما كان اعتقده وقد كان قاطعاً به متيقّناً له عند نفسه لم يظنّ بنفسه أنّه أخطأ في هذا الاعتقاد خاصّة لا لتجائه فيه إلى رأيه الغائل وعقله الناقص ، بل ظنّ أنّ كلّ ما اعتقده لا أصل له إذ لم يكن عنده فرق بين إيمانه بالله ورسوله وسائر اعتقاداته الصحيحة وبين اعتقاده الفاسد فيكون انكشاف بعض اعتقاداته عن الجهل سبباً لبطلان بقيّة اعتقاداته أو لشكّه فيها فإن اتّفق زهوق روحه في هذه الخطرة قبل أن ينيب ويعود إلى أصل الإيمان فقد ختم له بالسوء و خرجت روحه على الشرك و العياذ بالله منه ، فهؤلاء هم المرادون بقوله تعالى :

« وبدالهم من الله مالم يكونوا يحتسبون »(١) وبقوله تعالى : « هل ننبّئكم بالأخسرين أعمالاً ۞ الّذين ضلّ سعيهم في الحياة الدّنيا وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً »(٢).

وكما أنّه قد ينكشف في النوم ما سيكون في المستقبل و ذلك بسبب خفّة اشغال الدّنيا عن القلب فكذلك ينكشف في سكرات الموت بعض الأمور إذ شواغل الدّنيا و شهوات البدن هي المانعة للقلب من أن ينظر إلى الملكوت فيطالع ما في اللّوح المحفوظ لتنكشف له الأُمور على ما هي عليه فيكون مثل هذه الحالة سبباً للكشف ويكون الكشف سبب الشكّ في بقيّة الاعتقادات ، و كلّ من اعتقد في الله تعالى وفي صفاته وأفعاله شيئاً على خلاف ما هو به إمّا تقليداً وإمّا نظراً بالرأي والمعقول فهو في هذا الخطر ، و الزّهد و الصلاح لا يكفي لدفع هذا الخطر بل لا ينجي منه إلّا الاعتقاد الحقّ ، والبله بمعزل عن هذا الخطر أعني الّذين آمنوا بالله ورسوله واليوم الآخر إيماناً مجملاً راسخاً كالأعراب والسوادية وسائر العوام الّذين لم يخوضوا في البحث و النظر و لم يشرعوا في الكلام استقلالاً و لا أصغوا إلى أصناف المتكلّمين في تقليد أقاويلهم المختلفة ولذلك قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « أكثر أهل الجنّة البله »(٣) و لذلك منع السلف من البحث و النظر و الخوض في الكلام و التفتيش عن هذه الأُمور و أمروا الخلق أن يقتصروا على أن يؤمنوا بما أنزل الله جميعاً وبكلّ ما جاء من الظواهر مع اعتقاد نفي التشبيه ومنعوهم عن الخوض في التأويل لأنّ الخطر في البحث عن الصفات عظيم وعقباته كؤودة ومسالكه وعرة ، والعقول عن درك جلال الله قاصرة ، وهداية الله بنور اليقين عن القلوب بما جبلت عليه من حبّ الدّنيا محجوبة ، و ماذكره الباحثون ببضاعة عقولهم مضطرب ومتعارض و القلوب لما أُلقي إليها من مبدء النشوء آلفة وبه متعلّقة والتعصّبات الثائرة بين الخلق مسامير مؤكّدة للعقايد الموروثة أو المأخوذة بحسن الظنّ من المعلّمين في أوّل الأمر ، ثمّ الطباع بحبّ الدّنيا مشعوفة و عليها

(١) الزمر : ٤٧ . (٢) الكهف : ١٠٣ و ١٠٤ .

(٣) أخرجه ابن شاهين في الافراد و ابن عساكر عن جابر بسند ضعيف هكذا « دخلت الجنة فاذا أكثر أهلها البله » . و رواه البزار و قد تقدم .

مقبلة وشهوات الدّنيا بمخنقها آخذة و عن تمام الفكر صارفة فإذا فتح باب الكلام في الله وصفاته بالرّأي والمعقول مع تفاوت في قرائحهم و اختلافهم في طباعهم وحرص كلّ جاهل منهم على أن يدّعي الكمال و الإحاطة بكنه الحقّ انطلقت ألسنتهم بما يقع لكلّ واحد منهم وتعلّق ذلك بقلوب المصغين إليهم وتأكّد ذلك بطول الإلف فيهم و انسدّ بالكلّيّة طريق الخلاص عليهم فكانت سلامة الخلق في أن يشتغلوا بالأعمال الصالحة ولا يتعرّضوا لما هو خارج عن حدّ طاقتهم ولكن الآن قد استرخى العنان وفشا الهذيان ونزل كلّ جاهل على ما وافق طبعه بظنّ وحسبان وهو يعتقد أنّ ذلك علم واستيقان و أنّه صفو الإيمان ويظنّ أنّه ما قنع به [1] من حدس و تخمين علم اليقين وعين اليقين وسيعلمون نبأه بعد حين وينبغي أن ينشد في هؤلاء عند كشف الغطاء :

أحسنت ظنّك بالأيّام إذ حسنت ✿ ولم تخف سوء ما يأتي به القدر

و سالمتك اللّيالي فاغتررت بها ✿ و عند صفو اللّيالي يحدث الكدر

و اعلم يقيناً أنّ كلّ من فارق الإيمان الساذج بالله ورسله و كتبه و خاض في البحث فقد تعرّض لهذا الخطر ومثاله مثال من انكسرت سفينته وهو في ملتطم الأمواج يرميه موج إلى موج فربما يتّفق أن يلقيه إلى الساحل وذلك بعيد و الهلاك أغلب عليه و كلّ نازل على عقيدة تلقّفها من الباحثين ببضاعة عقولهم إمّا مع الأدلّة الّتي حرّروها في تعصّباتهم أو دون الأدلّة فإن كان شاكّاً فيه فهو فاسد الدّين و إن كان واثقاً به فهو آمن من مكر الله مغترّ بعقله الناقص و كلّ خائض في البحث فلا ينفكّ عن هاتين الحالتين إلّا إذا جاوز حدّ العقل إلى نور المكاشفة الّذي يشرق في عالم الولاية والنبوّة وذلك هو الكبريت الأحمر وأنّى يتيسّر وإنّما يسلم عن هذا الخطر البله من العوام والّذين شغلهم خوف النار بطاعة الله فلم يخوضوا في هذا الفضول فهذا أحد الأسباب المخطرة في سوء الخاتمة .

و أمّا السبب الثاني فهو ضعف الإيمان في الأصل ثمّ استيلاء حبّ الدّنيا على القلب ، ومهما ضعف الإيمان ضعف حبّ الله تعالى و قوي حبّ الدّنيا فيصير

---

(١) فى الاحياء « ما وقع به » .

بحيث لا يبقى في القلب موضع لحبّ الله إلّا من حيث حديث النفس لا يظهر له أثر في مخالفة النفس و العدول عن طريق الشيطان فيورث ذلك الانهماك في اتّباع الشهوات حتّى يظلم القلب ويقسو ويسودّ ويتراكم ظلمة الذّنوب على القلب و لا يزال يطفىء ما فيه من نور الإيمان على ضعفه حتّى يصير طبعاً وريناً فإذا جاءت سكرات الموت ازداد ذلك الحبّ أعني حبّ الله ضعفاً لما يبدو من استشعار فراق الدّنيا وهي المحبوب الغالب على القلب فيتألّم القلب باستشعار فراق الدّنيا و يرى ذلك من الله فيختلج ضميره بإنكار ما قدّر الله من الموت و كراهة ذلك من حيث إنّه من الله فيخشى أن يثور في باطنه بغض الله بدل الحبّ كما أنّ الّذي يحبّ ولده حبّاً ضعيفاً إذا أخذ ولده أمواله الّتي هي أحبّ إليه من ولده وأحرقها انقلب ذلك الحبّ الضعيف بغضاً فإن اتّفق زهوق روحه في تلك اللّحظة الّتي خطرت فيها هذه الخطرة فقد ختم له بالسوء و هلك هلاكاً مؤبّداً ، و السبب الّذي يفضي إلى مثل هذه الخاتمة هو غلبة حبّ الدّنيا والرّكون إليها والفرح بأسبابها مع ضعف الإيمان الموجب لضعف حبّ الله ، فمن وجد في قلبه حبّ الله أغلب من حبّ الدّنيا و إن كان يحبّ الدّنيا أيضاً فهو أبعد عن هذا الخطر و حبّ الدّنيا رأس كلّ خطيئة و هو الدّاء العضال و قد عمّ أصناف الخلق وذلك كلّه لقلّة المعرفة بالله تعالى إذ لا يحبّه إلّا من عرفه ولهذا قال تعالى : «قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم و أزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحبّ إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربّصوا حتّى يأتي الله بأمره»(١) فإذن من فارقته روحه في حال خطرة الانكار على الله تعالى بباله وظهور بغض فعل الله تعالى بقلبه في تفريقه بينه و بين أهله وماله و سائر محابّه فيكون موته قدوماً على ما أبغضه وفراقاً لما أحبّه فيقدم على الله تعالى، قدوم العبد المبغض الآبق إذا قدم به على مولاه قهراً فلا يخفى مايستحقّه من الخزي و النكال وأمّا الّذي يتوفّى على الحبّ فإنّه يقدم على الله تعالى قدوم العبد المحسن المشتاق إلى مولاه الّذي يتحمّل مشاقّ الأعمال ووعثاء الأسفار طمعاً في لقائه فلا يخفى

(١) التوبة : ٢٤ .

ما يلقاه من الفرح و السرور بمجرّد القدوم فضلاً عمّا يستحقّه من لطائف الإكرام و بدائع الإنعام ، و أمّا الخاتمة الثانية الّتي هي دون الأُولى وليست مقتضية للخلود في النّار فلها أيضاً سببان أحدهما كثرة المعاصي و إن قوي الايمان و الآخر ضعف الإيمان و إن قلّت المعاصي وذلك لأنّ مقارفة المعاصي سببها غلبة الشهوات ورسوخها في القلب بكثرة الإلف و العادة وجميع ما ألفه الإنسان في عمره يعود ذكره إلى قلبه عند موته فإن كان ميله الأكثر إلى الطاعات كان أكثر ما يحضره طاعة الله و إن كان ميله الأكثر إلى المعاصي غلب ذكرها على قلبه عند الموت فربّما يقبض روحه عند غلبة شهوة من شهوات الدّنيا و معصية من المعاصي فيتقيّد بها قلبه ويصير محجوباً عن الله تعالى، فالّذي لا يقارف الذّنب إلّا الفينة بعد الفينة فهو أبعد عن هذا الخطر و الّذي لم يقارف ذنباً أصلاً فهو بعيد جدّاً عن هذا الخطر، والّذي غلبت عليه المعاصي و كانت أكثر من طاعاته وقلبه بها أروح منه بالطاعة فهذا الخطر عظيم في حقّه جدّاً و يعرف هذا بمثال و هو أنّه لا يخفى عليك أنّ الإنسان يرى في منامه جملة من الأحوال الّتي عهدها طول عمره حتّى أنّه لا يرى إلّا ما يماثل مشاهداته في اليقظة وحتّى أنّ المراهق الّذي يحتلم لا يرى صورة الوقاع إذا لم يكن قد واقع في اليقظة ولو بقي كذلك مدّة لما رأى عند الاحتلام صورة الوقاع ، ثمّ لا يخفى أنّ الّذي قضى عمره في التفقّه يرى من الأحوال المتعلّقة بالعلم والعلماء أكثر ممّا يراه التجّار الّذي قضى عمره في التجارة و التجّار يرى من الأحوال المتعلّقة بأسباب التجارة أكثر ممّا يراه الطبيب و الفقيه لأنّه إنّما يظهر في حالة النوم ما حصل له مناسبة مع القلب بطول الإلف أولسبب آخر من الأسباب والموت شبيه النوم ولكنّه فوقه ولكن سكرات الموت و ما يتقدّمه من الغشية قريب من النوم فيقتضي ذلك تذكّر المألوفات و عودها إلى القلب وأحد الأسباب المرجّحة لحصول ذكره في القلب طول الإلف وطول الإلف بالمعاصي والطاعات أيضاً مرجّح ولذلك يخالف أيضاً منامات الصالحين منامات الفسّاق فيكون غلبة الإلف سبباً لأن يتمثّل صورة فاحشة في قلبه وتميل إليها نفسه فربما يقبض عليها روحه فيكون ذلك سبب سوء خاتمته وإن كان أصل الإيمان باقياً بحيث يرجى

له الخلاص منها و كما أنّ ما يخطر في اليقظة إنّما يخطر بسبب خاصّ يعلمه الله تعالى فكذلك آحاد المنامات لها أسباب عندالله يعرف بعضها ولايعرف بعضها كماأنّا نعلم أنّ الخاطر ينقل من الشيء إلى ما يناسبه إمّا بالمشابهة و إمّا بالمضادّة ، و إمّا بالمقارنة بأن يكون قد ورد على الحسّ معه ، أمّا المشابهة فبأن ينظر إلى جميل فيتذكّر جميلاً آخر ، وأمّا بالمضادّة فبأن ينظر إلى جميل فيتذكّر قبيحاً و يتأمّل في شدّة التفاوت بينهما ، وأمّا بالمقارنة فبأن ينظر إلى فرس قد رآه من قبل مع إنسان فيتذكّر ذلك الإنسان وقد ينتقل الخاطر من شيء إلى شيء ولايدري وجه مناسبته له وإنّما يكون ذلك بواسطة أو واسطتين مثل أن ينتقل من شيء إلى ثان ومنه إلى ثالث ، ثمّ ينسى الثاني ولا يكون بين الثالث و الأوّل مناسبة ولكن يكون بينه و بين الثاني مناسبة و بين الثاني و الأوّل مناسبة و كذلك لانتقالات الخواطر في المنام أسباب من هذا الجنس و كذا عند سكرات الموت، ومن أراد أن يكفّ خاطره عن الانتقال إلى المعاصي و الشهوات فلاطريق له إلّا المجاهدة طول العمر في فطام نفسه عنها و في قمع الشهوات من القلب ، فهذا هو القدر الّذي يدخل تحت الاختيار و يكون طول المواظبة على الخير و تخلية النفس عن الشرّ عدّة و ذخيرة لحالة سكرات الموت فإنّه يموت المرء على ما عاش عليه و يحشر على ما مات عليه ، ولذلك نقل عن بقّال أنّه كان يلقّن عند الموت كلمتي الشهادة و هو يقول : خمسة ستّة أربعة . و كان مشغول النفس بالحساب الّذي طال فيه إلفه له قبل الموت ، وقال بعض العارفين من السلف : إنّ العرش جوهرة يتلألأ نوراً فلا يكون العبد على حال إلّا انطبع مثاله في العرش على الصورة الّتي كان عليها فإذا كان في سكرات الموت كشفت له صورته من العرش فربّما يرى نفسه على صورة معصية و كذلك يكشف له يوم القيامة فيرى أحوال نفسه فيأخذه من الحياء والخوف ما يجلّ عن الوصف . و ما ذكره صحيح و سبب الرؤيا الصادقة قريب من ذلك فإنّ النائم يدرك ما سيكون في المستقبل من مطالعة اللّوح المحفوظ و هو جزء من أجزاء النبوّة فإذن رجع سوء الخاتمة إلى أحوال القلب واختلاج الخواطر ومقلّب القلوب هو الله و الاتفاقات المقتضية لسوء الخواطر غير

داخلة تحت الاختيار دخولاً كلياً و إن كان لطول الإلف فيه تأثير ، فلهذا عظم خوف العارفين من سوء الخاتمة لأنه لو أراد الإنسان أن لا يرى في المنام إلا أحوال الصالحين وأحوال الطاعات والعبادات عسر عليه ذلك و إن كان كثرة الصلاح و المواظبة عليه مما يؤثر فيه ولكن اضطرابات الخيال لا تدخل بالكلية تحت الضبط و إن كان الغالب مناسبة ما يظهر في النوم لما غلب في اليقظة حتى سمعت الشيخ أبا علي الفارمذي يصف لي وجوب حسن أدب المريد لشيخه و أن لا يكون في قلبه إنكار لكل ما يقوله ولا في لسانه مجادلة عليه فقال : حكيت لشيخي أبي القاسم الكرماني مناماً لي وقلت : رأيتك أنك قلت لي كذا ، فقلت لم ذلك ؟ قال : فهجرني شهراً ولم يكلمني وقال : لولا أنه كان في باطنك تجويز المطالبة و إنكار ما أقوله لك لما جرى ذلك على لسانك في المنام و هو كما قال : إذ قل ما يرى الإنسان في منامه خلاف ما يغلب في اليقظة على قلبه فهذا هو القدر الذي يسمح بذكره في علم المعاملة من أسرار أمر الخاتمة و ما وراء ذلك فهو داخل في علم المكاشفة ، و قد ظهر لك بهذا أن الأمن من سوء الخاتمة بأن ترى الأشياء كما هي عليه من غير جهل وتزجي جميع العمر في طاعة الله من غير معصية ، فإن كنت تعلم أن ذلك محال أو عسير فلابد و أن يغلب عليك من الخوف ما غلب على العارفين حتى يطول بسببه بكاؤك ونياحتك ويدوم حزنك وقلقك كما سنحكيه من أحوال الأنبياء و الأولياء و السلف الصالحين ليكون ذلك أحد الأسباب المهيجة لنار الخوف من قلبك ، و قد عرفت بهذا أن أعمال المرء كلها ضائعة إن لم يسلم في النفس الأخير الذي عليه خروج الروح و أن سلامته مع اضطراب أمواج الخواطر مشكل جداً ، ولذلك كان مطرف بن عبد الله يقول : إني لا أعجب ممن هلك كيف هلك ولكني أعجب ممن نجا كيف نجا . ولذلك قال حامد اللفاف : إذا صعدت الملائكة بروح المؤمن و قد مات على الخير و الإسلام تعجبت الملائكة منه وقالوا : كيف نجا هذا من دنيا ، فسد فيها خيارنا ، وبالجملة من وقعت سفينته في لجة البحر وهجمت عليه الرياح العاصفة و اضطربت الأمواج كانت النجاة في حقه أبعد من الهلاك ، و قلب المؤمن أشد اضطراباً من السفينة وأمواج الخواطر أعظم التطاماً

من أمواج البحر ، و إنّما المخوف عند الموت خاطر سوء يخطر فقط وهو الّذي قال ﷺ : « إنّ الرّجل ليعمل بعمل أهل الجنّة خمسين سنة حتّى لايبقى بينه و بين الجنّة إلّا فواق ناقة فيختم له بما سبق به الكتاب »(١) ولا يتّسع فواق ناقة لأعمال توجب الشقاوة بل هي الخواطر الّتي تضطرب وتخطر خطور البرق الخاطف ، وقال سهل : رأيت كأنّي دخلت الجنّة فرأيت ثلاثمائة نبيّ فسألتهم ما أخوف ما كنتم تخافون في الدّنيا؟ قالوا : سوء الخاتمة ولأجل هذا الخطر العظيم كانت الشهادة مغبوطاً عليها وكان موت الفجأة مكروهاً أمّا الموت فجأة فلأنّه ربّما يتّفق عند غلبة خاطر سوء و استيلائه على القلب والقلب لايخلو عن أمثالها إلى أن يدفع بالكراهة أو بنور المعرفة وأمّا الشهادة فلأنّها عبارة عن قبض الرّوح في حالة لم يبق في القلب سوى حبّ الله وخرج حبّ الدّنيا و الأهل والمال و الولد و جميع الشهوات عن القلب، إذ لا يهجم على صفّ القتال موطّناً نفسه على الموت إلّا حبّاً لله و طالباً لمرضاته ، و بايع دنياه بآخرته ، وراضياً بالبيع الّذي بايعه الله به إذ قال تعالى : «إنّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنّة »(٢) و البايع راغب عن المبيع لامحالة و مخرج حبّه من القلب ، ومجرّد حبّ العوض المطلوب في قلبه ، ومثل هذه الحالة قد يغلب في بعض الأحوال ولكن لايتّفق زهوق الرّوح فيها فصفّ القتال سبب زهوق الرّوح على مثل هذه الحالة ، وهذا فيمن ليس يقصد الغلبة و الغنيمة وحسن الصيت بالشجاعة فإنّ من هذا حاله و إن قتل في المعركة فهو بعيد عن مثل هذه الرّتبة كما دلّت عليه الأخبار. و إذ بان لك معنى سوء الخاتمة و ما هو مخوف فيها فاشتغل بالاستعداد لها و واظب على ذكر الله و أخرج من قلبك حبّ الدّنيا واحرس عن فعل المعاصي جوارحك و عن الفكر فيها قلبك و احترز عن مشاهدة المعاصي و مشاهدة أهلها جهدك فإنّ ذلك أيضاً يؤثّر في قلبك ويصرف إليه فكرك وخواطرك ، وإيّاك أن تسوّف وتقول : سأستعدّ لها إذا جاءت الخاتمة فإنّ كلّ نفس من أنفاسك خاتمتك

(١) روى نحوه مسلم فى صحيحه من حديث أبى هريرة بسند ضعيف كما فى الجامع الصغير و قد تقدم .

(٢) التوبة : ١١١ .

إذ يمكن أن تختطف فيه روحك، فراقب قلبك في كلّ تطريفة و إيّاك أن تهمله لحظة فلعلّ تلك اللّحظة خاتمتك، هذا مادمت في يقظتك وأمّا إذا نمت فإيّاك أن تنام إلّا على طهارة الظاهر والباطن و أن يغلبك النوم إلّا بعد غلبة ذكر الله على قلبك لست أقول على لسانك فإنّ حركة اللّسان بمجرّدها ضعيفة الأثر واعلم قطعاً أنّه لا يغلب عند النوم على قلبك إلّا ما كان قبل النوم غالباً عليه و أنّه لا يغلب في النوم إلّا ما كان غالباً قبل النوم ولا ينبعث عن نومك إلّا على ما غلب على قلبك في نومك ، والموت و البعث شبه النوم واليقظة فكما لا ينام العبد إلّا على ما غلب عليه في يقظته و لا يستيقظ إلّا على ما كان عليه في نومه فكذلك لا يموت المرء إلّا على ما عاش عليه ولا يحشر إلّا على ما مات عليه ، وتحقّق قطعاً ويقيناً أنّ الموت و البعث حالتان من أحوالك كما أنّ النوم و اليقظة حالتان من أحوالك و آمن بهذا تصديقاً باعتقاد القلب إن لم تكن أهلاً لمشاهدة ذلك بعين اليقين ونور البصيرة ، وراقب أنفاسك ولحظاتك و إيّاك أن تغفل عن الله طرفة عين فإنّك إذا فعلت ذلك كلّه كنت مع ذلك في خطر عظيم فكيف إذا لم تفعل والنّاس كلّهم هلكى إلّا العالمون ، والعالمون كلّهم هلكى إلّا العاملون ، والعاملون كلّهم هلكى إلّا المخلصون ، والمخلصون على خطر عظيم . واعلم أنّ ذلك لا يتيسّر لك ما لم تقنع من الدّنيا بقدر ضرورتك وضرورتك مطعم وملبس ومسكن و الباقي كلّه فضول و الضرورة من المطعم ما يقيم صلبك و يسدّ رمقك فينبغي أن يكون تناولك تناول مضطرّ كاره له و لا تكون رغبتك فيه أكثر من رغبتك في قضاء حاجتك إذ لا فرق بين إدخال الطعام في البطن و بين إخراجه فهما ضرورتان في الجبلّة و كما لا يكون قضاء الحاجة من همّتك الّتي يشتغل بها قلبك فلا ينبغي أن يكون تناول الطعام من همّتك ، و اعلم أنّه إن كان همّتك ما يدخل في بطنك فقيمتك ما يخرج من بطنك . و إذا لم يكن قصدك من الطعام إلّا التقوّي على عبادة الله تعالى كقصدك من قضاء حاجتك فعلامة ذلك تظهر في ثلاثة اُمور من مأكولك في وقته وقدره وجنسه أمّا الوقت فأقلّه أن تكتفي في اليوم و اللّيلة بمرّة واحدة فتواظب على الصوم، و أمّا قدره فأن لا تزند على ثلث البطن ، و أمّا جنسه

فأن لا تطلب اللّذائذ من الأطعمة بل تقنع بما يتّفق فإن قدرت على هذه الثلاث وسقط عنك مؤونة الشهوات واللّذائذ قدرت بعد ذلك على ترك الشبهات وأمكنك أن لا تأكل إلّا من حلّه فإنّ الحلال يعزّ ولا يفي بجميع الشهوات ، وأمّا ملبسك فليكن غرضك منه دفع الحرّ والبرد وستر العورة و كلّ ما دفع البرد عن رأسك ولو قلنسوة بدانق فطلبك غيره فضول منك يضيع زمانك و يلزمك الشغل الدّائم و العناء القائم في تحصيله بالكسب مرّة والطمع اُخرى من الحرام والشبهة ، و قس بهذا ما تدفع به الحرّ والبرد عن بدنك ، فكلّما حصل مقصود اللّباس إن لم يكتف به من خساسة قدره وجنسه لم يكن لك موقف ومردّ بعده ، بل كنت ممّن لا يملأ بطنه إلّا التراب ، و كذلك المسكن إن اكتفيت بمقصوده كفتك السماء سقفاً و الأرض مستقرّاً فإن غلبك حرّ أو برد فعليك بالمساجد فإن طلبت مسكناً خاصّاً طال عليك وانصرف إليه أكثر عمرك وعمرك هو بضاعتك ثمّ إنّ يتيسّر لك فقصدت من الحائط سوى كونه حائلاً بينك وبين الأبصار ومن السقف سوى كونه دافعاً للأمطار فأخذت ترفع الحيطان و تزيّن السقوف فقد تورطّت في مهواة يتعذّر رقيّك منها وهكذا جميع ضرورات اُمورك إن اقتصرت عليها تفرّغت لله و قدرت على التزوّد لآخرتك و الاستعداد لخاتمتك وإن جاوزت حدّ الضرورة إلى أودية الأماني تشعّبت همومك ولم يبال الله في أيّ واد أهلكك فاقبل هذه النصيحة ممّن هو أحوج إلى النصيحة منك .

واعلم أنّ متّسع التدبير والتزوّد و الاحتياط هذا العمر القصير فإذا دفعته يوماً بيوم في تسويفك أو غفلتك اختطفت فجأة في غير وقت إرادتك ولم تفارقك حسرتك وندامتك ، فإن كنت لا تقدر على ملازمة ما أرشدت إليه لضعف خوفك إذ لم يكن فيما وصفناه من أمر الخاتمة كفاية في تخويفك فإنّا سنورد عليك من أحوال الخائفين ما نرجو أن تزيل بعض القساوة عن قلبك فإنّك تتحقّق أنّ عقل الأنبياء والعلماء والأولياء وعلمهم ومكانهم عند الله لم تكن دون عقلك وعملك ومكانك فتأمّل مع كلال بصيرتك وعمش عين قلبك في أحوالهم لم اشتدّ بهم الخوف وطال بهم الحزن و البكاء حتّى كان بعضهم يصعق و بعضهم يدهش و بعضهم يسقط مغشيّاً عليه و بعضهم يخرّ ميتاً

إلى الأرض ولاغرو أن كان ذلك لايؤثّر في قلبك فإنّ قلوب الغافلين مثل الحجارة «أو أشدّ قسوة وإنّ من الحجارة لما يتفجّر منه الأنهار وإنّ منها لما يشقّق فيخرج منه الماء و إنّ منها لما يهبط من خشية الله و ما الله بغافل عمّا تعملون».

☼(بيان أحوال الانبياء والاولياء والملائكة عليهم السلام في الخوف)☼

روت عائشة أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم كان إذ تغيّر الهواء وهبّت ريح عاصفة يتغيّر وجهه و يقوم و يتردّد في الحجرة ويدخل ويخرج كلّ ذلك خوفاً من عذاب الله [١] وقرأ صلّى الله عليه وآله وسلّم آية في سورة الحاقّة فصعق [٢]. و قال الله تعالى: «وخرّ موسى صعقاً» [٣] و رأى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم صورة جبرئيل عليه السلام بالأبطح فصعق [٤].

وروي أنّه عليه السلام كان إذا دخل في الصلاة يسمع لصدره أزيز كأزيز المرجل [٥].

وقال صلّى الله عليه وآله وسلّم: «ما جاءني جبرئيل قطّ إلّا وهو يرعد فرقاً من الجبّار» [٦] وقيل: لمّا ظهر على إبليس ما ظهر طفق جبرئيل وميكائيل عليهما السلام يبكيان فأوحى الله تعالى إليهما مالكما تبكيان كلّ هذا البكاء فقالا: يا ربّ ما نأمن مكرك فقال الله تعالى

---

(١) راجع صحيح البخاري ج ٦ ص ١٦٧ في عنوان «سورة الاحقاف».

(٢) المعروف في ما يروى من هذه القصة أنه قرأ «أن لدنيا أنكالا و جحيماً و طعاماً ذا غصة و عذاباً أليماً» فصعق. كما أخرجه عبد بن حميد و محمد بن نصر عن حمران، وأحمد في الزهد كما في الدر المنثور ج ٦ ص٢٧٩.

(٣) الاعراف: ١٤٣.

(٤) أخرج البزار من حديث ابن عباس بسند جيد سأل النبي صلى الله عليه و آله و سلم جبرئيل أن يريه صورته فقال: ادع ربك فدعا ربه فطلع عليه من قبل المشرق فجعل يرتفع و يسير فلما رآه صعق، و رواه ابن المبارك من رواية الحسن مرسلا بلفظ «فغشي عليه». (المغني)

(٥) أخرجه الترمذي في الشمائل ص٢٣ باب ما جاء في بكاء رسول الله.

(٦) قال العراقي: لم أجده بهذا اللفظ و روى أبوالشيخ في كتاب العظمة عن ابن عباس قال: ان جبرئيل عليه السلام يوم القيامة لقائم بين يدي الجبار تبارك وتعالى ترعد فرائصه فرقاً من عذاب الله - الحديث -».

هكذا كونا لاتأمنا مكري ، وعن النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّه سأل جبرئيل «مالي لأرى ميكائيل يضحك فقال جبرئيل عليه السلام ماضحك ميكائيل منذ خلقت النّار »(١) ويقال: إنّ لله تعالى ملائكة لم يضحك أحدٌ منهم منذ خلقت النّار مخافة أن يغضب الله عليهم فيعذّ بهم .

و روي أنّ داود عليه السلام كان يقول في مناجاته : إلهي إذا ذكرت خطيئتي ضاقت عليّ الأرض برحبها ، وإذا ذكرت رحمتك ارتدّت إليّ روحي ، سبحانك إلهي أتيت أطبّاء عبادتك ليداووا خطيئتي فكلّهم عليك يدلّني فبؤساً للقانطين من رحمتك .

وقال الفضيل : بلغني أنّ داود عليه السلام ذكر ذنبه ذات يوم فوثب صارخاً واضعاً يده على رأسه حتّى لحق بالجبال فاجتمعت إليه السباع فقال : ارجعوا لا اُريد كم إنّما اُريد كلّ بكّاء على خطيئته فلايستقبلني إلّا البكاء ومن لم يكن ذا خطيئة فما يصنع بداود الخطّاء . وكان يعاتب في كثرة البكاء فيقول: دعوني أبكي قبل خروج يوم البكاء قبل تخريق العظام و اشتعال الحشا ، و قبل أن يؤمر بي ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

و قال عبد العزيز بن عمر : لمّا أصاب داود الخطيئة نقص صوته فقال : الهي بحّ صوتي في صفاء أصوات الصدّيقين . وروي أنّه عليه السلام لمّا طال بكاؤه ولم ينفعه ذلك فضاق ذرعه واشتدّ غمّه قال : يا ربّ أما ترحم بكائي فأوحى الله تعالى إليه : ياداود نسيت ذنبك وذكرت بكاءك ، فقال: إلهي وسيّدي كيف أنسى ذنبي و كنت إذا تلوت الزّبور كفّ الماء الجاري عن جريه وسكن هبوب الرّيح وأظلّني الطير على رأسي وأنست الوحوش إلى محرابي ، إلهي وسيّدي فما هذه الوحشة الّتي بيني وبينك ؟ فأوحى الله تعالى إليه : ياداود ذاك اُنس الطاعة وهذه وحشة المعصية ، ياداود آدم خلقٌ من خلقي خلقته بيدي ونفخت فيه من روحي و أسجدت له ملائكتي و ألبسته ثوب كرامتي و توّجته بتاج وقاري و شكا لي الوحدة فزوّجته حوّاء أمتي وأسكنته جنّتي عصاني فطردته عن جواري عريان ذليلاً ، يا داود اسمع منّي - و الحقّ أقول - أطعتنا فأطعناك و سألتنا فأعطيناك و عصيتنا فأهملناك و إن عدت إلينا على ما كان منك قبلناك .

(١) أخرجه أحمد في مسنده ج ٣ ص ٢٢٤ من حديث أنس .

وقال يحيى بن أبي كثير: بلغنا أنّ داود عليه السلام كان إذا أراد أن ينوح مكث قبل ذلك سبعاً لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يقرب النساء، فإذا كان قبل ذلك بيوم اُخرج له إلى البريّة منبر فيأمر سليمان أن ينادي بصوت يستقرىء البلاد وماحولها من الغياض والآكام والجبال والبراري والصوامع والبيع فينادي فيها ألا من أراد أن يسمع نوح داود على نفسه فليأت قال: فيأتي الوحوش من البراري و الآكام وتأتي السباع من الغياض و تأتي الهوامّ من الجبال و تأتي الطير من الأوكار وتأتي العذارى من خدور هنّ و يجتمع الناس لذلك اليوم و يأتي داود حتّى يرقى المنبر و يحيط به بنو إسرائيل و كلّ صنف على حدته محيطون به و سليمان عليه السلام قائم على رأسه فيأخذ في الثناء على ربّه فيضجّون بالبكاء والصراخ ثمّ يأخذ في ذكر الجنّة والنّار فتموت الهوامّ وطائفة من الوحوش والسباع والناس، ثمّ يأخذ في أهوال القيامة وفي النياحة على نفسه فيموت من كلّ نوع طائفة فإذا رأى سليمان كثرة الموتى قال: يا أبتاه قد مزّقت المستمعين كلّ ممزّق و ماتت طوائف من بني إسرائيل ومن الوحوش والهوامّ فيأخذ في الدّعاء، فبينا هو كذلك إذ ناداه بعض عبّاد بني إسرائيل يا داود عجّلت بطلب الجزاء على ربّك، قال: فخرّ مغشيّاً عليه فإذا نظر سليمان إلى ما أصابه أتى بسرير فحمله عليه ثمّ أمر منادياً ينادي ألا من كان له مع داود حميم أو قريب فليأت بسرير فيحمله فإنّ الّذين كانوا معه قد قتلهم ذكر الجنّة والنّار فكانت المرأة تأتي بالسرير وتحمل قريبها وتقول: يا من قتله ذكر النّار، يا من قتله خوف الله، ثمّ إذا أفاق داود قام و وضع يده على رأسه ودخل بيت عبادته و أغلق بابه و يقول: يا إله داود أغضبان أنت على داود ولا يزال يناجي ربّه فيأتي سليمان فيقف على الباب ويستأذن ثمّ يدخل ومعه قرص من شعير ويقول: يا أبتاه تقوّ بهذا على ما تريد فيأكل من ذلك القرص ما شاء الله ثمّ يخرج إلى بني إسرائيل فيكون بينهم.(١) وقال يزيد الرقاشي: خرج داود ذات يوم بالناس يعظهم ويخوّفهم فخرج في أربعين ألفاً فمات منهم ثلاثون ألفاً وما رجع إلّا في عشرة آلاف، قال: وكان له جاريتان اتّخذهما حتّى إذا جاء الخوف

(١) قصة من الاسرائيليات توجد فى بعض كتب الصوفية و كذا التى قبلها و بعدها.

وسقط فاضطرب قعدتا على صدره وعلى رجليه مخافة أن يتفرّق أعضاؤه ومفاصله فيموت .

وقال ابن عمر : دخل يحيى بن زكريّا عليهما السلام بيت المقدّس وهو ابن ثمان سنين فنظر إلى عبّادهم قد لبسوا مدارع الشعر والصوف ونظر إلى مجتهديهم قد خرّقوا التراقي وسلكوا فيها السلاسل وشدّوا أنفسهم إلى أطراف بيت المقدس فهاله ذلك فرجع إلى أبويه فمرّ بصبيان يلعبون فقالوا له : يا يحيى هلمّ بنا لنلعب فقال : إنّي لم اُخلق للّعب قال : فأتى أبويه فسألهما أن يدرّعاه الشعر ففعلا فرجع إلى بيت المقدس وكان يخدمه نهاراً ويصبح فيه ليلاً حتّى أتت عليه خمس عشرة سنة فخرج ولزم أطواد الأرض وغيران الشعاب فخرج أبواه في طلبه فأدركاه على بحيرة الاُردن وقد انقطع رجليه في الماء حتّى كاد العطش يذبحه وهو يقول : وعزّتك وجلالك لا أذوق بارد الشراب حتّى أعلم أين مكاني منك فسأله أبواه أن يفطر على قرص كان معهما من شعير ويشرب من ذلك الماء ففعل وكفّر عن يمينه فمدح بالبرّ فردّه أبواه إلى بيت المقدس فكان إذا قام يصلّي بكى حتّى يبكي معه الشجر والمدر ويبكي زكريّا عليه السلام لبكائه حتّى يغمى عليه فلم يزل يبكي حتّى خرقت دموعه لحم خدّيه وبدت أضراسه للناظرين فقالت له اُمّه : يا بنيّ لو أذنت لي أن أتّخذ لك شيئاً تواري به أضراسك عن الناظرين ، فأذن لها فعمدت إلى قطعتي لبود فألصقتهما على خدّيه فكان إذا قام يصلّي بكى فإذا استنقعت دموعه في القطعتين أتت إليها اُمّه فعصرتهما فإذا رأى دموعه تسيل على ذراعي اُمّه قال : اللّهمّ هذه دموعي وهذه اُمّي وأنا عبدك وأنت أرحم الرّاحمين ، فقال له زكريّا : يا بنيّ إنّما سألت ربّي أن يهبك لي لتقرّ عيناي فقال يحيى : يا أبت إنّ جبرئيل أخبرني أنّ بين الجنّة والنّار مفازة لا يقطعها إلّا كلّ بكّاء قال زكريّا عليه السلام : فابك يا بنيّ .

أقول: وهذا الحديث رواه شيخنا الصدوق في المجلس الثامن من كتاب عرض المجالس بإسناده عن ابن عمر عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم مع زيادة ونقصان واختلاف في ألفاظه وروى في المجلس الرّابع والخمسين من طريق الخاصّة عن ليث بن أبي سليم قال: سمعت رجلاً من الأنصار يقول : بينما رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم مستظلّ بظلّ شجرة في يوم شديد

الحرّ إذ جاء رجل ينزع ثيابه ثمّ جعل يتمرّغ في الرّمضاء يكوي ظهره مرّة وبطنه مرّة وجبهته مرّة ويقول : يا نفس ذوقي فما عند الله أعظم ممّا صنعت بك . ورسول الله ينظر إلى ما يصنع ثمّ إنّ الرّجل لبس ثيابه ثمّ أقبل فأومأ إليه النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم بيده و دعاه فقال له : يا عبدالله لقد رأيتك صنعت شيئاً ما رأيت أحداً من النّاس صنعه فما حملك على ما صنعت؟ فقال الرّجل : حملني على ذلك مخافة الله وقلت لنفسي : يا نفسي ذوقي فما عند الله أعظم ممّا صنعت بك فقال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : لقد خفت ربّك حقّ مخافته وإنّ ربّك ليباهي بك أهل السماء ، ثمّ قال لأصحابه : يا معشر من حضر ادنوا من صاحبكم حتّى يدعو لكم فدنوا منه فدعا لهم وقال : « اللّهمّ اجمع أمرنا على الهدى و اجعل التقوى زادنا والجنّة مآبنا » .

قال أبو حامد : و قال عيسى عليه السلام : معاشر الحواريّين خشية الله و حبّ الفردوس يورثان الصبر على المشقّة و يباعدان من الدّنيا ، بحقّ أقول لكم : إنّ أكل الشعير و النوم على المزابل مع الكلاب في طلب الفردوس قليل . وقيل : كان الخليل عليه السلام إذا ذكر خطيئته يغشى عليه ويسمع اضطراب قلبه ميلاً في ميل فيأتيه جبرئيل فيقول له : الجبّار يقرئك السلام ويقول : هل رأيت خليلاً يخاف خليله ، فيقول : يا جبرئيل إنّي إذا ذكرت خطيئتي نسيت خلّتي ، و قيل كان يسمع أزيز قلبه عليه السلام إذا كان في الصلاة مسيرة ميل خوفاً من ربّه ، وقال عليّ عليه السلام و قد سلّم عن صلاة الفجر وقد علاه كآبة وهو يقلّب يده : لقد رأيت أصحاب محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم فلم أر اليوم شيئاً يشبههم لقد كانوا يصبحون صُفراً شُعثاً غُبراً بين أعينهم أمثال ركب المعزى قد باتوا لله سجّداً وقياماً يتلون كتاب الله يراوحون بين جباههم وأقدامهم فإذا أصبحوا و ذكروا الله مادوا كما تميد الشجر في يوم الرّيح وهملت أعينهم بالدّموع حتّى تبلّ ثيابهم والله لكأنّي بالقوم باتوا غافلين . ثمّ قام فما رئي بعد ذلك ضاحكاً حتّى ضربه ابن ملجم ، وكان عليّ بن الحسين عليهما السلام إذا توضّأ اصفرّ لونه فيقول له أهله : ماهذا الّذي يعتادك عند الوضوء؟ فيقول : أتدرون بين يدي من اُريد أن أقوم (١) أقول : ومن

(١) تقدم جميع ذلك في المجلد الاول كتاب أسرار الصلاة و المجلد الرابع كتاب أخلاق النبوة و كتاب آداب الشيعة و أخلاق الامامة .

طريق الخاصّة روي في الكافي حديث علي عليه السلام عن الباقر عليهما السلام هكذا صلّى أمير المؤمنين صلوات الله عليه بالناس الصبح بالعراق فلمّا انصرف وعظهم فبكى وأبكاهم من خوف الله ثمّ قال: «أما و الله لقد عهدت أقواماً على عهد خليلي رسول الله صلّى الله عليه وآله و أنّهم ليصبحون ويمسون شعثاً غبراً خمصاً بين أعينهم كركب المعزى يبيتون لربّهم سجّداً و قياماً يراوحون بين أقدامهم وجباههم يناجون ربّهم ويسألونه فكاك رقابهم من النار و الله لقد رأيتهم مع هذا وهم خائفون مشفقون»(١).

و في رواية اُخرى كأن «زفير النّار في آذانهم، إذا ذكر الله عندهم مادوا كما تميد الشجر كأنّما القوم ماتوا غافلين، قال: ثمّ قال: فما رئي ضاحكاً حتّى قبض عليه السلام»(٢).

و عن الصادق عليه السلام قال: «كان عليّ بن الحسين عليهما السلام إذا قام في الصلاة تغيّر لونه فإذا سجد لم يرفع رأسه حتّى يرفض عرقاً»(٣). و عنه عليه السلام قال: «كان أبي يقول: كان عليّ بن الحسين إذا قام في الصلاة كأنّه ساق شجرة لا يتحرّك منه إلّا ما حرّك الرّيح منه»(٤). و الأدعية المنسوبة إليه تنادي بشدّة خوفه و كذا الندبات المنقولة عنه.

وقد أكثر أبو حامد من ذكر خوف الصحابة والسلف ههنا بما ليس في ذكره فائدة فإنّ منهم من هو معروف عندنا بالنفاق والضلال ومنهم من هو مجهول الحال.

قال: فهذه مخاوف الأنبياء والأولياء والعلماء ونحن أجدر بالخوف منهم ليس الخوف بكثرة الذّنوب بل بصفاء القلوب و كمال المعرفة و إلّا فليس أمننا لقلّة ذنوبنا و كثرة طاعتنا، بل قادتنا شهوتنا و غلبت علينا شقوتنا وصدّتنا عن ملاحظة أحوالنا

---

(١) المصدر ج ٢ ص ٢٣٥ والشعث تفرق الشعر وعدم اصلاحه ومشطه. والاغبر: المتلطخ بالغبار، والركب: مابين أسافل أطراف الفخذ. وراجع بيانه المصدر في الهامش.

(٢) المصدر ج ٢ ص ٢٣٦. وماد يميد أي اضطرب وفي بعض النسخ [باتوا غافلين]

(٣) الكافي ج ٣ ص ٣٠٠ تحت رقم ٥.

(٤) الكافي ج ٣ ص ٣٠٠ تحت رقم ٤.

غفلتنا وقسوتنا ، فلاقرب الرّحيل ينبّهنا ، ولا كثرة الذّنوب تحرّكنا ، ولامشاهدة أحوال الخائفين تخوّفنا ، ولاخطر الخاتمة يزعجنا ، فنسأل الله تعالى أن يتدارك بفضله وجوده أحوالنا فيصلحنا إن كان تحريك اللّسان بمجرّد السؤال دون الاستعداد ينفعنا و من العجائب أنّا إذا أردنا المال في الدّنيا زرعنا وغرسنا واتّجرنا و ركبنا البحار و البراري و خاطرنا و إن أردنا طلب رتبة العلم تفقّهنا و تعبنا في حفظه و تكراره و سهرنا ونجتهد في طلب أقواتنا ولا نثق بضمان الله لنا ولا نجلس في بيوتنا فنقول : اللّهمّ ارزقنا ، ثمّ إذا طمحت أعيننا نحو الملك الدّائم المقيم قنعنا بأن نقول بألسنتنا : اللّهمّ اغفر لنا وارحمنا ، والّذي إليه رجاؤنا و به اغترارنا ينادينا ويقول : « وأن ليس للإنسان إلّا ما سعى » « ولا يغرّنّكم بالله الغرور » « يا أيّها الإنسان ما غرّك بربّك الكريم » كلّ ذلك لا ينبّهنا ولايخرجنا عن أودية غرورنا وأمانينا ، فما هذه إلّا محنة هائلة إن لم يتفضّل الله علينا بتوبة نصوح تداركنا بها و يجيرنا فنسأل الله تعالى أن يتوب علينا بل نسأله أن يشوّق إلى التوبة سرائر قلوبنا و أن لا يجعل حركة اللّسان بسؤال التوبة غاية حظّنا فنكون ممّن يقول ولا يعمل ويسمع و لايقبل إذا سمعنا الوعظ بكينا و إذا جاء وقت العمل بما سمعناه عصينا فلا علامة للخذلان أعظم من هذا . فنسأل الله تعالى أن يمنّ علينا بالتوفيق والرّشد علينا بمنّه وفضله ، و لنقتصر من حكاية أحوال الخائفين على ما أوردنا فإنّ القليل من هذا يصادف القلب القابل فيكفي و الكثير منه و إن اُفيض على القلب الغافل فلا يغني ، ولقد صدق الرّاهب الّذي حكي عنه عيسى بن مالك الخولاني و كان من خيار العبّاد أنّه رآه على باب بيت المقدّس واقفاً كهيئة المحزون من شدّة الوله ما يكاد يرقأ دمعه من كثرة البكاء. قال عيسى : فلمّا رأيته هالني منظره فقلت : أيّها الرّاهب أوصني بوصيّة أحفظها عنك ، فقال : يا أخي بما ذا اُوصيك إن استطعت أن تكون بمنزلة رجل قد احتوشته السباع و الهوامّ فهو خائف حذر يخاف أن يغفل فيفترسه السباع أو يسهو فتنهشه الهوامّ فهو مذعور القلب وجل فهو في المخافة في ليله وإن أمن المغترّون ، وفي الحزن في نهاره و إن فرح البطّالون فافعل ، ثمّ ولّى و تركني فقلت : لو زدتني شيئاً عسى

أن ينفعني فقال : الظمآن يجزئه من الماء أيسره . فقد صدق ، فإنّ القلب الصافي يحرّكه أدنى مخافة و القلب الجامد ينبو عنه كلّ المواعظ، وما ذكره من تقديره إنّه احتوشته السباع والهوامّ فلا ينبغي أن يظنّ أنّه تقدير بل هو تحقيق فإنّك لو شاهدت بنور البصيرة باطنك لرأيته مشحوناً باصناف السباع و أنواع الهوامّ مثل الغضب والشهوة والحقد والحسد والكبر والعجب والرّياء و غيرها وهي الّتي لاتزال تفترسك وتنهشك إن سهوت عنها لحظة إلّا أنّك محجوب العين عن مشاهدتها فإذا انكشف الغطاء و وضعت في قبرك عاينتها وقد تمثّلت لك بصورها و أشكالها الموافقة لمعانيها ، فترى بعينك العقارب والحيّات قد أحدقت بك في قبرك وإنّما هي صفاتك الحاضرة لك الآن قد انكشف لك صورها فإن أردت أن تقتلها وتقهرها وأنت قادرٌ عليها قبل الموت فافعل وإلّا فوطّن نفسك على لدغها ونهشها لصميم فؤادك فضلاً عن ظاهر بشرتك وجسمك والسلام .

هذا آخر كتاب الخوف والرّجاء من ربع المنجيات من المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء، ويتلوه كتاب الفقر والزّهد ، والحمد لله ربّ العالمين وصلواته على سيّدنا محمّد النبيّ وآله وسلامه .

كتاب الفقر والزهد

وهو الكتاب الرّابع من ربع المنجيات من المحجّة البيضاء في تهذيب الأحياء

بسم الله الرّحمن الرّحيم

الحمد لله الّذي ، تسبّح له الرّمال ، وتسجد له الضلال ، و تندكّ[(١)] من هيبته الجبال ، خلق الإنسان من الطين اللّازب و الصلصال ، وزيّن صورته بأحسن تقويم و أتمّ اعتدال ، وعصم قلبه بنور الهداية عن ورطات الضلال ، وأذن له في قرع باب الخدمة بالغدوّ والآصال ، ثمّ كحل بصيرة المخلص في خدمته بنور العبرة حتّى لاحظ بضيائه حضرة الجلال ، فلاح له من البهجة والبهاء والكمال ، ما استقبح دون مبادي إشراقه كلّ حسن وجمال ، فاستثقل كلّ ما صرفه عن مشاهدته و ملازمته غاية الاستثقال ، وتمثّل له ظاهر الدّنيا في صورة امرأة جميلة تميس[(٢)] و تختال ، وانكشف له باطنها عن عجوز شوهاء عجنت من طينة الخزي ، وضربت في قالب النكال ، وهي متلفّقة بجلبابها لتخفي قبائح أسرارها بلطائف السحر والاحتيال و قد نصبت حبائلها في مدارج الرّجال فهي تقتنصهم[(٣)] بضروب المكر و الاغتيال ، ثمّ لاتجتزىء معهم بالخلف في مواعيد الوصال ، بل تقيّدهم مع قطع الوصال بالسلاسل و الأغلال ، وتبتليهم بأنواع البلايا و الانكال فلمّا انكشف للعارفين منها قبائح الأسرار والأفعال زهدوا فيها زهد المبغض لها فتركوها وتركوا التفاخر والتكاثر بالأموال ، وأقبلوا بكنه هممهم على حضرة الجلال والجمال ، واثقين منه بوصال ليس دونه فصال ، و مشاهدة

(١) أى تهدمت .

(٢) ماس الرجل يميس ميساً و ميساناً فى المشى أى يتمايل و يتبختر .

(٣) أى تصيدهم .

أبديّة لا يعتريها فناء ولا زوال ، والصلاة والسلام على سيّد الأنبياء وآله خير آل .

أمّا بعد فإنّ الدّنيا عدوّة لله تعالى بغرورها ضلّ من ضلّ ، و بمكرها زلّ من زلّ فحبّها رأس الخطايا و السيّئات ، و بغضها اُمّ الطاعات و اُسّ الحسنات ، و قد استقصينا ما يتعلّق بوصفها و ذمّ الحبّ لها في كتاب ذمّ الدّنيا من ربع المهلكات ونحن الآن نذكر فضل البغض لها و الزّهد فيها فإنّه رأس المنجيات ، فلا مطمع في النجاة إلّا بالانقطاع عن الدّنيا والبعد منها ولكن مقاطعتها إمّا أن تكون بانزوائها عن العبد و يسمّى ذلك فقراً ، و إمّا بانزواء العبد عنها و يسمّى ذلك زهداً، ولكلّ واحد منهما درجة في نيل السعادات و حظّ في الإعانة على الفوز و النجاة ، و نحن الآن نذكر حقيقة الفقر و الزّهد و درجاتهما و أقسامهما و شروطهما و أحكامهما ونذكر الفقر في شطر من الكتاب والزّهد في شطر آخر منه ونبدأ بذكر الفقر .

الشطر الاول من الكتاب في الفقر وفيه بيان حقيقة الفقر وبيان فضيلة الفقر مطلقاً ، وبيان فضيلة خصوص الفقراء ، وبيان فضل الفقير على الغني ، و بيان أدب الفقير في فقره ، وبيان أدبه في قبول العطاء ، وبيان تحريم السؤال بغير ضرورة ، وبيان مقدار الغنى المحرّم للسؤال ، وبيان أحوال السائلين .

✿(بيان حقيقة الفقر واختلاف احوال الفقير واساميه)✿

إعلم أنّ الفقر عبارة عن فقد ما هو محتاج إليه فأمّا فقد ما لا حاجة إليه فلا يسمّى فقراً ، و إن كان المحتاج إليه موجوداً مقدوراً عليه لم يكن المحتاج فقيراً ، وإذا فهمت هذا لم تشكّ في أنّ كلّ موجود سوى الله فهو فقير لأنّه محتاج إلى دوام الوجود في ثاني الحال و دوام وجود مستفاد من فضل الله وجوده ، فإن كان في الوجود موجودٌ ليس وجوده مستفاداً له من غيره فهو الغنيّ المطلق ولا يتصوّر أن يكون مثل هذا الموجود إلّا واحداً فليس في الوجود إلّا غنيّ واحد ، و كلّ من عداه فإنّهم محتاجون إليه ليمدّ وجودهم بالدّوام وإلى هذا الحصر الإشارة بقوله تعالى : «والله الغنيّ وأنتم الفقراء»[1] وهذا معنى الفقر مطلقاً ولكنّا لسنا نقصد بيان الفقر المطلق

(١) محمد : ٣٨ .

بل الفقر من المال على الخصوص و إلّا ففقر العبد بالإضافة إلى أصناف حاجاته لا ينحصر لأنَّ حاجاته لاحصر لها و من جملة حاجاته ما يتوصّل إليه بالمال وهوالّذي نريد الآن بيانه فقط فنقول : كلُّ فاقد للمال فإنّا نسمّيه فقيراً بالإضافة إلى المال الّذي فقده إذاكان ذلك المفقود محتاجاً إليه في حقّه ، ثمَّ يتصوَّر أن يكون له خمسة أحوال عندالفقر ونحن نميّزها ونخصّص كلُّ حال باسم لنتوصّل بالتمييز إلى ذكر أحكامها .

الحالة الاُولى : و هي العليا أن يكون بحيث لو أتاه المال لكرهه و تأذّى به وهرب من أخذه مبغضاً له ومحترزاً من شرّه وشغله وهو الزُّهد واسم صاحبه الزّاهد .

الثانية : أن يكون بحيث لايرغب فيه رغبة يفرح بحصوله ولايكرهه كراهة يتأذّي بها ويزهد فيه و لو أتاه رضي به وصاحب هذه الحالة يسمّى راضياً .

الثالثة : أن يكون وجود المال أحبُّ إليه من عدمه لرغبة له فيه ولكن لم يبلغ من رغبته أن ينهض لطلبه بل إن أتاه عفواً صفواً أخذه وفرح به ، و إن افتقر إلى تعب في طلبه لم يشتغل به ، وصاحب هذه الحالة نسمّيه قانعاً إذ قنع نفسه بالموجود حتّى ترك الطلب مع مافيه من الرُّغبة الضعيفة .

الرابعة : أن يكون تركه الطلب لعجزه و إلّا فهو راغب فيه رغبة لو وجد سبيلاً إلى طلبه ولو بالتعب لطلبه أو هو مشغول بالطلب وصاحب هذه الحالة نسمّيه بالحريص .

الخامسة : أن يكون ما فقده من المال مضطرّاً إليه كالجائع الفاقد للخبز والعاري الفاقد للثوب ، ويسمّى صاحب هذه الحالة مضطرّاً كيف ما كانت رغبته في الطلب إمّا ضعيفة وإمّا قويّة وقلّما ينفكُّ هذه الحالة عن الرُّغبة فهذه خمسة أحوال أعلاها الزُّهد و الاضطرار إن انضمَّ إليه الزُّهد و تصوّر ذلك فهو أقصى درجات الزُّهد كما سيأتي بيانه .

أقول: الاضطرار المنضمُّ إليه الزُّهد إن تصوّر فليس من الخصال المحمودة بل ولا من شيم العقلاء فضلاً عن أن يكون أقصى درجات الزُّهد فإنَّ الجائع المضطرُّ

إلى الخبز الفاقد له لو آتاه الله الخبز عفواً صفواً فتأذّى به وهرب من أخذه عدّ من المجانين ولا يأتي لفضله بيان في كلام أبي حامد و كيف نبيّن ما ليس ، ثمّ التقسيم الّذي ذكره ليس بسديد وذلك لأنّ المضطرّ ليس قسيماً للأربعة الاُخر بل هو أيضاً ينقسم إلى بعضها كما أشار إليه أبو حامد فيما بعد ، فالصواب أن يقسم الفقير أوّلاً إلى مضطرّ و غير مضطرّ ثمّ يقسم غير المضطرّ إلى الأقسام الأربعة ، ويقسم المضطرّ إلى بعضها ممّا يتصوّر ثمّ يذكر ترتيب الفضل في أقسام كلّ منهما على حدة .

قال : و وراء هذه الأحوال الخمسة حالة هي أعلى من الزهد وهي أن يستوي عنده وجود المال و فقده فإن وجده لم يفرح به ولم يتأذّ و إن فقده فكذلك .

أقول : لم نجد فرقاً بيّناً بين هذه الحالة والحالة الثانية الّتي سمّاها رضا .

قال : فمن هذه حاله فلو كانت الدّنيا بحذافيرها في يده وخزائنه لم تضرّه إذ هو يرى الأموال في خزانة الله لا في يد نفسه فلا يفرق بين أن يكون في يده أو في يد غيره ، وينبغي أن يسمّى صاحب هذه الحالة المستغني لأنّه غنيّ عن فقد المال و وجوده جميعاً و ليفهم من هذا الاسم معنى يفارق معنى اسم الغنيّ المطلق على الله تعالى وعلى من كثر ماله من العباد فإنّ من كثر ماله من العباد وهو يفرح به فهو فقير إلى بقاء المال في يده و إنّما هو غنيّ عن دخول المال في يده لا عن بقائه في يده فهو إذن فقير من وجه ، وأمّا هذا الشخص فهو غنيّ عن دخول المال في يده وعن بقائه في يده وعن خروجه من يده أيضاً ، فإنّه ليس يتأذّى به ليحتاج إلى الخروج وليس يفرح به ليحتاج إلى البقاء وليس فاقداً له ليحتاج إلى الدّخول في يده فغناه إلى العموم أميل فهو إلى الغنى الّذي هو وصف الله أقرب ، و إنّما قرب العبد من الله بقرب الصفات لا بقرب المكان ولكنّا لا نسمّي صاحب هذه الحالة غنيّاً بل مستغنياً ليبقى الغنى إسماً لمن له الغنى المطلق عن كلّ شيء وهو الله سبحانه ، وأمّا هذا العبد وإن استغنى عن المال وجوداً وعدماً فلم يستغن عن أشياء اُخر سواه ولم يستغن عن مدد توفيق الله له ليبقى استغناؤه الّذي زيّن الله به قلبه فإنّ القلب المقيّد بحبّ المال رقيق و المستغني عنه حرّ والله تعالى هو الّذي أعتقه من هذا الرّقّ فهو محتاج إلى دوام هذا العتق ، والقلوب متقلّبة بين الرّقّ والحرّيّة في أوقات متقاربة لأنّها

بين أصبعين من أصابع الرّحمن فلذلك لم يكن اسم الغني مطلقاً عليه مع هذا الكمال إلّا مجازاً .

و اعلم أنّ الزّهد درجة هي كمال الأبرار و صاحب هذه الحالة من المقرّبين فلاجرم صار الزّهد في حقّه نقصانا إذ حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين وهذا لأنّ الكاره في الدّنيا مشغول بالدّنيا كما أنّ الرّاغب فيها مشغول بها . والشغل بما سوى الله حجاب عن الله تعالى إذ لا بعد بينك وبين الله حتّى يكون البعد حجاباً فإنّه أقرب إليك من حبل الوريد ، وليس هو في مكان حتّى تكون السماوات والأرض حجاباً بينك وبينه فإنّه أقرب إليك منك ، فلا حجاب بينك و بينه إلّا شغلك بغيره و شغلك بنفسك و شهواتك شغل بغيره و أنت لاتزال مشغولاً بنفسك و بشهوات نفسك ، فلذلك لا تزال محجوباً عنه فالمشغول بحبّ نفسه مشغول عن الله و المشغول ببغض نفسه أيضاً مشغول عن الله بل كلّ ما سوى الله مثاله مثال الرّقيب الحاضر في مجلس يجمع العاشق والمعشوق فإن التفت قلب العاشق إلى الرّقيب وإلى بغضه واستثقاله و كراهة حضوره فهو في حالة اشتغال قلبه ببغضه مصروف عن التلذّذ بمشاهدة معشوقه و لو استغرقه العشق لغفل عن غير المعشوق ولم يلتفت إليه فكما أنّ النظر إلى غير المعشوق لحبّه عند حضور المعشوق شرك في العشق و نقص فيه ، فكذا النظر إلى غيره لبغضه شرك فيه ونقص ولكن أحدهما أخفّ من الآخر بل الكمال في أن لا يلتفت القلب إلى غير المحبوب بغضاً وحبّاً فإنّه كما لايجتمع في القلب حبّان في حالة واحدة فلايجتمع أيضاً بغض وحبّ في حالة واحدة فالمشغول ببغض الدّنيا غافل عن الله تعالى كالمشغول بحبّها إلّا أنّ المشغول بحبّها غافلٌ وهو في غفلته سالك في طريق البعد ، والمشغول ببغضها غافلٌ وهو في غفلته سالك في طريق القرب إذ يرجى له أن ينتهي حاله إلى أن تزول هذه الغفلة وتتبدّل بالشهود ، فالكمال له مرتقب لأنّ بغض الدّنيا مطيّة توصل إلى الله فالمحبّ والمبغض كرجلين في طريق الحجّ مشغولين بركوب الناقة و علفها وتسييرها ولكن أحدهما مستدبر للكعبة والآخر مستقبل لها فهما سيّان بالإضافة إلى الحال في أنّ كلّ واحد منهما محجوب عن الكعبة و مشغول عنها ، ولكن حال المستقبل

محمود بالاضافة إلى المستدبر إذ يرجى له الوصول إليها و ليس بمحمود بالإضافة إلى المعتكف في الكعبة والملازم لها الّذي لايخرج منها حتّى يفتقر إلى الاشتغال بالدابّة في الوصول إليها فلاينبغي أن تظنّ أنّ بغض الدّنيا مقصود في عينه بل الدّنيا عائق عن الله و لاوصول إليه إلّا بدفع العائق ولذلك قال أبو سليمان الدّاراني من زهد في الدّنيا واقتصر عليه فقد استعجل الرّاحة بل ينبغي أن يشتغل بالآخرة. فبيّن أن سلوك طريق الآخرة وراء الزّهد كما أنّ سلوك طريق الحجّ وراء دفع الغريم العائق عن طريق الحجّ، فإذن قد ظهر أنّ الزّهد في الدّنيا إن اُريد به عدم الرّغبة في وجودها و عدمها فهو غاية الكمال وإن اُريد به الرّغبة في عدمها فهو كمال بالإضافة إلى درجة الرّاضي والقانع والحريص، ونقصان بالإضافة إلى درجة المستغني، بل الكمال في حقّ المال أن يستوي عندك الماء والمال، و كثرة الماء في جوارك لا تؤذيك بأن تكون على شاطىء البحر ولا قلّته تؤذيك إلّا في قدر الضرورة مع أنّ الماء محتاج إليه كما أنّ المال محتاج إليه فلا يكون قلبك مشغولاً بالفرار عن جوار الماء الكثير ولا يبغض الماء الكثير، بل تقول: أشرب منه بقدر الحاجة وأسقي منه عباد الله بقدر الحاجة، ولا أبخل به على أحد، فهكذا ينبغي أن يكون المال لأنّ الخبز والماء واحد في الحاجة وإنّما الفرق بينهما في قلّة أحدها و كثرة الآخر وإذا عرفت الله و وثقت بتدبيره الّذي دبّر به العالم علمت أنّ قدر حاجتك من الخبز يأتيك لامحالة ما دمت حيّاً كما يأتيك قدر حاجتك من الماء على ما سيأتي بيانه في كتاب التوكّل.

فإن قلت: فمابال الأنبياء و الأولياء هربوا من المال ونفروا منه كلّ النفار فأقول: كما نفروا من الماء على معنى أنّهم ما شربوا أكثر من حاجتهم فنفروا عمّا وراءها و لم يجمعوه في القرب و الروايا يديرونه مع أنفسهم بل تركوه في الأنهار والبراري للمحتاجين لا أنّهم كانت قلوبهم مشغولة بحبّه أوبغضه وقد حملت خزائن الأرض إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم و إلى بعض أصحابه فأخذوها و وضعوها في مواضعها وما هربوا منها إذ كان قد استوى عندهم الماء والمال والذّهب والحجر ومانقل عنهم من امتناع فإمّا أن ينقل عمّن خاف أن لوأخذه أن يخدعه المال ويقيّد قلبه فيدعوه إلى

الشهوات و هذا حال الضعفاء فلاجرم البغض للمال والهرب منه في حقّهم كمال وهذا حكم جميع الخلق لأنّ كلّهم ضعفاء إلّا الأنبياء والأولياء ، و إمّا أن ينقل عن قويّ بلغ الكمال ولكن أظهر الفرار والنفار نزولاً إلى درجة الضعفاء ليقتدوا به في الترك إذ لو اقتدوا به في الأخذ لهلكوا كما يفرّ الرّجل المعزّم بين يدي أولاده من الحيّة لا لضعفه عن أخذها ولكن لعلمه بأنّه لو أخذها أخذها أولاده إذا رأوها وهلكوا ، و السير بسيرة الضعفاء ضرورة الأنبياء والأولياء والعلماء فقد عرفت إذن أنّ المراتب ستّة وإنّ أعلاها رتبة المستغني ، ثمّ الزّاهد ، ثمّ الرّاضي ، ثمّ القانع ، ثمّ الحريص.

أقول: بل عرفت أنّها لا تزيد على خمسة لأنّ الرّاضي و المستغني واحد .

قال : واسم الفقر يطلق على هذه الخمسة وأمّا تسمية المستغني فقيراً فلاوجه له بهذا المعنى ، بل إن سمّي فقيراً فبمعنى آخر وهو معرفته بكونه محتاجاً إلى الله تعالى في جميع اُموره عامّة وفي بقاء استغنائه عن المال خاصّة فيكون اسم الفقير له كاسم العبد لمن عرف نفسه بالعبوديّة وأقرّ بها فانّه أحقّ باسم العبد من الغافلين وإن كان اسم العبد عامّاً للخلق فكذلك اسم الفقير عامّ و من عرف نفسه بالفقر إلى الله تعالى فهو أحقّ باسم الفقير فاسم الفقير مشترك بين هذين المعنيين ، فإذا عرفت هذا الاشتراك فهمت أنّ قوله عليه السلام : « أعوذ بك من الفقر » [1] و « كاد الفقر أن يكون كفراً » [2] لايناقض قوله : « أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً واحشرني في زمرة المساكين» [3] إذ فقر المضطرّ هو الّذي استعاذ منه ، و الفقر الّذي هو الاعتراف بالمسكنة و الذّلّة والافتقار إلى الله تعالى هو الّذي سأله في دعائه .

✿(بيان فضيلة الفقر مطلقاً)✿

أمّا من الآيات فيدلّ عليه قوله تعالى : « للفقراء المهاجرين الّذين اُخرجوا

---

(١) أخرجه النسائي ج ٨ ص ٢٦٢ في حديث وفيه « من شر فتنة الفقر » وأخرجه أبو داود و ابن ماجه .

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث أنس و قد تقدم في كتاب الحسد .

(٣) أخرجه الحاكم وابن ماجه تحت رقم ٤١٢٦ وصححه من حديث أبي سعيد وقد تقدم

من ديارهم وأموالهم»[١] وقال تعالى : «للفقراء الّذين احصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفّف»[٢] ساق الله تعالى الكلام في معرض المدح ثمّ قدّم وصفهم بالفقر على وصفهم بالهجرة و الإحصار ، و فيه دلالة ظاهرة على مدح الفقر .

أقول: لا دلالة في الآيتين على مدح الفقر وإنّما سيقتا لبيان أنّ مصرف المال إنّما هو الفقراء المتّصفون بهذه الصفات و كذا في بعض الأخبار الّتي ذكرها مثل ما رواه أنّه عليه السلام «سئل من خير الناس ؟ فقال : فقير يعطي جهده» فإنّه يدلّ على فضيلة الإعطاء جهد المقلّ لا على فضيلة الفقر مطلقاً فلنطو منها ما لا دلالة فيه والمتشابه وما أوّله به و ما لا اعتماد على قائله ، ولنذكر ما ورد عن أهل البيت عليهم السلام من طريق الخاصّة ففي الكافي عن الصادق عليه السلام قال : «كلّما ازداد العبد إيماناً ازداد ضيقاً في معيشته»[٣].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام : «وكّل الرّزق بالحمق و وكّل الحرمان بالعقل و وكّل البلاء بالصبر»[٤] وعن الصادق عليه السلام : «إنّ فقراء المؤمنين يتقلّبون في رياض الجنّة قبل أغنيائهم بأربعين خريفاً قال : سأضرب لك مثل ذلك ، إنّما مثل ذلك مثل سفينتين مرّ بهما على عاشر فنظر في أحدهما فلم ير فيها شيئاً فقال : أسربوها و نظر في الأخرى فإذا هي موقورة فقال : احبسوها»[٥] و عنه عليه السلام «في مناجاة موسى عليه السلام : يا موسى إذا رأيت الفقر مقبلاً فقل مرحباً بشعار الصالحين وإذا رأيت الغنى مقبلاً فقل : ذنب عجّلت عقوبته»[٦] .

و عنه عليه السلام قال لرجل : «أما تدخل السوق أمّا ترى الفاكهة تباع والشيء

(١) الحشر : ٨ . (٢) البقرة : ٢٧٣ .
(٣) المصدر ج ٢ ص ٢٦١ تحت رقم ٤ .
(٤) المصدر ج ٨ ص ٢٢١ تحت رقم ٢٧٧ .
(٥) المصدر ج ٢ ص ٢٦٠ تحت رقم ١ .
(٦) المصدر ج ٢ ص ٢٦٣ تحت رقم ١٢ .

ممّا تشتهيه قال : بلى فقال : أما إنّ لك بكلّ ما تراه فلا تقدر على شرائه حسنة »[١].

وعنه عليه السلام « إذا كان يوم القيامة قام عنق من الناس حتّى يأتوا باب الجنّة فيضربوا باب الجنّة فيقال لهم : من أنتم ؟ فيقولون : نحن الفقراء ، فيقال لهم : أقبل الحساب ؟ فيقولون : ما أعطيتمونا شيئاً تحاسبونا عليه ، فيقول الله تعالى : صدقوا ادخلوا الجنّة »[٢].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام «الفقر أزين للمؤمن من العذار على خدّ الفرس»[٣].

وعن الكاظم عليه السلام « إنّ الله تعالى يقول : إنّي لم أغن الغني لكرامة به عليّ ولم أفقر الفقير لهوان به عليّ وهو ممّا ابتليت به الأغنياء بالفقراء، و لولا الفقراء لم يستوجب الأغنياء الجنّة »[٤].

قال أبو حامد : و قال النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم : «إنّ لي حرفتين اثنتين فمن أحبّهما فقد أحبّني ومن أبغضهما فقد أبغضني الفقر والجهاد »[٥].

و روي «أنّ جبرئيل نزل على رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فقال : يا محمّد إنّ الله يقرء عليك السلام ويقول : أتحبّ أن أجعل هذه الجبال ذهباً ويكون معك حيث ما كنت فأطرق رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ساعة ثمّ قال : يا جبرئيل : إنّ الدّنيا دار من لا دار له و مال من لا مال له وقد يجمعها من لا عقل له فقال له جبرئيل : يا محمّد ثبّتك الله بالقول الثابت في الحياة الدّنيا وفي الآخرة »[٦].

و روي أنّ عيسى عليه السلام مرّ في سياحته برجل نائم ملتفّ في عباءة فأيقظه فقال :

(١) الكافي ج ٢ ص ٢٦٤ تحت رقم ١٧ .

(٢) المصدر ج ٢ ص ٢٦٤ تحت رقم ١٩ .

(٣) المصدر ج ٢ ص ٢٦٥ تحت رقم ٢٢ .

(٤) المصدر ج ٢ ص ٢٦٥ تحت رقم ٢٠ .

(٥) ما عثرت على أصل له .

(٦) ملفق من حديثين روى الترمذي من حديث أبي أمامة : « عرض علي ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً ، قلت : لا يارب ولكن أشبع يوماً و أجوع يوماً - الحديث - » وقال حسن : ولأحمد من حديث عائشة «الدنيا دار من لا دار له - الحديث - » وقد تقدم (المغني).

يا نائم قم فاذكر الله ، فقال: ما تريد منّي إنّي قد تركت الدّنيا لأهلها ، فقال له : فنم إذن ياحبيبي . ومرّ موسى عليه السلام برجل نائم على التراب وتحت رأسه لبنة ووجهه ولحيته في التراب وهو متّزر بعباءة فقال : يا ربّ عبدك هذا في الدّنيا ضايع فأوحى الله إليه : يا موسى أما علمت أنّي إذا نظرت إلى عبدي بوجهي كلّه زويت عنه الدّنيا كلّها .

وعن أبي رافع قال : وفد على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ضيف فلم يجد عنده مايصلحه فأرسلني إلى رجل من يهود خيبر و قال : قل له : يقول لك محمّد : أسلفني أو بعني دقيقاً إلى هلال رجب قال : فأتيته فقال : لا والله إلّا برهن فأخبرت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بذلك فقال : أما والله إنّي لأمين في أهل السماء وأمين في أهل الأرض ولو باعني أو أسلفني لأدّيت إليه إذهب بدرعي هذا إليه فأرهنه ، فلمّا خرجت نزلت هذه الآية « ولا تمدنّ عينيك إلى مامتّعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدّنيا - الآية - تعزية له عن الدّنيا » (١) .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : «الفقر أزين للمؤمنين من العذار الحسن على خدّ الفرس» (٢) .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « من أصبح منكم آمناً في سربه معافى في جسمه وعنده طعام يومه فكأنّما حيزت له الدّنيا بحذافيرها» (٣) .

و قال عليه السلام : « تحفة المؤمن في الدّنيا الفقر » (٤) و قال عيسى عليه السلام : بشدّة يدخل الغنى الجنّة .

وفي خبر عن أهل البيت عليهم السلام أنّه عليه السلام قال : « إذا أحبّ الله عبداً ابتلاه فإذا أحبّه الحبّ البالغ اقتناه قيل : وما اقتناه قال : لم يترك له أهلاً ولا مالاً » (٥) .

---

(١) قال العراقى : أخرجه الطبرانى بسند ضعيف .

(٢) أخرجه الطبرانى فى الكبير من حديث شداد بن أوس و سعيد بن مسعود بسند ضعيف كما فى الجامع الصغير . و رواه الكلينى فى الكافى بسند حسن كماتقدم .

(٣) أخرجه ابن ماجه وغيره و قد تقدم .

(٤) أخرجه الديلمى فى مسند الفردوس من حديث معاذ كما فى الجامع الصغير .

(٥) أخرجه الطبرانى من حديث أبى عتبة الخولانى (المغنى) .

وعن النبيّ صلّى الله عليه وآله أنّه قال: «يؤتى بالعبد يوم القيامة فيعتذر الله تعالى إليه كما يعتذر الرّجل إلى الرّجل في الدّنيا فيقول وعزّتي وجلالي ما زويت الدّنيا عنك لهوانك عليّ ولكن لما أعددت لك من الكرامة والفضيلة اُخرج يا عبدي: إلى هذه الصفوف فمن أطعمك فيّ أو كساك في يريد بذلك وجهي فخذه بيده فهو لك والناس يومئذ قد ألجمهم العرق فيتخلّل الصفوف وينظر من فعل ذلك به فيأخذه بيده ويدخله الجنّة»[1].

أقول: وهذا الحديث في الكافي عن الصادق عليه السلام هكذا «إنّ الله يلتفت يوم القيامة إلى فقراء المؤمنين شبيهاً بالمعتذر إليهم فيقول: وعزّتي وجلالي ما أفقرتكم في الدّنيا من هوان بكم عليّ ولترون ما أصنع بكم اليوم فمن زوّد أحداً منكم في دار الدّنيا معروفاً فخذوا بيده فأدخلوه الجنّة قال: فيقول رجل منهم: يارب إنّ أهل الدّنيا تنافسوا في دنياهم فنكحوا النّساء و لبسوا الثياب اللّينة و أكلوا الطعام و سكنوا الدّور وركبوا المشهور من الدّوابّ فأعطني مثل ما أعطيتهم فيقول الله تبارك وتعالى: لك ولكلّ عبد منكم مثل ما أعطيت أهل الدّنيا منذ كانت الدّنيا إلى أن انقضت الدّنيا سبعون ضعفاً»[2].

قال أبو حامد: وقال عليه السلام: «أكثروا معرفة الفقراء واتّخذوا عندهم الأيادي فإنّ لهم دولة فقالوا: يا رسول الله و ما دولتهم قال: إذا كان يوم القيامة قيل لهم: انظروا من أطعمكم كسرة أو سقاكم شربة أو كساكم ثوباً فخذوا بيده ثمّ امضوا به إلى الجنّة»[3].

وقال عمران بن حصين: كانت لي من رسول الله صلّى الله عليه وآله منزلة وجاه فقال: «يا عمران إنّ لك عندنا منزلة وجاهاً فهل لك في عيادة فاطمة بنت رسول الله؟ فقلت: نعم بأبي أنت واُمّي يا رسول الله فقام وقمت معه حتّى وقف بباب فاطمة فقرع الباب وقال: السلام

(١) أخرج أبو الشيخ فى كتاب الثواب من حديث أنس باسناد ضعيف نحوه (المغنى).

(٢) المصدر ج ٢ ص ٢٦١ تحت رقم ٩.

(٣) أخرجه أبو نعيم فى الحلية من حديث الحسين بن على عليهما السلام باختلاف فى آخره كما فى الجامع الصغير.

عليكم أأدخل ؟ فقالت : ادخل بأبي أنت و اُمّي يا رسول الله ، فقال : أنا ومن معي؟ قالت : و من معك يا رسول الله ، قال عمران : فقالت فاطمة : و الّذي بعثك بالحقّ نبيّاً ما عليّ إلاّ عباءة قال : اصنعي بها هكذا وهكذا وأشار بيده فقالت: هذا جسدي قد واريته فكيف لي برأسي فألقى إليها ملاءة كانت عليه خلقة فقال : شدّي بها على رأسك ، ثمّ أذنت له فدخل فقال : السلام عليك يا بنتاه كيف أصبحت فقال:أصبحت والله وجعة وزادني وجعاً على ما بي إنّي لست أقدر على طعام آكله وقد أضرّ بي الجوع فبكى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فقال : لاتجزعي يا ابنتاه فوالله ما ذقت طعاماً منذ ثلاث وإنّي لأكرم على الله منك ولو سألت ربّي لأطعمني ولكن آثرت الآخرة على الدّنيا،ثمّ ضرب بيده على منكبها وقال لها : أبشري فوالله إنّك لسيّدة نساء أهل الجنّة .قالت: فأين آسية امرأة فرعون ، و مريم بنت عمران ، و خديجة بنت خويلد؟ قال : آسية سيّدة نساء عالمها ، ومريم سيّدة نساء عالمها ، وخديجة سيّدة نساء عالمها ، وأنت سيّدة نساء عالمك إنّكنّ في بيوت من قصب لاأذى فيها ولاصخب ولا نصب ، ثمّ قال لها : اقنعي بابن عمّك فوالله لقد زوّجتك سيّداً في الدّنيا سيّداً في الآخرة » [١].

و روي عن عليّ عليه السلام أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قال : « إذا أبغض النّاس فقراءهم و أظهروا عمارة الدّنيا وتكالبوا على جمع الدّراهم و الدّنانير رماهم الله بأربع خصال بالقحط من الزّمان ، والجور من السلطان ، و الخيانة من ولاة الأحكام و الشوكة من الأعداء » [٢] و قال يحيى بن معاذ: حبّك للفقراء من أخلاق المرسلين، وإيثارك مجالستهم من علامات الصالحين ، و فرارك من صحبتهم من علامة المنافقين . و في الأخبار من الكتب السالفة أنّ الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه : احذر أن أمقتك فتسقط من عيني ، فأصبّ عليك الدّنيا صبّاً .

❁(بيان فضيلة خصوص الفقراء من الراضين والقانعين والصادقين)❁

قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « طوبى لمن هدي إلى الإسلام و كان عيشه كفافاً وقنع به » [٣].

---

(١) تقدم سابقاً . (٢) أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس . (المغنى)

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه و قد تقدم .

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « يا معشر الفقراء اعطوا الله الرّضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم و إلّا فلا » (١) فالأوّل للقانع و هذا للرّاضي و يكاد يشعر هذا بمفهومه أنّ الحريص لا ثواب له على فقره ، ولكنّ العمومات الواردة في فضل الفقراء يدلّ على أنّ له ثواباً كما سيأتي تحقيقه ، فلعلّ المراد بعدم الرّضا هو الكراهة لفعل الله في حبس الدّنيا عنه، وربّ راغب في المال لا يخطر بقلبه إنكار على الله ولا كراهة في فعله فتلك الكراهة هي الّتي تحبط ثواب الفقر .

و روي عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم «أنّ لكلّ شيء مفتاحاً ومفتاح الجنّة حبّ المساكين والفقراء لصبرهم ، هم جلساء الله يوم القيامة »(٢).

و روي عن عليّ عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال : « أحبّ العباد إلى الله الفقير القانع برزقه الرّاضي عن الله تعالى »(٣). وقال صلى الله عليه وآله وسلم :« اللّهمّ اجعل قوت آل محمّد كفافاً »(٤). و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « ما من أحد غنيّ ولا فقير إلّا ودّ يوم القيامة أنّه كان اُوتي قوتاً في الدّنيا »(٥).

و أوحى الله تعالى إلى إسماعيل عليه السلام: اطلبني عند المنكسرة قلوبهم من أجلي، قال : و من هم قال : الفقراء الصادقون .

و قال عليه السلام : « لا أحد أفضل من الفقير إذا كان راضياً » (٦). و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « يقول الله تعالى يوم القيامة: أين صفوتي من خلقي فتقول الملائكة : ومن هم يا ربّنا فيقول : فقراء المسلمين القانعون بعطائي الرّاضون بقدري ادخلوهم الجنّة فيدخلونها

---

(١) أخرجه الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى هريرة بسند ضعيف جداً كما فى المغنى و روى نحوه الكلينى فى الكافى ج ٢ ص ٢٦٣ .

(٢) أخرجه أبو بكر بن لال من حديث ابن عمر ، كما فى الجامع الصغير .

(٣) قال العراقى : لم أجده بهذا اللفظ .

(٤) أخرجه المسلم ج من حديث أبى هريرة وقد تقدم .

(٥) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤١٤٠ .

(٦) ما عثرت على أصل له .

و يأكلون و يشربون و الناس في الحساب يتردّدون » [١] فهذا في القانع والرّاضي فأمّا الزّاهد فسنذكر فضله في الشطر الثاني من الكتاب .

أقول: ومن طريق الخاصّة الخبران اللّذان مرّا في أوّل الباب .

و عن الصّادق عليه السلام : « مكتوب في التوراة ابن آدم كن كيف شئت كما تدين تُدان ، من رضي من الله بالقليل من الرّزق قبل الله منه اليسير من العمل ، و من رضي باليسير من الحلال خفّت مؤونته وزكت مكسبته و خرج من حدّ الفجور» [٢] .

و عنه عليه السلام : «إنّ الله يقول : يحزن عبدي المؤمن إن قترت عليه وذلك أقرب له منّي. و يفرح عبدي المؤمن إن وسعت عليه و ذلك أبعد له منّي» [٣] .

و عن أمير المؤمنين عليه السلام « ابن آدم إن كنت تريد من الدّنيا ما يكفيك فإنّ أيسر ما فيها يكفيك وإن كنت إنّما تريد ما لا يكفيك فإنّ كلّ ما فيها يكفيك» [٤] .

و عن الباقر عليه السلام « إيّاك أن تطمح بصرك إلى من هو فوقك فكفى بما قال الله لنبيّه صلى الله عليه وآله : «و لا تعجبك أموالهم ولا أولادهم » [٥] و قال : « ولا تمدّنّ عينيك إلى ما متّعنا به أزواجاً منهم زهرة الحيوة الدّنيا» [٦] فإن دخلك من ذلك شيء فاذكر عيش رسول الله صلى الله عليه وآله فإنّما كان قوته الشعير و حلواه التمر و وقوده السّعف إذا وجده » [٧] .

قال أبو حامد : و أمّا الآثار في القناعة و الرّضا فكثيرة ، قال : وكان أبوذرّ يوماً جالساً في النّاس فأتته امرأة فقالت له : أتجلس بين هؤلاء والله ما في البيت هِفّة

(١) أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس كما في المغني .
(٢) الكافي ج ٢ ص ١٣٨ تحت رقم ٤ .
(٣) الكافي ج ٢ ص ١٤١ تحت رقم ٥ .
(٤) الكافي ج ٢ ص ١٣٨ تحت رقم ٦ .
(٥) التوبة : ٥٦ . هكذا « فلا تعجبك » .
(٦) طه : ١٣١ .
(٧) الكافي ج٢ ص ١٣٧ تحت رقم١ ، والوقود : الحطب وما يوقد به . والسعف : اغصان النخل ما دامت في الخوص .

ولا سُفّة (١) فقال : يا هذه إنّ بين أيدينا عقبة كؤوداً لا ينجو منها إلّا كلّ مخفّ فرجعت و هي راضية .

و قال ذوالنّون : أقرب النّاس إلى الكفر ذوفاقة لا صبر له . و قيل لبعض الحكماء : ما مالك ؟ فقال : التجمّل في الظّاهر ، والقصد في الباطن ، و اليأس ممّا في أيدي الناس. و روي أنّ الله تعالى قال في بعض الكتب المنزلة : ياابن آدم لو كانت الدّنيا كلّها لك لم يكن لك منها إلّا القوت فإذا أنا أعطيتك منها القوت و جعلت حسابها على غيرك فأنا إليك محسن . و قيل في القناعة :

اضرع إلى الله لا تضرع إلى النّاس ✡ واقنع بيأس فإنّ العزّ في اليأس
واستغن عن كلّ ذي قربى وذي رحم ✡ إنّ الغنيّ من استغنى عن النّاس

و قيل :

يا جامعاً مانعاً والدّهر يرمقه ✡ مقدّراً أيّ باب منه يغلقه
مفكّراً كيف تأتيه منيّته ✡ أغادياً أم بها يسري فتطرقه
جمعت مالاً ففكّر هل جمعت له ✡ يا جامع المال أيّاما تفرّقه
المال عندك مخزون لوارثه ✡ ما المال مالك إلّا يوم تنفقه
أرفه ببال فتى يغدو على ثقة ✡ إنّ الّذي قسّم الأرزاق يرزقه
فالعرض منه مصون ما يدنّسه ✡ والوجه منه جديد ليس يخلقه
إنّ القناعة من يحلل بساحتها ✡ لم يبق في ظلّها همّاً يؤرقه

✡(بيان فضيلة الفقر على الغنى)✡

أقول : ذكر أبوحامد أوّلاً في بيان فضيلة الفقر على الغنى أقوال الناس و اختلافهم و حججهم و بسط الكلام في ذلك بما لاطائل تحته ثمّ قال : فكشف الغطاء في هذا هو ما ذكرناه في كتاب الصبر و هو أنّ مالا يراد لعينه بل يراد لغيره فينبغي أن يضاف إلى مقصوده إذ به يظهر فضيلته والدّنيا ليست محذورة لعينها ولكن لكونها

(١) أي ما في البيت مشروب ولا مأكول (النهاية) .

عائقة عن الوصول إلى الله ولا الفقر مطلوب لعينه ولكن لأنّ فيه فقد العائق عن الله و عدم الشاغل عنه ، و كم من غنيّ لم يشغله الغنى مثل سليمان بن داود عليهما السلام ، و كم من فقير شغله الفقر وصرفه عن المقصد ، وغاية المقصود في الدّنيا هو حبّ الله والاُنس به ولا يكون ذلك إلّا بعد معرفته و سلوك سبيل المعرفة مع الشواغل غير ممكن و الفقر قد يكون من الشواغل كما أنّ الغنى قد يكون من الشواغل و إنّما الشواغل على التحقيق حبّ الدّنيا إذ لا يجتمع معه حبّ الله في القلب والمحبّ للشيء مشغول به سواء كان في فراقه أو في وصاله ، و ربّما يكون شغله في الفراق أكثر و ربّما يكون في الوصال أكثر ، والدّنيا معشوقة الغافلين والمحروم عنها مشغول بها و بطلبها والقادر عليها مشغول بحفظها و بالتمتّع منها ، فإذن إن فرضت فارغين من حبّ المال بحيث صار المال في حقّهما كالماء ، استوى الفاقد و الواجد إذ كلّ واحد غير متمتّع إلّا بقدر الحاجة و وجود قدر الحاجة أفضل من فقده إذ الجائع يسلك سبيل الموت لا سبيل المعرفة وإن أخذت الأمر باعتبار الأكثر فالفقر عن الخطر أبعد إذ فتنة السرّاء أشدّ من فتنة الضرّاء ، ومن العصمة أن لاتقدر ولذلك قالت الصحابة: بلينا بفتنة الضرّاء فصبرنا وبلينا بفتنة السرّاء فلم نصبر ، وهذا خلقة الآدميّين كلّهم إلّا الشاذّ الفذّ الّذي لا يوجد في الأعصار الكثيرة إلّا نادراً فلمّا كان خطاب الشرع مع الكلّ لا مع ذلك النادر والضرّاء أصلح للكلّ دون ذلك النادر زجر الشرع عن الغنى وذمّه وفضّل الفقر ومدحه ، حيث قال عيسى عليه السلام : «لاتنظروا إلى أموال أهل الدّنيا فإنّ بريق أموالهم يذهب بنور إيمانكم » و قال بعض العلماء : تقليب الأموال يمصّ حلاوة الإيمان .

وفي الخبر «إنّ لكلّ اُمّة عجل وعجل هذه الاُمّة الدّنيار والدّرهم »(١) وكان أصل عجل قوم موسى من حلية الذّهب والفضّة أيضاً ، واستواء المال والماء والذّهب و الحجر إنّما يتصوّر للأنبياء ثمّ يتمّ لهم ذلك بعد فضل الله تعالى بطول المجاهدة

(١) أخرجه الديلمى فى الفردوس من حديث حذيفة كما فى كنوز الحقائق للمناوى .

إذ كان صلّى الله عليه وآله يقول للدُّنيا : « إليك عنّي إليك عنّي »[1] إذ كانت الدُّنيا تتمثّل له بزينتها ، وكان عليٌّ عليه السلام يقول : « ياصفراء غرّي سواي ويا بيضاء غرّي غيري »[2] وذلك لاستشعاره في نفسه ظهور مبادي الاغترار بها لولا أن رأى برهان ربّه ، وذلك هو الغنيُّ المطلق إذ قال عليه السلام : « ليس الغنى بكثرة العرض إنّما الغنى غنى النفس »[3] وإذا كان ذلك بعيداً فإذن الأصلح لكافّة الخلق فقد المال وإن تصدّقوا بها وصرفوها إلى الخيرات لأنّهم لا ينفكّون في القدرة على المال عن الاُنس بهذا العالم وبقدر ما يأنس العبد بالدُّنيا يستوحش من الآخرة وبقدر ما يأنس بصفة من صفاته سوى صفة المعرفة بالله يستوحش من الله ومن حبّه ، ومهما انقطعت أسباب الاُنس بالدُّنيا تجافى القلب عن الدُّنيا وزهرتها والقلب إذا تجافى عمّا سوى الله وكان مؤمناً بالله انصرف لا محالة إلى الله إذ لا يتصوَّر قلب فارغ وليس في الوجود إلّا الله وغيره فمن أقبل على غيره فقد تجافى عنه ، ومن أقبل عليه تجافى من غيره ويكون إقباله على أحدهما بقدر تجافيه عن الآخر وقربه من أحدهما بقدر بعده من الآخر ومثلهما مثل المشرق والمغرب فإنّهما جهتان فالمتردِّد بينهما بقدر ما يقرب من أحدهما يبعد من الآخر بل عين القرب من أحدهما هو عين البعد عن الآخر فعين حبّ الدُّنيا هو عين بغض الله ، فينبغي أن يكون مطمح نظر العارف قلبه في عزوفه عن الدُّنيا واُنسه بها فإذن فضل الفقير والغنيِّ بحسب تعلّق قلبيهما بالمال فقطّ فإن تساويا فيه تساوت درجتهما إلّا أنَّ هذا مزلّة الأقدام وموضع الغرور فإنَّ الغنيَّ ربّما يظنُّ أنّه منقطع القلب عن المال ويكون حبّه دفيناً في باطنه وهو لا يشعر به وإنّما يشعر به إذا فقده فليجرِّب نفسه بتفريقه وإذا سرق منه فإن وجد لقلبه إليه التفاتاً فليعلم أنّه كان مغروراً فكم من رجل باع سريّة له لظنّه أنّه منقطع القلب عنها فبعد لزوم البيع وتسليم الجارية اشتعل من قلبه النار الّتي كانت مستكنّة فيه فتحقّق إذن أنّه كان مغروراً وإنَّ العشق

(١) أخرجه الحاكم باختلاف فى المستدرك ج ٤ ص ٣٠٩ .
(٢) روى مثله الصدوق فى الامالى من حديث ضرار بن ضمرة الليثى وفى النهج مثله .
(٣) أخرجه البخارى ج ٨ ص ١١٨ .

كان مستكنّاً في الفؤاد استكنان النار تحت الرّماد، وهذا حال كلّ الأغنياء إلّا الأنبياء و الأولياء، وإذا كان ذلك محالاً أو بعيداً فلنطلق القول بأنّ الفقر أصلح لكافّة الخلق و أفضل لأنّ علاقة الفقير واُنسه بالدّنيا أضعف و بقدر ضعف علاقته يتضاعف ثواب تسبيحاته و عباداته فإنّ حركات اللّسان ليست مرادة لأعيانها بل ليتأكّد بها الاُنس بالمذكور ولا يكون تأثيرها في أثارة الاُنس في قلب فارغ عن غير المذكور كتأثيرها في قلب مشغول، ولذلك قال بعض السلف : مثل من تعبّد وهو في طلب الدّنيا مثل من يطفيء النّار بالحلفاء، ومثل من يغسل يده من الغمر بالسمن.

أقول: وفي الكافي عن الصادق عليه السلام في قوله عزّ وجلّ : « إلّا من أتى الله بقلب سليم » [1] قال : « القلب السليم الّذي يلقى ربّه وليس فيه أحد سواه ، قال: و كلّ قلب فيه شرك أو شكّ فهو ساقط و إنّما أرادوا بالزّهد في الدّنيا لتفرغ قلوبهم للآخرة » [2].

(بيان آداب الفقير في فقره)

للفقير آداب في باطنه وظاهره ومخالطته وأفعاله ينبغي أن يراعيها وأمّا أدب باطنه فأن لا يكون فيه كراهة لما ابتلاه الله به من الفقر ، أعني به أنّه لا يكون كارهاً فعل الله من حيث أنّه فعله و إن كان كارهاً للفقر كالمحجوم يكون كارهاً للحجامة لتألّمه بها ولا يكون كارهاً فعل الحجّام ولا كارهاً له بل ربّما يتقلّد منّة منه فهذا أقلّ درجاته وهو واجب ونقيضه حرام ومحبط ثواب الفقر ، وهو معنى قوله عليه السلام: « يا معشر الفقراء اعطوا الله الرّضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم و إلّا فلا » [3] و أرفع من هذا أن يكون كارهاً للفقر بل يكون راضياً به ، و أرفع منه أن يكون طالباً له و فرحاً به لعلمه بغوائل الغنى ويكون متوكّلاً في باطنه على الله واثقاً به في قدر ضرورته أنّه يأتيه لا محالة ويكون كارهاً للزّيادة على الكفاف.

أقول: هذا ينافي قوله فيما مضى أنّ أرفع المراتب أن يكون الفقر والغنى عنده

---

(١) الشعراء : ٨٩ .	(٢) المصدر ج ٢ ص ١٦ تحت رقم ٥ .
(٣) تقدم آنفاً .

متساوين .

قال : وقد قال علي عليه السلام : «إنّ لله عقوبات بالفقر ومثوبات بالفقر فمن علامة الفقر إذا كان مثوبة أن يحسن عليه خلقه و يطيع به ربّه و لا يشكو حاله و يشكر الله على فقره ، ومن علاماته إذا كان عقوبة أن يسيء عليه خلقه ويعصي به ربّه ويكثر الشكاية ويتسخّط بالقضاء » وهذا يدلّ على أنّ كلّ فقير فليس بمحمود بل الّذي لا يتسخّط أو يرضى أو يفرح بالفقر يرضى لعلمه بثمرته إذ قيل ما اعطى عبد شيئاً من الدّنيا إلّا قيل له : خذه على ثلاثة أثلاث : شغل وهمّ وطول حساب ، وأمّا أدب ظاهره فأن يظهر التعفّف والتجمّل ولا يظهر الشكوى والفقر بل يستر فقره ويستر أنّه يستره ففي الحديث «إنّ الله يحبّ الفقير المتعفّف أبا العيال » (١) وقال تعالى : « يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفّف»(٢) وقيل : أفضل الأعمال التجمّل عند المحنة . وقال بعضهم : ستر الفقر من كنوز البر . و أمّا أدبه في مخالطته فأن لا يتواضع لغنيّ لأجل غناه بل يتكبّر عليه قال علي عليه السلام : « ما أحسن تواضع الغنيّ للفقير رغبة في ثواب الله وأحسن منه تيه الفقير على الغنيّ ثقة بالله عزّ وجلّ » فهذه رتبة الفقير وأقلّ منها أن لا يخالط الأغنياء ولا يرغب في مجالستهم لأنّ ذلك من مبادي الطمع . قال بعض العارفين : إذا مال الفقير إلى الأغنياء انحنت عروته ، فإذا طمع فيهم انقطعت عصمته ، فإذا سكن إليهم ضلّ . وينبغي أن لا يسكت عن ذكر الحقّ مداهنة للأغنياء وطمعاً في العطاء .

وأمّا أدبه في أفعاله فأن لا يفتر بسبب الفقر عن عبادة الله ولا يمنع بذل قليل ما يفضل عنه فإنّ ذلك جهد المقلّ و فضله أكثر من أموال كثيرة تبذل عن ظهر غنى قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : «درهم من الصدقة أفضل عند الله من مائة ألف درهم . قيل : و كيف ذلك يا رسول الله ؟ قال : أخرج رجل من عُرض ماله مائة ألف فتصدّق بها ، و أخرج رجلٌ درهماً من درهمين لا يملك غيرهما طيبة به نفسه فصار صاحب الدّرهم أفضل من صاحب مائة ألف» (٣) وينبغي أن لا يدّخر مالاً بل يأخذ قدر الحاجة ويخرج الباقي .

(١) تقدم كراراً . (٢) البقرة : ٢٧٣ .

(٣) أخرجه النسائي ج ٥ ص ٥٩ كتاب الزكاة باب جهد المقل و قوله عليه السلام : « عرض ماله » بضم العين المهملة و سكون الراء أي جانبه .

و في الادّخار ثلاث درجات احداها أن لا يدّخر إلّا ليومه و ليلته و هي درجة الصدّيقين ، والثانية أن يدّخر لأربعين يوماً فانّ ما زاد عليه داخل في طول الأمل وقد فهم العلماء ذلك من ميعاد الله تعالى لموسى عليه السلام ففهم منه الرّخصة في أمل الحياة أربعين يوماً وهذه درجة المتّقين ، والثالثة أن يدّخر لسنته وهي أقصى المراتب وهي رتبة الصالحين ومن زاد في الادّخار على هذه فهو واقع في غمار العموم خارج عن حيّز الخصوص بالكلّيّة فغنى الصالح الضعيف في طمأنينة قلبه في قوت سنته وغنى الخصوص في أربعين يوماً وغنى خصوص الخصوص في يوم وليلة .

(بيان آداب الفقير في قبول العطاء اذا جاءه بغير سؤال)

ينبغي أن يلاحظ الفقير فيما جاءه ثلاثة أُمور نفس المال وغرض المعطي وغرضه في الأخذ . أمّا نفس المال فينبغي أن يكون حلالاً خالياً عن الشبهات كلّها فان كان فيه شبهة فليحترز من أخذه ، وقد ذكرنا في كتاب الحلال و الحرام درجات الشبهة وما يجب اجتنابه و ما يستحبّ تناولها . وأمّا غرض المعطي فلا يخلو إمّا أن يكون غرضه تطييب قلبه وطلب محبّته وهو الهديّة أو الثواب وهو الصدقة و الزّكاة أو الذّكر والرّياء والسمعة إمّا على التجرّد و إمّا ممزوجاً ببقية الأغراض ، أمّا الأوّل و هو الهديّة فلا بأس بقبولها فانّ قبولها سنّة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ولكن ينبغي أن لا يكون فيها منّة و إن كان فيها منّة فالأولى تركها فان علم أنّ بعضها ممّا تعظم فيه المنّة فليردّ البعض دون البعض ، فقد أهدى رجل إلى النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم سمناً و أقطاً و كبشاً فقبل السمن والأقط وردّ الكبش» (١) وكان صلّى الله عليه وآله وسلّم يقبل من بعض الناس ويردّ على بعض (٢) و قال : «لقد هممت أن لا أتّهب إلّا من قرشيّ أو ثقفيّ أو أنصاري أو دوسيّ» (٣) وفعل هذا جماعة من الصحابة والتابعين ، وجيء بصرّة إلى فتح الموصلي فيها خمسون درهماً فقال : حدّثنا عطاء عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّه قال : «من أتاه رزق من غير مسئلة و ردّه

---

(١) أخرجه أحمد في ضمن حديث ليعلى بن مرة و اسناده جيد .

(٢) راجع مسند أبي داود الطيالسي ص ١٤٦ تحت رقم ١٠٨٢ و١٠٨٣ .

(٣) أخرجه النسائي ج ٦ ص ٢٨٠ من حديث أبي هريرة .

فإنّما يردّه على الله » (١) ثمّ فتح الصرّة فأخذ منها درهماً وردّ سائرها . و كان إبراهيم التيمي يسأل أصحابه الدّرهم والدّرهمين ونحوه ويعرض عليه غيرهم المئين فلا يأخذها ، وكان بعضهم إذا أعطاه صديقه شيئاً يقول : اتركه عندك و انظر إن كنت بعد قبوله في قلبك أفضل منّي قبل القبول فأخبرني حتّى آخذه و إلّا فلا ، و أمارة هذا أن يشقّ عليه الرّدّ لو ردّه ويفرح بالقبول و يرى المنّة على نفسه في قبول صديقه هديّته فإن علم أنّه يمازجه منّة فأخذه مباح ولكنّه مكروه عند الفقراء الصادقين .

و قال بشر : ما سألت أحداً قطّ شيئاً إلّا سريّاً السقطي لأنّه قد صحّ عندي زهده في الدّنيا فهو يفرح بخروج الشيء من يده و يتبرّم ببقائه عنده فأكون عوناً على ما يحبّ . وجاء خراسانيّ إلى الجنيد بمال و سأله أن يأكله فقال : افرقه على الفقراء ، فقال : ما اُريد هذا ، فقال : و متى أعيش إلى إن آكل هذا ، فقال : ما اُريد أن تنفقه في الخلّ والبقل بل في الحلاوات والطيّبات فقبل فقال الخراساني : ما أجد ببغداد أمنّ عليّ منك فقال الجنيد : وما ينبغي أن يقبل إلّا من مثلك .

الثاني أن يكون للثواب المجرّد وذلك صدقة أو زكاة فعليه أن ينظر في صفات نفسه أنّه هل هو مستحقّ للزكاة فإن اشتبه عليه فهو محلّ شبهة وقد ذكرنا تفصيل ذلك في كتاب أسرار الزّكاة ، وإن كان يعطيه لظنّه أنّه عالم أو علويّ ولم يكن كذلك فإنّ أخذه حرام محض لاشبهة فيه .

الثالث أن يكون غرضه الشهرة والرّياء و السمعة فينبغي أن يردّ عليه قصده الفاسد و لا يقبله إذ يكون معيناً له على غرضه الفاسد . وكان بعضهم يردّ ما يعطى ويقول : لو علمت أنّهم لايذكرون ذلك افتخاراً به لأخذت . وعوتب بعضهم في ردّه ما كان يأتيه من صلة فقال : إنّما أردّ صلتهم إشفاقاً و نصحاً لهم لأنّهم يذكرون

---

(١) قال العراقى : لم أجده مرسلا هكذا و لاحمد و أبى يعلى و الطبرانى باسناد جيد من حديث خالد بن عدى الجهنى « من بلغه معروف من أخيه من غير مسألة و لا اشراف نفس فليقبله ولا يرده فانما هورزق ساقه الله عز وجل اليه» اه. أقول : وروى نحوه الطيالسى تحت رقم ٢٤٧٨ من حديث أبى هريرة .

و يحبون أن يعلم به فتذهب أموالهم ويحبط أجرهم ، وأمّا غرضه في الأخذ فينبغي أن ينظر أهو محتاج إليه فيما لابدّ منه أوهو مستغنى عنه فإن كان محتاجاً إليه وقد سلم من الشبهة و الآفات الّتي ذكرناها في المعطي فالأفضل له الأخذ قال صلى الله عليه وآله وسلم : « ما المعطي من سعة بأعظم أجراً من الآخذ إذا كان محتاجاً »[1] وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « من آتاه شيء من هذا المال من غير مسئلة ولا استشراف فإنّما هو رزق ساقه الله إليه » وفي لفظ آخر « فلا يردّه »[2] وقال بعض العلماء : من اُعطي ولم يأخذ سأل ولم يعط . وقد قال بعض العلماء : يخاف في الردّ مع الحاجة عقوبة من ابتلاء بطمع أو دخول في شبهة أو غيره فأمّا إذا كان ما آتاه زائداً على حاجته فلا يخلو إمّا أن يكون حاله الاشتغال بنفسه أوالتكفّل باُمور الفقراء و الإنفاق عليهم لما في طبعه من الرفق والسخاء ، فإن كان مشغولاً بنفسه فلا وجه لأخذه و إمساكه إن كان طالباً طريق الآخرة فإنّ ذلك محض اتّباع الهوى و كلّ عمل ليس لله فهو من سبيل الشيطان أوداع إليه « ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه » . ثمّ له مقامان أحدهما أن يأخذ في العلانية و يردّ في السرّ أو يأخذ في العلانية ويفرّق في السرّ ، وهذا مقام الصدّيقين وهو شاقّ على النفس لا يطيقه إلّا من اطمأنّت نفسه بالرّياضة ، و الثاني أن يترك ولا يأخذ ليصرفه صاحبه إلى من هو أحوج منه أو يأخذ و يوصله إلى من هو أحوج منه فيقع كلاهما في السرّ أو كلاهما في العلانية ، وقد ذكرنا هل الأفضل إظهار الأخذ أو إخفاؤه في كتاب أسرار الزّكاة مع جملة من أحكام الفقر فليطلب منه .

وقال بعض المجاورين بمكّة : كانت عندي دراهم أعددتها للإنفاق في سبيل الله فسمعت فقيراً قد فرغ من طوافه وهو يقول بصوت خفيّ : أنا جائع كما ترى عريانٌ كما ترى ، فما ترى فيما ترى يا من يرى ولا يرى ؟ فنظرت فإذا عليه خلقان لاتكاد تواريه ، فقلت : في نفسي لا أجد لدراهمي موضعاً أحسن من هذا فحملتها إليه فنظر إليها ثمّ أخذ منها خمسة دراهم فقال : أربعة دراهم ثمن مئزرين ودرهم أنفقه ثلاثاً فلا حاجة بي إلى

(١) أخرجه الطبراني في الكبير بسند صحيح من حديث ابن عمر كما في الجامع الصغير .
(٢) تقدم آنفاً .

الباقي فردّه، قال: فرأيته اللّيلة الثانية وعليه مئزران جديدان فهجس في نفسي منه شيء فالتفت إليّ فأخذ بيدي فأطافني معه اُسبوعاً كلّ شوط منها في جوهر من معادن الأرض يتخشخش تحت أقدامنا إلى الكعبين منها ذهب وفضّة وياقوت ولؤلؤ وجوهر ولم يظهر ذلك للناس فقال: هذا كلّه قد أعطانيه فزهدت فيه وآخذ من أيدي الخلق لأنّ هذه أثقال و فتنة وذلك للعباد فيه رحمة ونعمة. والمقصود من هذا أنّ الزيادة على قدر الحاجة إنّما تأتيك ابتلاء و فتنة لينظر الله إليك ماذا تعمل فيه و قدر الحاجة يأتيك رفقاً بك، فلا تغفل عن الفرق بين الرّفق والابتلاء قال الله تعالى: «إنّا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيّهم حسن عملاً»[1].

و قد قال صلّى الله عليه وآله وسلّم: «لا حقّ لابن آدم إلاّ في ثلاث: طعام يقيم صلبه، و ثوب يواري عورته، وبيت يكنّه فمازاد فهو حساب»[2] فإذن أنت في أخذ قدر الحاجة من هذه الثلاث مثاب و فيما زاد عليه إن لم تعص الله متعرّض للحساب و إن عصيت الله فأنت متعرّض للعذاب.

ومن الاختبار أيضاً أن تعزم على ترك لذّة من اللّذّات تقرّباً إلى الله تعالى و كسراً لصفة النفس فتأتيك عفواً صفواً لتمتحن به قوّة عقدك فالأولى الامتناع عنها فإنّ النفس إذا رخصت في نقض العزم ألفت نقض العهد وعادت لعادتها فلا يمكن قهرها، ورد ذلك مهمّ وهو الزّهد فإن أخذته وصرفت إلى محتاج فهو غاية الزّهد ولا يقدر عليه إلّا الصدّيقون، فأمّا إذا كان حالك السخاء والبذل والتكفّل بحقوق الفقراء وتعهّد جماعة من الصلحاء، فخذ ما زاد على حاجتك فإنّه غير زائد على حاجة الفقراء، وبادر به إلى الصرف إليهم ولا تدّخر فإنّ إمساكه ولو ليلة واحدة فيه فتنة واختبار، فربّما يحلو في قلبك فتمسكه ويكون فتنة عليك، فقد تصدّى لخدمة الفقراء جماعة اتّخذوها وسيلة إلى التوسّع في المال والتنعّم في المطعم والمشرب وذلك هو الهلاك، ومن كان غرضه الرّفق وطلب الثواب به فله أن يستقرض على حسن الظنّ بالله لا

(١) الكهف: ٧.

(٢) أخرجه الترمذى ج ٩ ص ٢٠٦ بتقديم و تأخير واختلاف في اللفظ.

اعتماداً على السلاطين الظلمة فإن رزقه الله من حلال قضاه وإن مات قبل القضاء قضى الله تعالى عنه وأرضى غرماءه ، وذلك بشرط أن يكون مكشوف الحال عند من يقرضه فلا يغرّ المقرض ولا يخدعه بالمواعيد بل يكشف حاله عنده ليقدم على إقراضه على بصيرة ودَين مثل هذا الرّجل واجبٌ أن يقضى من مال بيت المال أو من الزّكوات فقد قال تعالى : « ومن قدر عليه رزقه فلينفق ممّا آتاه الله » (١) و قيل : معناه ليبيع أحد ثوبيه ، وقيل: معناه فليستقرض بجاهه، فذلك ممّا آتاه الله وقال بعضهم : إنّ لله تعالى عباد ينفقون على قدر بضائعهم و لله عباد ينفقون على قدر حسن الظنّ بالله . و مات بعضهم فأوصى بماله لثلاث طوائف الأقوياء و الأسخياء والأغنياء فقيل : من هؤلاء ؟ فقال : أمّا الأقوياء فهم أهل التوكّل على الله ، وأمّا الأسخياء فهم أهل حسن الظنّ بالله ، وأمّا الأغنياء فهم أهل الانقطاع إلى الله . فإذن مهما وجدت هذه الشروط فيه و في المال وفي المعطي فليأخذه ، وينبغي أن يرى ما يأخذه من الله لا من المعطي إنّما المعطي واسطة قد سخّر للعطاء وهو مضطرٌ إليه بما سلّط عليه من الدّواعي والإرادات والاعتقادات .

قال موسى عليه السلام : يارب جعلت رزقي هكذا في أيدي بني إسرائيل يغديني هذا يوماً و يعشيني هذا ليلة فأوحى الله إليه: هكذا أصنع بأوليائي أجري أرزاقهم على أيدي البطّالين من عبادي ليؤجروا فيهم . فلا ينبغي أن يرى المعطي إلّا من حيث أنّه مسخّر مأجور .

(بيان تحريم السؤال من غير ضرورة و آداب الفقير المضطر فيه)

اعلم أنّه قد وردت مناه كثيرة في السؤال وتشديدات ، و ورد فيه أيضاً ما يدلّ على الرّخصة والكاشف للغطاء فيه أنّ السؤال حرامٌ في الأصل و إنّما يباح بضرورة أو حاجة مهمّة قريبة من الضرورة فإن كان عنها بدٌّ فهو حرامٌ و إنّما قلنا : إنّ الأصل فيه التحريم لأنّه لا ينفكّ من ثلاثة اُمور محرّمة : الأوّل إظهار الشكوى من الله إذ السؤال إظهار للفقر و ذكر لقصور نعمة الله عليه و هو عين الشكوى و كما

(١) الطلاق : ٧ .

أنّ العبد المملوك لوسأل كان سؤاله تشنيعاً على سيّده ، فكذا سؤال العباد تشنيع على الله تعالى و هذا ينبغي أن يحرم ولايحلّ إلّا بضرورة كما يحلّ الميتة ، والثاني أنّ فيه إذلال السائل نفسه لغير الله وليس للمؤمن أن يذلّ نفسه لغير الله بل عليه أن يذلّ نفسه لمولاه فإنّ فيه عزّه فأمّا سائر الخلق فإنّهم عباد أمثاله ، فلا ينبغي أن يذلّ لهم إلّا بضرورة ، و في السؤال ذلّ للسائل بالإضافة إلى المسؤول ، والثالث أنّه لاينفكّ عن ايذاء المسؤول غالباً لأنّه ربّما لاتسمح نفسه بالبذل عن طيبة قلب منه فإن بذل حياء من السائل أو رياء فهو حرام على الآخذ وإن منع ربما استحيى وتأذّى في نفسه بالمنع إذيرى نفسه في صورة البخلاء ففي البذل نقصان ماله و في المنع نقصان جاهه و كلاهما مؤذيان والسائل هو السبب في الإيذاء والإيذاء حرام إلّا بضرورة ، ومهما فهمت هذه المحذورات فهمت قوله صلى الله عليه وآله وسلم حيث قال : «مسئلة الناس من الفواحش وما أحلّ من الفواحش غيرها » [1] فانظر كيف سمّاه فاحشة ولايخفى أنّ الفاحشة إنّما تباح بضرورة . وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « من سأل عن ظهر غنى فإنّما يستكثر من جمر جنهم» [2] «و من سأل وله مايغنيه جاء يوم القيامة و عظم وجهه يتقعقع ليس عليه لحم » [3] وفي لفظ آخر «كانت مسألته خدوشاً و كدوحاً في وجهه» [4] و هذه الألفاظ صريحة في التحريم والتشديد . وبايع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قوماً على الإسلام فاشترط عليهم السمع والطاعة ثمّ قال لهم كلمة خفيفة : « ولا تسألوا الناس شيئاً» [5] وكان يأمر كثيراً بالتعفّف

---

(١) قال العراقى : لم أجد له أصلا .

(٢) أخرجه أبوداود ج ١ ص ٣٧٨ و رواه عبدالله بن أحمد ، والطبرانى فى الاوسط بلفظ « رضف جهنم » و هو بمعنى جمر جهنم وفى اسناده ضعف كما فى مجمع الزوائد ج ٣ ص ٩٤ .

(٣) روى نحوه ابن ادريس فى مستطرفات السرائر . و فى مجمع الزوائد عن الطبرانى فى الاوسط مثله .

(٤) رواه أصحاب السنن و قد تقدم فى كتاب الزكاة .

(٥) أخرجه مسلم ج٣ ص ٩٧ من حديث عوف بن مالك الاشجعى . وأخرجه أبوداود السجستانى ج ١ ص ٣٨٢ .

عن السؤال ويقول : «من سألنا أعطيناه ومن استغنى أغناه الله» وقال : «ومن لم يسألنا فهو أحبُّ إلينا» (١) و قال : « استغنوا عن الناس و لو بشوص من سواك » (٢) و قال : « استغنوا عن السؤال و ما قلَّ من السؤال فهو خيرٌ قالوا : و منك يا رسول الله ؟ قال : و منّي » (٣) .

أقول: ومن طريق الخاصّة ماروواه في الكافي عن الباقر عليه السلام « لو يعلم السائل ما في المسئلة ما سأل أحدٌ أحداً ، و لو يعلم المعطي ما في العطيّة ماردَّ أحدٌ أحداً » (٤) .

و عن الصادق عليه السلام «إيّاكم وسؤال الناس فإنّه ذلّ في الدّنيا وفقر تعجّلونه وحساب طويل يوم القيامة » (٥) .

وعن النبيّ صلّى الله عليه وآله « الأيدي ثلاث يدالعليا و يدالمعطي الّتي تليها ويدالمعطى أسفل الأيدي فاستعفوا عن السؤال ما استطعتم إنَّ الأرزاق دونها حجبٌ فمن شاء قنى حياءه وأخذ رزقه ومن شاء هتك الحجاب و أخذ رزقه و الّذي نفسي بيده لأن يأخذ أحدكم عُرض الوادي فيحتطب حتّى لايلتقي طرفاه ثمّ يدخل به السوق فيبيعه بمدّ من تمر يأخذ ثلثه و يتصدّق بثلثيه خيرٌ له من أن يسأل الناس أعطوه أم حرموه » (٦) .

و عنه صلّى الله عليه وآله « من فتح على نفسه باباً من مسألة فتح الله عليه باب فقر » (٧) .

قال أبوحامد: فإذا عرفت أنَّ السؤال يباح لضرورة فاعلم أنَّ الشيء إمّا أن

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في القناعة والحارث بن أبي اسامة في مسنده من حديث أبي سعيد الخدري و روى صدره الكليني في الكافي ج ٢ ص ١٣٩ تحت رقم ٧ .

(٢) رواه البزار والطبراني في الكبير و رجاله ثقات كما في مجمع الزوائد ج ٣ ص ٩٤ . « بشوص من سواك » أي بغسالته وقيل بمايتفتت منه عندالتسوك .

(٣) ما عثرت على أصل له .

(٤) و (٥) و (٦) المصدر ج ٤ ص ٢٠ تحت رقم ٢ و ١ و ٣ .

(٧) الكافي ج ٤ ص ١٩ تحت رقم ٢ .

يكون مضطرّاً إليه أومحتاجاً إليه حاجة مهمّة أو حاجة خفيفة أومستغنى عنه ، فهذه أربعة أحوال؛ أمّا المضطرّ إليه فهو سؤال الجائع عند خوفه على نفسه موتاً ومرضاً ، وسؤال العاري وبدنه مكشوف ليس معه مايواريه وهومباح مهماوجدت بقيّة الشّروط في المسؤول بكونه مباحاً والمسؤول منه بكونه راضياً في الباطن وفي السائل بكونه عاجزاً عن الكسب فإنّ القادرعلى الكسب وهو بطّال ليس له السؤال إلّا إذا استغرق طلب العلم أوقاته و كلّ من له خطّ فهو قادرعلى الكسب بالوراقة ، وأمّا المستغني فهوالّذي يطلب شيئاًوعنده مثله وأمثاله فسؤاله حرام قطعاً وهذان طرفان واضحان ، وأمّا المحتاج حاجة مهمّة كمريض محتاج إلى دواء ليس يظهر خوفه لولم يستعمله و لكنّه لايخلو عن خوف و كمن له جبّة ولا قميص تحتها في الشتاء و هو يتأذّى بالبرد تأذّياً لاينتهي إلى حدّ الضرورة ، و كذلك من يسأل لأجل الكراء و هو قادر على المشي بمشقّة فهذا أيضاً ينبغي أن تسترسل عليه الاباحة لأنّها حاجة محقّقة ولكنّ الصبر عنه أولى و هو بالسؤال تارك للأولى ولايسمّى سؤاله مكروهاً مهما صدق في السؤال ، وقال : ليس تحت جبّتي قميص والبرد يؤذيني أذى اُطيقه ولكن يشقّ عليّ فإذا صدق فصدقه يكون كفّارة لسؤاله إن شاءالله ، و أمّا الحاجة الخفيفة فمثل سؤاله قميصاً ليلبسه فوق ثيابه عند خروجه ليستتر به الخروق الّتي في ثيابه عن أعين الناس و كمن يسأل لأجل الأدم و هو واجد للخبز و كمن يسأل الكراء لفرس في الطريق و هو واجد كراء الحمار أويسأل كراء المحمل وهو قادر على الرّاحلة ، فهذا و نحوه إن كان فيه تلبيس حال بإظهار حاجة غيرهذه فهو حرام و كذلك لو كان فيه شيء من المحذورات الثلاثة من الشكوى أو الذّلّ أو إيذاء المسؤول فهو حرام لأنّ مثل هذه الحاجة لا تصلح لأن تباح بهاهذه المحذورات ، وإن لم يكن فيه شيء من ذلك فهومباح مع الكراهة .

فإن قلت : فكيف يمكن إخلاء السؤال عن هذه المحذورات ؟ فاعلم أنّ الشكوى تندفع بأن يظهر الشكر لله و الاستغناء عن الخلق ، ولا يسأل سؤال محتاج و لكن يقول : أنا مستغن بما أملكه ولكنّي تطالبني رعونة النفس بثوب فوق ثيابي و هو فضلة عن الحاجة وفضول من النفس فيخرج به عن حدّ الشكوى .

و أمّا الذّلّ فبأن يسأل أباه أوقريبه أو صديقه الّذي يعلم أنّه لاينقصه ذلك في عينه ولايزدريه بسبب سؤاله أو الرّجل السخيّ الّذي قد أعدّ ماله لمثل هذه المكارم فيفرح بوجود مثله و يتقلّد منّة بقبوله فيسقط عند الذّلّ بذلك فإنّ الذّلّ لازم للمنّة لامحالة. و أمّا الإيذاء فسبيل الخلاص عنه أن لايعيّن شخصاً بالسؤال بعينه بل يلقى الكلام تعريضاً بحيث لا يقدم على البذل إلّا متبرّع بصدق الرّغبة و إن كان في القوم شخصٌ مرموقٌ لو لم يبذل لكان يلام فهذا إيذاء فإنّه ربّما يبذل كرهاً خوفاً من الملامة ويكون الأحبّ إليه في الباطن الخلاص لو قدر عليه من غير ملامة، وأمّا إذا كان يسأل شخصاً معيّناً فينبغي أن لايصرّح بل يعرّض تعريضاً يبقى له سبيلاً إلى التغافل إن أراد، فإذا لم يتغافل مع القدرة عليه فذلك لرغبته وأنّه غير متأذّ به.

أقول: و من طريق الخاصّة ما رواه في الكافي عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم «لاتسألوا أمّتي في مجالسها فتبخلوها» [١].

قال أبو حامد: و ينبغي أن يسأل من لايستحيي منه لوردّه أو تغافل مع القدرة عليه فإنّ الحياء من السّائل يؤذي كما أنّ الرّياء مع غير السّائل يؤذي، فإن قلت: فإذا أخذ مع العلم بأنّ باعث المعطي هو الحياء منه أو من الحاضرين ولولاه لما ابتدأه فهو حلال أو شبهة؟ فأقول: ذلك حرامٌ محض لاخلاف فيه بين الأمّة وحكمه حكم أخذ مال الغير بالضرب والمصادرة إذ لافرق أن يضرب ظاهر جلده بسياط الخشب أو يضرب باطن قلبه بسوط الحياء وخوف الملام وضرب الباطن أشدّ نكاية في قلوب العقلاء. ولايجوز أن يقال هو في الظاهر قد رضي به وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «نحن نحكم بالظاهر والله يتولّى السرائر» [٢] فإنّ هذه ضرورة القضاء في فصل الخصومات إذ لا يمكن ردّهم إلى البواطن وقرائن الحالات فاضطرّوا إلى الحكم بظاهر اللّسان مع أنّه ترجمان كثير الكذب ولكنّ الضرورة دعت إليه وهذه سؤال عمّا بين العبد وبين الله والحاكم فيه أحكم الحاكمين والقلوب عنده كالألسنة عند سائر الحكّام فلا تنظر في مثل هذا

(١) المصدر ج ٤ ص ٤٧ تحت رقم ٨.

(٢) قال العراقى: لم أجد له أصلا و كذا قال المزى لما سئل عنه.

إلّا إلى قلبك وإن أفتوك و أفتوك فإنّ المفتي معلّم القاضي والسلطان ليحكموا في عالم الشهادة ، ومفتي القلوب هم علماء الآخرة وبفتواهم النجاة من سطوة سلطان الآخرة كما أنّ بفتوى الفقيه النجاة من سطوة سلطان الدّنيا ، فإذن ما يأخذه مع الكراهة لا يملكه بينه وبين الله ويجب عليه الردّ على صاحبه فإن كان يستحيي من أن يردّ ولم يستردّ فعليه أن يثيبه على ذلك بما يساوي قيمته في معرض الهديّة والمقابلة ليتفصّى عن عهدته ، فإن لم يقبل هديّته فعليه أن يردّ ذلك إلى ورثته فإن تلف في يده فهو مضمونٌ عليه بينه وبين الله وهو عاص بالتصرّف فيه وبالسؤال الّذي حصل به الأذى ، فإن قلت : هذا أمرٌ باطن يعسر الاطّلاع عليه فكيف السبيل فيه ، و ربّما يظنّ السائل أنّه راض ولا يكون هو في الباطن راضياً ؟ فأقول : لهذا ترك المتّقون السؤال رأساً فما كانوا يأخذون من أحد شيئاً أصلاً ، وكان بشر لا يأخذ من أحد أصلاً إلّا من السريّ وقال : لأنّي أعلم أنّه يفرح بخروج المال من يده فأنا اُعينه على ما يحبّه و إنّما عظم النكير في السؤال وتأكّد الأمر بالتعفّف لهذا لأنّ هذا الأذى إنّما يحلّ بضرورة و هو أن يكون السائل مشرفاً على الهلاك ولم يبق له سبيل إلى الخلاص ولم يجد من يعطيه من غير كراهة وأذى فيباح له ذلك كما يباح له لحم الخنزير وأكل الميتة وكان الامتناع طريق الورعين ، ومن أرباب القلوب من كان واثقاً ببصيرته في الاطّلاع على قرائن الأحوال فكانوا يأخذون من بعض الناس دون البعض ، ومنهم من كان لا يأخذ إلّا من أصدقائه ، ومنهم من كان يأخذ ممّا يعطي بعضاً ويردّ بعضاً كما فعل رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم في الكبش والسمن والأقط وكان هذا فيما يأتيهم من غير سؤال فإنّ ذلك لا يكون إلّا عن رغبة ولكن قد تكون رغبته طمعاً في جاه أو طلباً لرياء وسمعة فكانوا يحترزون من ذلك فأمّا السؤال فقد امتنعوا عنه رأساً إلّا في موضعين أحدهما الضرورة و الثاني السؤال من الأصدقاء والإخوان وفي حقّ الإخوان ، وكانوا يأخذون مالهم بغير سؤال واستيذان لأنّ أرباب القلوب علموا أنّ المطلوب رضا القلب لا نطق اللّسان وكانوا قد وثقوا بإخوانهم أنّهم كانوا يفرحون بمباسطتهم فإذن كانوا لا يسألون الإخوان عند شكّهم في إقتدار إخوانهم على ما يريدونه وإلّا فكانوا يستغنون عن السؤال . وحدُّ إباحة

السؤال أن تعلم أنّ المسؤول بصفة لو علم مابك من الحاجة لابتدأك دون السؤال فلا يكون لسؤالك تأثير إلّا في تعريف حاجتك فأمّا في تحريكه بحياء أو إثارة داعيته بالحيل فلاويتصدّى للسائل حالة لايشكّ معها في رضا الباطن وحالة لايشكّ في الكراهة ويعلم ذلك بقرينة الأحوال فالأخذ في الحالة الاُولى حلال طلق وفي الثانية حرام سحت، ويتردّد بين الحالتين أحوال يشكّ فيها فليستفت قلبه فيها وليترك حزاز القلب فانّه الإثم وليدع ما يريبه إلى ما لايريبه، وإدراك ذلك بقرائن الأحوال سهلٌ على من قويت فطنته و ضعف حرصه وشهوته فإن قوي الحرص وضعفت الفطنة تراءى له ما يوافق غرضه ولايتفطّن للقرائن الدّالّة على الكراهة وبهذه الدّقائق يطلع على سرّ قول رسول الله ﷺ حيث قال: «إنّ أطيب ما يأكل الرّجل من كسبه»[(١)] وقد اُوتي جوامع الكلم لأنّ من لا كسب له ولامال ورثه من كسب أبيه أو أحد أقربائه فيأكل من أيدي الناس فإن أعطى بغير سؤال فإنّما يعطى لدينه ومن يكون باطنه بحيث لوانكشف لايعطى لدينه فيكون مايأخذه حراماً، وإن أعطى بسؤال فأين من يطيب قلبه بالعطاء إذاسئل وأين من يقتصر في السؤال على حدّ الضرورة، فإذا فتّشت أحوال من يأكل من أيدي الناس علمت أن جميع ما يأكله أو أكثره سحت، و إنّ الطيّب هو الكسب الّذي اكتسب هو أو موروثه، فإذن بعيدٌ أن يجتمع الورع مع الأكل من أيدي الناس، فنسأل الله تعالى أن يقطع طمعنا عن غيره وأن يغنينا بحلاله عن حرامه بمنّه وسعة جوده.

✡(بيان مقدار الغنى المحرم للسؤال)✡

إعلم أنّ قوله ﷺ: «من سأل عن ظهر غنىً فإنّما يستكثر من جمر جهنّم»[(٢)] صريحٌ في التحريم ولكن حدّ الغنى مشكلٌ وتقديره عسير وليس إلينا وضع المقادير بل نستدرك ذلك بالتوقيف، وقد ورد في الحديث «استغنوا بغنى الله تعالى عن غيره قالوا: وما هو؟ قال: غداء يوم، وعشاء ليلة»[(٣)]. وفي حديث آخر «من سأل وله خمسون درهماً أو

---

(١) تقدم في كتاب الحلال والحرام.

(٢) تقدم آنفاً.

(٣) ذكره صاحب الفردوس من حديث أبي هريرة كما في المغني.

عدلها من الذّهب فقد سأل إلحافاً»[1] وورد في لفظ آخر «أربعون درهماً». ومهما اختلفت التقديرات وصحّت الأخبار فينبغي أن يقطع بورودها على أحوال مختلفة فإنّ الحقّ في نفسه لا يكون إلّا واحداً و التقدير ممتنع وغاية الممكن فيه تقريب و لا يتمّ ذلك إلّا بتقسيم محيط بأحوال المحتاجين، فنقول: قال صلى الله عليه وآله وسلم: «لا حقّ لابن آدم إلّا في ثلاث طعام يقيم صلبه، وثوب يواري به عورته، و بيت يكنّه و ما زاد فهو حساب»[2] فلنجعل هذه الثلاث أصلاً في الحاجات لبيان أجناسها، والنظر في الأجناس والأقدار والأوقات فأمّا الأجناس فهي هذه الثلاث ويلحق بها ما في معناها حتّى يلحق بها الكراء للمسافر إذا كان لا يقدر على المشي و كذلك ما يجري مجراه من المهمّات ويلحق بنفسه عياله و ولده و كلّ من يجب عليه كفالته، و أمّا الأقدار فالثوب يراعى فيه ما يليق بذوي الدّين وهو ثوب واحد وقميص ومنديل وسراويل ومداس، وأمّا الثاني من كلّ جنس فهو مستغنى عنه وليقس على هذا أثاث البيت ولا ينبغي أن يطلب رقّة الثياب و كون الأواني من النحاس والصفر فيما يكفي فيه الخزف فإنّ ذلك مستغنى عنه فيقتصر من العدد على واحد ومن النوع على أخسّ أجناسه ما لم يكن في غاية البعد عن العادة، وأمّا الطعام فقدره في اليوم مدّ وهو ما قدّره الشرع ونوعه ما يقتات ولو كان من الشعير و الأدم على الدّوام فضلة وقطعه بالكلّية إضرار وفي طلبه في بعض الأحوال رخصة، وأمّا المسكن فأقلّه ما يجزى، من حيث المقدار وذلك من غير زينة فأمّا السؤال للزّينة والتوسّع فهو سؤال عن ظهر غنى، و أمّا بالإضافة إلى الأوقات فما يحتاج إليه في الحال من طعام يوم وليلة وثوب يلبسه ومأوى يكنّه، فلا شكّ فيه فأمّا سؤاله للمستقبل فهذا له ثلاث درجات إحداها ما يحتاج إليه في غد والثانية ما يحتاج إليه في أربعين يوماً أو خمسين، والثالثة ما يحتاج إليه في السنّة فلنقطع بأنّ من معه ما يكفيه له ولعياله إن كان له عيال لسنة فسؤاله حرام فإنّ ذلك غاية الغنى وعليه ينزّل التقدير بخمسين درهماً في الحديث فإنّ خمسة دنانير تكفي للمنفرد في السنة إذا اقتصد وأمّا

(١) رواه أحمد و رجاله رجال الصحيح كما في مجمع الزوائد ج ٣ ص ٩٥.

(٢) تقدم آنفاً.

المعيل فربّما لايكفيه ذلك فإن كان يحتاج إليه قبل السنة فإن كان قادراً على السؤال ولايفوته فرصته فلايحلّ له السؤال لأنّه مستغن في الحال و ربّما لايعيش إلى الغد فيكون قد سأل مالا يحتاج إليه فيكفيه غداء يوم وعشاء ليلة وعليه ينزّل الخبر الّذي ورد في التقدير بهذا القدر و إن كان يفوته فرصة السؤال و لايجد من يعطيه لو أخّر فيباح له السؤال لأنّ أمل البقاء سنة غير بعيد فهو بتأخير السؤال خائف أن يبقى مضطرّاً عاجزاً عمّا يغنيه ، فإن كان خوف العجز عن السؤال في المستقبل ضعيفاً وكان ما لأجله السؤال خارجاً عن محلّ الضرورة لم يخل سؤاله عن كراهية وتكون كراهته بحسب درجات ضعف الاضطرار و خوف الفوت وتراخي المدّة الّتي فيها يحتاج إلى السؤال و كلّ ذلك لايقبل الضبط وهو منوط باجتهاد العبد ونظره لنفسه بينه وبين الله فيستفتي فيه قلبه ويعمل به إن كان سالكاً طريق الآخرة و كلّ ماكان يقينه أقوى وثقته بمجيء الرّزق في المستقبل أتمّ و قناعته بقوت الوقت أظهر فدرجته عند الله أعلى فلا يكون خوف الاستقبال وقد آتاك الله قوت يومك لك ولعيالك إلّا من ضعف اليقين والإصغاء إلى تخويف الشيطان وقد قال الله تعالى : «فلاتخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين»[1] وقال : «الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً»[2] والسؤال من الفحشاء الّذي اُبيح بالضرورة وحال من يسأل لحاجة متراخية عن يومه وإن كان ممّا يحتاج إليه في السنة أشدّ من حال من ملك مالاً موروثاً و ادّخر لحاجته وراء السنة و كلاهما مباحان في الفتوى الظاهرة ولكنّهما صادران عن حبّ الدّنيا وطول الأمل وعدم الثقة بفضل الله وهي من اُمّهات المهلكات .

أقول : ثمّ ذكر أبوحامد فصلاً في بيان أحوال السائلين و أورد فيه من أقوال الصوفيّة وما كانوا يفعلون و إذ لا وثوق بهم و بما كان يصدر عنهم فلنعرض عن ذلك و من أراد الاطّلاع على حقيقة الحال في الفقر والزّهد فليطالع ما أوردناه في آخر الشطر الثاني من هذا الكتاب من كلام الصادق عليه السلام و محاجّته مع الصوفيّة .

(١) آل عمران : ١٧٥ .

(٢) البقرة : ٢٦٨ .

☼(الشطر الثاني من الكتاب في الزهد)☼

و فيه بيان حقيقة الزّهد ، و بيان فضيلة الزّهد ، و بيان درجات الزّهد وأقسامه ، وبيان تفصيل الزّهد في المطعم و الملبس و المسكن و الأثاث و ضرورات المعيشة وبيان ، علامات الزّهد .

☼(بيان حقيقة الزهد)☼

إعلم أنّ الزّهد في الدّنيا مقام شريف من مقامات السالكين و ينتظم هذا المقام من علم وحال وعمل كسائر المقامات لأنّ أبواب الإيمان كلّها كما قال السلف ترجع إلى عقد وقول وعمل و كأنّ القول لظهوره اُقيم مقام الحال إذ به يظهر حال الباطن وإلّا فليس القول مراداً لعينه و إن لم يكن صادراً عن حال سمّي إسلاماً و لم يسمّ إيماناً والعلم هو السبب في الحال يجري مجرى المثمر والعمل يجري من الحال مجرى الثمرة فلنذكر الحال مع كلا طرفيه من العلم والعمل أمّا الحال فنعني بها ما يسمّى زهداً وهو عبارة عن انصراف الرّغبة عن الشيء إلى ماهو خيرٌ منه و كلّ من عدل عن شيء إلى غيره بمعاوضة وبيع وغيره فإنّما عدل عنه لرغبته عنه وإنّما عدل إلى غيره لرغبته فيه فحاله بالإضافة إلى المعدول عنه يسمّى زهداً وبالإضافة إلى المعدول إليه يسمّى رغبة وحبّاً فإذن يستدعي حال الزّهد مرغوباً عنه ومرغوباً إليه وهو خير من المرغوب عنه وشرط المرغوب عنه أن يكون أيضاً هو مرغوب فيه من وجه من الوجوه فمن رغب عمّا ليس مطلوباً في نفسه لا يسمّى زاهداً فتارك التراب والحجر والحشرات لا يسمّى زاهداً و إنّما يسمّى تارك الدّراهم و الدّنانير زاهداً لأنّ التراب والحجر ليسا في مظنّة الرّغبة و شرط المرغوب إليه أن يكون خيراً عنده من المرغوب عنه حتّى تغلب هذه الرّغبة فالبائع لا يقدم على البيع إلّا والمشتري عنده خيرٌ من المبيع فيكون حاله بالإضافة إلى المبيع زهداً فيه و بالإضافة إلى العوض رغبة وحبّاً و لذلك قال تعالى : «وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزّاهدين»[1] معناه باعوه وقد يطلق الشرى بمعنى البيع ووصف إخوة يوسف بالزّهد فيه إذ اطمعوا في أن يخلو لهم

(١) يوسف : ٢١ .

وجه أبيهم وكان ذلك عندهم أحبّ من يوسف فباعوه طمعاً في العوض فإذن كلّ من باع الدّنيا بالآخرة فهو زاهد في الدّنيا وكلّ من باع الآخرة بالدّنيا فهو أيضاً زاهد ولكن في الآخرة ولكنّ العادة جارية بتخصيص اسم الزّهد بمن زهد في الدّنيا كما خصّص اسم الإلحاد بمن يميل إلى الباطل خاصّة وإن كان هو الميل في وضع اللّسان ولمّا كان الزّهد رغبة عن محبوب بالجملة لم يتصوّر إلّا بالعدول إلى شيء هو أحبّ منه وإلّا فترك المحبوب بغير الأحبّ محال والّذي يرغب عن كلّ ما سوى الله حتّى الفراديس ولا يحبّ إلّا الله فهو الزّاهد المطلق، والّذي يرغب عن كلّ حظّ ينال في الدّنيا ولم يزهد في مثل تلك الحظوظ في الآخرة بل طمع في الحور والقصور والفواكه والأنهار فهو أيضاً زاهد ولكنّه دون الأوّل والّذي يترك من حظوظ الدّنيا البعض دون البعض كالّذي يترك المال دون الجاه أو يترك التوسّع في الأكل ولا يترك التجمّل في الزّينة فلا يستحقّ اسم الزّاهد مطلقاً ودرجته في الزّهاد درجة من يتوب عن بعض المعاصي في التائبين وهو زهد صحيح كما أنّ التوبة عن بعض المعاصي صحيحة فإنّ التوبة عبارة عن ترك المحظورات والزّهد عبارة عن ترك المباحات الّتي هي حظّ النفس ولا يبعد أن يقدر على ترك بعض المباحات دون بعض كما لا يبعد ذلك في المحظورات والمقتصر على ترك المحظورات لا يسمّى زاهداً وإن كان قد زهد في المحظور وانصرف عنه ولكن تخصّص هذا الاسم بترك المباحات فإذن الزّهد عبارة عن رغبته عن الدّنيا عدولاً إلى الآخرة أو عن غير الله عدولاً إلى الله وهي الدّرجة العليا وكما يشترط في المرغوب إليه أن يكون خيراً عنده فيشترط في المرغوب عنه أن يكون مقدوراً عليه فإنّ تركه ما لا يقدر عليه محال وبالترك يتبيّن زوال الرّغبة، وأمّا العلم الّذي هو المثمر لهذه الحال هو العلم بكون المتروك حقيراً بالإضافة إلى المأخوذ كعلم التاجر بأنّ العوض خير من المبيع فيرغب فيه ومالم يتحقّق هذا العلم لا يتصوّر أن يزول الرّغبة عن المبيع فكذلك من عرف أنّ ما عند الله باق وأنّ الآخرة خير وأبقى أي لذّاتها خير في أنفسها كما يكون الجوهر خيراً وأبقى من الثلج مثلاً ولا يعسر على مالك الثلج بيعه بالجواهر واللآلي فهكذا مثال الدّنيا والآخرة فالدّنيا كالثلج الموضوع

في الشمس لايزال في الذّوبان إلى الانقراض والآخرة كالجواهر الّتي لافناء لها فبقدر قوّة اليقين والمعرفة بالتفاوت بين الدّنيا والآخرة تقوّي الرّغبة في البيع والمعاملة حتّى أنّ من قوي يقينه يبيع نفسه وماله كما قال الله تعالى: «إنّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنّة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون» (١) ثمّ بيّن أنّ صفقتهم رابحة فقال: «فاستبشروا ببيعكم الّذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم» (٢) فليس يحتاج من العلم في الزّهد إلّا إلى هذا القدر وهو أنّ الآخرة خيرٌ وأبقى وقد يعلم ذلك من لايقدر على ترك الدّنيا إمّا لضعف علمه ويقينه وإمّا لاستيلاء الشهوة في الحال عليه وكونه مقهوراً في يد الشيطان وإمّا لاغتراره بمواعيد الشيطان في التسويف يوماً فيوماً إلى أن يختطفه الموت ولا يبقى معه إلّا الحسرة بعد الفوت، وإلى تعريف خساسة الدّنيا الإشارة بقوله تعالى: «قل متاع الدّنيا قليل» (٣) وإلى تعريف نفاسة الآخرة الإشارة بقوله: «وقال الّذين اُوتوا العلم ويلكم ثواب الله خيرٌ لمن آمن وعمل صالحاً ولايلقّيها إلّا الصابرون» (٤) فنبّه على أنّ العالم بنفاسة الجوهر هو المرغب عن عوضه ولمّا لم يتصوّر الزّهد إلّا بمعاوضة ورغبة عن المحبوب في أحبّ منه. قال رجل في دعائه: اللّهمّ أرني الدّنيا كما تراها فقال صلّى الله عليه وآله وسلّم: «لاتقل هكذا ولكن قل: أرني الدّنيا كما أريتها الصالحين من عبادك» (٥) وهذا لأنّ الله يراها حقيرة كما هي وكلّ مخلوق فهو بالإضافة إلى جلاله حقيرٌ والعبد يراها حقيرة في حقّ نفسه بالإضافة إلى ما هو خيرٌ له ولايتصوّر أن يرى بائع الفرس وإن رغب عن فرسه كما يرى بائع حشرات الأرض لأنّه مستغن عن الحشرات أصلاً وليس مستغنياً عن الفرس والله تعالى غنيٌّ بذاته عن كلّ ماسواه فيرى الكلّ في درجة واحدة بالإضافة إلى جلاله ويراها متفاوتة بالإضافة إلى غيره والزّاهد هو الّذي يرى تفاوته بالإضافة

---

(١) و (٢) التوبة: ١١٣.

(٣) النساء: ٧٧. (٤) القصص: ٨٠.

(٥) قال العراقي: ذكره صاحب الفردوس مختصراً «اللهم أرني الدنيا كما تريها الصالح من عبادك» من حديث أبي الفصير ولم يخرجه ولده.

إلى نفسه لا إلى غيره ، وأمّا العمل الصادر عن حال الزّهد فهو ترك واحد لأنّه بيع ومعاملة واستبدال للّذي هو خير بالّذي هو أدنى فكما أنّ العمل الصادر من عقد البيع هو ترك المبيع وإخراجه من اليد وأخذ العوض فكذلك الزّهد يوجب ترك المزهود فيه بالكلّية وهي الدّنيا بأسرها مع أسبابها ومقدّماتها وعلائقها ، فيخرج من القلب حبّها ويدخل حبّ الطاعات ويخرج من اليد والعين ما أخرجه من القلب ويوظّف على اليد و العين و سائر الجوارح وظائف الطاعات و إلّا كان كمن سلّم المبيع ولم يأخذ الثمن فإذا وفى بشرط الجانبين في الأخذ والترك فليستبشر ببيعه الّذي بايع ، فإنّ الّذي بايعه بهذا البيع وفى بالعهد ، فمن سلّم حاضراً في غائب وسلّم الحاضر و أخذ يسعى في طلب الغائب سلّم إليه الغائب حين فراغه من سعيه إن كان العاقد ممّن يوثق بصدقه وقدرته و وفائه بالعهد ، و مادام ممسكاً للدّنيا لا يصحّ زهده أصلاً ، و لذلك لم يصف الله تعالى : إخوة يوسف بالزّهد في ابن يامين وإن كانوا قد قالوا ليوسف وأخوه أحبّ إلى أبينا منّا» (١) وعزموا على إبعاده كما عزموا على إبعاد يوسف حتّى تشفع فيه أحدهم فترك ولا وصفهم أيضاً بالزّهد في يوسف عند العزم على إخراجه إلّا عند التسليم والبيع ، فعلامة الرّغبة الإمساك وعلامة الزّهد الإخراج فإن أخرجت عن اليد بعض الدّنيا دون البعض فأنت زاهد فيما أخرجت فقط ولست زاهداً مطلقاً وإن لم يكن لك مال ولم تساعدك الدّنيا لم يتصوّر منك الزّهد لأنّ مالا يقدر عليه لا يقدر على تركه، وربّما يستهويك الشيطان بغروره ويخيّل إليك أنّ الدّنيا وإن لم تأتك فأنت زاهد فيها فلا ينبغي أن تتدلّى بحبل غروره دون أن تستوثق وتستظهر بموثق غليظ من الله ، فإنّك إذا لم تجرّب نفسك حال القدرة فلا تثق بالقدرة على الترك عندها فكم من ظانّ بنفسه كراهة المعاصي عند تعذّرها فلمّا تيسّرت له أسبابها من غير مكدّر و لا خوف من الخلق يقع فيها ، و إذا كان هذا غرور النفس في المحظورات فإيّاك وأن تثق بوعدها في المباحات والموثق الغليظ أن تجرّبها مرّة بعد مرّة في حال القدرة فإذا وفت بما وعدت على الدّوام مع انتفاء الصوارف و الأعذار ظاهراً وباطناً ، فلا

(١) يوسف : ٨ .

بأس أن تثق بها وثوقاً مّا ولكن تكون من تغيّرها أيضاً على حذر فإنّها سريعة النقض للعهد قريبة الرّجوع إلى مقتضى الطبع ، بالجملة فلا أمان منها إلّا عند الترك بالاضافة إلى ما ترك فقطّ ، وذلك عند القدرة ، ولذلك قال جميع المسلمين على عهد رسول الله صلّى الله عليه وآله : إنّا نحبّ ربّنا ولو علمنا في أيّ شيء محبّته لفعلنا حتّى نزل قوله تعالى : « ولو أنّا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو أخرجوا من دياركم ما فعلوه إلّا قليل منهم »[1] وقال ابن مسعود: وما عرفت أنّ فينا من يحبّ الدّنيا حتّى نزل قوله « منكم من يريد الدّنيا ومنكم من يريد الآخرة »[2] وليس من الزّهد ترك المال وبذله على سبيل السخاء و الفتوّة وعلى سبيل استمالة القلوب ولا على سبيل الطمع فذلك كلّه من محاسن العادات ، ولكن لامدخل لها في العبادات ، إنّما الزّهد أن تتركها لعلمك بحقارتها بالإضافة إلى نفاسة الآخرة فأمّا كلّ نوع من الترك فإنّه يتصوّر ممّن لايؤمن بالله وبالآخرة فذلك قد يكون مروّة وفتوّة و سخاء و حسن خلق ، ولكن لا يكون زهداً إذ حسن الذّكر و ميل القلوب من حظوظ العاجلة و هي ألذّ وأهنأ من المال وكما أنّ ترك المال على سبيل السلم طمعاً في العوض ليس من الزّهد فكذلك تركه طمعاً في الذّكر والثناء و الاشتهار بالفتوّة والسخاء واستثقالاً له لما في حفظ الأموال من المشقّة و العناء والحاجة إلى التذلّل للسلاطين و الأغنياء ليس من الزّهد أصلاً بل هو استعجال حظّ آخر للنفس بل الزّاهد من أتته الدّنيا راغمة عفواً صفواً وهو قادر على التنعّم بها من غير نقصان جاه وقبح اسم ولا فوات حظّ فتركها خوفاً من أن يأنس بها فيكون آنساً بغير الله ومحبّاً لما سوى الله ويكون مشركاً في حبّ الله غير الله أو تركها طمعاً في ثواب الآخرة فترك التمتّع بأشربة الدّنيا طمعاً في أشربة الجنّة ، وترك التمتّع بالسراري و النسوان طمعاً في الحور العين ، وترك التفرّج في البساتين طمعاً في بساتين الجنّة و أشجارها ، و ترك التزيّن و التجمّل بزينة الدّنيا طمعاً في زينة الجنّة ، و ترك المطاعم اللّذيذة طمعاً في فواكه الجنّة و خوفاً من أن يقال له

(١) النساء : ٦٦ .

(٢) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة باسناد حسن كما في المغني .

«أذهبتم طيّباتكم في حياتكم الدُّنيا» فآثر في جميع ذلك ما وعدبه في الجنّة على ماتيسّر له في الدُّنيا عفواً صفواً لعلمه بأنَّ مافي الآخرة خيرٌ وأبقى وما سوى هذا فمعاملات دنيويّة لاجدوى لها في الآخرة أصلاً.

أقول: الكلام الجامع في حقيقة الزُّهد ما رواه في نهج البلاغة عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «الزُّهد كلّه بين كلمتين من القرآن قال الله سبحانه: «لكيلا تأسوا على مافاتكم ولاتفرحوا بما آتاكم»[1] ومن لم يأس على الماضي ولم يفرح بالآتي فقد أخذ الزُّهد بطرفيه»[2].

٭(بيان فضيلة الزهد)٭

قال الله تعالى: «فخرج على قومه في زينته ـ إلى قوله ـ وقال الّذين اُوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير»[3] نسب الزُّهد إلى العلماء، و وصف أهله بالعلم وهو غاية الثناء، و قال تعالى: «اُولئك يؤتون أجرهم مرّتين بما صبروا»[4] وجاء في التفسير على الزُّهد في الدُّنيا. وقال تعالى: «إنّا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيّهم أحسن عملاً»[5] قيل: معناه أيّهم أزهد فيها فوصف الزُّهد بأنّه من أحسن الأعمال. و قال تعالى: «من كان يريد حرث الدُّنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب»[6]. وقال تعالى: «ولاتمدَّنّ عينيك إلى ما متّعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدُّنيا لنفتنهم فيه ورزق ربّك خيرٌ و أبقى»[7]. وقال تعالى: «الّذين يستحبّون الحياة الدُّنيا على الآخرة»[8] فبه وصف الكفّار فمفهومه أنَّ المؤمن هو الّذي يتّصف بضدّه وهو أن يستحبَّ الآخرة على الحياة الدُّنيا.

وأمّا الأخبار فما ورد منها في ذمّ الدُّنيا كثير و قد أوردنا بعضها في كتاب ذمّ الدُّنيا من ربع المهلكات إذحبُّ الدُّنيا من المهلكات، ونحن الآن نقتصر على فضيلة بغض

(١) الحديد: ٢٣. (٢) المصدر أبواب الحكم تحت رقم ٤٣٩.
(٣) و (٤) القصص: ٨٠ و ٥٤.
(٥) الكهف: ٧. (٦) الشورى: ٢٠.
(٧) طه: ١٣١. (٨) ابراهيم: ٣.

الدّنيا فإنّه من المنجيات وهو المعنيّ بالزّهد و قد قال صلّى الله عليه وآله « من أصبح و همّه الدّنيا شتّت الله عليه أمره ، و فرّق عليه ضيعته ، وجعل فقره بين عينيه ، و لم يأته من الدّنيا إلّا ما كتب له ، ومن أصبح وهمّه الآخرة جمع الله له همّه ، وحفظ عليه ضيعته ، وجعل غناه في قلبه وأتته الدّنيا وهي راغمة » (١).

وقال رسول الله صلّى الله عليه وآله : إذا رأيتم العبد وقد اُعطي صمتاً وزهداً في الدّنيا فاقتربوا منه فإنّه يلقى الحكمة و قد قال الله تعالى : « و من يؤت الحكمة فقد اُوتي خيراً كثيراً » (٢) ولذلك قيل : من زهد في الدّنيا أربعين يوماً أجرى الله ينابيع الحكمة في قلبه وأنطق بها لسانه .

وعن بعض الصحابة أنّه قال : قلنا: «يارسول الله أيّ النّاس خيرٌ ؟ قال : كلّ مؤمن مخموم القلب صدوق اللّسان ، قلنا : يا رسول الله وما مخموم القلب ؟ قال : التقيّ النقيّ الّذي لاغشّ فيه ولا غلّ ولا بغي ولاحسد ، قيل : يا رسول الله فمن على اثره ؟ قال : الّذي يشنأ الدّنيا ويحبّ الآخرة » (٣) ومفهومه أنّ شرّ النّاس الّذي يحبّ الدّنيا .

و قال صلّى الله عليه وآله : « إن أردت أن يحبّك الله فازهد في الدّنيا » (٤) فجعل الزّهد سبباً للمحبّة فمن أحبّه الله فهو في أعلى الدّرجات فينبغي أن يكون الزّهد من أفضل المقامات ومفهومه أيضاً أنّ محبّ الدّنيا متعرّض لبغض الله . و في خبر من طريق أهل البيت : « الزّهد و الورع يجولان في القلب كلّ ليلة فإن صادفا قلباً فيه الإيمان والحياء أقاما فيه و إلّا ارتحلا » (٥) ولمّا قال حارثة لرسول الله صلّى الله عليه وآله : أنا مؤمن حقّاً فقال : وماحقيقة إيمانك فقال : عزفت نفسي عن الدّنيا فاستوى عندي حجرها وذهبها و كأنّي بالجنّة والنّار و كأنّي بعرش ربّي بارزاً فقال صلّى الله عليه وآله : فالزم هذا عبدنوّر الله

(١) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤١٠٥ بسند صحيح بأدنى اختلاف ، وفى الكافى مثله .
(٢) البقرة : ٢٦٩ والخبر أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤١٠١ من حديث أبى خلاد .
(٣) أخرجه الخرائطى فى مكارم الاخلاق كما فى المغنى .
(٤) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤١٠٢ بنحوه .
(٥) قال العراقى : لم أجد له أصلا . أقول : فى التحف ص ٣٧٣ عن الصادق عليه السلام هكذا « ان الغنى والعز يجولان فاذا ظفرا بموضع التوكل أوطناه » .

قلبه بالإيمان» (١) فانظر كيف بدأ بإظهار حقيقة الإيمان بعزوف النفس عن الدّنيا وقرنه باليقين و كيف زكّاه رسول الله صلّى الله عليه وآله إذ قال: «عبد نوّر الله قلبه بالإيمان» ولمّا سئل رسول الله صلّى الله عليه وآله عن معنى الشرح في قوله تعالى: «فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام» (٢) وقيل له: ما هذا الشرح قال: إنّ النور إذا دخل القلب انشرح له الصدر وانفسح، قيل: يا رسول الله هل لذلك من علامة؟ قال: نعم التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله» (٣) فانظر كيف جعل الزّهد شرطاً للإسلام وهي التجافي عن دار الغرور.

وقال صلّى الله عليه وآله: «استحيوا من الله حقّ الحياء قالوا: إنّا لنستحيي منه قال: ليس كذلك، تبنون ما لا تسكنون وتجمعون ما لا تأكلون» (٤) فبيّن أنّ ذلك يناقض الحياء من الله، ولمّا قدم عليه وفد وقالوا: إنّا مؤمنون قال: وما علامة إيمانكم؟ فذكروا الصبر عند البلاء والشكر عند الرّخاء والرّضا بمواقع القضاء، وترك الشماتة بالمصيبة إذا نزلت بالأعداء، فقال صلّى الله عليه وآله: فإن كنتم كذلك فلا تجمعوا ما لا تأكلون ولا تبنوا ما لا تسكنون ولا تنافسوا فيما عنه ترحلون» (٥) فجعل الزّهد تكملة إيمانهم.

و قال جابر: خطبنا رسول الله صلّى الله عليه وآله فقال: «من جاء بلا إله إلّا الله لا يخلط معها غيرها وجبت له الجنّة فقام إليه عليّ عليه السلام فقال: بأبي أنت واُمّي يا رسول الله ما لا يخلط بها غيرها صفه لنا و فسّره لنا، فقال: حبّ الدّنيا طلباً لها و اتّباعاً لها وقوم يقولون قول الأنبياء، ويعملون أعمال الجبابرة فمن جاء بلا إله إلّا الله ليس فيها شيء من هذا وجبت له الجنّة» (٦) و في الخبر «السخاء من اليقين ولا يدخل النّار

---

(١) أخرجه الطبراني ورواه الكليني في الكافي بنحو أبسط ج ٢ ص ٥٣.

(٢) الانعام: ١٢٥. (٣) أخرجه الحاكم في المستدرك ج ٤ ص ٣١١.

(٤) أخرجه الطبراني من حديث ام الوليد بنت عمر بن الخطاب باسناد ضعيف.

(٥) أخرجه الخطيب وابن عساكر في تاريخهما من حديث جابر باسناد ضعيف (المغني)

(٦) قال العراقي: لم أجده من حديث جابر و قد رواه الحكيم الترمذي في النوادر من حديث زيد بن أرقم.

موقن والبخل من الشك ولايدخل الجنّة من شك»[١] وقال: «أيضاً السخيّ قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنّة، والبخيل بعيد من الله بعيد من النّاس قريب من النار»[٢] والبخل ثمرة الرّغبة في الدّنيا والسخاء ثمرة الزّهد و الثناء على الثمرة ثناء على المثمر لامحالة.

و روى ابن المسيّب عن أبي ذرّ عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «من زهد في الدّنيا أدخل الله الحكمة في قلبه فأنطق به لسانه وعرفه داء الدّنيا و دواءها و أخرجه منها سالماً إلى دار السلام»[٣].

و روي أنّه صلى الله عليه وآله مرّ في أصحابه بعشار من النوق حفل وهي الحوامل وكانت من أحبّ أموالهم إليهم وأنفسها عندهم لأنّها تجمع الظهر واللّحم واللّبن والوبر و لعظمها في قلوبهم قال الله تعالى: «وإذا العشار عطّلت»[٤] فأعرض عنها رسول الله صلى الله عليه وآله وغضّ بصره فقيل: يا رسول الله هذه أنفس أموالنا لم لاتنظر إليها؟ فقال: قد نهاني الله عن ذلك، ثمّ تلا قوله تعالى: «ولا تمدّنّ عينيك إلى مامتّعنا به - الآية -»[٥] وروى مسروق عن عائشة قالت: قلت: يا رسول الله ألاتستطعم الله فيطعمك؟ قالت: وبكيت لما رأيت به من الجوع، فقال: «يا عائشة والّذي نفسي بيده لو سألت ربّي أن يجري معي جبال الدّنيا ذهباً لأجراها حيث شئت من الأرض ولكنّي اخترت جوع الدّنيا على شبعها، وفقر الدّنيا على غناها، وحزن الدّنيا على فرحها، ياعائشة إنّ الدّنيا

(١) أخرجه صاحب الفردوس من حديث أبي الدرداء ولم يخرجه ولده في مسنده.

(٢) أخرجه الترمذي و قد تقدم و البيهقي في الشعب والطبراني في الاوسط عن أبي هريرة و جابر و عائشة كما في الجامع الصغير.

(٣) رواه الكليني في الكافي ج ٢ ص ١٢٨ من حديث أبي عبدالله عليه السلام ولم أجده من حديث جابر، و أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب ذم الدنيا من حديث صفوان بن سليم مرسلا و لابن عدي في الكامل من حديث أبي موسى الاشعري نحوه.

(٤) التكوير: ٤.

(٥) أخرج أبوعبيد وابن المنذر عن يحيى بن كثير نحوه باختصار كما في الدر المنثور ج ٤ ص ١٠٥ و اورده أبوالفتوح الرازي في تفسيره باختصار من حديث أنس.

لاينبغي لمحمّد ولا لآل محمد، يا عائشة إنّ الله لم يرض لأُولي العزم من الرُّسل إلّا الصبر على مكروه الدُّنيا والصبر عن محبوبها، ثمّ لم يرض لي إلّا أن يكلّفني مثل ما كلّفهم فقال: «فاصبر كماصبر اولوا العزم من الرُّسل» والله مالي بدٌّ من طاعته وإنّي و الله لأصبرنّ كما صبروا بجهدي ولاقوّة إلّا بالله»[1] وعن أبي سعيد الخدريّ عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّه قال: «لقد كان الأنبياء من قبلي ليبتلى أحدهم بالفقر فلايجد إلّا العباءة و إن كان أحدهم ليبتلى بالقمل حتّى يقتله القمل وكان ذلك أحبُّ إليهم من الإعطاء إليهم»[2].

وعن ابن عبّاس قال: لما ورد موسى ماء مدين كان خضرة البقل ترى في بطنه من الهزل. فهذا كان مااختاره أنبياء الله والمرسلون وهم أعرف خلق الله بالله وبطريق الفوز في الآخرة، وفي حديث عمر أنّه قال: لما نزل قوله تعالى: «والّذين يكنزون الذّهب و الفضّة ـ الآية ـ»[3] قال عليه السلام: «تبّاً للدّينار و الدّرهم فقلنا: نهانا الله عن كنز الذّهب والفضّة فأيّ شيء ندّخر فقال صلّى الله عليه وآله وسلّم: ليتّخذ أحدكم لساناً ذاكراً وقلباً شاكراً وزوجة صالحة تعينه على أمر الآخرة»[4].

وفي حديث حذيفة عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم «من آثر الدُّنيا على الآخرة ابتلاه الله

---

(١) أخرجه ابن حيان في كتاب اخلاق النبى ص ٢٩٣ بتمامه، و أخرجه ابن أبى حاتم والديلمى فى مسند الفردوس مختصراً راجع الدر المنثور ج ٦ ص ٤٥.

(٢) لم أجده بهذا اللفظ نعم روى ابن ماجه تحت رقم ٤٠٢٣ عن أبى سعيد قال: دخلت على النبى صلى الله عليه وآله و سلم و هو يوعك فوضعت يدى عليه فوجدت حرة بين يدى فوق اللحاف، فقلت: يا رسول الله ما أشدها عليك قال: انا كذلك يضعف لنا البلاء و يضعف لنا الاجر، قلت: يا رسول الله أى الناس أشد بلاء، قال: الانبياء، قلت: يا رسول الله ثم من؟ قال: ثم الصالحون ان كان أحدهم ليبتلى بالفقر حتى ما يجد الا العباءة يحويها وان كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدكم بالرخاء».

(٣) التوبة: ٣٤.

(٤) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ١٨٥٦.

بثلاث هم لايفارق قلبه أبداً ، وفقر لايستغني معه أبداً ، وحرص لا يشبع معه أبداً»[١].

وقال ﷺ : « لايستكمل العبد الإيمان حتى يكون أن لا يُعرف أحب إليه من أن يُعرف ، وحتى يكون قلة الشيء أحب إليه من كثرته»[٢].

وقال عيسى عليه السلام : « الدنيا قنطرة فاعبروها ولاتعمروها» . وقيل له : يانبي الله لو أمرتنا أن نبني لك بيتاً تعبد الله فيه فقال : إذهبوا فابنوا بيتاً على الماء ، فقالوا : كيف يستقيم بنيان على الماء ؟ قال : فكيف تستقيم عبادة على حب الدنيا .

وقال نبينا ﷺ : « إن ربي عرض علي أن يجعل لي بطحاء مكة ذهباً فقلت: لايارب ولكن أجوع يوماً وأشبع يوماً فأما اليوم الذي أجوع فيه فأتضرع إليك و أدعوك ، وأما اليوم الذي أشبع فيه فأحمدك وأثني عليك »[٣].

وعن ابن عباس أنه قال: خرج ذات يوم رسول الله ﷺ ومعه جبرئيل فصعد على الصفا فقال له النبي ﷺ : والذي بعثك بالحق ما أمسى لآل محمد كف سويق ولاسفة دقيق فلم يكن كلامه بأسرع من أن سمع هدة من السماء أفزعته فقال عليه السلام: أمر الله القيامة أن تقوم؟ فقال : لاولكن هذا إسرافيل قد نزل إليك حين سمع كلامك ، فأتاه إسرافيل فقال : إن الله عز و جل سمع ما ذكرت فبعثني إليك بمفاتيح الأرض فأمرني أن أعرض عليك إن أحببت أن أسير معك جبال تهامة زمرداً وياقوتاً و ذهباً وفضة فعلت فان شئت نبياً ملكاً و إن شئت نبياً عبداً فأومأ إليه جبرئيل أن تواضع لله فقال نبياً عبداً ثلاثاً [٤].

وقال ﷺ: «إذا أراد الله بعبد خيراً زهده في الدنيا ورغبه في الآخرة وبصره

---

(١) ما عثرت على أصل له .

(٢) ذكره صاحب الفردوس من رواية على بن طلحة مرسلا بتقديم و تأخير وزيادة ولم يخرجه ولده فى مسند الفردوس . (المغنى)

(٣) قد تقدم عن الترمذى فى السنن ج ٩ ص ٢٠٩ .

(٤) رواه الطبرانى باسناد حسن والبيهقى فى الزهد من حديث ابن عباس . ورواه ابن حبان فى صحيحه مختصراً من حديث أبى هريرة كما فى الترغيب والترهيب ج٤ ص١٩٦ .

بعيوب نفسه »[١].

وقال صلّى الله عليه وآله : لرجل: «ازهد في الدّنيا يحبّك الله ، وازهد فيما في أيدي الناس يحبّك الناس»[٢].

وقال صلّى الله عليه وآله : « من أراد أن يؤتيه الله علماً بغير تعلّم ، وهدى بغير هداية ، فليزهد في الدّنيا »[٣].

وقال صلّى الله عليه وآله : «من اشتاق إلى الجنّة سارع إلى الخيرات ، ومن خاف من النّار لها عن الشهوات ، ومن ترقّب الموت ترك اللّذّات : ومن زهد في الدّنيا هانت عليه المصيبات »[٤] وجميع الأخبار الواردة في مدح بغض الدّنيا وذمّ حبّها لا يمكن حصرها فإنّ الأنبياء ما بعثوا إلّا لصرف الناس عن الدّنيا إلى الآخرة فإليه يرجع أكثر كلامهم مع الخلق وفيما أوردناه كفاية .

أقول: وجلّ ما أورده وارد من طريق الخاصّة أيضاً وما ورد فيه أيضاً أكثر من أن يحصى وقد أوردنا نبذاً من ذلك في كتاب ذمّ الدّنيا من ربع المهلكات ولنقتصر ههنا على ثلاث روايات ففي الكافي عن أبي عبيدة الحذّاء قال : سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: « قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : قال الله : إنّ من أغبط أوليائي عندي رجلاً خفيف الحال[٥]

(١) أخرجه الديلمى فى مسند الفردوس والبيهقى فى الشعب بدون قوله « ورغبه فى الاخرة » وزاد فى أوله . « فقهه فى الدين » من حديث محمد بن كعب القرظى مرسلا كما فى الجامع الصغير . (٢) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤١٠٢ و قد تقدم .

(٣) قال العراقى : لم أجد له أصلا .

(٤) رواه الكلينى فى الكافى ج ٢ ص ١٣٢ من حديث على بن الحسين عليهما السلام. و ابن حبان فى الضعفاء ، من حديث على بن أبى طالب عليه السلام . و فى النهج أيضاً أبواب الحكم تحت رقم ٣٠ من حديثه عليه السلام .

(٥) « خفيف الحال » أى قليل المال والحظ من الدنيا ، و فى بعض نسخ الحديث بالمهملة بمعنى سوء العيش و قلة المال و لعل الصحيح « خفيف الحاذ » و فى النهاية : « و فيه أغبط الناس المؤمن الخفيف الحاذ ، الحاذ و الحال واحد واصل الحاذ طريقة المتن و هو ما يقع عليه اللبد من ظهر الفرس أى خفيف الظهر من العيال و منه الحديث « ليأتين على الناس زمان يغبط فيه الرجل بخفة الحاذ .. » .

ذا حظ من صلاة ، أحسن عبادة ربه بالغيب ، وكان غامضاً في الناس [١] ، جعل رزقه كفافاً فصبر عليه ، عجلت منيته فقل تراثه وقلت بواكيه» [٢] .

و عن علي بن الحسين عليهما السلام قال : «مر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم براعي إبل فبعث إليه يستسقيه فقال: أما ما في ضروعها فصبوح الحي وأما ما في آنيتنا فغبوقهم [٣] فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : اللهم أكثر ماله و ولده ، ثم مر براعي غنم فبعث إليه يستسقيه فحلب ما في ضروعها و أكفأ [٤] ما في إنائه في إناء رسول الله وبعث إليه بشاة وقال : هذا ما عندنا و إن أحببت أن نزيدك زدناك ، قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : اللهم ارزقه الكفاف ، فقال له بعض أصحابه: يا رسول الله دعوت للذي ردك بدعاء عامتنا نحبه و دعوت للذي أسعفك بحاجتك [٥] بدعاء كلنا نكرهه ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إن ما قل و كفى خير مما كثر وألهى [٦] اللهم ارزق محمد وآل محمد الكفاف » [٧] .

وعن أبي عبدالله عليه السلام قال : « إن الله تعالى يقول : يحزن عبدي المؤمن إن قترت عليه و ذلك أقرب له مني ويفرح عبدي المؤمن إن وسعت عليه وذلك أبعد له مني» [٨] .

☼(بيان درجات الزهد واقسامه)☼

☼(بالاضافة الى نفسه والى المرغوب عنه والى المرغوب فيه)☼

إعلم أن الزهد في نفسه يتفاوت بحسب تفاوت قوته على ثلاث درجات :الدرجة السفلى منها أن يزهد في الدنيا و هولها مشته و قلبه إليها مائل ونفسه إليها ملتفتة

---

(١) فى النهاية : غامضاً أى مغموراً غير مشهور .

(٢) المصدر ج ٢ ص ١٤٠ تحت رقم ١ .

(٣) الغبوق : شرب آخر النهار .

(٤) « اكفأ » أى قلب و كب . فى القاموس كفأه كمنعه : صرفه و كبه وقلبه كاكفأه .

(٥) « اسعفك بحاجتك » أى قضاها لك .

(٦) « ألهى » أى شغل عن الله وعن عبادته .

(٧) المصدر ج ٢ ص ١٤٠ تحت رقم ٤ .

(٨) المصدر ج ٢ ص ١٤١ تحت رقم ٥ .

ولكن يجاهدها ويكفّها وهذا يسمّى المتزهّد وهو مبدء الزّهد في حقّ من يصل إلى درجة الزّهد بالكسب والاجتهاد والمتزهّد يذيب أوّلاً نفسه ثمّ كيسه والزّاهد يذيب أوّلاً كيسه ثمّ يذيب نفسه في الطاعات لا في الصبر على ما فارقه و المتزهّد على خطر فإنّه ربّما تغلبه نفسه وتجذبه شهوته فيعود إلى الدّنيا وإلى الاستراحة بها في قليل أو كثير ، الدّرجة الثانية أن يترك الدّنيا طوعاً لاستحقاره إيّاها بالإضافة إلى ما طمع فيه كالّذي يترك درهماً لأجل درهمين فإنّه لا يشقّ عليه ذلك و إن كان يحتاج إلى انتظار قليل ولكن هذا الزّاهد يرى لامحالة زهده ويلتفت إليه كما يرى البائع المبيع ويلتفت إليه فيكاد يكون معجباً بنفسه وبزهده ويظنّ بنفسه أنّه ترك شيئاً له قدر لما هو أعظم قدراً منه وهذا أيضاً نقصان ، الدّرجة الثالثة وهي العليا أن يزهد طوعاً ويزهد في زهده فلا يرى زهده إذ لا يرى أنّه ترك شيئاً إذ عرف أنّ الدّنيا لاشيء فيكون كمن ترك خنفساءة وأخذ جوهرة فلا يرى ذلك معاوضة ولا يرى نفسه تاركاً شيئاً ، والدّنيا بالإضافة إلى الله ونعيم الآخرة أخسّ من خنفساءة إلى جوهرة فهذا هو الكمال في الزّهد وسببه كمال المعرفة ، ومثل هذا الزّاهد آمن من خطر الالتفات إلى الدّنيا ، كما أنّ تارك الخنفساءة بالجوهرة آمن من طلب الإقالة في البيع .

قال : أبو يزيد لأبي موسى عبد الرّحيم في أيّ شيء تتكلّم ؟ قال : في الزّهد قال : في أيّ شيء ؟ قال : في الدّنيا فنفض يده ، وقال : ظننت أنّك تتكلّم في شيء، الدنيا لاشيء أيش تزهد فيها ، ومثل من ترك الدّنيا للآخرة عند أهل المعرفة وأرباب القلوب المعمورة بالمشاهدات والمكاشفات مثل من منعه عن باب الملك كلب على بابه فألقى إليه لقمة من خبز فشغله بنفسه و دخل الباب و نال القرب عند الملك حتّى نفذ أمره في جميع مملكته أفترى أنّه يرى لنفسه يداً عند الملك بلقمة خبز ألقاها إلى كلبه في مقابلة ما يناله ، فالشيطان كلب على باب الله يمنع الناس من الدّخول مع أنّ الباب مفتوح والحجاب مرفوع والدّنيا كلقمة خبز إن أكلها فلذّتها في حال المضغ وتنقضي على القرب بالابتلاع ، ثمّ يبقى ثقله في المعدة ، ثمّ ينتهي إلى النتن والقذر ويحتاج إلى إخراج الثقل فمن يتركها لينال عزّ الملك كيف يلتفت إليها، أو نسبة الدّنيا كلّها

أعني ما يسلّم لكلّ شخص منها وإن عمر مائة سنة بالإضافة إلى نعيم الآخرة أقلّ من لقمة بالإضافة إلى ملك الدّنيا إذ لا نسبة للمتناهي إلى ما لا نهاية له و الدّنيا متناهية على القرب ولو كانت تتمادى ألف ألف سنة صافية عن كلّ كدر لكان لا نسبة له إلى الأبد فكيف ومدّة العمر قصيرة ولذّات الدّنيا مكدّرة غير صافية فأيّ نسبة لها إلى نعيم الأبد ، فإذن لا يلتفت الزّاهد إلى زهده إلّا إذا التفت إلى ما زهد فيه ولا يلتفت إلى ما زهد فيه إلّا لأنّه يراه شيئاً معتدّاً به ، ولا يراه شيئاً معتدّاً به إلّا لقصور معرفته ، فسبب نقصان الزّهد نقصان المعرفة فهذا تفاوت درجات الزّهد و كلّ درجة من هذه أيضاً لها درجات . إذ تصبّر المتزهّد يختلف و يتفاوت أيضاً باختلاف قدر المشقّة في الصبر ، و كذلك درجة المعجب بزهده في قدر التفاته إلى زهده .

و أمّا انقسام الزّهد بالإضافة إلى المرغوب فيه فهو أيضاً على ثلاث درجات : الدّرجة السفلى أن يكون المرغوب فيه النجاة من النّار ومن سائر الآلام كعذاب القبر و مناقشة الحساب ، وخطر الصراط ، وسائر ما بين يدي العبد من الأهوال كما وردت به الأخبار إذ فيها « أنّ الرّجل ليوقف في الحساب حتّى لو وردت مائة بعير عطاش على عرقه لصدرت رواء »(١) فهذا زهد الخائفين و كأنّهم رضوا بالعدم ولو أعدموا فإنّ الخلاص من الألم يحصل بمجرّد العدم . الدّرجة الثانية أن يزهد رغبة في ثواب الله و نعيمه واللّذّات الموعودة في جنّته من الحور والقصور وغيرها وهذا زهد الرّاجين فإنّ هؤلاء ما تركوا الدّنيا قناعة بالعدم والخلاص من الألم بل طمعوا في وجود دائم على نعيم قائم لا آخر له . الدّرجة الثالثة وهي العليا أن لا يكون له رغبة إلّا في الله و في لقائه ، فلا يلتفت قلبه إلى الآلام ليقصد الخلاص منها ، ولا إلى اللّذّات ليقصد نيلها و الظفر بها ، بل هو مستغرق الهمّ بالله تعالى وهو الّذي أصبح و همومه همّ واحد وهو الموحّد الحقيقي الّذي لا يطلب غير الله تعالى لأنّ من طلب غير الله فقد عبده و كلّ مطلوب معبود و كلّ طالب عبد بالإضافة إلى مطلوبه وطلب غير الله من الشرك الخفيّ وهذا زهد المحبّين و هم العارفون لأنّه لا يحبّ الله خاصّة إلّا من عرفه . و كما أنّ من عرف

(١) ما عثرت على أصل له .

الدّينار وعرف الدّرهم وعلم أنّه لايقدرعلى الجمع بينهما لم يحبّ إلّا الدّينار فمن عرف الله وعرف لذّة النظر إلى وجهه الكريم وعرف أنّ الجمع بين تلك اللّذّة وبين لذّة التنعّم بالحور العين و النظر إلى نقش القصور و خضرة الأشجار غير ممكن فلا يحبّ إلّا لذّة النظر ولايؤثر غيره ولاتظنن أن أهل الجنّة عند النظر إلى وجه الله تعالى يبقى للذّة الحور والقصور متّسع في قلوبهم ، بل تلك اللّذّة بالإضافة إلى لذّة نعيم الجنّة كلذّة ملك الدّنيا والاستيلاء على أطراف الأرض ورقاب الخلق بالإضافة إلى لذّة الاستيلاء على عصفور واللّعب به ، و الطالبون لنعيم الجنّة عند أهل المعرفة و أرباب القلوب كالصبيّ الطالب للّعب بالعصفور التارك للذّة الملك ، وذلك لقصوره عن إدراك لذّة الملك لالأنّ اللّعب بالعصفور في نفسه أعلى وألذّ من الاستيلاء بطريق الملك على كافّة الخلق .

و أمّا انقسامه بالإضافة إلى المرغوب عنه فقد كثرت فيه الأقاويل و لعلّ المذكور فيه يزيد على مائة قول فلانشتغل بنقل الأقاويل ، ولكن نشير إلى كلام محيط بالتفاصيل حتّى يتّضح أنّ أكثر ما ذكر فيه قاصر عن الإحاطة بالكلّ ، فنقول : المرغوب عنه بالزّهد له إجمال وتفصيل ولتفصيله مراتب بعضها أشرح لآحاد الأقسام وبعضها أجمع للجمل أمّا الإجمال في الدّرجة الأولى فهو كلّ ما سوى الله ، فينبغي أن يزهد فيه حتّى يزهد في نفسه أيضاً ، والإجمال في الدّرجة الثانية أن يزهد في كلّ صفة للنفس فيها متعة ، وهذا يتناول جميع مقتضيات الطبع من الشهوة و الغضب والكبر والرّئاسة والمال والجاه وغيرها ، والإجمال في الدّرجة الثالثة أن يزهد في المال والجاه و أسبابهما إذ إليهما ترجع حظوظ النفس ، و في الدّرجة الرّابعة أن يزهد في العلم والقدرة والدّينار والدّرهم والجاه ، اذ الأموال وإن كثرت أصنافها فيجمعها الدّينار و الدّرهم ، والجاه وإن كثرت أسبابه فيرجع إلى العلم والقدرة وأعني به كلّ علم وقدرة مقصودها ملك القلوب إذ معنى الجاه ملك القلوب و القدرة عليها كما أنّ معنى المال ملك الأعيان و القدرة عليها ، فإن جاوزت هذا التفصيل إلى شرح و تفصيل أبلغ من هذا فيكاد يخرج ما فيه الزّهد عن الحصر ، و قد ذكر الله تعالى في آية

واحدة سبعة منها فقال : « زيّن للناس حبّ الشهوات من النساء و البنين و القناطير المقنطرة من الذّهب والفضّة والخيل المسوّمة و الأنعام والحرث ذلك متاع الحيوة الدّنيا »[1] ثمّ ردّه في آية أُخرى إلى خمسة فقال : « اعلموا أنّما الحياة الدّنيا لعبٌ ولهوٌ وزينةٌ و تفاخرٌ بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد »[2] ثمّ ردّه في موضع آخر [إلى اثنين فقال تعالى : « إنّما الحيوة الدّنيا لعب ولهو »[3] ثمّ ردّ الكلّ] إلى واحد في موضع آخر فقال : « ونهى النفس عن الهوى ☆ فإنّ الجنّة هي المأوى »[4] فالهوى لفظ يجمع جميع حظوظ النفس في الدّنيا فينبغي أن يكون الزّهد فيه ، وإذا عرفت طريق الإجمال والتفصيل عرفت أنّ البعض من هذه لا يخالف البعض وإنّما يفارقه في الشرح مرّة والإجمال اُخرى والحاصل أنّ الزّهد عبارة عن الرّغبة عن حظوظ النفس كلّها ومهما رغب عن حظوظ النفس رغب عن البقاء في الدّنيا فقصر أمله لا محالة لأنّه يريد البقاء ليتمتّع ويريد التمتّع الدّائم بإرادة البقاء ، فإنّ من أراد شيئاً أراد دوامه ، ولا معنى لحبّ الحياة الدّنيا إلّا حبّ دوام ما هو موجودٌ أو ممكن في هذه الحياة ، فإذا رغب عنها لم يردها ولذلك « لمّا كتب عليهم القتال قالوا ربّنا لم كتبت علينا القتال لولا أخّرتنا إلى أجل قريب » فقال تعالى : « قل متاع الدّنيا قليل »[5] أي لستم تريدون البقاء إلّا لمتاع الدّنيا فظهر عند ذلك الزّاهدون وانكشف حال المنافقين أمّا الزّاهدون المحبّون لله فقاتلوا في سبيل الله كأنّهم بنيان مرصوصٌ و انتظروا إحدى الحسنيين وكانوا إذا دعوا إلى القتال يستنشقون رائحة الجنّة ويبادرون إليه مبادرة الظمآن إلى الماء البارد حرصاً على نصرة دين الله أو نيل رتبة الشهادة و كلّ من مات منهم على فراشه يتحسّر على فوت الشهادة ، وأمّا المنافقون ففرّوا من الزّحف خوفاً من الموت فقيل لهم : « إنّ الموت الّذي تفرّون منه فإنّه ملاقيكم » فإيثاركم البقاء على الشهادة استبدال الّذي هو أدنى بالّذي هو خيرٌ « فاُولئك الّذين اشتروا الضلالة

(١) آل عمران : ١٣ . (٢) الحديد : ٢٠ .
(٣) محمد : ٣٦ .
(٤) النازعات : ٤٠ . (٥) النساء : ٧٧

بالهدى فما ربحت تجارتهم و ما كانوا مهتدين » و أمّا المخلصون فإنّ الله تعالى اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنّة فلمّا رأوا أنّهم تركوا تمتّع عشرين سنة أو ثلاثين بتمتّع الأبد استبشروا ببيعهم الّذي بايعوا به ، و هذا بيان المزهود فيه ، وإذا فهمت هذا علمت أنّ ما ذكر المتكلّمون في حدّ الزّهد لم يشيروا به إلاّ إلى بعض أقسامه فذكر كلّ واحدمنهم ما رآه غالباً على نفسه أو على من كان يخاطبه .

أقول : ثمّ ذكر أبو حامد جملة من أقاويل الناس في الزّهد و بيّن قصورها واحداً واحداً .

ثمّ قال : وفي الزّهد أقاويل وراء ماقلناه فلم نر في نقله فائدة ، فإنّ من طلب كشف حقايق الاُمور من أقاويل الناس ورآها مختلفة فلا يستفيد إلّا الحيرة و أمّا من انكشف له الحقّ في نفسه و أدركه بمشاهدة من قلبه لايتلقّف ممّن سمعه وثق بالحقّ و اطّلع عن قصور من قصر لقصور بصيرته و على اقتصار من اقتصر مع كمال المعرفة لاقتصار حاجته ، وهؤلاء كلّهم اقتصروا لاالقصور في البصيرة ولكنّهم ذكروا ماذكروه عندالحاجة فلاجرم ذكروه بقدر الحاجة والحاجات تختلف فلاجرم الكلمات تختلف و قد يكون سبب الاقتصار الإخبار عن الحالة الرّاهنة الّتي هي مقام العبد في نفسه والأحوال تختلف فلا جرم الأقوال المخبرة عنها تختلف ، و أمّا الحقّ في نفسه فلا يكون إلّا واحداً ولايتصوّر أن يختلف .

أقول : و في الكافي عن السجّاد عليه السلام « إنّ الزّهد في آية من كتاب الله تعالى «لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم »(١) وقد مضى هذا في كلام أمير-المؤمنين عليه السلام وهي الكلمة الجامعة في الزّهد ، وعن أمير المؤمنين عليه السلام : «الزّهد في الدّنيا قصر الأمل وشكر كلّ نعمة والورع عن كلّ ماحرّم الله عزّ وجلّ » (٢) .

و عن الصادق عليه السلام « أنّه سئل عن الزّاهد في الدّنيا فقال : الّذي يترك حلالها مخافة حسابه ويترك حرامها مخافة عقابه » (٣).

---

(١) المصدر ج ٢ ص ١٢٨ تحت رقم ٤ ، والاية فى سورة الحديد : ٣٣ .
(٢) المصدر ج ٥ ص ٧١ تحت رقم ٣ .
(٣) رواه الصدوق فى العيون ص ١٧٣ .

وفي مصباح الشريعة[١] عنه عليه السلام قال : «الزّهد مفتاح باب الآخرة والبراءة من النار وهو تركك كلّ شيء يشغلك عن الله من غير تأسّف على فوتها ولا إعجاب في تركها ولا انتظار فرج منها وطلب محمدة عليها ولا عوض لها بل ترى فوتها راحة و كونها آفة ، وتكون أبداً هارباً من الآفة ، معتصماً بالرّاحة ، و الزّاهد الّذي يختار الآخرة على الدّنيا والذّل على العزّ والجهد على الرّاحة والجوع على الشبع و عافية الآجل عن محنة العاجل و الذكر على الغفلة و يكون نفسه في الدّنيا وقلبه في الآخرة قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «حبّ الدّنيا رأس كلّ خطيئة» ألاترى كيف أحبّ ما أبغضه الله و أيّ خطأ أشدّ جرماً من هذا ؟ و قال بعض أهل البيت عليهم السلام : لو كانت الدّنيا بأجمعها لقمة في فم طفل لرحمناه فكيف حال من ينبذ حدود الله خلف ظهره في طلبها والحرص عليها ، والدّنيا دار لو أحسنت إلى ساكنها لرحمتك وأحسنت وداعك قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « لما خلق الله الدّنيا أمرها بطاعته فأطاعت ربّها فقال لها: خالفي من طلبك و وافقي من خالفك ، فهي على ما عهد إليها الله وطبعها عليه .

قال أبو حامد : فهذا بيان انقسام الزّهد بالإضافة إلى أصناف المزهود فيه فأمّا بالإضافة إلى أحكامه فينقسم إلى فرض ونفل وسلامة فالفرض هو الزّهد في الحرام والنفل هو الزّهد في الحلال و السلامة هو الزّهد في الشبهات و قد ذكرنا درجات الورع في كتاب الحلال والحرام وذلك من الزّهد إذ قيل لبعض السلف : ما الزّهد؟ فقال : التقوى ، و أمّا بالإضافة إلى خفايا ما يترك فلا نهاية للزّهد فيه إذ لا نهاية لما تتمتّع به النّفس في الخطرات و اللّحظات وسائر الحالات لا سيّما خفايا الرّياء فإنّ ذلك لا يطّلع عليه إلّا سماسرة العلماء بل الأموال الظاهرة أيضاً درجات الزّهد فيها لا تتناهى فمن أقصى درجاتها زهد عيسى عليه السلام إذ توسّد حجراً في نومه فقال له الشيطان : أما كنت تركت الدّنيا فما الّذي بدالك ؟ فقال : وما الّذي تجدّد فقال : توسّدك الحجر أي تنعّمت برفع رأسك عن الأرض في النوم فرمى الحجر و قال : خذه فقد تركته لك . وروي عن يحيى بن زكريّا أنّه لبس المسوح حتّى ثقب جلده

(١) المصدر باب الحادى والثلاثون .

تركاً للتنعّم بلين الثياب و استراحة حسّ اللّمس فسألته اُمّه أن يلبس مكانها جبّة من صوف ففعل فأوحى الله إليه يايحيى آثرت عليّ الدّنيا فبكى ونزع الصوف وعاد إلى ما كان . وجلس عيسى عليه السلام في ظلّ حائط إنسان فأقامه صاحب الحائط فقال: ما أقمتني أنت إنّما أقامني الّذي لم يرض لي أن أتنعّم بظلّ الحائط ، فإذن درجات الزّهد ظاهراً وباطناً لاحصرلها وأقلّ درجاته الزّهد في كلّ شبهة ومحظور، فإن قلت : مهما كان الصحيح هو أنّ الزّهد ترك ما سوى الله فكيف يتصوّر ذلك مع الأكل والشرب واللّبس ومخالطة الناس ومكالمتهم ، فكلّ ذلك اشتغال بما سوى الله؟ فاعلم أنّ معنى الانصراف من الدّنيا إلى الله الإقبال بكلّ القلب إليه ذكراً وفكراً ولايتصوّر ذلك إلّا مع البقاء ، ولابقاء إلّا بضرورات النفس فمهما اقتصرت من الدّنيا على دفع المهلكات عن البدن وكان غرضك الاستعانة بالبدن على العبادة لم تكن مشتغلاً بغير الله فإنّ مالايتوصّل إلى الشيء إلّا به فهو منه فالمشتغل بعلف الناقة في طريق الحجّ ليس معرضاً عن الحجّ ولكن ينبغي أن يكون بدنك في طريق الله مثل ناقتك في طريق الحجّ ولاغرض لك في تنعّم ناقتك باللّذات بل غرضك مقصور على دفع المهلكات عنها حتّى تسير بك إلى مقصدك ، فكذلك ينبغي أن تكون في صيانة بدنك عن الجوع والعطش المهلك بالأكل والشرب و عن الحرّ والبرد المهلك باللّباس والمسكن فتقتصر على قدر الضرورة ولاتقصد التلذّذ بل التقوّي على طاعة الله فذلك لايناقض الزّهد بل هو شرط الزّهد .

(بيان تفصيل الزهد فيما هو من ضرورات الحياة)

إعلم أنّ ما الناس منهكون فيه ينقسم إلى فضول وإلى مهمّ فالفضول كالخيل المسوّمة مثلاً إذ يقتنيها الإنسان ليركب و هو قادر على المشي و المهمّ كالأكل والشرب ولسنا نقدر على تفصيل أصناف الفضول فإنّ ذلك لاينحصر وإنّما ينحصر المهمّ الضروري والمهمّ أيضاً يتطرّق إليه فضول في مقداره وجنسه و أوقاته فلابدّ من بيان وجه الزّهد فيه ، والمهمّات ستّة المطعم والملبس والمسكن وأثاثه والمنكح والمال . و الجاه يطلب لأغراض هذه الستّة من جملتها وقد ذكرنا معنى الجاه و سبب حبّ

الخلق له و كيفيّة الاحتراز منه في كتاب الرّياء من ربع المهلكات و نحن الآن نقتصر على بيان هذه المهمّات الستّة .

أقول : ثمّ أخذ أبو حامد في بيان هذه المهمّات الستّة واحداً واحداً بكلام عليل وتفصيل طويل خرج به عن حدّ الاعتدال و الاقتصار فيها إلى التضييق والتعسير والمبالغة في التقشّف وما ليس عند أهل الحقّ بمرضي و ما لا يوجد في الناس عامل به وما ذمّه أهل البيت عليهم السلام فيما روي عنهم أصحابنا رحمهم الله و استند في ذلك إلى أقوال السلف وأفعالهم وهم بين من ليس قوله ولا فعله حجّة وبين من لفعله وقوله تأويل أو تخصيص بالزّمان أو العرف أو غير ذلك فلنعرض عن ذكر كلامه هذا صفحاً إلّا ما ذكره في المال والجاه و ما ذكره بعد ذلك من علامات الزّهد، ثمّ نذكر كلاماً في هذا الباب عن الصادق عليه السلام يكون ميزاناً يعرف به كلّ خلل كان في كلام أبي حامد في أبواب الزّهد نختم به الكتاب إن شاء الله .

قال : المهمّ السادس ما يكون وسيلة إلى هذه الخمسة وهو المال و الجاه أمّا الجاه فمعناه ملك القلوب بطلب محلّ فيها ليتوصّل بها إلى الاستعانة في الأغراض و الأعمال و كلّ من لا يقدر على القيام بنفسه في جميع حاجاته وافتقر إلى أن يخدم افتقر إلى جاه لا محالة في قلب خادمه لأنّه أن لم يكن له عنده محلّ وقدر لم يقم بخدمته وقيام القدر والمحلّ في القلوب هو الجاه وهذا له أوّل مرتبة ولكن يتمادى به إلى هاوية لا عمق لها ، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، و إنّما يحتاج إلى المحلّ في القلوب إمّا لجلب نفع أو لدفع ضرّ ولخلاص من ظلم فأمّا النفع فيغني عنه المال فإنّ من يخدم بأجرة يخدم و إن لم يكن للمستأجر عنده قدر و إنّما يحتاج إلى الجاه في قلب من يخدم بغير اُجرة، وأمّا دفع الضرّ فيحتاج لأجله إلى الجاه في بلد لا يكمل العدل فيها ، أو يكون بين جيران يظلمونه فلا يقدر على دفع شرّهم إلّا بمحلّ له في القلوب أو محلّ له عند السلطان ،وقدر الحاجة فيه لا ينضبط لا سيّما إذا انضمّ إليه الخوف وسوء الظنّ بالعواقب والخائض في طلب الجاه سالك طريق الهلاك بل حقّ الزّاهد أن لا يسعى لطلب المحلّ في القلوب أصلاً فإنّ اشتغاله بالدّين والعبادة

يمهّدله من المحلّ في القلوب ما يدفع بهعنهالأذى ولو كان بين الكفّار فكيف بين المسلمين، وأمّا التوهّمات و التقديرات الّتي تحوج إلى زيادة في الجاه على الحاصل بغير كسب فهي أوهام كاذبة ، إذمن طلب الجاه أيضاً لم يخل عن أذى في بعض الأحوال فعلاج ذلك بالاحتمال و الصبر أولى من علاجه بطلب الجاه، فإذن طلب المحلّ في القلوب لا رخصة فيه أصلاً واليسير منه داع إلى الكثير و ضراوته أشدّ من ضراوة الخمر فليحترز من قليله و كثيره . وأمّا المال و هو ضروري في المعيشة أعني القليل منه فإن كان كسوباً فإذا اكتسب حاجة يومه فينبغي أن يترك الكسب ،كان بعضهم إذا اكتسب قدر حاجته رفع سفطه وقام، هذا شرط الزّهد فإن جاوز ذلك إلى ما يكفيه أكثر من سنة فقد خرج عن حدّ ضعفاء الزّهاد و أقويائهم جميعاً و إن كانت له ضيعة و لم يكن له قوّة يقين في التوكّل فأمسك منها مقدار ما يكفي ريعه لسنة واحدة فلا يخرج بهذا القدر عن الزّهدبشرط أن يتصدّق بكلّ ما يفضل من كفاية سنتهولكن يكون من ضعفاء الزّهادفإن شرط التوكّل في الزّهد كماشرطها ُويس القرني فلا يكون هذا من الزّهّاد و قولنا إنّه خرج من حدّ الزّهّاد نعني به أنّ ما وعد للزّاهدين في الدّارالآخرة من المقامات المحمودة لايناله و إلّا فاسم الزّهدقدلايفارقه بالإضافة إلى مازهد فيه من الفضول والكثرة . أقول: بل الّذي أمسك من أكثر قوت السنة أيضاً بنيّة أنّه إن احتاج إلى انفاق أوبذل لا يحوجه ذلك إلى الطلب لايخرج عن الزّهد ولا التوكّل بشرط أن يكون وثوقه بالله سبحانه لابذلك المال، و بشرطأن لايشتغل قلبه به كما يتبيّن ممّا يأتي. قال : و أمر المنفرد في جميعذلك أخفّ من أمر المعيل وقد قال أبوسليمان لاينبغي أن يرهق الرّجل أهله إلى الزّهد بل يدعوهم إليه فإن أجابوا وإلّا تركهم و فعل بنفسهما شاء . معناه أنّ التضييق المشروط على الزّاهد يخصّه ولايلزمه كلّ ذلك في عياله ، نعم لا ينبغي أن يجيبهم أيضاً فيمايخرج عن حدّ الاعتدال ، فإذاً مايضطرّ الإنسان إليه من جاه ومال ليس بمحذور بل الزّائد على الحاجة سمّ قاتل والمقتصر على الضرورة دواء نافع و ما بينهما درجات متشابهة ، فما يقرب من الزّيادة وإن لم يكن سمّاً قاتلاً فهو مضرّ ومايقرب من الضرورة فهودواء

و إن لم يكن دواء نافعاً ، ولكنّه يسير الضرر . والسمّ محظور شربه ، و الدّواء فرض تناوله و ما بينهما مشتبه أمره ، فمن احتاط فإنّما يحتاط لنفسه و من تساهل فإنّما يتساهل على نفسه و من استبرء لدينه وترك ما يريبه إلى مالا يريبه ، وردّ نفسه إلى مضيق الضرورة فهو الآخذ بالحزم وهو من الفرقة الناجية لا محالة والمقتصر على قدر الضرورة و المهمّ لايجوز أن ينسب إلى الدّنيا بل ذلك القدر من الدّنيا هو عين الدّين لأنّه شرط الدّين و الشرط من جملة المشروط ، فإذن قدر الحاجة من الدّين و ماوراء ذلك وبال في الآخرة وهو في الدّنيا أيضاً كذلك يعرفه من عاين أحوال الأغنياء وماعليهم من المحنة في كسب المال وجمعه وحفظه و احتمال الذّلّ فيه ، و غاية سعادته فيه أن يسلّم لورثته فيأكلونه وهم أعداؤه وربّما يستعينون به على المعصية فيكون هي معيناً لهم عليها و لذلك شبّه جامع الدّنيا و متّبع الشهوات بدود القزّ لايزال ينسج على نفسه حيناً ثمّ يروم الخروج فلا يجد مخلصاً فيموت و يهلك بسبب عمله الّذي عمله بنفسه قال الشاعر :

ألم تر أنّ المرء طول حياته ✧ معنّى بأمر لا يزال معالجه

كدود كدود القزّ ينسج دائماً ✧ ويهلك غمّاً وسط ماهو ناسجه

فكذلك كلّ من اتّبع شهوات الدّنيا فإنّما يحكم على قلبه سلاسل تقيّده بما يشتهيه حتّى تتظاهر عليه السلاسل فيقيّده المال والجاه و الأهل و الولد و شماتة الأعداء و مراآة الأصدقاء و سائر حظوظ الدّنيا فلو خطر له أنّه قد أخطأ فيه وقصد الخروج من الدّنيا لم يقدر عليه و رأى قلبه مقيّداً بسلاسل و أغلال لا يقدر على قطعها ولو ترك محبوباً من محابّه باختياره كاد أن يكون قاتلاً لنفسه وساعياً في هلاكه إلى أن يفرق ملك الموت بينه وبين جميعها دفعة واحدة فتبقى السلاسل في قلبه معلّقة بالدّنيا الّتي هي فاتته وخلفها فهي تجاذبه إلى الدّنيا و مخالب ملك الموت قد تعلّقت بعروق قلبه تجذبه إلى الآخرة فيكون أهون أحواله عند الموت أن يكون مثل شخص ينشر بالمناشير ويفصل أحد جانبيه عن الآخر بالمجاذبة من الجانبين والّذي ينشر بالمنشار إنّما ينزل الألم ببدنه ويألمه من حيث يسرى أثره إلى قلبه فكيف الظنّ بألم يتمكّن

أوّلاً من صميم القلب مخصوصاً به لاطريق للسراية إليه من غيره ، فهذا أوّل عذاب يلقاه قبل ما يراه من حسرات فوت النزول في أعلى علّيين و جوار ربّ العالمين ، فبالنزوع إلى الدّنيا يحجب عن لقاء الله تعالى وعند الحجاب تتسلّط عليه نارجهنّم إذالنار غيرمسلّطة إلّاعلى محجوب قال تعالى : « كلاإنّهم عن ربّهم يومئذلمحجوبون۞ ثمّ إنّهم اصالوا الجحيم » (١) فرتّب العذاب بالنار على ألم الحجاب وألم الحجاب كاف من غيرعلاوة النار ، فكيف إذا اُضيفت العلاوة إليه فنسأل الله تعالى أن يقرّ في أسماعنا ما نفث في روع رسول الله ﷺ حيث قيل له : « احبب من أحببت فانّك مفارقه » (٢) ولمّا انكشف لأولياء الله أنّ العبد مهلك نفسه بأعماله واتّباعه هوى نفسه إهلاك دود القزّ نفسه رفضوا الدّنيا بالكلّيّة وكان أحدهم يعرض له المال الحلال فلايأخذه و يقول : أخاف أن يفسد عليّ قلبي فمن كان له قلبٌ كان يخاف من فساده و الّذين أمات حبُّ الدّنيا قلوبهم فقد أخبر الله عنهم إذقال : « ورضوا بالحياة الدّنيا واطمأنّوا بها و الّذين هم عن آياتنا غافلون » (٣) و قال « و لا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا و اتّبع هواه وكان أمره فرطاً » (٤) وقال : « فأعرض عن من تولّى عن ذكرنا ولم يرد إلّا الحيوة الدّنيا ذلك مبلغهم من العلم » (٥) فأحال ذلك كلّه على الغفلة وعدم العلم ولذلك قال رجل لعيسى عليه السلام : احملني معك في سياحتك فقال : اخرج مالك و ألحقني قال : لا أستطيع فقال عليه السلام : بعجب يدخل الغنيّ الجنّة أو قال : بشدّة ، و قال بعضهم : مامن يوم ذرّ شارقه إلّا وأربعة أملاك ينادون في الآفاق بأربعة أصوات ملكان بالمشرق وملكان بالمغرب ، يقول أحدهم من المشرق : يا باغي الخير هلمّ ويا باغي الشرّ أقصر ، و يقول الآخر : اللّهمّ أعط منفقاً خلفاً و أعط ممسكاً تلفاً ، و يقول اللّذان بالمغرب أحدهما: لدوا للموت وابنوا للخراب ، ويقول الآخر: كلوا وتمتّعوا لطول الحساب .

---

(١) المطففين : ١٥ و ١٦ .
(٢) تقدم سابقاً .
(٣) يونس : ٧ .
(٤) الكهف : ٢٨ .
(٥) النجم : ٢٩ .

✿(بيان علامات الزهد)✿

إعلم أنّه قديظنّ أنّ تارك المال زاهدٌ وليس كذلك فإنّ ترك المال و إظهار الخشونة سهل على من أحبّ المدح بالزّهد فكم من الرّاهبين ردّوا أنفسهم كلّ يوم على قدر يسير من الطعام و لازموا ديراً لا باب له وإنّما مسرّتهم معرفة الناس حالهم ونظرهم إليه ومدحهم له فذلك لايدلّ على الزّهد دلالة قاطعة بل لابدّ من الزّهد في المال والجاه جميعاً حتّى يكمل الزّهد في جميع حظوظ النفس من الدّنيا.

أقول: و هذا كحال بعض المنافقين من الصحابة و التابعين ومن تأخّر عنهم كالحسن البصريّ والسفيان الثوريّ وأبي حنيفة و كثير ممّن يسمّيهم أبوحامد بالسلف و يستند إلى أقوالهم و أفعالهم انخداعاً له من تقشّفهم و تعرّفهم أنفسهم إلى الناس ليحمدوا حبّاً للرّئاسة والجاه.

قال أبوحامد: فإذن معرفة الزّهد أمر مشكل بل حال الزّهد على الزّاهد مشكلٌ وينبغي أن يعوّل في باطنه على ثلاث علامات: العلامة الاُولى أن لايفرح بموجود ولا يحزن على مفقود كما قال الله تعالى: «لكيلا تأسوا على مافاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم»(١) و الثانية أن يستوي عنده ذامّه و مادحه فالأولى علامة الزّهد في المال، و الثانية علامة الزّهد في الجاه، و العلامة الثالثة أن يكون اُنسه بالله تعالى والغالب على قلبه حلاوة الطاعة إذلايخلو القلب عن حلاوة المحبّة إمّا محبّة الدّنيا و إمّا محبّة الله، وهما في القلب كالماء والهواء في القدح فالماء إذادخل خرج الهواء ولا يجتمعان، و كلّ من أنس بالله اشتغل به ولم يشتغل بغيره و لذلك قيل لبعضهم: إلى ماذا أفضى بهم الزّهد؟ فقال: إلى الاُنس بالله، فأمّا الاُنس بالدنيا وبالله جميعاً فلايجتمعان وقد قال أهل المعرفة: إذا تعلّق الإيمان بظاهر القلب أحبّ الدّنيا والآخرة جميعاً وعمل لهما و إذا بطن الإيمان في سويداء القلب وباشره أبغض الدّنيا فلم ينظر إليها و لم يعمل لها و لهذا ورد في دعاء آدم عليه السلام «اللّهمّ إنّي أسألك إيماناً يباشر قلبي» فكلّ من ترك من الدّنيا شيئاً مع القدرة عليه خوفاً على قلبه وعلى

---

(١) الحديد: ٢٣.

دينه فله مدخل في الزّهد بقدر ما تركه و آخره أن يترك كلّ ما سوى الله حتّى لا يتوسّد حجراً كما فعله عيسى عليه السلام ، فنسأل الله تعالى أن يرزقنا من مبادية نصيباً وإن قلّ فإنّ أمثالنا لا يستجري على الطمع في غاياته وإن كان قطع الرّجاء عن فضل الله غير مأذون فيه ، وإذا لاحظنا عجائب نعم الله علينا علمنا أنّ الله لا يتعاظمه أمر فلا يبعد أن نعظم السؤال اعتماداً على الجود المجاوز لكلّ كمال فإذن علامة الزّهد استواء الغنى و الفقر و العزّ و الذّلّ و المدح و الذّمّ لأجل غلبة الاُنس بالله ، و يتفرّع عن هذه العلامات علامات اُخر لا محالة ، مثل أن يترك الدّنيا ولا يبالي من أخذها ، وقيل : علامته أن يترك الدّنيا كما هي فلا يقول أبني رباطاً أو أعمر مسجداً ، و قال يحيى ابن معاذ : علامة الزّهد السخاء بالموجود ، وقال ابن خفيف : علامته وجود الرّاحة في الخروج من الملك ، و قال أيضاً : الزّهد هو عزوف النفس عن الدّنيا بلا تكلّف .

فهذا ما أردنا أن نذكره من حقيقة الزّهد و أحكامه ، و إذا كان الزّهد لا يتمّ إلّا بالتوكّل فلنشرع في بيانه .

أقول: ولنأت الآن بما وعدناه من ذكر كلام الصادق عليه السلام .

✡(كلام الصادق عليه السلام في الزهد)✡

روى في الكافي عن عليّ بن إبراهيم عن هارون بن مسلم عن مسعدة بن صدقة قال : « دخل سفيان الثوريّ على أبي عبدالله عليه السلام فرأى عليه ثياب بيض كأنّها غرقىء البيض (١) فقال له : إنّ هذا اللّباس ليس من لباسك ، فقال له : اسمع منّي وع ما أقول لك فإنّه خيرٌ لك عاجلاً وآجلاً إن أنت متّ على السنّة والحقّ (٢) ولم تمت على بدعة ، اُخبرك أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان في زمان مقفر جدب (٣) فأمّا إذا أقبلت الدّنيا فأحقّ أهلها بها أبرارها لا فجّارها ، و مؤمنوها لا منافقوها ، و مسلموها لا

(١) الغرقىء - كزبرج - : القشرة الملتزمة ببياض البيض اوالبياض الذى يؤكل ، قال الفراء : وهمزته زائدة . (الصحاح) .
(٢) اى انتفاعك بما أقول آجلا انما يكون اذا تركت البدع .
(٣) القفر : خلو الارض من الماء . والجدب : انقطاع المطر ويبس الارض .

كفّارها فما أنكرت يا ثوري فوالله إنّني لمع ماترى ماأتى عليّ مذعقلت صباح ولا مساء ولله في مالي حقّ أمرني أن أضعه موضعاً إلّاوضعته ، قال : فأتاه قوم ممّن يظهرون الزهد ويدعون الناس أن يكونوا معهم على مثل الّذي هم عليه من التقشّف فقالوا له : إنّ صاحبنا حصر عن كلامك(١) ولم تحضره حججه فقال لهم : فهاتوا حججكم فقالوا له : إنّ حججنا من كتاب الله ، فقال لهم : فأدلوا بها(٢) فإنّها أحقّ ما اتّبع وعمل به ، فقالوا يقول الله تبارك وتعالى مخبراً عن قوم من أصحاب النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم «ويؤثرون على أنفسهم و لو كان بهم خصاصة ومن يوق شحّ نفسه فاُولئك هم المفلحون»(٣) فمدح فعلهم ، وقال في موضع آخر «ويطعمون الطعام على حبّه مسكيناً ويتيماً وأسيراً »(٤) فنحن نكتفي بهذا ، فقال رجل من الجلساء : إنّا رأينا كم تزهدون في الأطعمة الطيّبة و مع ذلك تأمرون النّاس بالخروج من أموالهم حتّى تمتّعوا أنتم منها ؟ ! فقال له أبو عبد الله عليه السلام : دعوا عنكم ما لاينتفعون به أخبروني أيّها النفر ألكم علم بناسخ القرآن من منسوخه ومحكمه من متشابهه الّذي في مثله ضلّ من ضلّ وهلك من هلك من هذه الاُمّة فقالوا له : أو بعضه فأمّا كلّه فلا ، فقال لهم : فمن ههنا اُتيتم(٥) و كذلك أحاديث رسول الله(٦) فأمّا ما ذكرتم من إخبار الله عزّ وجلّ إيّانا في كتابه عن القوم الّذين أخبر عنهم بحسن فعالهم فقد كان مباحاً جائزاً(٧) ولم يكونوا نهوا عنه وثوابهم منه على الله عزّ وجلّ ذلك أنّ الله جلّ و تقدّس أمر بخلاف ما عملوا به فصار أمره

(١) التقشف - محركة - قذر الجلد و رثاثة الهيئة و سوء الحال و ترك النظافة و الترفة . والحصر العى في المنطق والعجز عن الكلام .

(٢) الادلاء بالشيء : احضاره أي احضروها .

(٣) الحشر : ١٠ . والخصاصة : الفقر والحاجة والشح : البخل .

(٤) الدهر : ٨ .

(٥) «اتيتم» بالبناء للمفعول أي دخل عليكم البلاء و أصابكم ما أصابكم .

(٦) اى فيها أيضاً ناسخ و منسوخ ومحكم و متشابه وانتم لاتعرفونها .

(٧) هذا لاينافى ما ذكره عليه السلام في جواب الثورى فانه علة شرعية الحكم اولا و نسخه ثانياً .

ناسخاً لفعلهم و كان نهي الله تبارك و تعالى رحمة منه للمؤمنين و نظراً لكيلا يضرّوا بأنفسهم وعيالاتهم منهم الضعفة الصغار و الولدان و الشيخ الفاني و العجوز الكبيرة الّذين لايصبرون على الجوع فإن تصدّقت برغيفي ولارغيف لي غيره ضاعوا و هلكوا جوعاً ، ومن ثمّة قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « خمس تمرات أوخمس قرص أو دنانير أو دراهم يملكها الإنسان وهو يريدأن يمضيها فأفضلها ما أنفقه الإنسان على والديه ، ثمّ الثانية على نفسه وعياله ، ثمّ الثالثة على قرابته الفقراء ، ثمّ الرّابعة على جيرانه الفقراء ، ثمّ الخامسة في سبيل الله وهو أخسّها أجراً » و قال صلى الله عليه وآله للأنصاري حين أعتق عند موته خمسة أوستّة من الرّقيق ولم يكن يملك غيرهم وله أولاد صغار : «لو أعلمتموني أمره ماتركتكم تدفنونه مع المسلمين ترك صبية صغاراً يتكفّفون الناس»[(١)] ثمّ قال : حدّثني أبي أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال : «إبدأ بمن تعول الأدنى فالأدنى» ثمّ هذا مانطق به الكتاب ردّاً لقولكم و نهياً عنه مفروضاً من الله العزيز الحكيم قال : « والّذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً»[(٢)] أفلا ترون أنّ الله تبارك وتعالى قال غيرماأراكم تدعون الناس إليه من الأثرة على أنفسهم وسمّى من فعل ماتدعون الناس إليه مسرفاً وفي غير آية من كتاب الله يقول : «إنّه لايحبّ المسرفين»[(٣)] فنهاهم عن الإسراف ونهاهم عن التقتير ولكن أمر بين أمرين لايعطي جميع ما عنده ثمّ يدعو الله أن يرزقه فلايستجيب له للحديث الّذي جاء عن النبيّ صلى الله عليه وآله « إنّ أصنافاً من اُمّتي لايستجاب لهم دعاؤهم : رجلٌ يدعو على والديه ، و رجل يدعو على غريم[(٤)] ذهب له بمال فلم يكتب عليه ولم يشهد عليه ، ورجلٌ يدعو على امرأته وقد جعل الله عزّوجلّ تخلية سبيلها بيده ، ورجل يقعد في بيته و يقول ربّ ارزقني ولا يخرج ولا يطلب الرّزق فيقول الله له : عبدي ألم أجعل لك السبيل إلى الطلب والضرب في الأرض

(١) الصبية - بالتثليث - جمع صبى . وقوله : «يتكففون» يقال : تكفف اذا سئل كفاً من الطعام .

(٢) الفرقان : ٦٧ ، و القتر : القليل من العيش ، يقال : فلان قتر على عياله اى ضيق عليهم فى النفقة . والمقتر : الفقير المقل . والقوام العدل بين شيئين لاستقامة الطرفين .

(٣) الانعام : ١٤١ والاعراف : ٣١ . (٤) الغريم : المديون .

بجوارح صحيحة فتكون قد أعذرت فيما بيني وبينك في الطلب لاتّباع أمري ولكيلا تكون كلاًّ على أهلك ، فإن شئت رزقتك وإن شئت قتّرت عليك وأنت غير معذور عندي ، و رجل رزقه الله مالاً كثيراً فأنفقه ثمّ أقبل يدعو يا ربّ ارزقني فيقول الله عزّ وجلّ ألم أرزقك رزقاً واسعاً فهلاّ اقتصدت فيه كما أمرتك ولم تسرف وقد نهيتك عن الاسراف ، ورجل يدعو في قطيعة رحم» ثمّ علّم الله نبيّه صلّى الله عليه وآله كيف ينفق و ذلك أنّه كانت عنده أوقيّة [١] من الذّهب فكره أن تبيت عنده فتصدّق بها فأصبح وليس عنده شيء ، وجاءه من يسأله فلم يكن عنده ما يعطيه فلامه السائل و اغتمّ هو حيث لم يكن عنده ما يعطيه وكان رحيماً رقيقاً فأدّب الله عزّ وجلّ نبيّه صلّى الله عليه وآله بأمره فقال : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كلّ البسط فتقعد ملوماً محسوراً» [٢] يقول: إنّ الناس قد يسألونك ولا يعذرونك فإذا أعطيت جميع ما عندك من المال كنت قد حسرت من المال فهذه أحاديث رسول الله يصدّقها الكتاب والكتاب يصدّقه أهله من المؤمنين و قال : أبو بكر عند موته حيث قيل له : أوص فقال : اُوصي بالخُمس والخمس كثيرٌ فإنّ الله عزّ وجلّ قد رضي بالخمس فأوصى بالخمس وقد جعل الله له الثلث عند موته ، ولو علم أنّ الثلث خيرٌ له أوصى به ، ثمّ من قد علمتم بعده في فضله و زهده سلمان الفارسي - رضي الله عنه - و أبوذر - رحمه الله - فأمّا سلمان فكان إذا أخذ عطاءه رفع منه قوته لسنته حتّى يحضر عطاؤه من قابل فقيل له : يا أبا عبدالله أنت في زهدك تصنع هذا وأنت لا تدري لعلّك تموت اليوم أوغداً ؟ فكان جوابه أن قال : مالكم لا ترجون لي البقاء كما خفتم عليّ الفناء ، أما علمتم يا جهلة أنّ النفس قد تلتاث على صاحبها [٣]

(١) الاوقية بالضم و السكون و كسر القاف و فتح الياء المشددة سبعة مثاقيل .

(٢) الاسراء : ٣١ . وهى تمثيل لمنع الشحيح واعطاء المسرف وامر بالاقتصاد الذى هو بين الاسراف والتقتير : « فتقعد » اى فتصير ملوماً غير مرضى عند الله اذا خرجت عن القوام و عند الناس ، اذ يقول المحتاج : اعطى فلانا وحرمنى ، ويقول المستغنى : ما يحسن تدبير امر المعيشة ، وعند نفسك اذا احتجت فندمت على ما فعلت محسوراً نادماً او منقطعا بك لا شيء عندك .

(٣) قوله «قد تلتاث» اى تبطيء و تحتبس عن الطاعات و تسترخى و تستضعف قال الفيروزآبادى : اللوث : القوة والستر و البطوء فى الامر .

إذا لم يكن لها من العيش ما تعتمد عليه فإذا هي أحرزت معيشتها اطمأنّت . و أمّا أبوذرّ ـ رضي الله عنه ـ فكانت له نويقات وشويهات يحلبها (١) و يذبح منها إذا اشتهى أهله اللّحم أو نزل به ضيف أو رأي بأهل الماء الّذين هم معه خصاصة نحر لهم الجزور أو من الشياه على قدر ما يذهب عنهم بقرم اللّحم (٢) فيقسّمه بينهم ويأخذ هو كنصيب واحد منهم لا يتفضّل عليهم ، ومن أزهد من هؤلاء ، وقد قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ماقال ولم يبلغ من أمرهما أن صارا لا يملكان شيئاً البتة كما تأمرون بإلقاء أمتعتهم و شيئهم ويؤثرون به على أنفسهم وعيالاتهم .

و اعلموا أيّها النفر أنّي سمعت أبي يروي عن آبائه أنّ رسول الله قال يوماً : « ماعجبت من شيء كعجبي من المؤمن أنّه إن قرّض جسده في دار الدّنيا بالمقاريض كان خيراً له ، وإن ملك مابين مشارق الأرض و مغاربها كان خيراً له و كلّ ما يصنع الله به فهو خير له » فليت شعري هل يحيق فيكم (٣) ماقد شرحت لكم منذ اليوم أم أزيد كم ، أما علمتم أنّ الله قد فرض على المؤمنين في أوّل الأمر أن يقاتل الرّجل منهم عشرة من المشركين ليس له أن يولّي وجهه عنهم ومن ولاّهم يومئذ دبره فقد تبوّأ مقعده من النار ، ثمّ حوّلهم عن حالهم رحمة منه لهم فصار الرّجل منهم عليه أن يقاتل رجلين من المشركين تخفيفاً من الله عزّ وجلّ للمؤمنين فنسخ الرجلان العشرة وأخبروني أيضاً عن القضاة أجورة هم حيث يقضون على الرّجل منكم نفقة امرأته إذا قال : إنّي زاهد وإنّي لاشيء لي فإن قلتم جورة ظلّمكم أهل الإسلام وإن قلتم بل عدول خصمتم أنفسكم وحيث تردّون صدقة من تصدّق على المساكين عند الموت بأكثر من الثلث ، أخبروني لو كان الناس كلّهم كالّذين تريدون زهّاداً لاحاجة لهم في متاع غيرهم فعلى

(١) قوله : « نويقات » جمع نويقة مصغر ناقة و كذا « شويهات » جمع شويهة مصغر شاة .

(٢) القرم ـ محركة ـ : شدة شهوة اللحم .

(٣) يحيق فيه اى أثر فيه ، ويحيق به : أحاط ـ ويحيق بهم : نزل . وفى بعض النسخ من المصدر [يحق] اى يثبت ويستقر فيهم . وفى بعضها [يحتفى] ـ بالحاء المهملة ـ فمعناه هل يبالغ فى نصيحتكم والبر بكم وفى بعضها [يختفى] و الاختفاء جاء بمعنى الاظهار و الاستخراج و بمعنى الاستتار و التواري و كلا المعنيين محتمل ههنا على بعد .

من كان يتصدّق بكفّارات الأيمان والنذور والصدقات من فرض الزّكاة من الذّهب و الفضّة و التمر والزّبيب وسائر ماوجب فيه الزّكاة من الابل والبقر والغنم وغير ذلك إذا كان الأمر كما تقولون لاينبغي لأحد أن يحبس شيئاً من عرض الدّنيا إلّا قدّمه ، وإن كان به خصاصة ، فبئس ماذهبتم إليه وحملتم الناس عليه من الجهل بكتاب الله عزّ و جلّ و سنّة نبيّه و أحاديثه الّتي يصدّقها الكتاب المنزل و ردّكم إيّاها بجهالتكم وترككم النظر في غرائب القرآن من التفسير بالناسخ من المنسوخ والمحكم والمتشابه والأمر والنهي ، وأخبروني أين أنتم عن سليمان بن داود حيث سأل الله ملكاً لاينبغي لأحد من بعده فأعطاه الله جلّ اسمه ذلك وكان يقول الحقّ و يعمل به ، ثمّ لم نجد الله عزّ وجلّ عاب عليه ذلك و لا أحداً من المسلمين . وداود النبيّ قبله في ملكه وشدّة سلطانه ، ثمّ يوسف النبيّ حيث قال لملك مصر : «اجعلني على خزائن الأرض إنّي حفيظ عليم» فكان من أمره الّذي كان أن اختار مملكة الملك و ما حولها إلى اليمن ، وكانوا يمتارون الطعام من عنده لمجاعة أصابتهم وكان يقول الحقّ و يعمل به فلم نجد أحداً عاب ذلك عليه ، ثمّ ذو القرنين عبد أحبّ الله فأحبّه الله وطوى له الأسباب و ملّكه مشارق الأرض ومغاربها وكان يقول الحقّ ويعمل به ، ثمّ لم نجد أحداً عاب ذلك عليه فتأدّبوا أيّها النفر بآداب الله عزّ وجلّ للمؤمنين و اقتصروا على أمر الله ونهيه ودعوا عنكم ما اشتبه عليكم ممّا لاعلم لكم به و ردّوا العلم إلى أهله توجروا و تعذروا عند الله تبارك وتعالى و كونوا في طلب علم ناسخ القرآن من منسوخه ومحكمه من متشابهه و ما أحلّ الله فيه ممّا حرّم فإنّه أقرب لكم من الله وأبعد لكم من الجهل ودعوا الجهالة لأهلها فإنّ أهل الجهل كثير وأهل العلم قليل وقد قال الله عزّ وجلّ «و فوق كلّ ذي علم عليم»[1].

و بإسناده عنه عليه السلام أنّه سئل عن الزّهد في الدّنيا قال : «ويحك حرامها فتنكّبه»[2].

---

(١) يوسف : ٧٦ والخبر في الكافي ج ٥ ص ٦٥ تحت رقم ١ .

(٢) المصدر ج ٥ ص ٧٠ تحت رقم ١ .

وعنه عليه السلام : « ليس الزّهد في الدّنيا بإضاعة المال و لا تحريم الحلال ، بل الزّهد في الدّنيا أن لاتكون بما في يدك أوثق منك بما عندالله عزّ وجلّ »[1] .

تمّ كتاب الفقر والزّهد من المحجّة البيضاء في تهذيب الاحياء ويتلوه كتاب التوحيد والتوكّل إن شاء الله وفرغ منه مؤلّفه أقلّ العباد عملاً وأكثرهم زللاً محسن ابن مرتضى وفّقه الله للتحلّي بالحالات المرضيّة والمقامات المحمودة بمنّه و كرمه و الحمدلله ربّ العالمين .

(١) الكافي ج ٥ ص ٧٠ تحت رقم ٢ .

كتاب التوحيد والتوكل

وهو الكتاب الخامس من ربع المنجيات من المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المدبّر للملك والملكوت ، المتفرّد بالعزّ و الجبروت ، و الرّافع السماء بغير عماد ، المقدّر فيها أرزاق العباد ، الّذي صرف أعين ذوي القلوب والألباب عن ملاحظة الوسائط و الأسباب إلى مسبّب الأسباب ، و رفع هممهم عن الالتفات إلى ما عداه ، و الاعتماد على مدبّر سواه ، فلم يعبدوا إلّا إيّاه ، علماً بأنّه الواحد الفرد الصمد الإله ، وتحقيقاً بأنّ جميع أصناف الخلق عبادٌ أمثالهم لايبتغى عندهم الرّزق ، وأنّه مامن ذرّة إلّا إلى الله خلقها ، وما من دابّة إلّا على الله رزقها ، فلمّا تحقّقوا أنّه لرزق عباده ضامن و به كفيل توكّلوا عليه و قالوا : حسبنا الله و نعم الوكيل .

و الصلاة على محمّد قامع الأباطيل ، الهادي إلى سواء السبيل ، وعلى آله وأصحابه وسلّم تسليماً كثيراً .

أمّا بعد فإنّ التوكّل منزل من منازل الدّين و مقام من مقامات الموقنين بل هو من معالي درجات المقرّبين وهو في نفسه غامضٌ من حيث العلم ثمّ هو شاقٌ من حيث العمل ، و وجه غموضه من حيث الفهم أنّ ملاحظة الأسباب والاعتماد عليها شرك في التوحيد و التباعد عنها بالكلّيّة طعن في السنّة و قدح في الشرع و الاعتماد على الأسباب من غير أن ترى أسباباً ، تغيير في وجه العقل و انغماس في غمرة الجهل وتحقيق معنى التوكّل على وجه يتوافق فيه مقتضى التوحيد و العقل والشرع في غاية الغموض والعسر ، و لا يقوى على كشف هذا الغطاء مع شدّة هذا الخفاء إلّا سماسرة

العلماء الّذين اكتحلوا من فضل الله تعالى بأنوار الحقايق فأبصروا و تحقّقوا ثمّ نطقوا بالإعراب عمّا شاهدوه من حيث استنطقوا ونحن الآن نبدء بذكر فضيلة التوكّل على سبيل التقدمة ثمّ نردفه بالتّوحيد في الشطر الأوّل من الكتاب و نذكر حال التوكّل وعمله في الشطر الثاني .

(بيان فضيلة التوكل)

أمّا من الآيات فقد قال الله تعالى : « وعلى الله فتوكّلوا إن كنتم مؤمنين » (١) و قال : « وعلى الله فليتوكّل المتوكّلون » (٢) . وقال تعالى : « ومن يتوكّل على الله فهو حسبه » (٣). وقال تعالى : «إنّ الله يحبّ المتوكّلين» (٤) فأعظم بمقام موسوم بمحبّة الله صاحبه ومضمون بكفاية الله ملابسه ، فمن الله حسبه وكافيه ومحبّه ومراعيه ، فقد فاز الفوز العظيم فإنّ المحبوب لايعذّب ولايبعّد ولايحجب وقد قال الله تعالى : «أليس الله بكاف عبده » (٥) و طالب الكفاية من غيره هو التارك للتوكّل و هو المكذّب بهذه الآية فإنّه سؤال في معرض استنطاق بالحقّ كقوله تعالى : « هل أتى على الإنسان حين من الدّهر لم يكن شيئاً مذكوراً » (٦) وقال تعالى : « ومن يتوكّل على الله فإنّ الله عزيز حكيم » (٧) أي عزيزٌ لايذلّ من استجار به ولا يضيع من لاذ بجنابه والتجأ إلى ذمامه و حماه ، و حكيم لا يقصر عن تدبير من توكّل على تدبيره ، و قال تعالى : « إنّ الّذين تدعون من دون الله عبادٌ أمثالكم » (٨) بيّن أنّ كلّ من سوى الله عبدٌ مسخّرٌ حاجته مثل حاجتك فكيف تتّكل عليه وقال : «إنّ الّذين تعبدون من دون الله لايملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرّزق و اعبدوه» (٩) . و قد قال تعالى : « ولله خزائن السموات و الأرض ولكنّ المنافقين لا يفقهون » (١٠) . و قال تعالى : « يدبّر

(١) المائدة : ٢٣ .
(٢) ابراهيم : ١٢ .
(٣) الطلاق : ٣ .
(٤) آل عمران : ١٥٩ .
(٥) الزمر : ٣٦ .
(٦) الدهر : ٢ .
(٧) الانفال : ٤٩ .
(٨) الاعراف : ١٩٤ .
(٩) العنكبوت : ١٧ .
(١٠) المنافقون : ٧ .

الأمر ما من شفيع إلاّ من بعد إذنه »(١).

وكلّ ما ذكر في القرآن من التوحيد فهو تنبيه على قطع الملاحظة عن الأغيار والتوكّل على الواحد القهّار.

وأما الأخبار فقد قال ﷺ فيما رواه ابن مسعود: «اُريت الاُمم بالموسم فرأيت اُمّتي قد ملأوا السهل والجبل فأعجبتني كثرتهم وهيئاتهم فقيل لي أرضيت؟ قلت: نعم قال: ومع هؤلاء سبعون ألفاً يدخلون الجنّة بغير حساب، قيل: من هم يارسول الله؟ فقال: الّذين لايكتوون ولايتطيرون ولايسترقون وعلى ربّهم يتوكّلون فقام عكاشة ابن محصن فقال: يارسول الله ادع الله أن يجعلني منهم فقال ﷺ: اللّهمّ اجعله منهم فقام آخر فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال رسول الله ﷺ: سبقك بها عكاشة »(٢).

وقال ﷺ: « لو أنّكم تتوكّلون على الله حقّ توكّله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً »(٣).

وقال ﷺ: « من انقطع إلى الله عزّ وجلّ كفاه الله كلّ مؤونة ورزقه من حيث لايحتسب، ومن انقطع إلى الدّنيا وكله الله إليها »(٤).

وقال ﷺ: « من سرّه أن يكون أغنى الناس فليكن بما عند الله أوثق منه بما في يده »(٥).

ويروى عن رسول الله ﷺ «أنّه كان إذا أصاب أهله خصاصة قال: قوموا إلى الصلاة ويقول: بهذا أمرني ربّي قال تعالى: « وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها »(٦).

وقال ﷺ: «لم يتوكّل من استرقى واكتوى» (٧).

وروي أنّه لمّا قال جبرئيل عليه السلام لإبراهيم عليه السلام وقد رمي إلى النار من المنجنيق:

---

(١) يونس: ٣.

(٢) قال العراقي: رواه ابن منيع باسناد حسن، ومتفق عليه من حديث ابن عباس.

(٣) أخرجه الترمذي ج ٩ ص ٢٠٧ وقد تقدم.

(٤) أخرجه الطبراني في الصغير وابن ابي الدنيا ومن طريقه البيهقي في الشعب.

(٥) أخرجه الحاكم والبيهقي في الزهد. (٦) رواه الطبراني في الاوسط بنحوه.

(٧) أخرجه النسائي في الكبرى والترمذي في السنن ج ٨ ص ٢١٢ بتقدم وتأخير.

ألك حاجة ؟ فقال : أمّا إليك فلا ، وفاه بقوله «حسبي الله ونعم الوكيل » إذ قال ذلك حين اُخذ ليرمى به فأنزل الله تعالى فيه « وإبراهيم الّذي وفّى »[١] .

و أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : يا داود ما من عبد يعتصم بي دون خلقي فتكيده السماوات والأرض إلّا جعلت له مخرجاً .

أقول: ومن طريق الخاصّة عن الصّادق عليه السلام « أوحى الله تعالى إلى داود ما اعتصم عبدٌ من عبادي دون أحد من خلقي عرفت ذلك من نيّته[٢] ثمّ تكيده السماوات و الأرض و من فيهنّ إلّا جعلت له المخرج من بينهنّ ، وما اعتصم عبدٌ من عبادي بأحد من خلقي عرفت ذلك من نيّته إلّا قطعت أسباب السماوات الأرض من يديه و أسخت الأرض من تحته[٣] ولم اُبال بأيّ واد هلك»[٤].

وعنه عليه السلام «أنّه قرأ في بعض الكتب أنّ الله تعالى يقول وعزّتي وجلالي ومجدي وارتفاعي على عرشي لاُقطّعنّ أمل كلّ مؤمّل [من الناس] غيري باليأس و لاُكسونّه ثوب المذلّة عند الناس ولاُنحّينّه[٥] من قربي و لاُبعدنّه من وصلي أيؤمّل غيري في الشدائد و الشدائد بيدي و يرجو غيري و يقرع بالفكر باب غيري[٦] و بيدي مفاتيح الأبواب وهي مغلقة و بابي مفتوح لمن دعاني فمن ذا الّذي أمّلني لنوائبه فقطعته دونها ، و من ذا الّذي رجاني لعظيمة فقطعت رجاءه منّي ، جعلت آمال عبادي عندي محفوظة فلم يرضوا بحفظي و ملأت سمواتي ممّن لا يملّ من تسبيحي و أمرتهم أن لا يغلقوا الأبواب بيني وبين عبادي فلم يثقوا بقولي[٧] ألم يعلم [أنّ] من طرقته نائبة من نوائبي أنّه لا يملك كشفها أحد غيري إلّا من بعد إذني ، فمالي أراه لاهياً عنّي ، أعطيته بجودي مالم يسألني ثمّ انتزعته عنه فلم يسألني ردّه وسأل غيري ؛ أفيراني

(١) النجم : ٣٧ .
(٢) «عرفت ذلك» نعت للعبد .
(٣) اى خسفتها من الاساخة .
(٤) الكافى ج ٢ ص ٦٣ تحت رقم ١ .
(٥) اى لابعدنه واز يلنه .
(٦) تشبيه الفكر باليد مكنية واثبات القرع له تخييلية وذكر الباب ترشيح .
(٧) اى وعدى الاجابة لهم .

أبدء بالعطاء قبل المسئلة ثمّ اُسأل فلا اُجيب سائلي أبخيل أنا فيبخّلني عبدي (١) أو ليس الجود والكرم لي ، أوليس العفو و الرّحمة بيدي أو ليس أنا محلُّ الآمال فمن يقطعها دوني ، أفلا يخشى المؤمّلون أن يؤمّلوا غيري فلو أنّ أهل سماواتي وأهل أرضي أمّلوا جميعاً ، ثمّ أعطيت كلَّ واحد منهم مثل ما أمّل الجميع ما انتقص من ملكي مثل عضو ذرّة و كيف ينقص ملك أنا قيّمه فيابؤساً (٢) للقانطين من رحمتي ويا بؤساً لمن عصاني ولم يراقبني » (٣).

وعنه عليه السلام « إنّ الغنى والعزّ يجولان فإذا ظفرا بموضع التوكّل أوطنا» (٤).

وعن الكاظم عليه السلام في قول الله تعالى : « ومن يتوكّل على الله فهو حسبه» (٥) فقال : «التوكّل على الله على درجات منها أنّ تتوكّل على الله في اُمورك كلّها فمافعل بك كنت عنه راضياً تعلم أنّه لايألوك خيراً وفضلاً وتعلم أنّ الحكم في ذلك له فتوكّل على الله بتفويض ذلك إليه وثق به فيها وفي غيرها ».

✡(بيان حقيقة التوحيد الذى هو أصل التوكل)✡

إعلم أنّ التوكّل من أبواب الإيمان و جميع أبواب الإيمان لاينتظم إلّا بعلم و حال و عمل والتوكّل كذلك ينتظم من علم هو الأصل ، ومن عمل هو الثمرة ، وحال هو المراد باسم التوكّل فلنبدأ ببيان العلم الّذي هو الأصل و هو المسمّى إيماناً في أصل اللّسان ، إذ الإيمان هو التصديق و كلّ تصديق بالقلب فهو علم وإذا قوي سمّي يقيناً ولكن أبواب اليقين كثيرة ونحن إنّما نحتاج منها إلى مايبتني عليه التوكّل وهو التوحيد الّذي يترجمه قولك : « لا إله إلّا الله وحده لاشريك له » و الإيمان بالقدرة الّتي يترجم عنها قولك: «له الملك» والإيمان بالجود والحكمة الّذي يدلُّ عليه قولك :

(١) بخله بالتشديد اى نسبه الى البخل .

(٢) البؤس والبأساء : الشدة والفقر والحزن .

(٣) الكافى ج ٢ ص ٦٦ تحت رقم ٧ .

(٤) المصدر ج ٢ ص ٦٤ تحت رقم ٣ .

(٥) الطلاق : ٣ . والخبر فى الكافى ج ٢ ص ٦٥ تحت رقم ٥ .

« وله الحمد و هو على كلّ شيء قدير» فمن قال : « لا إله إلّا الله وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد و هو على كلّ شيء قدير » فقد تمّ له الايمان الّذي هوأصل التوكّل أعني أن يصير معنى هذا القول وصفاً لازماً لقلبه غالباً عليه . فأمّا التوحيد فهو الأصل والقول فيه طويل وهو من علم المكاشفة ولكن بعض علوم المكاشفة يتعلّق بالأعمال بواسطة الأحوال و لا يتمّ علم المعاملة إلّا بها ، فإذن لا نتعرّض إلّا للقدر الّذي يتعلّق بالمعاملة و إلّا فالتّوحيد هو البحر الخضم الّذي لاساحل له .

فنقول : للتوحيد أربع مراتب وهو منقسم إلى لبّ ولبّ اللّبّ ، وإلى قشر وقشر القشر ، ولنمثّل ذلك تقريباً إلى الأفهام الضعيفة بالجوز في قشرته العليا فإنّ له قشرتين وله لبّ وللّبّ دهن هو لبّ اللّبّ .

فالرتبة الاُولى من التوحيد هي أن يقول الإنسان باللّسان « لا إله إلّا الله» وقلبه غافل عنه أو منكرٌ له كتوحيد المنافقين ، و الثانية أن يصدّق بمعنى اللّفظ قلبه كما صدّق به عموم المسلمين وهو اعتقاد ، والثالثة أن يشاهد ذلك بطريق الكشف بواسطة نور الحقّ وهو مقام المقرّبين و ذلك بأن يرى أشياء كثيرة ولكن يراها على كثرتها صادرة عن الواحد القهّار ، والرابعة أن لا يرى إلّا واحداً و هي مشاهدة الصدّيقين ويسمّيه أهل المعرفة الفناء في التّوحيد لأنّه من حيث لا يرى إلّا واحداً فلا يرى نفسه أيضاً و إذا لم ير نفسه لكونه مستغرقاً بالتوحيد كان فانياً عن نفسه في توحيده بمعنى أنّه فني عن رؤية نفسه والخلق .

فالأوّل موحّدٌ بمجرّد اللّسان و يعصم ذلك صاحبه في الدّنيا عن السيف والسنان ، والثاني موحّد بمعنى أنّه معتقد بقلبه مفهوم لفظه خال عن التكذيب بما انعقد عليه قلبه وهو عقدة على القلب ليس فيه انشراح وانفتاح ولكنّه يحفظ صاحبه عن العذاب في الآخرة إن توفّي عليها ولم تضعف بالمعاصي عقدته ولهذا العقد حيل يقصد بها تضعيفه وتحليله يسمّى بدعة وله حيل يقصد بها رفع حيلة التحليل والتضعيف ويقصد بها أيضاً إحكام هذه العقدة و شدّها على القلب و تسمّى كلاماً و العارف بها يسمّى متكلّماً وهو في مقابلة المبتدع ومقصده دفع المبتدع عن تحليل هذه العقدة عن قلوب

العوام وقد يخص المتكلّم باسم الموحّد من حيث أنّه يحمي بكلامه مفهوم لفظ التوحيد على قلوب العوام حتّى لا تنحل عقدته ، والثالث موحّد بمعنى أنّه لم يشاهد إلّا فاعلاً واحداً إذا انكشف له الحقّ كما هو عليه لا أنّه كلّف قلبه أن يعقد على مفهوم اللّفظ فإنّ تلك رتبة العوام و المتكلّمين، إذ لم يفارق المتكلّم العاميّ في الاعتقاد بل في صنعة تلفيق الكلام الّذي به يدفع حيل المبتدع في تحليل هذه العقدة ، و الرّابع موحّد بمعنى أنّه لم يحضر في شهوده غير الواحد فلا يرى الكلّ من حيث أنّه كثير بل من حيث أنّه واحد ، و هذه هي الغاية القصوى في التوحيد ، فالأوّل كالقشرة العليا من الجوز ، و الثاني كالقشرة السفلى ، والثالث كاللّبّ ، و الرّابع كالدّهن المستخرج من اللّبّ ، و كما أنّ القشرة العليا لاخير فيها بل إن اُكلت فهي مرّ المذاق و إن نظر إلى باطنها فهو كريه المنظر و إن اتّخذت حطباً أطفأت النار و أكثر الدّخان و إن تركت في البيت ضيّقت المكان فلا تصلح إلّا أن تترك مدّة على الجوز للصون ، ثمّ ترمى فكذلك التوحيد بمجرّد اللّسان عديم الجدوى كثير الضرر ، مذموم الظاهر والباطن ، لكنّه ينفع مدّة في حفظ القشرة السفلى إلى وقت الموت ، والقشرة السفلى هي القلب و البدن ، وتوحيد المنافق يصون بدنه عن سيف الغزاة فإنّهم لم يأمروا بشقّ القلوب والسيف إنّما يصيب جسم البدن وهو القشر و إنّما يتجرّد عنه بالموت فلا يبقى لتوحيده فائدة بعده و كما أنّ القشرة السفلى ظاهرة النفع بالإضافة إلى القشرة العليا فإنّها تصون اللّبّ وتحرسه عن الفساد عند الادّخار وإذا فصلت أمكن أن ينتفع بها حطباً لكنّه نازلة القدر بالإضافة إلى اللّبّ فكذلك مجرّد الاعتقاد من غير كشف كثير النفع بالإضافة إلى مجرّد نطق اللّسان ناقص القدر بالإضافة إلى الكشف و المشاهدة الّتي تحصل بانشراح الصدر و انفساحه بإشراق نور الحقّ فيه إذ ذلك الشرح هو المراد بقوله تعالى : « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام »(١) و بقوله تعالى: «أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربّه »(٢) و كما أنّ اللّبّ نفيس في نفسه بالإضافة إلى القشر و كلّه المقصود و لكنّه لا يخلو

(١) الانعام : ١٢٥ . (٢) الزمر : ٢٢ .

عن شوب عصارة بالإضافة إلى الدُّهن المستخرج منه فكذلك توحيد الفعل مقصدٌ عال للسالكين، لكنّه لايخلوعن شوب ملاحظة الغير والالتفات إلى الكثرة بالإضافة إلى من يشاهد سوى الواحد الحقّ.

فان قلت: كيف يتصوّر أن لايشاهد إلّا واحداً وهو يشاهد السماء و الأرض و سائر الأجسام المحسوسة وهي كثيرة فكيف يكون الكثير واحداً. فاعلم أنّ هذه غاية علوم المكاشفات وأسرار هذا العلم لا يجوز أن تسطر في كتاب فقد قال العارفون إفشاء سرّ الرّبوبيّة كفر، ثمّ هو غير متعلّق بعلم المعاملة نعم ذكر ما يكسر سورة استبعادك ممكن وهو أن يكون الشي، قديكون كثيراً بنوع مشاهدة و اعتبار و يكون واحداً بنوع آخر من المشاهدة و الاعتبار، وهذا كما أنّ الإنسان كثيرٌ إن التفت إلى روحه وجسده وأطرافه و عروقه و عظامه و أحشائه و هو باعتبار آخر و مشاهدة اُخرى واحدٌ إذ نقول: إنّه إنسان واحد، فهو بالإضافة إلى الإنسانيّة واحد و كم من شخص يشاهد إنساناً ولايخطر بباله كثرة أمعائه و عروقه وأطرافه وتفصيل روحه و جسده و الفرق بينهما فهو في حال الاستغراق والاستهتار به مستغرق بواحد ليس فيه تفريق فكأنّه في عين الجمع والملتفت إلى الكثرة في تفرقة، فكذلك كلُّ ما في الوجود من الخالق و المخلوق له اعتبارات و مشاهدات كثيرة مختلفة، و هو باعتبار واحد من حيث الاعتبارات واحد، و باعتبارات اُخر سواه كثيرٌ بعضها أشدّ كثرة من بعض، ومثاله الإنسان و إن كان لا يطابق الغرض ولكنّه ينبّه بالجملة على كيفية مصير الكثرة في حكم المشاهدة واحداً و تستفيد بهذا الكلام ترك الانكار والجحود لمقام تبلغه وتؤمن به إيمان تصديق فيكون لك من حيث أنّك مؤمن بهذا التوحيد نصيب وإن لم يكن ما آمنت به صفتك كما أنّك إذا آمنت بالنبوّة و إن لم تكن نبيّاً كان لك نصيب منه بقدر قوّة إيمانك و هذه المشاهدات الّتي لا يظهر فيها إلّا الواحد الحقّ تارة تدوم وتارة تطرأ كالبرق الخاطف و هو الأكثر و الدّوام نادرٌ عزيزٌ وهذه مقامات الموحّدين في التوحيد على سبيل الإجمال.

فان قلت: فلابدّ لهذا من شرح بمقدار مايفهم كيفية ابتناء التوكّل عليه.

فأقول : أمّا الرّابع فلايجوز الخوض في بيانه وليس التوكّل أيضاً مبنيّاً عليه بل يحصل حال التوكّل بالتوحيد الثالث ، وأمّا الأوّل وهو النفاق فهو واضح ، وأمّا الثاني و هو الاعتقاد فهو موجود في عموم المسلمين و طريق تأكيده بالكلام و دفع حيل المبتدعة فيه مذكور في علم الكلام و قد ذكرنا في كتاب الاقتصاد في الاعتقاد القدر المهمّ منه .

و أمّا الثالث و هو الّذي يبتني التوكّل عليه إذ مجرّد التّوحيد بالاعتقاد لا يورث حال التوكّل فلنذكر منه القدر الّذي يرتبط التوكّل به دون تفصيله الّذي لا يحتمله أمثال هذا الكتاب ، وحاصله أن ينكشف لك أن لا فاعل إلّا الله ، و أنّ كلّ موجود من خلق و رزق و عطاء و منع وحياة و موت و غنى و فقر إلى غير ذلك ممّا ينطلق عليه اسم ، فالمتفرّد بإبداعه و إختراعه هو الله تعالى لا شريك له فيه ، و إذا انكشف لك هذا لم تنظر إلى غيره بل كان منه خوفك و إليه رجاؤك و به ثقتك وعليه اتّكالك فإنّه الفاعل على الانفراد دون غيره وماسواه مسخّرون لا استقلال لهم بتحريك ذرّة في ملكوت السماوات والأرض ، و إذا انفتح لك أبواب المكاشفة اتّضح لك هذا اتّضاحاً أتمّ من المشاهدة بالبصر وإنّما يصدّك الشيطان عن هذا التوحيد في مقام يبتغي به أن يتطرّق إلى قلبك شائبة الشرك بسببين : أحدهما الالتفات إلى اختيار الحيوانات والثاني الالتفات إلى الجمادات أمّا الالتفات إلى الجمادات كاعتمادك إلى المطر في خروج الزّرع ونباته ونمائه وعلى الغيم في نزول المطر وعلى البرد في اجتماع الغيم و على الرّيح في استواء السفينة وسيرها وهذا شرك كلّه في التوحيد وجهل بحقائق الاُمور ، ولذلك قال تعالى : « فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدّين فلمّا نجّيهم إلى البرّ إذا هم يشركون »[1] قيل : معناه إنّهم يقولون : لولا استواء الرّيح لما نجونا ، و من انكشف له أمر العالم كما هو عليه علم أنّ الرّيح هواء ، والهواء لا تتحرّك بنفسه ما لم يحرّك و كذلك محرّكه وهكذا إلى أن ينتهي إلى المحرّك الأوّل الّذي لا محرّك له و لا هو متحرّك في نفسه ، فالتفات العبد إلى النجاة بالرّيح يضاهي التفات من

(١) العنكبوت : ٦٥ .

اُخذ لتجزّ رقبته فكتب الملك توقيعاً بالعفوعنه وتخليته فأخذ يشتغل بذكر الحبر و الكاغذ و القلم الّذي به كتب التوقيع و يقول : لولا القلم لما تخلّصت فيرى نجاته من القلم لامن محرّك القلم وهوغاية الجهل ، ومن علم أنّ القلم لاحكم له في نفسه و إنّما هو مسخّر في يد الكاتب لم يلتفت إليه ولم يشكر إلّا الكاتب ، بل ربّما يدهشه فرح النجاة و شكر الملك و الكاتب عن أن يخطر بباله القلم و الحبر و الدّواة و الشمس والقمر والنجوم والمطر والغيم والأرض ، و كلّ حيوان وجمادمسخّر في قبضة القدرة كتسخير القلم في يد الكاتب بل هذا تمثيل في حقّك لاعتقادك أنّ الملك الموقّع هو كاتب التوقيع والحقّ أنّ الله هو الكاتب كما قال تعالى : « وما رميت إذ رميت ولكنّ الله رمى » (١) فإذا انكشف لك أنّ جميع ما في السماوات و الأرض مسخّرات على هذا الوجه انصرف عنك الشيطان خائباً وآيس عن مزج توحيدك بهذا الشرك فيأتيك في المهلكة الثانية وهي الالتفات إلى اختيار الحيوانات في الأفعال الاختياريّة ويقول : كيف ترى الكلّ من الله وهذا الإنسان يعطيك رزقك باختياره فإن شاء أعطاك وإن شاء قطع عنك وهذا الشخص هو الّذي يجزّ رقبتك بسيفه وهو قادر عليك فإن شاء جزّ رقبتك و إن شاء عفا عنك فكيف لاتخافه و لا ترجوه وأمرك بيده و أنت تشاهد ذلك ولاتشكّ فيه و يقول لك أيضاً : نعم إن كنت لاترى القلم لأنّه مسخّر فكيف لاترى الكاتب بالقلم وهو مسخّر له ، وعند هذا زلّ أقدام الأكثر من الناس إلّا عباد الله المخلصين الّذين لا سلطان عليهم للشيطان فشاهدوا بنور البصائر كون الكاتب مسخّراً مضطرّاً كما شاهد جميع الضعفاء كون القلم مسخّراً ، وعرفوا أنّ غلط الضعفاء في ذلك كغلط النملة مثلاً لوكانت تدبّ على الكاغذ فترى رأس القلم يسوّد الكاغذ ولم يمتد بصرها إلى اليد والأصابع فضلاً من صاحب اليد، وظنّت أنّ القلم هو المسوّد للبياض و ذلك لقصور بصره عن مجاوزة رأس القلم لضيق حدقتها ، فكذلك من لم ينشرح بنور الله صدره قصرت بصيرته عن ملاحظة جبّار السماوات والأرض ومشاهدة كونه قاهر أوراء الكلّ فوقف في الطريق على الكاتب وهو جهل محض بل أرباب القلوب والمشاهدات

(١) الانفال : ١٧ .

قد أنطق الله في حقّهم كلّ ذرّة في الأرض والسماوات بقدرته الّتي بها أنطق كلّ شيء حتّى سمعوا تقديسها وتسبيحها لله وشهادتها على أنفسها بالعجز بلسان ذلق يتكلّم بلا حرف و لا صوت لا يسمعه الّذين هم عن السمع معزولون ، و لست أعني به السمع الظاهر الّذي لايجاوز الأصوات فإنّ الحمار شريك فيه ولاقدر لما شارك فيه البهائم و إنّما اُريد به سمعاً يدرك به كلام ليس بحرف ولاصوت ولاهو عربيّ ولاعجميّ فإن قلت: فهذه اُعجوبة لا يقبلها العقل فصف لي كيفيّة نطقها و أنّها كيف نطقت وبماذا نطقت و كيف سبّحت و قدّست و كيف شهدت على نفسها بالعجز ؟ فاعلم أنّ لكلّ ذرّة في السماوات و الأرض مع أرباب القلوب مناجاة في السرّ وذلك ممّا لاينحصر و لايتناهى فإنّها كلمات تستمدّ من بحر كلام الله الّذي لانهاية له «قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربّي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربّي و لو جئنا بمثله مدداً» ثمّ إنّها تتناجى بأسرار الملك والملكوت ، وإفشاء السرّ لؤم بل صدور الأحرار قبور الأسرار ، وهل رأيت قطّ أميناً على أسرار الملك قد نوجي بخفاياه فنادى بسرّه على ملأ من الخلق ولو جاز إفشاء كلّ سرّ لنا لما قال صلى الله عليه وآله : «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً و لبكيتم كثيراً» (١) بل كان يذكر ذلك لهم حتّى يبكوا ولايضحكوا ، و لما نهى عن إفشاء سرّ القدر (٢) و لما خصّ حذيفة - رضي الله عنه - ببعض الأسرار (٣) فإذن عن حكايات مناجاة ذرّات الملك و الملكوت لقلوب أرباب المشاهدات مانعان : أحدهما استحالة إفشاء السرّ ، والثاني خروج كلماتها عن الحصر و النهاية ، ولكنّا في المثال الّذي كنّا فيه وهو حركة القلم نحكي من مناجاتها قدراً يسيراً يفهم به على الإجمال كيفيّة ابتناء التوكّل عليه و نردّ كلماتها إلى الحروف والأصوات ، وإن لم تكن هي حروفاً و أصواتاً ولكن هذه ضرورة التفهيم ، فنقول : قال بعض الناظرين عن مشكاة نور الله تعالى للكاغذ وقد رآه اسودّ وجهه بالحبر : ما بال وجهك كان أبيض مشرقاً

---

(١) تقدم غير مرة .

(٢) أخرجه أبو نعيم فى الحلية من حديث ابن عمر كما فى الجامع الصغير .

(٣) راجع صحيح مسلم ج ٨ ص ١٧٣ كتاب الفتن ومسند أحمد ج٥ ص ٣٨٦ .

والآن قدظهر عليه السواد فلم سوّدت وجهك وما السبب فيه فقال الكاغذ : ما أنصفتني في هذه المقالة فإنّي ما سوّدت وجهي بنفسي لكن سل الحبر فإنّه كان مجموعاً في المحبرة الّتي هي مستقرّه ووطنه فسافر عن الوطن ونزل بساحتي وسوّد وجهي ظلماً وعدواناً ، فقال : صدقت فسأل الحبر عن ذلك ، فقال : ما أنصفتني فإنّي كنت في المحبرة وادعاً ساكناً عازماً على أن لا أبرح منها فاعتدى عليّ القلم بطبعه الفاسد و اختطفني من وطني و أجلاني عن بلدي وفرّق جمعي وبدّدني كما تراه على ساحة بيضاء فالسؤال عليه لاعليّ ، فقال : صدقت ثمّ سأل القلم عن السبب في ظلمه وعدوانه و إخراج الحبر من أوطانه ، فقال : سل اليد و الأصابع فإنّي كنت قصباً نابتاً على شطّ الأنهار متنزّهاً بين خضرة الأشجار فجاءتني اليد بسكّين فنحت عنّي قشري ومزّقت عنّي ثيابي واقتلعتني من أصلي وفصّلت بين أنابيبي ثمّ برتني وشقّت رأسي ثمّ غمستني في سواد الحبر ومرارته و هو ذا تستخدمني و تمشيني على قمّة رأسي ، فلقد نثرت الملح على جرحي بسؤالك وعتابك فتنحّ عنّي وسل من قهرني فقال : صدقت ثمّ سأل اليد عن ظلمها على القلم واستخدامها له وتعدّيها عليه فقال اليد : ما أنا إلّا لحمٌ وعظمٌ و دمٌ وهل رأيت لحماً أوجسماً يتحرّك بنفسه إنّما أنا مركب مسخّر ركبني فارسٌ يقال له القدرة والقوّة ، و هي الّتي تردّدني و تجول بي في نواحي الأرض ، أمّا ترى المدر والحجر و الشجر لا يتعدّى شيء منها مكانه و لا يتحرّك بنفسه إذ لم يركبها مثل هذا الفارس القويّ القاهر ، أمّا ترى أيدي الموتى تساويني في صورة اللّحم و العظم والدّم ، ثمّ لامعاملة بينها وبين القلم فأنا أيضاً من حيث أنا لا معاملة بيني وبين القلم ، فسل القدره عن شأني فإنّي مركب أزعجني من ركبني ، فقال : صدقت ثمّ سأل القدرة عن شأنها في استعمالها اليد و استخدامها و كثرة ترديدها لها ، فقالت : دع عنك لومي ومعاتبتي فكم من لائم ملوم و كم من ملوم لاذنب له ، و كيف خفي عليك أمري أو كيف ظننت أنّي ظلمت اليد لما ركبتها ولقد كنت راكباً إيّاها قبل التحريك وما كنت اُحرّكها ولا أستسخرها بل كنت نائماً ساكناً نوماً حتّى ظنّ ظانّون بي أنّي ميتة أومعدومة لأنّي ما كنت أتحرّك ولا اُحرّك حتّى جاءني موكّل

أزعجني وأرهقني[١] إلى ما تراه منّي ، فكانت لي قوّة على مساعدته ولم يكن لي قوّة على مخالفته وهذا الموكّل يسمّى الإرادة ولا أعرفه إلّا باسمه وبهجومه وصياله[٢] إذ ازعجني من غمرة النوم و أرهقني إلى ماكان لي مندوحة عنه لو خلاني ورائي فقال : صدقت ثمّ سأل الإرادة ما الّذي حداك على هذه القدرة الساكنة المطمئنّة حتّى صرفتها إلى التحريك وأرهقتها إليه إرهاقاً لم تجد عنه مخلصاً ومناصاً ، فقالت الإرادة لا تعجل عليّ فلعلّ لنا عذراً وأنت تلوم فإنّي ما انتهضت بنفسي ولكنّي اُنهضت وما انبعثت ولكنّي بعثت بحكم قاهر وأمر جازم فقد كنت ساكنة قبل مجيئه ولكن ورد عليّ من حضرة القلب رسول العلم على لسان العقل بالإشخاص للقدرة فأشخصتها باضطرار فإنّي مسكين مسخّر تحت قهر العلم و العقل و لا أدري بأيّ جرم وقفت عليه وسخّرت له وألزمت طاعته لكنّي أدري أنّي في دعة وسكون مالم يرد عليّ هذا الوارد القاهر و هذا الحاكم العادل أو الظالم و قد وقفت عليه وقفاً و ألزمت طاعته إلزاماً بل لا يبقى لي معه مهما جزم حكمه طاقة في المخالفة لعمري مادام هو في التردّد على نفسه والتحيّر في حكمه فأنا ساكنة لكن مع استشعار وانتظار لحكمه ، فإذا انجزم حكمه ازعجت بطبع وقهر تحت طاعته وأشخصت القدرة ليقوم بموجب حكمه ، فسل العلم عن شأني ودع عنّي عتابك فإنّي كما قيل :

متى ترحّلت عن قوم وقد قدروا ☼ ألّا تفارقهم فالرّاحلون هم

فقال : صدقت ، وأقبل على العلم و العقل و القلب مطالباً ومعاتباً إيّاهم على استنهاض الإرادة و ترشيحها لإشخاص القدرة فقال العقل له : أمّا أنا فسراج ما اشتعلت بنفسي ولكنّي اشعلت ، وقال القلب : أمّا أنا فلوح ما انبسطت بنفسي ولكنّي بسطت ، وقال العلم : إنّما أنا نقش نقشت في بياض لوح القلب لمّا أشرق سراج العقل و ما انخططت بنفسي ولكنّي خططت ، فكم كان هذا اللّوح قبلي خالياً عنّي فسل القلم عنّي فإنّ الخطّ لا يكون إلّا بالقلم فعند هذا تتعتع السائل[٣] و لم يقنعه

(١) أرهقه اثماً : كلفه اياه وأرهقه أى حمله مالا يطيق .
(٢) صال عليه يصول صيالا : سطا عليه وقهره .
(٣) تعتع فى الكلام تردد فيه من حصر أوعى .

جوابه ، وقال : قدطال تعبي في هذا الطريق و كثرت منازلي ولايزال يحيلني من طمعت في معرفة هذا الأمر منه على غيره ، ولكنّي كنت أطيب نفساً بكثرة الترداد لما كنت أسمع كلاماً مقبولاً في الفؤاد وعذراً ظاهراً في دفع السؤال ، فأمّا قولك فإنّي خطٌّ ونقشٌ وإنّما خطّني قلمٌ فلست أفهمه فإنّي لا أعلم قلماً إلّا من القصب و لا لوحاً إلّا من الحديد أوالخشب ولاخطّاً إلّا بالحبر ولا سراجاً إلّا من النار ، و إنّي أسمع في هذا المنزل حديث اللّوح والسراج و الخطّ والقلم ولا اُشاهد من ذلك شيئاً أسمع جعجعة و لا أرى طحناً ، فقال له العلم : صدقت فيما قلت فبضاعتك مزجاة و زادك قليل ومركبك ضعيف والمهالك في الطريق الّذي توجّهت إليه كثيرة فالصواب لك أن تنصرف و تدع ما أنت فيه فماهذا بعشّك (١) فأدرج عنه فكلٌّ ميسّرٌ لماخلق له . وإن كنت راغباً في استتمام الطريق إلى المقصود فألق سمعك وأنت شهيد :

و اعلم أنّ العوالم في طريقك هذا ثلاثة عالم الملك و الشهادة أوّلها و لقدكان الكاغذ و الحبر والقلم و اليد من هذا العالم و قد جاوزت تلك المنازل على سهولة ، و الثاني عالم الملكوت وهو ورائي فإذا جاوزتني انتهيت إلى منازله و فيها المهامه(٢) الفسيحة والجبال الشاهقة و البحار المغرقة ولا أدري كيف تسلم فيها ، والثالث عالم الجبروت و هو بين عالم الملك و عالم الملكوت و لقد قطعت منها ثلاثة منازل إذ في أوائلها منزل القدرة و الإرادة و العلم و هو واسطة بين عالم الملك و الملكوت لأنّ عالم الملك أسهل منه طريقاً و عالم الملكوت أوعر منه منهجاً و إنّما عالم الجبروت بين عالم الملك و عالم الملكوت يشبه السفينة الّتي بين الأرض و الماء فلا هي في حدّ اضطراب الماء ولا هو في حدّ سكون الأرض وثباته و كلٌّ من يمشي على الأرض يمشي في عالم الملك و الشهادة فإن جاوزت قوّته إلى أن يقوى على ركوب السفينة كان كمن يمشي في عالم الجبروت فإن انتهى إلى أن يمشي على الماء من غير سفينة كان كمن يمشي في عالم الملكوت من غير تكعكع(٣) فإن كنت

(١) العش - بضم العين و تشديد الشين المعجمة - موضع الطائر .

(٢) المهمه : المفازة البعيدة . (٣) تكعكع : احتبس عن وجهه أو جبن .

لاتقدر على المشي على الماء فانصرف فقد جاوزت الأرض و خلّفت السفينة ولم يبق بين يديك إلّا الماء الصافي ، و أوّل عالم الملكوت مشاهدة القلم الّتي يكتب به العلم و حصول اليقين الّذي يمشي به على الماء ، أمّا سمعت قول رسول الله صلّى الله عليه وآله في عيسى عليه السلام « لو ازداد يقيناً لمشى على الهواء » لمّا قيل له : إنّه كان يمشي على الماء [1] فقال السائل السالك : قد تحيّرت في أمري و استشعر قلبي خوفاً ممّا وصفته من خطر الطريق ولست أدري اُطيق قطع هذه المهامه الّتي وصفتها أم لا ، فهل لذلك من علامة ؟ فقال : نعم افتح بصرك واجمع ضوء عينك وحدّقه نحوي فإن ظهر لك القلم الّذي به أكتب في لوح القلب فيشبه أن تكون أهلاً لهذا الطريق ، فإنّ كلّ من جاوز عالم الجبروت و قرع أوّل باب من أبواب الملكوت كوشف بالقلم ، أمّا ترى أنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله في أوّل مرّة كوشف بالقلم إذا نزل عليه قوله تعالى : «اقرأ باسم ربّك الّذي خلق - إلى قوله - اقرأ وربّك الأكرم ۞ الّذي علّم بالقلم ۞ علّم الانسان مالم يعلم » [2] فقال السالك : لقد فتحت بصري وحدقته فوالله ما أرى قصباً و لا خشباً ولاأعلم قلماً إلّا كذلك ، فقال العلم : لقد أبعدت النجعة [3] أماسمعت أنّ متاع البيت يشبه ربّ البيت أما علمت أنّ الله تعالى لايشبه ذاته سائر الذّوات فكذلك لايشبه يده سائر الأيدي ولاقلمه سائر الأقلام ولاخطّه سائر الخطوط وهذه اُمور إلهيّة من عالم الملكوت فليس الله في ذاته بجسم ، ولاهو في مكان بخلاف غيره ، ولا يده لحمٌ وعظمٌ ودمٌ بخلاف الأيدي ، ولاقلمه من قصب ، و لالوحه من خشب ، ولا كلامه بصوت وحرف ، ولاخطّه رقم ورسم ، ولا حبره زاج وعفص ، فإن كنت لا تشاهد هذا هكذا فما أراك إلّا مخنّثاً بين فحولة التنزيه و اُنوثة التشبيه مذبذباً بين هذا وذاك لا إلى هؤلاء و لا إلى هؤلاء ، فكيف نزّهت ذاته تعالى و صفاته عن ذوات الأجسام وصفاتها ونزّهت كلامه عن معاني الحروف و الأصوات وأخذت تتوقّف في يده و قلمه و لوحه و خطّه فإن كنت قد فهمت من قوله : « إنّ الله خلق آدم على

---

(١) تقدم سابقاً . (٢) العلق : ٢ الى ٦ .

(٣) النجعة طلب الكلام في موضعه .

صورته»[1] الصورة الظاهرة المدركة بالبصر فكن مشبهيّاً مطلقاً كما يقال كن يهوديّاً صرفاً و إلّا فلا تلعب بالتورية ، و إن فهمت منه الصورة الباطنة الّتي تدرك بالبصائر لا بالأبصار فكن منزّهاً صرفاً و مقدّساً فحلاً واطو الطريق فإنّك بالواد المقدّس طوى ، و استمع بسرّ قلبك لما يوحى فلعلّك تجد على النار هدى ولعلّك من سرادقات العزّة تنادى بما نودي به موسى إنّي أنا ربّك الأعلى ، فلمّا سمع السالك من العلم ذلك استشعر قصور نفسه و أنّه مخنّث بين التشبيه والتنزيه فاشتعل قلبه ناراً من حدّة غضبه على نفسه لما رآها بعين النقص ولقد كاد زيتة الّذي في مشكاة قلبه يكاد يضيء ولو لم تمسسه نارٌ ، فلمّا نفخ فيه العلم بحدّته اشتعل زيتة فأصبح نوراً على نور ، فقال له العلم : اغتنم الآن هذه الفرصة و افتح بصرك فلعلّك تجد على النار هدى ، ففتح بصره فانكشف له القلم الإلهيّ وإذا هو كما وصفه العلم في التنزيه وما هو من خشب و لا قصب ولا رأس ولا ذنب وهو يكتب على الدّوام في قلوب البشر كلّهم أصناف العلوم وكان له في كلّ قلب رأس ولا رأس له فقضى منه العجب وقال : نعم الرّفيق العلم جزاه الله عنّي خيراً إذ الآن ظهر لي صدق إنبائه عن أوصاف القلم فإنّي أراه قلماً لا كالأقلام ، فعند هذا ودّع العلم وشكره وقال : قد طال مقامي عندك و مراودتي لك وأنا عازم على أن اُسافر إلى حضرة القلم فأساله عن شأنه ، وسافر إليه وقال : أيّها القلم مالك تخطّ على الدّوام في القلوب من العلوم ما تبعث به الإرادات إلى إشخاص القدرة و صرفها إلى المقدورات فقال : أفنسيت ما رأيت في عالم الملك و الشهادة و سمعته من جواب القلم إذ سألته فأحالك على اليد قال : لم أنس ذلك ، قال : فجوابي مثل جوابه ، قال : كيف و أنت لا تشبهه قال القلم : أمّا سمعت « ان الله تعالى خلق آدم على صورته » قال : نعم ؟ قال : فسل عن شأني الملقّب بيمين الملك فإنّي في قبضته هو الّذي يردّدني و أنا مقهورٌ مسخّر فلا فرق بين القلم الإلهيّ وقلم الآدمي في معنى التسخير وإنّما الفرق في ظاهر الصورة فقال : ومن يمين الملك قال : أمّا سمعت قوله تعالى « والسموات مطويّات بيمينه »[2] قال : نعم قال فالأقلام أيضاً في قبضته هو الّذي يردّدها فسافر

(١) تقدم سابقا . (٢) الزمر : ٦٧ .

السالك من عنده إلى اليمين حتّى شاهده ورأى من عجائبه ما يزيد على عجائب القلم ولا يجوز وصف شيء من ذلك ولا شرحه بل لا تحوي مجلّدات كثيرة عشر عشير وصفه والجملة فيه أنّه يمين لا كالأيمان، ويدٌ لا كالأيدي، وأصبع لا كالأصابع، فرأى القلم محرّكاً في قبضته فظهر له عذر القلم فسأل اليمين عن شأنه وتحريكه للقلم، فقال جوابي مثل ما سمعته من اليمين الّتي رأيتها في عالم الشهادة وهي الحوالة على القدرة إذ اليد حكم لها في نفسها وإنّما محرّكها القدرة لا محالة فسافر السالك إلى عالم القدرة ورأى فيها من العجائب ما استحقر عندها ما قبلها وسألها عن تحريك اليمين فقال: إنّما أنا صفة فسل القادر إذ العهدة على الموصوفات لا على الصفات وعند هذا كاد يزيغ قلبه وينطق بالجرأة لسان السؤال فثبت بالقول الثابت ونودي من وراء حجاب سرادقات الحضرة «لا يسئل عمّا يفعل وهم يسئلون» فغشيته دهشة الحضرة فخرّ صعقاً يضطرب في غشيته مدّة فلمّا أفاق قال: سبحانك ما أعظم شأنك وأعزّ سلطانك تبت إليك وتوكّلت عليك وآمنت بأنك الملك الجبّار الواحد القهّار، فلا أخاف غيرك ولا أرجو سواك ولا أعوذ إلّا بعفوك من عقابك وبرضاك من سخطك، ومالي إلّا أن أسألك وأتضرّع إليك وأبتهل بين يديك فأقول: اشرح صدري لأعرفك، واحلل عقدة من لساني لاُثني عليك فنودي من وراء الحجاب إيّاك أن تطمع في الثناء وتزيد على سيّد الأنبياء بل ارجع إليه فما أتاك فخذه وما نهاك عنه فانته، وما قاله فقله فإنّه ما زاد في هذه الحضرة على أن قال: «سبحانك لا اُحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك» (١) فقال: إلهي إن لم يكن للّسان جرأة على الثناء عليك فهل للقلب مطمع في معرفتك؟ فنودي إيّاك أن تتخطّى رقاب الصدّيقين أما سمعتهم يقولون: العجز عن درك الإدراك إدراك، فيكفيك نصيباً من حضرتنا أن تعرف أنّك محروم عن حضرتنا، عاجزٌ عن ملاحظة جمالنا وجلالنا، فعند هذا رجع السائل السالك واعتذر عن أسولته ومعاتبته وقال لليمين والقلم والعلم والإرادة والقدرة وما بعده: أقبلوا

(١) كان من دعائه صلى الله عليه وآله «لا أحصى ثناء عليك أنت كما اثنيت على نفسك» وقد تقدم غير مرة من الترمذى وابن ماجه وغيره.

عندي فانّي كنت غريباً حديث العهد بالدّخول في هذه البلاد ولكلّ داخل دهشة فما كان إنكاري عليكم إلّا عن قصور وجهل والآن قد صحّ عندي عذركم وانكشف لي أنّ المتفرّد بالملك والملكوت والعزّة والجبروت هو الواحد القهّار، فما أنتم إلّا مسخّرون تحت قهره مردّدون في قبضته وهو الأوّل والآخر و الظاهر والباطن، فلمّا قال ذلك في عالم الشهادة استبعد ذلك منه وقيل: كيف يكون هو الأوّل والآخر وهما متناقضان و كيف يكون هو الظاهر والباطن والأوّل ليس بآخر و الظاهر ليس بباطن فقال هو الأوّل بالإضافة إلى الوجود إذ صدر منه الكلّ على ترتيبه واحداً بعد واحد، و هو الآخر بالإضافة إلى سير السائرين إليه فانّهم لا يزالون مترقّين من منزل إلى منزل إلى أن يقع الانتهاء إلى تلك الحضرة فيكون ذلك آخر السفر فهو آخر في المشاهدة أوّل في الوجود وهو باطن بالإضافة إلى العاكفين في عالم الشهادة الطالبين لإدراكه بالحواسّ الخمس، ظاهر بالإضافة إلى من يطلبه بالسراج الّذي اشتعل في قلبه بالبصيرة الباطنة النافذة في عالم الملكوت فهذا كان توحيد السالكين لطريق التوحيد في الفعل أعني من انكشف له أنّ الفاعل واحد.

فإن قلت: لقد انتهى هذا التوحيد إلى أنّه يبتني على الإيمان بعالم الملكوت فمن لا يفهم ذلك أو يجحده فما طريقه؟

فأقول: أمّا الجاحد فلا علاج له إلّا أن يقال له: إنكارك لعالم الملكوت كإنكار السمنيّة لعالم الجبروت و هم الّذين حصروا العلوم في الحواسّ الخمس فأنكروا القدرة و الإرادة والعلم لأنّها لا تدرك بالحواسّ الخمس، و لازموا حضيض عالم الشهادة، فإن قال: وأنا منهم فإنّي لا أهتدي إلّا إلى عالم الشهادة بالحواسّ الخمس و لا أعلم شيئاً سواه، فيقال: إنكارك لما شاهدنا ممّا وراء الحواسّ الخمس كإنكار السوفسطائيّة للحواسّ الخمس فإنّهم قالوا ما نراه لا نثق به فلعلّنا نراه في المنام فإن قال: وأنا من جملتهم فإنّي شاكّ أيضاً في المحسوسات فيقال: هذا شخص فسد مزاجه و امتنع علاجه فيترك، فلا كلّ مريض يقوى على علاجه الأطبّاء هذا حكم الجاحد، و أمّا الّذي لا يجحد و لكن لا يفهم فطريق السالكين معه أن ينظروا إلى عينه الّتي

بها يشاهد عالم الملكوت فإن وجدوها صحيحة في الأصل وقد نزل فيها ماء أسود يقبل التنقية اشتغلوا بتنقيته اشتغال الكحّال بالأبصار الظاهرة ، فإذا استوى بصره ارشد إلى الطريق ليسلكه كما فعل ذلك رسول الله صلّى الله عليه وآله بخواصّ أصحابه ، و إن كان غير قابل للعلاج فلم يمكنه أن يسلك السبيل الّذي ذكرناه في التوحيد ، ولم يمكنه أن يسمع كلام ذرّات الملك والملكوت بمشاهدة التوحيد كلّموه بحرف و صوت و ردّوا ذروة التوحيد إلى حضيض فهمه فإنّ في عالم الشهادة أيضاً توحيد إذ يعلم كلّ أحد أنّ المنزل يفسد بصاحبين والبلد يفسد بأميرين فيقال له على حدّ عقله : إله العالم واحد والمدبّر واحد إذ «لو كان فيهما آلهة إلّا الله لفسدتا» فيكون ذلك على ذوق ما رآه في عالم الشهادة فينغرس اعتقاد التوحيد في قلبه بهذا الطريق اللائق بقدر عقله وقد كلّف الله الأنبياء أن يكلّموا الناس على قدر عقولهم (1) ولذلك نزل القرآن بلسان العرب وعلى حدّ عادتهم في المحاورة .

فإن قلت : فمثل هذا التوحيد الاعتقادي هل يصلح أن يكون عماداً للتوكّل و أصلاً فيه ؟

فأقول : نعم فإنّ الاعتقاد إذا قوي عمل عمل الكشف في إثارة الأحوال إلّا أنّه في الغالب يضعف ويتسارع إليه الاضطراب و التزلزل غالباً و لذلك يحتاج صاحبه إلى متكلّم يحرسه بكلامه أو إلى من يتعلّم هذا الكلام منه ليحرس به العقيدة الّتي تلقّنها من استاده أو من أبويه أو من أهل بلده و أمّا الّذي يشاهد الطريق وسلكه بنفسه فلا يخاف عليه شيئاً من ذلك بل لو كشف الغطاء لما ازداد يقيناً و إن كان يزداد وضوحاً كما أنّ الّذي يرى إنساناً في وقت الأسفار لا يزداد يقيناً عند طلوع الشمس بأنّه إنسان ولكن يزداد وضوحاً في تفصيل خلقته وما مثال المكاشفين والمعتقدين إلّا كسحرة فرعون مع أصحاب السامريّ فإنّ سحرة فرعون لمّا أن كانوا امطّلعين على منتهى تأثير السحر لطول

---

(1) روى الكليني في الكافي ج ١ ص ٢٣ والبرقي في المحاسن و غير واحد من أرباب السنن من الجمهور عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال : «نحن معاشر الانبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم».

مشاهدتهم ذتجربتهم فرأوا من موسى عليه السلام ما جاوز حدود السحر انكشفت لهم حقيقة الأمر فلم يكترثوا بقول فرعون «فلأُقطّعنّ أيديكم وأرجلكم» بل «قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البيّنات والّذي فطرنا فاقض ما أنت قاض إنّما تقضي هذه الحياة الدّنيا إنّا آمنّا بربّنا ليغفر لنا خطايانا» (١) فإنّ البيان و الكشف يمنع التغيير وأمّا أصحاب السامريّ لما كان إيمانهم عن النظر إلى ظاهر الثعبان فلمّا نظروا إلى عجل السامري وسمعوا خواره تغيّروا وسمعوا قوله «هذا إلهكم وإله موسى فنسي» (٢) أنّه لا يرجع إليهم قولاً و لا يملك لهم ضرّاً و لا نفعاً فكلّ من آمن بالنظر إلى ثعبان فيكفر لا محالة إذا نظر إلى عجل لأنّ كليهما من عالم الشهادة و الاختلاف والتضادّ في عالم الشهادة كثير ، و أمّا عالم الملكوت فهو من عند الله تعالى فلذلك لا تجد فيه اختلافاً وتناقضاً أصلاً .

فإن قلت : ما ذكرته من التوحيد ظاهرٌ مهما ثبت أنّ الوسائط والأسباب مسخّرات و كلّ ذلك ظاهر إلّا في حركات الإنسان فإنّه يتحرّك إن شاء ويسكن إن شاء فكيف يكون مسخّراً ؟

فاعلم أنّه لو كان مع هذا يشاء إن شاء ولا يشاء إن لم يشأ لكان هذا مزلّة القدم و موقع الغلط ولكن علمت أنّه يفعل ما يشاء إذا شاء أن يشأ أم لم يشأ فليست المشيّة إليه ، إذ لو كانت إليه لافتقرت إلى مشيّة اُخرى ويتسلسل إلى غير نهاية ، و إذا لم تكن المشيّة إليه و وجدت المشيّة الّتي تصرف القدرة إلى مقدورها انصرفت القدرة لا محالة و لم يكن لها سبيل إلى المخالفة ، فالحركة لازمة ضرورة بالقدرة و القدرة متحرّكة ضرورة عند انجزام المشيّة والمشيّة تحدث ضرورة في القلب فهذه ضرورات مرتّبة بعضها على بعض ، و ليس للعبد أن يدفع وجود المشيّة و لا انصراف القدرة إلى المقدور بعدها ولا وجود الحركة بعد بعث المشيّة للقدرة فهو مضطرٌ في الجميع .

فإن قلت : فهذا جبرٌ محضٌ و الجبر يناقض الاختيار وأنت لا تنكر الاختيار فكيف يكون مجبوراً مختاراً ؟

---

(١) طه : ٧١ و ٧٣ .　　(٢) طه : ٨٨ .

فأقول لو انكشف لك الغطاء لعرفت أنّه في عين الاختيار مجبور فهو إذن مجبور على الاختيار و كيف يفهم هذا من لم يفهم الاختيار فلنشرح الاختيار بلسان المتكلّمين شرحاً وجيزاً يليق بما نذكر متطفّلاً و تابعاً فإن هذا الكتاب لم يقصد به إلّا علم المعاملة ولكنّي أقول : لفظ الفعل في الإنسان يطلق على ثلاثة أُوجه إذ يقال الإنسان يكتب بالأُصبع ويتنفّس بالرّية والحنجرة ويخرق الماء إذا وقف عليه بجسمه فينسب إليه الخرق في الماء والتنفّس والكتابة و هذه الثلاثة في حقيقة الاضطرار و الجبر واحد ولكنّها تختلف وراء ذلك في اُمور فأعرب لك عنها بثلاث عبارات فنسمّي خرقه للماء عند وقوعه على وجهه فعلاً طبيعيّاً ، ونسمّي تنفسه فعلاً إراديّاً ، ونسمّي كتابته فعلاً اختيارياً والجبر ظاهر في الفعل الطبيعي لأنّه مهما وقف على وجه الماء أو تخطّى من السطح في الهواء انخرق لامحالة فيكون الخرق بعد التخطّي ضروريّاً والتنفّس في معناه فإنّ نسبة حركة الحنجرة إلى إرادة التنفّس كنسبة انخراق الماء إلى ثقل البدن فمهما كان الثقل موجوداً وجد الانخراق بعده وليس الثقل إليه فكذلك مهما وجدت إرادة التنفّس وجدت بعدها حركة الحنجرة بالضرورة فكذلك الإرادة ليست إليه و لذلك لو قصد عين إنسان بإبرة طبّق الأجفان اضطراراً و لو أراد أن يتركها مفتوحة لا يقدر مع أنّ تغميض الأجفان اضطراراً فعل إراديّ ولكنّه إذا تمثّل صورة الإبرة في مشاهدته بالإدراك حدثت الإرادة بالتغميض ضرورة وحدثت الحركة بها ولو أراد أن يترك التغميض لم يقدر عليه مع أنّه فعل بالقدرة و الإرادة فقد التحق بالفعل الطبيعي في كونه ضروريّاً ، وأمّا الثالث وهو الاختياريّ فهو مظنّة الالتباس كالكتابة و النطق وهو الّذي يقال فيه : إن شاء فعل و إن لم يشأ لم يفعل و تارة يشاء و تارة لا يشاء فيظنّ من هذا أنّ الأمر إليه وهو الجهل بمعنى الاختيار فلنكشف عنه ، وبيانه أنّ الإرادة تبع للعلم الّذي يحكم بأنّ الشيء موافق لك و الأشياء تنقسم إلى ما تحكم مشاهدتك الظاهرة أو الباطنة بأنّه يوافقك من غير تحيّر و تردّد وإلى ما قد يتردّد العقل فيه ، فالّذي تقطع به من غير تردّد أن تقصد عينك مثلاً بإبرة أو بدنك بسيف فلا يكون في علمك تردّد في أن دفع ذلك خيرٌ لك و موافق فلا جرم تنبعث

الإرادة بالعلم والقدرة بالإرادة وتحصل حركة الأجفان بالدّفع وحركة اليد بدفع السيف و ذلك من غير رويّة وفكرة ويكون ذلك بالإرادة ، ومن الأشياء ما يتوقّف التمييز و العقل فيه فلا يدرى أنّه موافق أم لا فيحتاج إلى رويّة وفكر حتّى يتبيّن أنّ الخير في الفعل أو الترك فإذا حصل بالفكر و الرويّة العلم بأنّ أحدهما خير التحق ذلك بالّذي يقطع به من غير رويّة وفكر وانبعثت الإرادة ههنا كما تنبعث لدفع السيف والإبرة ، فإذا انبعثت لفعل ما ظهر للعقل أنّه خيرٌ سمّيت هذه الإرادة إختياراً مشتقاً من الخير أي هو انبعاث إلى ما ظهر للعقل أنّه خيرٌ وهو عين تلك الإرادة ولم ينتظر في انبعاثها إلّا ما انتظرت في انبعاث تلك الإرادة و هو ظهور خيريّة الفعل في حقّه إلّا أنّ الخيريّة في دفع السيف ظهرت من غير رويّة بل على البديهة وهذا افتقر إلى الرويّة فالاختيار عبارة عن إرادة خاصّة وهي الّتي انبعثت بإشارة العقل فيما له في إدراكه توقّف ، وعن هذا قيل : العقل يحتاج إليه للتمييز بين خير الخيرين وشرّ الشرّين ولا يتصوّر أن تنبعث الإرادة إلّا بحكم الحسّ والخيال أو بحكم جزم من العقل ، ولذلك لو أراد الإنسان أن يجزّ رقبة نفسه لم يمكنه ذلك لا لعدم القدرة في اليد ولا لعدم السكّين ولكن لفقد الإرادة الدّاعية المشخّصة للقدرة ، و إنّما فقدت الإرادة لأنّها تنبعث بحكم العقل أو الحسّ بكون الفعل موافقاً و قتله نفسه ليس موافقاً له فلا يمكنه مع قوّة الأعضاء أن يقتل نفسه إلّا إذا كان في عقوبة مؤلمة لا تطاق فإنّ العقل ههنا يتوقّف في الحكم ويتردّد لأنّه يتردّد بين شرّ الشرّين فإن ترجّح له بعد الرّويّة أنّ ترك القتل أقلّ شرّاً لم يمكنه قتل نفسه و إن حكم بأنّ القتل أقلّ شرّاً وكان حكمه جزماً لا ميل فيه ولا صارف منه انبعثت الإرادة والقدرة وأهلك نفسه كالّذي يتبع بالسيف ليقتل فإنّه يرمي بنفسه من السطح و إن كان مهلكاً و لا يبالي ولا يمكنه أن يرمي نفسه و إن كان يتبع بضرب خفيف ، فإذا انتهى إلى طرف السطح حكم العقل بأنّ الضرب أهون من الرّمي فوقفت أعضاؤه فلا يمكنه أن يرمي نفسه ولا تنبعث داعية البتّة لأنّ داعية الإرادة مسخّرة لحكم العقل ، و الحسّ والقدرة مسخّرة للدّاعية ، والحركة مسخّرة للقدرة ، والكلّ مقدّر بالضرورة فيه

من حيث لا يدري فإنّما هو محلّ و مجرى لهذه الأمور ، فأمّا أن يكون منه فكلاّ و لا ، فإذن معنى كونه مجبوراً أنّ جميع ذلك حاصل فيه من غيره لامنه ومعنى كونه مختاراً أنّه محلّ لإرادة حدثت فيه جبراً بعد حكم العقل بكون الفعل خيراً و حدث الحكم أيضاً جبراً ، فإذن هو مجبور على الاختيار ففعل النار في الإحراق مثلاً جبر محض وفعل الله اختيار محض و فعل الإنسان على منزلة بين المنزلتين فإنّه جبر على الاختيار وليس مناقضاً للجبر و لا للاختيار بل هو جامع بينهما عند من فهمه ويسمّى فعل الله اختياراً بشرط أن لايفهم من الاختيار إرادة بعد تحيّر وتردّد فإنّ ذلك في حقّه محال وجميع الألفاظ المذكورة في اللّغات لا يمكن أن يستعجل في حقّ الله إلّا على نوع من الاستعارة و التجوّز ، وذكر ذلك لايليق بهذا العلم ويطول القول فيه .

فإن قلت : فهل تقول : إنّ العلم ولد الإرادة والإرادة ولدت القدرة والقدرة ولدت الحركة وإنّ كلّ متأخّر حدث المتقدّم فإن قلت ذلك فقد حكمت بحدوث شيء لامن قدرة الله و إن أبيت ذلك فما معنى ترتّب البعض من هذا على البعض ؟.

فاعلم أنّ القول بأنّ بعض ذلك حدث عن بعض جهل محض سواء عبّر عنه بالتولّد أو بغيره بل حوالة جميع ذلك على المعنى الّذي يعبّر عنه بالقدرة الأزليّة وهو الأصل الّذي لم يقف عليه كافّة الخلق إلّا الرّاسخون في العلم فإنّهم وقفوا على كنه معناه والكافّة وقفوا على مجرّد لفظه مع نوع تشبيه بقدرتنا وهو بعيد عن الحقّ وبيان ذلك يطول ولكن بعض المقدورات مترتّب على البعض في الحدوث ترتّب المشروط على الشرط فلا تصدر من القدرة الأزليّة إرادة إلّا بعد علم ولا علم إلّا بعد حياة ولا حياة إلّا بعد محلّ الحياة ، و كما لا يجوز أن يقال : الحياة حصلت من الجسم الّذي هو شرط الحياة فكذلك في سائر درجات الترتيب ولكن بعض الشروط ممّا ظهر للعامّة وبعضها لم يظهر إلّا للخواصّ المكاشفين بنور الحقّ و إلّا فلا يتقدّم متقدّم ولا يتأخّر متأخّر إلّا بالحقّ واللّزوم و كذلك جميع أفعال الله ولولا ذلك لكان التقديم والتأخير عبثاً يضاهي فعل المجانين تعالى الله عن قول الجاهلين علوّاً كبيراً ، و إلى هذا أشار قوله تعالى : « وماخلقنا السماوات والأرض ومابينهما لاعبين ۝ ماخلقناهما إلّا بالحقّ

ولكنّ أكثرهم لايعلمون»[١] فكلّ ما بين السماء والأرض حادث على ترتيب واجب و حقّ لازم ولا يتصوّر أن يكون إلّا كما حدث على الترتيب الّذي وجد فما تأخّر متأخّر إلّا بانتظار شرطه والمشروط قبل الشرط محال والمحال لايوصف بكونه مقدوراً ، فلا يتأخّر العلم عن النطفة إلّا لفقد شرط الحياة ، ولاتتأخّر عنها الإرادة بعد الحياة[٢] إلّا لفقد شرطها وهو العلم ، و كلّ ذلك على منهاج الواجب و ترتيب الحقّ ليس في شيء من ذلك لعب واتّفاق بل كلّ ذلك بحكمة وتقدير ، وهذا قرع باب آخر لعالم آخر من عوالم المكاشفات فلنترك جميع ذلك فإنّ مقصودنا التنبيه على طريق التّوحيد في الفعل فإنّ الفاعل بالحقيقة واحد فهو المخوف و المرجوّ عليه التوكّل والاعتماد ، ولم نقدر على أن نذكر من بحار التوحيد إلّا قطرة من بحر المقام الثالث من مقامات التوحيد واستيفاء ذلك في عمر نوح محال كاستيفاء ماء البحر بأخذ القطرات عنه و كلّ ذلك ينطوي تحت قولك لا إله إلّا الله ، و ما أخفّ مؤونته على اللّسان ، و ما أسهل اعتقاد مفهوم لفظه على القلب ، وما أعزّ حقيقته ولبّه عند العلماء الرّاسخين فكيف عند غيرهم .

فإن قلت : كيف الجمع بين التوحيد و الشرع و معنى التوحيد أن لا فاعل إلّا الله و معنى الشرع إثبات الأفعال للعباد فإن كان العبد فاعلاً فكيف يكون الله فاعلاً وإن كان الله فاعلاً فكيف يكون العبد فاعلا ومفعول بين فاعلين غير مفهوم ؟ فأقول : نعم ذلك غير مفهوم إذا كان للفاعل معنى واحد وإن كان له معنيان ويكون الاسم مجملاً مردّداً بينهما لم يتناقض كما يقال : قتل الأمير فلاناً و يقال : قتله الجلّاد ولكنّ الأمير قاتل بمعنى والجلّاد بمعنى آخر فكذلك العبد فاعل بمعنى والله تعالى فاعل بمعنى آخر فمعنى كون الله فاعلاً أنّه المخترع الموجد ومعنى كون العبد فاعلاً أنّه المحلّ الّذي خلق فيه القدرة بعد أن خلق فيه الإرادة بعد أن خلق الله فيه العلم فارتبطت القدرة والإرادة والحركة بالقدرة ارتباط الشرط وارتبط بقدرة الله إرتباط

---

(١) الدخان : ٣٨ و ٣٩ .

(٢) فى الاحياء « بعد العلم » .

المعلول بالعلّة وارتباط المخترع بالمخترع ، وكلّ ماله ارتباط بقدرة فإنّ محلّ القدرة يسمّى فاعلاً له كيف ما كان الارتباط كما يسمّى الجلّاد قاتلاً و الأمير قاتلاً لأنّ القتل ارتبط بقدرتهما، ولكن على وجهين مختلفين فلذلك يسمّى فعلاً لهما فكذلك ارتباط المقدور بين القدرتين ولأجل توافق ذلك وتطابقه نسب الله الأفعال في القرآن مرّة إلى الملائكة ومرّة إلى العباد ونسبها بعينها مرّة أُخرى إلى نفسه فقال تعالى في الموت : « قل يتوفّيكم ملك الموت الّذي وكّل بكم » (١) ثمّ قال : « الله يتوفّى الأنفس حين موتها » (٢) وقال : « أفرأيتم ماتحرثون ۞ ءأنتم تزرعونه » (٣) أضاف إلينا ثمّ قال : « أنّا صببنا الماء صبّاً ۞ ثمّ شققنا الأرض شقّاً ۞ فأنبتنا فيها حبّاً وعنباً » (٤) وقال : « فأرسلنا إليها روحنا فتمثّل لها بشراً سويّاً » (٥) ثمّ قال : « فنفخنا فيها من روحنا » (٦) وكان النافخ جبرئيل و كما قال تعالى : « فإذا قرأناه فاتّبع قرآنه » (٧) قيل في التفسير معناه فإذا قرأ عليك جبرئيل . وقال تعالى : « قاتلوهم يعذّبهم الله بأيديكم » (٨) فأضاف القتل إليهم والتعذيب إلى نفسه والتعذيب هو عين القتل بل صرّح وقال : « فلم تقتلوهم ولكنّ الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكنّ الله رمى » (٩) وهو جمع بين النفي والإثبات ظاهراً ولكن معناه و ما رميت بالمعنى الّذي يكون به الرّبّ رامياً إذ رميت بالمعنى الّذي يكون العبد به رامياً إذهما معنيان مختلفان و قال تعالى : « الّذي علّم بالقلم علّم الإنسان مالم يعلم » (١٠) ثمّ قال : « الرّحمن ۞ علّم القرآن » (١١) وقال : « علّمه البيان » (١٢) وقال : « إنّ علينا جمعه وقرآنه - إلى قوله - بيانه » وقال تعالى : « أفرأيتم ما تمنون ۞ ءأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون » (١٣) ثمّ قال رسول الله صلّى الله عليه وآله في وصف ملك الأرحام

(١) السجدة : ١١ .
(٢) الزمر : ٤٢ .
(٣) الواقعة : ٦٤ و ٦٥ .
(٤) عبس : ٢٥ الى ٢٨ .
(٥) مريم : ١٨ .
(٦) الانبياء : ٩١ .
(٧) القيامة : ٢٠ .
(٨) التوبة : ١٤ .
(٩) الانفال : ١٧ .
(١٠) العلق : ٤ و ٥ .
(١١) الرحمن : ١ و ٢.
(١٢) الرحمن : ٤.
(١٣) الواقعة : ٥٩ و ٦٠.

«إنّه يدخل الرّحم فيأخذ النطفة في يده ثمّ يصوّرها جسداً فيقول: يارب أذكر أم أُنثى أسوي أم معوج فيقول الله ماشاء ويخلق الملك»[١] وفي لفظ آخر «ويصوّر الملك ثمّ ينفخ فيها الرّوح بالسعادة أو بالشقاوة» وقد قال بعض السلف: إنّ الملك الّذي يقال له الرّوح هو الّذي يولج الأرواح في الأجسام وأنّه يتنفّس بوصفه فيكون كلّ نفس من أنفاسه روحاً يلج في جسم ولذلك سمّي روحاً، وماذكره من مثل هذا الملك وصفته فهو حقّ شاهده أرباب القلوب ببصائرهم فأمّا كون الرّوح عبارة عنه فلا يمكن أن يعلم إلّا بالنقل، والحكم به دون النقل تخمين مجرّد و كذلك ذكر الله تعالى في القرآن من الأدلّة والآيات في الأرض والسماوات ثمّ قال: «أو لم يكف بربّك أنّه على كلّ شيء شهيد»[٢] و قال: «شهد الله أنّه لا إله إلّا هو»[٣] فبيّن أنّه الدّليل على نفسه وذلك ليس بمتناقض بل طرق الاستدلال مختلفة فكم من طالب عرف الله بالنظر إلى الموجودات و كم من طالب عرف الموجودات بالله كما قال بعضهم: عرفت ربّي بربّي ولولا ربّي لما عرفت ربّي. وهو معنى قوله: «أولم يكف بربّك أنّه على كلّ شيء شهيد» و قد وصف الله نفسه بأنّه المحيي والمميت وفوّض الموت والحياة إلى ملكين ففي الخبر «إنّ ملكي الموت وملك الحياة تناظرا، فقال ملك الموت: أنا أُميت الأحياء وقال ملك الأحياء: أنا أُحيي الموتى فأوحى إليهما كونا على عملكما وماسخّرتكما له من الصنع وإنّما أنا المميت و المحيي لا مميت ولا محيي سواي» فإذن الفعل يستعمل على وجوه مختلفة فلا تتناقض هذه المعاني إذا فهمت، و لذلك قال صلّى الله عليه وآله وسلّم للّذي ناوله التمرة: «خذها ولم تأتها لأتتك»[٤] أضاف الإتيان إليه وإلى التمرة ومعلوم أنّ التمرة لا تأتي على الوجه الّذي يأتي الإنسان إليها و كذلك لمّا قال التائب أتوب إلى الله تعالى و لا أتوب إلى محمّد فقال عليه السلام: عرف الحقّ لأهله»[٥] فكلّ من أضاف الكلّ إلى الله

(١) أخرجه البزار وابن عدى من حديث عائشة كما فى المغنى.

(٢) فصلت: ٥٣. (٣) آل عمران: ١٨.

(٤) أخرجه ابن حبان فى كتاب روضة العقلاء من رواية هذيل بن شرحبيل ووصله الطبرانى عن هذيل عن ابن عمر ورجاله رجال الصحيح (المغنى).

(٥) أخرجه أحمد والطبرانى من حديث الاسود بن السريع بسند ضعيف.

تعالى فهو المحقّق الّذي عرف الحقّ والحقيقة لأهله ومن أضافه إلى غيره فهو المتجوّز المستعير في كلامه و للتجوّز وجه كما أنّ للحقيقة وجهاً واسم الفاعل وضعه واضع اللّغة للمخترع ، ولكن ظنّ أنّ الإنسان مخترع بقدرته فسمّاه فاعلاً بحركته ، وظنّ أنّه تحقيق وتوهّم أن نسبته إلى الله على سبيل المجاز مثل نسبة القتل إلى الأمير فإنّه مجاز بالإضافة إلى نسبته إلى الجلّاد فلمّا انكشف الحقّ لأهله عرفوا أنّ الأمر بالعكس و قالوا إن كان الفاعل قد وضعته أيّها اللّغوي للمخترع فلا فاعل إلّا الله فالاسم له بالحقيقة ولغيره بالمجاز أي تتجوّز به عمّا وضعه اللّغوي له . و لما جرى حقيقة المعنى على لسان بعض الأعراب قصداً و اتّفاقاً صدّقه رسول الله صلّى الله عليه وآله و قال عليه السلام : أصدق بيت قاله شاعر قول لبيد : « ألا كلّ شيء ما خلا الله باطل »[1] أي كلّ مالا قوام له في نفسه و إنّما قوامه بغيره فهو باعتبار نفسه باطل وإنّما حقّيته وحقيقته بغيره لا بنفسه فإذن لا حقّ بالحقيقة إلّا الحيّ القيّوم الّذي ليس كمثله شيء و هو السميع البصير فإنّه قائم بذاته و كلّ ما سواه قائم بقدرته فهو الحقّ و ماسواه باطل ، ولذلك قال سهل : يا مسكين كان ولم تكن ويكون ولا تكون فلمّا كنت اليوم صرت تقول : أنا وأنا ، كن الآن كما لم تكن فإنّه اليوم كما كان .

فإن قلت: فقد ظهر الآن أنّ الكلّ جبر فما معنى الثواب والعقاب والغضب والرّضا و كيف غضبه على فعل نفسه ؟ فاعلم أنّ معنى ذلك قد أشرنا إليه في كتاب الشكر فلا نطول بإعادته، فهذا هو القدر الّذي رأينا الرّمز إليه من التوحيد الّذي يورث حال التوكّل ولايتمّ هذا إلّا بالإيمان بالرّحمة و الحكمة ، فإنّ التوحيد يورث النظر إلى مسبب الأسباب ، والإيمان بالرّحمة وسعتها هو الّذي يورث الثقة بمسبّب الأسباب ولايتمّ حال التوكّل كما سيأتي إلّا بالثقة بالوكيل و طمأنينة القلب إلى حسن نظر الكفيل ، وهذا أيضاً باب عظيم من أبواب الإيمان وحكاية طريق المكاشفين فيه طويلة فلنذكر حاصله ليعتقده الطالب لمقام التوكّل اعتقاداً قاطعاً لا يستريب فيه و هو أن

(١) راجع صحيح مسلم ج ٧ ص ٤٩.

يصدّق تصديقاً يقينيّاً لاضعف فيه ، و لا ريب أنّ الله تعالى لو خلق الخلائق كلّهم على عقل أعقلهم وعلم أعلمهم ، وخلق لهم من العلم ما تحتمله نفوسهم ، وأفاض عليهم من الحكمة مالا منتهى لوصفها ثمّ زاد مثل عدد جميعهم علماً وحكمة وعقلاً ثمّ كشف لهم عن عواقب الاُمور و أطلعهم على أسرار الملكوت و عرفهم دقائق اللّطف و خفايا العقوبات حتّى اطّلعوا على الخير و الشرّ و النفع و الضرّ ثمّ أمرهم أن يدبّروا الملك و الملكوت بما أعطوا من العلوم و الحكم لما اقتضى تدبير جميعهم من التعاون و التظاهر عليه أن يزاد فيما دبّر الله سبحانه الخلق به في الدّنيا و الآخرة جناح بعوضة ، و لا أن ينقص منها جناح بعوضة ولا أن يرفع فيها ذرّة أو يخفض منها ذرّة ، ولا أن يدفع مرض أوعيب أونقص أو فقر أوضرّ عمّن بلي به و لا أن يزال صحّة أو جمال أوغنى أو نفع عمّن أنعم به عليه بل كلّ ماخلق الله تعالى من السماوات والأرض إذا رجعوا فيها البصر وطوّلوا فيها النظر ما رأوا فيها من تفاوت ولافطور ، و كلّ ما قسم الله بين عباده من رزق وأجل وسرور وفرح وهمّ وغمّ وعجز وقدرة وإيمان وكفر و طاعة و معصية فكلّه عدل محض لا جور فيه و حقّ صرف لا ظلم فيه ، بل هو على الترتيب الواجب الحقّ على ما ينبغي و كما ينبغي و بالقدر الّذي ينبغي و ليس في الإمكان أصلاً أحسن منه ولا أتمّ ولا أكمل فلوكان و ادّخره مع القدرة ولم يفعله لكان بخلاً يناقض الجود وظلماً يناقض العدل ، ولولم يكن قادراً لكان عجزاً يناقض الإلهيّة بل كلّ فقر وضرّ في الدّنيا فهو نقصان من الدّنيا وزيادة في الآخرة و كلّ نقص في الآخرة بالإضافة إلى شخص فهو نعيم بالإضافة إلى غيره إذ لولا اللّيل لما عرف النهار ، ولولا المرض لم يتنعّم الأصحّاء بالصحّة ، و لولا النار لم يعرف أهل الجنّة قدر النعمة فكما أنّ فداء أرواح الإنس بأرواح البهائم و تسليطهم على ذبحها ليس بظلم بل تقديم الكامل على الناقص عين العدل فكذلك تفخيم النعمة على سكّان الجنان بتعظيم العقوبة على أهل النيران وفداء لأهل الإيمان بأهل الكفران عين العدل ومالم يخلق الناقص لايعرف الكامل ولولاخلق البهائم لما ظهرت شرف الإنس فإنّ الكمال و النقص جميعاً يظهر بالإضافة فمقتضى الجود و الحكمة خلق الكامل و الناقص

جميعاً و كما أنّ قطع اليد إذا تأكّلت إبقاء على الرّوح عدل لأنّه فداء كامل بناقص فكذا الأمر في التفات الّذي بين الخلق في القسم في الدّنيا والآخرة فكلّ ذلك عدل لاجور فيه وحقّ لالعب فيه ، وهذا الآن بحر آخر عظيم واسع الأطراف مضطرب الأمواج قريب في السعة من بحر التوحيد فيه غرق طوائف من القاصرين ولم يعلموا أنّ ذلك غامض لا يعقله إلّا العالمون ، و وراء هذا البحر سرّ القدر الّذي تحيّر فيه الأكثرون و منع عن إفشاء سرّه المكاشفون ، والحاصل أنّ الخير والشرّ مقضيّ به وقد صار ما قضى الله به واجب الحصول بعدسبق المشيّة فلا رادّ لحكمه و لا معقّب لقضائه وأمره ، بل كلّ صغير و كبير مستطر وحصوله بقدر معلوم منتظر وما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك . ولنقتصر على هذه المرامز من علوم المكاشفات الّتي هي اُصول مقام التوكّل ولنرجع إلى علم المعاملة .

❁(الشطر الثانى من الكتاب فى احوال التوكل واعماله)❁

وفيه بيان حال التوكّل ، وبيان ما قاله الشيوخ في حدّ التوكّل و بيان التوكّل في الكسب للمنفرد و المعيل ، وبيان التوكّل بترك الادّخار ، وبيان التوكّل في دفع المضارّ ، وبيان التوكّل في إزالة الضرر بالتداوي وغيره .

❁(بيان حال التوكل)❁

قد ذكرنا أنّ مقام التوكّل ينتظم من علم وحال وعمل ، وذكرنا العلم ، فأمّا الحال فالتوكّل بالتحقيق عبارة عنه و إنّما العلم أصله و العمل ثمرته و قد أكثر الخائضون في بيان حدّ التوكّل واختلفت عباراتهم و تكلّم كلّ واحد عن مقام نفسه وأخبر عن حدّه كماجرت عادة أهل التصوّف به ولافائدة في النقل والإكثار ولنكشف الغطاء عنه ، فنقول التوكّل مشتقّ من الوكالة يقال: وكل أمره إلى فلان أى فوّضه إليه و اعتمد عليه فيه ويسمّى الموكول إليه وكيلاً ويسمّى المفوّض إليه متّكلاً عليه ومتوكّلاً عليه مهما اطمأنّت نفسه إليه و وثق به ولم يتّهمه فيه بتقصير ولم يعتقد فيه عجزاً وقصوراً ، فالتوكّل عبارة عن اعتماد القلب على الوكيل وحده و لنضرب

الوكيل في الخصومة مثلاً فنقول : من ادّعي عليه دعوى باطلة بتلبيس فوكّل للخصومة من يكشف ذلك التلبيس لم يكن متوكّلاً عليه ولا واثق القلب مطمئنّ النفس بوكيله إلّا إذا اعتقد فيه أربعة اُمور : منتهى الهداية ، و منتهى القوّة ، و منتهى الفصاحة ، و منتهى الشفقة ، أمّا الهداية فليعرف بها مواقع التلبيس حتّى لا يخفى عليه من غوامض الحيل شيء أصلاً ، و أمّا القدرة والقوّة فليستجرىء على التصريح بالحقّ فلا يداهن و لا يخاف و لا يستحيي ولا يجبن فإنّه ربّما يطّلع على وجه تلبيس خصمه فيمنعه الخوف أو الجبن أو الحياء أو صارف آخر من الصوارف المضعفة للقلب عن التصريح به ، وأمّا الفصاحة فهي أيضاً من القدرة إلّا أنّها قدرة في اللّسان على الإفصاح عن كلّ ما استجرأ القلب عليه و أشار إليه ، فلا كلّ عالم بمواقع التلبيس قادرٌ بذلاقة لسانه على حلّ عقدته ، وأمّا منتهى الشفقة فليكون باعثاً له على بذل كلّ ما يقدر عليه من المجهود في حقّه فإنّ قدرته لا تغني دون العناية به إذا كان لا يهمّه أمره ولا يبالي به ظفر بخصمه أو لم يظفر ، هلك به حقّه أو لم يهلك ، فإن كان شاكّاً في هذه الاُمور الأربعة أو في واحدة منها أو جوّز أن يكون خصمه أكمل في هذه الأربعة منه لم تطمئنّ نفسه إلى وكيله بل بقي منزعج القلب مستغرق الهمّ بالحيلة و التدبير ليدفع ما يحذره من قصور وكيله وسطوة خصمه ويكون تفاوت أحواله في شدّة الثقة و الطمأنينة بحسب تفاوت قوّة اعتقاده لهذه الخصال فيه والاعتقادات والظنون في القوّة والضعف تتفاوت تفاوتاً لا ينحصر فلا جرم تتفاوت أحوال المتوكّلين في قوّة الطمأنينة و الثقة تفاوتاً لا ينحصر إلى أن ينتهي إلى اليقين الّذي لا ضعف فيه كما لو كان الوكيل والد الموكّل وهو الّذي يسعى لجمع الحلال والحرام من أجله فإنّه يحصل له يقين بمنتهى الشفقة والعناية فتصير خصلة واحدة من الخصال الأربعة قطعيّة و كذلك سائر الخصال يتصوّر أن يحصل القطع به وذلك بطول الممارسة والتجربة وتواتر الأخبار بأنّه أفصح الناس لساناً و أقواهم بياناً و أقدرهم على نصرة الحقّ بل على تصوير الحقّ بالباطل والباطل بالحقّ ، فإذا عرفت التوكّل في هذا المثال فقس التوكّل على الله تعالى فإن ثبت في نفسك بكشف أو باعتقاد جازم أنّه لا فاعل إلّا الله كما سبق واعتقدت مع ذلك تمام العلم

والقدرة على كفاية العباد، ثم تمام العطف والعناية والرحمة بجملة العباد بالآحاد، وإنه ليس وراء منتهى قدرته قدرة، ولاوراء منتهى علمه علم، ولاوراء منتهى عنايته بك ورحمته لك عناية ورحمة، اتكل لامحالة قلبك عليه وحده ولم يلتفت إلى غيره بوجه، ولا إلى نفسه وحوله وقوته، فإنه لا حول و لا قوة إلا بالله كما سبق في التوحيد عند ذكر الحركة والقدرة فإن الحول عبارة عن الحركة، والقوة عبارة عن القدرة، فإن كنت لاتجد هذه الحالة من نفسك فسببه أحد أمرين: إما ضعف اليقين بإحدى هذه الخصال الأربعة، وإما ضعف القلب و مرضه باستيلاء الجبن عليه و انزعاجه بسبب الأوهام الغالبة عليه، فإن القلب قدينزعج تبعاً للوهم و طاعة له من غير نقصان في اليقين فإن من يتناول عسلاً يشبه بين يديه بالعذرة ربما نفر طبعه و تعذر تناوله عليه، ولو كلف العاقل أن يبيت مع الميت في قبر أوفراش أوبيت نفر طبعه و إن كان متيقناً لكونه ميتاً وأنه جماد في الحال و أن سنة الله مطردة بأنه لا يحشره الآن ولا يحييه و إن كان قادراً عليه كما أنها مطردة بأن لايقلب القلم الذي في يده حية ولايقلب السنور أسداً و إن كان قادراً عليه ومع أنه لايشك في هذا اليقين، فينفر طبعه عن مضاجعة الميت في فراش أو المبيت معه في بيت، ولاينفر عن سائر الجمادات وذلك جبن في القلب وهو نوع ضعف قلمايخلو الإنسان عن شيء منه و إن قل فقد يقوى فيصير مرضاً حتى يخاف أن يبيت في البيت وحده مع إغلاق الباب و إحكامه فإذن لايتم التوكل إلا بقوة القلب وقوة اليقين جميعاً إذبهمايحصل سكون القلب وطمأنينته، فالسكون في القلب شيء واليقين شيء آخر، فكم من يقين لا طمأنينة معه كما قال: تعالى لإبراهيم «أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي»(١) فالتمس أن يشاهد إحياء الميت بعينه ليثبت اليقين في خياله فإن النفس تتبع الخيال وتطمئن به ولاتطمئن باليقين في ابتداء أمرها إلى أن تبلغ بالآخرة إلى درجة النفس المطمئنة، وذلك لايكون في البداية أصلاً وكم من مطمئن لايقين له كسائر أرباب الملل والمذاهب، فإن اليهودي مطمئن القلب إلى تهوده، و كذا النصراني ولايقين لهما أصلاً «وإنما يتبعون الظن و ما

(١) البقرة : ٢٦٠ .

تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربّهم الهدى» وهو سبب اليقين إلّا أنّهم معرضون عنه ، فإذن الجبن و الجرأة غرائز و لا ينفع اليقين معها فهي أحد الأسباب الّتي تضادّ حال التوكّل كما أنّ ضعف اليقين بالخصال الأربعة أحد الأسباب وإذا اجتمعت هذه الأسباب حصلت الثقة بالله و قد قيل : مكتوب في التورية ملعونٌ من ثقته إنسان مثله ، وقد قال عليه السلام : « من استعزّ بالعبيد أذلّه الله »[(١)] وإذا انكشف معنى التوكّل، وعلمت الحالة الّتي سمّيت توكّلاً ، فاعلم أنّ تلك الحالة لها في القوّة والضعف ثلاث درجات : الاُولى ما ذكرناه وهي أن يكون حاله في حقّ الله و الثقة بكفالته وعنايته كحاله في الثقة بالوكيل ، الثانية وهو أقوى أن يكون حاله مع الله كحال الطفل مع اُمّه فإنّه لا يعرف غيرها ، و لا يفزع إلى ما سواها ، و لا يعتمد إلّا عليها فإن رآها تعلّق بها في كلّ حال وتشبّث بذيلها و لم يخلها ، و إن نابه أمر في غيبتها كان أوّل سابق إلى لسانه يا اُمّاه و أوّل خاطر يخطر على قلبه اُمّه ، فإنّها مفزعه لأنّه قد وثق بكفالتها و كفايتها و شفقتها ثقة ليست خالية عن نوع إدراك بالتمييز الّذي له و يظنّ أنّه طبع من حيث إنّ الصبيّ لو طولب بتفصيل هذه الخصال لم يقدر على تلقين لفظها ولا على إحضارها مفصّلة في ذهنه ، ولكن كلّ ذلك وراء الإدراك فمن كان باله إلى الله و نظره إليه و اعتماده عليه كلّف به كما يكلّف الصبيّ باُمّه فيكون متوكّلاً حقّاً فإنّ الطفل متوكّل على اُمّه والفرق بين هذا وبين الأوّل أنّ هذا متوكّلٌ وقد فني في توكّله عن توكّله ، إذ ليس يلتفت قلبه إلى التوكّل وحقيقته بل إلى المتوكّل عليه فقطّ ، فلا مجال في قلبه لغير المتوكّل عليه ، و أمّا الأوّل فمتوكّل بالتكلّف والكسب وليس فانياً عن توكّله ، أي له التفات إلى توكّله وذلك شغل صارف عن ملاحظة المتوكّل عليه وحده ، وإلى هذه الدّرجة أشار سهل حيث سئل عن التوكّل ما أدناه ؟ قال : ترك الأماني ، قيل فأوسطه ؟ قال : ترك الاختيار، وهو

---

(١) قال العراقي : أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر ، أورده العقيلي في ترجمة عبدالله بن عبدالله الاموي ، وقال : لايتابع على حديثه وقد ذكره ابن حبان في الثقات و قال يخالف في روايته .

إشارة إلى الدّرجة الثانية ، وسئل عن أعلاه فلم يذكره وقال : لايعرفه إلّا من بلغ أوسطه . الثالثة وهي أعلاها أن يكون بين يدي الله في حركاته و سكناته مثل الميّت بين يدي الغاسل لايفارقه إلّا في أنّه يرى نفسه ميّتاً و تحرّكه القدرة الأزليّة كما تحرّك يد الغاسل الميّت ، وهو الّذي قوي يقينه بأنّه مجرى الحركة والقدرة والإرادة والعلم وسائر الصفات وأنّ كلّه يحدث جبراً فيكون بائناً عن الانتظار لما يجري عليه و يفارق الصبيّ فإنّ الصبيّ يفزع إلى اُمّه ويصيح ويتعلّق بذيلها ويعدو خلفها ، بل مثال هذا مثال صبيّ علم أنّه وإن لم يزعق باُمّه فالاُمّ تطلبه ، وإن لم يتعلّق بذيل اُمّه فالاُمّ تحمله ، وإن لم يسأل اللّبن فالاُمّ تفاتحه وتسقيه ، وهذا المقام في التوكّل يثمر ترك الدّعاء والسؤال منه ثقة بكرمه وعنايته و أنّه يعطي ابتداء أفضل و أكثر ممّا يسأل ، فكم من نعمة ابتدأها قبل الدّعاء وقبل الاستحقاق، والمقام الثاني لايقتضي ترك الدّعاء و السؤال منه وإنّما يقتضي ترك السؤال من غيره فقط.

فإن قلت : فهذه الأحوال هل يتصوّر وجودها ؟ فاعلم أنّ ذلك ليس بمحال ولكنّه عزيز نادر و المقام الثاني والثالث أعزّها ، و الأوّل أقرب إلى الإمكان ، ثمّ إذا وجد الثالث والثاني فدوامه أبعد منه بل يكاد لايكون المقام الثالث إلّا كصفرة الوجل فإنّ انبساط القلب إلى ملاحظة الحول و القوّة والأسباب طبع و انقباضه عارض كما أنّ انبساط الدّم في جميع الأطراف طبع وانقباضه عارض والوجل عبارة عن انقباض الدّم عن ظاهر البشرة إلى الباطن حتّى تنمحي عن ظاهر البشرة الحمرة الّتي كانت تتراءى من وراء الرّقيق من ستر البشرة فإنّ البشرة ستر رقيق تتراءى من ورائه حمرة الدّم فانقباضه يوجب الصفرة وذلك لا يدوم فكذلك انقباض القلب بالكلّية عن ملاحظة الحول و القوّة و سائر الأسباب الظاهرة لا يدوم ، و أمّا المقام الثاني فيشبه صفرة المحموم فإنّه قد يدوم يوماً ويومين والأوّل يشبه صفرة مريض استحكم مرضه فلا يبعد أن يدوم ولايبعد أن يزول .

فإن قلت : فهل يبقى مع العبد تدبير و تعلّق بالأسباب في هذه الأحوال ؟ فاعلم أنّ المقام الثالث ينفي التدبير رأساً مادامت الحالة باقية بل يكون صاحبها كالمبهوت

والمقام الثاني ينفي كلّ تدبير إلّا من حيث الفزع إلى الله بالدّعاء و الابتهال كتدبير الطفل في التعلّق بأمّه فقط. و المقام الأوّل لا ينفي أصل التدبير و الاختيار و لكن ينفي بعض التدبيرات كالمتوكّل على وكيله في الخصومة فإنّه يترك تدبيره من غير جهة الوكيل، ولكن لا يترك التدبير الّذي أشار إليه وكيله به، أو التدبير الّذي عرفه من عادته و سنّته دون تصريح إشارته، فأمّا الّذي يعرفه بإشارته بأن يقول له: لست أتكلّم إلّا في حضورك فيشتغل لا محالة بالتدبير للحضور ولا يكون هذا مناقضاً توكّله عليه إذ ليس هو فزعاً منه إلى حول نفسه وقوّته في إظهار الحجّة وإلى حول غيره، بل من تمام توكّله عليه أن يفعل ما رسمه له إذ لو لم يكن متوكّلا عليه ولا معتمداً له في قوله لما حضر بقوله، وأمّا المعلوم بعادته واطّراد سنّته فهو أن يعلم من عادته أنّه لا يحاجّ الخصم إلّا من السجلّ فتمام توكّله إن كان متوكّلا عليه أن يكون معوّلاً على سنّته و عادته و وافياً بمقتضاها وهو أن يحمل السجلّ مع نفسه إليه عند مخاصمته فإذن لا يستغني عن التدبير في الحضور و عن التدبير في إحضار السجلّ ولو ترك شيئاً من ذلك كان نقصاً في توكّله فكيف يكون فعله نقصاً فيه نعم بعد أن حضره وفاء بإشارته وأحضر السجلّ وفاء بسنّته و عادته وقعد ناظراً إلى محاجّته فقد ينتهي إلى المقام الثاني والثالث في حضوره حتّى يبقى كالمبهوت المنتظر لا يفزع إلى حوله وقوّته إذ لم يبق له حول ولا قوّة وقد كان فزعه إلى حوله وقوّته في الحضور و إحضار السجلّ بإشارة الوكيل و سنّته وقد انتهى إلى نهايته فلم يبق إلّا طمأنينة النفس والثقة بالوكيل والانتظار لما يجري.

و إذا تأمّلت هذا اندفع عنك كلّ إشكال في التوكّل وفهمت أنّه ليس من شرط التوكّل ترك كلّ تدبير وعمل وأنّ كلّ تدبير وعمل لا يجوز أيضاً مع التوكيل بل هو على الانقسام وسيأتي تفصيله في الأعمال فإذن فزع المتوكّل إلى حوله وقوّته في الحضور والإحضار لا يناقض التوكّل، لانّه يعلم أنّه لو لا الوكيل لكان حضوره و إحضاره باطلاً و تعباً محضاً بلاجدوى، فإذن لم يصر مفيداً من حيث إنّه حوله وقوّته، بل من حيث إنّ الوكيل جعله معتمداً لمحاجّته و عرفه ذلك بإشارته وسنّته فإذن لا حول ولا قوّة إلّا بالوكيل، إلّا أنّ هذه الكلمة لا يكمل معناها في حقّ الوكيل لأنّه ليس

خالقاً حوله و قوّته بل هو جاعل لهما مفيدين في أنفسهما و لم يكونا مفيدين لو لا فعله و إنّما يصدق ذلك في حقّ الوكيل المطلق الحقّ وهوالله تعالى إذهوخالق الحول والقوّة كما سبق في التوحيد وهوالّذي جعلهما مفيدين إذ جعلهما شرطاًلما سيخلقه من بعدهما من الفوائد والمقاصد ، فإذن لاحول ولاقوّة إلّا بالله حقّاًوصدقاً فمن شاهد هذا كذلك كان له الثواب العظيم الّذي وردت به الأخبارفي من يقول : «لا حول و لا قوّة إلّا بالله» و ذلك قديستبعد فيقال : كيف يعطى هذا الثواب العظيم بهذه الكلمة مع سهولتها على اللّسان و سهولة اعتقاد القلب بمفهوم لفظها ، و هيهات فإنّما ذلك جزاء المشاهدة الّتي ذكرناها في التوحيد و نسبة هذه الكلمة و ثوابها إلى كلمة لا إله إلّا الله وثوابها كنسبة معنى إحديهما إلى الاُخرى إذ في هذه الكلمة إضافة لشيئين إلى الله تعالى فقط وهو الحول والقوّة ، وأمّا كلمة لا إله إلّا الله فهو نسبة للكلّ إليه فانظر إلى التفاوت بين الكلّ وبين شيئين لتعرف به ثواب لا إله إلّا الله بالإضافة إلى هذا ، و كما ذكرنا من قبل أنّ للتوحيد قشرين و لبّين فكذلك لهذه الكلمة ولسائر الكلمات، وأكثر الخلق قدقيّدوا بالقشرين ومانظروا إلى اللّبّين وإلى اللّبّين الإشارة بقول النبيّ صلّى الله عليه وآله : «من قال :لا إله إلّا الله صادقاًمن قلبه مخلصاً وجبت له الجنّة»[1] و حيث اُطلق من غير ذكر الصّدق والإخلاص أراد بالمطلق المقيّد كما أضاف المغفرة إلى الإيمان والعمل الصالح في بعض المواقع ، وأضاف إلى مجرّد الإيمان في بعض المواضع والمراد به المقيّد بالعمل الصالح ، فالملك لا ينال بالحديث وحركة اللّسان حديث و عقد القلب أيضاً حديث و لكنّه حديث النفس ، و إنّما الصدق والإخلاص وراءهما ولاينصب سرير الملك إلّا للمقرّبين وهم المخلصون نعم لمن يقرب منهم في الرّتبة من أصحاب اليمين أيضاً درجات عند الله و إن كانت لاتنتهي إلى الملك أما ترى أنّ الله تعالى لمّا ذكر في سورة الواقعة المقرّبين السابقين تعرّض لسرير الملك فقال : «على سررموضونة ٭ متّكئين عليهامتقابلين»[2] ولمّا انتهى إلى أصحاب اليمين مازاد على ذكر

(١) أخرجه الطبراني من حديث زيد بن ارقم . (المغنى)

(٢) الواقعة : ١٦ و ١٧ .

الماء والظلّ والفواكه والأشجار والحور العين و كلّ ذلك من لذّات المنظور والمشروب والمأكول والمنكوح و يتصوّر ذلك للبهائم على الدّوام وأين لذّات البهائم من لذّات الملك والنزول في أعلى علّيّين في جوار ربّ العالمين ، ولو كان لهذه اللّذّات قدر لما وسعت على البهائم ولما رفعت عليها درجة الملائكة أفترى أنّ أحوال البهائم وهي مسيبة في الرّياض ، متنعّمة بالمياه و الأشجار و أصناف المأكولات ، متمتّعة بالنزوان و السفاد أعلى و ألذّ وأشرف و أجدر بأن تكون عند ذوي الكمال مغبوطة من أحوال الملائكة في سرورهم بالقرب من جوار الله في أعلى علّيّين ، هيهات هيهات ما أبعد عن التحصيل من إذا خيّر بين أن يكون حماراً أو يكون في درجة جبرئيل فيختار درجة الحمار على درجه جبرئيل ، و ليس يخفى أنّ شبه كلّ شيء منجذب إليه وأنّ النفس الّتي يكون نزوعها إلى صنعة الأساكفة[1] أكثر من نزوعها إلى صنعة الكتابة فهي بالأساكفة أشبه في جوهر ها منها بالكتّاب، و كذلك من كان نزوع نفسه إلى نيل لذّات البهائم فهو بالبهائم أشبه منه بالملائكة لامحالة و هؤلاء هم الّذين يقال فيهم اُولئك كالأنعام بل هم أضلّ و إنّما كانوا أضلّ لأنّ الأنعام ليس في قوّتها طلب درجة الملائكة فتركها ذلك للعجز ، وأمّا الإنسان ففي قوّته ذلك والقادر على نيل الكمال أحرى بالذّم و أجدر بالنسبة إلى الضّلال مهما تقاعد عن طلب الكمال ، و إذا كان هذا كلاماً معترضاً فلنرجع إلى المقصود فقد بيّنّا معنى قول : « لا إله إلّا الله » و معنى قول « لاحول ولا قوّة إلّا بالله » وأنّ من ليس قائلاً بهما عن مشاهدة فلا يتصوّر منه حال التوكّل .

فإن قلت : أليس في قولك « لاحول ولا قوّة إلّا بالله » إلّا نسبة شيئين إلى الله فلو قال : قائل السّماء والأرض خلق الله فهل يكون ثوابه مثل ثوابه ؟

فأقول : لا ، لأنّ الثواب على قدر درجة المثاب عليه ولا مساواة بين الدّرجتين ولا ينظر إلى عظم السّماء و الأرض وصغر الحول والقوّة و إن جاز وصفهما بالصّغر تجوّزاً فليست الاُمور بعظم الأشخاص ، بل كلّ عاميّ يفهم أنّ الأرض والسّماء ليس

(١) الاسكاف - بالكسر - : صانع الخفاف جمعه أساكفة .

من جهة الآدميّين بل من خلق الله فأمّا الحول والقوّة فقد أشكل أمرهما على المعتزلة والفلاسفة وطوائف كثيرة ممّن يدّعي أنّه يدقّق النظر في الرأي و المعقول حتّى يشقّ الشعر بحدّة نظره فهي مهلكة مخطرة ومزلّة عظيمه هلك فيها الغافلون إذا أثبتوا لأنفسهم أمراً وهوشرك في التوحيد و إثبات خلق لغيرالله فمن جاوز هذه العقبة بتوفيق الله إيّاه فقد علت رتبته وعظمت درجته و هو الّذي يصدق قول « لاحول ولا قوّة إلّا بالله » ، و قد ذكرناه أنّه ليس في التّوحيد إلّا عقبتان : إحداهما النظر إلى السّماء والأرض والشمس والقمر والغيم و المطر و سائر الجمادات ، والثانية النظر إلى اختيار الحيوانات وهي أعظم العقبتين وأخطرهما وكأنّه كمال سرّ التوحيد فلذلك عظم ثواب هذه الكلمة أعني ثواب المشاهدة الّتي هذه الكلمة ترجمتها فإذن رجع حاصل التوكّل إلى التبرّي من الحول والقوّة والتوكّل على الواحد الحقّ وسيتضح ذلك عند ذكرنا تفصيل أعمال التوكّل .

أقول : ثمّ ذكر أبوحامد فصلاً في بيان ما قاله الشيوخ في حال التوكّل و لما لم يكن فيه مزيد فائدة على ما حقّقه في معناه طويناه . قال :

✿(بيان أعمال المتوكلين)✿

إعلم أنّ العلم يورث الحال والحال يثمر الأعمال وقد يظنّ أنّ معنى التوكّل ترك الكسب بالبدن و ترك التدبير بالقلب والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة و اللّحم على الوضم و هذا ظنّ الجهّال فإنّ ذلك حرام في الشرع والشرع قد أثنى على المتوكّلين فكيف ينال مقام من مقامات الدّين بمحظورات الدّين بل نكشف الغطاء عن الحقّ فيه و نقول : إنّما يظهر تأثير التوكّل في حركة العبد و سعيه بعلمه إلى مقاصده و سعي العبد باختياره إمّا أن يكون لأجل جلب نافع هو مفقود عنده كالكسب أو لحفظ نافع هو موجود عنده كالادّخار أو لدفع ضارّ لم ينزل به كدفع الصائل و السّارق والسباع أو لإزالة ضارّ قد نزل به كالتّداوي من المرض ، فمقصود حركات العبد لا تعدو هذه الفنون الأربعة و هو جلب النافع أو حفظه أو دفع الضّارّ أو قطعه فلنذكر شروط التوكّل و درجاته في كلّ واحد منها مع شواهد الشرع .

الفن الأوّل في جلب النافع و نقول فيه: الأسباب الّتي بها يجلب النافع على ثلاث درجات مقطوعٌ به ومظنونٌ ظنّاً يوثق به وموهوم وهماً لاتثق النفس به ثقة تامّة ولا تطمئنّ إليه.

الدّرجة الاُولى المقطوع به و ذلك مثل الأسباب الّتي ارتبطت المسبّبات بها بتقدير الله ومشيّته ارتباطاً مطّرداً لا يختلف كما إذا كان الطعام موضوعاً بين يديك وأنت جائع محتاج ولكنّك لست تمدّ إليه اليد وتقول: أنا متوكّل وشرط التوكّل ترك السعي و مدّ اليد إليه سعيٌ و حركةٌ، و كذلك مضغه بالأسنان و ابتلاعه باطباق أعالي الحنك على أسافله، فهذا جنون محض وليس من التوكّل في شيء، فإنّك إن انتظرت أن يخلق الله فيك شبعاً دون الخبز أو يخلق في الخبز حركة إليك أو يسخر ملكاً ليمضغه و يوصله إلى معدتك فقد جهلت سنّة الله و كذلك لو لم تزرع الأرض فطمعت في أن يخلق الله تعالى نباتاً من غير بذر، أو تلد زوجتك من غير وقاع كما ولدت مريم، فكلّ ذلك جنون وأمثال هذا ممّا يكثر و لا يمكن إحصاؤه فليس التوكّل في هذا المقام بالعمل بل بالحال والعلم، أمّا العلم فهو أن تعلم أنّ الله خالق الطعام واليد و الأسنان وقوّة الحركة وأنّه يطعمك ويسقيك، وأمّا الحال فهو أن يكون سكون قلبك و اعتماده على فضل الله تعالى لا على اليد و الطعام و كيف تعتمد على صحّة يدك وربّما تجفّ في الحال و تفلج و كيف تعول على قدرتك و ربّما يطرأ عليك في الحال ما يزيل عقلك ويبطل قوّة حركتك و كيف تعول على حضور الطعام و ربّما يسلّط الله من يغلبك عليه أو يبعث حيّة تزعجك عن مقامك وتفرق بينك وبين طعامك وإذا احتمل أمثال ذلك و لم يكن لها علاج إلّا بفضل الله فبذلك فلتفرح وعليه فلتتوكّل و إذا كان هذا حاله وعلمه فيمدّ اليد إليه فإنّه متوكّل.

الدّرجة الثانية الأسباب الّتي ليست متيقّنة، لكنّ الغالب أنّ المسبّبات لاتحصل دونها وكان احتمال حصولها دونها بعيداً كالّذي يفارق الأمصار و القوافل ويسافر في البوادي الّتي لايطرقها الناس إلّا نادراً ولايكون سفره من غير استصحاب زاد فهذا ليس شرطاً في التوكّل بل استصحاب الزاد في البوادي سنّة الأوّلين ولا يزول التوكّل به

بعد أن يكون الاعتماد على فضل الله تعالى لا على الزّاد كما سبق ولكن فعل ذلك جائز وهو من أعلى مقامات التوكّل و لذلك كان يفعله الخواص .

فإن قلت : فهذا سعي في الهلاك و إلقاء النفس في التهلكة فاعلم أنّ ذلك يخرج من كونه حراماً بشرطين أحدهما أن يكون الرّجل قد راض نفسه وجاهدها وسوّاها على الصبر عن الطعام أسبوعاً فما يقاربه بحيث يصبر عنه من غير ضيق قلب وتشوّش خاطر و تعذّر في ذكر الله تعالى، والثاني أن يكون بحيث يقوى على التقوّت بالحشيش وما يتّفق له من الأشياء الخسيسة فبعد هذين الشرطين لا يخلو في غالب الأمر في البوادي في كلّ أسبوع عن أن يلقاه آدميّ أو ينتهي إلى حلّة أو قرية أو إلى حشيش يجتزي به فيحيى به مجاهداً نفسه ، و المجاهدة عماد التوكّل ، وعلى هذا كان يعوّل الخوّاص ونظراؤه من المتوكّلين ، و الدّليل عليه أنّ الخوّاص كان لا تفارقه الإبرة والمقراض والحبل والرّكوة ويقول : هذا لا يقدح في التوكّل و سببه أنّه علم أنّ البوادي لا يكون الماء فيها على وجه الأرض و ما جرت سنّة الله تعالى بصعود الماء من البئر بغير دلو ولا حبل ، ولا يغلب وجود الحبل و الدّلو في البوادي كما يغلب وجود الحشيش ، و الماء يحتاج إليه لوضوئه كلّ يوم مرّات و لعطشه في في كلّ يوم أو يومين مرّة فإنّ المسافر مع حرارة الحركة لا يصبر عن الماء وإن صبر عن الطعام و كذلك يكون له ثوب واحد وربّما ينخرق فينكشف عورته ولا يوجد المقراض و الإبرة في البوادي غالباً عند كلّ صلاة ولا يقوم مقامهما في الخياطة والقطع شيء ممّا يوجد في البوادي ، فكلّ ما في معنى هذه الأربعة أيضاً لا يلتحق بالدّرجة الأولى لأنّه مظنون ظنّاً لا يقطع به لأنّه يحتمل أن لا تنخرق الثوب أو يعطيه إنسان ثوباً أو يجد على رأس البئر من يسقيه و لا يحتمل أن يتحرّك الطعام ممضوغاً إلى فيه ، فبين الدّرجتين فرق ولكن الثاني في معنى الأوّل و لهذا نقول : لو انحاز إلى شعب من شعاب الجبال حيث لا ماء ولا حشيش ولا يطرقه طارق فيه وجلس متوكّلاً فهو آثم به ساع في إهلاك نفسه كما روي أنّ زاهداً من الزّهاد فارق الأمصار و أقام في سفح جبل وقال: لا أسأل أحداً شيئاً حتّى يأتيني ربّي برزقي فقعد سبعاً فكاد يموت ولم يأته رزق

فقال: ياربّ إن أحييتني فأتني برزقي الّذي قسمت لي و إلّا فاقبضني إليك فأوحى الله إليه وعزّتي وجلالي لا أرزقك حتّى تدخل الأمصار وتقعد بين الناس، فدخل المصر وأقام فجاءه هذا بطعام فأكل وشرب و أوجس في نفسه من ذلك فأوحى الله إليه أردتَ أن تذهب حكمتي بزهدك في الدُّنيا أما علمت أنّي أن أرزق عبدي بأيدي عبادي أحبُّ إليَّ من أن أرزقه بيد قدرتي، فإذن التباعد عن الأسباب كلّها مراغمة للحكمة وجهل بسنّة الله تعالى والعمل بموجب سنّة الله تعالى مع الاتّكال على الله دون الأسباب لا يناقض التوكّل كما ضربنا مثلاً في الوكيل بالخصومة من قبل، ولكنّ الأسباب تنقسم إلى ظاهرة وإلى خفيّة، فمعنى التوكّل الاكتفاء بالأسباب الخفيّة عن الأسباب الظاهرة مع سكون النفس إلى مسبّب الأسباب الخفيّة لا إلى السبب.

أقول: ليت شعري أيُّ مدخل في خفاء الأسباب و جلائها في التوكّل بعد ما تقرّر أنّ معناه الثقة بالله وحده لا بالأسباب فسواء وجود الأسباب و فقدها جلاؤها وخفاؤها مع أنّ من جاهد نفسه وسوّاها بحيث يصبر على الجوع الاُسبوع ويمكنه التقوُّت بالحشيش صارت الأسباب له جليّة فإنّ عدم الحاجة أحد الغناءين فإن كانت ثقته حينئذ على صبره وتمكّنه من التقوُّت بالحشيش فلا توكّل وإن كان إنّما يثق بالله وحده فليقم في البلد مع الأسباب الجليّة وليثق بالله دون الأسباب كما أمر الله به الزّاهد الّذي روى قصّته أبوحامد آنفاً.

قال: فإن قلت: القعود في البلد بغير كسب أهو حرامٌ أم مباح أو مندوب؟ فاعلم أنّ ذلك ليس بحرام لأنّ صاحب السياحة في البادية إذا لم يكن مهلكاً نفسه فهذا كيف كان مهلكاً نفسه حتّى يكون فعله حراماً، بل لا يبعد أن يأتيه الرِّزق من حيث لا يحتسب ولكن قد يتأخّر عنه والصبر ممكن إلى أن يتّفق، ولكن لو أغلق باب البيت على نفسه بحيث لا يترك طريقاً لأحد إليه ففعله ذلك حرام، و إن فتح باب البيت وهو بطّال غير مشغول بعبادة فالكسب والخروج له اُولى ولكن ليس فعله حراماً[1] إلى أن يشرف على الموت فعند ذلك يلزمه الخروج والسؤال أو الكسب، وإن

(١) بل صار ملعوناً لانه حينئذ كل على الناس.

كان مشغول القلب بالله غير مستشرف إلى الناس ولا متطلّع إلى من يدخل من الباب ليأتيه برزقه تطلّعة إلى فضل الله واشتغاله بالله فهذا أفضل وهو من مقامات التوكّل و هو أن يشتغل بالله ولا يهتمّ برزقه فإنّ الرّزق يأتيه لامحالة وعند هذا يصحّ ماقاله بعض العلماء وهو أنّ العبد لو هرب من رزقه لطلبه كما لو هرب من الموت لأدركه ، وإنّه لو سأل الله تعالى أن لا يرزقه لما استجاب له وكان عاصياً ، ولقال له : ياجاهل كيف أخلقك و لا أرزقك ، ولذلك قال ابن عباس : اختلف الناس في كلّ شيء إلّا في الرّزق و الأجل فإنّهم أجمعوا على أن لا رازق ولا مميت إلّا الله تعالى . وقال صلّى الله عليه وآله : «لو توكّلتم على الله حقّ توكّله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً و تروح بطاناً ولزالت بدعائكم الجبال»[1] وقال عيسى عليه السلام : «انظروا إلى الطير لا يزرع ولا يحصد ولا يدّخر والله تعالى يرزقها يوماً يوماً » فإن قلتم : نحن أكبر بطوناً فانظروا إلى الأنعام كيف قيّض الله لها خلق.

أقول: لعلّ أباحامد إنّما أورد أمثال هذه الأخبار والأقوال ليردّ أهل الحرص إلى الاعتدال وإلّا فلا ريب أنّ الإنسان مكلّف بطلب الرّزق بالأسباب الّتي هداه الله إليها من زراعة أو تجارة أو صناعة أو غير ذلك ممّا أحلّه الله و كما أنّ الصلاة والصيام و الحجّ عبادات كلّف الله بها عباده يتقرّبون بها إليه كذلك طلب الرّزق الحلال عبادة كلّفهم الله به ليتقرّبوا به إليه ولكنّه سبحانه كلّفهم أيضاً بأن لا يثقوا إلّا به تعالى لا بملابستهم الأسباب كما أنّه كلّفهم الله بأن لا يتّكلوا على أعمالهم الحسنة بل بفضل الله . قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : «العبادة سبعون جزءاً أفضلها طلب الحلال »[2] «وأوحى الله إلى داود عليه السلام إنّك نعم العبد لولا أنّك تأكل من بيت المال ولا تعملنّ بيدك شيئاً فبكى داود أربعين صباحاً فألان الله له الحديد»[2] والأنبياء وأئمّة الهدى سلام الله -

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ج ٤ ص ٣١٨ وأحمد بدون قوله : «ولزالت بدعائكم الجبال » و رواه محمد بن نصر بهذه الزيادة وأدنى اختلاف في كتاب تعظيم قدر الصلاة من حديث معاذ بن جبل .

(٢) الكافي ج ٥ ص ٧٨ تحت رقم ٦ .

(٢) الكافي ج ٥ ص ٧٤ تحت رقم ٥ .

عليهم كانوا يعملون بأيديهم في طلب الرّزق كما مرّ في كتاب أحكام الكسب ولو كان ترك الكسب خيراً لكانوا أولى به .

قال الصادق عليه السلام : « ليس منّا من ترك دنياه لآخرته ولا آخرته لدنياه »(١).

وسأل عليه السلام عن رجل فقيل : أصابته الحاجة قال : فما يصنع اليوم ؟ قيل : في البيت يعبد ربّه ، فقال: من أين قوته ؟ قيل : من عند بعض إخوانه فقال عليه السلام : والله الّذي يقوته أشدّ عبادة منه (٢).

وقال له رجلٌ: «لأقعدنّ في بيتي ولأُصلينّ ولأُصومنّ ولأعبدنّ ربّي فأمّا رزقي فيسيأتيني فقال عليه السلام : هذا أحد الثلاثة الّذين لا يستجاب لهم» (٣).

و الأخبار في هذا المعني أكثر من أن تحصى ، و قد روى أبو حامد أيضاً طرفاً منها في مواضعها و إنّما خبل عقله و كياسته في أمثال هذا المقام لحسن ظنّه بالسلف وزعمه أنّ ما انتهى إليه من أفعال متقشّفتهم صحيح وأنّهم قدوة وقد أخطأ في الجميع .

قال: الدّرجة الثالثة ملابسة الأسباب الّتي يتوهّم إفضاؤها إلى المسبّبات من غير ثقة ظاهرة كالّذي يستقصي في التّدبيرات الدّقيقة في تفصيل الاكتساب و وجوهه فذلك يخرج بالكلّيّة عن درجات التوكّل كلّها ، و هو الّذي فيه الناس كلّهم أعني من يكتسب بالحيل الدّقيقة اكتساباً مباحاً لمال مباح فأمّا أخذ الشبهة أو الاكتساب بطريق فيه شبهة فذلك غاية الحرص على الدّنيا والاتّكال على الأسباب فلا يخفى أنّ ذلك يبطل التوكّل وهي مثل الأسباب الّتي نسبتها إلى جلب المنافع مثل نسبة الرّقية و الطيرة و الكيّ بالإضافة إلى إزالة الضّارّ ، فإنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وصف المتوكّلين بذلك ولم يصفهم بأنّهم لا يكتسبون ولا يجلسون في الأمصار و لا يأخذون من أحد شيئاً ، بل وصفهم بأنّهم يتعاطون هذه الأسباب ، وأمثال هذه الأسباب الّتي لا يوثق

(١) الفقيه باب المعايش والمكاسب ص ٣٥١ تحت رقم ٢ .

(٢) الكافي ج ٥ ص ٧٨ تحت رقم ٤ .

(٣) التهذيب ج ٦ كتاب المكاسب باب المكاسب تحت رقم ٨ عن الكليني (ره) و رواه هو في الكافي ج ٥ ص ٧٧ تحت رقم ١ عن الصادق عليه السلام .

بها في المسبّبات ممّا يكثر فلا يمكن إحصاؤها و قال سهل في التوكّل : إنّه ترك التدبير ، وقال : إنّ الله خلق الخلق و لم يحجبهم عن نفسه وإنّما حجابهم تدبيرهم . و لعلّه أراد به استنباط الأسباب البعيدة بالفكر فهي الّتي تحتاج إلى التدبير دون الأسباب الجليّة فإذن قد ظهر أنّ الأسباب منقسمة إلى ما يخرج التعلّق بها عن التوكّل وإلى ما لا يخرج وأنّ الّذي لا يخرج ينقسم إلى مقطوع به وإلى مظنون و أنّ المقطوع به لا يخرج عن التوكّل عند وجود حال التوكّل و علمه و هو الاتّكال على مسبّب الأسباب فالتوكّل فيها بالحال والعلم لا بالعمل ، فأمّا المظنونات فالتوكّل فيها بالحال والعلم والعمل جميعاً .

أقول : أراد بالعمل الاكتفاء بالأسباب الخفيّة عن الأسباب الظاهرة مع سكون النفس إلى مسبّب الأسباب كما قاله فيما قبل وقد عرفت ما فيه من الخطأ ، ثمّ ذكر درجات مقامات المتوكّلين في ملابسة هذه الأسباب و بسط الكلام فيه بما لا طائل تحته ولا سيّما بعد ما سمعت منّا ، ثمّ قال : فإن قلت : فالأفضل أن يقعد في بيته أو يخرج ويكتسب ؟ فاعلم أنّه إذا كان يتفرّغ بترك الكسب لفكر و ذكر وإخلاص واستغراق وقت بالعبادة وكان الكسب يشوّش عليه ذلك وهو مع هذا لا تستشرف نفسه إلى الناس في انتظار من يدخل فيحمل إليه شيئاً بل يكون قويّ القلب في الصبر والاتّكال على الله فالقعود له أولى وإن كان يضطرب قلبه في البيت ويستشرف إلى النّاس فالكسب له أولى لأنّ استشراف القلب إلى الناس سؤال بالقلب وتركه أهمّ من ترك الكسب و ما كان المتوكّلون يأخذون ما تستشرف إليه نفوسهم .

أقول : بل الكسب أفضل له على التقديرين لأنّ قعوده في البيت تعرّض للذّل فإنّه إن لم يسأل الناس بقلبه و لسانه فقد سألهم بحاله مع أنّه ترك أفضل العبادة رأساً و ربّما يصير على الناس كلّاً وبأساً و أنّى له ذلك وقد عاتب الله تعالى داود عليه السلام على أكله من بيت المال(١) كما مرّ ذكره قال الصادق عليه السلام : « إن استطعت أن لا تكون كلّاً على الناس فافعل »(٢).

(١) تقدم عن الكافي ج ٥ ص ٧٤ تحت رقم ٥ .
(٢) الكافي ج ٥ ص ٧٩ تحت رقم ٩ .

وقال: « قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ملعون من ألقى كلّه على الناس »[1].

و قال أمير المؤمنين عليه السلام:

لنقل الصّخر عن قلل الجبال ❁ أعزّ اليّ من منن الرّجال
يقول الناس لي في الكسب عار ❁ فقلت العار في ذلّ السّؤال[2]

قال أبو حامد: فإنّ المكتسب إذا راعى آداب الكسب و شروط نيّته كما سبق في كتاب الكسب و لم يقصد الاستكثار و لم يكن اعتماده على بضاعته و كفايته كان متوكّلاً، فإن قلت: فما علامة عدم اتّكاله على البضاعة و الكفاية؟ فأقول: علامته أنّه إن سرقت بضاعته أو خسرت تجارته أو يعوق أمر من اُموره كان راضياً به ولم يبطل طمأنينته ولم يضطرب قلبه بل كان حال قلبه في السكون قبله و بعده واحداً، فإنّ من لم يسكن إلى شيء لم يضطرب لفقده ومن اضطرب لفقد شيء فقد سكن إليه، و مالم يكمل الإيمان بأن لا فاعل إلّا الله ولا رازق سواه وبأنّ كلّ ما يقدّره على العبد من فقر وغنى و موت وحياة فهو خير له ممّا يتمنّاه العبد لنفسه لم يكمل حال المتوكّل فبناء التوكّل على قوّة الإيمان بهذه الاُمور كما سبق و كذا سائر مقامات الدّين من الأحوال والأعمال تبتني على اُصولها من الإيمان، وبالجملة التوكّل مقام مفهوم ولكن يستدعي قوّة القلب و قوّة اليقين.

فإن قلت: فهل من دواء ينتفع به في صرف القلب عن الرّكون إلى الأسباب الظاهرة وحسن الظنّ بالله تعالى في تيسير الأسباب الخفيّة؟ فأقول: نعم أن تعرف أنّ سوء الظنّ تلقين الشيطان، و حسن الظنّ تلقين الله، قال الله تعالى: « الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً »[3] فالإنسان بطبعه مشعوفٌ بسماع تخويف الشّيطان ولذلك قيل: الشفيق بسوء الظنّ مولع وإذا انضمّ إليه الجبن و ضعف القلب و مشاهده المتّكلين على الأسباب الظاهرة والباعثين عليها

(١) المصدر ج ٥ ص ٧٢ تحت رقم ٧.

(٢) ديوان المنسوب اليه عليه السلام حرف اللام.

(٣) البقرة: ٢٦٨.

غلب سوء الظنّ وبطل التوكّل بالكلّيّة ، بل رؤية الرزق من الأسباب الخفيّة أيضاً تبطل التوكّل فقد حكي عن عابد أنّه عكف في مسجد ولم يكن له معلوم فقال له: إمام المسجد لو اكتسبت لكان أفضل لك فلم يجبه حتّى أعاد القول ثلاثاً فقال له في الرّابعة: يهوديّ في جوار المسجد قد ضمن لي كلّ يوم رغيفين فقال : إن كان صادقاً في ضمانه فعكوفك في المسجد خيرٌ لك فقال : يا هذا لولم تكن إماماً تقف بين الله و بين العباد مع هذا النقص في التوحيد كان خيراً لك إذ فضّلت وعد يهوديّ على ضمان الله في الرّزق . و قال : إمام مسجد لبعض المصلّين من أين تأكل فقال : يا شيخ اصبر حتّى اُعيد الصلاة الّتي صلّيتها خلفك ثمّ اُجيبك .

أقول : قد عرفت أنّ الله سبحانه كما ضمن الرّزق كذلك أمر بالطلب وملابسة الأسباب ثمّ لايخفى مافي جواب هذين الرّجلين من الرّعونة وإدّعائهما مقاماً عالياً من التوكّل و تعجّبهما أن يسأل مثلهما عن سبب رزقه ثمّ أيّ منافاة بين إمامة الصّلاة والسّؤال عن حال رجل مجهول ينادي ظاهره بالبؤس والبأس وأنّه كلّ على الناس بل ضاربٌ على قلوبهم و بواطنهم في اللّباس أنّه من أيّ الجهات والأسباب يرزقه الله .

قال أبوحامد : و ينفع في حسن الظنّ بمجيء الرّزق من لطف الله بواسطة الأسباب الخفيّة أن يسمع الحكايات الّتي فيها عجائب صنع الله في وصول الرّزق إلى صاحبه و فيها عجائب قهر الله في إهلاك أموال التّجار والأغنياء و قتلهم جوعاً كما روي عن حذيفة المرعشي وكان قد خدم إبراهيم بن أدهم فقيل له : ما أعجب مارأيت منه قال : لبثنا في طريق مكّة أيّاماً لم نجد طعاماً ،ثمّ دخلنا الكوفة فأوينا إلى مسجد خراب فنظر إليّ إبراهيم و قال : ياحذيفة أرى بك أثر الجوع ، فقلت : هو كمارأى الشيخ فقال : ائتني بدواة و قرطاس فجئت بهما فكتب بسم الله الرّحمن الرّحيم أنت المقصود بكلّ حال والمشار إليه بكلّ معنى .

أنا حامد أنا شاكر أنا ذاكر ✿ أنا جائع أنا ضائع أنا عاري
هي ستّة و أنّا الضمين لنصفها ✿ فكن الضمين لنصفها يا باري
مدحي لغيرك لهب نار خضتها ✿ فأجر عبيدك من دخول النار

ثمّ دفع إليّ الرّقعة و قال : اُخرج ولا تعلّق قلبك بغير الله و ادفع الرّقعة إلى أوّل من يلقاك ، فخرجت فأوّل من لقيني كان رجلاً على بغلة فناولته الرّقعة فأخذها و نظر فيها وبكى وقال : ما فعل صاحب هذه الرّقعة فقلت : هو في المسجد الفلاني فدفع إليّ صرّة فيها ستّمائة دينار ثمّ لقيت رجلاً آخر فسألته عن راكب البغلة فقال : هذا نصرانيٌّ فجئت إلى إبراهيم وأخبرته بالقصّة فقال : لاتمسّها فإنّه يجيىء الساعة فلمّا كان بعد ساعة دخل النصرانيّ علينا فأكبّ على رأس إبراهيم فقبّله و أسلم . ثمّ ذكر أبو حامد حكايات غريبة و روايات عجيبة من هذا القبيل .

أقول : إن صحّت تلك الوقائع فهي مخصوصة بطوائف بلغوا من الرّياضة حدًّا لا يبلغ إليه من ألف ألف إلّا واحد أو اثنان ثمّ بعد يبقى النظر في أنّه هل هو محمود أم لا ولا يجوز تكليف عامّة الناس بذلك من غير إذن من الشرع ولا إذن بل ورد الأمر بخلافه .

ثمّ أخذ أبو حامد في بيان توكّل المعيل و الفرق بينه و بين المنفرد و بسط القول فيه بما لاطائل تحته واشترط في صحّة توكّل المنفرد أن يطيب نفساً بالموت إن لم يأته رزقه علماً بأنّ رزقه الموت والجوع ، قال : وهو وإن كان نقصاناً في الدّنيا فهو زيادة في الآخرة فيرى أنّه سبق إليه خير الرّازقين له وهو رزق الآخرة و أنّ هذا هو المرض الّذي يموت به فيكون راضياً بذلك وأنّه كذا قضى و قدّر فبهذا يتمّ التوكّل .

أقول : لا يخفى فساد هذا القول فإنّ توطين النفس على الموت اختياراً منهيّ عنه شرعاً فإنّه تعزير بالنّفس وتعرّض للهلاك قال الله تعالى : « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » (١).

ثمّ قال : بل التحقيق أنّه لافرق بينه و بين عياله فإنّه إن ساعده العيال على الصبر على الجوع مدّة و على الاعتداد بالموت على الجوع رزقاً وغنيمة في الآخرة فله أن يتوكّل في حقّهم ، ونفسه أيضاً عيال عنده ولا يجوز له أن يضيّعها إلّا بأن تساعده على الصبر مع الجوع مدّة فإن كان يطيقه ويضطرب عليه قلبه ويتشوّش عبادته لم يجز

(١) البقرة : ١٩٥ .

له التوكّل .

ثمّ قال : و قدانكشف لك من هذا أنّ التوكّل ليس انقطاعاً عن الأسباب بل الاعتماد على الصبر على الجوع مدّة والرّضا بالموت إن تأخّر الرّزق نادراً وملازمة الأمصار و البلاد أوملازمة البوادي الّتي لا تخلو من حشيش وما يجري مجراه فهذه كلّها أسباب البقاء ولكن مع نوع من الأذى لايمكن الاستمرار عليه إلّا بالصبر إلّا أنّ الناس عدلوا إلى أسباب أظهر منها فلم يعدّوا ذلك أسباباً لضعف إيمانهم و شدّة حرصهم وقلّة صبرهم على الأذى في الدّنيا لأجل الآخرة وجبن قلوبهم .

أقول: بل التوكّل ليس إلّا الاعتماد على الله تعالى و مباشرة الأسباب جليّة كانت أو خفيّة من دون اعتماد عليها كما عرفت ، ثمّ بعد كلام كثير من هذا القبيل ضرب مثالاً لأحوال المتوكّلين في التعلّق بالأسباب موافقاً لما بنى عليه كلامه في التوكّل ولمّا لم يكن في ذكر أمثال هذه الترّهات والتعرّض لها فائدة طويناها وضربنا عنها صفحاً و اكتفينا بما حقّقنا سابقاً مطابقاً لما استفدناه من أئمّة الهدى سلام الله عليهم .

☼(الفن الثانى فى التعرض لاسباب الادخار)☼

فمن حصل له مال بإرث أو كسب أوسؤال أو سبب من الأسباب فله في ادّخاره ثلاثة أحوال : الاُولى أن يأخذ قدر حاجته في الوقت فيأكل إن كان جائعاً ويلبس إن كان عارياً ويشتري مسكناً مختصراً إن كان محتاجاً إليه ويفرق الباقي في الحال أولا يأخذه و لايدّخره إلّا القدر الّذي يدرك به من يستحقّه و يحتاج إليه فيدّخره على هذه النيّة فهذا هو الوفاء بموجب التوكّل تحقيقاً وهي الدّرجة العليا .

الحالة الثانية والدّرجة المقابلة لهذه المخرجة له عن حدود التوكّل أن يدّخر لسنة فما فوقها فهذا ليس من المتوكّلين أصلاً ، فقد قيل لا يدّخر من الحيوانات إلّا ثلاثة: الفارة ، والنملة ، وابن آدم .

الحالة الثالثة و الدّرجة الوسطى أن يدّخر لأربعين يوماً فما دونه فهذه هل يوجب حرمانه عن المقام المحمود الموعود في الآخرة للمتوكّلين ؟ اختلفوا فيه .

أقول : ثمّ ذكر أبو حامد اختلاف الناس في مدّة الادّخار المنافي للتوكّل

وتفاوت الناس في قصر الأمل وطوله وبسط الكلام في ذلك بما لاطائل تحته.

ثمّ قال: وليس الكوز و السفرة و ما يحتاج إليه على الدّوام في معنى ذلك فادّخاره لاينقص الدّرجة و أمّا ثوب الشتاء فلايحتاج إليه في الصيف و هذا في حقّ من لاينزعج قلبه بترك الادّخار و لا يستشرف نفسه إلى أيدي الخلق بل لا يلتفت قلبه إلّا إلى الوكيل الحقّ، فإن كان يستشعر في نفسه اضطراباً يشغل قلبه عن العبادة والذّكر والفكر فالادّخار له أولى بل لو أمسك ضيعة يكون دخلها وافياً بقدر كفايته وكان لايتفرّغ قلبه إلّا به فذلك له أولى لأنّ المقصود إصلاح القلوب ليتجرّد لذكر الله، وربّ شخص يشغله وجود المال وربّ شخص يشغله عدمه، والمحذور ما يشغله عن الله وإلّا فالدّنيا في عينها غير محذورة لا وجودها ولاعدمها، ولذلك بعث رسول الله صلّى الله عليه وآله إلى أصناف الخلق وفيهم التجّار والمحترفون و أهل الحرف و الصناعات فلم يأمر التاجر بترك تجارته ولا المحترف بترك حرفته ولا أمر التارك لهما بالاشتغال بهما بل دعا الكلّ إلى الله وأرشدهم إلى فوزهم ونجاتهم في انصراف قلوبهم عن الدّنيا إلى الله و عمدة الاشتغال بالله تعالى هو القلب فصواب الضعيف ادّخار قدر حاجته كما أنّ صواب القويّ ترك الادّخار، وهذا كلّه حكم المنفرد فأمّا المعيل فلايخرج عن حدّ التوكّل بادّخار قوت سنة لعياله جبراً لضعفهم وتسكيناً لقلوبهم وادّخار أكثر من ذلك مبطل للتوكّل لأنّ الأسباب تتكرّر عند تكرّر السنين فادّخار ما يزيد عليه سببه ضعف القلب، وذلك يناقض قوّة التوكّل، فالمتوكّل عبارة عن موحّد قويّ القلب مطمئنّ النفس إلى فضل الله تعالى واثق بتدبيره دون وجود الأسباب الظاهرة و قد ادّخر رسول الله صلّى الله عليه وآله لعياله قوت سنة(١)، ونهى أمّ أيمن وغيرها عن أن تدّخر شيئاً لغد(٢) و كان عليه السلام لو ادّخر لم ينقص ذلك من توكّله إذ كان لا يثق بما ادّخره ولكنّه ترك ذلك تعليماً للأقوياء من اُمّته فإنّ أقوياء اُمّته ضعفاء بالإضافة إلى قوّته و ادّخر لعياله سنة لالضعف قلب فيه وفي عياله ولكن ليسنّ ذلك للضعفاء من اُمّته

---

(١) أخرجه الترمذي من حديث أنس و قد تقدم.

(٢) قد تقدم و راجع مسند أحمد ج ٦ ص ٢٩٣ من حديث أم سلمة.

ثمّ أخبر « انّ الله يحبّ أن تؤتى رخصه كما يحبّ أن تؤتى غرائمه » (١) تطييباً لقلوب الضعفاء حتّى لاينتهي بهم الضعف إلى اليأس و القنوط فيتركون الميسور من الخير عليهم بعجزهم عن منتهى الدّرجات فما أرسل صلّى الله عليه وآله وسلّم إلّا رحمة للعالمين كلّهم على اختلاف أصنافهم ودرجاتهم فإذا فهمت هذا علمت أنّ الادّخار قد يضرّ بعض الناس وقد لا يضرّ .

(الفن الثالث في مباشرة الاسباب الدافعة للضرر المتعرض للخوف)

اعلم أنّ الضرر قد يتعرّض للخوف في نفس أومال و ليس من شروط التوكّل ترك الأسباب الدّافعة رأساً أمّا في النفس فكالنوم في الأرض المسبعة أو في مجرى السيل من الوادي أوتحت الجدار المائل أو السقف المنكسر فكلّ ذلك منهيّ عنه و صاحبه قد عرض نفسه للهلاك بغير فايدة ، نعم تنقسم هذه الأسباب إلى مقطوع بها و إلى مظنون و إلى موهوم فترك الموهوم منها من شرط التوكّل و هي الّتي نسبتها إلى دفع الضرر نسبة الكيّ والرّقية فإنّ الكيّ والرّقية قد يقدّم على المحذور دفعاً لما يتوقّع ، فقد يستعمل بعد نزول المحذور للإزالة و رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم لم يصف المتوكّلين إلّا بترك الكيّ والرّقية والطيرة ولم يصفهم بأنّهم إذا خرجوا إلى موضع بارد لم يلبسوا جبّة والجبّة تلبس دفعاً للبرد المتوقّع و كذلك كلّ مافي معناها من الأسباب ، نعم الاستظهار بأكل الثوم مثلاً عند الخروج للسفر في الشتاء تهييجاً لقوّة الحرارة من الباطن ربما يكون من قبيل التعمّق في الاسباب والتعويل عليها فيكاد يقرب من الكيّ بخلاف الجبّة و لترك الأسباب الدّافعة و إن كانت مقطوعة بها وجه إذا نال الضرر من إنسان فإنّه إذا أمكنه الصبر وأمكنه الدّفع والتشفّي فشرط التوكّل الاحتمال والصبر قال تعالى : « فاتّخذه و كيلاً واصبر على مايقولون » (٢) و قال : « و لنصبرنّ على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكّل المتوكّلون » (٣) و قال : « ودع أذيهم و توكّل على الله (٤) » و قال : « فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرّسل » (٥) وقال :

---

(١) أخرجه أحمد و البيهقي من حديث ابن عباس وعن ابن مسعود بسند ضعيف كما في الجامع الصغير .

(٢) المزمل : ١٠ . (٣) ابراهيم : ١٢ .

(٤) الاحزاب : ٤٨ . (٥) الاحقاف : ٣٥.

« نعم أجر العاملين الّذين صبروا و على ربّهم يتوكّلون »[١] و هذا في أذى النّاس ، وأمّا الصبر على أذى السباع و الحيّات والعقارب و ترك دفعها ليس من التوكّل في شيء إذلا فائدة فيه ولا يراد السعي ولا ترك السعي لعينه بل لإعانته على الدّين وترتّب الأسباب ههنا كترتّبها في الكسب وجلب المنافع فلانطول بالإعادة ، و كذلك في الأسباب الدافعة عن المال فلاينقص التوكّل بإغلاق باب البيت عند الخروج ولا بأن يعقل البعير لأنّ هذه الأسباب عرفت بسنّة الله تعالى إمّا قطعاً وإمّا ظنّاً ولذلك قال صلّى الله عليه وآله وسلّم للاعرابي لما أن أهمل البعير و قال : توكّلت على الله . فقال : « أعقلها و توكّل »[٢] و قال تعالى : « خذو احذركم »[٣] وقال في كيفيّة صلاة الخوف : « وليأخذوا حذرهم و أسلحتهم »[٤] و قال : « واعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة و من رباط الخيل »[٥] و قال لموسى عليه السلام « فاسر بعبادي ليلاً »[٦] والتحصين باللّيل اختفاء عن أعين الأعداء ونوع تسبّب واختفى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم في الغار اختفاءً عن أعين الأعداء دفعاً للضرر. وأخذ السلاح في الصلاة فليس دافعاً قطعاً كقتل الحيّة والعقرب فإنّه يكون دافعاً قطعاً و لكن أخذ السلاح سببٌ مظنونٌ وقد بيّنا أنّ المظنون كالمقطوع به ، و إنّما الموهوم هو الّذي يقتضي التوكّل تركه .

فان قلت : فقد حكي عن جماعة أنّ الأسد وضع يديه على كتفيه ولم يتحرّك ؟ فأقول : و قد حكي عن جماعة أنّهم ركبوا الأسد وسخّروه ولاينبغي أن يعول على ذلك فإنّه و إن كان صحيحاً في نفسه فلا يصلح الاقتداء بطريق التعلّم من الغير بل ذلك مقام رفيع في الكرامات و ليس ذلك شرطاً في التوكّل و فيه أسرار لاتقف عليها ما لم تنته إليها .

فإن قلت : وهل من علامة أعلم بها أنّي قد وصلت إليها ؟ فأقول : الواصل لا يحتاج إلى طلب العلامات و لكن من العلامات السابقة عليه أن يسخّر لك كلب

---

(١) النحل : ٤١ و ٤٢ .
(٢) رواه الترمذى من حديث أنس .
(٣) النساء : ٧١ .
(٤) النساء : ٧٢ .
(٥) الانفال : ٦٠.
(٦) الدخان : ٢٣ .

هو معك في إهابك يسمّى الغضب فلا يزال يعضّك و يعضّ غيرك فإن سخّر لك هذا الكلب بحيث إذا هيّج وأشلي لم يستشل إلّا باشارتك و كان مسخّراً لك فربّما ترتفع درجتك إلى أن يسخّر لك الأسد الّذي هو ملك السباع و كلب دارك أولى بأن يكون مسخّراً لك من كلب البوادي وكلب اهابك أولى بأن يتسخّر لك من كلب دارك فإن لم يسخّر لك الكلب الباطن فلا تطمع في استسخار الكلب الظاهر.

فان قلت: فإذا أخذ المتوكّل سلاحه حذراً من العدوّ و أغلق بابه حذراً من اللّصّ وعقل بعيره حذراً من أن ينطلق فبأيّ اعتبار يكون متوكّلاً.

فأقول: يكون متوكّلا بالعلم والحال فأمّا العلم فهو أن يعلم أنّ اللّصّ إن اندفع لم يندفع بكفايته في إغلاق الباب بل لم يندفع إلّا بدفع الله تعالى إيّاه فكم من باب يغلق ولا ينفع و كم من بعير يعقل و يموت أو ينفلت و كم من أخذ سلاح يغلب و يقتل فلا تتّكل على هذه الأسباب أصلاً بل على مسبّب الأسباب كما ضربنا المثل في الموكّل بالخصومة، فإنّه و إن حضر و أحضر السجلّ فلا يتّكل على نفسه و على سجلّه بل على كفاية الوكيل وقوّته، و أمّا الحال فهو أن يكون راضياً بما يقضي الله به في بيته و نفسه ويقول: اللّهمّ إن سلّطت عليّ ما في البيت من يأخذه فهو في سبيلك وأنا راض بحكمك فإنّي لاأدري أنّ ما أعطيتني هبة فلاتسترجعها أوعارية أو وديعة فتستردّها ولا أدري أنّها رزقي أوسبقت مشيّتك في الأزل بأنّه رزق غيري و كيف ما قضيت فأنا راض به و ما أغلقت الباب تحصّناً من قضائك وتسخّطاً له بل جرياً على مقتضى سنّتك في ترتيب الأسباب فلاثقة إلّا بك يامسبّب الأسباب، فإذا كان هذا حاله وذلك الّذي ذكرناه علمه لم يخرج عن حدود التوكّل بعقل البعير و أخذ السلاح وإغلاق الباب، ثمّ إذا عاد فوجد ما في البيت فينبغي أن يكون ذلك عنده نعمة جديدة من الله و إن لم يجده بل وجده مسروقاً نظر إلى قلبه، فإن وجده راضياً أو فرحاً بذلك عالماً بأنّه ما أخذ الله تعالى ذلك منه إلّا ليزيد رزقه في الآخرة فقد صحّ مقامه في التوكّل وظهر له صدقه، و إن تألّم قلبه به و وجد قوّة الصبر فقد بان له أنّه ما كان صادقاً في دعوى التوكّل لأنّ التوكّل مقام بعد الزّهد ولايصحّ الزّهد إلّا ممّن لا يتأسّف على مافات

من الدّنيا ولايفرح بما يأتي بل قد يكون على العكس منه فكيف يصحّ له التوكّل نعم قد صحّ له مقام الصبر إن أخفاه و لم يظهر شكواه و لم يكثر سعيه في الطلب والتجسّس و إن كان لا يقدر على ذلك حتّى تأذّى بقلبه و أظهر الشكوى بلسانه و استقصى الطلب بنفسه فقدكانت السرقةمزيداً له فيذنبه من حيث أنّها ظهر له قصوره عن جميع المقامات و كذبه في جميع الدّعاوي فبعد هذا ينبغي أن يجتهد حتّىلايصدق نفسه فيدعاويها ولايتدلّى بحبل غرورها فإنّها خدّاعة أمّارة بالسوء ومدّعية للخير.

فإن قلت: فكيف يكون للمتوكّل مال حتّى يؤخذ؟ فأقول: المتوكّل لايخلو بيته عن متاع كقصعة يأكل فيها و كوز يشرب منه و إناء يتوضّأ منه وجراب يحفظ به زاده و عصا يدفع به عدوّه وغيرذلك من ضرورات المعيشة من أثاث البيت وقديدخل في يده مال وهو يمسكه ليجد محتاجاً فيصرفه إليه فلايكون ادّخاره على هذه النيّة مبطلاً لتوكّله وليس من شرط التوكّل إخراج الكوز الّذي يشرب منه و الجراب الّذي فيه زاده و إنّما ذلك في المأكول و في كلّ مال زائد على قدر الضرورة لأنّ سنّة الله جارية بوصول الخير إلى الفقراء المتوكّلين في زوايا المساجد و ما جرت السنّة بتفرقة الكيزان والأمتعة في كلّ يوم ولا في كلّ اُسبوع والخروج عن سنّة الله ليس شرطاً في التوكّل.

فإن قلت: فكيف يتصوّر أن لايحزن إذا اُخذ متاعه الّذي هو محتاج إليه ولا يتأسّف عليه فإن كان لايشتهيه فلم أمسكه وأغلق الباب عليه وإن أمسكه لأنّه يشتهيه لحاجته إليه فكيف لايتأذّى ولايحزن وقد حيل بينه وبين ما يشتهيه؟ فأقول: إنّما كان يحفظه ليستعين به على دينه إذا كان يظنّ أنّ الخيرة له في أن يكون له ذلك المتاع و لولا أنّ الخيرة له فيه لما رزقه الله ولما أعطاه فاستدلّ على ذلك بتيسير الله و حسن الظنّ بالله مع ظنّه أنّ ذلك معين له على أسباب دينه و لم يكن ذلك عنده مقطوعاً به إذ يحتمل أن يكون خيرته في أن يبتلى بفقد ذلك حتّى ينصب في تحصيل غرضه ويكون ثوابه في النصب والتعب أكثر، فلمّا أخذه الله منه بتسليط اللّصّ ما تغيّر قلبه لأنّه فيجميع الأحوال واثق بالله حسن الظنّ به فيقول: لولا أنّ الله تعالى

علم أنّ الخيرة لي كانت في وجودها إلى الآن والخيرة لي الآن في عدمها لما أخذها منّي وبمثل هذا يتصوّر أن يندفع الحزن عنه إذ به يخرج عن أن يكون فرحه بالأسباب من حيث أنّها أسباب بل من حيث أنّه يسّرها مسبّب الأسباب عناية به و تلطّفاً و هو كالمريض بين يدي الطبيب الشفيق يرضى بما يفعله فإن قدّم إليه الغذاء فرح وقال: لولا أنّه عرف أنّ الغذاء ينفعني وقد قويت على احتماله لما قدّمه إليّ و إن أخّر عنه الغذاء بعد ذلك أيضاً فرح و قال: لولا أنّ الغذاء يضرّني و يسوقني إلى الموت لماحال بيني وبينه، و كلّ من لا يعتقد في لطف الله ما يعتقده المريض في الوالد المشفق الحاذق بعلم الطبّ فلا يصحّ منه التوكّل أصلاً و من عرف الله و عرف أفعاله و عرف سنّته في إصلاح عباده لم يكن فرحه بالأسباب فإنّه لا يدري أيّ الأسباب خيرٌ له و كذلك ينبغي أن لا يبالي المتوكّل بسرقة متاعه أو ببقائه فإنّه لا يدري أيّهما خيرٌ له في الدّنيا و في الآخرة، فكم من متاع في الدّنيا يكون سبب هلاك الإنسان و كم من غني يبتلى بواقعة لأجل غناه يقول: ياليتني كنت فقيراً.

أقول: ثمّ ذكر أبو حامد آداب المتوكّلين إذا سرق متاعهم ولمّا لم يكن لها كثير فائدة ولاخصوص مناسبة لباب التوكّل طويناها.

﴿الفن الرابع السعي في ازالة الضرر كمداواة المرض وغيرها﴾

إعلم أنّ الأسباب المزيلة للضرر أيضاً تنقسم إلى مقطوع به كالماء المزيل لضرر العطش والخبز المزيل لضرر الجوع و إلى مظنون كالفصد والحجامة وشرب المسهل و سائر أبواب الطبّ أعني معالجة البرودة بالحرارة ومعالجة الحرارة بالبرودة وهي الأسباب الظاهرة في الطبّ و إلى موهوم كالكيّ و الرّقية أمّا المقطوع به فليس من التوكّل تركه بل تركه حرام عند خوف الموت، و أمّا الموهوم فشرط التوكّل تركه إذ به وصف رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم المتوكّلين وأقواها الكيّ ويليه الرّقية و الطيرة آخر درجاتها و الاعتماد عليها و الاتّكال إليها غاية التعمّق في ملاحظة الأسباب، و أمّا الدّرجة المتوسّطة وهي المظنونة كالمداواة بالأسباب الظاهرة عند الأطبّاء ففعله ليس مناقضاً للتوكّل بخلاف الموهوم وتركه ليس محظوراً بخلاف المقطوع به بل قد يكون أفضل

من فعله في بعض الأحوال و في حقّ بعض الأشخاص فهي على درجة بين الدّرجتين و يدلّ على أنّ التداوي غير مناقض للتوكّل فعل رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم و قوله وأمره به أمّا قوله فقد قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « ما من داء إلّا وله دواء عرفه من عرفه وجهله من جهله إلّا السام »[١] يعني الموت ، و قال : «تداووا عباد الله فإنّ الله خلق الداء و الدّواء » [٢] وسئل عن الدّواء والرّقي هل تردّ من قدر الله تعالى فقال : «هي من قدر الله تعالى» [٣] و في الخبر المشهور «ما مررت بملأ من الملائكة إلّا قالوا مر أمّتك بالحجامة » [٤] و في الحديث أنّه أمر بها و قال : « احتجموا لسبع عشرة و تسع عشرة وإحدى و عشرين لا يتبيّغ بكم الدّم فيقتلكم » [٥] فذكر أنّ تبيّغ الدّم سبب الموت و أنّه قاتل بإذن الله و بيّن أنّ إخراج الدّم خلاص منه إذ لا فرق حينئذ بين إخراج العقرب من تحت الثياب و بين إخراج الدّم المهلك من الإهاب وإلى إخراج الحيّة من البيت ، و ليس من شرط التوكّل ترك ذلك بل هو كصبّ الماء على النار لإطفائه ودفع ضررها عند وقوعها في البيت ، و ليس من التوكّل الخروج عن سنّة الوكيل أصلاً ، و في خبر مقطوع « من احتجم يوم الثلثاء لسبع عشرة من الشهر كان له دواء من داء سنة » [٦] .

---

(١) أخرجه أحمد ج ١ ص ٣٧٧ و ٤١٣ دون قوله « الا السام » و رواه البزار بتمامه والطبرانى فى الصغير من حديث أبى سعيد الخدرى كمافى مجمع الزوائد ج ٥ ص ٨٤ .

(٢) أخرجه الترمذى ج ٨ ص ١٩٢ وابن ماجه تحت رقم ٣٤٣٦ بنحوه .

(٣) أخرجه الترمذى ج ٨ ص ٢٢٤ من حديث أبى حزامة عن أبيه .

(٤) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٣٤٧٩ من حديث أنس .

(٥) راجع مجمع الزوائد ج ٥ ص ٩٣ قله عن البزار فى مسنده بتمامه . وأخرجه الطيالسى تحت رقم ٢٦٦٦ من حديث عكرمة عن ابن عباس هكذا « خير ما تحتجمون فيه سبع عشرة و تسع عشرة واحدى و عشرين » و أخرجه أحمد هكذا ج ١ ص ٣٥٤ .

(٦) رواه الطبرانى مسنداً وفيه زيد بن أبى الحوارى وهوضعيف وقد وثقه الدارقطنى وغيره كما فى مجمع الزوائد ج ٥ ص ٩٣ .

وأما أمره فقد أمر صلى الله عليه وآله غير واحد من الصحابة بالتداوي و الحمية [١]. وقطع لسعد بن معاذ عرقاً أي فصده [٢] و كوى سعدبن زرارة [٣]، وقال لعلي عليه السلام وكان رمد العين: لاتأكل من هذا يعنى الرطب و كل من هذا فإنه أوفق لك يعنى سلقاً قد طبخ بدقيق أو شعير [٤] و قال لصهيب و قد رآه يأكل التمر و هو رمدالعين الواحدة: أتأكل تمراً وأنت رمد؟ فقال إنما آكل بالجانب الآخر فتبسم صلى الله عليه وآله» [٥].

وأما فعله فقد روي في حديث من طريق أهل البيت أنه كان يكتحل كل ليلة ويحتجم كل شهر ويشرب الدواء كل سنة [٦] قيل السناء المكي، وتداوى عليه السلام غير مرة من العقرب وغيرها [٧] و روي أنه «كان إذا نزل عليه الوحي تصدع رأسه فكان يغلفه بالحناء» [٨] و في خبر آخر أنه «كان إذا خرجت به قرحة جعل عليها حناء» [٩] و قد جعل على قرحة خرجت به تراباً [١٠] و ما روي في تداويه و أمره

(١) أخرج الترمذي من حديث اسامة بن شريك قال قالت الاعراب: يا رسول الله ألا نتداوى قال: نعم يا عبادالله تداووا - الخبر - » و راجع سنن ابن ماجه كتاب الطب باب الحمية.

(٢) أخرجه مسلم، و رواه البغوى فى المصابيح ج ٢ ص ١٣١.

(٣) رواه البغوى فى المصابيح ج ٢ ص ١٣٢.

(٤) أخرجه الترمذى ج ٨ ص ١٩٠ من حديث ام المنذر، و قال: حسن غريب.

(٥) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٣٤٤٣.

(٦) قال العراقى: أخرجه ابن‌عدى من حديث عائشة بسندفيه سيف بن محمد كذبه أحمد و يحيى بن معين.

(٧) قال العراقى: روى الطبرانى باسناد حسن من حديث جبلة بن الارزق « أن رسول الله لدغته عقرب فغشى عليه فرقاه الناس - الحديث » وله فى الاوسط من رواية سعيد بن ميسرة وهو ضعيف عن أنس «أن النبى صلى الله عليه وآله كان اذا اشتكى تقمح كفاً من شونيز و يشرب عليه ماء و عسلا » و لابى يعلى و الطبرانى فى الكبير من حديث عبدالله بن جعفر «أن النبى صلى‌الله عليه وآله احتجم بعد ماسم».

(٨) رواه البزار كما فى مجمع الزوائد ج ٥ ص ٩٥.

(٩) رواه ابن ماجه تحت‌رقم ٣٥٠٢، والترمذى ج ٨ ص ٢١١.

(١٠) رواه البخارى ج ٧ ص ١٧٢، و مسلم ج ٧ ص ١٧.

بذلك كثير خارج عن الحصر و قد صنّف في ذلك كتاب وسمّي طبّ النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم .

وذكر بعض العلماء في الإسرائيليّات أنّ موسى عليه السلام اعتلّ بعلّة فدخل عليه بنو إسرائيل فعرفوا علّته فقالوا له : لو تداويت بكذا لبرأت فقال : لا أتداوي حتّى يعافيني من غير دواء ، فطالت علّته فقالوا له : إنّ دواء هذه العلّة معروف مجرّب وإنّا نتداوي به فنبرأ ، فقال : لا أتداوي فدامت علّته فأوحى الله إليه وعزّتي و جلالي لا أبرأتك حتّى تتداوي بما ذكروه لك ، فقال لهم : داووني بما ذكرتم فداووه فبرأ ، فأوجس في نفسه من ذلك فأوحى الله إليه أردت أن تبطل حكمتي بتوكّلك عليّ فمن أودع العقاقير منافع الأشياء غيري ؟ .

و يروى في آخر أنّ نبيّاً من الأنبياء شكا علّة يجدها فأوحى الله إليه كل البيض [1]. وشكا نبيّ آخر الضعف فأوحى الله إليه كل اللّحم باللّبن فإنّ فيهما القوّة [2] قيل : هو الضعف عن الجماع .

و قد روي أنّ قوماً شكوا إلى نبيّهم قبح أولادهم فأوحى الله تعالى إليه مرهم أن يطعموا نساءهم الحبالى السفرجل فإنّه يحسّن الولد . ويفعل ذلك في الشهر الثالث والرّابع إذ فيه يصوّر الله تعالى الولد وقد كانوا يطعمون الحبالى السفرجل والنفساء الرطب ، فبذا يتبيّن أنّ مسبّب الأسباب أجرى سنّته بربط المسبّبات بالأسباب إظهاراً للحكمة و الأدوية أسباب مسخّرة لحكمة الله تعالى كسائر الأسباب ، فكما أنّ الخبز دواء الجوع و الماء دواء العطش فالسكنجبين دواء الصفراء و السقمونيا دواء الإسهال لا يفارقه إلّا في أمرين أحدها أنّ معالجة الجوع والعطش بالماء والخبز جليّ واضح يدركه كافّة الناس ومعالجة الصفراء بالسكنجبين يدركه بعض الخواصّ فمن أدركه بالتجربة التحق في حقّه بالأوّل . والثاني أنّ الدّواء يسهّل والسكنجبين يسكن الصفراء بشروط اُخر في الباطن وأسباب في المزاج ربّما يتعذّر الوقوف على جميعها و ربّما يفوت بعض الشروط فيتقاعد الدّواء عن الإسهال ، وأمّا زوال العطش فلا يستدعي سوى الماء شروطاً كثيرة وقد يتّفق من العوارض ما يوجب دوام العطش

(١) و (٢) الكافي ج ٦ ص ٣٢٥ و ٣١٦ .

مع كثرة شرب الماء و لكنّه نادر واختلاف الأسباب أبداً ينحصر في هذين الفنّين و إلّا فالمسبّب يتلوا السبب لامحالة مهما تمّت شروط السبب ، و كلّ ذلك بتدبير مسبّب الأسباب و تسخيره وترتيبه بحكم حكمته و كمال قدرته ، فلايضرّ المتوكّل استعماله مع النظر إلى مسبّب الأسباب دون الطبيب و الدّواء ، و قد روي عن موسى عليه السلام أنّه قال : يا ربّ ممّن الدّاء و الشفاء فقال تعالى : منّي قال : فما يصنع الأطبّاء ؟ قال : يأكلون أرزاقهم ويطيبون نفوس عبادي حتّى يأتي شفائي أو قبضي ، فإذن معنى التوكّل مع التداوي التوكّل بالعلم والحال كما سبق في فنون الأعمال الدّافعة للضرر و الجالبة للنفع فأمّا ترك التداوي رأساً فليس شرطاً فيه .

فإن قلت : فالكيّ أيضاً من الأسباب الظاهرة للنفع ؟ فأقول: ليس كذلك إذ الأسباب الظاهرة مثل الفصد و الحجامة و شرب المسهل وسقي المبردات للمحرور وأمّا الكيّ فلو كان مثلها في الظهور لما خلت البلاد الكثيرة عنه ، و قلّما يعتاد الكيّ في أكثر البلاد و إنّما ذلك عادة بعض الأتراك و الأعراب فهي من الأسباب الموهومة كالرقي إلّا أنّه تتميّز عنها بأمر وهو إحراق بالنار في الحال مع الاستغناء عنه فإنّه ما من وجع يعالج بالكيّ إلّا وله دواء ينوب عنه ليس فيه إحراق فالإحراق بالنار جرح مؤلم مخرب للبنية محذور السراية مع الاستغناء عنه ، بخلاف الفصد والحجامة فإنّ سرايتهما بعيدة ولا يسدّ مسدّهما غيرهما و لذلك نهى صلّى الله عليه وآله عن الكيّ دون الرّقي[1] وكلّ واحد منهما بعيد عن التوكّل و روي « أنّ عمران بن الحصين اعتلّ فأشاروا إليه بالكيّ فامتنع فلم يزالوا به وعزم عليه الأمر حتّى اكتوى وكان يقول: كنت أرى نوراً و أسمع صوتاً وتسلّم عليّ الملائكة فلمّا اكتويت انقطع ذلك عنّي و كان يقول : اكتوينا كيّات فو الله ما أفلحن ولاأنجحن ، ثمّ تاب من ذلك و أناب الله تعالى إليه ما كان يجد من أمر الملائكة ، وقال لمطرف بن عبد الله : ألم تر إلى

(١) راجع سنن الترمذي ج ٨ ص ٢٠٦ ، و سنن ابن ماجه تحت رقم ٣٤٩١ . وفي الصحيحين في كتاب الطب من حديث عائشة رخص رسول الله صلى الله عليه و آله في الرقية من كل ذي حمة .

الكرامة الّتي كان أكرمني الله بها قد ردّها عليّ بعد أن كان قد أخبره بفقدها. فإذن الكيّ و ما يجري مجراه هو الّذي لا يليق بالمتوكّل لأنّه يحتاج في استنباطه إلى تدبير ثمّ هو موهوم فيدلّ ذلك على شدّة ملاحظة الأسباب و على التعمّق فيها.

أقول: ثمّ شرع أبو حامد في بيان أنّ ترك التداوي قد يحمد في بعض الأحوال و يدلّ على قوّة التوكّل ونقل عن جماعة من الأكابر أنّهم كانوا لا يتداوون أمراضهم كأبي الدّرداء فإنّه قيل له في مرضه: ما تشتكي؟ قال: ذنوبي، قيل: فما تشتهي قال: مغفرة ربّي قالوا: ألا ندعولك طبيباً قال: الطبيب أمرضني، قال: و ربّما يظنّ أنّ ذلك نقصان لأنّه لو كان كمالاً لتركه رسول الله صلى الله عليه وآله إذ لا يكون حال غيره في التوكّل أكمل من حاله، ثمّ أجاب عنه بأنّ لترك التداوي أسباباً ثمّ ذكر لذلك أسباباً و عللاً عليلة غير موجّهة إلّا ما يرجع إلى ماسبق ذكره من كون الدّواء موهوم النفع جارياً مجرى الكيّ والرّقية فيتركه المتوكّلون ثمّ شرع في بيان الردّ على من قال: إنّ ترك التداوي أفضل على كلّ حال ثمّ ذكر حكم التوكّل في إظهار المرض و كتمانه وختم به الكتاب وأطنب في ذلك كلّه بما لا طائل تحته فنحن نطوي ذكر ذلك كلّه لقلّة جدواه و بعد معناه عن طريقة أهل البيت عليهم السلام إلّا كلاماً واحداً ذكره في أثناء ردّه على من فضل ترك التداوي فإنّا نورده بألفاظه ونختم به الكتاب إن شاء الله تعالى.

قال: فإن قلت: فلم نهى عن الخروج من البلد الّذي فيه الوباء و إنّ سبب الوباء في الطبّ الهواء و أظهر طرق التداوي الفرار من المضرّ والهواء هو المضرّ فلم لم يرخّص فيه.

فاعلم أنّه لاخلاف في أنّ الفرار من المضرّ غير منهيّ عنه إذ الحجامة فرار من المضرّ وترك التوكّل في هذا مباح فهذا لايدلّ على المقصود ولكنّ الّذي ينقدح فيه والعلم عند الله إنّ الهواء لايضرّ من حيث تلاقي ظاهر البدن من حيث دوام الاستنشاق له فإنّه إذا كانت فيه عفونة ووصل إلى الكبد والقلب[1] وباطن الأحشاء أثّر فيها بطول

(١) في الاحياء الى الرية و القلب.

الاستنشاق فلا يظهر الوباء على الظاهر إلّا بعد طول التأثير في الباطن فالخروج من البلد لا يخلّص غالباً من الأثر الّذي استحكم من قبل ولكنّه يتوهّم الخلاص فيصير هذا من جنس الموهومات كالرّقي والطيرة وغيرهما فلو تجرّد هذا المعنى لكان مناقضاً للتوكّل ولم يكن منهيّاً عنه ولكن صار منهيّاً عنه لأنّه انضاف إليه أمر آخر وهو أنّه لو رخّص للأصحّاء في الخروج لما بقي في البلد إلّا المرضى الّذين أقعدهم المرض و الطاعون و انكسرت قلوبهم و فقدوا المتعهّدين، ولم يبق في البلد من يسقيهم الماء و يطعمهم الطعام، و هم يعجزون عن مباشرة ذلك بأنفسهم فيكون ذلك سعياً في إهلاكهم تحقيقاً وخلاصهم منتظر كما أنّ خلاص الأصحّاء أيضاً منتظر فلو أقاموا لم تكن الإقامة قاطعاً بالموت، ولو خرجوا لم يكن الخروج قاطعاً بالخلاص و هو قاطع في إهلاك الباقين، والمسلمون كالبنيان يشدّ بعضهم بعضاً، والمؤمنون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى إلى سائر أعضائه فهذا هو الّذي ينقدح عندنا في تعليل النهي وينعكس هذا فيمن لم يقدم على البلد فإنّه لم يؤثّر الهواء في باطنهم ولا بأهل البلد حاجة إليهم نعم لو لم يبق في البلد إلّا مطعونون وافتقروا إلى المتعهّدين فقدم عليهم قومٌ، فربّما كان ينقدح استحباب الدّخول ههنا لأجل الإعانة ولا ينهى عن الدّخول لأنّه تعرّض لضرر موهوم على رجاء دفع ضرر عن بقيّة المسلمين ولهذا شبه الفرار من الطاعون في بعض الأخبار(١) بالفرار من الزّحف لأنّ فيه كسراً لقلوب بقيّة المسلمين و يصير سعياً في إهلاكهم، فهذه أمور دقيقة فمن لا يلاحظها و ينظر إلى ظواهر الأخبار و الآثار يتناقض عنده أكثر ما يسمعه و غلط الزّهّاد و العبّاد في مثل هذا يكثر وإنّما شرف العلم وفضيلته لأجل ذلك.

تمّ كتاب التوحيد و التوكّل من المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء و يتلوه كتاب المحبّة و الشوق و الرّضا و الأنس إن شاء الله تعالى.

و فرغ منه مؤلّفه محسن بن مرتضى جعله الله من الموحّدين المتوكّلين والحمد لله ربّ العالمين و الصلاة والسلام على محمّد وآله الطاهرين.

(١) تشبيه الفرار من الطاعون من الزحف أخرجه أحمد في مسنده ج ٦ ص ١٤٥ من حديث عائشة.

فهرست ما فى هذا المجلد

الصفحة	الموضوع
	كتاب التوبة
٥	الرُّكن الأوَّل في نفس التوبة
٥	باب حقيقة التوبة و حدِّها
٦	وجوب التوبة وفضلها
١٣	بيان أنَّ وجوب التوبة على الفور
١٦	وجوب التوبة عامّ
٢٣	بيان أنَّ التوبة إذا استجمعت شرائطها فهي مقبولة لا محالة
٢٨	الركن الثاني فيما عنه التوبة
٢٨	بيان اقسام الذنوب بالإضافة إلى صفات العبد
٤٢	بيان كيفيّة توزع الدرجات والدركات
٥٨	بيان ما تعظم به الصغائر من الذُّنوب
٦٢	الرُّكن الثالث في تمام التوبة وشروطها ودوامه إلى آخر العمر
٧٩	بيان اقسام العباد في دوام التوبة
٨٤	بيان ماينبغي أن يبادر إليه التائب
٩٠	الرُّكن الرابع في دواء التوبة وطريق العلاج لحلّ عقدة الاصرار
	كتاب الصبر والشكر
١٠٥	الشطر الأوَّل في الصبر
١٠٩	بيان حقيقة الصبر ومعناه
١١٥	بيان كون الصبر نصف الإيمان
١١٦	بيان الأسامي الّتي تتجدَّد للصبر بالإضافة إلى ماعنه الصبر

الصفحة	الموضوع
١١٨	بيان أقسام الصبر بحسب اختلاف القوّة والضعف
١٢١	بيان مظانّ الحاجة إلى الصبر
١٣٢	بيان دواء الصبر و ما يستعان به عليه
١٤٠	الشطر الثاني من الكتاب في الشكر
١٤١	بيان فضيلة الشكر
١٤٤	بيان حدّ الشكر وحقيقته
١٥١	بيان كشف الغطاء عن الشكر في حقّ الله سبحانه
١٦٠	بيان تمييز ما يحبّه الله تعالى عمّا يكرهه
١٧٥	الركن الثاني من أركان الشكر
١٧٥	بيان حقيقة النعمة وأقسامها
١٩٢	بيان وجه الانموذج في كثرة نعم الله
٢١٧	بيان السبب الصارف للخلق عن الشكر
٢٢٤	بيان وجه اجتماع الصبر والشكر على شيء واحد
٢٣٥	بيان فضل النعمة على البلاء
٢٣٧	بيان الأفضل من الصبر والشكر
	كتاب الخوف والرجاء
٢٤٩	بيان حقيقة الرّجاء
٢٥٣	بيان فضيلة الرجاء والترغيب فيه
٢٥٦	بيان دواء الرجاء والسبب الّذي يحصل منه حال الرجاء
٢٦٩	الشطر الثاني من الكتاب في الخوف
٢٦٩	بيان حقيقة الخوف
٢٧١	بيان درجات الخوف واختلافه

الصفحة	الموضوع
٢٧٣	بيان أقسام الخوف بالإضافة إلى ما يخاف منه
٢٧٥	بيان فضيلة الخوف والترغيب فيه
٢٨٢	بيان أنّ الأفضل هوغلبة الخوف أو غلبة الرجاء أو اعتدالهما
٢٨٦	بيان دواء الّذي به يستجلب حال الخوف
٢٩٣	بيان معنى سوء الخاتمة
٣٠٥	بيان أحوال الأنبياء والأولياء و الملائكة في الخوف
	كتاب الفقر والزهد
٣١٤	بيان حقيقة الفقر واختلاف أحوال الفقير
٣١٩	بيان فضيلة الفقر مطلقاً
٣٢٤	بيان فضيلة خصوص الفقراء من الراضين و القانعين والصادقين
٣٢٧	بيان فضيلة الفقر على الغنى
٣٣٠	بيان آداب الفقير فيفقره
٣٣٢	بيان آداب الفقير فيقبول العطاء إذا جاءه بغير سؤال
٣٣٦	بيان تحريم السؤال منغير ضرورة
٣٤٢	بيان مقدار الغنى المحرّم للسؤال
٣٤٥	الشطر الثاني من الكتاب في الزّهد
٣٤٥	بيان حقيقة الزّهد
٣٥٠	بيان فضيلة الزّهد
٣٥٧	بيان درجات الزّهد وأقسامه
٣٦٤	بيان تفصيل الزّهد فيما هو من ضرورات الحياة
٣٦٩	بيان علامات الزّهد
٣٧٠	كلام الصادق عليه السلام في الزهد

الصفحة	الموضوع
	كتاب التوحيد والتوكل

٣٧٨	بيان فضيلة التوكّل
٣٨١	بيان حقيقة التوحيد الّذي هو أصل التوكّل
٤٠٥	الشطر الثاني من الكتاب في أحوال التوكّل وأعماله
٤٠٥	بيان حال التوكّل
٤١٣	بيان أعمال المتوكّلين وفيه أربعة فنون
٤١٤	الفنّ الأوّل في جلب النافع
٤٢٣	الفنّ الثاني في التعرّض لأسباب الادّخار
٤٢٥	الفنّ الثالث في مباشرت الأسباب الدافعة للضرر المتعرّض للخوف
٤٢٩	الفنّ الرابع السعي في إزالة الضرر كمداواة المرض و غيرها

COLUMBIA UNIVERSITY
0026811391

THE LIBRARIES
COLUMBIA UNIVERSITY

GENERAL LIBRARY